

الدُّرُوسُ وَالْعِبَرُ  
فِي

غُرُوبَاتٍ وَسِرَايَا خَيْرِ الْبَشَرِ صَلَّيَ اللَّهُ  
مُسْرِعَةً سَامِلَةً لِأَهْلِهَا وَدُرُوسِ الْغُرُوبَاتِ وَالسَّرَايَا الْبَرَّةِ

# غُرُوبَاتُ الْحَيْلِيَّةِ

الجزء الأول

غُرُوبَاتُ مُحَمَّدٍ قَاسِمٍ

من علماء الأزهر الشريف

الوادي  
للثقافة والإعلام

دار الوقتاء

الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

## غزوة الحديبية (١)

فهرست أثناء النشر  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

قاسم ، غريب محمود  
الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر-صا الله عليه وسلم: موسوعة شاملة  
لاحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية / د. غريب محمود قاسم  
- ط 1 - القاهرة: الوادى للثقافة والاعلام، 2020م.  
452 ص، 24 سم.  
تدمك 20 90 677 977 978  
1- السيرة النبوية-عصر الجهاد في سبيل نشر الدعوة 2- غزوة الخديبية (1)  
أ- العنوان 239.4

تاريخ الإصدار: 1441هـ - 2020م  
حقوق الطبع: محفوظة  
الطبعة: الأولى  
رقم الإيداع: 2019/23267  
الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-677-90-20  
تخـذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من  
الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن  
أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة  
أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من  
الناشر.

**الوادي**  
للتقافة والإعلام

ص.ب (130) محمد هريـد، القاهرة 11518  
E-mail: darannashr@hotmail.com

# الدروس والعبر في

## غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

### غزوة الحديبية (١)

الأحد هلال ذي القعدة ٦هـ / ١٣ مارس (آذار) ٦٢٨م / ١٧ برمهاث ٣٤٤ قبطي

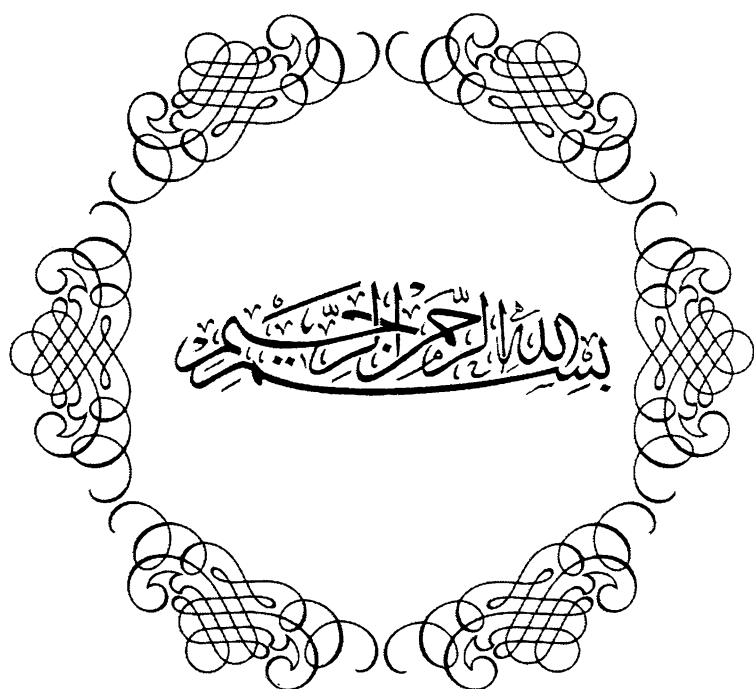
الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة)

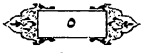


غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة غزو الحديبية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

### وبعد

فهذه هي المجموعة الرابعة من كتاب «الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ»، أتناول فيها «غزوة الحديبية».

ولقد كانت الحديبية فتحاً مبيناً كما سماها القرآن الكريم، وكما سيتضح تفصيلاً في تمهيد هذا الكتاب. وحقاً للحافظ ابن عبد البر أن يقول فيها: «ليس في غزوات النبي ﷺ ما يعدل بدرًا، أو يقرب منها، إلا غزوة الحديبية».

[نفثات صدر المكمّد وقرّة عين الأرمّد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد للسفاري ١/ ٢١٨ نجح الأرنؤوط].  
ففيها الكثير من الدروس والعبر التي يستفيد بها المسلم في حياته المعاصرة، ومهما كُتب فيها من مؤلفات ومقالات فلا تزال «الحديبية» تفيض بالدروس والعبر على مدار الأزمان.  
وقد حاولت جهدي جمع الكثير من هذه الدروس والعبر وتوزيعها على أقسامها المختلفة.  
أبواب هذه المجموعة: وقد اشتملت هذه المجموعة على باين، في مجلدين:

الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة).

الباب الثاني: المرحلة الثانية من غزوة الحديبية (صلح الحديبية).

منهج دراسة غزوة الحديبية: وقد سرتُ في دراسة هذه الغزوة الكبرى للرسول ﷺ «الحديبية» على المنهج الذي اتبعته في دراسة الغزوات الكبرى السابقة للنبي ﷺ، وقد بيّنته في مقدمة غزو بدر الكبرى.

والله أدعو أن أكون قد وفقت في عرض هذه الغزوة، واستعراض ما استخلصه علماؤنا الأجلاء من دروس وعظات وعبر حول هذه الغزوة الكبرى المباركة.

وإن كان من نقص أو عور فهو من قصوري العلمي، وأدعو الله أن يغفره لي، وأن يوفق إخواني المسلمين إلى أن يهدوا إليّ ما يرونه من جوانب استكمال هذا العمل المتواضع، فما هو إلا جهد المقل.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه الفقير إلى عفو ربه / أبو عمر

غريب محمود محمد قاسم

ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة

ليسانس أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر

ليسانس الحقوق - جامعة القاهرة

زاوية البقلي - الشهداء - المنوفية - ج.م.ع.

ت: ٠١٠٠٦٥٣٦١١٠ - ٠١١٤٠٨٤٧٤٧٨

MAKKA29167@Gmail.COM

النسخة الأولى في: الخميس ١٢ ربيع الأول ١٤٢٩هـ / ٢٠ من مارس (آذار) ٢٠٠٨م.

وكانت آخر مراجعة وتنقيح في: السبت ١٠ رمضان ١٤٣٩هـ / ٢٦ من مايو (أيار) ٢٠١٨م.

## تمهيد

### غزوة الحديبية وأهميتها

### في التاريخ الإسلامي والعالمي

يقول د/ الحكمي: «لقد استحققت هذه الغزوة أن تقرن بغزوة بدر في الفضيلة، لما ترتب عليها من عز وانتصار للإسلام وذل وانكسار للكفر والنفاق.

قال ابن عبد البر: ليس في غزوات الرسول ﷺ ما يعدل بدرًا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية، هذا هو الراجح عندنا، وأما متكلموا الأشاعرة فقدموا غزوة أحد في الفضيلة على الحديبية، فرعموا أن غزوة أحد هي التي تلي غزوة بدر في الفضيلة، والأول أولى، والله أعلم. [نقله السفاريني: ثلاثيات المسند ١/ ٢٧٨].

ويكفيها فضلاً أنها كانت فتحاً ميبئاً كما أخبر الله بذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١. فقد بينت الأحاديث أن الفتح المشار إليه هو غزوة الحديبية:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ٢ قَالَ: الْحُدَيْبِيَّةُ. [البخاري في التفسير (٤٨٣٤)].  
وَعَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. [البخاري في المغازي (٤١٥٠)].

وأخرجه ابن سعد من طريق أبي إسحاق عنه بلفظ: «أما نحن فنسمي الذي يسمون فتح مكة يوم الحديبية بيعة الرضوان». [الطبقات الكبرى ٢/ ١٠٥].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية». [تفسير ابن جرير ٢٦/ ٧٠].  
وأخرجه من طريق أبي عبيدة المسعودي عن الأعمش به بلفظ: «ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية». [تفسير ابن جرير ٢٦/ ٧٠].

سند هذا الحديث فيه تدليس الأعمش وأبي سفيان، لكنه منجبر بشاهده من الحديثين السابقين في الصحيح.

وَعَنْ عُرْوَةَ قَالَ: وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ رَاجِعًا، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذَا يَفْتَحُ، لَقَدْ صُدِدْنَا عَنِ الْبَيْتِ وَصَدَّ هَدْيُنَا، وَعَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِفَتْحٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَ الْكَلَامُ! هَذَا أَعْظَمُ الْفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوا كُمْ بِالرَّاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَيَسْأَلُوا كُمْ الْقَضِيَّةَ، وَيَرْغَبُونَ إِلَيْكُمْ فِي الْأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْكُمْ مَا كَرِهُوا وَقَدْ أَظْفَرَكُمْ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ،

وَرَدَّكُمْ سَالِينَ غَانِمِينَ مَا جُورِينَ، فَهَذَا أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، أَنْتَسِبُ يَوْمَ أُحُدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ؟ أَنْتَسِبُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ إِذْ جَاوَوْكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا؟».

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، هُوَ أَعْظَمُ الْفَتْوحِ، وَاللَّهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، وَلَا نَتَّ أَعْلَمُ بِاللَّهِ ﷻ، وَبِالْأُمُورِ مِنَّا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ سُورَةَ الْفَتْحِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ۖ، فَبَسَّرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهٖ ﷺ بِمَغْفِرَتِهِ، وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ، وَفِي طَاعَةٍ مَنِ اطَّاعَ، وَنِفَاقٍ مَنِ نَافَقَ».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠-١٦٢].

هذا الحديث مرسل، لكنه يرتفع إلى درجه الحسن لغيره لتعدد طرقه واختلاف مخرجه، لا سيما ولبعضه شاهد من الأحاديث السابقة». [مرويات الحديبية للحكمي ٤٩٧-٥٠٠].

ويقول د/ العوا: «الحديبية كلمة تدل على معلّم من معالم السيرة النبوية، معلّم يتضمن عددًا من أدلة صدق نبوة محمد ﷺ».

ففي الحديبية سفر وإقامة، وحرب وسلم، وفيها تربية وتعليم. وفيها تأكيد لمكانة المرأة في الأمة والأسرة، يخالف ما عليه المترمتون - في شأن المرأة - من زعمهم اتباع رسول الله ﷺ.

وفيها تشريع عبادة وأداؤها، وفيها تعليم سياسي من النبي ﷺ لأمته. وفيها مواقف للمنافقين يفضحها الوحي فيبينها الرسول ﷺ لأصحابه، وفيها قرآن ينزل في أثنائها، وبعدها، يتحدث عما سبق وعما سيلحقها، ويبشر المؤمنين بالنصر، والفتح بعد الفتح. لذلك كان العيش مع الحديبية نموذجًا للعيش في ظلال السيرة كلها، الذي هو كالعيش مع رسول الله ﷺ في غدوه ورواحه، وسائر أحواله.

والسيرة على وجه الإجمال محفورة في ذاكرة الأمة المسلمة، لكنها تقتضي - في كل جيل - تطوفاً تفصيلياً بأهم معالمها يوقف المتابع للشأن النبوي - بل للشأن الإسلامي - على بعض دقائق الأمور ومهاتها، وينبه المؤمنين إلى كفيات من التعامل الراقي مع الأشخاص والأحداث قلّ من يهتم من الناس بإحيائها والدعوة إليها.

وفي هذا العود إلى بعض تفاصيل السيرة، من وقت إلى آخر، تذكير ضروري بما اعتري طريق الدعوة الإسلامية في العهد النبوي من عقبات، وبما أنعم الله به على رسوله والمؤمنين من انتصارات، يطمئن به قلب المؤمن في المحنة والمنحة، والاختبار والنعمة، والعسر واليسر، والرخاء والشدة.

ولو لم يكن للقراءة التفصيلية للسيرة غير هذه الفائدة لكانت كافية في بعث الهممة إلى تجديد النظر في وقائع السيرة، وتجديد الكتابة عنها، في كل عصر من عصور الإسلام، فكيف والكتابة في السيرة، والإحاطة بها، من أهم السبل التي تعين المسلم على التأسي برسول الله ﷺ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب]، وتجعله يعقل فضل طاعة رسول الله ﷺ المأمور بها في مثل قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن]، وقوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران].

وفي الحديبية من ذلك كله كثير سيجده القارئ في ثنايا فصول هذا الكتاب. ويكفي القارئ أن يقف على أن رب العزة - تبارك اسمه - خاطب نبيه ﷺ بالوحي في الحديبية، أو بسببها، ثلاث مرات:

كانت أولها هي نزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِمَنِ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة].

وكانت ثانيها عندما نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء].

وهو ما سيأتي تفصيله بعنوان (التيسير على الناس).

وكانت ثالثها نزول سورة كاملة، هي سورة الفتح المكونة من تسع وعشرين آية، كلها في شأن الحديبية، وإنما أردت بالتنبية عليها هنا إبراز حقيقة بالغة الأهمية، هي أن أمر الحديبية كان وحياً من أوله إلى آخره<sup>(١)</sup>؛ لئلا يغتر أحد بقول القائل من الحكماء، أو من الذين يسوغون لهم أعمالهم بالحق وبالباطل، إنه يجتهد، في شأن ما، كما اجتهد رسول الله ﷺ في شأن الحديبية.

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية - د/ محمد سليم العوا - ط ٨ دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٦م، ص ١٨٨.

وبعض الذين يهرفون بما لا يعرفون يقولون: إن الدولة الإسلامية العصرية، وهي في حالها التي هي فيه، من الضعف الداخلي والهوان الخارجي، يجوز لها أن تقبل الدِّئَة وتتنازل عن بعض حقوق شعوبها، وهذا كلام غير صحيح وغير جائز، وليس أشد منه بطلاناً إلا كلام بعض المنسوين إلى الفقه عن جواز إبرام معاهدات الصلح في حالات الضعف العسكري والسياسي قياساً - فيما زعموا - على صنيع النبي ﷺ في الحديبية.

أقول: إن هذه المزاعم كلها فاسدة؛ لأن أمر الحديبية كان وحياً كله كما أسلفت، ولأن المسلمين لم يكن بهم ضعف ولا هوان بل كانوا في حال قوة وعزة، حتى إنهم أسروا من المشركين مائة وسبعة وسبعين رجلاً، كما سيراه القارئ في موضعه من هذا الكتاب، بل إن رسول الله ﷺ هو الذي قال لبديل بن ورقاء: «فَإِنْ شَأُؤُوا (أي أهل مكة) مَا دَرْتُهُمْ مُدَّةً يَأْمَنُونَ فِيهَا»، وهذا قول من المعصوم ﷺ يدل على أن الضعف والخوف من الحرب كان من شأن قريش لا من شأن المسلمين». [الحديبية للعوا ٩١-١٤].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «انتشر الإسلام في الصحراء العربية، تَبَعَهُ من تبعه، وعلم بأمره الكثيرون، وكان من الأعراب مؤمنون، كما كان منهم مسلمون، أعلنوا إسلامهم، وإن لم تؤمن قلوبهم، وكان منهم مَنْ استمر على شركه، ولكن صار في المسلمين قوة، ولهم هبة تجعل الذين بقوا على شركهم ينظرون إلى الدعوة للتوحيد، والإيمان بمحمد ﷺ على أنها ذات مكانة جعلتهم يفكرون ويقدرّون، ولا يكتفون بالرد بادي الرأي، والإنكار المطلق من غير تفكير ولا تدبير.

والقول المجمل أن الرب دخل قلوبهم من ناحية عبادة الأوثان، وهم يعلمون الله تعالى بذاته وصفاته، ولا شك أن ريبهم في أوثانهم هو الطريق لأن يدخلوا في دين الفطرة مؤمنين آمنين، صارت الدعوة الإسلامية تملأ الآفاق، ولم يعد أحد من الأعراب أو مَنْ لف لفهم يفكر في غزو المدينة، فهي محروسة بحراسة الله تعالى، مصنوعة بكلاءة الله تعالى.

فإذا كان النبي ﷺ قد آمن غزو الأعراب، أو أن يدخلوا في أحلاف مع أعدائه، فقد آن له أن يتجه إلى قريش الذين يناصبونه العداوة، لا ليقاتلهم، فهو لا يقاتل إلا دفاعاً، كما رأينا في سراياه وغزواته السابقة. ولكن قريشاً تعاديه، والحرم المكي الشريف تحت سلطانها، فلا بد أن يفرغ من عداوتها؛ تمكيناً للدعوة، وتعبيداً للسبيل إلى الحج، الذي هو نسك من نسك الإسلام؛ ولأنه ﷺ يريد التفرغ لليهود الذين تجمعوا في خيبر، وهم وحدهم الذين يريدون الانقضاء على المدينة، زاعمين أنها ديارهم أخرجوهم منها، وقتل من قتل منهم.

فكان لا بد أن يعرف أمر قريش، وأن يعرف أهم يسهلون له أداء فريضة الحج، بقية ديانة إبراهيم عليه السلام في أرض العرب، أم أنهم يقفون في سبيله كما وقفوا دائماً، لا بد أن يقرن النية بالعمل، فذهب ليحج،



وكانت موقعة الحديبية التي سهاها الله تعالى فتحاً مبيناً؛ لأنها أزالَت الحواجز النفسية التي كانت تحاجز بين النبي ﷺ وبين قريش، والتقى بهم الأمين الحبيب ﷺ الذي عرفوه في صباه، وشبابه، وزالت المحاجزات بسبب الخلاف والنفور والحرب». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٤٢-٨٤٣].

ويقول د/ العودة: «حدثٌ عظيم من أحداث السيرة النبوية نتوقف عنده، وكلُّ السيرة النبوية تستحق الوقفة والتأمل، حادثةٌ يحتاج كل مسلم أن يقرأها، ويحتاج العلماء والقادة والدعاة وطلبة العلم والمفكرون أن يتوقفوا عندها ملياً يستلهمون عبرها، ويعون فقهها ودلالاتها.

إننا نحتاج إلى فقه السيرة في كل حين، ولكن حاجتنا إليها في وقت الأزمات والشدائد أشد، ونحتاج إلى (فقه الحديبية) في كل حين، ولكن حاجتنا إليها أشد في زمان تفوقِ الخصوم، وضعف المسلمين، وضرورة الخروج من المأزق بسلام، وتحقيق أكبر قدر من المكاسب بأدنى الخسائر بسياسة ووعي، وتحويل الهزيمة إلى نصر، والدنية في الظاهر إلى فتح مبين على صعيد الواقع».

الحديث عن صلح الحديبية، وإن شئت فقل (فتح الحديبية)، وإن شئت فقل (الفتح المبين)، أو (فتح الفتوح) يفتح لنا نوافذ في (فقه التعامل مع الآخرين) ويرشدنا إلى المبادرات الواعية والتخطيط العميق والتحوُّط للسلامة، والأخذ بالأسباب المشروعة، وإلى اتهام أنفسنا ومراجعة مواقفنا على ضوء هدي المرسلين.

صلح الحديبية (درس في الأخلاق النبوية) و(فضلُ حكمٍ في العلاقات الدولية)، و(فصل في تحقيق وتطبيقات الولاء والبراء)، و(نموذج رفيع في تحقيق المصالح العليا، وإن صاحبها شيءٌ من التنازلات الدنيا).

والحديث عن (فقه الحديبية) لا يعني ترسيخ مفهوم (التنازل) عن مسلمَّات الدين، ولكنه درسٌ عملي في (فقه التنازلات أو الموازنات) متى وكيف تكون؟ ولا يعني قبول (الدنية في الدين) بل هو اختيارٌ واعٍ للسياسة الشرعية التي تحقق أعلى المكاسب للإسلام والمسلمين.

(فقه الحديبية) يحسم جدلاً بين نظرتين (جافية، وغالية) ويرسم منهجاً (وسطاً) لتحقيق (مفهوم الولاء والبراء) بين طرفي نقيض لا يُقيم أحدهما وزناً لأحكام الشريعة ومدلولات العقيدة في هذا الأمر المهم من الدين، ويُغالي طرفٌ آخر فيعتبر كل تصرفٍ وكل تعاملٍ مع الكفار هادماً لأسس الولاء نابذاً لمفهوم البراء.

ما أحوجنا إلى التوسط والاعتدال (وهي سمة أمتنا، وشعار ديننا) وإذا اختلفنا كان هديُّ رسول الله محمد ﷺ حكماً بيننا.

اللهم هبني للمسلمين من أمرهم رشدًا، وانصرهم على عدوك وعدوهم، وأقر عيونهم بنصر الإسلام، وعزة المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد». [فقه الحديبية للعودة ١، ١٢].

ويقول أ/باشميل: «إن ما حدث قبل وحتى عقد هذا الصلح التاريخي الخالد لم يكن معركة حربية بالمعنى التقليدي المتعارف عليه في القاموس العسكري.

فلم تنشب هناك معارك دامية في بطاح الحديبية بين المسلمين وقريش، كما نشبت في بطاح بدر، وشعاب أحد ومشارف الخندق، ووديان خيبر ومرتفعاتها، والتي نتجت عنها تلك الانتصارات لصالح الإسلام والمسلمين.

ولكن نتائج (صلح الحديبية) الإيجابية لم تكن أقل من نتائج أية معركة من تلك المعارك الظافرة الدامية الفاصلة.

بل إن نجاح الرسول الأعظم ﷺ في عقد صلح الحديبية مع قريش حقق للدعوة الإسلامية من المكاسب - على كل المستويات السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية - ما لم تحققه له أية معركة خاضها النبي محمد ﷺ وأصحابه الكرام بالسيف والرمح والنبل.

شهد بذلك كبار الصحابة الذين كانوا قد عارضوا النبي ﷺ، أشد المعارضة في عقد هذا الصلح كما سيراه القارئ مفصلاً في صلب هذا الكتاب عند التعرض بالتحليل لدروس ومكاسب هذا الصلح التاريخي.

بل لقد شهد القرآن الكريم بعظيم هذه المكاسب، وخُلد ذكرها في آيات تتلى إلى يوم القيامة، حيث وصف صلح الحديبية بأنه (الفتح المبين).

وهو أمر لم يعطه القرآن الكريم وصفاً لنتائج أية معركة أو حادثة في العهد النبوي سوى (صلح الحديبية).

إذن، من هنا يمكن القول: أن صلح الحديبية هو حصلة كسب لأعظم معركة دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي من حيث النتائج الإيجابية التي بها توطدت دعائم الإسلام وبفضلها تصدعت قواعد الوثنية، ثم انهارت واضمحلت من الوجود.

إن النبي الأعظم ﷺ لم يتوصل إلى عقد صلح الحديبية إلا بعد أن خاض سلسلة من الصراعات الشاقة والمعارك المضنية على الصعيدين الداخلي - محيط أصحابه المعارضين للصلح أشد المعارضة - والصعيد الخارجي - محيط قومه وأهله وعشيرته من مشركي قريش الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل الاستفزاز والتحدي إلا واتبعوها لإثارة النبي ﷺ وأصحابه.

ففي إذن معارك شاقة خاضها النبي ﷺ - منذ خروجه من المدينة حتى إبرام هذا الصلح - على جبهتين:

### في محيط أصحابه خاض معارك طرفاها:

(١) العقل الراجح، والأفق الواسع، والنظرة البعيدة، والأناة والحلم والصبر الذي لا يعرف الحدود.  
(٢) العاطفة الفؤارة العابرة التي لا يفكر المستجيب لها في العواقب، محمد ﷺ في جانب العقل والصبر والحلم والأناة، يصبر على التزام جانب التروّي والصبر وعدم الإجابة على استفزاز أهله وعشيرته باستفزاز مثله، ويعمل جاهداً على نبذ فكرة الحرب والسعي لتحقيق السلام بين المسلمين وقريش.  
وعامة الأصحاب في جانب العاطفة الجياشة يعارضون الصلح أشد المعارضة، ويستعجلون الصدام الدامي مع قريش، مفضلين الاحتكام إلى السيف على طول الانتظار في الحديبية، وعلى القبول بصلح يرون قبول بعض شروطه مذلة للمسلمين ومساساً بكرامتهم.

### وفي محيط أهله وعشيرته المشركين خاض محمد ﷺ معارك خصماها:

(١) داعي الرغبة في صلة الرحم والحفاظ عليها وإعطائها حقها من الرعاية، والحرص على هداية الأهل والعشيرة ليخرجوا من ظلام الشرك إلى نور التوحيد، والعمل على حقن الدماء وصون الأرواح (أيًا كانت) من أن تزهق.  
(٢) داعي العنجهية الجاهلية وصلف الكبرياء الوثني المقيت والاستجابة الجانحة لدواعي الشر ونوازع البطر والطغيان.

محمد ﷺ في جانب الداعي الأول، يبلغ قومه وعشيرته رسمياً أنه لم يأت للحرب، ولا رغبة له فيها، وأنه إنما جاء معتمراً يزور الكعبة ثم يعود بأصحابه من حيث أتوا.  
وقريش تُقسم أغلظ الأيمان أنها ستصمد محمداً ﷺ وأصحابه عن البيت حتى وإن لم يأتوا إلا لزيارته، وتستنفر كافة قواتها، وقوات حلفائها (ثمانية آلاف مقاتل) وتعسكر بهم خارج مكة لتبر بقسمها الآثم هذا.  
محمد ﷺ يبعث بالوسيط تلو الآخر إلى قريش يدعوهم إلى السلام ويؤكد لهم عدم رغبته في الحرب، ويعرض عليهم إقامة سلم يأمن فيه المسلمون والقرشيون بعضهم بعضاً.  
وقريش إزاء هذه المساعي النبوية السلمية تشتط في طغيانها وبطرها فتبعث بعدة وحدات من فرسانها لتعرض طريق النبي ﷺ وأصحابه، وتسدها عليهم بنصال السيوف لتجرهم إلى حرب لم يخرجوا لها ولا رغبة لهم فيها.

محمد ﷺ - تجنباً للصدام الدامي مع أهله وعشيرته - يعدل عن سلوك الطريق الرئيس الذي يسده خالد بن الوليد بفرسانه المشركين، ويسلك طريقاً غير مطروق ليفضي - به إلى سهل الحديبية، فيعسكر

بأصحابه هناك خارج الحرم في انتظار فرصة يتحقق فيها سلام بينه وبين أهله وعشيرته، ولئلا يحدث بين أصحابه وبين مشركي مكة احتكاك يؤدي إلى حرب هي أكره ما تكون إلى نفسه.

وقريش إزاء كل هذا السمو الإنساني والنبيل الأخلاقي، تبعث بسفنهاها ليتسللوا في جناح الظلام إلى معسكرات المسلمين في الحديبية فيغيروا عليهم لاستفزازهم وتحدي مشاعرهم ليفقدوا صوابهم.

ومحمد ﷺ يطلق سراح سبعين من المشركين المتسللين المعتدين بعد أن ألقى عليهم الحرس النبوي القبض وهم يتسللون، فيعفو عنهم تكرمًا وصلة للرحم وتخفيفًا لحدة التوتر.

وقريش تريد تصعيد الأزمة وتحاول تفجيرها فتحتجز مبعوث النبي ﷺ الخاص في مكة (عثمان بن عفان ؓ وعشرة من الصحابة ؓ) دخلوا مكة بإذن من سادات قريش وفي جوارهم.

فيرداد التوتر في الحديبية بين أصحاب النبي ﷺ وترتفع نسبة الغليان في النفوس وتترايد الأصوات الداعية إلى تأديب قريش الباغية وجدع أنف كبريائها الوثني بحد السيف، والنبي الأعظم ﷺ حيال هذا وذاك يأمل في أن يحل السلام ويسود الوئام بين المعسكرين، ويعمل على تلطيف الجو وتخفيف حدة التوتر.

متاعب مضنية ومشاكل عويصة معقدة واجهها النبي الأعظم ﷺ، كان بعضها كاف لتحطيم الأعصاب وحمل من يواجهها على الخروج عن دائرة الحلم والصبر، لولا أن الذي واجهها نبينا محمد بن عبد الله ﷺ صاحب أرجح عقل وأهدأ نفس بين بني البشر جميعًا.

فقد عالج النبي محمد ﷺ كل هذه المشاكل المعقدة، وتغلب على كل هذه المصاعب المضنية المرهقة بعميق حكمته وسداد رأيه ورجاحة عقله وبُعد نظره وسعة حلمه، حتى كانت الثمرة الياقة لذلك المجهود العظيم الذي بذله سيد البشر ومنقذ البشرية ﷺ، هي صلح الحديبية التاريخي الخالد الذي (كثيرة من ثمراته العظيمة المباركة) دخل على الدعوة الإسلامية من المكاسب وتحقق لها من الانتصارات خلال سنتين اثنتين ما لم يدخل عليها وما لم يتحقق لها خلال تسعة عشر عامًا، كما سجل ذلك المحدثون الثقات في كتب السنة النبوية.

إن صلح الحديبية هو حدث من أهم أحداث التاريخ، بعقده تحوّل مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية في جزيرة العرب لصالح الإسلام والمسلمين حتى قضى قضاء تامًّا على الشرك والوثنية، وكانت السيادة التامة للتوحيد والتوحيد فقط.

وفي صلح الحديبية عبر ومواعظ.. وحكم ودروس، في الحلم والصبر وضبط النفس والوفاء بالعهد، وتقبل الانتقاد الهادف، وتحمل المعارضة النزيمية، وتحمل الأذى، لبلوغ الأهداف النبيلة السامية.

عبر، ومواعظ، وحكم، ودروس، جديرة بالاهتمام والبحث والتمعن للاستفادة منها والاستضاءة بنورها، وخاصة لمن هم في مقعد الريادة وكرسي القيادة». [صلح الحديبية لباشميل ١٢-١٧].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد كان لغزوة الحديبية أهمية بالغة وآثار باهرة يصعب على المرء استقصاؤها.

لقد كانت اتفاقية الحديبية فتحاً مبيناً، فقد وصفها الله في كتابه فقال سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ①

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلْ رِجْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ③

[الفتح].

إي وربي إنها لفتح.

إي والذي نفس رسول الله ﷺ بيده إنها لفتح.

لقد كانت الحديبية فتحاً في عالم الدعوة.

لقد كانت الحديبية فتحاً في عالم النفوس.

لقد كانت الحديبية فتحاً في تاريخ العلوم العسكرية.

لقد كانت الحديبية فتحاً في تاريخ العلوم السياسية.

لقد كانت الحديبية فتحاً في مجال الصلات الإنسانية.

لقد تحول الأعداء بعدها إلى أصدقاء، والمبغضون إلى محبين.

لقد تحول الكفار الجاحدون إلى مؤمنين محبتين.

لقد تزلزل الشرك وأهله وأنصاره.

لقد حطمت حصون يهود.

لقد خضدت شوكة الأعراب.

لقد حل الوثام محل الخصام.

لقد تحول سهيل بن عمرو من رجل محارب إلى مسلم خادم لرسول الله ﷺ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يَقُولُ: مَا كَانَ فَتْحٌ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مِنْ فَتْحِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمِئِذٍ

قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ

حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ، لَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَجَّجَةَ قَائِمًا عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ بَدْنَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْخَلَّاقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظَرُ إِلَى سُهَيْلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ، وَأَرَاهُ

يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إِبَاءَهُ أَنْ يُقَرَّ يَوْمَ الْحَدِيثِ بِأَنْ يَكْتُبَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَأْتِي أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا بِهِ

وَأَقْدَنَا بِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ! [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٩-٦١٠]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٦-٧].

ويقول د/ عشقي: «صلح الحديبية يعتبر أول اتفاقية دولية في الإسلام، اعترفت بموجبها قريش بالكيان الإسلامي في المدينة المنورة، ككيان سياسي، فكان الصلح بمثابة الفتح المبين كما وصفه بذلك ﷺ في سورة الفتح.

كان العرب قبل الحديبية يعمدون إلى الفكر التكتيكي، وهو ألا يتجاوز تفكير الإنسان واقعه الذي يعيش فيه، وبيئته التي من حوله، وعشيرته التي ينتمي إليها. ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة لم يبدأ ببناء الدولة الإسلامية فحسب، بل بدأ ببناء أمة كتب الله لها أن تعيش إلى آخر الزمان.

لقد كانت معاهدة الحديبية أو إن شئت قلت صلح الحديبية، أول خطة (إستراتيجية) يرسمها ﷺ حينها وجد أن الكفار بأشكالهم المختلفة سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين قد تكالبوا عليه وتآمروا للقضاء على كيانه السياسي في المدينة المنورة.

لقد جئشوا لذلك الجيوش وسيروها إلى المدينة، فصددهم ﷺ بالخنق، فكانت غزوة الأحزاب، كان قوامهم أحد عشر ألف مقاتل بينما كان المسلمون لا يتجاوزون الأربعة آلاف.

وجد النبي ﷺ نفسه محاصرًا من ثلاث جهات، كان اليهود من الشمال، وكانت قبائل بني أسد وغطفان وبعض العرب من الشرق، وكانت قريش من الجنوب.

قرر ﷺ أن يُجمد الجبهة الجنوبية باتفاق السلام، وأن يشتت الجبهة الشرقية بالسرايا، يعثها كلما بلغه الخبر عن تجمع قبلي، والتفرغ لتدمير الجبهة الشمالية وقواعدها في خيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القرى، لقد كان اليهود هم مصدر التمويل وهم مصدر التحريض، فالقضاء عليهم كفيل بإضعاف باقي الجبهات بل وإسقاطها، فانطلق ﷺ لعمرته إلى مكة؛ لأن في العمرة لقاء مع قريش وحوار مع قومه قد يُفضي إما لقتال، أو ينتهي بسلام يتم الاتفاق عليه.

لقد بنى ﷺ اتفاقه مع قريش على ثوابت إستراتيجية ثلاثة وهي:

أولاً: إرغام قريش على السماح للمسلمين بممارسة حقهم في العمرة كغيرهم من العرب.  
ثانياً: تجميد الجبهة الجنوبية للتفرغ لتدمير الجبهة الشمالية والقضاء على القواعد والمستوطنات اليهودية في الجزيرة العربية.

ثالثاً: الاعتراف بكيانه السياسي؛ لأنه في ذلك فتح لأبواب الدعوة، واعتراف من باقي القبائل العربية. لهذا نجد أنه بعد إتمام الصلح بدأ النبي ﷺ يبعث بالرسل إلى الملوك والرؤساء العرب فكانوا أول السفراء، وبدأت الوفود العربية تتوافد على النبي ﷺ إما بغرض الإسلام أو السلام.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي أ- ب].

# **الباب الأول**

## **المرحلة الأولى**

### **من غزوة الحديبية (قبل الغزوة)**

**الفصل الأول: عرض المرحلة الأولى من**

**غزوة الحديبية (قبل الغزوة)**

**الفصل الثاني: الدروس والعبر المستفادة**

**من المرحلة الأولى من غزوة**

**الحديبية (قبل الغزوة)**





## الفصل الأول

## عرض المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة)

## المبحث الأول

## أحاديث جوامع لأحداث غزوة الحديبية وتوابعها

وردت عدة أحاديث جوامع لأحداث غزوة الحديبية وتوابعها، وسيأتي الاستشهاد بأجزاء منها في خلال عرض أحداث الغزوة؛ ولذا رأيت أن أثبتها هنا كاملة وأشرح مفرداتها وأذكر تخريجها؛ لكي لا أعيد هذا في الأجزاء التي سأثبتها في أثناء العرض التفصيلي للغزوة<sup>(١)</sup>.

قال البخاري وأحمد: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ: أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ [بِالنَّحْوِ] يُصَدِّقُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ [زَمَانِ] الْحُدَيْبِيَّةِ [فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدِ الْخَلِيفَةِ قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا (أَي: جاسوسًا) لَهُ مِنْ خَزَاعَةَ يُخْبِرُهُ عَنْ قُرَيْشٍ، وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ (مَوْضِعُ تَلْقَاءِ الْحُدَيْبِيَّةِ) قَرِيبَ مَنْ عُسْفَانَ، أَنَاةً عَيْنُهُ الْخَزَاعِيُّ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِشَ، وَجَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ نَمِيلَ إِلَى ذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ فَتُصَيِّبُهُمْ، فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَخْرُورِينَ (مَسْلُوبِينَ مِنْهُمْ) وَإِنْ نَجَّوْا - وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: مَخْرُورِينَ - وَإِنْ يَخْنُونُ تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ، أَوْ تَرَوْنَ أَنْ نَوْمَ الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلَانَهُ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ؓ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِئْ نِقَاتِلُ أَحَدًا، وَلَكِنْ مَنْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتِلَانَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَرَوْحُوا إِذَا».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ كَانَ أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ [بِالنَّحْوِ] قَرَأُوا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ ابْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ (مَوْضِعُ بَيْنِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ) فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً (مَنْ يَبْعَثُ لِيُطْلِعَ، طَلَعَ الْعَدُو، وَجَمْعُهَا طَلَاعٌ)، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ»، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ [هُوَ] بِقَفْرَةٍ (الْغَبَارِ الْأَسْوَدِ) الْجُحْشِ، فَأَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّيْبَةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتُ بِهِ رَاحِلَتُهُ، - وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: بَرَكَتُ بِهَا رَاحِلَتُهُ - فَقَالَ النَّاسُ

(١) الشروح والهوامش هنا للدكتور الحكمي - جزاءه الله خيرًا - في «مرويات غزوة الحديبية» مع بعض الإضافات.

[النَّبِيُّ ﷺ]: حَلَّ حَلَّ (زجر للناقة إذا حثتها على السير)، فَأَحَلَّتْ (أي لزمت مكانها، من أَلَحَّ على الشيء إذا لزمه وأصر عليه)، فَقَالُوا: خَلَّاتْ (أي حُرنت: استعصت ولم تقم من مبركها، وهو عيب في الإبل) الْقَصُوءُ (ناقة رسول الله ﷺ، ويطلق عليها القصواء والجدعاء والعضباء، وهي صفات للشق في الأذن)، خَلَّاتْ الْقَصُوءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (بعد أن أدرك ما لم يدركه غيره): «مَا خَلَّاتْ الْقَصُوءَ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِحُلَّتِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ (أي حبسها الله ﷻ عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها)، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) حُطَّةً (الأمر والحال والخطب) يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ رَجَرَهَا فَوَثَبَتْ [بِهِ].

قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ (بئر) قَلِيلِ الْمَاءِ، [إِنَّمَا] يَبَرِّضُهُ (هو الأخذ قليلاً قليلاً) النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبَثْهُ النَّاسُ حَتَّى تَزُحُوهُ، وَشَكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَرَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَى يَجِيشُ هَمَّ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ فِي نَعْرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةٍ - وَكَانُوا عِيَّةَ (العيبة زنبيل من آدم أو موضع الثياب، وكنى بها هنا عن الصدور التي هي موضع السر) نُصَحِ رَسُولِ [الرَّسُولِ] اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَايِرَ بْنَ لُؤَيٍّ (قال ابن حجر: إنما اقتصر على ذكر هذين لكون قريش الذين كانوا بمكة ترجع أنسابهم إليهما. فتح الباري ٣٣٨/٥) نَزَلُوا أَعْدَادَ (جمع عد، وهو الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها) مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَمَعَهُمُ الْغُذُو: الْمَطَافِيلُ (يريد النساء والصبيان)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُوكَ عَنْ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْنَهُمْ (أضتهم وبالغت في الإضرار بهم) الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَا دُذِّنْهُمْ مَدَّةً، وَنُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جُئُوا [جَمْعًا] (استراحوا وكثروا)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا قَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفَتِي (السالفة: صفحة العنق وهما سالفتان من جانبيه، وكنى بانفرادهما عن الموت، لأنها لا تنفردان عما يليهما إلا بالموت، وتين: أُراند حتى يرفق بين راسي وجسدي. النهاية ٣٩٠/٢)، وَلِكَيْنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ.

قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ [عِنْدِ] هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفْهَاءُؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ نُخْبِرَنَّا [نُحَدِّثْنَا] عَنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَالَ ذُووُ الرَّاْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ، يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ [التَّقْفِي] فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ! أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ (أي: أنكم حي قد ولدوني بالجملة، لكون أُمِّي منكم، فعند ابن إسحاق عن الزهري: أن أمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف. فتح الباري ٣٣٩/٥)،

قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ (الاستنجد والاستنصار) أَهْلَ عَكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَغُوا (أي أبوا) عَلَيَّ جِسْتَكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةٌ رُسِدَ اقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِيهِ [آتِيهِ]، قَالُوا: آتِيهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدًا! أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وَجُوهَهَا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا (أخلاقًا لأن الشوب: الخلط) [أَوْشَابًا] مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؓ: امْصُصْ بِظُرِّ (الهنه التي تقطعها الخافضة من فرج المرأة عند الختان) اللَّاتِ، أَنْحَنُ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ! فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَا يَدُ (نعمة) كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْبَنِكَ [جاء في رواية عبد العزيز الأمامي عن الزهري في هذا الحديث أن اليد المذكورة: أن عروة كان تحمّل بداية فاعناه أبو بكر فيها بعون حسن. فتح الباري ٥/ ٣٤٠].

قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ ؓ قَائِمَةً عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ صَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلٍ [بِنَصْلِ] السَّيْفِ (الحديدة التي تكون في أسفل القراب)، وَقَالَ لَهُ: أَخْزِ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ [يَدَهُ]، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بِنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيُّ عُذْرٍ (عذر: معدول عن غادر للمبالغة)، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي عُذْرَتِكَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحْبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخْبَدَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ تَخَاءَفَ فَاسْتَلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ (يلحظ) أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنْتَحِمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكَيْسَرٍ وَالتَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنْحَمَ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةٌ رُسِدَ اقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: آتِيهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُدْنَ، فَأَبْعَثُوهَا لَهُ (أي أثيروها دفعة دفعة)»، فَبْعَثَتْ لَهُ،

وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ [الْقَوْمُ] يُلْبُونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَبْغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبَدْنَ قَدْ قُلِدْتُ وَأَشْعِرْتُ، فَمَا أَرَى [فَلَمْ أَر] أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: أَتَيْهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مَكْرَزُ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ مَعْمَرٌ: فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: «أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ إِنْ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَتَى سَوْدَةَ ابْنَتَ أَبِي سَلَمَةَ، فَجَاءَتْ بِكِتَابٍ مِنْهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تَحْمِلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أَخِذْنَا ضُغْطَةً (أَيَ عَصْرًا وَقَهْرًا)، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ (الرَّسْفُ وَالرَّسِيفُ، مَشْيُ الْمُقِيدِ إِذَا جَاءَ بِتَحَامِلٍ بِرَجْلِهِ مَعَ الْقَيْدِ) - وَقَالَ يَحْيَى عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ: يَرْسُفُ [فِي قُبُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقْضَيْكَ عَلَيْهِ أَنْ تُرَدَّ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَمْ أَصَالِحْكَ [لَا نَصَالِحَكَ] عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي (بَضِيعَةُ الْأَمْرِ مِنَ الْإِجَازَةِ أَيْ امْضُ لِي فَعَلِي فِيهِ، فَلَا أُرْدهُ إِلَيْكَ أَوْ اسْتَثْنِيهِ مِنَ الْقَضِيَةِ)»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيرِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَاَفْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مَكْرَزُ: بَلَى قَدْ أَجْرَنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ: أَيْ مَعْشَرَ [مَعَاشِرَ] الْمُسْلِمِينَ! أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عُدِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ.

قَالَ: فَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟! قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نَعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ

الله! وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتُ مُحَدِّثُكَ أَنَا سَنَائِي النَّبِيَّ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَأْيِيهِ الْعَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ [وَمُتَطَوِّفٌ] بِهِ».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيٌّ اللَّهُ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَتَيْتُمَا الرَّجُلَ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ ﷻ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ [نَطُوفٌ] بِغَرْزِهِ (الغرز للإبل بمنزلة الركب للفرس) [حَتَّى تَمُوتَ]، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى [لَعَلَى] الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ مُحَدِّثُكَ أَنَا سَنَائِي النَّبِيَّ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ [وَمُتَطَوِّفٌ] بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا (أي: الأعمال الصالحة ليكفر عنه ما مضى من التوقف في الامتثال للأمر ابتداءً، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ).

قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِصَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ اخْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُذْنَكَ، وَتَدْعُوَ خَالِقَكَ فَيُحْلِقَكَ، [فَقَامَ] فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمَ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ: نَحَرَ بُذْنَهُ وَدَعَا خَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَظْمًا.

ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠].

فَطَلَّقَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ <sup>(١)</sup>.

(١) عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ، وَبَلَّغَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُسْرِكِينَ مَا اتَّفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ، أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ، فَرِيَّةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَابْنَةَ جُرُولِ الْخُرَاعِيِّ، فَتَزَوَّجَ فَرِيَّةَ مُعَاوِيَةَ، وَتَزَوَّجَ الْأُخْرَى أَبُو جَهْمٍ، فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يَقْرَءُوا بِأَدَاءِ مَا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ فَتَنَّاكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ﴾ [المتحنة: ١١] وَالْعَقَبُ مَا يُؤَدِّي الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَنْ هَاجَرَ امْرَأَتَهُ مِنَ الْكُفَّارِ، فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى مَنْ ذَهَبَ لَهُ زَوْجٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا اتَّفَقَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ اللَّاتِي هَاجَرْنَ، وَمَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ ارْتَدَّتْ بَعْدَ إِيمَانِهَا، وَبَلَّغَنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ بْنُ أَسِيدٍ التَّقْفِيَّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فِي الْمُدَّةِ، فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيحٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ أَبَا بَصِيرٍ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. البخاري في الشروط (٢٧٣٣).

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ ؓ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ، حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرِهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرَ، فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَجَيْدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ: أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَأَمَكَنَهُ مِنْهُ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِمْ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ ؓ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ؓ، فَجَعَلَ لَا يُخْرِجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ؓ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ [الله] وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ [إِلَيْهِمْ]، فَمَنْ أَنَاةُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَאَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿الْحَمِيَّةَ حِمَاةَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وَكَانَتْ حِمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ) وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: مَعَرَّةُ الْعُرِّ الْجَرْبُ، تَزِيلُوا: وَحِمِيَّتُ الْقَوْمِ: مَنَعَتُهُمْ حِمَاةً وَأَحْمِيَّتُ الْحِمَى جَعَلَتْهُ حِمَى لَا يَدْخُلُ، وَأَحْمِيَّتُ الْحَدِيدِ وَأَحْمِيَّتُ الرَّجُلِ: إِذَا أَغْضَبَتْهُ إِهْمَاءٌ.

وَقَالَ عُقَيْلٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ. وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ، أَنَّ عُمَرَ ؓ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ: قَرِيبَةَ بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَابْنَةَ جُرُولِ الْخَزَاعِيِّ، فَتَزَوَّجَ قَرِيبَةَ مُعَاوِيَةَ، وَتَزَوَّجَ الْآخَرَى أَبُو جَهْمٍ.

فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يَقْرَأُوا بِأَدَاءِ مَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَاكُفُّوا عَنْهُ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ [المتحنة: ١١]، وَالْعَقْبُ مَا يُؤَدِّي الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَنْ هَاجَرَ امْرَأَتَهُ مِنَ الْكُفَّارِ، فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى مَنْ ذَهَبَ لَهُ زَوْجٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَنْفَقَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ اللَّائِي هَاجَرْنَ، وَمَا نَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ اِزْدَتْ بَعْدَ إِهْمَائِهَا.



وَبَلَّغْنَا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ بْنُ أَسِيدِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فِي الْمُدَّةِ، فَكَتَبَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ أَبَا بَصِيرٍ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

[البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٣)، ومسند أحمد ٣١/٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

وقال الإمام مسلم: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ ح وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ كِلَاهُمَا عَنْ عِكْرَمَةَ بْنِ عَمَّارٍ ح وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، وَهَذَا حَدِيثُهُ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَنَفِيُّ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي إِيَّاسُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا، قَالَ: فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَا الرِّكْبَةِ (الجبأ: ما حول البئر، الركي: البئر)، فِيمَا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، قَالَ: فَجَاشَتْ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ [دَعَا بِالْبَيْعَةِ] فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ مِنَ النَّاسِ قَالَ: «بَايَعَ يَا سَلَمَةُ يَا سَلَمَةُ بَايَعْنِي»، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ؟! قَالَ: «وَأَيْضًا [فَبَايَعَ]» قَالَ: وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَزَلًا [أَعَزَلًا] - بَعْضُ لَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ - قَالَ: فَأَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَافِيَةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ [وَبَايَعَ]، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ قَالَ: «أَلَا تَبَايَعْنِي يَا سَلَمَةُ»، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَفِي أَوْسَطِ النَّاسِ، قَالَ: «وَأَيْضًا [فَبَايَعَ]»، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا سَلَمَةُ أَيْنَ حَبَفْتُكَ أَوْ دَرَقْتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِقَبِي عَمِّي عَامِرٌ عَزَلًا [أَعَزَلًا] فَأَعْطَيْتُهُ إِيَّاهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي».

ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ (أي: أرسلنا إليهم، وأرسلوا إلينا) حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ وَاصْطَلَحْنَا.

قَالَ: وَكُنْتُ تَبِيعًا لَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَتَيْتُ فَرَسَهُ وَأَحْسُهُ وَأَخْدِمُهُ، وَأَكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَكَسَحْتُ (كَنَسْتُ) شَوْكَهَا، فَأَضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا [ظِلِّهَا]، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ قُتِلَ ابْنُ رُتَيْبٍ، قَالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أَوْلَيْكَ الْأَرْبَعَةَ وَهُمْ رُفُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْنًا (أي حزمة) فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ:

وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا صَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسْوَفَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرُ بَرَجَلٍ مِنَ الْعَبَلَاتِ (بنو أمية الأصغر بن عبد الشمس) يُقَالُ لَهُ مَكْرَزٌ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَنَّفٍ (أي عليه تجفاف، وهو شيء من سلاح يترك على الفرس يقيه الأذى، وقد يلبسه الإنسان أيضًا، وجمعه: مجنفيات) فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُسْرِكِينَ، [حَتَّى وَفَقْنَاهُمْ] فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثَنَاهُ»، فَعَقَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا [الفتح: ٢٤].

قَالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَرَلْنَا مَنْزِلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ [يُقَالُ لَهُ: لَحْيٌ جَبَلٍ]، وَهُمْ الْمُسْرِكُونَ، فَاسْتَعْفَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ رَفِيَ هَذَا الْجَبَلُ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ سَلَمَةُ ﷺ: فَرَقِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ... [مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)، وبقية الحديث عن غزوة ذي قرد وخيبر، ومسند أحمد ٢٧/٤٥-٤٨ رقم ١٦٥١٨].

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ شَهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحَدِيثِ يُرِيدُ زِيَارَةَ النَّبِيِّ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَسَاقَ مَعَهُ الْهُدَيَّ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةِ رَجُلٍ، فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشْرَةٍ، قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ (محطة تاريخية بين مكة والمدينة على ثمانين كيلًا من مكة) لَقِيَهِ بَشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْعَوْدُ الْمَطْفِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ الثَّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ (أي قهرا وغلبة) أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدِمُوا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ (موضع بناحية الحجاز، بين مكة والمدينة، وهو أمام عسفان بثمانية أميال، وهذا الكراع جبل أسود في طرف الحرة يمتد إليه)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا بِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ فَسَلَكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ بَيْنَ ظَهْرِي الْحُمْضِ (ما ملح وأمر من النبات، وهو هنا اسم موضع) عَلَى طَرِيقِ تَخْرِجِهِ عَلَى ثَنِيَّةِ الْمِرَارِ وَالْحَدِيثِ مِنَ أَسْفَلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَسَلَكَ بِالْجَيْشِ تِلْكَ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَى خَيْلَ قُرَيْشٍ فَتَرَةَ الْجَيْشِ، قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ نَكَصُوا رَاجِعِينَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا سَلَكَ ثَنِيَّةَ الْمِرَارِ بَرَكْتَ نَاقَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: خَلَّاتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا خَلَّاتُ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى حُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحِمِ إِلَّا

أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «انْزِلُوا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا بِالْوَادِي مِنْ مَاءٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَتَزَلَّ فِي قَلْبِهِ مِنْ تِلْكَ الْقُلْبِ، فَغَرَزَهُ فِيهِ، فَجَاشَ الْمَاءُ بِالرَّوَاءِ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ عَنْهُ بِعَطَنِ (العطن مبرك الإبل حول الماء، يقال: عطنت الإبل فهي عاطنة، وعواطن إذا سقيت وبركت عند الحياض لتعاد إلى الشرب مرة أخرى).

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بُدِئَ بِنُ وَرَقَاءَ فِي رِجَالٍ مِنْ خَزَاعَةَ، فَقَالَ هُمْ كَقَوْلِهِ لِبُشَيْرِ ابْنِ سُفْيَانَ، فَرَجَعُوا إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّكُمْ تَعْبُلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظَمًا لِحَقِّهِ، فَاتَّهَمُوهُمْ.

قَالَ مُحَمَّدٌ - يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكَانَتْ خَزَاعَةُ فِي عِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا، لَا يُخْفُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ.

قَالُوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِدَلِكِ فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عَنُوةٌ وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ. ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ مَكْرَزَ بْنَ حَنْصِ بْنِ الْأَخِيْفِ أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَحْوِ مِمَّا كَلَّمَهُ بِهِ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْحِلْسَ بْنَ عَلَقَمَةَ الْكِنَانِيَّ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ سَيِّدُ الْأَحَابِشِ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ»، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي فَلَانِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! قَدْ رَأَيْتُمْ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ: الْهَدْيُ فِي فَلَانِدِهِ (جمع فلاة، وهي ما وضع في العنق) قَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ (أي أكل صوفه) مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ.

فَقَالُوا: اجْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَغْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ.

فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عَزُورَةَ بْنَ مَسْعُودٍ التَّقْفِيَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا يُلْقَى مِنْكُمْ مَنْ تَبْعُونَنِي إِلَى مُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَكُمْ مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ اللَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَالِدٌ وَأَبِي وَلَدٌ، وَقَدْ سَمِعْتُمُ بِالَّذِي نَابَكُمْ فَجَمَعْتُ مِنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي، ثُمَّ جِئْتُ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي.

قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ.

فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جَمَعْتَ أَوْبَاشَ (جموعاً من قبائل شتى) النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ لِيُبْضِيتَكَ (أي أهلك وعشيرتك) لِتَقْضَاهَا (لتكسرها)، إِنَّمَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثَّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُوةٌ أَبَدًا، وَأَيْمُ اللَّهِ لَكَائِي بِهِؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ غَدًا.

قَالَ: وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَقَالَ: انْصُصْ بَظَرَ اللَّاتِ، أَنْتَحْنُ نُنْكَشِفُ عَنْهُ؟ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ»، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ لَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَكَافَأَتُكَ بِهَا وَلَكِنَّ هَذِهِ بِهَا، ثُمَّ تَنَاوَلَ حَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُغِيرَةُ بِنْتُ شُعْبَةَ وَاقَفَتْ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيدِ، قَالَ: يَفْرَعُ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمْسِكْ يَدَكَ عَنِ حَيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكَ، قَالَ: وَيَحْكُ! مَا أَفْظَلَكَ (الفظ: الغليظ الجانب السيء الخلق القاسي الحشن الكلام) وَأَغْلَظَكَ (من الغلظة وهي ضد الرقة)، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أُخِيكَ الْمُغِيرَةُ بِنْتُ شُعْبَةَ»، قَالَ: أَغْدُرُ! هَلْ عَسَلْتُ سَوَاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ، قَالَ: فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ مَا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا، قَالَ: فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ: لَا يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَبْسُقُ بُسَاقًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرَةٍ شَيْءٌ إِلَّا أَخَذُوهُ.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قِصْرَ وَالنَّجَاشِيِّ فِي مُلْكَيْهَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسَلِّمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، قُرُوا رَبَّكُمْ.

قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ بَعَثَ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى جَهْلٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ النَّعْلَبُ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ عَقَرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ، وَأَرَادُوا قَتْلَ خِرَاشٍ ﷺ، فَمَنَعَهُمُ الْأَحَابِشُ [الْأَحَابِشُ]، حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَا عُمَرَ ﷺ لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ أَحَدٍ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغِلَظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ مِنِّي: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ.

قَالَ: فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْطًى لِحُرْمَتِهِ.

فَخَرَجَ عُثْمَانُ ﷺ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ، وَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، فَزَلَّ عَنْ دَابَّتِهِ، وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَدَفَ خَلْفَهُ، وَأَجَارَهُ حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظْمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ، فَقَالَ ﷺ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: فَاخْتَبَسْتَهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ.

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَحَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ: أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَقَالُوا: أَتَيْتُ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا.

فَأَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَكَلَّمَا وَأَطَالَا الْكَلَامَ وَتَرَا جَعَا، حَتَّى جَرَى بَيْنَهُمَا الصُّلْحُ، فَلَمَّا التَّامَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكِتَابُ، وَتَبَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! أَوْلَيْسَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَوْلَيْسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوْلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا عُمَرُ، الرُّمُ غَزْرُهُ حَيْثُ كَانَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: وَأَنَا أَشْهَدُ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوْلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّلَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ ﷺ: مَا زِلْتُ أَصُومُ، وَأَتَصَدَّقُ، وَأُصَلِّي، وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا.

قَالَ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اكْتُبْ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَا أَعْرِفُ هَذَا، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو»، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: لَوْ شِئْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَقَاتِلْكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ هَذَا مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكْفُ بُغْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيٍّ رَدَّ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَى قُرَيْشًا بِمَنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّوه عَلَيْهِ، وَإِنَّا بَيْنَنَا عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ (العيبة مستودع الثياب، والمكفوفة: المشرجة المشدودة، أي بينهم صيد نفقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصلح)، وَإِنَّهُ لَا إِسْلَالَ، وَلَا إِغْلَالَ (الإسلا: السرقة الخفية، وقيل: سل السيوف، والإغلال: الخيانة أو السرقة الخفية. وقيل: لبس الدروع).

وَكَانَ فِي شَرْطِهِمْ حِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ، فَتَوَاتَبَتْ خِزَاعُهُ فَقَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدِهِ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. وَأَنَّكَ تَرَجُّعٌ عَنَّا عَامِتًا هَذَا، فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامٌ قَابِلٌ خَرَجْنَا عَنْكَ فَتَدْخُلْهَا بِأَصْحَابِكَ، وَأَقَمْتَ فِيهِمْ ثَلَاثًا مَعَكَ سِلَاحُ الرَّائِبِ، لَا تَدْخُلْهَا بِغَيْرِ السُّيُوفِ فِي الْقُرْبِ (جمع قراب، وهو غمد السيف).

فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْتُبُ الْكِتَابَ إِذْ جَاءَهُ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْحَدِيدِ، قَدْ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ؛ لِزُفْيَا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنَ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ، وَمَا تَحَمَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ، دَخَلَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، حَتَّى كَادُوا أَنْ يَهْلِكُوا.

فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلُ أَبَا جَنْدَلٍ ﷺ قَامَ إِلَيْهِ فَضْرَبَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ لُجَّتْ (أي وجبت) الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا، قَالَ: «صَدَقْتَ»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِتَلْبِيهِ (أي أخذ بمجمع ثوبه الذي هو لابسهُ وقبض عليه يجرهُ)، قَالَ: وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ ﷺ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَقْتُلُونِي فِي دِينِي، قَالَ: فَرَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ.

قَالَ: فَتَوَبَّ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ ﷺ فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: اصْبِرْ أَبَا جَنْدَلٍ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنَّمَا دَمٌ أَحَدِهِمْ دَمٌ كَلْبٍ، قَالَ: وَيَذْنِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ، قَالَ: يَقُولُ: رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفُ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ، قَالَ: فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ وَفَنَذَتْ الْقَضِيَّةُ.

فَلَمَّا فَرَّغَا مِنَ الْكِتَابِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي الْحَرَمِ وَهُوَ مُضْطَرَبٌّ فِي الْحِلِّ، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْحَرُوا وَاخْلِقُوا»، قَالَ: فَمَا قَامَ أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ بِمِثْلِهَا، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، حَتَّى عَادَ بِمِثْلِهَا، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَ: «يَا أُمُّ سَلَمَةَ مَا شَأْنُ النَّاسِ؟»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ دَخَلَهُمْ مَا قَدْ رَأَيْتَ، فَلَا تُكَلِّمَنَّ مِنْهُمْ إِنْسَانًا، وَاعْمِدْ إِلَى هَذِيكَ حَيْثُ كَانَ فَانْحَرُهُ وَاخْلِقْ، فَلَوْ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَعَلَ النَّاسُ ذَلِكَ.

فَفَرَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُكَلِّمُ أَحَدًا حَتَّى أَتَى هَذِيهَ فَتَنَحَّرَهُ، ثُمَّ جَلَسَ فَحَلَّقَ، فَقَامَ النَّاسُ يَنْحَرُونَ وَيَخْلِقُونَ.

قَالَ: حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ فَتَرَكْتُ سُورَةَ الْفَتْحِ.

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن، محمد بن إسحاق وإن كان مدلسًا

وقد عنعن إلا أنه قد صرح بالتحديث في بعض فقرات هذا الحديث فانتفت شبهة تدليسهِ].

وقال الإمام أبو داود: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ نُوَيْرٍ حَدَّثَهُمْ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحَدَيْبِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِإِذِي الْخَلِيفَةِ قَلَدَ الْهَدْيِ وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ وَسَاقَ الْحَدِيثِ.

قَالَ: وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتٌ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حُلْ حُلْ، خَلَأْتُ الْقُضُوءَ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأْتُ، وَمَا ذَلِكَ لَهَا بِخُلْقِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ

الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةً يُعْظَمُونَ بِهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ رَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَفْصَى الْحَدِيثَةِ عَلَى تَمَدِّ قَلِيلِ الْمَاءِ.

فَجَاءَهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِمِيِّ، ثُمَّ أَنَاهُ يَغْنِي - غُرُورَةُ بْنُ مَسْعُودٍ - فَجَعَلَ يَكْلُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَلَّمَهَا كَلِمَةً أَخَذَ بِلَحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ، فَضْرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ: أَخْرَجَ يَدَكَ عَنْ لِحْيَتِي، فَرَفَعَ غُرُورَةَ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيُّ غَدْرٍ! أَوْلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرِكَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحْبٌ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَفَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ قَبِلْنَا، وَأَمَّا الْمَالُ فَإِنَّهُ مَالُ غَدْرٍ، لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» وَفَصَّ الْخَبَرَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَضِيَةِ الْكِتَابِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا».

ثُمَّ جَاءَ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ مُهَاجِرَاتُ الْآيَةِ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَرُدُّوهُنَّ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَرُدُّوا الصَّدَاقَ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ ؓ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يَغْنِي فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ نَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرِ هُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلٌ قَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ: أَرِنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَمَكَّنَهُ مِنْهُ، فَضْرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُعْرًا»، فَقَالَ: قَدْ قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ ؓ فَقَالَ: قَدْ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، فَقَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ نَجَّانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلَ أُمِّهِ مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ، وَبَنَفَلْتُ أَبُو جَنْدَلٍ ؓ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ؓ حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ. [أبو داود في الجهاد (٢٧٦٥) وقال الشيخ الألباني: صحيح].



## المبحث الثاني

## الجو العام قبل غزوة الحديبية

## رسوخ جذور الإسلام في جزيرة العرب:

يقول أ/ باشميل: «لقد ظل النبي ﷺ يدعو قومه في مكة - بالطرق السلمية - طيلة ثلاث عشرة سنة، لقي فيها وأصحابه من قريش شتى أنواع المضايقة والإرهاب والتنكيل إلى درجة بلغ فيها الطغيان بقريش إلى تعذيب المستضعفين تعذيباً وحشياً، فَقَدَ البعض منهم أرواحهم تحت وطأته الشديدة، لا شيء إلا أنهم اختاروا على دين الوثنية دينَ التوحيد فاتبعوه واتبعوا حامل لواء دعوته ﷺ.

بل لقد لجت قريش في بغيتها وعدوانها حتى بلغ بها العناد والطغيان إلى أن دَبَّرَت مؤامرة دنيئة تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ، وذلك في أواخر السنة الثالثة عشرة من بدء حمل النبي ﷺ لواء الدعوة إلى التوحيد، فاتفق ساداتها ونواب عشائرها بالإجماع في برلمانهم الوثني بمكة (دار الندوة) على قتل النبي ﷺ اعتقاداً منهم أن دعوة التوحيد التي ردت عنها رها في نفوس المؤمنين بها داخل مكة وخارجها ستموت بموتها.

إلا أن الله ﷻ نجَّى رسوله من شر هذه المؤامرة الخطيرة فتمكن - هو وصاحبه الصديق الأكبر ﷺ - من مغادرة مكة في الليلة التي اتفق فيها المشركون على تنفيذ المؤامرة.

كما غادر مكة - قبله وبعده - الأغلبية الساحقة من الأصحاب الذين آمنوا بدعوته، واجتمع شمل الجميع هناك في دار الهجرة (المدينة المنورة).

وما كانت قريش ترغب في أن يغادر النبي ﷺ مكة إلى المدينة، بل إنها لتخشى ذلك أشد الخشية؛ لذلك قررت في برلمانها قتله ﷺ؛ لأن وصوله إلى المدينة سالماً معناه بناء أمة جديدة هناك قد يقودها هذا الذي تمكَّن من الإفلات من سيوف الشرك للإحاطة بالكيان الوثني داخل مكة مقر كرسي كهنوت الوثنية الرئيس.

ولكن ما حيلة قريش؟! فقد وقع الذي تخشاه، حيث وصل النبي ﷺ إلى المدينة سالماً فاستقبل أعظم استقبال عرفته المدينة في تاريخها.

## حروب فاشلة:

لم تتم قريش ولم تستكن بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، لا سيما بعد أن أصبحت المدينة الحاضرة الأولى لدولة إسلامية انضوى تحت لوائها الأغلبية الساحقة من سكان يثرب.

لقد ظلت الرغبة الشريرة المتأججة في نفوس مشركي مكة تضغط عليهم بشكل عنيف (هو أقرب إلى الجنون) ليسيروا في طريق بغيتهم وعدوانهم على المسلمين وظلمهم لهم.

وأول قرار غاشم ظالم اتخذ برلمان مكة (دار الندوة) هو ذلك القرار الذي أعلنوا فيه أنهم يعتبرون المسلمين أعداء محاربين يجب قتلهم أينما وجدوا.

كما اتخذ المشركون قرارًا غاشمًا آخر يقضي بمنع المسلمين - دون سائر العرب - من دخول الحرم. ونتيجة تنفيذ هذا القرار، ظل المسلمون في المدينة - طيلة ست سنوات - محرومين من دخول الحرم ممنوعين من الطواف بالبيت الذي يتحرّقون شوقًا إلى زيارته.

ولم تكف قريش بذلك، بل رغبة منها في هدم الإسلام ومحو آثاره من الوجود سلكت كل سبيل تقدر على سلوكه لقتل النبي ﷺ، وهو في المدينة، فذبرت عدة مؤامرات لاغتياله، ولكن هذه المؤامرات كلها فشلت كما هو مفصّل في غير هذا المكان من هذا الكتاب.

### الحرب الشاملة:

بل لقد ألحّ الحقد الوثني المتأجج في نفوس مشركي مكة، ألحّ هذا الحقد العام عليها للقيام بحروب شاملة وغزوات منظّمة لخضد شوكة المسلمين وقطع تيار دعوة التوحيد إلى الأبد.

فقامت بعدة حملات عسكرية قوية ضد المسلمين، وصلت ببعضها إلى أسوار المدينة - حاضرة الإسلام الأولى - التي كادت تسقط - فعلاً - في أيدي المشركين.

ولعل أعظم هذه الحملات العسكرية العدوانية وأخطرها هي الحملات المشهورة الثلاث:

(١) حملة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة.

(٢) حملة أُحُد في السنة الثالثة من الهجرة.

(٣) حملة الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة.

غير أن قريشًا - بالرغم من تفوقها الساحق في كل شيء مادي - فشلت في كل حملاتها العسكرية الكبرى الثلاث.

ففي الأولى - وهي حملة بدر الكبرى - أنزل المعسكر الإسلامي - ولأول مرة في التاريخ - أشنع هزيمة تمرغت فيها سمعة قريش العسكرية في الوحل حينما جاءت - باغية ظالمة معتدية - تقصد خضد شوكة المسلمين، فقتل في هذه المعركة سبعون من ساداتها وقادتها، ووقع في أسر المسلمين سبعون مثلهم، وفرّ الباقون منهزمين شتتهم الهزيمة في وهاد ووديان تهامة كما تشتت العاصفة الورق اليابس.

أما الحملة العسكرية الثانية وهي (غزوة أُحُد) التي نقلت بها قريش المعركة إلى ضواحي حاضرة الإسلام (المدينة)، فقد فشل القائمون بها في تحقيق شيء من أهدافهم الرئيسة التي من أجل تحقيقها شنوا هذا العدوان، بالرغم من الإعداد الكامل والتحضير المنظم الذي سبق هذه الحملة التاريخية.

فقد عادت قريش من هذه المعركة وكل مكسبها سبعون قتيلاً من المسلمين استشهدوا في هذه المعركة مقابل ستة وعشرين قُتلوا من الجانب القرشي.

أما الحملة الثالثة وهي غزوة الأحزاب والتي تعتبر أعظم غزو يتعرض له المسلمون في تاريخهم أثناء العهد النبوي، فقد كانت آخر سهم في كنانة آمال قريش، يتحطم على صخرة المقاومة الإسلامية الصلبة. إذ كانت هذه الحملة العظيمة آخر حملة عسكرية تشنها قريش على المسلمين في تاريخها، فقد اندحرت وأحلافها النجديون في هذه الحملة اندحاراً مهيناً فاضحاً، بعد حصار دام على المدينة شهراً كاملاً، إذ عادت قريش وأحلافها من هذه الغزوة دون أن يحققوا أي شيء من الأهداف التي حشدوا لها تلك الحشود الهائلة، اللهم إلا إيقاع يهود بني قريظة وتعريضهم للإبادة على أيدي المسلمين بعد أن أغواهم قادة الأحزاب بالغدر بالمسلمين ونقض العهد الذي بينهم.

لقد كانت قريش تهدف من وراء تجريد تلك الحملات العسكرية الكبرى - وخاصة حملة الأحزاب - نحو كيان المسلمين واقتلاع جذور الإسلام نهائياً.

ولكن العكس هو الذي حدث، وخاصة بعد اندحار قريش وأحلافها في غزوة الأحزاب.

فبعد هذا الاندحار الشنيع الذي انكسر به العمود الفقري للآمال القرشية العريضة، ازدادت قواعد الدولة الإسلامية صلابة وقوة، وأخذ الإسلام يضرب بجذوره وينشر ظلاله في الجزيرة بسرعة هائلة وبشكل لم يسبق له مثيل.

وأصبح المسلمون - بعد فشل الأحزاب في غزوهم وبعد إنزال الضربة الصاعقة بخونة يهود بني قريظة - قوة ضاربة يخشاها كل أعداء الإسلام ولا تخشى أحداً، وخاصة العناصر العربية الوثنية.

[صلح الحديبية لباشمیل ١٠٢-١٠٦].

ويقول د/ الحكمي: «كانت عداوة قريش للمسلمين لا تخفى على من له أدنى علم بأحداث الجزيرة في ذلك الوقت، فأخر هجوم قامت به على المدينة كان قبل سنة فقط من خروج المسلمين لهذه الغزوة، حشدت فيه كل قواها المادية والمعنوية مستهدفة القضاء على المسلمين، وإبادة حضرائهم، لكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، فغيظهم على المسلمين يزداد يوماً بعد يوم، ومن المستحيل أن يمكّنوا المسلمين من الدخول إلى مكة عن رضى منهم وطواعية، بل لن يتوانوا في الإيقاع بهم إن وجدوا سبيلاً إلى ذلك».

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٥٩].

## يهود خيبر فقط:

يقول أ/ باشميل: «والقوة الوحيدة التي ظل المسلمون يحسبون لها حساباً هي قوة اليهود الموجودين في منطقة خيبر، الواقعة إلى الشمال الشرقي من المدينة، وعلى بعد حوالي ثمانين ميلاً منها. فقد كان في خيبر حوالي عشرة آلاف مقاتل من اليهود يتربصون بالمسلمين الدوائر ويحاولون بكل الوسائل وفي جهد مضني للإطاحة بهم.

إلا أن المسلمين - قبل الحديبية - ألقوا عليهم دروساً أشعرتهم بأن المسلمين أصبحوا قوة لا تُقهر، وخاصة بعد أن تمكن الفدائيون من هؤلاء المسلمين من قتل ملكين من ملوك خيبر الواحد بعد الآخر، داخل منطقة خيبر نفسها، وهما: أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن رزام. وقد تقدم تفصيل الطريقة التي بها تم القضاء على هذين الملكين اللذين يتمكن الفدائيين المسلمين من القضاء عليهما انهارت معنويات اليهود وانخفضت نسبة اعتزازهم بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم التي هي بالفعل قوة ضاربة إذا ما قورنت بقوة المسلمين من ناحية العدد، حيث إن قوة المسلمين في المدينة لا تزيد على ألفي مقاتل على أكثر تقدير.

بينما قوة اليهود في خيبر هي لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل على أقل تقدير.

ومع ذلك فقد خالط الخوف نفوسهم واستولى الرعب على قلوبهم بعد مصرع ملكيهم على أيدي الفدائيين داخل خيبر، وتلاشت من أذهانهم فكرة غزو المدينة التي كانت تراود أحلامهم، وأصبحوا فقط محصوراً همهم في الدفاع عن أنفسهم داخل حصونهم ومعقلهم التي لم يعد لديهم أدنى شك في أن المسلمين سيشتنون الغارة لاحتلالها وإنهاء الوجود اليهودي عند موأاة الظروف وتهيؤ الفرص».

[صلح الحديبية لباشميل ١٠٧].

## المبحث الثالث

## سبب الغزوة وتاريخها

بعد ست سنوات بالمدينة:

يقول د/ هيكل: «انقضت ست سنوات منذ هجرة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأيت من جهاد مستمر متصل، بينهم وبين قريش تارة، وبينهم وبين اليهود أخرى، والإسلام في أثناء ذلك يزداد انتشارًا ويزداد قوة ومنعة.

ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد ﷺ بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذي بنى إبراهيم عليه السلام بمكة، والذي تجدد بناؤه بعد ذلك ومحمد ﷺ ما يزال في فتوة الشباب، وقد رفع إذ ذاك حجره الأسود إلى مكانه من جدار هذا البيت، وذلك قبل أن يرد بخاطره أو بخاطر أحد من الناس ما سيُلقي الله عليه رسالة.

## صد المسلمون عن المسجد الحرام:

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت وجهة العرب في عبادتهم، يحجون إليه كل عام في الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمنًا، فإذا التقى المرء بأشد الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرد سيفًا أو يسفك دمًا، لكن قريشًا آلت على نفسها منذ هاجر محمد ﷺ والمسلمون معه أن يصدوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب، وفي ذلك نزل قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال].

وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، لكن قريشًا كانت ترى محمدًا والذين معه كفروا بألهة البيت: هُبل وإساف ونائلة وسائر الأصنام؛ ولذلك كانت ترى حريمهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة واجبًا عليها حتى يشوبوا إلى آلهة آبائهم.

### شوق المسلمين إلى مكة:

والمسلمون أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء الواجب الديني المفروض عليهم، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم، والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همماً واصباً وألماً لذاعاً: ألم النفي، وهم الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه، وهؤلاء وأولئك كانوا في ثقتهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوماً قريباً لا بد آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضة فرضها الله على الناس جميعاً.

وإذا كانت السنة تمر تلو السنة فُتساجل الغزوة الغزوة، وتكون بدرٌ، ثم أُحُد، ثم الخندق، ثم سائر الغزوات والأعمال، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريب آت، وما أشدهم لهذا اليوم شوقاً! وما أشد ما يشاركونهم محمد ﷺ في شوقهم وما يؤكد لهم أن هذا اليوم قريب!

### العرب والكعبة:

والحق أن قريشاً ظلموا محمداً ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة، فلم يكن هذا البيت العتيق ملكاً لقريش، ولكنه كان ملكاً للعرب جميعاً، وإنما كانت في قريش سِدانة الكعبة وسقاية الحاج وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه، ولم يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر لئيسج لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من شعائر، فإذا جاء محمد ﷺ ليدعو الناس إلى نبد عبادة الأصنام وإلى التطهر من رجس الوثنية والشرك، وإلى السمو بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والارتفاع في سبيل ذلك فوق كل نقص، والارتقاء بالروح إلى حيث تستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله، وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة، فمن العدوان منع أصحاب الدين الجديد من أداء هذه الفريضة.

ولكن قريشاً خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته وهم من صميم أهل مكة أن يتعلق سواد المكّيين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم، فيكون ذلك نواة حرب أهلية، ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة، لم ينسوا لمحمد ﷺ والذين معه أنهم حطّموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبّدة إلى الشام، وأنهم أثاروا بذلك في نفوسهم من الحقد والبغضاء ما لا يخفف منه أن البيت لله وللعرب جميعاً، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه.

### المسلمون والكعبة:

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحج والعمرة، وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي ﷺ بما ألهم في رؤياه الصادقة: أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، فما كاد القوم يسمعون

إلى رؤيا رسول الله ﷺ حتى علا بحمد الله صوتهم، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أفيجلون قريشاً عنه عنوة؟! أم تُرى تفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة؟». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧١-٣٧٣].

### الفرصة المواتية لزيارة البيت الحرام:

يقول أ/ دويدار: «في السنة السادسة فُرض الحج والعمرة، ورأى رسول الله ﷺ في منامه ذات ليلة أنه دخل المسجد الحرام في أصحابه، آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين، لا يخافون عدواً يصدمهم ولا مانعاً يمنعهم، فاستبشر بذلك، وقص ما رأى على أصحابه فاستبشروا وفرحوا، واستيقنوها حقيقة واقعة لا شك فيها؛ فإن رؤيا الأنبياء حق، وإلهام من الله لهم بما سيكون من قابل أمرهم.

وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون في أشد الشوق إلى زيارة البيت الحرام، فحرّكت هذه الرؤيا كوامن الشوق والحنين في نفوسهم، وعزم ﷺ أن يزور البيت في عامه هذا.

وكانت الفرصة مواتية والظروف كلها مهيأة لهذه الزيارة؛ فالأمن في المدينة مستتب بعد خلوها من اليهود؛ والمنافقون مخضودو الشوكة مكسورو الجناح بعد ذهاب أنصارهم؛ والأعراب في البادية قد أمنت جوانبهم بعد ما عاينوا من يقظة المسلمين لمكايدهم، وقوة بأسهم في الذود عن حماهم والدفاع عن عقيدتهم؛ ورهبة الإسلام قد تملكت القلوب وزلزلت النفوس، بعد ما بدا للناس من دفع الله عنه وتأييده له؛ وموسم الزيارة قد أهلّ وتبيأت له العرب قاصيها ودانيها، فلم لا يتتهز المسلمون هذه الفرصة، فيقصدوا البيت مع القاصدين، ويدخلوه مع الداخلين؟

ولعل قريشاً قد لانت عريكتها وخفّضت من غلوائها في عداوة الإسلام، بعد ما جربت في محاربتها كل وسائل القوة وكل وسائل اللين، فلم تستطع أن تنال منه منالاً؛ بل كلما حاولت أن تُضعفه زاد قوة، وكلما حاولت أن تُطفئه زاد نوراً، وكلما ازدادت محاولات القضاء عليه ازداد الناس فيه دخولاً وعليه إقبالاً.

على أنه مهما يكن من أمر قريش فليس لها أن تمنع المسلمين وحدهم زيارة البيت، الذي جعل للناس سواء العاكف فيه والباد، فإن هي فعلت فقد أشهدت الناس على ظلمها وعدوانها، وألزمت نفسها الحجة ببغيها وطغيانها. [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٥٢-٤٥٣].

### رؤيا الرسول ﷺ بدخول مكة:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ رَاوِيًا عَنْ شَيْخِهِ: «قَالُوا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَى فِي النَّوْمِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ وَحَلَّقَ رَأْسَهُ، وَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْبَيْتِ، وَعَرَفَ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ (أي: وقف على عرفة)، فَاسْتَفَرَّ أَصْحَابَهُ إِلَى الْعُمْرَةِ، فَاسْرِعُوا وَتَهَيَّؤُوا لِلْخُرُوجِ...»

وَخَرَجَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ لَا يَشْكُونَ فِي الْفَتْحِ؛ لِلرُّؤْيَا الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[المغازي للواقدي ٥٧٢/٢].

يقول د/ الحكمي: «درج كثير من أهل المغازي على جعل السبب في خروج المسلمين لهذه الغزوة رؤيا رآها النبي ﷺ قبيل خروجه، وملخصها: أن رسول الله ﷺ رأى أنه دخل البيت هو وأصحابه وطافوا به، وحلق بعضهم وقصّر البعض، وأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا.

وأول من أثبت هذا السبب - حسب علمي - هو الواقدي، ثم تابعه كثير ممن كتب في المغازي كاليقوبي [تاريخ اليعقوبي ٥٤/٢]، والمقرئ [إمتاع الأسماع ٢٧٤/١]، والزرقاني [شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١٧٩/٢]، وصاحب تاريخ الخميس [تاريخ الخميس ١٧٩/٢]، والشيخ محمد بن عبد الوهاب [مختصر سيرة الرسول ﷺ ٢٦١]، وغيرهم.

وقد ترددت كثيراً في إثبات تلك الرؤيا سبباً للغزوة؛ لأن أول من أثبتها - كما أشرت - هو الواقدي، بينما أغفلها من هو أثبت منه كابن إسحاق وابن سعد وغيرهما.

لكن بعد البحث والتتبع وجدت ما يشهد لها ويدل على أن لها أصلاً وذلك من القرآن والحديث: قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقد ذكر المفسرون أن سبب نزول هذه الآية هو التساؤل الذي حصل حول الرؤيا.

قال ابن جرير: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: ثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: ثَنَا عِيسَى، وَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ، قَالَ: ثَنَا الْحَسَنُ، قَالَ: ثَنَا وَرْقَاءُ، جَمِيعًا، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] قَالَ: أَرَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْحَدِيثِ أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ وَأَصْحَابُهُ مُحَلِّقِينَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ حِينَ نَحَرَ بِالْحَدِيثِ: أَيْنَ رُؤْيَا مُحَمَّدٍ ﷺ؟ [تفسير ابن جرير ١٠٧/٢٦]. سند هذا الأثر حسن إلى مجاهد لكنه مرسل.

وقال ابن جرير: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: قَالَ هُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْكُمْ سَتَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ»، فَلَمَّا نَزَلَ بِالْحَدِيثِ وَلَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْعَامَ طَعَنَ الْمُنَافِقُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَيْنَ رُؤْيَا؟ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] إِنِّي لَمْ أَرَهُ يَدْخُلُهَا هَذَا الْعَامَ، وَلَيَكُونَنَّ ذَلِكَ. [تفسير ابن جرير ١٠٧/٢٦].

سند هذا الأثر صحيح إلى ابن زيد وهو عبد الرحمن بن زيد ضعيف، ضعفه ابن معين، وابن المديني،

وأحمد والنسائي، وغيرهم. [ميزان الاعتدال ٥٦٤/٢].



لكن معنى الأثرين ثابت من حديث المسور ومروان ففيه من رواية معمر عند البخاري: «فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله أوكيس كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرت أنك أنأتني العام؟ قال: قلت: لا، قال: فإنك أتيت ومطوف به. [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وفي حديثهما من رواية ابن إسحاق عند أحمد بسند حسن: «وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح؛ لرواياتهم أنها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا...».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

فالآية وما في حديث المسور ومروان تدل على أنه قد حصل للنبي ﷺ رؤيا خرج المسلمون إثرها لهذه

الغزوة». [مرويات الحديبية للحكمي ٣٧-٤١].

### تاريخ الخروج للعمرة:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوالاً، وخرج في ذي القعدة معتمراً، لا يريد حرباً. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٠٨].

قال الواقدي: «وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الاثنين ليلال ذي القعدة».

[المغازي للواقدي ٢/٥٧٣، وقد استفاض د/ الحكمي في استعراض ما يدل على هذا التاريخ، وقال في نهاية حديثه: ولم أر في كتب المغازي أو غيرها أحداً يذكر خلاف ذلك، بل حكى العيني الإجماع على ذلك: قال العيني: وكان خروجه ﷺ يوم الاثنين ليلال ذي القعدة سنة ست بلا خلاف. مرويات غزوة الحديبية ٤٣-٥٦].

وعن البراء رضي الله عنه: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاصاهم لا يدخل مكة سلاحاً إلا في القرب. [البخاري في الحج (١٨٤٤)].

وعن قتادة قال: سألت أنسا رضي الله عنه فقال: اعتمر النبي ﷺ حيث رذوه، ومن القابل عمرة الحديبية، وعمرة في ذي القعدة، وعمرة مع حجته. [البخاري في العمرة (١٧٧٩)].

وعن قتادة أن أنسا رضي الله عنه أخبره قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمر كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت [اعتمر] مع حجته: عمرة من الحديبية [أو زمن الحديبية] في ذي القعدة، وعمرة [عمرته من الحديبية] من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته.

[البخاري في المغازي (٤١٤٨)، وفي الحج (١٧٨٠)، ومسلم في الحج (١٢٥٣)، وأبو داود في المناسك (١٩٩٤)].

وعن قتادة: سألت أنسا رضي الله عنه: كم اعتمر النبي ﷺ؟ قال أربع: عمرة الحديبية في ذي القعدة، حيث صدّه المشركون، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة حيث صالحهم، وعمرة الجعرانة إذ قسم غنيمة أراه حنين، [وعمرة مع حجته]، قلت: كم حج؟ قال: واحدة.

[البخاري في الحج (١٧٧٨)، ومسند أحمد ٢١/١٩٠ رقم ١٣٥٦٥].

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: كَمْ حَجَّ النَّبِيُّ؟ قَالَ: حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَاعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ: عُمَرَةً فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَعُمَرَةً الْحُدَيْبِيَّةَ، وَعُمَرَةً مَعَ حَجَّتِهِ، وَعُمَرَةً الْجِعْرَانَةَ إِذْ قَسَمَ غَنِيمَةَ حُنَيْنٍ.

[الترمذي في الحج (٨١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وقال البيهقي: «أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْفَضْلِ الْقَطَّانُ بِبَغْدَادَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ دُرُسْتَوَيْهِ النَّحْوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ أَبِي نُعَيْمٍ، عَنْ نَافِعِ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَتْ الْحُدَيْبِيَّةُ سَنَةً سِتًّا بَعْدَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ.

قُلْتُ: هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ، وَمُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، وَغَيْرُهُمْ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ عَلَى عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ الْفَضْلِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ ابْنُ الْحَلِيلِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَتْ الْحُدَيْبِيَّةُ فِي شَوَالٍ.

قَالَ يَعْقُوبُ: قَالَ حَسَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ هِلْعَةَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَجَهَّزَ يُرِيدُ الْعُمَرَةَ وَتَجَهَّزَ مَعَهُ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَذَلِكَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ. [دلائل النبوة للبيهقي ٩٠-٩٢].

## المبحث الرابع

## إعلان النبي ﷺ عن الخروج إلى العمرة

## الخروج للعمرة:

يقول أ/باشميل: «ويظهر أن المسلمين أدرجوا ما عليه اليهود من خوف ورعب منهم، وأنهم أصبحوا في حالة من الانهيار المعنوي، بحيث يستحيل عليهم التحرك من خير لغزو المدينة حتى ولو غادرها أكثر المحاربين المسلمين إلى أية جهة أرادوا.

ولذلك وبعد أن أصبح المسلمون في ذلك المركز العسكري الممتاز وأصبحوا قوة فرضت هيبتها على كل منطقة يثرب وكل المناطق المجاورة لها بعد الانتصارات الساحقة التي سجلها على قوات الأحزاب الضاربة، وعلى خونة يهود بني قريظة بتلك التصفية الدموية العادية الحاسمة وبعد أن بثت الرعب وأشاعت الخوف بين عناصر يهود خيبر، قرروا «على ما في ذلك من تحد لمعسكر الشرك الخائق في مكة» أن يقوموا بزيارة البيت الحرام، مطلب ظلوا عاجزين عن تحقيقه طيلة خمس سنوات كاملة لبطر وتعنت المشركين في مكة الذين كانت لهم الصولة والدولة طيلة هذه المدة.

لقد كان العرف المتبع والقانون السائد - غير المكتوب - بين العرب منذ آلاف السنين أن زيارة البيت العتيق والطواف به حق مشاع لجميع العرب مهما تباينت آراؤهم واختلفت مذاهبهم في العبادة، لا يجوز لقريش سادنة البيت والمسؤولة عن الأمن في الحرم أن تحول بين أي إنسان وبين دخول الحرم لزيارة البيت وباقي المشاعر التي درج العرب على زيارتها منذ عهد الخليل إبراهيم عليه السلام.

ولكن قريشاً - وهي الحاكمة بأمرها في مكة - بلغ بها البغي والشطط إلى منع المسلمين - خاصة - من زيارة البيت وباقي المشاعر، وهدر دمائهم وإباحة سفكها حتى ولو وجدوا مهللين ملبّين داخل الحرم. لقد صبر المسلمون وامتنعوا عن الذهاب إلى مكة طيلة هذه الخمس السنوات، والسبب في ذلك أنهم كانوا - من الناحية العسكرية - في مركز لا يمكنهم من مباشرة حقهم الشرعي من الطواف بالبيت واقتحام مكة عنوة لمباشرة هذا الحق المشروع إذا ما حاولت قريش منعهم من مباشرته بالقوة.

أما وقد أصبحوا قوة لها وزنها قادرة على مباشرة هذا الحق ولو عن طريق اقتحام مكة عنوة، فلا بد لهم من التوجه إلى مكة لأداء نسك العمرة الذي حُرِّموا منه - بغياً وعدواناً - طيلة خمس سنوات كاملة.

لذلك أعلن النبي ﷺ في الحاضرة والبادية أنه قرر التوجه إلى مكة، وأعلن صراحة أنه لا يريد دخول مكة غازياً وإنما معتمراً مسالماً، وأرسل إلى قريش من يبلغها ذلك لئلا تظن أنه جاء محارباً.

[صلح الحديبية لباشميل ١٠٨-١٠٩].

## استنفار العرب والأعراب:

يقول أ/ دويدار: «ولكي يقطع رسول الله ﷺ على قريش كل حجة، ويؤكد لها وللناس أنه إنما أتى إلى البيت زائراً مسالماً، خرج في ذي القعدة مُعْتَمِراً لا يريد حرباً، واستنفر العرب ومن حوله من العرب من أهل البوادي ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٥٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَاسْتَنْفَرَ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِي صَنَعُوا، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ؛ وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ زَائِراً هَذَا الْبَيْتِ وَمُعْظَمًا لَهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٨/٢].

## تشبيط المنافقين:

يقول أ/ باشميل: «وبالرغم من كثرة المتسبين إلى الإسلام في الحاضرة والبادية في تلك الفترة، فإنه لم يستجب لدعوة الاستنفار هذه إلا الخلقاء المؤمنون الصادقون من أصحابه ﷺ.

أما المنافقون من أهل المدينة، وضعاف الإيثار من الأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، فقد تحاذلوا وقرروا عدم مرافقة النبي ﷺ في هذه الرحلة التاريخية؛ لأنه رسخ في نفوسهم المريضة أن مشركي مكة سيحولون دون دخول النبي ﷺ ومن معه مكة بالقوة، ومعنى ذلك أن المسلمين ونبیهم سيضطرون لخوض حرب ضروس بعيدين عن بلادهم، فهي إذن رحلة مخوفة بالأخطار الجسام، والمنافقون ليس لديهم أي رصيد من الإيمان يجعلهم يتسهلون بهذه الأخطار في سبيل مرضاة الله.

لذلك تناقلوا وتخلفوا عن ركب الإيمان متعللين بشتى الأعذار الكاذبة من ذلك أن انشغالهم بأهليهم وأموالهم، لا يسمح لهم بمصاحبة النبي ﷺ في هذه الرحلة.

بينما الباعث الحقيقي لهذه الانزامية والتناقل هو ما رسخ في نفوسهم الضعيفة، من أن المسلمين سيخوضون حرباً ضروساً مع قريش، وأنهم قد لا يعودون سالمين إلى المدينة، هكذا ظنوا، بل هكذا كانوا يتهايمسون فيما بينهم.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمُرُّ بِالْأَعْرَابِ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَيَسْتَنْفِرُهُمْ، فَيَسْتَاعِلُونَ لَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَذَرَارِيَّتِهِمْ - وَهُمْ بَنُو بَكْرِ، وَمَزَيْنَةُ، وَجُهَيْنَةُ - فَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَيْرِدُ مُحَمَّدٌ يَغْزُو بَنَاءَ إِلَى قَوْمٍ مُعِيدِينَ مُؤَيَّدِينَ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ؟ وَإِنَّمَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ، لَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا أَبَدًا! قَوْمٌ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ وَلَا عُدَّةً، وَإِنَّمَا يَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ حَدِيثٍ عَهْدُهُمْ بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ بِبَدْرٍ!». [الغازي للواقدي ٥٧٤-٥٧٥].

## القرآن يوضحهم:

غير أن ضعاف النفوس هؤلاء، قد فضحهم القرآن الكريم فيما بعد، وكشف لنبيه ﷺ ولكل الناس حقيقة أمرهم، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ [الفتح].

وقال تعالى كاشفًا ما يعتقده هؤلاء المنافقون من أن المسلمين سيبادون في رحلتهم هذه عن بكرة أبيهم على أيدي قريش: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ بَنُقَلِّبَ الرُّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝﴾ [الفتح].

## الصفوة المختارة:

غير أن هذه الانهزامية التي قعدت بالمنافقين وجعلتهم يثبطون عزائم ضعاف النفوس ليمتنعوا عن مرافقة النبي الأعظم ﷺ في هذه الرحلة السلمية التاريخية، هذه الانهزامية لم يكن لها أي أثر على عزائم الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين لم يكادوا يسمعون صوت الاستنفار الذي وجهه النبي ﷺ للانضمام إلى ركبته المبارك للتوجه إلى مكة حتى تسابقوا فرحين مستبشرين ملين نداء نبيهم العظيم، مستهينين بما يهوله المنافقون من أخطار جسام قد تحف - من جانب قريش - بهذه الرحلة التي تحمل كل معاني التحدي لقريش وكبرياتها الوثني.

لأن هذه الصفوة المختارة واثقة كل الثقة من أن سعادتها في الدنيا وفلاحها في الآخرة إنما هو في طاعة أوامر نبيها الذي لا يمكن أن يدعوها إلا إلى خير.

فقد التف حول النبي ﷺ ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار تهيؤوا معه للخروج إلى مكة. وبعد أن تجهزوا للسفر خرج بهم ﷺ من المدينة في اتجاه مكة وكان بينهم مائتا فارس. وعندما وصل ذا الحليفة (في ضواحي المدينة تقع على بعد حوالي عشرة أميال منها، وتسمى ذو الحليفة اليوم: بأبيار علي) أحرم بالعمرة وأعلن ذلك ليعلم الناس جميعاً أنه لم يخرج للحرب، وإنما خرج لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة، وقد أحرم معه عامة أصحابه ﷺ. [صلح الحديبية لباشميل ١١٠-١١٢].

## أمير على المدينة:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «وَأَسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ نُمَيْلَةَ بِنَ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيَّ ۝». [السيرة لابن هشام ٣٠٨/٢]. وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: «وَأَسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ۝». [المغازي للواقدي ٥٧٣/٢]. وقال أ/ باشميل: «وكما هي عادته عندما يعتزم الغياب عن المدينة في غزو أو غيره أصدر مرسومًا عين بموجه نميله بن عبد الله الليثي ﷺ محافظًا على المدينة بصرف أمورها نيابة عنه حتى عودته، كما عين ابن أم مكتوم ﷺ على الصلاة يؤم المسلمين نيابة عنه حتى يعود». [صلح الحديبية لباشميل ١١٢-١١٣].

## الاستعداد للطوارئ:

يقول أ/ باشميل: «ولكنه ﷺ مع نواياه السلمية وتجرده الكامل في هذه الرحلة للنسك أدخل في حسابه أن قريشاً قد تحاربه وتصدّه عن البيت بقوة السلاح، فقرر أن يحتاط لهذا الاحتمال الذي لا يستبعد حدوثه والذي أقدمت عليه قريش الشرك بالفعل.

فقد استنفر المسلمين حاضرة وبادية ليصاحبه في هذه الرحلة التي هي دونها شك رحلة مخوفة بالأخطار؛ لأنه لم يكن بينه وبين قريش (عدوه الرئيس) أيُّ عهد أو صلح، بل كانت الحالة بين الفريقين حالة حرب مُعلنة.

وفي ذي الحليفة أشار عمر بن الخطاب وسعد بن عباد رضي الله عنهما على رسول الله ﷺ أن يسلح أصحابه التسليح الكامل، استعداداً للطوارئ؛ لأنه لا يستبعد أن تشن قريش الحرب على المسلمين، وما يمنعه من ذلك - إذا ما قدرت عليه؟ - أليست في حالة حرب معهم؟». [صلح الحديبية لباشميل ١٠٩-١١٠].

يقول د/ الحكمي: «وقد ورد في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق سفيان عند البخاري: أنهم كانوا على استعداد لقتال من اعترض سبيلهم، وهذا يفيد أنهم قد حملوا السلاح: عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ - يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ - قَالَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ الْهُدْيَ، وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ (أي: رجلاً يستطلع له الطريق ويتحسس الأخبار) مِنْ خُزَاعَةٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ، أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالًا: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ (هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث في محاربتهم قريشاً، والتحشيش التجمع، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً، فسموا بذلك)، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ.

فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَائِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ بَأَثُونَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مُحْرَوِّينَ (مسلوبين منهوبين)».

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ! خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهَ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، قَالَ ﷺ: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ». [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي كتاب السير (٨٥٢٨)، وهو جزء من حديث المسور ومروان في مسند أحمد ٣١/٢٤٣-٢٥٣ رقم ١٨٩٢٨].

وكان مع المسلمين خيل كذلك لكن لم أقف على شيء في عددها سوى ما ذكر ابن سعد قال: وقدم عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فرساً من خيل المسلمين. [الطبقات الكبرى ٢/٩٥].

وليس فيما ذكر ابن سعد تحديد لعدد الخيل بل يفهم من كلامه أنها كانت أكثر مما ذكر؛ لأن (من) في قوله: (من خيل المسلمين) تبعية. [وقد ذكر صاحب السيرة الحلبية: أنه كان مع المسلمين مائتا فرس ٢/ ٦٩٠، وتبعه باشميل، صلح الحديبية: ١٢٦].

وإذن فالنبي ﷺ قد استعد بالرجال كما ذكر ابن إسحاق وبالسلاح، وهو مفهوم حديث المسور ومروان، وبالخيل كما ذكر ابن سعد، وقد نص على ذلك كله حديث سلمة بن الأكوع ﷺ يقول فيه: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَتَحَرَ مَائَةٌ بَدَنَةٍ، وَنَحْنُ سَبْعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَمَعَهُمْ عِدَّةُ السَّلَاحِ وَالرَّجَالِ وَالْخَيْلِ... [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ٣٨٠١].

وهذا الحديث ضعيف لأنه من طريق موسى بن عبيدة الربذي، وقد ضعفه الحفاظ لكن يستأنس به مع ما سبق من الشواهد وأقوال أصحاب المغازي.

وقد ذكر الواقدي أنهم خرجوا بغير سلاح وأورد أثريين عن عمر بن الخطاب وسعد بن عبادَةَ ﷺ يفيدان أن النبي ﷺ أبى أن يحمل السلاح.

قال الواقدي: «فَخَرَجُوا بِغَيْرِ سِلَاحٍ إِلَّا السُّيُوفَ فِي الْقُرْبِ... فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: أَتَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْنَا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ، وَلَمْ نَأْخُذْ لِلْحَرْبِ عُدَّتَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَدْرِي، وَلَكِنَّتُ أَحِبُّ أَحْمِلُ السَّلَاحَ مُعْتَمِرًا».

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ حَمَلْنَا السَّلَاحَ مَعَنَا، فَإِنْ رَأَيْنَا مِنَ الْقَوْمِ رِيًّا كُنَّا مُعِدِّينَ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَكِنَّتُ أَحْمِلُ السَّلَاحَ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٢-٥٧٣].

وهذان الأثران ضعيفان، إذ لا أسانيد لهما، وقول الواقدي مرجوح لمخالفته غيره من أهل المغازي.

وقد أخرج ابن جرير بإسناده إلى ابن أبيزى رواية ثبت فيها خلاف ما ذكر الواقدي من جواب الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ: حَدَّثَنَا ابْنُ مُهْمِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ الْقُمَيْ، عَنْ جَعْفَرٍ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي الْمُغِيرَةِ - عَنْ ابْنِ أَبِيزَى، قَالَ: لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْهَدْيِ، وَانْتَهَى إِلَى ذِي الْحُلَيْفَةِ، قَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَدْخُلُ عَلَى قَوْمٍ هُمْ لَكَ حَرْبٌ بِغَيْرِ سِلَاحٍ وَلَا كُرَاعٍ! (اسم لجميع الخيل) قَالَ: فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمْ يَدَعْ فِيهَا كُرَاعًا وَلَا سِلَاحًا إِلَّا حَمَلَهُ. [تاريخ الطبري ٢/ ٦٢٢، تفسير الطبري ٢١/ ٢٩١ ط هجر].

هذا الحديث مرسل، وسنده إلى ابن أبيزى ضعيف؛ لأن فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي؛ ضعفه أبو حاتم وغيره واتهمه أبو زرعة وغيره بالكذب. [مرويات الحديبية للحكمي ٦١-٦٦].

### علامات النسك لا الحرب:

وساق معه ﷺ سبعين بدنة (البدنة - بفتح أوله وثانيه -: من الإبل والبقر كالأضحية تهدي إلى مكة) هديًا أشعرها (أي أعلمها، قال في النهاية في غريب الحديث: إشهار البدن هو أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمه). ويجعل ذلك علامة تعرف بها أنها هدي، وقلدها ليعلم الناس أنها هدي فيكفوا.

قَالَ الْوَأَقِدِيُّ: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِإِهْلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ، فَأَغْتَسَلَ فِي بَيْتِهِ وَلَبَسَ ثَوْبَيْنِ مِنْ نَسِجِ صَحَارٍ (قرية باليمن ينسب الثوب إليها)، وَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ الْقُصْوَاءَ مِنْ عِنْدِ بَابِهِ، وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، ثُمَّ دَعَا بِالْبُذْنِ فَجُلِّلَتْ (تجليل الفرس: أن تلبسه الجل، أي الغطاء)، ثُمَّ أَشْعَرَ (ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بدمها إشعارًا بأنه هدي) بِنَفْسِهِ مِنْهَا عِدَّةً، وَهُنَّ مَوْجِهَاتٌ إِلَى الْقِبْلَةِ فِي الشَّقِّ الْأَيْمَنِ، وَيُقَالُ: دَعَا بِبَدَنَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَشْعَرَهَا فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ أَمَرَ نَاجِيَةَ بْنَ جُنْدُبٍ ﷺ بِإِشْعَارِ مَا بَقِيَ، وَقَلَّدَهَا نَعْلًا نَعْلًا، وَهِيَ سَبْعُونَ بَدَنَةً فِيهَا جَهْلُ أَبِي جَهْلٍ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَمَمُهُ بِذُرٍّ، وَكَانَ يَكُونُ فِي لِقَاحِهِ بِذِي الْجُدْرِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٣].

#### شاري بُدْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وراعيه:

قال الواقدي: «وَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ بُسْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ فِي لَيَالٍ بَقِيَتْ مِنْ شَوَالٍ سَنَةِ سِتٍّ، فَقَدِمَ مُسْلِمًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَائِرًا لَهُ، وَهُوَ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بُسْرُ، لَا تَبْرَحْ حَتَّى تَخْرُجَ مَعَنَا فَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ مُعْتَمِرُونَ».

فَأَقَامَ بُسْرُ ﷺ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسْرَ بْنَ سُفْيَانَ يَتَأَمَّلَ لَهُ بُدْنًا، فَكَانَ بُسْرُ يَتَأَمَّلُ الْبُذْنَ وَيَبْعَثُ بِهَا إِلَى ذِي الْجُدْرِ، حَتَّى حَضَرَ خُرُوجُهُ فَأَمَرَ بِهَا فَجُلِبَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا نَاجِيَةَ بْنَ جُنْدُبٍ الْأَسْلَمِيَّ ﷺ أَنْ يُقَدِّمَهَا إِلَى ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى هَذِهِ نَاجِيَةَ بْنَ جُنْدُبٍ ﷺ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٢].

#### هدي الموسرين من الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُم:

وساق الموسرون من الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُم معهم هديًا خاصًا بهم.

قَالَ الْوَأَقِدِيُّ: «وَسَاقَ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْهَدْيَ أَهْلُ قُوَّةٍ - أَبُو بَكْرٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ - سَاقُوا هَدْيًا حَتَّى وَقَفَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، وَسَاقَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ بُدْنًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٢-٥٧٣].

#### صلاة المسلمين بذِي الحليفة وإحرامهم بالعمرة:

خرج رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من الأعراب، فلما انتهى إلى ذِي الحليفة نزل بها وصلى بها الظهر.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ: هَلْ بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ صَلَّى بِهَا، وَلَمْ يُبَايِعْ عِنْدَ شَجَرَةٍ إِلَّا الشَّجَرَةَ الَّتِي بِالْحَدْيِيَّةِ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَيْتِ الْحَدْيِيَّةِ. [مسلم في الإمامة (١٨٥٦)، ومسند أحمد ٢٢/ ٣٧٠ رقم ١٤٤٨٥].



وَعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ قَالَا: قَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرُهُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِالْعُمْرَةِ، حَلَقَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي عُمْرَتِهِ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَنَحَرَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ. [مسند أحمد ٣١/٢٣٦ رقم ١٨٩٢٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ مَرْوَانَ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَ وَأَحْرَمَ مِنْهَا.

وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: «مِنْ عُمْرَةٍ»، وَلَمْ يُسَمِّ الْمِسْوَرَ «وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا... [مسند أحمد ٣١/٢٣٩ رقم ١٨٩٢٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ وَدَعَا بِرِجْلَيْهِ فَرَكِبَهَا مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا انْبَعَثَ بِهِ مُسْتَقْبِلَةَ الْقِبْلَةِ أَحْرَمَ وَلَبَّى بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ»، وَأَحْرَمَ عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ بِإِحْرَامِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُحْرِمَ إِلَّا مِنَ الْجُحْفَةِ». [المغازي للواقدي ٢/٥٧٤].

ولم يعين في حديث جابر رضي الله عنه هذا الصلاة التي صلوها بذِي الحليفة، لكن ذكر الواقدي [مغازي ٢/٥٧٣]، وابن سعد [الطبقات الكبرى ٢/٩٥] أنهم صلوا بها صلاة الظهر.

ثم أحرم النبي ﷺ وأصحابه بالعمرة، وساقوا الهدْيَ: عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ قَالَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ. [البخاري في الحج (١٦٩٥)].

وَعَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ يُرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ سَبْعِينَ بَدَنَةً...».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن].

### النساء المعتمرات:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَخَرَجَ مَعَهُ ﷺ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ: أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأُمُّ عُمَارَةَ، وَأُمُّ مَنِيعٍ، وَأُمُّ عَامِرٍ الْأَشْهَلِيَّةُ». [المغازي للواقدي ٢/٥٧٤].

### والمنافقون أيضاً:

يقول أبو بَاشْمِيل: «كما صاحبه ﷺ في هذه الرحلة التاريخية أيضاً اثنان من كبار المنافقين وهما عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس، وذلك بالرغم من أن أكثرية المنافقين لم يخرجوا، ولا شك أن ابن أبي والجد بن قيس لم يخرجوا بدافع الإيثار، وإنما لدوافع قد يكون منها محاولة إثارة الفتنة والتشكيك بين

المسلمين في هذه الرحلة إن أمكنهم ذلك، كما حدث وأن خرجوا في غزوة بني المصطلق، وأثاروا نيران تلك الفتنة اللاهبة التي كادت تشعل نيران حرب أهلية لا تبقي ولا تذر». [صلح الحديبية لباشمیل ١١٦].

### عدد المسلمين مع النبي ﷺ:

جاءت الروايات في عددهم على ثلاثة أوجه: فمن قائل أنهم كانوا ألفاً وثلاثمائة، ومن قائل أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، ومن قائل أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة، وكلها في الصحيح، وقيل غير ذلك. يقول د/ الحكمي: «وردت نصوص كثيرة تشير إلى عدد المسلمين في هذه الغزوة جاء في بعضها أنهم كانوا بضع عشرة مائة، وورد في بعضها تحديد عددهم لكنها اختلفت فيه اختلافاً كبيراً. وسأورد تلك النصوص ثم أذكر التوفيق بينها إن شاء الله:

١ - ما ورد بأنهم كانوا بضع عشرة مائة: عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ حُزَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي بُضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ... [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩، ٤١٥٧، ٤١٥٨)، ومسنند أحمد ٣١/٢١٠ رقم ١٨٩٠٩].

٢ - التحديد بألف وثلاثمائة: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ﷺ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِائَةٍ، وَكَأَنَّهُ أَسْلَمَ ثَمَنَ الْمُهَاجِرِينَ... [مسلم في الإمامة (١٨٥٧)، والبخاري في المغازي (٤١٥٥)].

٣ - ما ورد في التحديد بألف وأربعمائة: عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ. [البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٠)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «أَنْتُمْ [اليوم] خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ، وَلَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ (هي السمرة التي وقعت البيعة تحتها). [البخاري في المغازي (٤١٥٤)، ومسلم في الإمامة (١٨٥٦، ١٨٥٨)، ومسنند أحمد ٢٢/٢١٥ رقم ١٤٣١٣].

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ حَضَرْتُ الْعَصْرَ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ غَيْرَ فَضْلَةٍ، فَجُعِلَ فِي إِنَاءٍ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ بِهِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ، وَفَرَجَ أَصَابِعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «حَيَّ عَلَى أَهْلِ الْوُضُوءِ الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَتَجَرَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ النَّاسُ وَشَرَبُوا، فَجَعَلْتُ لَا أَلُو (أفصر) مَا جَعَلْتُ فِي بَطْنِي مِنْهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ بَرَكَةٌ. قُلْتُ لِحَابِرٍ ﷺ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ.

تَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ، وَقَالَ حُصَيْنٌ وَعَمْرُو بْنُ مَرَّةٍ عَنْ سَالِمٍ عَنْ جَابِرٍ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَتَابَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ. [البخاري في الأشربة (٥٦٣٩)].

وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ سَمِعَ جَابِرًا رضي الله عنه يُسْأَلُ: كَمْ كَانُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ؟ قَالَ: كُنَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهِيَ سَمُرَةٌ، فَبَايَعْنَاهُ غَيْرَ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ الْأَنْصَارِيِّ، اخْتِبَاءً تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرِهِ.

[مسلم في الإمارة (١٨٥٦)].

وَعَنْ الْأَعْمَشِ حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرٍ رضي الله عنه: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِائَةٍ.

[مسلم في الإمارة (١٨٥٦)].

وَعَنِ الدَّيَالِ بْنِ حَرْمَلَةَ قَالَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: كُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِائَةٍ. [مسند أحمد ٢٢/١٤٣٣٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف جدًا من أجل نصر بن باب وحجاج - وهو ابن أروطة - مدلس وقد عنعنه].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعُ مِائَةٍ، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهِيَ سَمُرَةٌ، وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلَا نَفَرٍ، وَلَمْ تُبَايَعْ عَلَى الْمَوْتِ. [مسلم في الإمارة (١٨٥٦)، ومسند أحمد ٢٣/١٢٥، ٣٠٨ رقم ١٤٨٢٣، ١٥٠٧٨، والدارمي في السير (٢٤٥٤)].

وَعَنِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ الْعَبَّاسُ أَخِذًا بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُوَاتِقُنَا، فَلَمَّا فَرَعْنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخَذْتُ وَأَعْطَيْتُ»، قَالَ: فَسَأَلْتُ جَابِرًا يَوْمَئِذٍ: كَيْفَ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْلَى الْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفَرٍ، قُلْتُ لَهُ: أَفَرَأَيْتَ يَوْمَ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَخِذًا بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَتَّى بَايَعْنَاهُ، قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا أَرْبَعُ عَشْرَ مِائَةٍ، فَبَايَعْنَاهُ كُلُّنَا إِلَّا الْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ، اخْتِبَاءً تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرٍ، وَنَحَرْنَا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ مِنَ الْبَدَنِ، لِكُلِّ سَبْعَةٍ جَزُؤٌ.

[مسند أحمد ٢٣/٤٠٧-٤٠٨ رقم ١٥٢٥٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل عبد الرحمن بن أبي الزناد].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا [مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْبَعُ <sup>(١)</sup> عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةُ بَيْتٌ، فَتَرَحُّنَا حَتَّى لَمْ نَتْرَكْ فِيهَا قَطْرَةً [شَيْئًا]، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَفِيرِ (شفير كل شيء حرفة) الْبَيْتِ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ، وَمَجَّ فِي الْبَيْتِ، فَمَكَّنَا [ثُمَّ تَرَكْنَاهَا] غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ اسْتَقَيْنَا حَتَّى رَوَيْنَا وَرَوَتْ - أَوْ صَدَرَتْ - رَكَائِبُنَا [فَأَصْدَرْتَنَا نَحْنُ وَرَكَائِبُنَا نَشْرَبُ مِنْهَا مَا شِئْنَا].

[البخاري في المناقب (٣٥٧٧)، ومسند أحمد ٣٠/٥٣٣ رقم ١٨٥٦٤].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةُ بَيْتٌ فَتَرَحُّنَا فَلَمْ نَتْرَكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَمَضْمَضَ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِهْمَا أَصْدَرْتَنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرَكَائِبُنَا. [البخاري في المغازي (٤١٥٠)].

(١) قال ابن حجر: وقيل: إِيْمَا عَدَلَ الصَّحَابِيُّ عَنْ قَوْلِهِ: أَلْفَ وَأَرْبَعِائَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْجَيْشَ كَانَ مُنْقَسِمًا إِلَى الْإِمَاتِ وَكَانَتْ كُلُّ مِائَةٍ مُمْتَازَةً عَنْ الْأُخْرَى إِمَّا بِالنَّسَبِ إِلَى الْقَبَائِلِ وَإِمَّا بِالنَّسَبِ إِلَى الصِّفَاتِ. الفتح ٧/٤٤٤.

وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: أَتَيْنَا الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رضي الله عنه: أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ أَوْ أَكْثَرَ، فَتَزَلُّوا عَلَى بَيْتٍ فَتَرَحُّوْهَا، فَاتُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى الْبَيْتَ، وَقَعَدَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «اتُّوْنِي بِدَلْوٍ مِنْ مَائِهَا»، فَأَتَى بِهِ، فَصَقَ فِدْعَا، ثُمَّ قَالَ: «دَعُوْهَا سَاعَةً»، فَأَرَوْوْا أَنْفُسَهُمْ وَرِكَابَهُمْ حَتَّى ارْتَحَلُوا. [البخاري في المغازي (٤١٥١)].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: انْتَهَيْنَا إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ]، وَهِيَ [وَالْحُدَيْبِيَةُ] بَيْتٌ قَدْ نَزَحَتْ، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: [فَإِذَا فِي السَّمَاءِ قَلَّةٌ] فَتَنَزَّعَ مِنْهَا دَلْوٌ، فَمَضْمَضَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُ، ثُمَّ مَجَّ فِيهِ وَدَعَا، قَالَ: فَرُويْنَا وَأَرُويْنَا. وَقَالَ وَكَيْعٌ: أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِائَةً. [مسند أحمد ٥٣٢/٣٠، رقم ١٨٥٦٣، ٦١٣/٣٠ رقم ١٨٦٧١، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَالْحُدَيْبِيَةُ بَيْتٌ، فَتَرَحَّنَا فَلَمْ نَتْرِكْ فِيهَا شَيْئًا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، فَدَعَا بِإِنَاءٍ فَمَضْمَضَ ثُمَّ مَجَّ فِيهِ، ثُمَّ تَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَصْدَرْتَنَا نَحْنُ وَرِكَابُنَا نَشْرَبُ مِنْهَا مَا شِئْنَا.

[مسند أحمد ٥٣٣/٣٠ رقم ١٨٥٨٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيَّ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ، وَأَنَا رَافِعٌ غُضُنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: لَمْ يُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى الْآلِ نَفَرٍ.

[مسلم في الإمارة (١٨٥٨)، ومسند أحمد ٤١٢-٤١٣ رقم ٢٠٢٩٣].

وَعَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا خُمْسُونَ شَاةً لَا تَرُويهَا... [مسلم في الجهاد (١٨٠٧)، ومسند أحمد ٤٥/٢٧ رقم ١٦٥١٨].

٤ - ما ورد في التحديد بألف وخمسمائة: عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه

قَالَ: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ [وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْ يَدِيهِ رِكْوَةً] [إِنَاءٌ صَغِيرٌ يَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ، وَالْجَمْعُ رِكَاءٌ]، فَتَوَضَّأَ [مِنْهَا] [يَتَوَضَّأُ مِنْهَا]، فَجَهَشَ [الْجَهَشُ: أَنْ يَفْزَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَيُلْجَأُ إِلَيْهِ] [ثُمَّ أَقْبَلَ] النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ؟ [مَا شَأْنُكُمْ؟]»، قَالُوا: [يَا رَسُولَ اللَّهِ] لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ، وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ [فِي رِكْوَتِكَ]، فَوَضَعَ [النَّبِيُّ ﷺ] يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يُتَوَرَّ [يَنْبَعُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ] [يُفَوِّرُ] بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرَبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ [يَوْمَئِذٍ]؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكُنَّا، كُنَّا خُمْسَ عَشْرَةِ مِائَةٍ. [البخاري في المناقب (٣٥٧٦)، وفي المغازي (٤١٥٢)، ومسند أحمد ٣٩٨/٢٢ رقم ١٤٥٢٢].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ وَحَصِينِ سَمِيعَا سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ يَقُولُ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَصَابَنَا عَطَشٌ، فَجَهَشْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي تَوَرٍّ، فَجَعَلَ يُفَوِّرُ [يُتَوَرَّ] كَأَنَّهُ عُيُونٌ مِنْ خَلَلٍ [خِلَالِ] أَصَابِعِهِ، وَقَالَ: «اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [خُذُوا بِسْمِ اللَّهِ]»، فَشَرَبْنَا حَتَّى وَسَعْنَا وَكَفْنَا.

وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ: فَقُلْنَا لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ، وَلَوْ كُنَّا مِائَةً أَلْفٍ لَكَفَّانَا. [الدارمي في المقدمة (٢٧)، ومسند أحمد ٢٣/١٩٦ رقم ١٤٩٣٣، وقال الشيخان أسد والأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةً أَلْفٍ لَكَفَّانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً. [مسلم في الإمارة (١٨٥٦)].  
وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةً أَلْفٍ لَكَفَّانَا، كُنَّا أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ. [مسلم في الإمارة (١٨٥٦)، ومسند أحمد ٢٢/٨٧ رقم ١٤١٨١].

وَعَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه - وَكَانَ أَحَدَ الْقُرَاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ - قَالَ: شَهِدْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا عَنْهَا إِذَا النَّاسُ يَهْرُونَ (ينشطونها ويسرعون بها) [يُنْفِرُونَ] الْأَبَاعِرَ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجْنَا مَعَ النَّاسِ نُوَجِّفُ، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَاقِفًا عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْعَمِيمِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿لَا تَنْفَحْنَاكَ فَتَمَاطِينَا﴾ [١] ﴿الْفَتْحِ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفْتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»، فَقَسَّمَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ، لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَّةَ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ، فِيهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ فَارِسٍ، فَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدِيثُ أَبِي مُعَاوِيَةَ أَصَحُّ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ، وَارَى الْوَهْمَ فِي حَدِيثِ مُجَمِّعٍ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثَ مِائَةٍ فَارِسٍ، وَكَانُوا مِائَتَيْنِ فَارِسٍ. [أبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، ومسند أحمد ٢٤/٢١١-٢١٢ رقم ١٥٤٧٠، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: إسناده ضعيف، يعقوب بن مجمع بن جارية والد مجمع - وإن كان حسن الحديث - انفرد به].  
وَعَنْ مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه - وَكَانَ أَحَدَ الْقُرَاءِ الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ - قَالَ: قُسِّمَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَقَسَّмَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَمَانِيَةِ عَشَرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ، فِيهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ فَارِسٍ، فَأَعْطَى الْفَارِسَ سَهْمَيْنِ، وَأَعْطَى الرَّاجِلَ سَهْمًا.

[أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠١٥)، وقال الشيخ الألباني: حسن].  
وَعَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بِ بْنِ مَسْعُودٍ] رضي الله عنه قَالَ: زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ عَلَى عَهْدِ عَبْدِ اللَّهِ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّا كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ نَرَى الْآيَاتِ بَرَكَاتٍ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَهَا تَحْوِيفًا، بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ إِذْ حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَاءٌ إِلَّا يَسِيرٌ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَاءً فِي صَحْفَةٍ، وَوَضَعَ كَفَّهُ فِيهِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبَجِسُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ نَادَى: «حَيَّ عَلَى الْوُضُوءِ وَالْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ»، فَأَقْبَلَ النَّاسُ فَتَوَضَّؤُوا، وَجَعَلْتُ لَا هَمَّ لِي إِلَّا مَا أَذْخَلَهُ بَطْنِي، لِقَوْلِهِ «وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، فَحَدَّثْتُ بِهِ سَالِمَ بْنَ أَبِي الْجَعْدِ، فَقَالَ: كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً. [الدارمي في المقدمة (٣٠)، وقال الشيخ أسد: صحيح].

وَعَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بن مسعود] قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً، فَأَنَّى يَتَوَرَّ فَاذْخَلَ يَدَهُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَيَقُولُ: «حَيَّ عَلَى الطُّهُورِ وَالْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ ﷻ»، قَالَ الْأَعْمَشُ: فَحَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرٍ ﷺ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفٌ وَخَمْسٌ مِائَةً.

[النسائي في الطهارة (٧٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: بَلَّغَنِي أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، فَقَالَ لِي سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي جَابِرٌ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً الَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ. تَابِعَهُ أَبُو دَاوُدَ «حَدَّثَنَا قُرَّةٌ عَنْ قَتَادَةَ» تَابِعَهُ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَارٍ «حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ».

[البخاري في المغازي (٤١٥٣)].

وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ قُرَّةَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كَمْ كَانُوا الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، قَالَ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: يَرْحُمُهُ اللَّهُ وَهُمْ، هُوَ حَدَّثَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً».

وقال البيهقي: «أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، وَاسْتَشْهَدَ بِرَوَايَةِ قُرَّةَ بْنِ خَالِدٍ.

وهذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة

مائة». [دلائل النبوة للبيهقي ٩٧/٤].

٥ - **التحديد بسبعمائة:** قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ شَهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَحْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ يُرِيدُ زِيَارَةَ النَّبِيِّ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَسَاقَ مَعَهُ الْهُدَيِّ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةِ رَجُلٍ، فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشْرَةٍ...

[مسند أحمد ٢١٢/٣١ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ شَهَابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ مَسْوَرٍ بْنِ مَحْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ يُرِيدُ زِيَارَةَ النَّبِيِّ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَسَاقَ مَعَهُ الْهُدَيِّ، سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةِ رَجُلٍ، فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشْرَةٍ نَفَرٍ. وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فِيمَا بَلَّغَنِي، يَقُولُ: كُنَّا أَصْحَابَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً.

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٨-٣٠٩].

٦ - **التحديد بألف وخمسمائة وخمسة وعشرين:** قال ابن جرير: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْبَيْعَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَعَشْرِينَ. [تاريخ الطبري ٦٢١/٢].

وقد عزا ابن حجر هذا الحديث لابن مردويه وذكر أنه موقوف على ابن عباس ﷺ.

[الكافي الشافعي في تخريج أحاديث الكشاف ٣٤٠/٤ مع الكشاف].

وقال ابن حجر: وَحَكَّى ابْنُ سَعْدٍ أَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً وَخَمْسَةً وَعِشْرِينَ، وَهَذَا إِنْ ثَبَّتَ تَحْرِيرَ بَالِغٍ، ثُمَّ وَجَدْتَهُ مَوْضُوعًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ ابْنِ مَرْدُودٍ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى ابْنِ دُحْيَةَ حَيْثُ زَعَمَ أَنَّ سَبَبَ الْإِخْتِلَافِ فِي عَدَدِهِمْ أَنَّ الَّذِي ذَكَرَ عَدَدَهُمْ لَمْ يَقْصِدِ التَّحْدِيدَ وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ بِالْحُدُسِ وَالتَّخْمِينِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

وسند هذا الحديث مسلسل بالضعفاء، فأولهم محمد بن سعد شيخ ابن جرير، قال عنه الخطيب: كان لينًا في الحديث، وقال الدارقطني: لا بأس به، وعطية العوفي الراوي عن ابن عباس قال عنه يحيى بن معين: صالح، وضعفه أحمد والنسائي وجماعة، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ضعيف، ورجح الذهبي تضعيفه. [ميزان الاعتدال ٣/ ٧٩ - ٨٠].

أما الثلاثة الآخرون فهم ضعاف بالمرّة.

وقد عدّهم (أي عطية وأولاده) ابن رجب في البيوت التي اشتهرت بالضعف.

[شرح علل الترمذي ٥٢٤].

تنبيه: أورد ابن القيم هذا السند وقال عنه: «وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير، وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد معروف متداول بين أهل العلم وهم ثقات». [مختصر الصواعق ٢/ ٢٧٩].

قلت: قول ابن القيم رحمه الله: (وهم ثقات) وهم منه، فلم يوثق أحد من رجال هذا الإسناد، وقد رأينا أقوال أئمة الجرح والتعديل فيهم.

٧ - **التحديد بألف وخمسمائة وأربعين**: قال البلاذري: «حدثني الحسين بن الأسود قال: حدثني أبو بكر بن عياش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قسمت خيبر على ألف وخمسمائة سهم، وثمانين سهمًا، وكانوا ألفًا وخمسمائة وثمانين رجلًا الذين شهدوا الحديبية، فيهم ألف وخمسمائة وأربعون، والذين كانوا مع جعفر بن أبي طالب بأرض الحبشة أربعون رجلًا». [فتوح البلدان: ٣٢].

سند هذا الحديث ضعيف جدًا، وربما كان موضوعًا، ففيه الكلبي وهو متهم بالكذب، وفيه أبو صالح باذام ضعف لا سيما في رواية الكلبي عنه، قال ابن معين: «ليس به بأس، وإذا روى عنه الكلبي فليس بشيء». [تهذيب التهذيب ١/ ٤١٦].

٨ - **التحديد بألف وسبعمائة**: قال ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَفُتِحَ مِثْلُ بَدَنَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَمَعَهُمْ عِدَّةُ السَّلَاحِ وَالرِّجَالِ وَالْخَيْلِ، وَكَانَ فِي بَدَنِهِ جَمَلٌ، فَتَزَلَّ الْحُدَيْبِيَّةُ فَصَالَحَتْهُ قُرَيْشٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْهَدْيَ مَحَلَّةٌ حَيْثُ حَبَسْنَاهُ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ٣٨٠٠١].

وأخرجه ابن سعد بسند ابن أبي شيبه مثله، وفيه: «ونحن بضع عشرة مائة». [الطبقات الكبرى ١٠٢/٢].  
سند هذا الحديث ضعيف جداً لضعف موسى بن عبيدة، قال عنه أحمد: لا يكتب حديثه، وضعفه  
النسائي، وابن عدي وغيرهم. [ميزان الاعتدال ٢١٣/٤].

٩ - **التحديد بألف وثمانمائة**: قال ابن أبي شيبه: «حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ  
بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ شَهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ  
عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَثَمَانِ مِائَةٍ، وَبَعَثَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُرَاعَةٍ.

[المصنف لابن أبي شيبه ٢٠/٤١٣ رقم ٣٨٠١٠].

هذا طرف من حديث طويل في قصة الحديبية وهو مرسل، وسنده إلى عروة ضعيف أيضاً: حيث  
تفرد به خالد بن مخلد القطواني، وقد قال عنه أحمد: له مناكير، وقال ابن حجر صدوق يتشيع، وله أفراد.  
[تهذيب التهذيب ١١٧/٣].

قلت: وهذا من إفراده، وفيه عبد الرحمن بن عبد العزيز الأنصاري: قال عنه أبو حاتم مضطرب  
الحديث، وقال ابن حجر: صدوق يخطئ، وقد خالف هذا الأثر الروايات الصحيحة.  
[الجرح والتعديل ٢/٢٦٠].

**التوفيق بين النصوص**: عندما يستعرض القارئ النصوص الواردة بتحديد عدد الذين شهدوا  
غزوة الحديبية من المسلمين، يجد الفرق بينها واسعاً، والبون شاسعاً، فمن تلك النصوص ما يحدهم سبع  
مائة، ومنها ما يحدهم بألف وثمانمائة، وهناك نصوص تذكر تحديدات أخرى بين هذين العددين، فلذلك  
لا بد من وقفة مع تلك النصوص حتى يتبين العدد الحقيقي لجيش المسلمين في هذه الغزوة.

عند اختلاف النصوص يصار التوفيق بينها إما بالجمع إن أمكن، وإلا بالترجيح عند تعذر الجمع.  
لكن هناك خطوة أولى يجب البدء بها، وهي معرفة درجة كل من تلك النصوص، هل كلها في درجة  
المقبول الذي يعمل به، أو بينها ما هو مردود فيطرح.

ومن خلال الدراسة السابقة لأسانيد تلك النصوص، رأيت أن بعضها لا يُعَوَّل عليه لضعفه الشديد  
وهي الروايات التالية:

رواية ألف وخمسمائة وخمسة وعشرين، ورواية ألف وخمسمائة وأربعين ورواية ألف وسبعمائة، ورواية  
ألف وثمانمائة.

وكذلك التحديد بسبعمائة مردود أيضاً وإن ورد في رواية سندها حسن، إلا أنه من كلام ابن إسحاق  
أحد رواة الحديث، لذلك استبعد العلماء هذا التحديد: قال ابن حزم: وقد قال بعضهم كانوا سبعمائة،  
وهذا وهم شديد البتة. [جوامع السيرة ٢٠٧].



وقال ابن القيم: «وَعَلِطَ عَلِطًا بَيْنًا مَنْ قَالَ: كَانُوا سَبْعِيَّةً، وَعُذْرُهُ أَنَّهُمْ نَحَرُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ بَدَنَهُ، وَالْبَدَنَةُ قَدْ جَاءَ إِجْزَاؤُهَا عَنْ سَبْعَةٍ وَعَنْ عَشْرَةٍ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى مَا قَالَهُ هَذَا الْقَائِلُ، فَإِنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ الْبَدَنَةَ كَانَتْ فِي هَذِهِ الْعُمُرَةِ عَنْ سَبْعَةٍ، فَلَوْ كَانَتْ السَّبْعُونَ عَنْ جَمِيعِهِمْ لَكَانُوا أَرْبَعِيَّةً وَتَسْعِينَ رَجُلًا، وَقَدْ قَالَ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ بِعَيْنِهِ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِيَّةً». [زاد المعاد ٣/ ٢٨٨].

وقال ابن حجر: «وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعِيَّةً، فَلَمْ يُوَافِقْ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ قَالَهُ اسْتِنْبَاطًا مِنْ قَوْلِ جَابِرٍ رضي الله عنه: «نَحَرْنَا الْبَدَنَةَ عَنْ عَشْرَةٍ»، وَكَانُوا نَحَرُوا سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَنْحَرُوا غَيْرَ الْبَدَنِ، مَعَ أَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَكُنْ أَحْرَمَ أَصْلًا». [فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

قلت: الثابت عن جابر: «أنهم نحروا البدنة عن سبعة» وذكر البيهقي رواية عن سفيان الثوري عن أبي الزبير عنه «أنهم نحروا البدنة عن عشرة» لكن اعتبرها البيهقي وهما. [السنن الكبرى ٥/ ٢٣٦].

فالتحقيق أن هذا التحديد من كلام ابن إسحاق كما قال ابن حجر، والدليل على ذلك أن كلاً من معمر وسفيان بن عيينة قد تابع ابن إسحاق في شيخه الزهري ولم يذكر واحد منهما هذا التحديد، بل ورد عنهما أن المسلمين كانوا بضع عشرة مائة، وإذا ثبت أنه من كلام ابن إسحاق فلا يعول عليه لمخالفته النصوص الصحيحة.

بقي أمامنا التحديد بألف وثلاثمائة، وألف وأربعمائة، وألف وخمسمائة، وهذا التحديد قد وردت به نصوص صحيحة، لا يمكن ردها؛ لذلك حاول العلماء التوفيق بينها، وسلخوا في ذلك طريقتين:

أ - **طريق الترجيح**: وقد سلك هذا الطريق البيهقي، حيث رجع رواية ألف وأربعمائة.

فقد أخرج رواية ألف وأربعمائة عن جابر ثم عقب عليها بقوله: وهذه الرواية أصح، فلذلك قاله البراء بن عازب، ومقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع في أصح الروايتين عنه. [دلائل النبوة ٤/ ٩٨].

ونقل ذلك عنه ابن حجر قال: «وأما البيهقي فمال إلى الترجيح، وقال: إن رواية ألف وأربعمائة أصح». [فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

ومال إلى الترجيح أيضاً ابن القيم: فقد ذكر رواية ألف وأربعمائة عن جابر ثم قال عقبها: «والقلب إلى هذا أميل». [زاد المعاد ٣/ ٢٨٨].

ب - **طريق الجمع**: وقد جنح بعض العلماء إلى الجمع بين تلك النصوص، فقد ذكر النووي الروايات الثلاث: ألف وثلاثمائة، وألف وأربعمائة، وألف وخمسمائة، ثم قال: ويمكن أن يجمع بينها بأنهم كانوا أربعمائة وكسر، فمن قال أربعمائة لم يعتبر الكسر، ومن قال خمسمائة اعتبره، ومن قال ألف وثلاثمائة ترك بعضهم لكونه لم يتقن العدد، أو لغير ذلك. [شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ٢].

ومن ذهب إلى الجمع أيضًا ابن حجر، فقد ذكر نحو كلام النووي وزاد عليه، فبعد أن ذكر الروايات الثلاث قال: «وَالْجُمُعُ بَيْنَ هَذَا الْإِخْتِلَافِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، فَمَنْ قَالَ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً جَبَرَ الْكَسْرَ، وَمَنْ قَالَ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً أَلْغَاهُ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي الرَّوَايَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ «أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً أَوْ أَكْثَرَ»، وَاعْتَمَدَ عَلَى هَذَا الْجُمُعِ النَّوَوِيُّ، وَأَمَّا الْبَيْهَقِيُّ فَمَالَ إِلَى التَّرْجِيحِ، وَقَالَ: إِنَّ رَوَايَةَ مَنْ قَالَ أَلْفٌ وَأَرْبَعِمِائَةٌ أَصَحُّ، ثُمَّ سَأَقَهُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي سُفْيَانَ كِلَاهُمَا عَنْ جَابِرٍ كَذَلِكَ، وَمِنْ رَوَايَةِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَخِ وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَمِنْ طَرِيقِ قَتَادَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ. قُلْتُ: وَمُعْظَمُ هَذِهِ الطَّرِيقِ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَوَقَعَ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ زُهَاءُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي عَدَمِ التَّحْدِيدِ.

وَأَمَّا قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى أَلْفًا وَثَلَاثِمِائَةً فَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى مَا أُطْلِعَ هُوَ عَلَيْهِ، وَأُطْلِعَ غَيْرُهُ عَلَى زِيَادَةِ نَاسٍ لَمْ يُطْلِعْ هُوَ عَلَيْهِمْ، وَالزِّيَادَةُ مِنَ الثَّقَةِ مَقْبُولَةٌ، أَوِ الْعَدَدُ الَّذِي ذَكَرَهُ مُجْمَلَةٌ مِنْ إِبْتِدَاءِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَالزَّائِدُ تَلَاخُفُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، أَوِ الْعَدَدُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ عَدَدُ الْمُقَاتِلَةِ وَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِتِّبَاعِ مِنَ الْحَدَمِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْخُلُمَ.

وَسَيَأْتِي فِي هَذَا الْبَابِ فِي حَدِيثِ الْمُسَوِّرِ وَمَرْوَانَ أَنَّهُمَا خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِضْعَ عَشْرَةِ مِائَةٍ، فَيُجْمَعُ أَيْضًا بِأَنَّ الَّذِينَ بَايَعُوا كَانُوا كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ كَانُوا غَائِبِينَ عَنْهَا كَمَنْ تَوَجَّهَ مَعَ عُثْمَانَ إِلَى مَكَّةَ، عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْبُضْعِ يَصْدُقُ عَلَى الْخُمُسِ وَالْأَرْبَعِ فَلَا تَخَالُفَ، وَجَزَمَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفًا وَسِتِّمِائَةً، وَفِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَخِ عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ أَلْفًا وَسَبْعِمِائَةً. [فتح الباري ٧/ ٤٤٠].

قلت: الظاهر أن مسلك التوفيق بين النصوص إن أمكن أولى من الترجيح، لا سيما والنصوص الواردة في العدد المذكور صحيحة كلها، وتوجيه ابن حجر ممكن وظاهر، فيجب الأخذ به، وقد تضمن ما ذكره النووي.

وأما رواية «بضع عشرة مائة» فيمكن حملها على أحد الأعداد الثلاثة؛ لأن البضع يصدق على العدد من ثلاثة إلى عشرة، والله أعلم.

وهناك قول لموسى بن عقبة [فتح الباري ٧/ ٤٤٠]، والواقدي [المغازي ٢/ ٥٧٤]، وابن سعد [الطبقات الكبرى ٢/ ٩٥]: أن المسلمين كانوا ألفًا وستمئة، وهو اجتهد منهم في مقابل النص، ولم يذكروا مستندًا لذلك، فلا يلتفت إليه، ولم أذكره مع ما سبق لأنه لم يرد مستندًا. [مرويات الحديث للحكمي ٦٧-٩٠ بتصرف].

الرقم	المصدر	المجلد	الصفحات	١٤٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠ أو أكثر	١٣٠٠	بفتح عشرة مائة	١٢٥٠	١٢٠٠	١١٠٠	١٨٠٠	٧٠٠	الملاحظات
١	ابن هشام: السيرة	٣	٣١٢	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	وقدم السبع مائة
٢	ابن القتيبي: السيرة	٢	٦١٤، ٥٧٤، ٦٨٩	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	ورفع ١١٠٠ وسابعه يتقال
٣	ابن سعد: الطبقات	٢	١٠٣، ٩٨، ٩٥	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	
٤	ابن ابن شبة: المصنف	١٤	٤٣٥، ١٤٥٥، ٢٧٨، ٢٢٧، ٤٤٠، ٤٤٣	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	رواية (١٧) (١٨) ورثا من طريق لفظ
٥	خطبة: تاريخ خليفة بن خزيمة	٥	٨١	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	ورواية ١٣٠٠ تعليقاً جوماً
٦	البخاري: كتاب المغازي	٥	١٤-١٣-١٢	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	
٧	مسلم: كتاب الإمارة	٣	١٤٨٤، ١٤٨٣، ١٤٨٥	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	
٨	ابن دأود: السنن	٣	٨٥	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	
٩	ابن جرير: تاريخ السيرة	٥	٢٠٧	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	المتوسطة ١٤٠٠ ورواه موال
١٠	البيهقي: دلائل النبوة	٤	٩٨-٩٣	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	وتسريح رواية ١٤٠٠ والمقال
١١	ابن القيم: زاد المعاد	٣	٢٨٧	"	"	"	"	"	"	"	"	"	"	يقول عن رواية ١٤٠٠ والقلب
	الانقطاع			١١	مكرر وأخرى	٨	مكرر	٥	٢	٢	٠	٠	٢	مكرر
	الانقطاع													مكرر

جدول يحدد أصحاب الحديبية: (عدد جيش المسلمين إلى خيبر) على حسب اختلاف الروايات

موقف يهود خيبر وشمال الحجاز من الدولة الإسلامية لرضوان ص ١٣٨.

### طلائع للاستكشاف ورجل الاستخبارات:

يقول أ/ باشميل: «ومع أن النبي ﷺ أعلن بكل صراحة ووضوح أنه لا يريد الحرب، فقد أدخل في حسابه احتمال أن تقوم قريش بالعدوان عليه وعلى أصحابه في أي مكان لأنه في حالة حرب معها؛ ولأنها أمة مشركة لا يمكن أن يأمن المسلمون جانبها حتى وإن كانوا على حالة من النسك هي عنوان المسألة، لا يجوز- في عرف جميع العرب مسلمين ووثنيين- التعرض لمن هو عليها حتى ولو كان في ظروف حربية. فقد أمر (أولاً) بسر بن سفيان الكعبي ثم الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات بين قريش للمسلمين، فيجمع المعلومات عنهم وعن نواياهم، وماذا يمكن أن يقولوه إذا ما بلغهم أن النبي قد خرج بأصحابه قاصداً مكة للعمرة». [صلح الحديبية لباشميل ١١٧].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسْرَ بْنَ سُفْيَانَ ۖ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، فَأَرْسَلَهُ عَيْنًا لَهُ، وَقَالَ: «إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ بَلَغَهَا إِنِّي أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَخَبِّرْ لِي خَبْرَهُمْ، ثُمَّ الْقَنِي بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ». فَتَقَدَّمَ بُسْرٌ ۖ أَمَامَهُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٣-٥٧٤].

ودخل بسر ﷺ مكة، وظل بها يرصد قريشاً ويجمع المعلومات، ولم يخرج إلا عندما وصل النبي ﷺ عسفان حيث لاقاه هناك.

يقول د/ الحكمي: «وردت قصة إرسال بسر بن سفيان إلى مكة في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق سفيان بن عيينة ومن طريق محمد بن إسحاق، فقد جاء في حديثهما من طريق سفيان ما نصه: «فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ فَلَدَّ الْهَدْيَ، وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَسْطَاطِ، أَتَاهُ عَيْنُهُ... [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩)].»

هكذا جاء في رواية سفيان «عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ»، ولم يسمه، لكن ورد التصريح باسمه في رواية ابن إسحاق حيث قال: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بُسْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ ۖ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ...»

[مسند أحمد ٣١/ ٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: [إسناده حسن].

لكن يلاحظ أن ابن إسحاق سماه «بُسْرًا» بكسر- الموحدة وسكون المعجمة، والمشهور عند أهل المغازي كالواقدي، وابن سعد، وغيرهم أن اسمه «بُسْر» بضم الموحدة وسكون المهملة، وبهذا سماه أيضاً الذين ترجموا للصحابه كأبي نعيم، وابن عبد البر، وابن الأثير، وابن حجر، ونصوا على أنه المذكور في حديث المسور ومروان في قصة الحديبية.

قال ابن حجر في ترجمته: «وضبطه ابن ماكولا وغيره بضم الموحدة وسكون المهملة وكذا رأيت عليه علامة الإهمال في الأصل المعتمد من كتاب الفاكهي». [الإصابة ١/ ١٤٦، وينظر: الإكمال لابن ماكولا ١/ ٢٦٩].

ويفهم من صنع ابن هشام أنه قد وقع خلاف في اسمه فقد تعقب ما في رواية ابن إسحاق بقوله: «ويقال: بسر». [سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٩].

لكن الراجح ما في كتب التراجم لأنها أقرب للضبط من رواية ابن إسحاق، ولاتفاقها مع ما في كتب المغازي، ولا سيما وقد حكى ابن حجر عن ابن إسحاق ما يؤيد قول الجمهور. قال ابن حجر: «وأما الذي بعثه النبي ﷺ عينا لخبر قريش فاسمه «بسر» كذا سماه ابن إسحاق، وهو بضم الموحدة وسكون المهملة على الصحيح». [فتح الباري ٥/ ٣٣٤].

[ينظر: مرويات الحديبية للحكمي ٩٩-١٠٨].

يقول أ/ باشميل: «كذلك كوّن النبي ﷺ - وهو بذى الحليفة - فضيلة من الفرسان لتكون طليعة أمامه ولتقوم بأعمال الاستكشاف حتى مكة، وذلك تحسباً للطوارئ، وبالرغم من أنه سيمر بقبائل إما مسلمة، أو موادعة (الموادعة بلغة هذا العصر هي معاهدة عدم الاعتداء).

وقد كانت هذه الفصيلة مكونة من عشرين فارساً فيهم رجال من المهاجرين والأنصار».

[صلح الحديبية لباشميل ١١٧-١١٨].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبَادَ بْنَ بِشْرِ ۖ فَقَدَّمَهُ أَمَامَهُ طَلِيعَةً فِي خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ عَشْرِينَ فَارِسًا، وَكَانَ فِيهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو وَكَانَ فَارِسًا، وَكَانَ أَبُو عَيَّاشٍ الزُّرْقِيُّ فَارِسًا، وَكَانَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ فَارِسًا، وَكَانَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَارِسًا، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فَارِسًا، وَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسًا، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَارِسًا، فِي عِدَّةٍ مِنْهُمْ.

وَيُقَالُ: أَمِيرُهُمْ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ الْأَشْهَلِيُّ ۖ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٤].

## المبحث الخامس

### موقف المشركين في مكة

كيف تلقت قريش النبأ؟

يقول أ/ باشميل: «لقد شاع بين العرب نبأ خروج النبي ﷺ وأصحابه معتمرين ولم يكن في هذا الخروج ما يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب بين العرب الوثنيين عموماً؛ لأن زيارة البيت - وخاصة في الأشهر الحرم - حق لكل إنسان مهما كان دينه أو لونه أو جنسه، ذلك قانون غير مكتوب مُجمع على العمل به بين جميع قبائل العرب.

غير أن قريشاً تجاهلت هذا القانون الذي كان يجب أن تكون أول من يلتزم به ويحرص على تنفيذه؛ لأنها حتى ذلك العام كانت السادن للكعبة والمسؤول بين العرب عن جميع المشاعر التي يعظمها العرب في نسكهم، ومطلوب منها إعطاء كل التسهيلات لمن جاء راغباً في زيارة البيت، حتى ولو كان في حالة نزاع مسلح معها، ما دام أنه لم يأت محارباً؛ لأن لمنطقة الحرم قدسية عند العرب تجعل من المحرم تحريراً قاطعاً سفك أي دم وإنشأ أي حرب داخل حدوده، ذلك هو القانون والعرف السائد بين عرب الجزيرة منذ آلاف السنين.

ولكن قريشاً قد تملكها الغرور - بعد أن استبد بها الغضب ونزا بها الحمق - فرمت بهذا العرف عرض الحائط حينما قررت - في إصرار - منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة بالرغم من تبلغها أنهم لم يأتوا للحرب وإنما جاؤوا محرمين لزيارة البيت فحسب.

لقد اعتبرت قريش خروج النبي ﷺ نحو مكة - وفي هذا العدد الكبير من أصحابه - بادرة خطيرة، أحس سادات مكة أن فيها مساساً بكرامتهم وخذشاً لكبريائهم الوثني، وأنه - بالنسبة للعرب أجمعين - بمثابة الدليل العملي على ضعف قريش السياسي وانخفاض هيبتها العسكرية، وتضعف دورها القيادي بين العرب.

كما اعتبرت قريش هذا التصرف من النبي ﷺ رداً - في صورة التحدي - على ما قامت به من أعمال إرهابية ضده وضد القلة من أصحابه عندما كانوا في مكة، مما اضطرهم إلى مغادرتها هرباً مرغمين. ولم يستطع النبي ﷺ - منذ خرج من مكة خائفاً يترقب بعد أن أهدرت قريش دمه وقررت الفتك به - ولا أحد من أصحابه الاقتراب من مكة فضلاً عن دخولها.

ولكن ها هو - وبعد مرور خمس سنوات على نجاته من سيوف قريش - يتحرك نحو مكة، ليس وحيداً ولا خائفاً ولا مستخفياً هذه المرة كما كان حاله عند مغادرته لها قبل خمس سنوات، وإنما على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه، كلهم يفديه بروحه.

إنه إذن التحدي السافر لقريش في أبرز صوره.

هكذا قرّ في نفوس القرشيين، فعمت مكة — لهذا النبأ — موجة من الغضب والاستياء والقلق والارتباك». [صلح الحديبية لباشمیل ١٢٠-١٢٢].

ويقول د/ هيكل: «وبلغ قريشاً أمر محمد ﷺ ومن معه، وأنهم يسرون قبلهم حاجين، فامتلات نفس قريش بالخاوف وجعلوا يُقلّبون هذا الأمر على وجوهه، يحسونه حيلة أراد محمد ﷺ أن يبتال بها على دخول مكة بعد أن صدهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة، ولم يثنهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحركهم إلا العاطفة الدينية لقضاء فرض يقره العرب جميعاً، عن أن يقرروا الحيلولة بين محمد ﷺ ودخول مكة، بالغاً ما بلغ الثمن الذي يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا؛ لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين، وتقدم هذا الجيش حتى يحول بين محمد ﷺ وأم القرى، وبلغ من تقدّمه أن عسكر بذي طوى».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧٤-٣٧٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بَشْرُ بْنُ سَفْيَانَ الْكَعْبِيُّ.

قَالَ ابْنُ هِشَامَ: وَيُقَالُ بِشْرٌ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعَوْدُ الْمَطَافِيلُ (جمع عائذ، وهي من الإبل الحديثة التاج، والمطافيل: التي معها أولادها يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان، وهو على الاستعارة)، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ الثَّمُورِ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طَوًى (موضع قرب مكة)، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلْهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدَّمُوهَا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ (وضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بشانية أميال).

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَنْظُرُ قُرَيْشٌ، فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أَجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّى يُطَهِّرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ (صفحة العنق، وهما سالفتان من جانبيه، وكنى بانفرادها عن الموت)».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٩/٢].

### إعداد قريش وخروجها لصد المسلمين:

يقول د/ الحكمي: «علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى مكة فأفزعتها الخبر، وأقضى مضجعها، لكن كيف وصل الخبر إلى قريش؟

لم أر أحداً من أهل المغازي أو غيرهم تعرض لهذه النقطة، ولم أقف على رواية تشير إلى ذلك إلا ما ورد في حديث ابن عباس عند الخرائطي فقد جاء فيه ما نصه: «لما توجه رسول الله ﷺ يريد مكة في العام الذي رده قريش عن البيت وهو عام الحديبية، فلما سار رسول الله ﷺ مرحلتين أو (ثلاث) قدم عليه بشر بن سفيان العتكي فسلم عليه فقال له رسول الله ﷺ: «يا بشر هل عندك علم أن أهل مكة علموا بمسيري؟» فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرك أني كنت أطوف بالبيت في ليلة كذا وكذا وسمى الليلة التي أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسير فيها إلى مكة، وقريش في أنديتها حول البيت، إذ صرخ صارخ من أعلي أبي قيس بصوت أسمع أهل مكة بعيدهم ودانهم وهو يقول:

هبوا فأخبركم مني صحابته      سيروا إليه وكونوا معشراً كرماء  
بعد الطواف وبعد السعي في مهل      وأن يجوزهم من مكة الحرماء  
شاهت وجوهكم من معشر - نكل      لا ينصرون إذا ما حاربوا صنما

فما هو إلى أن سمع القوم ذلك، حتى ارتجت مكة، وقال (قال: يعني: مال. ينظر: ترتيب القاموس ٧١٨/٣) أبو سفيان في جماعة معه فاجتمعوا عند الكعبة وتعاهدوا ألا تدخل عليهم مكة في عامهم، فقال رسول الله ﷺ: أما الهاتف الذي سمعت سلفع شيطان الأصنام يوشك أن يقتله الله<sup>(١)</sup>.

فهذه الرواية أشارت إلى كيفية وصول خبر خروج النبي ﷺ وأصحابه إلى قريش، لكن في سندها من هو متهم بالوضع.

والحاصل أن خبر توجه المسلمين إلى مكة قد بلغ قريشاً فأخذت تعد العدة لصد رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت.

فقد روى الواقدي أن كفار قريش قد توافدوا وجمعوا الأموال يطعمون بها من ضوى إليهم من الأحابيش، فكان يطعم في أربعة أمكنة في دار الندوة لجماعتهم، وكان صفوان بن أمية يطعم في داره، وكان سهيل بن عمرو يطعم في داره، وكان عكرمة بن أبي جهل يطعم في داره، وكان حويطب بن عبد العزى يطعم في داره. [مغازي الواقدي ٥٨٢/٢].

قلت: هذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال].

(١) قال د/الحكمي: هذا الحديث قد ذكره ابن حجر في الإصابة [٢٥٠/١] - عند ترجمة بشر بن سفيان العتكي - مختصراً، وكذلك ذكره السيوطي [الخصائص الكبرى ٤٧/٢]، والزرقاني [شرح المواهب اللدنية ١٨٢/٢] مختصراً. والحديث ضعيف جداً وربما كان موضوعاً، فإن في سنده شيخ الخرائطي عبد الله بن محمد البلوي، وشيخ البلوي عمارة بن زيد، وقد رمي كل منهما بوضع الحديث. مرويات الحديبية للحكمي ١٠٦.



وقد أشار إلى استعداد قريش وخروجها حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فقد جاء فيه من طريق سفيان بن عيينة ما نصه: «وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ، أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ».

[البخاري كتاب المغازي رقم ٤١٧٨-٤١٧٩].

وجاء في حديثهما أيضًا من طريق ابن إسحاق ما نصه: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ (محطة تاريخية بين مكة والمدينة على ثمانين كيلًا من مكة) لَقِيَهُ بَشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمُطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدِمُوا إِلَى كُرَاعِ الْغَيْمِ».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وقد ذكر الواقدي [المغازي ٢/٥٨٢]، وابن سعد [الطبقات الكبرى ٢/٩٥] أن خالد بن الوليد كان في مائتي فارس.

وخرجت قريش بمجموعها في أشرها وبطرها حتى نزلت بلدح.

ففي رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير: «بعد أن ذكر خروج النبي ﷺ قال: وخرجت قريش من مكة فسبقوه إلى بلدح وإلى الماء فزّلوا عليه». [دلائل النبوة للبيهقي ٢/١١٢].

[مرويات الحديبية للحكمي ١٩٥-١٩٨].

### قريش في برلمانها:

يقول أ/ باشميل: «ولدى تأكد قريش من نبأ خروج النبي ﷺ وأصحابه نحو مكة سارع زعماءها إلى عقد اجتماع هام في دار الندوة للتشاور فيما بينهم وللاتفاق على خطة لمواجهة هذا التطور الخطير.

### لجنة المتابعة والتنفيذ:

وبعد هذا القرار الذي اتخذته قريش في برلمانها (دار الندوة) بالإجماع انتخبت من يمكن تسميتهم بلجنة المتابعة، مهمة هذه اللجنة متابعة هذا القرار الخطير، والعمل بالطرق التي تراها اللجنة على تنفيذه.

وكان أعضاء هذه اللجنة المنتخبون ثلاثة من سادات مكة، وهم:

١- عكرمة بن أبي جهل المخزومي.

٢- صفوان بن أمية الجمحي.

٣- سهيل بن عمرو العامري.

وقد أعطيت هذه اللجنة - من جميع نواب الندوة - التفويض الكامل المطلق في اتخاذ ما تراه من تدابير

وتصرفات تضع قراراً ضد المسلمين عن البيت موضع التنفيذ». [صلح الحديبية لباشميل ١٢٢-١٢٣].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَلَمَّا بَلَغَ الْمُشْرِكِينَ خُرُوجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ رَأَوْهُمْ ذَلِكَ وَاجْتَمَعُوا لَهُ وَشَاوَرُوا فِيهِ ذَوِي رَأْيِهِمْ، فَقَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْنَا فِي جُنُودِهِ مُعْتَمِرًا، فَتَسْمَعُ بِهِ الْعَرَبُ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا عَنُودٌ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْحَرْبِ مَا بَيْنَنَا، وَاللَّهِ لَا كَانَ هَذَا أَبَدًا وَمِنَّا عَيْنٌ تَطْرِفُ، فَارْتَوُوا رَأْيَكُمْ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَجَعَلُوهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ ذَوِي رَأْيِهِمْ - صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسَهْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَعِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ - فَقَالَ صَفْوَانُ: مَا كُنَّا لِنَقْطَعَ أَمْرًا حَتَّى نَشَاوِرَكُمْ، نَرَى أَنْ نَقْدِمَ مَائَتِي فَارِسٍ إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ، وَنَسْتَعْمِلَ عَلَيْهَا رَجُلًا جَلَدًا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَعَمْ مَا رَأَيْتُ، فَقَدَّمُوا عَلَى خَيْلِهِمْ عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ - وَيُقَالُ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَاسْتَفَرَّتْ قُرَيْشٌ مَنْ أَطَاعَهَا مِنَ الْأَحَابِيشِ، وَأَجْلَبَتْ ثَقِيفٌ مَعَهُمْ، وَقَدَّمُوا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي الْخَيْلِ، وَوَضَعُوا الْعُيُونَ عَلَى الْجِبَالِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ وَرَزُّ (الجلل المنيع) وَرَزَّ، كَانَتْ عُيُوتُهُمْ عَشْرَةَ رِجَالٍ قَامَ عَلَيْهِمُ الْحُكْمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ يُوجِي بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ الصَّوْتِ الْخَفِيِّ: فَعَلَ مُحَمَّدٌ كَذَا وَكَذَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَى قُرَيْشٍ بِبِلَدِحٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٩].

#### قريش تستعد لمنع المسلمين بالقوة:

يقول أ/ باشميل: «وقد وضعت لجنة المتابعة الثلاثية - بالتشاور مع سادات مكة الآخرين - خطة كاملة لمواجهة المسلمين وصددهم عن البيت بقوة السلاح، إن هم أصروا على دخول مكة معتمرين.

ويمكن تلخيص خطة قريش التي بموجبها قررت صد المسلمين فيما يلي:

- ١- إعلان حالة الاستنفار بين جميع القرشيين ممن يقدررون على حمل السلاح وتعبئتهم لمقاتلة المسلمين.
- ٢- طلب مساعدة الحلفاء - الأحابيش وثقيف وغيرهم - بالوقوف إلى جانب قريش عسكرياً لمواجهة المسلمين.
- ٣- اعتماد ميزانية حرب خاصة لتموين جنود الحلفاء الذين يقررون الانضمام إلى قريش في هذا النزاع الذي قررت قريش أن يكون نزاعاً مسلحاً.

٤ - ولإخراج فكرة صد المسلمين بقوة السلاح من الحيز النظري، إلى الحيز العملي، قررت لجنة الحرب العليا بالتشاور مع سادات مكة أن يخرج كل حملة السلاح من قريش وحلفائها إلى خارج مكة ليكونوا على أهبة الاستعداد لمنع المسلمين من دخول الحرم، على أن يكون ذلك قبل وصول المسلمين إلى حدود الحرم.

٥- أن يصاحب المشركين عند خروجهم لصد النبي ﷺ نساؤهم وأطفالهم، ليلمس المسلمون الدليل العملي على تصميم قريش على صددهم وأنهم غير مستعدين للتراجع عن هذا القرار الخطير، وليكون وجود النساء والأطفال في معسكرات قريش وحلفائها بمثابة قطع خط الرجعة النساء والأطفال في

معسكرات قريش وحلفائها بمثابة قطع خط الرجعة على الذين لا يرون من القرشيين التعرض للنبي ﷺ لصدّه عن البيت.

٦- تكوين قوات كثيفة من الفرسان وإعطاء قيادتها لفارس قريش خالد بن الوليد، على أن تعسكر هذه القوات من الفرسان على الطريق الرئيس بين مكة والمدينة وبالقرب من الحرم لاعتراض المسلمين وإفهامهم - عملياً - بأن قريشاً قد قررت - وبدون تراجع - منعهم من دخول الحرم.

٧- إقامة جهاز دقيق من الاستخبارات العسكرية، تكون مهمة رجاله الضرب في الأرض إلى أبعد مكان ممكن على الطريق الذي سيمر به النبي ﷺ وأصحابه، وإبلاغ قريش في معسكرها الرئيس أولاً بأول عن كل ما تحتاجه من معلومات عن تحركات المسلمين ومدى قوتهم وحقيقة أمرهم من جميع الوجوه.

### تنفيذ خطة الصد:

وقد نفذت قريش كامل بنود هذه الخطة تنفيذاً تاماً، ففنياً يختص بالاستنفار العام في مكة، فقد خرج منها لمواجهة المسلمين كل قادر على حمل السلاح.

وفنياً يتعلق بمساعدة الحلفاء، فقد نجحت قريش في إقناع الأحابيش بالانضمام إليها بعد أن شوّهت لسيدهم الحليس بن زيان<sup>(١)</sup> حقيقة موقف المسلمين السلمي وصورتهم له بأنهم جاؤوا محاربين معتدين كما نجحت أيضاً في إقناع حلفائها (ثقيف) فانضموا و جاؤوا إليها من الطائف بقيادة سيدهم (عروة بن مسعود)، فاستطاعت بذلك قريش أن تحشد من أبنائها ومن حلفائها قوة ضخمة ضاربة بلغت حوالي ثمانية آلاف مقاتل، كلها وقفت على أهبة الاستعداد لمحاربة المسلمين لحساب الزعامة القرشية.

### المعسكر الرئيس لقريش:

وقد عسكرت قريش بهذه القوات الضاربة المشتركة (بصفة رئيسة) في نقطة بلدح الواقعة غربي مكة، كما أن قريشاً أخرجت بالفعل النساء والأطفال ليكونوا موجودين في المعسكر الرئيس في بلدح. وفنياً يختص بقوات الفرسان التي قررت تكليفها باعتراض النبي ﷺ وأصحابه، فقد تحرك خالد بن الوليد بمئتي فارس ورباط بهم في كراع الغميم على الطريق الرئيس الذي من المفروض أن يمر به النبي ﷺ وأصحابه وهم في طريقهم من المدينة إلى مكة، وكانت لدى القائد خالد أوامر صارمة بأن يمنع المسلمين بالقوة من اجتياز الطريق كما هو قرار سادة قريش.

(١) الحليس (بضم الحاء وفتح اللام) سيد بني كنانة وزعيم الأحابيش جميعاً، كان سيداً مطاعاً راجح العقل، ولم يصل إلى علمي هل أسلم أم مات مشركاً، وقد انتقد قريشاً أشد الانتقاد في موقفها المتصلب في منع النبي ﷺ وأصحابه من أداء مناسك العمرة.

أما فيما يتعلق بجهاز الاستخبارات، فقد أقامته قريش على أدق ما يكون، فقد انتخبت عشرة رجال أعطت قيامهم للحكم بن عبد مناف فتولى تنظيمهم، فوزعهم في رؤوس الجبال المطلّة على الطريق الرئيس الذي سيمر به النبي ﷺ وأصحابه، فكان الأول ينقل إلى الثاني ما يرى ويسمع من المسلمين، والثاني إلى الثالث حتى يصل إلى العاشر فينقله بدوره إلى قيادة قريش العليا في وادي (بلدح).

وهكذا وبواسطة تنظيم هذا الجهاز من الاستخبارات تلقت قيادة قريش في بلدح كل شيء عن تحركات المسلمين أولاً بأول، فعرفوا كل ما يريدون معرفته عن مدى قوة المسلمين، وما يقولونه ويفعلونه قبل أن يصلوا إلى حدود الحرم». [صلح الحديبية لباشمیل ١٢٣-١٢٦].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ إِلَى بَلَدَحٍ فَضَرَبُوا بِهَا الْقَبَابَ وَالْأَبْنِيَّةَ، وَخَرَجُوا بِالنِّسَاءِ وَالنَّصِيَّانِ فَعَسَكُوا هُنَاكَ، وَدَخَلَ بُسْرُ بْنُ سَفْيَانَ ﷺ مَكَّةَ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ وَرَأَى مِنْهُمْ مَا رَأَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقِيَهُ بِغَدِيرِ ذَاتِ الْأَشْطَاطِ مِنْ وَرَاءِ عُسْفَانَ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا بُسْرُ مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَرَكْتُ قَوْمَكَ، كَعَبُ بْنُ لُؤَيٍّ، وَعَامِرُ بْنُ لُؤَيٍّ، قَدْ سَمِعُوا بِمَسِيرِكَ فَفَزَعُوا وَهَابُوا أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِمْ عَنُودٌ، وَقَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ. قَدْ لَبَسُوا لَكَ جِلْدَ الثَّمُورِ لِيَصُدَّوكَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقَدْ خَرَجُوا إِلَى بَلَدَحٍ وَضَرَبُوا بِهَا الْأَبْنِيَّةَ، وَتَرَكْتُ عَمَّادَهُمْ يُطْعِمُونَ الْجُرُزَ أَحَابِيشَهُمْ وَمَنْ ضَوَى إِلَيْهِمْ فِي دُورِهِمْ، وَقَدَّمُوا الْخَيْلَ عَلَيْهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، مَا تَمَّتِي فَرَسٍ، وَهَذِهِ خَيْلُهُمْ بِالْغَمِيمِ، وَقَدْ وَضَعُوا الْعُيُونَ عَلَى الْجِبَالِ وَوَضَعُوا الْأَرْصَادَ». [المغازي للواقدي ٥٧٩/٢-٥٨٠].

#### إطعام المرتزقة:

يقول أ/ باشمیل: «وفيا يختص بتموين المرتزقة الموجودين مع قريش في معسكرهم، والمسمين بالخلفاء من غير القرشيين، فقد تولى أربعة من زعماء قريش إطعامهم، وهؤلاء الزعماء الذين تولوا تموين المرتزقة بالنيابة عن قريش هم سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية وحريطب بن عبد العزى، وكلهم ما عدى الأخير أعضاء في لجنة الحرب التي كلفتها قريش في دار الندوة بمتابعة وتنفيذ قرارات البرلمان القرشي المتعلقة بصد المسلمين عن البيت ومنعهم من دخول مكة مهما كانت النتائج».

[صلح الحديبية لباشمیل ١٢٧].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ قَمَادِينَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ قَالَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ تَوَاهَدُوا وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ يُطْعِمُونَ بِهَا مَنْ ضَوَى إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَحَابِيشِ، فَكَانَ يُطْعَمُ فِي أَرْبَعَةِ أَمْكِنَةٍ: فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِجَمَاعَتِهِمْ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ يُطْعَمُ فِي دَارِهِ، وَكَانَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو يُطْعَمُ فِي دَارِهِ، وَكَانَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ يُطْعَمُ فِي دَارِهِ، وَكَانَ حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ يُطْعَمُ فِي دَارِهِ». [المغازي للواقدي ٥٨١/٢-٥٨٢].

## المبحث السادس

### في الطريق إلى مكة المكرمة

#### طريق الرسول ﷺ إلى مكة:

وصف الواقدي تحركات الرسول ﷺ في هذه الرحلة التاريخية، وأشياء حدثت له وهو في طريقه، وأحاديث قالها لأصحابه ولغيرهم كانت بمثابة أصول تشريعية وآداب إسلامية، كما حدد الطرق الرئيسة التي سلكها الرسول ﷺ إلى مكة.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ بِمَلٍّ (على طريق المدينة إلى مكة على ثمانية وعشرين ميلاً من المدينة)، فَرَأَى مِنْ مَلٍّ وَتَعَشَّى بِالسَّيَّالَةِ (أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة، قال ابن الكلبي: مر بها تبع اليمن بعد رجوعه عن قتال أهل المدينة وواديها يسيل فساها السَّيَّالَةُ)، ثُمَّ أَصْبَحَ بِالرُّوْحَاءِ (سهل فسيح واسع، يقع على بُعد أربعين ميلاً من المدينة ويقال أنها سميت بهذا الاسم لأن تبع اليمن استراح بها وهو عائد من قتال أهل المدينة يريد مكة)، فَلَقِيَ بِهَا أَصْرَامًا (جمع صرمة، وهي الجماعة) مِنْ بَنِي تَهْدٍ، مَعَهُمْ نَعَمٌ وَشَاءٌ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَانْقَطَعُوا مِنَ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَلْبِسُ مَعَ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ، وَقَالَ: «لَا أَقْبَلُ هَدِيَّةَ مُشْرِكٍ».

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَنَاعَ مِنْهُمْ، فَابْتَاعُوهُ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَسَرَّ الْقَوْمُ، وَجَاوَزُوا بِنَلَاةٍ أَضْبَّ أَحْيَاءُ يَعْزُضُونَهَا، فَاشْتَرَاهَا قَوْمٌ أَحَلَّةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ، فَأَكَلُوا وَعَرَّضُوا عَلَى الْمُحْرِمِينَ فَأَبَوْا، حَتَّى سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «كُلُوا، فَكُلُّ صَيْدٍ لَيْسَ لَكُمْ حَلَالًا فِي الْإِحْرَامِ تَأْكُلُونَهُ إِلَّا مَا صَدْتُمْ أَوْ صَيْدَ لَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ مَا صَدْنَا وَلَا صَادَنَّهُ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ، أَهْدَوْا لَنَا وَمَا يَرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْنَا، إِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ سَيَّارَةٌ يُضْبِحُونَ الْيَوْمَ بِأَرْضٍ وَهُمْ الْغَدَ بِأَرْضٍ أُخْرَى، يَتَّبِعُونَ الْغَيْثَ وَهُمْ يُرِيدُونَ سَحَابَةً وَقَعَتْ مِنَ الْخَرِيفِ بِفَرْسٍ (الموضع يكثر فيه النبات) مَلَلٍ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرَجُلٍ مِنْهُمْ فَسَأَلَهُ: «أَيْنَ تُرِيدُونَ؟» فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذُكِرَتْ لَنَا سَحَابَةٌ وَقَعَتْ بِفَرْسٍ مَلَلٍ مُنْذُ شَهْرٍ فَأَرْسَلْنَا رَجُلًا مِنَّا يَرْتَادُ الْبِلَادَ فَرَجَعَ إِلَيْنَا فَخَبَرَنَا أَنَّ الشَّاءَ قَدْ شَبِعَتْ، وَأَنَّ الْبَعِيرَ يَمْشِي ثَقِيلًا مِمَّا جَمَعَ مِنَ الْحَوْضِ، وَأَنَّ الْغُدْرَ كَثِيرَةٌ مَرْوِيَّةٌ فَأَرَدْنَا أَنْ نَلْحَقَ بِهِ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَلٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْحَدْيَبِيَّةِ، وَمِنَّا الْمُحِلُّ وَالْمُحْرِمُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْأَبْوَاءِ، وَأَنَا مُحِلٌّ، رَأَيْتُ حِمَارًا وَحَشِيًّا، فَأَسْرَجْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُ فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: نَاوِلْنِي سَوْطِي، فَأَبَى أَنْ يُنَاوِلَنِي، فَقُلْتُ: نَاوِلْنِي رُحْمِي، فَأَبَى، فَتَرَلْتُ فَأَخَذْتُ سَوْطِي وَرُحْمِي، ثُمَّ رَكِبْتُ فَرَسِي، فَحَمَلْتُ عَلَى الْحِمَارِ فَقَتَلْتُهُ،

فَجِئْتُ بِهِ أَصْحَابِي الْمُحْرِمِينَ وَالْمُحِلِّينَ، فَشَكَكَ الْمُحْرِمُونَ فِي أَكْلِهِ، حَتَّى أَدْرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ تَقَدَّمَ بِلَيْلٍ، فَأَدْرَكْنَاهُ فَسَأَلْنَاهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «أَمَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: فَأَعْطَيْتُهُ الذَّرَاعَ، فَأَكَلَهَا حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا وَهُوَ مُحْرِمٌ.

فَقِيلَ لِأَبِي قَتَادَةَ: وَمَا خَلَفَكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: طَبَخْنَا الْحِمَارَ، فَلَمَّا نَضِجَ لِحِمْنَاهُ وَأَدْرَكْنَاهُ.

[الغازي للواقدي ٢/ ٥٧٥-٥٧٦].

### صيد أبي قتادة ؓ:

وروى القصة مسلم بعدة روايات، فروى بسنده أن أبا قتادة ؓ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْقَاحَةِ، فَمِنَّا الْمُحْرِمُ وَمِنَّا غَيْرُ الْمُحْرِمِ، إِذْ بَصُرْتُ بِأَصْحَابِي يَتَرَاوُونَ شَيْئًا، فَنَظَرْتُ فَإِذَا حِمَارٌ وَحُشٌّ، فَأَسْرَجْتُ فَرَسِي وَأَخَذْتُ رُجْحِي، ثُمَّ رَكِبْتُ فَسَقَطَ مِنِّي سَوْطِي، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَكَانُوا مُحْرِمِينَ: نَاوِلُونِي السَّوْطَ، فَقَالُوا وَاللَّهِ لَا نُعِينُكَ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

فَتَرَلْتُ فَنَازَلْتُهُ، ثُمَّ رَكِبْتُ، فَأَدْرَكْتُ الْحِمَارَ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ وَرَاءَ أَكْمَةٍ: فَطَعَنْتُهُ بِرُجْحِي فَعَمَرْتُهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ أَصْحَابِي، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُّوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَأْكُلُوهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَامَنَا، فَعَرَكْتُ فَرَسِي فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: «هُوَ حَلَالٌ فَكُلُوهُ».

وبسنده عن أبي قتادة ؓ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِ طَرِيقِ مَكَّةَ تَخَلَّفَ مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ مُحْرِمِينَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْرِمٍ، فَرَأَى حِمَارًا وَحُشِيًّا، فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُنَاوِلُوهُ سَوْطَهُ فَأَبَوْا عَلَيْهِ، فَسَأَلَهُمْ رُحْمَةً فَأَبَوْا عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ ثُمَّ شَدَّ عَلَى الْحِمَارِ فَقَتَلَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبَى بَعْضُهُمْ، فَأَدْرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِتَاهِي طُعْمَةً أَطْعَمَكُمْوَهَا اللَّهُ».

وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؓ فِي حِمَارِ الْوَحْشِ، مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ».

وَحَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ مُسَارٍ السُّلَمِيُّ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: انْطَلَقَ أَبِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ يُحْرَمِ، وَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عَدُوًّا بَغِيْفَةً، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قَالَ - فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَ أَصْحَابِي يَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِذْ نَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِحِمَارٍ وَحُشٍّ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَطَعَنْتُهُ، فَأَتْبَتْهُ (جعلته ثابتاً في مكانه لا حراك به)، فَاسْتَعْتَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُونِي، فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَحَشِيْنَا أَنْ نُقْتَطَعَ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْفَعُ (أكله السير السريع) فَرَسِي سَأَوَا (الشوط والمدي) وَأَسِيرُ سَأَوَا، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي غِفَارٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَقُلْتُ: أَيْنَ لَقِيتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: تَرَكْتُهُ يَتَعَنَّنَ، وَهُوَ قَائِلٌ (أي يكون بالسقيا وقت القائلة) السَّقِيَا، فَلَحِقْتُهُ،

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابَكَ يَقْرُؤُونَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ خَشُوا أَنْ يَقْطَعُوا دُونَكَ  
 أَنْتَظِرُهُمْ، فَانْتَظَرُهُمْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَدْتُ وَمَعِيَ مِنْهُ فَاضِلَةٌ (القطعة الباقية)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ  
 لِلْقَوْمِ: «كُلُوا»، وَهُمْ مُحْرَمُونَ.

حَدَّثَنِي أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ  
 عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاجًّا وَخَرَجْنَا مَعَهُ - قَالَ - فَصَرَفَ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ،  
 فَقَالَ: «خُذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ حَتَّى تَلْقَوْنِي»، قَالَ: فَأَخَذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 أَحْرَمُوا كُلَّهُمْ إِلَّا أَبَا قَتَادَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُحْرَمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَوْا حُمْرَ وَخْشٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ  
 مِنْهَا اثْنَانِ، فَتَزَلَّوْا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا - قَالَ - فَقَالُوا: أَكَلْنَا لَحْمًا وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ - قَالَ - فَحَمَلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِ  
 الْإِثْنَانِ، فَلَمَّا اتَّوَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا أَحْرَمًا وَكَانَ أَبُو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرَمْ، فَزَيْنَا حُمْرَ  
 وَخْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا اثْنَانِ، فَتَزَلَّوْا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهَا، فَقُلْنَا: نَأْكُلُ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ  
 مُحْرَمُونَ، فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا، فَقَالَ ﷺ: «هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَوْ أَسَارَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ؟»، قَالَ: قَالُوا: لَا،  
 قَالَ: «فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا».

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ح وَحَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ زَكَرِيَاءَ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ  
 اللَّهِ عَنْ شَيْبَانَ جَمِيعًا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ فِي رِوَايَةِ شَيْبَانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
 «أَمِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَسَارَ إِلَيْهَا؟»، وَفِي رِوَايَةِ شُعْبَةَ قَالَ: «أَسْرْتُمْ أَوْ أَعْتَمْتُمْ»، أَوْ «أَصَدْتُمْ  
 (أمرتم بالصيد)»، قَالَ شُعْبَةُ لَا أَذْرِي قَالَ: «أَعْتَمْتُمْ أَوْ أَصَدْتُمْ».

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ - وَهُوَ ابْنُ سَلَامٍ - أَخْبَرَنِي  
 يَحْيَى أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أَبَاهُ ﷺ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزَاةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ: فَأَهْلَوْا  
 بِعُمْرَةٍ غَيْرِي، قَالَ: فَاصْطَدْتُ حِمَارَ وَخْشٍ، فَأَطْعَمْتُ أَصْحَابِي وَهُمْ مُحْرَمُونَ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 فَأَنْبَأْتُهُ أَنَّ عِنْدَنَا مِنْ لَحْمِهِ فَاضِلَةٌ، فَقَالَ: «كُلُّوهُ»، وَهُمْ مُحْرَمُونَ.

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمِيِّ حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ  
 عَنْ أَبِيهِ ﷺ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ مُحْرَمُونَ، وَأَبُو قَتَادَةَ ﷺ مَحْلٌ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ فَقَالَ:  
 «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟»، قَالُوا: مَعَنَا رَجُلُهُ، قَالَ فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَكَلَهَا.

وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ وَاسْحَاقُ عَنْ جَرِيرٍ كِلَاهُمَا عَنْ عَبْدِ  
 الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ أَبُو قَتَادَةَ فِي نَفَرٍ مُحْرَمِينَ وَأَبُو قَتَادَةَ مَحْلٌ، وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ  
 وَفِيهِ قَالَ: «هَلْ أَسَارَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ أَوْ أَمَرَهُ بِشَيْءٍ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَكُلُّوهُ».

وعن عِيَّاشِ بْنِ الرَّقَّامِ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاضِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الصَّدَقَةِ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَهُمْ مُحْرِمُونَ حَتَّى نَزَلُوا عَسْفَانَ، فَإِذَا هُمْ بِحِمَارٍ وَحْشٍ قَالَ: وَجَاءَ أَبُو قَتَادَةَ وَهُوَ حِلٌّ فَتَكَسَّوْا رُؤُوسَهُمْ كَرَاهِيَةً أَنْ يُحْدِثُوا أَبْصَارَهُمْ، فَيَقْطِنَ، فَرَأَاهُ فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَأَخَذَ الرُّمْحَ، فَسَقَطَ مِنْهُ فَقَالَ تَاوَلُونِيهِ، فَقَالُوا: مَا نَحْنُ بِمُعِينِكَ عَلَيْهِ بَشِيءٌ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَعَقَرَهُ، فَجَعَلُوا يَشُورُونَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالُوا: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، قَالَ: وَكَانَ تَقَدَّمَهُمْ، فَلَحِقُوهُ، فَسَأَلُوهُ، فَلَمْ يَرِ بِذَلِكَ بَأْسًا. [شرح معاني الآثار كتاب مناسك الحج

١٧٣/٢ رقم ٣٨١٠، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٥٥].

حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: ثَنَا أَبُو عَمَرَ الْخَوْضِيُّ قَالَ: أَنَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ يَمِيٍّ، عَنْ عَبْدِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى فَرَسٍ وَهُوَ حَلَالٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مُحْرِمُونَ فَبَصُرَ بِحِمَارٍ وَحْشٍ، فَتَمَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعِينُوهُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَصَرَعَ أَتَانَا فَأَكَلُوا مِنْهُ.

[شرح معاني الآثار كتاب مناسك الحج ١٧٣/٢ رقم ٣٨١١].

### الجيش الإسلامي بالأبواء:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عَمْرُو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَلٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْخُدْيَةِ، وَمِنَّا الْمِحْلُ وَالْمَحْرُمُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْأَبْوَاءِ، وَأَنَا مِحْلٌ، رَأَيْتُ حِمَارًا وَحْشِيًّا، فَأَسْرَجْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُ فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: تَاوَلْنِي سَوَاطِي، فَأَبَى أَنْ يَتَاوَلَنِي، فَقُلْتُ: تَاوَلْنِي رُحْمِي، فَأَبَى، فَتَرَلْتُ فَأَخَذْتُ سَوَاطِي وَرُحْمِي، ثُمَّ رَكِبْتُ فَرَسِي، فَحَمَلْتُ عَلَى الْحِمَارِ فَتَقَلَّتُهُ، فَجَنُتُ بِهِ أَصْحَابِي الْمُحْرِمِينَ وَالْمِحْلِينَ، فَسَكَ الْمُحْرِمُونَ فِي أَكْلِهِ، حَتَّى أَدْرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ تَقَدَّمَنَا بِقَلِيلٍ، فَأَذْرَكْنَاهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «أَمَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: فَأَعْطَيْتُهُ الذَّرَاعَ، فَأَكَلَهَا حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا وَهُوَ مُحْرِمٌ.

فَقِيلَ لِأَبِي قَتَادَةَ: وَمَا خَلَفَكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: طَبَخْنَا الْحِمَارَ، فَلَمَّا نَضِجَ لَحِقْنَاهُ وَأَذْرَكْنَاهُ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَنَامَةَ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَبْوَاءِ يَوْمَئِذٍ بِحِمَارٍ وَحْشِيٍّ فَأَهْدَاهُ لَهُ، فَردَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ الصَّعْبُ: فَلَمَّا رَأَيْتُ وَمَا بَوَّجِهِي مِنْ كَرَاهِيَةٍ رَدَّ هَدِيَّتِي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ تَرُدَّهُ إِلَّا إِنَّا حُرْمٌ». [روى مسلم بسنده عن الصعب بن جنامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ - أَوْ بِوَدَّانَ -

فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا فِي وَجْهِي قَالَ: «إِنَّا لَمْ تَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ»، وفي رواية: «لَوْلَا أَنَا مُحْرِمُونَ لَقَبَلْنَاهُ مِنْكَ». [مسلم في الحج (١١٩٣)].



قَالَ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَصْبِحُ الْعُدُوَّ وَالْغَارَةَ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ فَنُصِيبُ الْوِلْدَانَ تَحْتَ بَطُونِ الْخَيْلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ مَعَ الْأَبَاءِ».

وَقَالَ: سَمِعْتُهُ ﷺ يَوْمَئِذٍ يَقُولُ: «لَا حَيَّ إِلَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ»، وَيُقَالُ: إِنَّ الْحِمَارَ يَوْمَئِذٍ كَانَ حَيًّا. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ أَبِي زُهَيْرٍ الْعِفَارِيِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلُوا الْأَبْوَاءَ أَهْدَى إِيْمَاءُ بْنُ رَحْصَةَ جُزْرًا وَمِائَةً شَاءٍ، وَبَعَثَ بِهَا مَعَ ابْنِهِ خُفَافِ بْنِ إِيْمَاءَ وَبَعِيرَيْنِ يَحْمِلَانِ لَبَنًا، فَأَنْتَهَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي أَرْسَلَنِي بِهَذِهِ الْجُزْرِ وَاللَّبَنِ إِلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَتَى حَلَلْتُمْ هَاهُنَا؟» قَالَ: قَرِيبًا، كَانَ مَاءٌ عِنْدَنَا قَدْ أَجْدَبَ فَمُقْنَا مَا شِئْنَا إِلَى مَاءٍ هَاهُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَكَيْفَ الْبِلَادُ هَاهُنَا؟»، قَالَ: يُتَعَذَّى بِبَعِيرِهَا، وَأَمَّا الشَّاةُ فَلَا تُذَكَّرُ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّتَهُ، وَأَمَرَ بِالْغَنَمِ فَفُرِقَ فِي أَصْحَابِهِ، وَشَرِبَ اللَّبَنَ عَسَا عَسَا حَتَّى ذَهَبَ اللَّبَنُ، وَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ».

فَحَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ الْعِفَارِيُّ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ: أَهْدَى يَوْمَئِذٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَدَّانِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: مُعِيشًا، وَعِثْرًا، وَضَعَايِسَ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مِنَ الضَّغَايِسِ وَالْعِثْرِ، وَأَعْجَبَهُ وَأَمَرَ بِهِ فَأُذِخِلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَتِهِ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْجِبُهُ هَذِهِ أَهْدِيَّتُهُ، وَيُرِي صَاحِبَهَا أَنَّهَا طَرِيفَةٌ.

وَقَالَ نَاحِيَةُ بْنُ جُنْدُبٍ ﷺ: عَطِبَ لِي بَعِيرٌ مِنْ الْهُدْيِ حِينَ نَظَرْتُ إِلَى الْأَبْوَاءِ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْأَبْوَاءِ فَأَخْبَرْتَهُ، فَقَالَ: «انْحَرُهَا وَاصْبُغْ فَلَا تَدْهَاهَا فِي دِمِهَا، وَلَا تَأْكُلُ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ رُفْقَتِكَ مِنْهَا شَيْئًا، وَخَلِّ يَنْتِ النَّاسِ وَبَيْنَهُمَا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٦-٥٧٧، ٥٧٨].

### الجيش الإسلامي بالجحفة:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجُحْفَةَ لَمْ يَجِدْ بِهَا مَاءً، فَبَعَثَ رَجُلًا فِي الرِّوَايَا إِلَى الْحَرَارِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ غَيْرَ بَعِيدٍ، فَرَجَعَ بِالرِّوَايَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ قَدَمًا رُعْبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْلِسْ»، وَبَعَثَ رَجُلًا آخَرَ فَخَرَجَ بِالرِّوَايَا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَصَابَ الْأَوَّلَ الرَّعْبُ فَرَجَعَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكَ؟» فَقَالَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ رُعْبًا، قَالَ: «اجْلِسْ»، ثُمَّ بَعَثَ رَجُلًا آخَرَ، فَلَمَّا جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي رَجَعَ مِنْهُ الرَّجُلَانِ قَلِيلًا وَجَدَ مِثْلَ ذَلِكَ الرَّعْبِ فَرَجَعَ ن فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَرْسَلَهُ بِالرِّوَايَا وَخَرَجَ السَّقَاءُ مَعَهُ وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي الرُّجُوعِ لِمَا رَأَوْا مِنْ رُجُوعِ النَّفَرِ، فَوَرَدُوا الْحَرَارَ فَاسْتَقَوْا ثُمَّ أَقْبَلُوا بِالْمَاءِ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَجَرَةٍ فَقُمَّ (كُنُس) مَا تَحْتَهَا، فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كَاتِبٌ لَكُمْ قَرَطًا (أَيَّ أَجْرًا)، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتَهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُقَالُ: قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتَهُ نَبِيًّا».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٨-٥٧٩].

## الاستخبارات النبوية في مكة:

يقول أ/ باشميل: «كان النبي ﷺ عند خروجه من المدينة - وفي ذي الحليفة بالذات - كلف بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات في مكة، وأمره بأن يتوجه إليها لينقل إليه كل أخبار القرشيين، ما يقولونه وما يفعلونه كرد فعل لتلقيهم نبأ خروج المسلمين معتمرين.

وقد صدع بسر بن سفيان بأمر نبيه ﷺ، فتوجه إلى مكة، وما هي إلا أيام قلائل حتى كان فيها، وظل بسر في مكة يرصد - بطريقة الخاص - حركات القرشيين ويدون في ذاكرته كل ما يراه أو يسمعه مما تقوله وتفعله قريش، وظل في مكة عدة أيام عرف فيها كل ما يجب أن يعرفه رجل مكلف بمثل هذه المهمة الخطيرة التي كلف بها.

وقد بلغ رجل الاستخبارات النبوية في إنجاح مهمته إلى حد المخاطرة بروحه، حيث صاحب الجيوش المشتركة - من القرشيين والأحلاف - في تحركاتها حتى استقرت في معسكرها الرئيس في وادي (بلدح)، ولم يتركها إلا بعد أن رآها تقيم الأبنية وتضرب الخيام في هذا الوادي مصممة على صد المسلمين عن البيت بالقوة.

فقد توجه بسر ﷺ بعد ذلك ليلتقي بالرسول ﷺ في (ذات الأشطاط) من وراء عسفان على مسافة غير بعيدة من حدود الحرم.

وهنا أخبر النبي ﷺ بكل شيء عن قريش. [صلح الحديبية لباشميل ١٢٧-١٢٨].

## عين رسول الله ﷺ الخزاعي يوافيه بخبر قريش:

يقول د/ الحكمي: «كان النبي ﷺ قد بعث بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي ﷺ من ذي الحليفة عيناً له إلى مكة، فسار بسر إلى قريش يتحسس أخبارهم ونواياهم إزاء المسلمين، ويعد أن وقف على أخبارهم وافي بها رسول الله ﷺ بعسفان.

ففي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق سفيان عند البخاري: «فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ قَلَدَ الْهُدَى، وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ مِنْهَا بَعْضَهُ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُرَاعَةَ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ، أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ.

فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرُونَ أَنِّي أَمِيلُ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مُحْرُومِينَ».

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهَ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، قَالَ ﷺ: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ». [البخاري في المغازي (٤١٧٨، ٤١٧٩)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق عند أحمد: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بِشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ ؓ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمُطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثَّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدُمُوا إِلَى كُرَاعِ الْعُغَيْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَيحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْخَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ حَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ». [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وَعَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَدِيبَةِ، وَكَانَتْ الْحَدِيبَةُ فِي شَوَّالٍ. قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ، لَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا تَرَكْنَا قُرَيْشًا وَقَدْ جَمَعَتْ لَكَ أَحَابِيشَهَا تُطْعِمُهَا الْحَزِيرَ (لحم يقطع صغارًا ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق فإن لم يكن فيها لحم، فهي عصيدة، وقيل غير ذلك)، يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا تَبَرَّزَ مِنْ عُسْفَانَ، لَقِيَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ طَلِيعَةً لِقُرَيْشٍ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلُمَّ هَاهُنَا»، فَأَخَذَ بَيْنَ سَرْوَعَتَيْنِ، يَعْنِي شَجَرَتَيْنِ، وَمَالَ عَنْ سَنَنِ الطَّرِيقِ حَتَّى نَزَلَ الْعُغَيْمِ. فَلَمَّا نَزَلَ الْعُغَيْمِ خَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ جَمَعَتْ لَكُمْ...

وذكر نحو حديث المسور ومروان إلى أن قال: «قَالَ الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ <sup>(١)</sup> وَهُوَ فِي رَحْلِهِ: إِنَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَنِيَّاهَا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (١٢)». [المائدة: ٢٤]. وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/٣٩٥-٣٩٨ في المغازي رقم (٣٧٩٩٤)]. [مرويات الحديبية للحكمي ١٢٥-١٢٧].

النبي ﷺ يستشير أصحابه ﷺ:

يقول د/ هيكل: «ثم وقف ﷺ يفكر ماذا عساه يصنع؟! إنه لم يخرج من المدينة غازيًا، وإنما خرج محرمًا يريد بيت الله يؤدي عنده إلى الله فرضه، وهو لم يتخذ للحرب عتبات؛ فلعله إن حارب فلم يتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلاً».

(١) كذا ورد هنا: أن المقداد قال هذه المقالة في الحديبية، والمشهور أنه قال ذلك في غزوة بدر، ينظر: مرويات غزوة بدر لأحمد العليمي ص ١٤٣.

وبينما كان محمد ﷺ يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر، يندل مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقترامًا، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها، معركة لم يُردها محمد ﷺ، وإنما حملته قريش عليها حملًا، وألزمته خوض غمارها إلزامًا.

إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جردت من غمودها لدفع عدوان المعتدي، لكنه يفوت بذلك قصده، وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه، وهو أبعد من هذا نظرًا وأكثر حنكة وأدق سياسة». [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٧٥-٣٧٦].

ويقول أ/ باشميل: «وكما هي عادة النبي ﷺ، وتمشيًا مع روح الشورى التي جاء بها الإسلام والمتمثلة في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، جمع الرسول ﷺ أصحابه حيث يعسكر في وادي عسفان وأطلعهم على حقيقة الموقف، مشيرًا إلى التطورات الخطيرة التي حدثت نتيجة تغت قريش وإصرارها على صد المسلمين عن المسجد الحرام بالقوة، ذلك الإصرار، الذي تشل بأجل مظاهره في خروج حوالي ثمانية آلاف مقاتل إلى وادي (بلدح) تصحبهم نساؤهم وأطفالهم، وفي درابطة بمائتي فارس على مقربة من المسلمين في كراع الغميم». [صلح الحديبية لباشميل ١٢٩].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ: «هَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى خَيْلٍ امْتَرِكِينَ بِالْغَمِيمِ»، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَنْفَرُوا إِلَيَّ مَنْ أَطَاعَهُمْ لِيَصُدُّوْنَا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ أَتَرَوْنَ أَنْ نَمُضِيَ لَوَجْهِنَا إِلَى الْبَيْتِ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نَحْلَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَنْفَرُوا لَنَا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَتُصِيبَهُمْ؟ فَإِنْ اتَّبَعُونَا اتَّبَعْنَا مِنْهُمْ عُنُقٌ يَقْطَعُهَا اللَّهُ، وَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مُحْزُونِينَ مَوْتُورِينَ».

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ؓ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، نَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نَمُضِيَ لَوَجْهِنَا فَمَنْ صَدَّنَا عَنْ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنْ خَبِلَ قُرَيْشٌ فِيهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَمْ أَرِ أَحَدًا كَانَ أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ مُشَاوَرَتُهُ أَصْحَابَهُ فِي الْحَرْبِ فَقَطْ.

قَالَ: فَقَامَ الْفِدَاذُ بْنُ عَمْرٍو ؓ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ سِرْتُ إِلَى بَرِّكَ الْعَهَادِ لَمَرْنَا مَعَكَ مَا بَقِيَ مِنَّا رَجُلٌ.

وَنَكَلَّمَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى أَنْ نَصُصِّدَ لِمَا خَرَجْنَا لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا قَاتِلَنَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَخْرُجْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، إِنَّمَا خَرَجْنَا عُمَارًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٠-٥٨١].

«وبعد هذا التشاور تبين أن جميع المسلمين موافقون على المضي نحو غايتهم وهي زيارة البيت العتيق،

وأهمهم مستعدون للصدام إذا ما ألجأتهم قريش إلى ذلك بإصرارهم على منعهم من دخول الحرم».

[صلح الحديبية لباشمیل ١٣٠].

### نُذْرُ الْحَرْبِ:

يقول آل باشمیل: «وهكذا وباتخاذ قريش ذلك القرار المتعسف المخالف للقيم والتقاليد المرعية حتى

بين الوثنيين العرب، تراءت نذر الحرب في الأفق، والتي لم يأت لها المسلمون ولم يفكروا فيها عندما

خرجوا من المدينة معتمرين ملين مكبرين.

ومع كره النبي ﷺ للحرب وعدم رغبته في خوضها مع قريش، فقد أدخل في حسابه أن قريشاً قد

تقدم على مثل هذا التصرف الأخرق الذي أقدمت عليه، فاتخذ كل الاحتياطات الضرورية تحسباً للطوارئ،

فظل أصحابه في حالة استنفار واستعداد يحملون السلاح وهم في حالة الإحرام لا بسين نسك العمرة.

### النبي ﷺ يتحاشى الصدام المسلح:

غير أن النبي ﷺ مع كل ما صنعتته قريش من التحدي ومع ما قامت به من استفزاز للمسلمين

وتحرش بهم، بتكليفها قائد فرسانها خالد بن الوليد بأن يربط بمائتين من الفرسان في الطريق الرئيس بين

عسفان ومكة لاعتراض المسلمين ومنعهم من المرور بالقوة، فإنه ﷺ قرر أن يتحاشى الصدام المسلح مع

قومه ما أمكنه ذلك حرصاً منه على حقن الدماء التي ليس شيئاً أبغض إليه من إراقتها بدون مبرر وخاصة

في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب أو قتال وإنما جاء فقط لزيارة البيت الحرام.

ولذلك قرر ألا يمر في طريقه إلى مكة بالطريق الرئيس الذي يأتي من ناحية الشمال وينتهي عنه حدود

الحرم جنوباً عند التنعيم ثم مكة.

غير أنه يظهر أن خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين قد سار في طريق التحدي بسرعة مذهلة

وبصورة جعلت النبي ﷺ وأصحابه أمام امتحان صعب للغاية.

فقد تحرك خالد بفرسانه من كراع الغميم إلى وادي عسفان حيث يعسكر النبي ﷺ بالمسلمين، وقصد

خالد من ذلك - دونما شك - هو تحدي المسلمين وإثارتهم، ومحاولة اقتناص فرصة يتمكن فيها قائد سلاح

فرسان مكة من ضرب المسلمين فيها ضربة قاتلة.

وقد كان تصرف خالد المتحدي هذا كافياً لأن يجعل المسلمين، يعجلون بالصدام ويقابلون

استفزازات خالد المثيرة بالهجوم عليه، لا سيما وأنه جاء في صورة المهاجم المعارض المتحدي، نعم لقد

كان يمكن أن يحدث ذلك من جانب المسلمين، لولا أنهم عرفوا أن نبيهم ﷺ لا يرغب في مقاتلة قومه ما وجد إلى تجنب هذا القتال سبيلاً؛ ولهذا كظموا غيظهم أمام استفزاز وإثارة قائد سلاح فرسان المشركين مع قدرتهم التامة على تأديبه وردعه ووضع حد - بحد السيف - لتحديّه واستفزازه.

ولقد بالغ خالد بن الوليد الذي كان قائد أول قوة للمشرّكين يواجهها المسلمون في رحلتهم السلمية التاريخية هذه، بالغ في التحدي والاستفزاز إلى أن وقف بخياله المائتين بين المسلمين وبين القبلة وقت أداء الصلاة في عسفان مستفزاً بذلك مشاعرهم ومستعرضاً عضلات قريش ومُدخلًا في روع المسلمين بأن صنيعه هذا هو أحد مظاهر قوة قريش العسكرية الضاربة القادرة على منع المسلمين من دخول مكة في صورة من الصور.

### سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة:

وإزاء تصرف خالد بن الوليد هذا، أمر النبي ﷺ قائد سلاح فرسان المسلمين عباد بن بشر ﷺ أن يقف بفرسانه إزاء فرسان خالد لصد أية محاولة قد يقوم بها خالد على حين غرة بالهجوم على المسلمين، فصّف عباد بن بشر ﷺ فرسانه، وبهذا أصبح خيالة الفريقين في حالة مواجهة كاملة.

ومع هذا فقد تلقى قائد سلاح فرسان المسلمين - على ما يظهر - أمراً من النبي ﷺ بألا يباشر أي قتال ضد فرسان خالد بن الوليد إلا في حالة واحدة هي حالة الدفاع عن النفس ومنع أية محاولة قد يقوم بها خالد للهجوم على النبي ﷺ وأصحابه. [صلح الحديبية لباشمیل ١٣٢-١٣٤].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَسِبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: وَدَنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَفَّ خَيْلَهُ فِيمَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، وَهِيَ فِي مِائَتَيْ فَرَسٍ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبَادَ بْنَ بَشَرَ ﷺ فَتَقَدَّمَ فِي خَيْلِهِ، فَقَامَ بِإِزَائِهِ فَصَفَّ أَصْحَابَهُ». [المغازي للواقدي ٥٨٢/٢].

### خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة:

يقول أ/ باشمیل: «وقد حاول قائد فرسان مكة أن يشن هجوماً كامحاً على المسلمين وهم في حالة الصلاة، إلا أن النبي ﷺ تنبه لذلك فصلى بأصحابه صلاة الخوف، وبهذا أحبط على خالد بن الوليد خطته التي بها أراد أن يأخذ المسلمين على حين غرة فيضربهم وهم في صلاتهم آمين».

### صلاة الخوف في عسفان:

وقد اضطر النبي ﷺ إزاء تحفز خيالة المشركين وتحرشهم بالمسلمين، أن يصلي بالمسلمين صلاة الخوف، وهي صلاة خاصة بمن هم في حالة حرب، يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها من صور الصلاة المعتادة. [صلح الحديبية لباشمیل ١٣٥].

عَنْ أَبِي عِيَّاشٍ الزُّرْقِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعُصْفَانَ، وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَصَلَّيْنَا الظُّهْرَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَقَدْ أَصَبْنَا غِرَّةً، لَقَدْ أَصَبْنَا غَفْلَةً لَوْ كُنَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَتَزَلَّتْ آيَةُ الْقُرْصَرِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَالْمُشْرِكُونَ أَمَامَهُ، فَصَفَّ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَفٌّ وَصَفَّ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّفِّ صَفٌّ آخَرُ، فَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِينَ يَلُونَهُ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَخْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى هَؤُلَاءِ السَّجْدَتَيْنِ وَقَامُوا سَجَدَ الْآخَرُونَ الَّذِينَ كَانُوا خَلْفَهُمْ، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ إِلَى مَقَامِ الْآخَرِينَ، وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الْآخِرُ إِلَى مَقَامِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَخْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ سَجَدَ الْآخَرُونَ، ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، فَصَلَّاهَا بِعُصْفَانَ وَصَلَّاهَا يَوْمَ بَنِي سُلَيْمٍ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَى أَيُّوبُ وَهْشَامٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ دَاوُدُ بْنُ حُصَيْنٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ، وَكَذَلِكَ قَتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ حِطَّانَ عَنْ أَبِي مُوسَى فِعْلُهُ، وَكَذَلِكَ عِكْرِمَةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ هِشَامُ بْنُ غُرُورَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ. [أبو داود في الصلاة (١٢٣٦)]، مسند أحمد ٢٧/١٢٠-١٢١

رقم ١٦٥٨٠، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: صحيح، وينظر تخريج د/ الحكمي لرواياته.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ بَيْنَ صُحْبَانٍ وَعُصْفَانَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَهِيَ الْعَصْرُ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ فَمِيلُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَةَ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْسِمَ أَصْحَابَهُ شَطْرَيْنِ فَيُصَلِّيَ بِهِمْ، وَتَقُومَ طَائِفَةٌ أُخْرَى وَرَاءَهُمْ، وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي الْآخَرُونَ وَيُصَلُّونَ مَعَهُ رُكْعَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَأْخُذُ هَؤُلَاءِ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، فَتَكُونُ لَهُمْ رُكْعَةً رُكْعَةً، وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُكْعَتَانِ.

[الترمذي في التفسير (٣٠٣٥)]، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي عِيَّاشٍ الزُّرْقِيِّ، وَابْنِ عُمَرَ، وَحَدِيثُهُ، وَأَبِي بَكْرَةَ، وَسَهْلُ بْنُ أَبِي حَنْمَةَ، وَأَبُو عِيَّاشٍ الزُّرْقِيُّ اسْمُهُ: زَيْدُ بْنُ الصَّامِتِ، وَالنَّسَائِيُّ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ (١٥٤٤)، وَقَالَ

الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أحمد ١٦/٤٤٤-٤٤٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: [إسناده جيد].

وَقَالَ الْوَائِدِيُّ: «قَالَ دَاوُدُ: فَحَدَّثَنِي عِكْرِمَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: فَحَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ، فَأَذَّنَ بِالْأَلِّ وَأَقَامَ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ وَصَفَّ النَّاسُ خَلْفَهُ يَرَكْعُ بِهِمْ وَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ، فَقَامُوا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّعْبَةِ.

فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: قَدْ كَانُوا عَلَى غِرَّةٍ، لَوْ كُنَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ لَأَصَبْنَا مِنْهُمْ، وَلَكِنْ تَأْتِي السَّاعَةُ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ.

«وكان خالد بهذا القول قد قرر الهجوم عليهم وقت صلاة العصر، ولا شك أنه سينزل بهم خسائر فادحة لو صلوا صلاتهم العادية، ولكن النبي ﷺ أحبط محاولة خالد العادرة إذ صلى بأصحابه صلاة الخوف».

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ﴾ [الآية [النساء: ١٠٢]].

قَالَ: فَحَانَتْ الْعَصْرُ، فَأَذَنَ بِلَالٍ وَأَقَامَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُوْاجِهًا الْقِبْلَةَ وَالْعَدُوَّ أَمَامَهُ، وَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَبَّرَ الصَّفَّانِ جَمِيعًا، ثُمَّ رَكَعَ وَرَكَعَ الصَّفَّانِ جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ فَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ وَقَامَ الْآخَرُونَ يَخْرُسُونَهُ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السُّجُودَ بِالصَّفِّ الْأَوَّلِ وَقَامُوا مَعَهُ سَجَدَ الصَّفُّ الْمُوَخَّرُ السَّجْدَتَيْنِ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ الصَّفُّ الَّذِي يَلُونَهُ وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الْمُوَخَّرُ فَكَانُوا يَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَامُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَكَعَ الصَّفَّانِ جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلُونَهُ وَقَامَ الصَّفُّ الْمُوَخَّرُ يَخْرُسُونَهُ مُقْبِلِينَ عَلَى الْعَدُوِّ، فَلَمَّا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ السَّجْدَتَيْنِ سَجَدَ الصَّفُّ الْمُوَخَّرُ السَّجْدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَقِيَتَا عَلَيْهِمْ، وَاسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ.

فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: هَذِهِ أَوَّلُ صَلَاةٍ صَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَوْفِ.

حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ الزُّرْقِيِّ إِنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ مَيْدٍ فَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى هَكَذَا، وَذَكَرَ أَبُو عَبَّاسٍ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ.

حَدَّثَنِي رِبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ صَلَاةِ الْخَوْفِ فِي غَزْوَةِ دَاتِ الرِّقَاعِ، ثُمَّ صَلَّاهَا بَعْدَ بَعْثَانِ، بَيْنَهُمَا أَرْبَعُ سَنِينَ.

وَهَذَا أَثْبَتُ عِنْدَنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٢-٥٨٣].

تَجَنَّبَ الرَّسُولُ ﷺ لِقَاءَ قُرَيْشٍ:

يقول د/ الحكمي: «كان خالد بن الوليد - في خيل المشركين - قد قطع طريق المسلمين إلى مكة، فليس أمام المسلمين - إن هم تقدموا في طريقهم ذلك - إلا خوض معركة محققة مع خيل خالد بن الوليد، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تحاشي القتال مع قريش؛ ولذلك صرف أصحابه - بعد أن أمسى - إلى طريق آخر لا يمر على خيل خالد - أفضى بهم إلى ثنية أنزلتهم على الحديبية». [مرويات الحديبية للحكمي ١٦٥].



قال ابن سعد: «وَبَلَغَ الْمُشْرِكِينَ خُرُوجُهُ ﷺ، فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى صَدِّهِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَعَسَكُرُوا بِلَدِّحَ، وَقَدَّمُوا مَائَتِي فَارِسٍ إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ، وَعَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَيُقَالُ: عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَدَخَلَ بَشْرُ بْنُ سَفْيَانَ الْخَزَاعِيُّ مَكَّةَ، فَسَمِعَ كَلَامَهُمْ، وَعَرَفَ رَأْيَهُمْ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَقِيَهُ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ وَرَاءَ عُسْفَانَ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ.

وَدَنَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِ حَتَّى نَظَرَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ ﷺ فَقَدَّمَ فِي خَيْلِهِ، فَأَقَامَ بِإِزَائِهِ، وَصَفَّ أَصْحَابَهُ، وَحَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «تَيَأَمُّنُوا فِي هَذَا الْعَصَلِ (الاعوجاج، والمعنى هنا: الرمل المعوج المتلوي)، فَإِنَّ عُيُونَ قُرَيْشٍ يَمُرُّ الظُّهْرَانِ وَيَضْحَكُنَّ». [الطبقات الكبير ٢/ ٩١-٩٢].

وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ نَاحِيَةَ، أَوْ نَاحِيَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ، قَالَ: لَمَّا كُنَّا بِالْغَمِيمِ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَتَتْهَا بَعَثَتْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي جَرِيدَةٍ خَيْلٍ (الجريدة: خيل لا رجاله فيها، أي كلمهم راجعون) يَتَلَقَّى [يتلقى] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَلْقَاهُ وَكَانَ بِهِمْ رَحِيماً، فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَغْدُلُ لَنَا عَنِ الطَّرِيقِ؟»، فَقُلْتُ: أَنَا يَا أَبَا أَنْتَ، فَأَخَذَهُمْ [فَأَخَذْتُ بِهِمْ] فِي طَرِيقٍ قَدْ كَانَ بِهَا جَرَبًا [حزناً] (الحزن المكان الغليظ الخشن) [فَدَاوِدُ] (جمع دفد، وهو المكان الصلب الغليظ المرتفع) وَعُذَابٌ فَاسْتَوَتْ بِنَا الْأَرْضُ حَتَّى أُنْزِلَهُ عَلَى الْحُدَيْبِيَّةِ وَهِيَ نَرْحُ (النرح - بالتحريك -: البئر التي أخذ ماؤها) فَأَكْمَأَ [فَأَلْقَى] فِيهَا سَهْمًا أَوْ سَهْمَهُ [سَهْمَيْنِ] مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ بَصَقَ فِيهَا، ثُمَّ دَعَا، فَغَارَتْ [فَفَارَتْ] عُيُونُهَا [عُيُونًا] حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَوْ نَقُولُ: لَوْ شِئْنَا لَاغْتَرَفْنَا بِأَيْدِينَا. [مجمع الزوائد ٦/ ٢١٠ كتاب المغازي والسير باب الحديبية وعمرة القضاء رقم ١٠١٧٨، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢/ ١٧٩ رقم ١٧٢٧ وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. وينظر تعليق د/ الحكمي عليه في مرويات غزوة الحديبية ١٦٦-١٦٧].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بَعْسَفَانَ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ عُيُونَ الْمُشْرِكِينَ الْآنَ عَلَى صُجَّتَانِ (بالتحريك ونونين: ورواه ابن دريد بسكون الجيم: قيل جبل على بريد من مكة، قال الواقدي: بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلاً. معجم البلدان ٣/ ٤٥٣)، فَأَيْكُمْ يَعْرِفُ طَرِيقَ ذَاتِ الْخَنْظَلِ؟ (هو الفج الذي من عين الدورقي إلى ثنية الحرم، تاريخ مكة وأخبارها ٢/ ٣٠١)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمْسَى: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَنْزِلُ فَيَسْعَى يَنْ يَدِي الرِّكَابِ؟» (كتاب: الإبل واحداها راحلة. ترتيب القاموس ٢/ ٣٨٠)، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَتَرَلْتُ، فَجَعَلَتِ الْحِجَارَةُ تَنْكُبُهُ (أي تصيب رجله. ترتيب القاموس ٤/ ٤٣٥)، وَالشَّجَرُ يَتَعَلَّقُ بِشَيْبَاهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْكَبُ»، ثُمَّ نَزَلَ آخَرُ، فَجَعَلَتِ الْحِجَارَةُ تَنْكُبُهُ وَالشَّجَرُ يَتَعَلَّقُ بِشَيْبَاهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْكَبُ».

ثُمَّ وَقَعْنَا عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى سَرْنَا فِي ثَنِيَّةٍ، يُقَالُ لَهَا: الْخَنْظَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مَثَلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا كَمَثَلِ الْبَابِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، قِيلَ لَهُمْ: ﴿وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ

حَطَبَكُمْ» [البقرة: ٥٨]، لَا يَجُوزُ أَحَدُ اللَّيْلَةِ هَذِهِ الشَّيْءَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»، فَجَعَلَ النَّاسُ يُسْرِعُونَ وَيَجُوزُونَ، وَكَانَ آخِرَ مَنْ جَارَ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ فِي آخِرِ الْقَوْمِ.

قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يُرَكِّبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى تَلَا حَقْنًا، قَالَ: فَتَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَزَلْنَا.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٩-٢١٠ كتاب المغازي والسير (١٠١٧٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد

البزار ٢/ ٣٣٧-٣٣٨]، ورجاله ثقات. وقال الشيخ الصوباني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٥٧، وقال د/ الحكمي: «الحديث لا يقل عن درجة الحسن إن شاء الله». مرويات الحديبية (١٧١).

وَقَالَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ الْمُنْذِرِ الْقَزَّازِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي فُدَيْكٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، أَجَزْنَا فِي ثِيَابِهِ يَقَالُ لَهَا: ذَاتُ الْحُظَلِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مَثَلُ هَذِهِ الشَّيْءِ اللَّيْلَةِ إِلَّا كَمَثَلِ الْبَابِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿وَأَذْخُلُوا الْآبَاءَ شَجَدًا وَقُولُوا حُطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ حَطَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]». [تفسير ابن كثير تح سلامة ١/ ٢٧٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَالَ ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا؟»

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَسَلِّكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَغَرًّا أَجْرَلُ (الكثير الحجارة، ويروى: أجرد، أي ليس فيه نبات) بَيْنَ شُعَابٍ فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْهُ، وَقَدْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضُوا إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مُنْقَطِعِ الْوَادِي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ: «قُولُوا نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ»، فَقَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّمَا لِلْحُطَّةِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقُولُهَا (يريد قول الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَقُولُوا حُطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨]، ومعناه: اللهم حط عنا ذنوبنا).

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَقَالَ: «أَسْلُكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ بَيْنَ ظَهْرَيْ الْحَمَشِ، فِي طَرِيقِ (مُخْرِجُهُ) عَلَى ثِيَابِ الْمَرَارِ الْمُهْبِطِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ»، قَالَ: فَسَلِّكَ الْحَيْشُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَتْ حَيْلَ قُرَيْشٍ قَتَرَةً (غبار) الْحَيْشُ قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ رَجَعُوا رَاكِضِينَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا سَلَكَ فِي ثِيَابِ الْمَرَارِ بَرَكْتَ نَافَقَتُهُ ﷺ، فَقَالَتْ النَّاسُ: خَلَّاتُ (بركت، قال أبو ذر: الخلاء في الإبل: بمنزلة الحران في الدواب، وقال بعضهم: لا يُقال إلا للناقة خاصة) النَّاقَةُ، قَالَ ﷺ: «مَا خَلَّاتُ وَمَا هُوَ لَهَا بِحُلَّتٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى حُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِنَاهَا»، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «انْزِلُوا»، قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِالْوَادِي مَاءٌ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِتَابَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَتَزَلَّ بِهِ فِي قَلْبِ (بئر) مِنْ تِلْكَ الْقُلُبِ، فَعَرَّزَهُ فِي جَوْفِهِ، فَجَاشَ (ارتفع) بِالرَّوَاءِ (الكثير) حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ عَنْهُ يَعْطَنَ (مبرك الإبل حول الماء).

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٩-٣١٠].

## الحديبية بدلاً من التنعيم:

يقول أبو بوشمير: «ومع كل ما أقدمت عليه قريش من تحد واستفزاز بحشد جيوشها وإعلانها أنها ستصد المسلمين عن المسجد الحرام، وبالرغم من تكليفها قائد سلاح فرسانها خالد بن الوليد باعتراض سبيل المسلمين في الطريق ومحاولة الهجوم عليه في عسفان إن أمكنه ذلك، وهو ما قام به خالد بن الوليد فعلاً كما تقدم، الأمر الذي يعتبر صراحة عملاً حربياً تقوم به قريش - بغياً وعدواناً ضد المسلمين - مع كل هذا قرر النبي ﷺ أن يتحاشى الصدام المسلح مع خالد بن الوليد الذي قطع الطريق على المسلمين بخيله محاولاً استدراجهم إلى الاشتباك معه وجرحهم إلى خوض حرب ما جاؤوا لها ولا يرغبون فيها.

وقد كان قرار النبي ﷺ هذا نابغاً من حرصه على حقن الدماء التي لا مبرر لإراقتها وخاصة في تلك الظروف التي لم يأت فيها لحرب وإنما جاء - فقط - زائراً لبيت الله الحرام.

لذلك قرر ألا يمر في طريقه إلى مكة بالطريق الرئيس الذي سده خالد بن الوليد بمائتين من الفرسان، والذي لا يمكن للنبي ﷺ وأصحابه أن يمرؤا به دون أن يشتبكوا مع خالد وفرسانه في صدام مسلح. لقد كان المفروض أن يستمر النبي ﷺ وأصحابه في تحركهم من عسفان نحو الجنوب في اتجاه مكة عبر التنعيم (موضع بمكة خارج الحرم، وهو أدنى الحل إليها على طريق المدينة وهو على ثلاثة أميال عن مكة)، وهو الطريق الرئيس المعتاد أن يطرقه كل من يقصد مكة من المدينة.

ولكنه بناء على القرار الذي اتخذته بتجنب الاشتباك مع فرسان خالد بن الوليد - وبالتالي بتجنب القتال مع قومه بصورة عامة، ما وجد إلى ذلك سبيلاً - فقد قرر أن يغير اتجاهه بحيث يمكنه المرور بأصحابه من طريق تقضي بهم إلى مكة دون أن يمرؤا بالطريق الذي يربط فيه خالد بن الوليد بفرسان قريش، فقال ﷺ: (هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟).

ثم قال النبي ﷺ - أمراً بتغيير اتجاه السير -: تَبَايَعُوا فِي هَذَا الْعَصَلِ، فَإِنَّ عُيُونَ قُرَيْشٍ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ أَوْ بِضَبْجَنَانَ، فَأَيُّكُمْ يَعْرِفُ ثَنِيَّةَ ذَاتِ الْحَنْظَلِ؟

وبعد أن سأل ما إذا كان أحد من أصحابه يعرف طريقاً إلى مكة لا تمر بخيل خالد بن الوليد، ويعرف ثنية ذات الحنظل، قال بريدة بن الحصب الأسلمي: أنا يا رسول الله عالم بها، فقال النبي ﷺ: أسلك أماناً. وقد سلك الدليل بالنبي ﷺ وأصحابه ذات اليمين بعد أن انحرف بهم عن الجادة، فسلك بهم طريقاً وعراً غير مطروق، وما زال يسرون في مسالك مجهولة وعرة حتى أفضوا إلى سهل الحديبية، عبر مضيق (ذات الحنظل).

## النبي ﷺ وأصحابه يضلون الطريق عدة مرات:

وبسبب كون المسالك التي سلكها النبي ﷺ وأصحابه مهجورة وليست من الطرق المعروفة إلا لدى أفراد قلائل من بادية المنطقة، لقي النبي ﷺ وأصحابه عناء شديداً أثناء مرورهم بهذا الطريق.

فقد ضلوا الطريق إلى الحديبية ثلاث مرات بعد أن فشل ثلاثة من بني سليم - العالمين بمسالك المنطقة - في معرفة هذا الطريق، وتحيروا فيها، بالرغم من أنه قد سبق لهم أن مروا بها عدة مرات.

[صلح الحديبية لاشميل ١٣٦-١٣٩].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: فَلَمَّا أَمْسَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَيَامَنُوا فِي هَذَا الْعَصَلِ (الاعوجاج، والمعنى هنا: الرمل الموعج المتلوي)، فَإِنْ عُيُونَ قُرَيْشٍ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ أَوْ بَضْجَنَانٍ، فَأَيْكُمْ يَعْرِفُ ثَنِيَّةَ ذَاتِ الْحَنْظَلِ؟ (موضع في ديار بني أسد)، فَقَالَ بُرَيْدَةُ بْنُ الْحَصْبِ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَالِمٌ بِهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْلُكْ أَمَامَنَا»، فَأَخَذَ بِهِ بُرَيْدَةُ ﷺ فِي الْعَصَلِ قَبْلَ جِبَالِ سُرَاوَعٍ قَبْلَ الْمَغْرِبِ، فَسَارَ قَلِيلًا ثُمَّ كَبَّهُ الْحِجَارَةُ وَتَعَلَّقَهُ الشَّجَرُ، وَحَارَ حَتَّى كَانَهُ لَمْ يَعْرِفْهَا قَطُّ.

قَالَ: فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَسْلُكُهَا فِي الْجُمُعَةِ مَرَارًا.

فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَتَوَجَّهُ قَالَ: «ارْكَبْ»، فَرَكِبْتُ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَدُلُّنَا عَلَى طَرِيقِ ذَاتِ الْحَنْظَلِ؟» فَتَزَلَّ حُمْزَةُ بْنُ عَمْرِو الْأَسْلَمِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْلُكَ، فَسَارَ قَلِيلًا ثُمَّ سَقَطَ فِي حَمْرٍ (كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره) الشَّجَرِ، فَلَا يَذَرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارْكَبْ»، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَدُلُّنَا عَلَى طَرِيقِ ذَاتِ الْحَنْظَلِ؟» فَتَزَلَّ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ مَنَهِمٍ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَذْلُكَ، فَقَالَ: «انْطَلِقْ أَمَامَنَا»، فَانْطَلَقَ عَمْرُو ﷺ أَمَامَهُمْ حَتَّى نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الثَّنِيَّةِ، فَقَالَ: «هَذِهِ ثَنِيَّةُ ذَاتِ الْحَنْظَلِ؟» فَقَالَ عَمْرُو ﷺ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى رَأْسِهَا تَحَدَّرَ بِهِ، قَالَ عَمْرُو ﷺ: وَاللَّهِ إِنْ كَانَ لِيَهْمُنِي نَفْسِي وَجَدِّي، إِنَّمَا كَانَتْ مِثْلُ الشَّرَاكِ (سير النعل)، فَاتَّسَعَتْ لِي حَتَّى بَرَزْتُ، وَكَانَتْ حُجَّةً لَا حِجَّةَ (طريق واسع)، وَلَقَدْ كَانَ النَّفَرُ يَسِيرُونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ جَمِيعًا مُعْطِفِينَ مِنْ سَعَتِهَا بِتَحَدُّثُونَ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٣-٥٨٤].

### الكلمة التي عرضت على بني إسرائيل:

وبعد الخروج من متاعب الضياع في الطريق، وبعد الوصول إلى ثنية ذات الحنظل عند منقطع الوادي، طرف سهل الحديبية أَضَاءَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى كَانُوا فِي قَمَرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِثْلُ هَذِهِ الثَّنِيَّةِ اللَّيْلَةَ إِلَّا مِثْلُ الْبَابِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدَا وَفُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨]... قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ: «قُولُوا تَسْتَغْفِرُ اللَّهُ، وَتَتُوبُ إِلَيْهِ»، فَقَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنَّمَا لِلْحِطَّةِ (الحطة: يُريد قول الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَفُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨])، وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ حُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا) الَّتِي عَرَضْتَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقُولُوهَا». [سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٠].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَلِمَةُ الَّتِي غَرَضْتُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، قَالَ: بَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَدَعَلُوا مِنْ قَبْلِ أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ».

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَلِمَةُ الَّتِي غَرَضْتُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ». فَكَلَّا هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ قَدْ رُويَ. قَالُوا: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجُوزُ هَذِهِ الثَّنِيَّةُ أَحَدًا إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٤-٥٨٦].

#### أصحاب الثنية المغفور لهم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ بَضَعْدُ الثَّنِيَّةِ ثِنْتَةَ الْمُرَارِ (مهبط الحديبية)، فَإِنَّهُ يُحْطُ (يسقط ويمحي) عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَنَامَ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَخْمَرِ»، فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ أَجِدَ صَالَتِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ. قَالَ: وَكَانَ [وَإِذَا هُوَ] رَجُلٌ <sup>(١)</sup> [أَعْرَابِيٌّ] يَنْشُدُ (أي يطلبها ويعرفها) ضَالَّةً لَهُ.

[مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٠)].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجُوزُ هَذِهِ الثَّنِيَّةُ أَحَدًا إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: وَكَانَ أَخِي لِأُمِّي فَتَادَهُ بِنُ التُّعْمَانِ فِي آخِرِ النَّاسِ، قَالَ: فَوَقَفْتُ عَلَى الثَّنِيَّةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَا يَجُوزُ هَذِهِ الثَّنِيَّةُ أَحَدًا إِلَّا غَفَرَ لَهُ»، فَجَعَلَ النَّاسُ يُسْرِعُونَ حَتَّى جَارَ أَخِي فِي آخِرِ النَّاسِ، وَفِرْقَتُ أَنْ يُصْبِحَ قَبْلَ أَنْ تَجُوزَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٥].

#### بعيره أهم إليه من أن يستغفر له الرسول ﷺ:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ ثَقُلٌ فَلْيُصْطَنِعْ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه: وَإِنَّمَا مَعَهُ ثَقُلٌ - الثَّقُلُ الدَّقِيقُ - وَإِنَّمَا كَانَ عَامَةً زَادَنَا التَّمَرُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ تَرَانَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُمْ لَنْ يَرَوْكُمْ إِنْ اللَّهُ سَيَعِينُكُمْ عَلَيْهِمْ»، فَأَوْقَدُوا النَّيْرَانَ، وَاصْطَنَعَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْطَنِعَ، فَلَقَدْ أَوْقَدُوا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ نَارٍ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا صَلَّيْ

(١) يقول د/ الحكمي: «قال القاضي: قيل: هذا الرجل هو الجذ بن قيس المنافق، شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٢٧،

وقال الواقدي: هو رجل من بني ضمرة من أهل سيف البحر، مغازي الواقدي ٢/ ٥٨٥.

قلت: يشهد لقول الواقدي ما في الطريق الآخر للحديث: (فإذا أعرابي)، وقال ذلك هو جابر بن عبد الله، وهو من بني سلمة قوم الجذ بن قيس، فلو كان صاحب القصة هو الجذ بن قيس لصرح جابر باسمه، ولم يقل أعرابي. والله أعلم.

مرويات الحديبية ١٧٢.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحُ، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِلرَّكْبِ أَجْمَعِينَ إِلَّا رُؤَيْكِيًا وَاحِدًا عَلَى جَهْلٍ أَحْمَرٍ، تَنَقَّتْ عَلَيْهِ رِجَالُ الْقَوْمِ لَيْسَ مِنْهُمْ»، فَطُلِبَ فِي الْعَسْكَرِ وَهُوَ يُظَنُّ إِنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأُذِيَ بِهِ نَاحِيَّةٌ إِلَى ذَرَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ مِنْ بَنِي صَمْرَةَ مِنْ أَهْلِ سَبَفِ الْبَحْرِ، فَقِيلَ لِسَعِيدٍ ؓ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ سَعِيدٌ ؓ: وَنَحْكَ أَذْهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لَكَ، قَالَ: بَعِيرِي وَاللَّهِ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي، وَإِذَا هُوَ قَدْ أَضَلَّ بَعِيرًا لَهُ يَتَّبِعُ الْعَسْكَرَ يَتَوَصَّلُ بِهِمْ وَيَطْلُبُ بَعِيرَهُ، وَإِنَّهُ لَفِي عَسْكَرِكُمْ فَأَذُوا إِلَيَّ بَعِيرِي، فَقَالَ سَعِيدٌ ؓ: نَحْوَلْ عَنِّي، لَا حَيَّاكَ اللَّهُ، أَلَا لَا أَرَى قُرْبِي إِلَّا دَاهِيَةً وَمَا أَشْعُرُ بِهِ، فَاَنْطَلَقَ الْأَعْرَابِيُّ يَطْلُبُ بَعِيرَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَبْرَأَ الْعَسْكَرَ، فَبَيْنَا هُوَ فِي جِبَالِ شُرَاوَعٍ إِذْ زَلِقَتْ نَعْلُهُ فَتَرَدَّى قِمَاتٍ، فَمَا عَلِمَ بِهِ حَتَّى أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٥-٥٨٦].

### أهل اليمن:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَأْتِي قَوْمٌ تَحْمُرُونَ أَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُرَيْشٌ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ أَهْلُ الْيَمَنِ، فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفْنَدَةً وَأَلْيَنَ قُلُوبًا»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُمْ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا - وَصَفَ هِشَامٌ فِي الصِّفَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ سَوَاءً - أَلَا إِنْ فَضَّلَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِكَ» [الحديد: ١٠].

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي ذُنُبٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، كَمَا تَهْمُ قِطْعُ السَّحَابِ، هُمْ خَيْرٌ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ»، قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَلَا نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ الرَّابِعَةَ قَالَ قَوْلًا ضَعِيفًا: «إِلَّا أَنْتُمْ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٦].

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، كَقِطْعِ السَّحَابِ، خَيْرٌ أَهْلُ الْأَرْضِ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «إِلَّا أَنْتُمْ». [مسند أحمد ٢٧/ ٣٢٢ رقم ١٦٧٥٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة].

### عودة خالد إلى مكة:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تأكد لدى خالد بن الوليد أن النبي ﷺ قد التف حوله ذات اليمين وأنه قد وصل بأصحابه إلى سهل الحديبية (عبر ذلك الطريق الوعر الغير المسلوك) وأنه يعتزم دخول الحرم من ناحية الغرب (عبر الحديبية) أغاظه ذلك؛ لأن النبي ﷺ بانحرافه ذات اليمين فَوَّتْ على خالد الفرصة إذ نسف خطته المحكمة التي رسمها لملاقاة المسلمين وضرهم في موقع إستراتيجي اختاره هو وعسكر فيه بفرسانه لينقضَّ منه على المسلمين حالة وصولهم.

ولقد كَرَّ خالد بن فرسانه راجعاً إلى مكة ليبلغ قادة قريش بما حدث ويتلقى منهم تعليمات جديدة بعد أن نسف الرسول ﷺ خطته الأساسية باتجاهه بأصحابه نحر الحديبية بدلاً من التنعيم الطريق الطبيعي الرئيس والأقرب لمن يريد مكة قادماً من المدينة.

لم يكن النبي ﷺ يقصد بنحاشي الصدام مع فرسان خالد في كراع الغميم على الطريق الرئيس، لم يكن يقصد التراجع عن دخول مكة لأداء مناسك العمرة، وإنما يقصد التنزه عن سفك الدم وإعطاء قريش فرصة أطول لعلها تعود إلى صوابها، فتخلي بينه وأصحابه وبين البيت ليطوفوا به ويسعوا سالمين ثم يعودوا من حيث أتوا سالمين كما هي خطتهم منذ تحركوا من المدينة.

ومع رغبة النبي ﷺ في تجنب الحرب، وابتعاده لذلك عما يؤدي إلى الصدام المسلح كما فعل عندما تخاشى المرور بفرسان خالد في كراع الغميم، مع ذلك فقد ظل الجو مكهرباً والموقف على غاية من الدقة. فالمسلمون قد قطعوا أكثر من مائتين وخمسين ميلاً محرمين بالعمرة، وها هم بعد ذلك السَّفر الشاق قد وصلوا حدود الحرم ولم يبق بينهم وبين البيت العتيق الذي خرجوا لزيارته سوى عدة أميال لا تزيد على العشرة.

ومن الشعب عليهم جدًّا، أن يعودوا إلى المدينة دون أن يحققوا أمنيتهم التي قطعوا كل هذه المسافات الطويلة الشاقة من أجل تحقيقها وهي زيارة البيت العتيق.

وقريش من ناحيتها قد أقسمت ألا يدخل محمد وأصحابه مكة عنوة، وحشدت لتبر هذا القسم الآثم كل إمكاناتها العسكرية، كما استنفرت كل حلفائها من ثقيف والأحباش ليقفوا إلى جانبها ضد المسلمين.

وها هي تغدو وتروح يتزو بها الغضب ويشتط بها الكفر ويجمع بها الشرك، قد لجَّت في العناد وأمعنت في البغي، قد أخذ الشيطان مقودها وسار بها في دروب العناد والمكابرة.

فقد خرجت بجيوشها التي كانت ترابط بالقرب من التنعيم شمال مكة حيث من المنتظر أن يمر النبي ﷺ بأصحابه إلى مكة، خرجت بجيوشها إلى منطقة الحديبية وعسكرت بها داخل الحرم بالقرب من الحديبية مصممة على منع النبي ﷺ وأصحابه من اجتياز حدود الحرم بقوة السلاح، تساندها قوات كبيرة من حلفائها ثقيف والأحباش.

### حابس الفضيل:

وهذا أصبحت الحرب بين الفريقين قاب قوسين أو أدنى، بعد أن أصبح كل منهما قريباً من الآخر، فالنبي ﷺ وأصحابه بعد أن أفضى بهم الدليل من الطريق الفرعي إلى سهل الحديبية غربي الحرم، أخذوا

في التحرك نحو مكة مصممين على دخولها معتمرين ومصرّين على مقاتلة قريش إن هي حاولت منعهم بالحرب.

غير أنه وبينما كان ﷺ يقترب وأصحابه من حدود الحرم (في منطقة الحديبية) حدث حادث عجيب عاقبة عن اجتياز حدود الحرم.

وكان الله تعالى أراد بذلك الحادث العجيب أن يجنب الفريقين مأساة مجزرة رهيبة، كانت وشيكة الحدوث، لو اجتاز النبي ﷺ بأصحابه حدود الحرم نحو مكة.

فقد بركت ناقته (القَصْوَى) وكانت من أجود النوق المطاوع، بركت القصوى مكانها بالقرب من حدود الحرم، ولم تنهض من مبركها بالرغم من محاولة إنهاضها، فظن الناس أنها تعبت فعجزت.

[صلح الحديبية لباشمیل ١٤٢-١٤٦].

وفي حديث الإسور بن محرمة ومروان قالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَبْعُضُ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْعَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ»، فَوَاللهَ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَيْشِ، فَأَنْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حُلْ حُلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتْ (أي حرنت) الْقَصَوَاءُ، خَلَّاتْ الْقَصَوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (بعد أن أدرك ما لم يدركه غيره): «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةً (الخطبة الأمر والحال والخطب) يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ رَجَعَهَا فَوَبَّتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ». [البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

وفي حديثها من طريق ابن إسحاق عند أحمد: قال: ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ فَسَلَكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ يَنْ ظَهْرِي الْحُمْضِ (ما ملح وأمر من النبات، وهو هنا اسم موضع) عَلَى طَرِيقٍ تُخْرِجُهُ عَلَى ثَنِيَّةِ الْمَرَارِ وَالْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَسَلَكَ بِالْجَيْشِ تِلْكَ الطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلُ قُرَيْشٍ قَتْرَةَ الْجَيْشِ، قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ نَكَصُوا رَاجِعِينَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا سَلَكَ ثَنِيَّةَ الْمَرَارِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: خَلَّاتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا خَلَّاتْ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشَ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وفي مرسل عروة من طريق ابنه هشام: «فَأَخَذَ ذَاتَ الْيَمِينِ فِي ثَنِيَّةٍ تَدْعَى ذَاتَ الْحَنْظَلِ، حَتَّى هَبَطَ عَلَى الْحُدَيْبِيَّةِ». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/٤٣٠ رقم ٣٧٩٩٤]. [ينظر: مرويات الحديبية للحكمي ١٦٥-١٧٥].



قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي مَعْمَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ الْمُسَوِّدِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْحَدِيبَةِ وَقَعَتْ يَدُ رَاحِلَتِهِ عَلَى ثَنِيَّةٍ تَهْبِطُ عَلَى غَائِطِ الْقَوْمِ، فَبَرَكَتْ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: حُلْ حُلْ، فَأَبَتْ أَنْ تَنْبَعَثَ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا مَا خَلَّاتِ، وَلَا هُوَ لَهَا بَعَادَةٌ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، أَمَا وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونَنِي الْيَوْمَ خُطَّةً فِي تَعْظِيمِ حُرْمَةِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، ثُمَّ زَجَرْنَاهَا فَقَامَتْ، فَوَلَّى رَاجِعًا عَوْدَهُ عَلَى بَدْنِهِ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٦-٥٨٧].

يقول أ/ باشميل: «وهذا إعلان صريح من النبي الأعظم ﷺ بأنه مستعد - من أجل حقن الدماء في الحرم - للتفاوض مع قريش إلى أبعد الحدود، وأنه سيبدل كل ما في وسعه للحيلولة دون إراقة الدماء ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ثم زجر ناقته فقامت، فعاد بها راجعاً عوده على بدنه، أمراً أصحابه بالنزول في الحديبية، وقرر عدم اجتياز حدود الحرم وأصدر بذلك أمراً حتى إشعار آخر.

فأطاع أصحابه.. وعددهم ألف وأربعمائة - وأمره فنزلوا على بئر في الحديبية، ويظهر أنها البئر التي يراها اليوم الذاهب إلى مكة على يمينه بالقرب من أعلام الحرم في الشامي.

هكذا، وبالرغم من أن النبي ﷺ قادر على اقتحام مكة عنوة بما لديه من قوات قادرة على قهر المشركين، تعرف قريش ما سيصيبها من دمار على يدها إذا ما التحمت معها في صدام مسلح، فإنه ﷺ - رغبة منه في حقن الدماء - قد أثر التريث، وظل برجاله معسكراً خارج حدود الحرم في انتظار ما تأتي به الأقدار، مما يمكن أن تكون فيه مصلحة الفريقين.

فلعل عقلاء قريش يكبحون من جماح سفهاء قومهم وغلاتهم - فيتخلون عن فكرة استخدام القوة لصعد المسلمين عن زيارة البيت، فيؤذي المسلمون العمرة دونما إراقة قطرة دم، ثم يعودون إلى عاصمتهم المدينة التي لم يخرجوا منها إلا لزيارة البيت.

وبالرغم من التزام النبي ﷺ بجانب التسامح وسلوكه سبيل التريث ضناً بالدماء من أن تُراق في الحرم، فقد استمرت قريش في عنادها، فأبقت قواتها بجانب المسلمين في حالة استنفار عام، بل لقد ذهبت في الشطط والغرور إلى أبعد من ذلك، حيث حاول بعض سفهاء المشركين الهجوم على المسلمين وأخذهم على حين غرة في الظلام.

إلا أن الصحابة الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية بقيادة رئيس الحرس محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ، أحبطوا مؤامرة هؤلاء السفهاء، وحالوا بينهم وبين التسلل إلى معسكرات المسلمين التي اعتزموا التسلل إليها ليلاً للقتل والاعتقال، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

## فصائل حراسة المسلمين:

وعندما وصل النبي ﷺ إلى سهل الحديبية وقرر التريث والانتظار فيها - ونظرًا لحالة التوتر الشديد التي نجمت نتيجة بغى قريش وتعتتها وتهديدها المسلمين بمنعهم من دخول الحرم عن طريق الحرب - فقد أمر بإنشاء ثلاث كتائب من أصحابه للقيام بأعمال الحراسة في الحديبية لصد أي عدوان قد يقوم به الطائشون من القرشيين.

وكان قادة فصائل الحراسة هذه ثلاثة كلهم من الأنصار وهم:

- ١- عباد بن بشر.
- ٢- أوس بن خولى.
- ٣- محمد بن مسلمة.

وكانت هؤلاء القادة الثلاثة يبيتون يحرسون معسكر المسلمين بالتناوب كل ليلة يحرس واحد من رجاله المعسكر، يقوم بأعمال الدورية حول المعسكر حتى الصباح». [صلح الحديبية لباشمیل ١٤٦-١٤٨].

...

...

...

## المبحث السابع

## المسلمون في الحديبية

موقع الحديبية، وهل هي من الحل أو من الحرم؟<sup>(١)</sup>

أ - ضبط لفظ الحديبية: الحديبية: بالتصغير، هي بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء مخففة أو مشددة على خلاف: فأهل العراق على تخفيفها، ونقله النووي عن الشافعي وأهل اللغة، وبعض أهل الحديث.

وقال السهيلي: «التخفيف هو الأعراف عند أهل العربية، ونقله البكري عن الأصمعي».

[ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢: ٨١].

وقال أبو جعفر النحاس: «سألت كل من لقيت ممن وثقت بعلمه من أهل العربية عن الحديبية فلم يختلفوا على أنها مخففة». [تاج العروس ١/ ٢٠٤-٢٠٥، الروض الأنف ٦/ ٤٧٥].

وقال أحمد بن يحيى: «لا يجوز غير التخفيف». [المصباح المنير ١/ ١٧٠].

وأهل المدينة يثقلونها، وكذلك أكثر الفقهاء والمحدثين.

[تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢: ٨١، تاج العروس ١/ ٢٠٤-٢٠٥].

وحكى ياقوت عن الشافعي رحمته الله أنه قال: الصواب: «تشديد الحديبية، وتخفيف الجعرانة، وأخطأ من

نص على تخفيفها، وقيل كل صواب». [ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩].

قلت: الظاهر أن الكل صواب، فقد قال النووي: «وهما وجهان مشهوران».

[تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢: ٨١].

وقال ابن حجر: «والحديبية بالتخفيف والتثقل لغتان». [فتح الباري ٧/ ٤٣٩].

ب - سبب تسمية ذلك الموضع بالحديبية: قال ياقوت: «هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة،

سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع تحتها». [معجم البلدان ٢/ ٢٢٩].

وكذلك قال ابن حجر: هي بئر سمي بها المكان. [فتح الباري ٥/ ٣٣٤].

وقال الخطابي: «إن الحديبية اسم لشجرة حذاء في ذلك الموضع وصُغرت وُسِّمِي بها المكان، نقله عنه

ياقوت». [ينظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٩].

وحكاه ابن حجر بصيغة التمرىض. [فتح الباري ٥/ ٣٣٤].

وقال الزبيدي: «جزم المتأخرون أنها قرية من قهوة الشمسي، ثم أطلق على الموضع».

[تاج العروس ١/ ٢٠٥].

(١) مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢٩-٣٤ بتصرف يسير.

قلت: القول الأول: يشهد له ما في حديث البراء: «كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة...»، ولا يبعد أن تكون البئر سميت بالشجرة، والله أعلم.

ج - موقعها: قال ياقوت: «بين الحديبية ومكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل».

[معجم البلدان ٢/٢٢٩].

وقال النووي: «إنها على نحو مرحلة من مكة». [تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢: ٨١].

وقال في المصباح: «تقع على طريق جدة دون مرحلة». [نقله الزبيدي: تاج العروس ١/ ٢٠٥].

وقال صاحب صحيح الأخبار: «إن جزت وادي فاطمة أتيت الموضع الذي يقال له اليوم الشمسي،

وكان يقال له في الزمن القديم: الحديبية». [صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ٢/ ١٣٨].

وقال صاحب نسب حرب: «تقع غرب مكة على بعد (٢٢ كيلاً) على الطريق إلى جدة، وقد تغير

اسمها إلى الشمسي لأنه يقال: إن رجلاً يدعى الشمسي حفر بئراً هناك فغلب اسمه عليها، وبالقرب

منها من الغرب أقامت أمانة العاصمة حدائق تعرف بـ (حدائق الحديبية) وفي الحديبية اليوم مسجد

الرضوان يقال: إنه بني مكان البيعة». [نسب حرب: ٣٥٠].

أفادت هذه النقول أن الحديبية تقع في الناحية الغربية من مكة كما صرح بذلك صاحب (نسب

حرب) وهو مفهوم قول صاحب (المصباح) وصاحب (صحيح الأخبار) لأن جدة تقع في الجهة الغربية

من مكة لكن الواقع أن الحديبية لا تحاذي بمكة من الجهة الغربية، بل تنحرف إلى جهة الشمال وقد أشار

إلى ذلك ياقوت حيث ذكر: «أنها ليست في طول الحرم، ولا في عرضه، بل تقع في زاوية الحرم».

[معجم البلدان ٢/ ٢٢٩].

أما المسافة التي بين الحديبية وبين مكة فقد ذكر ياقوت أنها مرحلة، والمرحلة تقدر بـ (٤٠ كيلو متراً)

كما قرر ذلك صاحب تيسير العلام. [تيسير العلام ١/ ٤٨٣].

لكن نرى صاحب (نسب حرب) يقول: (إن بينهما ٢٢ كيلو متراً)، وهناك فرق شاسع بين القولين.

لكن الظاهر أن المتقدمين لا يريدون التحديد الدقيق، وإنما يقصدون التقدير التقريبي للمسافة. لذلك

نرى النووي يقول: إنها على نحو مرحلة. وصاحب المصباح يقول: دون مرحلة.

أما صاحب (نسب حرب) فإنه يريد التحديد الدقيق للمسافة، وما ذكره هو المعروف اليوم.

وقد ذكر المتأخرون أنه قد غلب على مكان الحديبية اسم (الشمسي) فصار المكان يعرف بهذا الاسم،

لكن ذكر صاحب (نسب حرب) أنها توجد، ثم حدائق تعرف بـ (حدائق الحديبية) وهذا يعني أن المكان

لا زال يعرف أنه مكان الحديبية.

## د - هل الحديبية من الحل أو من الحرم؟

عند مالك أن الحديبية جميعها من الحرم. [ذكره الزبيدي: تاج العروس ١/ ٢٠٥]:  
 وقال الشافعي: «الحديبية موضع من الأرض منه ما هو في الحل، ومنه ما هو في الحرم». [الأم ٢/ ١٥٩].  
 وقال ياقوت: «وبعض الحديبية في الحل، وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من البيت».  
 [معجم البلدان ٢/ ٢٢٩].

وقال ابن القيم: «والحديبية في الحل باتفاق الناس».  
 وقد قال الشافعي: «بعضها في الحل، وبعضها في الحرم، ومراده: أن أطرافها من الحرم، وإلا فهي من الحل باتفاقهم». [زاد المعاد ٣/ ٣٨٠].

قلت: الظاهر أن ما ذهب إليه الشافعي وياقوت هو الأرجح، وأما ما حكاه ابن القيم من الاتفاق على أن الحديبية كلها من الحل، فغير مسلم؛ لأن مالكاً يرى أنها من الحرم كلها، والشافعي وغيره يرون أن بعضها من الحرم.

وقد حمل ابن القيم قول الشافعي على أنه يقصد أن أطرافها من الحرم، لكنه لم يبين مساحة هذه الأطراف، وعلى افتراض أنه يقصد ذلك، فإن هذه الأطراف يطلق عليها بعض الحديبية، والله أعلم.  
 [مرويات الحديبية للحكمي ٢٩-٣٤].

## نزول المسلمين الحديبية ومعجزة النبي ﷺ في تكثير ماء البئر:

يقول د/ الحكمي: «لقد تحمل المسلمون صنوفاً من الأذى والتعب بسبب وعورة الطريق لكنهم نالوا جزاء ذلك - مغفرة الله تعالى - وهي غايتهم المنشودة، بل وغاية كل مسلم.  
 وبعد أن جازوا الثنية - وكان آخر الليل - هبطوا على الحديبية فلم يجدوا بها إلا ماء منقطعاً لم يبق شيئاً لعطشهم - وكانوا قد نزلوا في شدة الحر - فهرعوا إلى رسول الله ﷺ يشكون قلة الماء، وعندها ظهرت معجزة النبي ﷺ التي أكرمها الله بها حيث استحالت تلك البئر - التي قد نضب ماؤها أو كاد - عيوناً متدفقة: ففي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق معمر: بعد أن ذكر الثنية ويروك ناقه الرسول ﷺ قال: «ثُمَّ رَجَرَهَا فَوُثِّبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ (حفرة فيها ماء قليل) قَلِيلِ الْمَاءِ، يَنْبَرِّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا (يأخذونه قليلاً قليلاً، والبرض الشيء القليل)، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشَكَّى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشُ، فَانْتَرَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيئُ هُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ». [البخاري في الشروط (٢٧٣١، ٢٧٣٢)].

وفي حديثها من طريق ابن إسحاق: «ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «انْزِلُوا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِالْوَادِي مِنْ مَاءٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَتَزَلَّ فِي قَلْبِهِ (بئر) مِنْ تِلْكَ الْقُلُبِ، فَعَرَّزَهُ فِيهِ، فَجَاشَ الْمَاءُ بِالرَّوَاءِ، حَتَّى صَرَبَ النَّاسُ عَنْهُ بِعَطْنٍ (مبرك الإبل حول الماء)». [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وعَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةُ بَيْتٌ فَتَرَحَّنَا حَتَّى لَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَفِيرِ (حافة) الْبَيْتِ، فَدَعَا بِنَاءً فَمَضْمَضَ وَمَجَّ فِي الْبَيْتِ، فَمَكَّنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ اسْتَقَيْنَا حَتَّى رَوَيْنَا وَرَوَتْ - أَوْ صَدَرَتْ - رَكَائِبُنَا. [البخاري في المناقب (٣٥٧٧)].

وعَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَفَدَّ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ.

كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَالْحُدَيْبِيَّةُ بَيْتٌ فَتَرَحَّنَا، فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَلَبَّغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَاتَانَا، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا، ثُمَّ صَبَّ فِيهَا فَتَرَكْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّمَا أَصْدَرْتَنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرَكَائِبُنَا. [البخاري في المغازي (٤١٥٠)].

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً أَوْ أَكْثَرَ، فَتَزَلُّوا عَلَى بَيْتٍ فَتَرَحَّنُوا، فَأَتَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَأَتَى الْبَيْتَ، وَقَعَدَ عَلَى شَفِيرِهَا ثُمَّ قَالَ: «اِثْنُونِي بِدَلْوٍ مِنْ مَائِهَا»، فَأَيُّ بِهِ فَبَصَقَ فَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: «دَعُوهَا سَاعَةً». فَأَرَوْا أَنْفُسَهُمْ وَرَكَائِبَهُمْ حَتَّى ارْتَحَلُوا.

[البخاري في المغازي (٤١٥١)].

وعَنِ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تَرْوِيهَا، قَالَ: فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَا (ما حول البئر) الرِّكْيَةِ (البئر)، فِيمَا دَعَا وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، قَالَ: فَجَاشَتْ فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا. [مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)].

وعَنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَأَصَابَنَا جَهْدٌ (مشقة) حَتَّى هَمَمْنَا أَنْ نَنْحَرَ بَعْضُ ظَهْرِنَا، فَأَمَرَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَجَمَعْنَا مَرَاوِدَنَا (الوعاء الذي يحمل فيه الزاد وهو ما تزوده المسافر لسفره من الطعام والتزاد معناه ما تزودناه)، فَسَبَطْنَا لَهُ نَظْعًا (أي سفرة من أديم أو بساطًا)، فَاجْتَمَعَ رَأْدُ الْقَوْمِ عَلَى النَّظْعِ، قَالَ: فَتَطَاوَلْتُ لِأَحْزَرُهُ (أي أظهرت طولي لأحزره أي لأقدره وأخنه) كَمْ هُوَ؟ فَحَزَرْتُهُ كَرُبْصَةٍ الْعَنْزِ (أي كمبركها أو تقدرها وهي رابضة والعنز الأثني من المعز إذا أتى عليها حول)، وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: فَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ حَسَوْنَا جُرْبَنَا (جمع جراب ككتاب وكتب وهو الوعاء من الجلد يجعل فيه الزاد)، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «فَهَلْ مِنْ وَضوءٍ؟» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ بِإِدَاوَةٍ (مطهرة) لَهُ فِيهَا نُطْفَةٌ (أي قليل من

الماء)، فَأَقْرَعَهَا فِي قَدَحٍ، فَتَرَضَّانَا كُلُّنَا نُدْغِفُهُ دَغْفَقَةً (أي نصبه صباً شديداً) أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ كِتَابِيَّةٌ، فَقَالُوا: هَلْ مِنْ طَهُورٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرِغِ الْوُضُوءِ». [مسلم في الحدود (١٧٢٩)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً، فَأَنَّى يَتَوَرَّأُ فَادْخَلَ يَدَهُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ الْمَاءَ يَتَمَجَّجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَيَقُولُ: حَيَّ عَلَى الطُّهُورِ وَالْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ ﷻ.

قَالَ الْأَعْمَشُ فَحَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ.

[النسائي في الطهارة (٧٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

### تنبيه:

جاء في حديث المسور ومروان: أن تكثير الماء كان بسبب وضع سهم النبي ﷺ في البئر، وفي حديث البراء وحديث سلمة أن ذلك بسبب مع النبي ﷺ أو بصاقه في البئر ودعائه.

والتحقيق أنه لا خلاف بين تلك الأحاديث لحصول ذلك كله من النبي ﷺ، فقد وردت روايات جمعت بين ذلك كله، وهي:

ما أخرجه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وفيه: «فَأَخَذَهُمْ فِي طَرِيقٍ قَدْ كَانَ بِهَا جَرَبًا فَدَاوِدُ وَعُقَابٌ، فَاسْتَوَتْ بِنَا الْأَرْضُ حَتَّى أَنْزَلَهُ عَلَى الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهِيَ نَزْحٌ فَأَكْفَأَ فِيهَا سَهْمًا أَوْ سَهْمَهُ مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ بَصَصَ فِيهَا، ثُمَّ دَعَا، فَغَارَتْ عُيُونُهَا حَتَّى إِنِّي، لَأَقُولُ أَوْ نَقُولُ: لَوْ شِئْنَا لَأَعْتَرَفْنَا بِأَيْدِينَا.

[المعجم الكبير ١٧٩/٢ رقم ١٧٢٧].

وما أخرجه البيهقي من طريق أبي الأسود، قَالَ: قَالَ عُرْوَةُ: فَذَكَرَ خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: وَخَرَجْتُ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ فَسَبَّوهُ إِلَى بَلَدَحَ (واد قبل مكة من جهة الغرب)، وَإِلَى الْمَاءِ، فَتَرَلُّوا عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ سَبَّ نَزَلَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ وَذَلِكَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا بَيْتٌ وَاحِدَةٌ، فَأَشْفَقَ الْقَوْمُ مِنَ الظَّهَاءِ وَالْقَرْمِ كَثِيرٍ، فَتَنَزَّلَ فِيهَا رَجَالٌ يَدِيحُونَهَا، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَتَوَضَّأَ فِي الدَّلْوِ، وَمَضْمَضَ فَاهُ، ثُمَّ مَجَّ بِهِ وَأَمَرَ أَنْ يُصَبَّ فِي الْبَيْتِ، وَنَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، فَأَلْقَاهُ فِي الْبَيْتِ وَدَعَا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَغَارَتْ بِالْمَاءِ، حَتَّى جَعَلُوا يَغْتَرِفُونَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْهَا وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى سَفَتَيْهَا. [دلائل النبوة ١١٢/٤].

هذا الأثر مرسل، وسنده إلى عروة ضعيف؛ لأن فيه ابن لهيعة ضعفه الحفاظ، وفيه أيضًا أثر علالة لم أقف على ترجمته.

فهاتان الروايتان بيتا ما قد يظهر من تعارض بين تلك الأحاديث، وإلى هذا الجمع جنح ابن القيم [زاد المعاد ٢٩٨/٣]، وابن حجر [فتح الباري ٣٣٧/٥]. [مرويات الحديبية للحكمي ١٧٦-١٨٢].

قال ابن القيم: «فِي (الصَّحِيحِ): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ وَمَجَّ فِي بَيْتِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ فَمِهِ، فَجَاشَتْ بِالْمَاءِ، كَذَلِكَ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ فِي (الصَّحِيحَيْنِ).

وَقَالَ عُرْوَةُ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَالْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ غَرَزَ فِيهَا سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ وَهُوَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ) أَيْضًا.

وَفِي مَغَازِي أَبِي الْأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ تَوْضُحًا فِي الدَّلْوِ وَمَضْمَضَ فَاهُ ثُمَّ مَجَّ فِيهِ، وَأَمَرَ أَنْ يُصَبَّ فِي الْبُئْرِ، وَنَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ وَالْقَاهُ فِي الْبُئْرِ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى، فَفَارَزَتْ بِالْمَاءِ حَتَّى جَعَلُوا يَغْتَرِفُونَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْهَا وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شِقِّهَا.

فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَهَذَا أَشْبَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٩٧-٢٩٨].

يقول أ/ باشميل: «وعندما عاد النبي ﷺ بأصحابه إلى الحديبية بعد أن قرر عدم التعجل في دخول مكة، وأعلن ما يمكن تسميته فتح باب المفاوضة لإيجاد حل سلمي للمشكلة التي بلغت بينه وبين قومه حد الانفجار، وذلك بقوله: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي فَرِيشَ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

عندما عاد إلى الحديبية نزل بأصحابه على بئر ليس فيها من الماء إلا شيء يسير، تسابق إليه الصحابة كل يريد أن يشرب ويسقي فرسه أو بعيره، فوجدوا أن الماء الذي في البئر لا يكفي لإرواء عطش بئر قليل، وكان الصحابة ألفاً وأربعمائة أكثرهم راكباً.

وقد تفاقم الأمر واشتدت أزمة الماء إلى درجة خطيرة أصبحت معها حياة الصحابة ومواشيهم مهددة، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم سيقومون بالحديبية مدة غير قصيرة، وأنه لا يوجد مصدر للماء في تلك المنطقة، وما يمكن الالتجاء إليه من مياه قريبة من الحديبية قد سيطر عليها القرشيون، ومن المستحيل في ذلك الظرف المتوتر غاية التوتر أن يسمحوا للمسلمين بالسقيا منها.

وعندما بلغت أزمة الماء غايتها وحار الصحابة ماذا يصنعون جاؤوا إلى رسول الله ﷺ واشتكوا له ما يعانون من نقص خطير في الماء، فلجأ إلى ربه ﷻ، ثم أمر أحد أصحابه بأن ينزل في عين البئر الشحيحة بالماء، وأن يغرز فيها سهماً أعطاه إياه بيده الشريفة، ولم يكد صاحبه يغرز السهم في عين البئر حتى تدفقت منها المياه بغزارة إلى درجة أن امتلأت البئر بالماء، فارتوى الصحابة وأرووا خيلهم، وبهذا حل الله مشكلة الماء الخطيرة، وعادت إلى الصحابة طمأنينتهم الكاملة، وتعاضم إيمانهم بنبيهم العظيم ﷺ».

[صلح الحديبية لباشميل ١٤٨-١٥٠].

الَّذِي نَزَلَ بِسَهْمِ الرَّسُولِ ﷺ فِي طَلَبِ الْمَاءِ:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ «أَنَّ الَّذِي نَزَلَ فِي الْقَلْبِ بِسَهْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدُبِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ مَعْمَرِ بْنِ حَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَائِلَةَ بْنِ سَهْمِ بْنِ مَارِ بْنِ سَلَامَانَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ أَفْصَى بْنِ حَارِثَةَ،



وَهُوَ سَائِقٌ بُدِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[جمع الزوائد ٦/ ٢١٠-٢١١ كتاب المغازي والسير (١٧٩، ١٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ رَجَالٍ مِنْ أَسْلَمَ: أَنَّ الَّذِي نَزَلَ فِي الْقَلْبِ بِسَهْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَاجِيَةٌ بَنُ جُنْدُبِ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ يَعْمَرِ بْنِ دَارِمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَائِلَةَ بْنِ سَهْمِ بْنِ مَازِنِ بْنِ سَلَامَانَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ أَفْصَى بْنِ أَبِي حَارِثَةَ، وَهُوَ سَائِقٌ بُدِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَفْصَى بْنُ حَارِثَةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ رَعِمَ لِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ؓ كَانَ يَقُولُ: أَنَا الَّذِي نَزَلْتُ بِسَهْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٠-٣١١].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَتَّى نَزَلَ بِالنَّاسِ عَلَى ثَمَدٍ (حفرة ماء صغيرة) مِنْ تِهَادِ الْحُدَيْبِيَّةِ ظَنُّونَ (البئر لا يُدري أفيها ماء أم لا، ويقال: القليلة الماء) قَلِيلِ الْمَاءِ يُتَبَرَّضُ (برض الماء من العين إذا خرج وهو قليل) مَأْوُهُ تَبَرُّضًا، فَاشْتَكَى النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَلَّةَ الْمَاءِ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ فَأَمَرَ بِهِ فَعُرِّرَ فِي الثَّمَدِ، فَجَاسَتْ لَهُمْ بِالرَّوَاءِ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ (أي: تركوا الماء) بِعَطَنِ (مبرك الإبل حول الماء).

قَالَ: وَإِنَّهُمْ لَيَعْرِفُونَ بِأَنِّيْتِهِمْ جُلُوسًا عَلَى شَفِيرِ الْبُئْرِ.

وَالَّذِي نَزَلَ بِالسَّهْمِ نَاجِيَةٌ بَنُ الْأَعْجَمِ ؓ مِنْ أَسْلَمَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جَارِيَةً مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَتْ لِنَاجِيَةِ بَنُ جُنْدُبِ ؓ وَهُوَ فِي الْقَلْبِ:

يَا أَيُّهَا السَّائِقُ دُلُّوِي دُونَكُمْ إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ

يُثْنُونَ خَيْرًا وَيُمَجِّدُونَكَ

فَقَالَ نَاجِيَةٌ وَهُوَ فِي الْقَلْبِ:

فَدَعَلِمْتُ جَارِيَةَ بَيَانِيَه أَنِّي أَنَا السَّائِقُ وَأَسْمِي نَاجِيَه

وَطَعْنَةً مِنِّي رَشَاشٍ وَاهِيَه طَعْنَتْهَا تَحْتَ صُدُورِ الْعَالِيَه

أَنشَدْنِيهَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ نَاجِيَةِ بَنِ الْأَعْجَمِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ وَهَبٍ الْأَسْلَمِيُّ.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ إِيَّاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: الَّذِي نَزَلَ بِالسَّهْمِ نَاجِيَةٌ بَنُ جُنْدُبِ ؓ.

وَحَدَّثَنِي الْهَيْثَمُ بْنُ وَاقِدٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ نَاجِيَةَ بَنِ الْأَعْجَمِ - وَكَانَ نَاجِيَةُ بَنِ الْأَعْجَمِ يُحَدِّثُ - يَقُولُ: دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ شَكَا إِلَيْهِ قَلَّةَ الْمَاءِ، فَأَخْرَجَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ وَدَفَعَهُ إِلَيَّ، وَدَعَانِي بِدَلْوٍ مِنْ مَاءِ الْبُئْرِ فَحِثَّتُهُ بِهِ، فَتَوَضَّأَ، فَقَالَ:

مُضْمَصَ فَاهُ، ثُمَّ مَجَّ فِي الدَّلْوِ وَالنَّاسُ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ بَيْتْرٌ وَاحِدَةٌ، وَقَدْ سَبَقَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى بَلَدَحٍ، فَغَلَبُوا عَلَى مِيَاهِهِ، فَقَالَ: «انْزِلْ بِالْمَاءِ قَصْبَةً فِي الْبَيْتْرِ، وَأُثِرْ مَاءَهَا بِالسَّهْمِ»، فَفَعَلْتُ، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا كُنْتُ أَخْرُجُ حَتَّى كَادَ يَغْمُرُنِي، وَفَارَتْ كَمَا تَقُورُ الْقَدْرُ حَتَّى طَمَتْ وَاسْتَوَتْ بِشَفِيرِهَا، يَغْتَرِفُونَ مَاءَ جَانِبِهَا حَتَّى هَلُّوا مِنْ آخِرِهِمْ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ جَدِّهِ عُبَيْدِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، قَالَ سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ عَبَّادٍ الْغِفَارِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ: أَنَا نَزَلْتُ بِالسَّهْمِ يَوْمَئِذٍ فِي الْبَيْتْرِ.

حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهُمْدَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رضي الله عنه يَقُولُ: أَنَا نَزَلْتُ بِالسَّهْمِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٧-٥٨٨، ٥٨٩].

**شِعْرُ لِنَاجِيَةٍ رضي الله عنه يُثْبِتُ أَنَّهُ حَامِلٌ سَهْمَ الرَّسُولِ ﷺ:**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَدْ أَتَشَدَّتْ أَسْلَمُ أَيْبَاتًا مِنْ شِعْرِ قَالَهَا نَاجِيَةٌ، قَدْ ظَنَنَّا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَزَلَ بِالسَّهْمِ، فَرَعَمَتْ أَسْلَمُ أَنَّ جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ أَقْبَلَتْ بِدَلْوِهَا، وَنَاجِيَةٌ فِي الْقَلْبِ يَمِيحُ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَتْ: يَا أَيُّهَا السَّامِعُ دَلَّوْا دُونَكُمْ إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَ

يُثْنُونَ خَيْرًا وَيُحْمَدُونَكَ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَزَيَّوْا: إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ يَمْدَحُونَكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَقَالَ نَاجِيَةٌ رضي الله عنه، وَهُوَ فِي الْقَلْبِ يَمِيحُ عَلَى النَّاسِ:

قَدْ عَلِمْتُ جَارِيَةً يَمَانِيَةً      أَنِّي أَنَا السَّامِعُ وَأَسْمِي نَاجِيَةٌ<sup>(١)</sup>  
وَطَعْنَةً مِنْ رِشَاشٍ وَاهِيَةٍ      طَعْنَتْهَا تَحْتَ صُدُورِ الْعَالِيَةِ<sup>(٢)</sup>

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١١].

**موقف المنافقين من هذه المعجزات:**

وقد كان نفر من المنافقين (عبد الله بن أبي، والجد بن قيس) حاضرين عندما جاشت البئر بالماء، فدار بينهم نقاش حول المعجزة النبوية، وقد لام بعضهم عبد الله بن أبي، على التمسك بالسير في خط النفاق بعد الذي رأوا بأعينهم، ولكنه أصر على أن يبقى وأصحابه في عماء النفاق.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ: وَعَلَى الْمَاءِ يَوْمَئِذٍ نَفَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَأَوْسٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ، وَهُمْ جُلُوسٌ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَاءِ وَالْبَيْتْرِ يُجِيشُ بِالرَّوَاءِ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَفِيرِهَا، فَقَالَ أَوْسُ ابْنُ خُوَلِيٍّ: وَيْحَكَ يَا

(١) يميح على الناس: يملأ الدلاء.

(٢) الواهية: المسترخية الواسعة الشق. والعادية: القوم الذين يعدون، أي: يسرعون العدو.

أَبَا الْحُبَابِ، أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تُبْصِرَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟ أَبْعَدَ هَذَا شَيْءٌ؟ وَرَدْنَا بَيْتًا يُتَبَرَّضُ مَاؤُهَا - يُتَبَرَّضُ يُخْرَجُ فِي الْقُعْبِ جَرْعَةٌ مَاءٍ - فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّلْوِ وَمَضْمَضَ فَاهُ فِي الدَّلْوِ، ثُمَّ أَفْرَغَ الدَّلْوَ فِيهَا وَنَزَلَ بِالسَّهْمِ فَحَنَحَهَا فَجَاشَتْ بِالرَّوَاءِ.

قَالَ: يَقُولُ ابْنُ أَبِي: قَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا، فَقَالَ أَوْسٌ: فَبَحَكَ اللَّهُ وَفَبَحَ رَأْيُكَ، فَيَقْبَلُ ابْنُ أَبِي يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ أَبَا الْحُبَابِ، أَيْنَ رَأَيْتَ مِثْلَ مَا رَأَيْتَ الْيَوْمَ؟» فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلِمَ قُلْتَ مَا قُلْتَ؟» قَالَ ابْنُ أَبِي: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، قَالَ ابْنُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لَهُ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٨-٥٨٩].

### مقالة الجدد بن قيس المنافق:

وكان الجدد بن قيس زعيماً في قومه الأنصار، وكان لا يبعد عن ابن أبي من حيث النفاق والبغض للنبي ﷺ، ولكنه خرج معه ليس للعمرة، وإنما لتخذيل الناس عنه وبث الفتنة في نفوسهم إن أمكنه ذلك.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْحِجَازِيِّ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ؓ قَالَ: لَمَّا نَزَلْنَا عَلَى الْحَدِيبَةِ، وَالْمَاءُ قَلِيلٌ، سَمِعْتُ الْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ يَقُولُ: مَا كَانَ خُرُوجُنَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بَشِيءً، نَمُوتُ مِنَ الْعَطَشِ عَنْ آخِرِنَا، فَقُلْتُ: لَا تَقُلْ هَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَلِمَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ قَوْمِي، قُلْتُ: فَلِمَ تَخْرُجُ مُعْتَمِراً؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا أَحْرَمْتُ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: وَلَا نَوَيْتَ الْعُمْرَةَ؟ قَالَ: لَا، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ فَتَزَلَّ بِالسَّهْمِ، وَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّلْوِ وَمَجَّ فَاهُ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّهُ فِي الْبَيْتِ فَجَاشَتْ الْبَيْتُ بِالرَّوَاءِ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: فَرَأَيْتُ الْجَدَّ مَادًّا رِجْلَيْهِ عَلَى شَفِيرِ الْبَيْتِ فِي الْمَاءِ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَيْنَ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: إِنَّمَا كُنْتُ أَمْرُحُ مَعَكَ، لَا تَذْكُرُ لِحَمْدٍ مِمَّا قُلْتُ شَيْئاً، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُهُ قَبْلَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَغَضِبَ الْجَدُّ، وَقَالَ: بَقِينَا مَعَ صَبْيَانٍ مِنْ قَوْمِنَا لَا يَعْرِفُونَ لَنَا شَرْفاً وَلَا سِنّاً، لَبَطْنُ الْأَرْضِ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ ظَهَرِهَا، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ابْنُهُ خَيْرٌ مِنْهُ».

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: فَلَقِينِي نَعْرٌ مِنْ قَوْمِي فَجَعَلُوا يُؤَنِّبُونِي وَيَلُومُونِي حِينَ رَفَعْتُ مَقَالَتَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُمْ: بَشَى الْقَوْمُ أَنْتُمْ، وَيُحْكُمُ عَنْ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ تَذْبُونٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَقُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ طَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُودَهُ عَنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَسَوَّدَ عَلَيْنَا بَشَرَ بْنَ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ ؓ، وَهَدَمْنَا الْمَنَامَاتِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَابِ الْجَدِّ وَبَنَيْنَاهَا عَلَى بَابِ بَشَرَ بْنِ الْبَرَاءِ ؓ، فَهُوَ سَيِّدُنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٠-٥٩١].

## هدايا الخزاعيين والغلام الذي أعجب الرسول ﷺ بفصاحته:

كانت قبيلة خزاعة اليمنية - مسلمها وكافرها - على ولاء المسلمين؛ ولهذا فإن النبي ﷺ وأصحابه لما نزلوا الحديبية - وكانت قريبة من منازل خزاعة - أحبت خزاعة إظهار مشاعر الود والصدقة للمسلمين.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالُوا: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُدَيْبِيَّةَ أَهْدَى لَهُ عَمْرُو بْنُ سَلَمٍ، وَبُسْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْخَزَاعِيَّانِ غَنَمًا وَجَزُورًا، وَأَهْدَى عَمْرُو بْنُ سَلَمٍ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ جُزْرًا، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ، فَجَاءَ سَعْدٌ بِالْغَنَمِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرًا أَهْدَاهَا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَمْرُو قَدْ أَهْدَى لَنَا مَا تَرَى، فَبَارَكَ اللَّهُ فِي عَمْرٍو»، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجُزْرِ تُنَحَّرَ وَتُقَسَّمُ فِي أَصْحَابِهِ، وَفُرِقَ الْغَنَمُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ آخِرِهَا.

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَتْ مَعَهُ: فَدَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ لَحْمِ الْجُزْرِ كَنَحْوِ مِمَّا دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ، وَشَرَكْنَا فِي شَاةٍ فَدَخَلَ عَلَيْنَا بَعْضُهَا، وَكَانَ الَّذِي جَاءَنَا بِالْهَدِيَّةِ غُلَامٌ مِنْهُمْ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْغُلَامُ فِي بُرْدَةٍ لَهُ بَلِيَّةٍ، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، أَتَيْنَ تَرَكْتَ أَهْلَكَ؟»، قَالَ: تَرَكْتُهُمْ قَرِيبًا بِضُجْنَانَ وَمَا وَالَاهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَكْتَ الْبِلَادَ؟»، فَقَالَ الْغُلَامُ: تَرَكْتُهَا وَقَدْ تَيْسَّرَتْ قَدْ أَمْسَرَ عِصَاهُهَا، وَأَعْدَقَ إِذْخَرُهَا، وَأَسْلَبَ ثَمَاهُهَا، وَأَبْقَلَ خَمْضُهَا، وَأَنْبَلَتْ الْأَرْضُ فَتَشَبَّعَتْ شَأْنَهَا إِلَى اللَّيْلِ، وَشَبَّعَ بَعِيرُهَا إِلَى اللَّيْلِ مِمَّا جَمَعَ مِنْ خَوْصٍ وَضَمَدٍ الْأَرْضِ وَبَقْلِ، وَتَرَكْتُ مِيَاهَهُمْ كَثِيرَةً تَشْرَعُ فِيهَا الْمَاشِيَةُ، وَحَاجَةُ الْمَاشِيَةِ إِلَى الْمَاءِ قَلِيلٌ لِرُطُوبَةِ الْأَرْضِ.

فَأَعْجَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لِسَانَهُ، فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكُسُورَةٍ، فَكُسِيَ الْغُلَامُ، وَقَالَ الْغُلَامُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْسَ يَدَكَ أَطْلُبُ بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَذُنٌ، فَدَنَا، فَأَخَذَ يَدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهَا، وَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ»، فَكَانَ قَدْ بَلَغَ سِنًا، وَكَانَ لَهُ فَضْلٌ وَحَالٌ فِي قَوْمِهِ حَتَّى تُؤْفَى زَمَنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩١-٥٩٣].

## قصة كعب بن عجرة ؓ ونزول آية الفدية:

يقول د/ الحكمي: «ورد في ذلك حديث كعب بن عجرة ؓ، وقد رواه عنه عبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الله بن معقل ورواه عنها عدة رواة، ورواه عن كعب أيضًا أبو وائل، ومحمد بن كعب القرظي ويحيى بن جعدة ورجل من الأنصار وعطاء.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَلَّكَ أَذَاكَ هَوَامُّكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْلِقْ رَأْسَكَ وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْصُكْ بِشَاةٍ».

[البخاري في المحصر (١٨١٤)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَرَأَيْتُ يَتَهَاوَتْ (يتساقط) قَمَلًا، فَقَالَ: «يُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟» (جمع هامه وهي ما يدب من الأخشاش، وبينت الرواية أن المراد بها هنا القمل)، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ رَأْسَكَ - أَوْ قَالَ - اخْلُقْ»، قَالَ: فِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِذِيهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ (مكيال يسع ستة عشر رطلاً) بَيْنَ سِتَّةٍ، أَوْ أَنْسُكْ (اذبح) بِمَا تَسِيرُ». [البخاري في المحصر (١٨١٥)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفِذِيَّةِ، فَقَالَ نَزَلَتْ فِي خَاصَّةٍ، وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ، فَحَمَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقَمَلَ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى، أَوْ مَا كُنْتُ أَرَى الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى، تَحِدُّ شَاةٌ؟»، فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: «فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ». [البخاري في المحصر (١٨١٦)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ، وَقَدْ حَصَرَنَا الْمُشْرِكُونَ، قَالَ: وَكَانَتْ لِي وَفْرَةٌ (شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن)، فَجَعَلَتِ الْهُوَامُّ تَسَاقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، فَمَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنْزَلَتْ [وَنَزَلَتْ] هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِذِيهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

[البخاري في المغازي (٤١٩١)، مسند أحمد ٢٥/٣٠ رقم ١٨١٠١].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَفِي أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَإِيَّايَ عَنَى بِهَا: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِذِيهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ، وَقَدْ حَصَرَنَا الْمُشْرِكُونَ، وَكَانَتْ لِي وَفْرَةٌ فَجَعَلَتِ الْهُوَامُّ تَسَاقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، فَمَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَأَنَّ هَوَامَّ رَأْسِكَ تُؤْذِيكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ»، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: الصِّيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَالطَّعَامُ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، وَالنُّسُكُ شَاةٌ فَصَاعِدًا.

[الترمذي في التفسير (٢٩٧٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ [بْنِ عُجْرَةَ] رضي الله عنه وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فِذِيهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فَقَالَ كَعْبٌ رضي الله عنه: نَزَلَتْ فِي، كَانَ بِي أَذًى مِنْ رَأْسِي، فَحَمَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْقَمَلَ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ بَلَغَ مِنْكَ مَا أَرَى! أَتَحِدُّ شَاةً؟»، فَقُلْتُ: لَا، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فِذِيهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، قَالَ: صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ إِطْعَامُ

سِتَّةَ مَسَاكِينَ نِصْفَ صَاعٍ طَعَامًا لِكُلِّ مِسْكِينٍ [أَطْعِمُ سِتَّةَ مَسَاكِينَ كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ] - قَالَ - فَتَرَكْتُ فِي خَاصَّةٍ وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ. [مسلم في الحج (١٢٠١)، والبخاري في التفسير (٤٥١٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٩)، ومسند أحمد ٣٧/٣٠-٣٩ رقم ١٨١١٠، ١٨١١١].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ وَقَمَلُهُ يَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَؤُمُوكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَخْلُقَ وَهُوَ بِالْحَدِيثِ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْلُونُ بِهَا، وَهُمْ عَلَى طَمَعٍ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْفِدْيَةَ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُطْعِمَ فَرَقًا بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أَوْ يُهْدِيَ شَاةً، أَوْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

[البخاري في المغازي (٤١٥٩)، وفي المحصر (١٨١٧، ١٨١٨)، ومسند أحمد ٣٠/٤٠-٤١ رقم ١٨١١٣].  
وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى عَلِيَّ النَّبِيُّ ﷺ زَمَنَ الْحَدِيثِ [، وَأَنَا أَوْقَدُ تَحْتَ بُرْمَةٍ، [قَدِيرٍ] وَالْقَمَلُ يَتَنَاقَرُ عَلَى وَجْهِهِ [عَنْ رَأْسِي]، [أَوْ قَالَ عَلَى حَاجِبِي]، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَؤُمُوكَ رَأْسُكَ [هَؤُمُوكَ؟]؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ [فَاخْلُقْهُ]، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمُ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْشُكْ نَسِيكَ [ذَبِيحَةً]». قَالَ أَيُّوبُ: لَا أَذْرِي بِأَيِّ هَذَا [بِأَيِّهِنَّ] بَدَأَ. [البخاري في المغازي (٤١٩٠)، وفي الطب (٥٧٠٣)، ومسلم في الحج (١٢٠١)، والترمذي في التفسير (٢٩٧٤)، ومسند أحمد ٣٠/٣٦-٣٧ رقم ١٨١٠٧، ١٨١٠٨].

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: أَتَى عَلِيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحَدِيثِ وَأَنَا كَثِيرُ الشَّعْرِ فَقَالَ: «كَأَنَّ هَؤُمُوكَ رَأْسُكَ تُؤْذِيكَ». [مسند أحمد ٣٠/٤٣ رقم ١٨١١٧].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه: مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَوْقَدُ تَحْتَ الْقَدِيرِ، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَؤُمُوكَ رَأْسُكَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَعَا الْخَلَّاقَ فَحَلَقَهُ، ثُمَّ أَمَرَنِي بِالْفِدَاءِ. [البخاري في المرضى (٥٦٦٥)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه [قَالَ: فِي أَنْزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، قَالَ: أَتَيْتُهُ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - فَقَالَ: «إِذْنُ [إِذْنُهُ]»، فَدَنَوْتُ فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَؤُمُوكَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ».

وَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَوْنٍ عَنْ أَيُّوبَ قَالَ: صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَالنُّسْكَ شَاةً، وَالْمَسَاكِينَ سِتَّةٌ.

[قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَأَظْنَهُ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: فَأَمَرَنِي بِفِدْيَةٍ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ مَا تيسَّرَ].

[البخاري في كفارات الأيمان (٦٧٠٨)، ومسلم في الحج (١٢٠١)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ زَمَنَ الْحَدِيثِ، فَقَالَ لَهُ: «أَذَاكَ هَؤُمُوكَ رَأْسُكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْلُقْ رَأْسُكَ، ثُمَّ أَذْبَحْ شَاةً نُسْكًَا، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ ثَلَاثَةَ أَصْعَابٍ مِنْ تَمْرٍ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ». [مسلم في الحج (١٢٠١)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهِ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَهُوَ يُوقِدُ تَحْتَ قِدْرٍ، وَالْقَمْلُ يَتَهَاوَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَوَأْتُكَ هَذِهِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ رَأْسَكَ وَأَطْعِمْ فَرْقًا (مِكْيَالٌ سِتْعَ سِتَّةِ عَشَرَ رَطْلًا) بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ - وَالْفَرْقُ ثَلَاثَةُ أَصْعٍ - أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ ائْسُكْ نَسِيكَةً». قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ: «أَوْ ادْبَحْ شَاةً». [مسلم في الحج (١٢٠١)].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ يَتَهَاوَتْ قَمْلًا فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَوَأْتُكَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ رَأْسَكَ»، قَالَ: فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَدَبْدَبَ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ صَدَقَ أَوْ سُكِّى﴾ [البقرة: ١٩٦]، فَقَالَ لِي [فَأَمَرَنِي] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرْقٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أَوْ ائْسُكْ [بِنُسُكٍ] مَا تَيْسَّرُ».

[مسلم في الحج (١٢٠١)، ومسنود أحمد ٣٠/٥٢-٥٣ رقم ١٨١٢٨].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهِ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، وَهُوَ يُوقِدُ تَحْتَ قِدْرٍ، وَالْقَمْلُ يَتَهَاوَتْ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَيُّذِيكَ هَوَأْتُكَ هَذِهِ»، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «اخْلُقْ، وَأَطْعِمْ فَرْقًا بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ» وَالْفَرْقُ ثَلَاثَةُ أَصْعٍ «أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ ائْسُكْ نَسِيكَةً». قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ: «أَوْ ادْبَحْ شَاةً». [الترمذي في الحج (٩٥٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، وقال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ الْمُحْرِمَ إِذَا حَلَقَ رَأْسَهُ أَوْ لَبَسَ مِنَ الثَّيَابِ مَا لَا يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَلْبَسَ فِي إِحْرَامِهِ أَوْ تَطَيَّبَ فَعَلَيْهِ الْكُفَّارَةُ بِمِثْلِ مَا رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فَقَالَ: «قَدْ آذَاكَ هَوَأْتُ رَأْسِكَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْلُقْ، ثُمَّ ادْبَحْ شَاةً نُسُكًا، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ ثَلَاثَةَ أَصْعٍ مِنْ تَمْرٍ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ». [أبو داود في المناسك (١٨٥٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِنْ شِئْتَ فَائْسُكْ نَسِيكَةً، وَإِنْ شِئْتَ فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَطْعِمْ ثَلَاثَةَ أَصْعٍ مِنْ تَمْرٍ لِسِتَّةِ مَسَاكِينَ».

[أبو داود في المناسك (١٨٥٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِهِ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَذَكَرَ الْقِصَّةَ فَقَالَ: «أَمْعَكَ دَمٌ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِثَلَاثَةِ أَصْعٍ مِنْ تَمْرٍ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ بَيْنَ كُلِّ مَسْكِينَيْنِ صَاعًا».

[أبو داود في المناسك (١٨٥٨)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَخْبَرَهُ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ - وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُ فِي رَأْسِهِ أَذًى فَحَلَقَ فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُهْدِيَ هَدْيًا بَقَرَةً. [أبو داود في المناسك (١٨٥٩)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف وقوله بقرة منكر].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَصَابَنِي هَوَامٌّ فِي رَأْسِي وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، حَتَّى تَخَوَّفْتُ عَلَى بَصَرِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَعِذَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦] الْآيَةِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «اخْلُقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ فَرَقًا مِنْ زَيْبٍ، أَوْ انْسُكْ شَاةً». فَحَلَقْتُ رَأْسِي ثُمَّ نَسَكْتُ <sup>(١)</sup>.  
وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ زَادَ «أَيَّ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَجْزَأَ عَنْكَ».

[أبو داود في المناسك (١٨٦١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [مُحْرَمًا]، فَأَذَاهُ الْقَمْلُ فِي رَأْسِهِ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ مُدَيْنٍ مُدَيْنٍ <sup>(٢)</sup> لِكُلِّ إِنْسَانٍ، أَوْ انْسُكْ بِشَاةٍ، أَيَّ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَجْزَأَكَ [أَجْزَأَ عَنْكَ]». [النسائي في مناسك الحج (٢٨٥١)، ومسند أحمد ٣٠/٣٤ رقم ١٨١٠٦، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: صحيح].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مُحْرَمًا، فَقَمَلَ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَدَعَا الْخَلَّاقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «هَلْ عِنْدَكَ نُسْكَ»، قَالَ: مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ يُطْعِمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ صَاعًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ خَاصَةً: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، فَعِذَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦] الْآيَةِ، ثُمَّ كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَةً.

[مسلم في الحج (١٢٠١)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلِ الْمُرِّي قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ -: فِي تَزَكَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَلَيْنَا بِعُمْرَةٍ، فَوَقَعَ الْقَمْلُ فِي رَأْسِي وَلِحْيَتِي

(١) أبو داود في المناسك (١٨٦٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن، لكن ذكر الزيب منكراً، والمحفوظ التمر كما في أحاديث العباس، ويقول د/ الحكمي: «في هذه الرواية: «من زيب» وفي رواية شعبة عند مسلم: «من تمر» وفي رواية بشر بن عمر «نصف صاع حنطة» وفي رواية شعبة عند أحمد «نصف صاع من طعام».

قال ابن حزم: لا بد من ترجيح إحدى هذه الروايات لأنها في قصة واحدة، في مقام واحد في حق رجل واحد. نقله ابن حجر ثم قال: المحفوظ عن شعبة أنه قال: في الحديث: «نصف صاع من طعام» والاختلاف عليه في كونه تمرًا أو حنطة، لعله من تصرف الرواة، وأما الزيب فلم أراه إلا في رواية الحكم، وقد أخرجها أبو داود وفي سندها ابن إسحاق وهو حجة في المغازي، لا في الأحكام إذا خالف، والمحفوظ رواية التمر فقد وقع الجزم بها عند مسلم من طريق أبي قلابة كما تقدم، ولم يختلف فيه على أبي قلابة». فتح الباري ٤/ ١٧. مرويات الحديبية للحكمي ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) يقول د/ الحكمي: لا منافاة بين ما في هذه الرواية «مدین لكل مسکین» وبين الروایات السابقة، لأن المدین تساوي نصف صاع. قال ابن الرفعة: والصاع أربعة أمداد باتفاق. الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان: ٦٣. مرويات الحديبية للحكمي ٣٧٨.



وَحَاجِبِيَّ وَشَارِبِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ فَدَعَانِي، فَلَمَّا رَأَى قَالَ: «لَقَدْ أَصَابَكَ بَلَاءٌ وَنَحْنُ لَا نَشْعُرُ اذْغُ الْحَجَامَ»، فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُهُ فَحَلَقَنِي، قَالَ: «اتَّقِدِرْ عَلَى نُسْكِ؟»، قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ».

[مسند أحمد ٤٦/٣٠ رقم ١٨١٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح دون قوله: «لقد أصابك بلاء... ونحن لا نشعر» والصحيح فيه قوله: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك ما أرى»].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَحْرَمْتُ، فَكَثُرَ قَمْلُ رَأْسِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَانِي وَأَنَا أَطْبُخُ قِدْرًا لِأَصْحَابِي، فَمَسَّ رَأْسِي بِإِصْبَعِهِ، فَقَالَ: «انْطَلِقْ فَاحْلِقْهُ، وَتَصَدَّقْ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ».

[النسائي في مناسك الحج (٢٨٥٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ حِينَ أَذَانِي الْقَمْلُ أَنْ أَحْلِقَ رَأْسِي، وَأَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنْ لَيْسَ عِنْدِي مَا أُنْسِكُ.

[ابن ماجه في المناسك (٣٠٨٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ كَعْبًا أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ مِنَ الْقَمْلِ، قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ مُدَّيْنِ مُدَّيْنِ أَوْ اذْبَحْ».

[مسند أحمد ٤٣/٣٠ رقم ١٨١١٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين].

وَعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ كَعْبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ حَلَقَ رَأْسَهُ أَنْ يَذْبَحَ شَاةً، أَوْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ يُطْعِمَ فِرْقًا بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ. [مسند أحمد ٤٩/٣٠ رقم ١٨١٢٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد وإن كان ظاهره الإرسال - سلف متصلًا].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَحْلِقَ رَأْسَهُ، أَوْ يَنْسُكَ نُسْكًَا، أَوْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ يُطْعِمَ فِرْقًا بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ.

[مسند أحمد ٣٠/٥٤-٥٥ رقم ١٨١٣١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ يُطْعِمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ يَذْبَحَ شَاةً.

[مسند أحمد ٣٠/٤٥ رقم ١٨١١٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح].

### بيان كفر من قال مطرنا بنوء كذا:

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى [فِي] إِنْ سَمَاءَ (مطر) كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ [اللَّيْلِ]، فَلَمَّا انْصَرَفَ [النَّبِيُّ ﷺ] أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ [بِي]»، [قَالَ إِسْحَاقُ:

كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ وَمُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ كَافِرٌ بِي] فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ [مُطِرْنَا] بِنُوءٍ<sup>(١)</sup> كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ».

[البخاري في الأذان (٨٤٦)، وفي الاستسقاء (١٠٣٨)، والموطأ كتاب الاستسقاء (٤٥١)، وأبو داود في الطب

(٣٩٠٦)، ومسند أحمد ٢٨/٢٩٣ رقم ١٧٠٦١].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحَدَيْبِيَّةِ، فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَتَذَرُونَنَا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمٍ كَذَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ كَافِرٌ بِي».

[البخاري في المغازي (٤١٤٧)].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نُوءٌ كَذَا وَكَذَا»، قَالَ فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجَبُورِ (٧٧)﴾ [الواقعة] حَتَّى بَلَغَ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة].

[مسلم في الإيمان (٧٣)].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: مُطِرَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِي».

[البخاري في التوحيد (٧٥٠٣)].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه قَالَ: مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِي وَحَمْدِي عَلَى سَقْيَايَ فَذَلِكَ الَّذِي آمَنَ بِي وَكَفَرَ بِالْكُوكَبِ، وَمَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ الَّذِي كَفَرَ بِي وَآمَنَ بِالْكُوكَبِ».

[النسائي في الاستسقاء (١٥٢٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. وليس فيه ذكر للحديبية].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَالَ ﷺ: «أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي نِعْمَةً إِلَّا أَصْبَحَ بِهَا قَوْمٌ كَافِرِينَ بِالَّذِي آمَنَ بِي». [مسند أحمد ٢٨/٢٨٢ رقم ١٧٠٤٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

(١) النوء: المنزل من منازل القمر وكانت العرب تنسب المطر إليها. والأنواء: هي ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها، وإنما سميت نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالشرق ينوء نوءاً؛ أي نهض وطلع، وقيل أراد بالنوء الغروب، وهو من الأضداد، وقال أبو عبيد: لم نسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع. النهاية في غريب الحديث ١٢٢/٥.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: الْكُوكَبُ وَالْكَوكَبُ».

[النسائي في الاستسقاء (١٥٢٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وأخرج الواقدي حديثاً لأبي قتادة رضي الله عنه يفيد أن سبب هذا الحديث هو كلام صدر من ابن أبي بن سلول قال: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ الْخَضْرَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي يَقُولُ - وَنَحْنُ بِالْحَدِيثِيَّةِ وَمُطَرْنَا بِهَا - فَقَالَ ابْنُ أَبِي: هَذَا نَوْءُ الْخَرِيفِ، مُطَرْنَا بِالشَّعْرَى! [مغازي الواقدي ٢/ ٥٩٠].

قال د/ الحكمي: «هذا الحديث ضعيف جداً فيه الواقدي، وفيه شيخه سبرة، يقول ابن حجر: رموه بالوضع». [مرويات الحديبية للحكمي ٣٨٩].

### الصلاة في الرحال:

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي نَافِعٌ قَالَ: أَدَّ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ بِضَجْنَانَ (جبل على بريد من مكة)، ثُمَّ قَالَ: صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ مُؤَدَّنَا يُؤَدِّنُ، ثُمَّ يَقُولُ عَلَى إِثْرِهِ: أَلَا صَلُّوا فِي الرَّحَالِ. فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ أَوْ الْمَطِيرَةِ فِي السَّفَرِ. [البخاري في الأذان (٦٣٢، ٦٦٦)].

. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ نَادَى بِالصَّلَاةِ فِي لَيْلَةٍ ذَاتِ بَرْدٍ وَرِيحٍ وَمَطَرٍ، فَقَالَ فِي آخِرِ نِدَائِهِ: أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، أَلَا صَلُّوا فِي الرَّحَالِ.

ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ الْمُؤَدَّنَ إِذَا كَانَتْ لَيْلَةٌ بَارِدَةً، أَوْ ذَاتُ مَطَرٍ فِي السَّفَرِ أَنْ يَقُولَ: أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ.

وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ نَادَى بِالصَّلَاةِ بِضَجْنَانَ، ثُمَّ ذَكَرَ بِمَنْثِلِهِ، وَقَالَ: أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، وَلَمْ يُعِدْ ثَانِيَةً أَلَا صَلُّوا فِي الرَّحَالِ. مِنْ قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه. [مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩٧)].

وَعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ زَمَنَ الْحَدِيثِيَّةِ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ، وَأَصَابَهُمْ مَطَرٌ لَمْ تَبْتَلْ أَسْفَلَ نِعَالِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي رِحَالِهِمْ. [أبو داود في الصلاة (١٠٥٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ: خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، فَلَمَّا رَجَعْتُ اسْتَفْتَحْتُ، فَقَالَ أَبِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَبُو الْمَلِيحِ، قَالَ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحَدِيثِيَّةِ، وَأَصَابَتْنا سَمَاءٌ لَمْ تَبَلْ أَسَافِلَ نِعَالِنَا، فَنادى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ». [ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٣٦)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالُوا: وَمُطَرٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيثِيَّةِ مَرَارًا فَكَثُرَتْ الْمِيَاهُ».

حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ خَالِدِ الْحَذَّاءِ عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ الْهَذَلِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مُطِرْنَا بِالْحَدَيْبِيَةِ مَطَرًا، فَمَا ابْتَلَّتْ مِنْهُ أَسْفُلُ نَعَالِنَا، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّلَاةَ فِي الرَّحَالِ». [المغازي للواقدي ٥٨٩/٢].

### لباس النبي ﷺ في الحديبية:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: أَشْهَدَتْ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا كَانَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: قَمِيصٌ مِنْ قُطْنٍ، وَجُبَّةٌ مَحْشُوَّةٌ، وَرِدَاءٌ، وَسَيْفٌ، وَرَأَيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ مَعْرٍ الْمَزَنِيَّ قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ، وَقَدْ رَفَعَ أَغْصَانَ الشَّجَرَةِ عَنْ رَأْسِهِ [وَالنَّاسُ] يُبَايِعُونَهُ.

[مجمع الزوائد ٢١٣/٦ كتاب المغازي والسير (١٠١٨٥)، وقال الهيثمي: قلت: لابن عمر رضي الله عنه حديث في الحديبية

غير هذا، رواه الطبراني في الأوسط [١٣٠/٤] رقم ٣٧٩٠، والمعجم الكبير ٤٢٩/١٢ رقم ١٣٥٧٨، والمعجم الصغير ٣٢٣/١ رقم ٥٣٥]، وفيه إسماعيل بن يحيى بن عبد الله التيمي وهو ضعيف].

## المبحث الثامن

### مفاوضات السلام مع المشركين

#### تفكير المعسكرين:

يقول د/ هيكل: «نزل المسلمون بالحديبية، ولكن قريشًا بمكة لهم بالمرصاد، وهى تُؤثر الموت على أن يدخلها محمد ﷺ عليهم غنوة، فهل يعدون لقريش عدة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها، وحتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً؟! في هذا فكر بعضهم، وفي احتماله فكّرت قريش، لئن حدث ذلك وانتصر المسلمون لقد قُضي على قريش عند العرب كلها قضاءً أخيراً، وقد تعرضت قريش لأن ينزع منها سدانة الكعبة وسقاية الحاج وكل ما تفاخر به العرب من مراسم ومناسك دينية ماذا تصنع إذا؟ وقف المعسكران يفكر كلٌّ في الخطّة التي يتّبع؛ فأما محمد ﷺ فظل على خطته التي رسم منذ أخذ للعمرة عدته، خطة السّلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفر. وأما قريش فترددت، ثم رأت أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته من ناحية، ومن يصده عن دخول مكة من ناحية أخرى». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧٦-٣٧٧].

#### المراسلات بين قريش والنبي ﷺ:

يقول د/ الحكمي: «كان الحامل لأولئك الذين وقفوا إلى جانب قريش هو إشاعة قريش أن رسول الله ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا للاعتداء عليها في عقر دارها، وبالتالي الاعتداء على البيت الحرام، ولما بعث النبي ﷺ رسله إليهم وأوضحوا لهم هدف المسلمين، وأنه لا يعدوا زيارة البيت ونحر الهدى.

عند ذلك تغير موقف حلفاء قريش منها، ورأوا أنه لا ينبغي صد الهدى عن محله ووجوه اللوم إليها، فلما رأت قريش ذلك أحست أن الأمر لم يعد في صالحها، وأنه لا بد من عمل تستعيد به حماس حلفائها أو تسكتهم على الأقل، فبدأت تبعث الرسل من قبلها إلى المسلمين لتظهر بمظهر الإنصاف، ولعلمهم يرجعون إليها قولاً يقلب الموقف لصالحها.

لكن الأمور كانت تجري على خلاف ما تتوقع قريش، فكلما بعثت رسولاً رجع يعظم شأن المسلمين، ويؤكد الهدف الذي جاؤوا من أجله، الأمر الذي أثار حفيظتها حتى وقفت ذلك الموقف من بعض رسلها». [مرويات غزوة الحديبية للحكمي ٢١٧].

ركب من خزاعة يسعى لإيجاد تقارب بين الطرفين <sup>(١)</sup>:

يقول د/ الحكمي: «علم بدیل بن ورقاء الخزاعي بنزول رسول الله ﷺ وأصحابه الحديبية، فقدم إليه في نفر من قومه وقص عليه ما رأى من حال قريش وما سمع من أخبارهم وأنهم عازمون على صده عن البيت، وبعد أن سمع رسول الله ﷺ حديث بدیل أخبره بالهدف الذي خرجوا من أجله وأنهم لا يريدون حرب أحد، إنما جاؤوا لزيارة البيت فحسب.

ولما وقف بدیل على أخبار رسول الله ﷺ وأصحابه رجع إلى قريش يعلمهم بذلك، وكان بدیل يهدف من وراء سعيه إلى الوفاق بين الطرفين وتحاشي الصدام، ولم يكن رسولاً لأحد من الفريقين كما زعم بعضهم (ذكر صاحب القول المبين في سيرة سيد المرسلين: ٢٦٧ وغيره أن بدیلاً أرسل من قبل قريش)، وسياق قصته يأبى ذلك». [مرويات الحديبية للحكمي ٢٠٩].

وقد جاء خبر بدیل في حديث المسور ومروان، فبعد أن ذكر نزول المسلمين وقصة البئر قال: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خَزَاعَةَ - وَكَانُوا عَيْبَةً نَضَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ -، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَغْدَادَ مِيَاهِ الْحَدِيبَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطْفِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُمُ الْحَرْبَ وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَا دَرَبْتُمْ مَدَّةً، وَتَجَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُوا فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جِئُوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقَاتِلُهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفْهَاءُؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بَشِيءٌ، وَقَالَ ذُووُ الرَّاْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ، يَقُولُ: قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ. [البخاري في الشروط (٢٧٣٤)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق: بعد أن ذكر نزول المسلمين الحديبية، وقصة البئر قال: «فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي رِجَالٍ مِنْ خَزَاعَةَ، فَقَالَ لَهُمْ كَقَوْلِهِ لِيُشِيرَ بَيْنَ سُفْيَانَ <sup>(٢)</sup>،

(١) يقول د/ الحكمي: اتبعت في ترتيبهم ما في حديث المسور ومروان من طريق معمر؛ لأنه أصح شيء في الموضوع، وفي رواية ابن إسحاق جعل مركز بن حفص أول رسل قريش، لكن الظاهر أنه لم يرد الترتيب؛ لأنه قال في جواب النبي ﷺ له: (فقال له: مثل ما قال لأصحابه) وهذا يفيد أن غيره قد سبقه. والله أعلم. مرويات الحديبية ٢١٧.

(٢) وقوله لبشر بن سفيان تقدم في صدر الرواية ونصه: «يَا وَجْهَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا بِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

فَرَجَعُوا إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ تَعَجَّلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظِمًا لِحَقِّهِ، فَاتَّهَمُوهُمْ.

قَالَ مُحَمَّدٌ - يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكَانَتْ خُرَاعَةٌ فِي عَيْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا، لَا يُخْفُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ.

قَالُوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عَنُوءٌ وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ.

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَقَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ بُدِّلَ بَنُ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيِّ، فِي رِجَالٍ مِنْ خُرَاعَةٍ، فَكَلَّمُوهُ وَسَأَلُوهُ: مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ، وَمُعْظِمًا لِحُرْمَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ نَحْوًا يَمَّا قَالَ لِيَشْرِ بْنِ سُفْيَانَ، فَرَجَعُوا إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ تَعَجَّلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتِ، فَاتَّهَمُوهُمْ وَجَبَّهُوهُمْ (خاطبواهم بما يكرهون)، وَقَالُوا: وَإِنْ كَانَ جَاءَ وَلَا يُرِيدُ قِتَالًا، فَوَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنُوءٌ أَبَدًا، وَلَا تَحَدَّثُ بِذَلِكَ عَنَا الْعَرَبُ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكَانَتْ خُرَاعَةٌ عَيْبَةُ نُصَحِ (أي خاصته وأصحاب سره) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا، لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١١/٢-٣١٢].

قَالَ الْوَقَادِيُّ: «قَالُوا: فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيثِ جَاءَهُ بُدِّلُ بْنُ وَرْقَاءَ وَرَكِبَ مِنْ خُرَاعَةٍ، وَهُمْ عَيْبَةُ نُصَحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِتِهَامَةٍ، مِنْهُمْ الْمُسْلِمُ وَمِنْهُمْ الْمُوَاجِذُ لَا يُخْفُونَ عَلَيْهِ بِتِهَامَةٍ شَيْئًا، فَأَنَاحُوا رَوَاحِلَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَاؤُوا فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ بُدِّلُ: جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ قَوْمِكَ، كَعَبِ بْنِ لُؤَيٍّ وَعَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ - النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ - يُفْسِمُونَ بِاللَّهِ لَا يُحْلُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ حَتَّى تَبِيدَ خَضِرَاؤُهُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ أَحَدٍ، إِنَّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ بِهَذَا الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، وَقُرَيْشُ قَوْمٌ قَدْ أَصْرَتْ بِهِمُ الْحَرْبُ، وَهَكَتُهُمْ، فَإِنْ سَاوُوا مَا دَدْتُمْ مُدَّةً يَأْمَنُونَ فِيهَا، وَيُحْلُونَ فِيهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَإِنْ ظَهَرَ أَمْرِي عَلَى النَّاسِ كَانُوا يَنْزِلُونَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ أَوْ يُقَاتِلُوا وَقَدْ جَمَعُوا، وَاللَّهِ لَأَجْهَدَنَّ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ يُنْفَذَ اللَّهُ أَمْرَهُ!». [المغازي للواقدي ٥٩٣/٢].

مشادة بين الصديق ﷺ وابن ورقاء:

وإلى وادي عسفان حضر حليف المسلمين سيد خزاعة (بدیل بن ورقاء) وعلى مسمع من الناس قال:

يا محمد، لقد اغترت بقتال قومك جلايب العرب (جمع جلباب، وهو الإزار والرداء)، والله ما أرى معك

أحدًا له وجهه، مع أني أراكم قومًا لا سلاح معكم، فجرت - لهذا القول - بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه مشادة كلامية أغلظ له فيها القول أبو بكر الصديق، وأسمعه ما يكره ظنًا منه أنه متحيز لقريش.

غير أن بديلاً أعلن بأن لا باعث لمقاله إلا الإخلاص لحليفه النبي ﷺ وأصحابه.

قَالَ الْوَأْدِيُّ: «وَلَقِيَهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَقَدْ اغْتَرَزْتَ بِقَتَالِ قَوْمِكَ جَلَابِيبِ الْعَرَبِ، وَاللَّهِ مَا أَرَى مَعَكَ أَحَدًا لَهُ وَجْهٌ مَعَ إِيَّيْ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا لَا سِلَاحَ مَعَكُمْ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رضي الله عنه: عَضَضْتَ بَطْرَ اللَّاتِ.

قَالَ بُدَيْلٌ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا يَدُكَ عِنْدِي لَأَجَبْتُكَ، فَوَاللَّهِ مَا أُتِمُّمُ أَنَا وَلَا قَوْمِي إِلَّا أَكُونُ أَحِبُّ أَنْ يَظْهَرَ مُحَمَّدٌ، إِيَّيْ رَأَيْتُ قُرَيْشًا مُقَاتِلَتَكَ عَنْ دَرَارِيهَا وَأَمْوَالِهَا، قَدْ خَرَجُوا إِلَى بَلَدٍ فَضَرَبُوا الْأَبْيَةَ، مَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَائِلُ، وَرَادُّوهُ عَلَى الطَّعَامِ، يُطْعِمُونَ الْجُزْرَ مَنْ جَاءَهُمْ يَتَّقُونَ بِهِمْ عَلَى حَرْبِكُمْ، فَرَأَيْتُكَ!.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٨١].

يقول أ/ باشميل: «وعندما تبلغ النبي ﷺ نبأ شطط قريش وتصلفها وطغيانها - وإصرارها (هكذا) على منعه من زيارة البيت (بغياً وعدواناً) أبدى أسفه الشديد لهذا التصرف الجاهلي الأحمق، ثم أعلن ﷺ تصميمه على المضي في نشر رسالته مهما كانت فعالية القوة التي تحاول الوقوف في وجهها لصد تيارها.

ثم تبلغ النبي ﷺ من عيونه (رجال استخباراته): أن أساطين الكفر في مكة قد خرجوا بقرارهم المتهور من حيز القول إلى حيز الفعل فحشدوا كل ما لديهم من قوة وعسكروا بها في وادي بلدح، وأنهم قلة استنفروا حلفاءهم من ثقيف بقيادة عروة بن مسعود، وحلفاءهم من الأحابيش بقيادة الحليس بن زبان، فأطاعوهم جميعاً وانضموا إلى معسكرهم». [صلح الحديبية لباشميل ١٣١-١٣٢].

**بديل بن ورقاء يتأثر بقول النبي ﷺ وينصح قريشاً بقبول عرضه السلمي:**

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن سيد خزاعة لم يأت وسيطاً من قبَل قريش، وإنما جاء من تلقاء نفسه باذلاً مساعيه الحميدة ليكون داعية سلام بين الفريقين، كزعيم له وزنه وتأثيره، لا يزال في موقف المحايد، خارجاً عن دائرة الصراع بين المسلمين وقريش؛ لأنه لم يكن حتى تلك الساعة قد أسلم، وإنما كانت بينه وبين النبي ﷺ اتفاقية موادعة (معاهدة عدم اعتداء) كما أنه وقومه ليسوا في حالة حرب مع قريش.

والمتمتع فيما قاله النبي ﷺ لوسيط السلام بديل بن ورقاء يجد أنه قول يحمل كل معاني الحصافة والمرونة والاعتزان مع إعلان الثقة والقدرة العسكرية.

فهذا الرد النبوي الكريم يضمن الرغبة الصادقة الأكيدة في السلم وحقن الدماء، إلا أنه في الوقت نفسه يتضمن التصريح بعدم الخوف من الحرب، بل الترحيب بها إذا ما فرضتها قريش الشرك على



المسلمين وعلى نفسها بغيًا وبطراً، كما تضمن الرد النبوي إبلاغ قريش بأن تنزيل من مخيلتها (وإلى الأبد) فكرة الأمل في أية تنازلات يعطيها النبي ﷺ على حساب الإخلال بجوهر دعوته، مهما كانت الظروف والأحوال». [صلح الحديبية لباشميل ١٥٨-١٥٩].

قَالَ الْوَائِدِيُّ: «فَوَعَى بُدَيْلٌ مَقَالَتَهُ ﷺ وَرَكِبَ، ثُمَّ رَكِبُوا إِلَى قُرَيْشٍ، وَكَانَ فِي الرِّكْبِ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ (وهو عائد مع بديل وكأنه يخاطب قريشاً): وَاللَّهِ لَا تُنْصَرُونَ عَلَيَّ مَنْ يَعْرِضُ هَذَا أَبَدًا (يعني العرض السلمي الذي كلف النبي ﷺ بديل بن ورقاء - ضمناً - أن يعرضه على قريش حين يلقاها)، حَتَّى هَبَطُوا عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ نَاسٌ مِنْهُمْ: هَذَا بُدَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ، إِنَّمَا جَاءُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَخْرِجُواكُمْ فَلَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا رَأَى بُدَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَهُمْ، قَالَ بُدَيْلٌ: إِنَّا جِئْنَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، أَتُحِبُّونَ أَنْ نُخْبِرَكُمْ؟ قَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَالْحَكَمُ بْنُ الْعَاصِ: لَا، وَاللَّهِ مَا لَنَا حَاجَةٌ بِأَنْ نُخْبِرَنَا عَنْهُ، وَلَكِنْ أَخْبِرُوهُ عَنَّا لَّئِنْ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَامَهُ هَذَا أَبَدًا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنَّا رَجُلٌ.

فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رَأْيًا أَعْجَبَ، وَمَا تَكَرَّهُونَ أَنْ تَسْمَعُوا مِنْ بُدَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ؟ فَإِنْ أَعْجَبَكُمْ أَمْرٌ قَبِلْتُمُوهُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ شَيْئًا تَرَكْتُمُوهُ، لَا يَفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا أَبَدًا. وَقَالَ رِجَالٌ مِنْ ذَوِي رَأْيِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ: أَخْبِرُونَا بِالَّذِي رَأَيْتُمْ وَالَّذِي سَمِعْتُمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ بِمَقَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي قَالَ، وَمَا عَرَضَ عَلَى قُرَيْشٍ مِنَ الْمَدَّةِ».

[الغازي للواقدي ٥٩٤/٢]

### قريش ترفض عروض السلام النبوية:

هذه خلاصة العرض النبوي للسلام والذي حمله بديل بن ورقاء الذي تبرع مشكوراً وجعل من نفسه ومن نفسه ومن أصحابه - كما يقولون - حامية سلام بين الفريقين.

وبعد أن أبلغ بديل بن ورقاء وأصحابه رسالة النبي ﷺ السلمية إلى قريش، شتموه واتهموه بالتحيز للمسلمين، ثم أصرروا على موقفهم المتعنت.

عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ رَسُولٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «غير أن عروة بن مسعود الثقفي، نصح حلفاءه بالتزام جانب الاعتدال وأنكر عليهم رفض العرض النبوي الذي حمله إليهم بديل بن ورقاء الخزاعي.

لقد كان عروة بن مسعود هذا سيداً مطاعاً في قومه وكان - كما تقدم - حليفاً لقريش ومرابطاً مع قومه ثقيف في معسكر قريش أثناء أزمة الحديبية، وكان فوق ذلك له نسب وصهر في قريش، إذا كانت أمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف.

وكان هذا السيد الثقفي بحكم وجوده وحكم مركزه القيادي في معسكر قريش - كقائد لقوات القبائل الثقفية الخليفة - يرقب الأحداث والتطورات في أزمة الحديبية، وكان يطلع - بدقة - على ما يدور بين النبي ﷺ وقريش حول هذه الأزمة الحادة، مما جعله يدرك الصورة الصحيحة لموقف النبي ﷺ وأصحابه، وهي الصورة التي أعطت قريش حلفاءها من ثقيف والأحباش عكسها، إذ زعمت لهم أن محمداً ﷺ وأصحابه جاؤوا معتدين بقصد إهانة قريش والمس بكرامتها وإنهاء وجودها، ولم تذكر لهم الحقيقة أو شيئاً منها، وهي أن النبي ﷺ وأصحابه لم يأتوا إلا معتمرين مسالمين، وأن فكرة الحرب لم يكن لها أي وجود في أذهان النبي وأصحابه منذ أن غادروا المدينة في اتجاه مكة.

وعلى أساس الإدراك الصحيح والتقييم للموقف - كما هو - لدى عروة بن مسعود، ولدى سيد الأحباش الحليس بن زبان تبين لهما أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا مخطئين ولا معتدين حينما جاؤوا مُحرمين، قاصدين تعظيم البيت فحسب؛ لأن ذلك حق لهم كسائر العرب، ليس من حق أحد أن يحول بينهم وبين مباشرته.

وتكوّن لدى عروة بن مسعود - آنئذ - أن العرض النبوي الذي يدعُو فيه قريشاً إلى السلم والمواذعة ونبذ الحرب عرض عادل وخطة رشد لا يجوز لقريش أن ترفضها؛ لأن هذا الرفض يجعل قريشاً - أمام العرب - في الموقف البغيض الذي أراد سادات مكة أن يضعوا النبي ﷺ فيه.

ولهذا فقد وجّه عروة بن مسعود اللوم صراحة إلى حلفائه القرشيين، ونصحهم بأن يقبلوا العرض النبوي القائد على أساس إنشاء معاهدة سلام بين المسلمين والقرشيين.

ثم اقترح عليهم أن يكون مبعوثهم ووسيطهم إلى النبي ﷺ ليتفاوض معه ويتباحث حول هذا النزاع عساه أن يتوفق لحل هذه المشكلة الخطيرة التي كادت - بسبب تصلف قريش وعنادها - أن تتحول إلى حرب ضروس مدمرة، كلا الفريقين يخشى الإقدام عليها. [صلح الحديبية لباشمیل ١٦٢-١٦٥].

قَالَ الْوَأَقِدِيُّ: «فَقَالَ عُرْوَةُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! تَتَهَمُونَنِي؟ أَلَسْتُمْ الْوَالِدَ وَأَنَا الْوَلَدُ؟ وَقَدْ اسْتَفْتَرْتُ أَهْلَ عَكَاظٍ لِنَصْرِكُمْ، فَلَمَّا بَلَغُوا (أي امتنعوا من الإجابة) عَلَيَّ نَفَرْتُ إِلَيْكُمْ بِنَفْسِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، فَقَالُوا: قَدْ فَعَلْتَ، فَقَالَ: وَإِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ، شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ، لَا أَذْخِرُ عَنْكُمْ نَصْحًا، وَإِنْ بُدِيَلاً قَدْ جَاءَكُمْ بِخُطَّةٍ رُشِدٍ (يعني العرض النبوي) لَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا أَخَذَ شَرًّا مِنْهَا، فَاقْبَلُوهَا مِنْهُ، وَابْعَثُونِي حَتَّى آتِيَكُمْ بِمُصَدِّقِهَا (يعني الخطة التي عرضها النبي ﷺ على قريش) مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْظُرْ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَأَكُونَ لَكُمْ عَيْنًا آتِيَكُمْ بِخَبَرِهِ». [المغازي للواقدي ٥٩٤/٢].

## عروة بن مسعود في معسكر المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «وافقت قريش على أن يكون عروة مبعوثها إلى النبي ﷺ، فذهب عروة إلى الحديبية، هناك استقبله النبي ﷺ كوسيط يمكن أن يكون في وساطته إبعاد لشبح الحرب الذي أصبح مطالاً بوضوح نتيجة بغى قريش وعنادها.

لقد كان سيد ثقيف يعلم بأن الحق في جانب النبي ﷺ وأصحابه، وأن الخطأ كل الخطأ في أن تصر قريش على منعهم من دخول مكة لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة، ومع ذلك فإنه كوسيط سياسي لقوم هم حلفاؤه وأصهاره، فإنه قد تجاهل هذه الحقيقة أثناء محادثاته التي أجراها مع النبي ﷺ في الحديبية، بل حاول في هذه المحادثات إلقاء اللوم على النبي ﷺ وتحميله مسؤولية تصعيد الأزمة التي بدت وكأنها تتحول إلى حرب يتفانى فيها الفريقان، قاصداً بذلك إقناع النبي ﷺ بل تخويفه ليخرج عروة حلفاء من ورطتهم، وذلك أن يكون إلا بأن يعود النبي ﷺ وأصحابه دون أن يدخلوا مكة، ودونها أي قيد أو شرط، وهذا ما حاول عروة بن مسعود أن يركز في محادثاته لتحقيقه.

وأخذ عروة يضرب على وتر الإشارة بقوة قريش العسكرية والتلويح بأنها قادرة على منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول الحرم إن هم أصروا على دخوله.

ثم حاول عروة أن يضعف من ثقة النبي ﷺ في أصحابه ويدخل في روعه أنه لا يمكنه الاعتماد عليهم إذا تحول النزاع إلى حرب شاملة بينه وبين قريش. [صلح الحديبية لابشمل ١٦٥-١٦٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ التَّقْفِيَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذْ جَاءَكُمْ مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ اللَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَالِدٌ (أي كل واحد منكم كالوالد، وقيل: أي إنكم حي قد ولدني؛ لأنه كان لسيعة بنت عبد شمس) وَإِنِّي وَلَدٌ - وَكَانَ عُرْوَةُ لِسَبِيْعَةَ بِنْتِ عَبْدِ شَمْسٍ - وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي نَابَكُمْ، فَجَمَعْتُ مَنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي، ثُمَّ جِئْتُكُمْ حَتَّى آسَيْتُكُمْ (عاونتكم) بِنَفْسِي، قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَمِّهِمْ. فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَجْمَعْتَ أَوْشَابَ (أخلاق) النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ (أهلك وقيلنتك) لِتَقْضِيَهَا (تكسرها) بِهِمْ، إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الطَّافِلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلْهَا عَلَيْهِمْ عَنُوءَ أَبَدًا، وَإِيمُ اللَّهِ، لِكَأَنِّي بِهِؤَلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ عَدَاً.

قَالَ: وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَقَالَ: أُمْنُصُّ بَطَرَ اللَّاتِ، أَنْحُنْ نَنْكَشِفُ عَنْهُ؟ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَبِي فُحَّافَةَ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَكَافَأَتُكَ بِهَا، وَلَكِنْ هَذِهِ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٣/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَبَعَثَهُ قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى آتَاهُ رَاحِلَتَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى جَاءَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي تَرَكْتُ قَوْمَكَ، كَعَبْ بْنِ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنِ لُؤَيٍّ عَلَى أَعْدَادٍ (جمع العد بالكسر، وهو الماء الذي له مادة لا تنقطع، كماء العين والبئر) مِيَاهِ الْحُدَيْيَةِ، مَعَهُمُ الْعُودُ السَّمَطَايِلُ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ أَحَابِيشَهُمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَهُمْ يُفْسِمُونَ بِاللَّهِ لَا يَحْلُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّبِيِّ حَتَّى تَجْتَاحَهُمْ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ قِتَالِهِمْ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: أَنْ تَجْتَاحَ قَوْمَكَ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِرَجُلٍ اجْتَاحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ، أَوْ بَيْنَ أَنْ يَخْذَلَكَ مَنْ نَرَى مَعَكَ، فَإِنِّي لَا أَرَى مَعَكَ إِلَّا أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ لَا أَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ.

فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وَقَالَ: أَمُصُّصُ بَطْرُ اللَّاتِ أَنْحُنُ نَخْذَلُهُ؟

فَقَالَ عُرْوَةُ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا يَدُ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا بَعْدَ لَأَجَبْتُكَ.

وَكَانَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ قَدْ اسْتَعَانَ فِي حُلِّ دِيَّةٍ، فَأَعَانَهُ الرَّجُلُ بِالْفَرِصَتَيْنِ وَالثَّلَاثِ، وَأَعَانَهُ أَبُو بَكْرٍ بِعَشْرِ فَرَائِصَ، فَكَانَتْ هَذِهِ يَدُ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٤-٥٩٥]

يقول د/ الحكمي: «جاء خبر إرساله في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، ففيه من طريق معمر بعد أن ذكر قصة بديل قال: «فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَهَلْ تَتَهَمُونِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ (الاستنجد والاستنصار) أَهْلَ عَكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَغُوا (أي أبوا) عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةٌ رُشِدَ أَقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي أَتِيهِ، قَالُوا: أَتَيْهِ، فَأَتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبَدِيلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَا أَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَبَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ: أَمُصُّصُ بَطْرُ اللَّاتِ، أَنْحُنُ نَخْذَلُهُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟! فَقَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَا يَدُ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لَأَجَبْتُكَ، قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمَغْفَرُ، فَكَلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِتِلْكَ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخْزِ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: أَيُّ غَدْرٍ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحْبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنِيهِ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرُهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتُلُونَهُ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْلُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ.

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَحَّيْتُ نَحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَصَّأَ كَادُوا بِقَيْتِلُونِ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمْتُ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدِثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةٌ رُشِدٍ فَاقْبَلُوهَا. [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق: «فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ التَّقْفِيَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنْ يَ قَدْ رَأَيْتُ مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ تَبْعُونُ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَكُمْ مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ اللَّفْظِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّكُمْ وَالِدٌ وَأَنِّي وَلَدٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي نَابَكُمْ فَجَمَعْتُ مِنْ أَطَاعَتِي مِنْ قَوْمِي، ثُمَّ جِئْتُ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي، قَالُوا: صَدَقْتَ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهِمٍ.

فَخَرَجَ حَتَّى آتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! جَمَعْتُ أَوْبَاشَ (جموعاً من قبائل شتى) النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ لِيُبْصِرَكَ (أهلك وعشيرتك) لِيَتَفَضَّهَا (لتكسرها)، إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عُنُوةً أَبَدًا، وَأَيْمُ اللَّهِ لَكَأَنِّي بِهِؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ عَدَاً.

قَالَ: وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ؓ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَقَالَ: امْضُضْ بَطْرَ اللَّاتِ، أَنْحُنْ نَنَكْشِفُ عَنْهُ؟ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ»، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ لَا يَدُ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَكَافَأْتُكَ بِهَا وَلَكِنَّ هَذِهِ بِهَا، ثُمَّ تَنَاوَلَ لَحِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيدِ، قَالَ: يَقْرَعُ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمْسِكْ يَدَكَ عَنِ لَحِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكَ، قَالَ: وَمِنْكَ! مَا أَفْظَكَ وَأَغْلَظَكَ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ»، قَالَ: أَغْدِرُ! هَلْ عَسَلْتُ سَوَاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ، قَالَ: فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَثَلٍ مَا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا، قَالَ: فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابَهُ: لَا يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُ بَسَاقًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرَةٍ شَيْءٌ إِلَّا أَخَذُوهُ.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنْ يَ جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِمَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرُؤَا رَأْيَكُمْ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وجاء خبر إرساله أيضًا في مرسل عروة بن الزبير من طريق ابنه هشام: قال فيه: «ثُمَّ قَالُوا لِعُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ: انْطَلِقْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَلَا تُؤَيِّنْ [توئِن (أي لا تقصرن، ومن وني توئنه: إذا لم يجد في العمل)] مِنْ وَرَائِكَ، فَخَرَجَ عُرْوَةُ حَتَّى آتَاهُ» فذكر قوله لرسول الله ﷺ وجواب رسول الله ﷺ له بنحو ما في حديث المسور

ومروان، ثم قال: «فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: تَعْلَمَنَّ وَاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ قَوْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ لِإِخْوَانِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَقَدْ اسْتَنْصَرْتُ لَكُمْ النَّاسَ فِي الْمَجَامِعِ، فَلَمَّا لَمْ يَنْصُرُواكُمْ أَتَيْتُكُمْ بِأَهْلِي حَتَّى نَزَلْتُ مَعَكُمْ إِرَادَةً أَنْ أُوَاسِيَكُمْ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ الْحَيَاةَ بَعْدَكُمْ، تَعْلَمَنَّ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ عَرَضَ نِصْفًا فَأَقْبَلُوهُ، تَعْلَمَنَّ أَنِّي قَدْ قَدِمْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَرَأَيْتُ الْعُظَمَاءَ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا، وَلَا عَظِيمًا أَعْظَمَ فِي أَصْحَابِهِ مِنْهُ، إِنْ يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ، فَإِنْ هُوَ أَذِنَ لَهُ تَكَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُ سَكَتَ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيَتَوَضَّأُ فَيَتَبَدَّرُونَ وَضَوْءُهُ يَصُبُّونَهُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، يَتَّخِذُونَهُ حَنَانًا (أي بركة، الحنان: الرزق والبركة)».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠ / ٣٩٩-٤٠٠ في المغازي (٣٧٩٩٤)].

وأشار إلى قصة عروة بن مسعود حديث سلمة بن الأكوع عند ابن أبي شيبة: قال: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِيَّاسُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ قُرَيْشٌ خَارِجَةَ بْنَ كُرَيْزٍ يَطْلُعُ لَهُمْ طَلِيعَةً، فَرَجَعَ حَامِدًا مُجْسِنُ الشَّاءِ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّكَ أَغْرَابِي، فَعَقُّوْا لَكَ السَّلَاحَ فَطَلَّاهُ فُؤَادُكَ، فَمَا دَرَيْتَ مَا قِيلَ لَكَ وَمَا قُلْتَ، ثُمَّ أَرْسَلُوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا هَذَا الْجَدِثُ؟ تَدْعُو إِلَى ذَاتِ اللَّهِ، ثُمَّ جِئْتَ قَوْمَكَ بِأَوْبَاشِ النَّاسِ، مَنْ تَعْرِفُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ، لَتَقَطَّعَ أَرْحَامَهُمْ، وَتَسْتَحِلَّ حُرْمَتَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِ قَوْمِي إِلَّا لِأَصِلَ أَرْحَامَهُمْ، يُبَدِّلُهُمُ اللَّهُ بِيَدَيْنِ خَيْرٍ مِنْ دِينِهِمْ، وَمَعَاشٍ خَيْرٍ مِنْ مَعَاشِهِمْ، فَرَجَعَ حَامِدًا بِحُسْنِ الشَّاءِ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠ / ٤١١ رقم ٣٨٠٠٧].

سند هذا الحديث ضعيف، لضعف موسى بن عبيدة.

ووردت قصته مع المغيرة بن شعبة في حديث المغيرة عند ابن حبان قال: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمَارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ وَهُوَ مُلْتَمِّمٌ، وَعِنْدَهُ عُرْوَةُ، قَالَ: فَجَعَلَ عُرْوَةُ يَتَنَاولُ لَحْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيُحَدِّثُهُ، قَالَ: فَقَالَ الْمُغِيرَةُ لِعُرْوَةَ: لَتَكْفَنَّ يَدَكَ عَنْ لَحْيَتِهِ أَوْ لَا تَرْجِعَ إِلَيْكَ، قَالَ: فَقَالَ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ»، فَقَالَ عُرْوَةُ: يَا غَدْرُ مَا عَسَلْتَ رَأْسَكَ مِنْ غَدْرَتِكَ بَعْدُ. [صحيح ابن حبان ١٠ / ٤٤٤ رقم ٥٨٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وقد أورد ابن حجر هذا الحديث في المطالب العالية من طريق ابن أبي شيبة ثم قال: هذا الإسناد في غاية الصحة، وهو في صحيح البخاري من طريق الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمصور بن مخرمة في الحديث الطويل في قصة الحديبية، وفيه إرسال وهذا أحسن اتصالاً ولهذا استدركته.

[المطالب العالية ٤ / ٢٣٥].

وقد أشار إلى قصة عروة أيضًا مرسل علي بن زيد بن جدعان عند أبي يعلى: قال: حَدَّثَنَا حَوْثَرُهُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عِيٍّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ التَّقْفِيَّ، قَالَ لِقَوْمِهِ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَيُّ قَوْمٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ وَكَلَّمْتُهُمْ، فَأَبْعَثُونِي إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ، فَأَتَاهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، فَجَعَلَ عُرْوَةُ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمَغِيرَةَ بْنُ شُعْبَةَ شَاكٍ فِي السَّلَاحِ (شاك السلاح: أي حديده) عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ: كَفَّ يَدَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ لَا تَصِلَ إِلَيْكَ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ وَاللَّهِ، إِنَّكَ لَفِي غَدْرَتِكَ مَا خَرَجْتَ مِنْهَا بَعْدُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ وَكَلَّمْتُهُمْ، مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ قَطُّ مَا هُوَ بِمَلِكٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْهَدْيَ مَعْكُوفًا يَأْكُلُ وَبَرَهُ، وَمَا أَرَأَيْتُمْ إِلَّا سَتِصِيحُكُمْ قَارِعَةً (داهية تفسدكم)، فَأَنْصَرَفَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَصَعِدَ سُورَ الطَّائِفِ، فَشَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ بِسَهْمٍ، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ صَاحِبِ يَاسِينَ». [مسند أبي يعلى الموصلي ١٧٣/٣ رقم ١٥٩٨، وقال الشيخ أسد: إسناده ضعيف، وجمع الزوائد ٩/٦٤٥ رقم ١٦٠٥٤، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى مرسلًا وإسناده حسن].

وأورد ابن حجر هذا الأثر في المطالب العالية وعزاه لأبي يعلى ثم قال: هذا مرسل أو معضل وأصله في البخاري أيضًا من حديث المسور ومروان دون ما في آخره والذي في آخر خطأ، فإن عروة إنما رمي بالسهم عقب غزوة الطائف بعد أن رحل النبي ﷺ فجاء إليه عروة فأسلم، ورجع إليهم فقتلوه، ثم أسلموا بعد. اهـ. [المطالب العالية ٤/٢٣٦].

قلت: وفي سنده أيضًا علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. [مرويات الحديبية للحكمي ٢١٨-٢٣٢].

### مفارقة رائعة:

يقول أ/ باشميل: «ومن عجائب المفارقات التي يستشف منها الدليل القاطع على قدرة تعاليم الإسلام على تحول الإنسان من شيطان مريد إلى آدمي مثالي فاضل نبيل، أن المغيرة بن شعبه الثقفي (ابن أخي عروة بن مسعود) كان أحد الذين يتولون حراسة النبي الأعظم ﷺ أثناء محادثاته مع عروة. وكان المغيرة (قبل أن يهديه الله للإسلام) شابًا صعلوكًا سكيرًا قاطع طريق، غير أن اعتناقه للإسلام حوَّله إلى إنسان آخر، صار من الصفوة المختارة والشباب المؤمن القوي الذين اختيروا للقيام بمهمة حراسة النبي ﷺ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب.

### يقصر عمه بقائهم السيف:

وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يمسك الزعيم بلحية الذي يراه ندًا له أثناء الحديث، وعلى هذا القاعدة، كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة، الأمر الذي استهجنه المغيرة بن

شعبة عليه السلام، فانتهر عمه وزجره وقرع يده بقائم السيف قائلاً: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله قبل ألا تصل إليك، فاستعظم عروة (الزعيم) هذا التهديد من الحارس المغيرة قائلاً: ويحك ما أفظك وأغلظك. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المسلم.

ولما كان المغيرة لابساً عدة الحرب ومكفراً بالدرع لم يعرفه عمه عروة؛ ولذلك سأل النبي صلى الله عليه وسلم - وهو يكاد يتميز من الغيظ -: «يا محمد ليت شعري من هذا الذي آذاني من بين أصحابك، والله إني لا أحسب فيكم ألام منه ولا شر منزلة».

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه المفارقة العجيبة وقال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». فازداد غيظ عروة وكاد أن يجن من الغضب وقال: أي غدر (أي يا غادر) والله ما غسلت غدرتك بعكاظ إلا بالأمس، وقد أورثنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر؟.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ عليه السلام وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْحَدِيدِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ إِذَا تَنَاولَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَيَقُولُ: أَكْفَفْ يَدَكَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ عُرْوَةُ: وَيَحْكُ! مَا أَفْظَكَ وَأَغْلَظَكَ! قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، قَالَ: أَيُّ غَدْرٍ! وَهَلْ غَسَلْتَ سَوَاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَرَادَ عُرْوَةُ بِقَوْلِهِ هَذَا أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ، مِنْ ثَقِيفٍ، فَتَهَاجَرَ الْحَبَّانِ مِنْ ثَقِيفٍ: بَنُو مَالِكٍ رَهْطُ الْمُتَوَلِّينَ، وَالْأَخْلَافُ رَهْطُ الْمُغِيرَةِ، فَوَدَى عُرْوَةُ الْمُتَوَلِّينَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَّةً، وَأَصْلَحَ ذَلِكَ الْأَمْرَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٣-٣١٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَطَفِقَ عُرْوَةُ وَهُوَ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَمَسُّ لِحْيَتَهُ - وَالْمُغِيرَةُ عليه السلام قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالسَّيْفِ عَلَى وَجْهِهِ الْمُغْفَرُ - فَطَفِقَ الْمُغِيرَةُ كُلَّمَا مَسَّ لِحْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَرَعَ يَدَهُ، وَيَقُولُ: أَكْفَفْ يَدَكَ عَنْ مَسِّ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْكَ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ غَضَبَ عُرْوَةَ، فَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي! مَنْ أَنْتَ؟ يَا مُحَمَّدُ، مَنْ هَذَا الَّذِي أَرَى مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ»، قَالَ: وَأَنْتَ بِذَلِكَ يَا غَدْرُ؟ وَاللَّهِ مَا غَسَلْتُ عَنْكَ غَدْرَكَ إِلَّا بِغَلَاظِ (القطع من الغنم) أَمْسٍ، لَقَدْ أَوْرَثْنَا الْعَدَاوَةَ مِنْ ثَقِيفٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ! يَا مُحَمَّدُ أَتَنْدِرِي كَيْفَ صَنَعَ هَذَا؟ إِنَّهُ خَرَجَ فِي رَكْبٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمَّا كَانُوا بَيْنَنَا وَنَامُوا فَطَرَهُمْ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ حَرَائِبَهُمْ وَقَرَّ مِنْهُمْ.

وَكَانَ الْمُغِيرَةُ خَرَجَ مَعَ نَفَرٍ مِنْ بَنِي مَالِكٍ بْنِ حُطَيْطٍ بْنِ جُسَافٍ بْنِ قَيْسٍ - وَالْمُغِيرَةُ أَحَدُ الْأَحْلَامِ (ذو الألباب والعقول) - وَمَعَ الْمُغِيرَةِ حَلِيفَانِ لَهُ يُقَالُ: لِأَحَدِهِمَا دُمُونٌ - رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ - وَالْآخَرُ الشَّرِيدُ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْمُهُ عَمْرُو، فَلَمَّا صَنَعَ الْمُغِيرَةُ بِأَصْحَابِهِ مَا صَنَعَ شَرَّدَهُ فَسَمِّيَ بِالشَّرِيدِ.



وَحَرَجُوا إِلَى الْمُقَوْسِ صَاحِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ، فَجَاءَ بَنِي مَالِكٍ وَأَثَرُهُمْ عَلَى الْمُغِيرَةِ، فَأَقْبَلُوا رَاجِعِينَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بَيْسَانَ شَرِبُوا خَمْرًا، فَكَفَّ الْمُغِيرَةُ عَنْ بَعْضِ الشَّرَابِ وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ، وَشَرِبَتْ بَنُو مَالِكٍ حَتَّى سَكِرُوا، فَوَثَبَ عَلَيْهِمُ الْمُغِيرَةُ فَفَتَلَهُمْ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَلَمَّا قَتَلَهُمْ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ دُمُونٌ تَعَيَّبَ عَنْهُمْ، وَظَنَّ أَنَّ الْمُغِيرَةَ إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى قَتْلِهِمُ السُّكْرِ، فَجَعَلَ الْمُغِيرَةُ يَطْلُبُ دُمُونَ وَيَصِيحُ بِهِ، فَلَمْ يَأْتْ وَيَقْلَبْ الْقَتْلُ فَلَا يَرَاهُ فَبَكَى، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ دُمُونٌ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: مَا غَيْبُكَ؟ قَالَ: خَشِيتُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ الْقَوْمَ.

قَالَ الْمُغِيرَةُ: إِنَّمَا قَتَلْتُ بَنِي مَالِكٍ بِمَا صَنَعَ بِهِمُ الْمُقَوْسُ.  
قَالَ: وَأَخَذَ الْمُغِيرَةُ أَمْتِعَتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا أَحْسُهُ هَذَا عَذْرًا»، وَذَلِكَ حِينَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَهُمْ.

وَأَسْلَمَ الْمُغِيرَةُ، وَأَقْبَلَ الشَّرِيدُ قَدِمَ مَكَّةَ، فَأَخْبَرَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ بِمَا صَنَعَ الْمُغِيرَةُ بِبَنِي مَالِكٍ، فَبَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى غُرُورَةَ بْنِ مَسْعُودٍ يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ - وَهُوَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بْنِ مَسْعُودٍ بْنِ مُعْتَبٍ - فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: خَرَجْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِنِعْمَانَ (واد لهذيل على ليلتين من عرفات. وقال الأصمعي: واد يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد ابن هذيل، بين أدناه ومكة نصف ليلة، به جبل يقال له المدرء) قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَتَيْنَ أَسْلُكُ؟ إِنْ سَلَكَتُ ذَا غِفَارٍ فَهِيَ أَبْعَدُ وَأَسْهَلُ، وَإِنْ سَلَكَتُ ذَا الْعَلَقِ (جبل معروف في أعلاه هضبة سوداء) فَهِيَ أَغْلَظُ وَأَقْرَبُ.

فَسَلَكَتُ ذَا غِفَارٍ، فَطَرَفْتُ غُرُورَةَ بْنَ مَسْعُودٍ بْنَ عَمْرِو السَّالِكِي، فَوَاللهَ مَا كَلَّمْتُهُ مِنْذُ عَشْرِ سِنِينَ وَاللَّيْلَةَ أَكَلَّمْتُهُ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى مَسْعُودٍ فَنَادَاهُ غُرُورَةُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ غُرُورَةُ، فَأَقْبَلَ مَسْعُودٌ إِلَيْنَا وَهُوَ يَقُولُ: أَطَرَفْتَ عَرَاهِيَةَ أَمْ طَرَفْتَ بِدَاهِيَةَ؟ بَلْ طَرَفْتَ بِدَاهِيَةَ! أَقَتَلَ رَكْبَهُمْ رَكْبَنَا أَمْ قَتَلَ رَكْبَنَا رَكْبَهُمْ؟ لَوْ قَتَلَ رَكْبَنَا رَكْبَهُمْ مَا طَرَفْتِي غُرُورَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ غُرُورَةُ: أَصَبْتُ، قَتَلَ رَكْبِي رَكْبَكَ يَا مَسْعُودُ، أَنْظُرْ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ، فَقَالَ مَسْعُودُ: إِنِّي عَالِمٌ بِحِدَّةِ بَنِي مَالِكٍ وَسَرَعَتِهِمْ إِلَى الْحَرْبِ، فَهَبْنِي صَمْتًا.

قَالَ: فَانْصَرَفْنَا عَنْهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا مَسْعُودٌ فَقَالَ: بَنِي مَالِكٍ إِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ قَتَلَ إِخْوَانَكُمْ بَنِي مَالِكٍ، فَأَطِيعُونِي وَخُذُوا الدِّيَةَ، أَقْبَلُوهَا مِنْ بَنِي عَمِّكُمْ وَقَوْمِكُمْ.

قَالُوا: لَا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا، وَاللهَ لَا تُثْرِكُ الْأَخْلَافُ أَبَدًا حِينَ تَقْبَلُهَا.

قَالَ: أَطِيعُونِي وَأَقْبَلُوا مَا قُلْتُ لَكُمْ، فَوَاللهَ لَكَأَنِّي بِكِفَانَةِ بْنِ عَبْدِ يَالِيلٍ قَدْ أَقْبَلَ تَضْرِبُ دِرْعُهُ رَوْحَتِي (لأنه كان أروح، والأروح: هو الذي تتداني عقباه ويتباعد صدرا قدمه) رَجُلِيهِ لَا يُعَانِقُ رَجُلًا إِلَّا صَرَعَهُ، وَاللهَ لَكَأَنِّي بِجُنْدِ بْنِ عَمْرِو وَقد أَقْبَلَ كَالسَّيِّدِ عَاضًا عَلَى سَنَامِهِ مُنَوِّقٍ بِأَخْرَ لَا يَسِيرُ إِلَى أَحَدٍ بِسَهْمِهِ إِلَّا وَضَعَهُ حَيْثُ يَرِيدُ.

فَلَمَّا غَلَبُوهُ أَعَدَّ لِلْقِتَالِ وَاصْطَفُوا، أَقْبَلَ كِنَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلٍ يَضْرِبُ دِرْعُهُ رَوْحَتَيْ رَجُلَيْهِ يَقُولُ مَنْ مُصَارِعٌ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ جُنْدُبُ بْنُ عَمْرِو عَاصًا سَهْمًا مَقُوقًا بِأَخَرٍ.  
 قَالَ مَسْعُودٌ: يَا بَنِي مَالِكِ أَطِيعُونِي، قَالُوا: الْأَمْرُ إِلَيْكَ، قَالَ: فَبَرَزَ مَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو فَقَالَ: يَا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ أَخْرِجْ إِلَيَّ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا التَقَيَا بَيْنَ الصَّفَيْنِ قَالَ: عَلَيْكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَّةً، فَإِنَّ الْمُغِيرَةَ قَدْ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاحْجِلْ بِدِيَانِهِمْ، قَالَ عُرْوَةُ: حَمَلَتْ بِهَا، هِيَ عَلَيَّ، قَالَ فَاصْطَلَحَ النَّاسُ.  
 قَالَ الْأَعْسَى أَخُو بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ:

تَحْمَلُ عُرْوَةُ الْأَخْلَافَ لَمَّا      رَأَى أَمْرًا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ  
 ثَلَاثَ مِئِينَ عَادِيَّةٍ وَأَلْفًا      كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٥-٥٩٨].

### فشل مفاوضات عروة بن مسعود:

يقول أ/ باشميل: «حاول عروة بن مسعود تخويف النبي ﷺ ليعود من حيث أتى، وحاول التأثير عليه - عن طريق التلويح بعظمة قوة قريش - بأن من مصلحته ومصلحة أصحابه أن يزيلوا من أذهانهم فكرة الأمل في الطواف بالبيت ما دام لقريش سلطان في مكة.

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وأصر النبي ﷺ على أن من حقه ومن حق أصحابه أن يدخلوا مكة ويطوفوا متى شاؤوا، إلا أنهم لن يتعجلوا الأمور لنيل هذا الحق عن طريق اقتحام مكة بحد السلاح، وذلك رغبة منهم في حقن الدماء، وأملًا منهم في أن يصحو عقلاء قريش من سكرة طغيانهم فينتهجوا أي نهج به يحولون دون سفك الدماء، ويفسحون الطريق للمسلمين ليباشروا حقهم الطبيعي في زيارة بيت الله الحرام شأنهم في ذلك شأن كل العرب.

وهكذا انتهت المفاوضة بين النبي ﷺ وعروة بن مسعود، دون أن يتم التوصل إلى أي اتفاق ينهي الأزمة، إلا أنه من خلال هذه المحادثات أكدت لعروة بن مسعود صدق نوايا المسلمين السلمية، وأنهم فعلاً إنما جاؤوا في رحلة خالصة معتمرين لا محاربين، وأن قريشاً إنما تفتري وتكذب على المسلمين حينما تروج بين عامة العشائر والأعراب، أن النبي ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا ليهتكوا حرمة مكة فيدخلوها عنوة بقصد الحرب.

### ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش:

لذلك عاد الوسيط الثاني إلى حلفائه قريش، بعد أن فشل في حمل النبي ﷺ على تنفيذ رغبة قريش بالانسحاب والعودة إلى المدينة دون أن يطوف بالبيت ودونها أية ضمانات تُعطى له، عاد الوسيط حاملاً إليهم نهاية مفاوضاته الفاشلة، وحاملاً لهم التحذير ومُسدياً لهم النصح بأن يخففوا من غلوائهم.

كما نصحهم - في صراحة متناهية - بأن لا يورطوا أنفسهم في صدام مسلح مع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأن الهزيمة - حسب ملاحظاته وتقديراته - ستكون من نصيب حلفائه القرشيين إن هم تسرعوا، وتعجلوا العدوان.

وقد بانَتْ له هذه الحقيقة التي لم يخفها عن حلفائه، بانَتْ له على ضوء ما لمسه ورآه من تماسك وحدة القوى الإسلامية داخل معسكر محمد ﷺ بشكل لم يسبق له أن سمع أو رأى مثله، وعلى ضوء ما رآه من حب عجيب بين المسلمين لنبيهم، وتфан أعجب في حمايته والدفاع عنه. [صلح الحديبية لباشمیل ١٧١-١٧٢]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتْ يُرِيدُ حَرْبًا، فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ، لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ، وَلَا يَنْصُقُ بَصَاقًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إِلَّا أَخَذُوهُ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَبْصَرَ فِي مُلْكِهِ، وَالتَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرَوْا رَأْيَكُمْ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا فَرَعَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ لِبَدِيلِ بْنِ وَرْقَاءَ وَأَصْحَابِهِ، وَكَمَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُدَّةِ، رَكِبَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ: يَا قَوْمَ، إِنِّي قَدْ وَدَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ: عَلَى كِسْرَى، وَهَرَقْلَ وَالنَّجَاشِيِّ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ أَطْوَعَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ مِنْ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَاللَّهِ مَا يُشِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ، وَمَا يَرْفَعُونَ عِنْدَهُ الصَّوْتَ، وَمَا يَكْفِيهِ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَمْرٍ فَيَفْعَلْ، وَمَا يَنْتَحِمُ وَمَا يَنْصُقُ إِلَّا وَقَعَتْ فِي يَدَيَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَمْسَحُ بِهَا جِلْدَهُ، وَمَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا أَزْدَحَمُوا عَلَيْهِ أَهْبَمَ يَطْفُرُ مِنْهُ بَشْيَاءٌ، وَقَدْ حَزَزْتُ الْقَوْمَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ السَّيْفَ بَدَلُوهُ لَكُمْ، وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا مَا يُبَالُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِمْ إِذَا مَنَعُوا صَاحِبَهُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ نُسَيَاتٍ مَعَهُ إِنْ كُنَّ لَيْسَلِمُنَّهُ أَبَدًا عَلَى حَالٍ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٨-٥٩٩].

### عروة بن مسعود ينصح قريشاً:

يقول أ/ باشمیل: «ثم نصحهم بأن يقبلوا ما عرض عليهم النبي ﷺ من مهادنة تنهي حالة الحرب بينهم، وحذرهم أن يذهب بهم الطيش إلى الدخول في صدام مسلح مع المسلمين؛ لأنه واثق من عدم انتصارهم عليهم، وكرر مرة أخرى انتقاد قريش لإصرارها على منع المسلمين من دخول الحرم فقال: «وَأَيَّاكُمْ وَإِضْجَاعَ الرَّأْيِ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةٌ فَمَادُّوهُ، يَا قَوْمَ، اقْبَلُوا مَا عَرَضَ، فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، مَعَ أَيِّ أَخَافُ إِلَّا تُنْصَرُوا عَلَيْهِ، رَجُلٌ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ مُعْظَمًا لَهُ مَعَهُ الْهَدْيُ يَنْحَرُهُ وَيَنْصَرِفُ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٩].

ولدى سماع سادات مكة وزعمائها حديث حليفها عروة بن مسعود - الذي هو أشبه بالتقرير الدقيق الصحيح يقدمه لهم عن حقيقة الموقف - أسقط في أيديهم ورأوا أن لا مناص لهم من أن ينحنوا للعاصفة، ففقدوا التخلي عن فكرة منع المسلمين من دخول الحرم أبداً، وقرروا أن يسمحوا للمسلمين بدخول مكة، ولكن بصورة تحفظ لهم شيئاً من ماء وجوهم، وهي أن يعود النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة هذا العام ثم يأتوا ليدخلوا مكة ويطوفوا ويسعوا في العام القادم.

وهو الأمر الذي ما كانت قريش لتوافق عليه مطلقاً عندما ركبت رأسها وأعلنت أنها ستمنع المسلمين من دخول مكة أبد الأبد.

وقد أفصحوا لحليفهم (عروة) عن مشروعهما هذا، وأنهم سيعرضون الصلح على النبي ﷺ على أساس هذا المشروع، رجاء أن يقبله كحل وسط للأزمة.

فقد قالوا لعروة - راجين منهم كتمان ما صارحهم به - : «فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: لَا تَكَلِّمْ هَذَا يَا أَبَا يَعْقُوبَ! (وهذه كنيته) لَوْ غَيْرُكَ تَكَلَّمْ هَذَا لِلْمَنَاءِ، وَلَكِنْ تَرُدُّهُ عَنِ الْبَيْتِ فِي عَامِنَا هَذَا، وَيَرْجِعُ إِلَى قَابِلٍ» [المغازي للواقدي ٥٩٩/٢].

فقال عروة - وقد بدا عليه الرضى حتى بهذا المشروع - : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة.. ثم انصرف ومن معه من ثقيف إلى الطائف. [ينظر: السيرة الحلبية ١٣٩/٢].

### أول انشقاق في معسكر الشرك:

كان رجوع عروة بن مسعود الثقفي بقومه إلى الطائف احتجاجاً على تشدد قريش وتعتتها أول انشقاق عملي في المعسكر القرشي، إذ أضعف انسحاب عروة بن مسعود بقومه من معسكر قريش مركز هؤلاء القرشيين إلى حد كبير.

ومع ذلك ومع رغبتهم في الصلح وخوفهم من الصدام المسلح ظلوا على عنادهم يتظاهرون بأنهم مصممون على منع المسلمين من دخول مكة مهما كانت النتائج، وذلك مناورة وأملاً منهم في أن يضيق المسلمون لطول المقام في الحديبية محرمين شُغناً غُرباً، فيضطروا للعودة إلى المدينة دون أن يطوفوا بالبيت، ودون أن يحصلوا على ضمان يضمن لهم دخول مكة معتمرين.

وزاد قريشاً طمعاً في هذا وشجّعها على الاستمرار في المناورة والتهديد، أن النبي ﷺ أعلن عدم رغبته في الحرب، وأنه مستعد لقبول أية خطة تعرضها قريش يكون فيها حقن الدم وصيانة حرمة الحرم.

وبالرغم من أن الوسطاء لحل المشكلة يأتون دائماً من جانب قريش، فكلهم يأتي إلى النبي ﷺ وهو يحمل الطلب من قريش بأن يعود المسلمون من حيث أتوا - كما تقدم - فقد ظل الجو متوتراً وزاده توتراً طول احتباس المسلمين في الحديبية.

فقد ثقل عليهم المقام هناك ممنوعين من دخول الحرم كل هذه المدة، الأمر الذي لا يمكن أن يظلوا صابرين عليه إلى ما لا نهاية فللصبر حدود، لا سيما وأنهم قادرون على اقتحام مكة وموقنون بأن القوات القرشية لن تقوى على الصمود أمامهم إذا ما أقدموا على ذلك.

### مِكْرَزُ رَسُولِ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ:

كان مكرز بن حفص من شياطين قريش وعلمًا من أعلامها وكان مشهورًا بالمرأوخة والغدر والختل. لذلك عندما فشل وسيطها الثاني (عروة بن مسعود) في وساطته لدى النبي ﷺ، بعثت قريش بمكرز هذا إلى الحديبية وسيطًا لدى النبي ﷺ لعله - بوساطته أو قل: بدهائه - يحقق كسبًا لقريش في هذه الأزمة التي بدا لقريش أنها تزداد استعصاء وتعقدًا، ولا سيما بعد أن فارقها أحد حلفائها الأقوياء (عروة بن مسعود) الذي انسحب بقومه من معسكرها احتجاجًا على تعنتها وعدم إصغائها لنصحها ومماطلتها في قبول خطة السلم التي عرضها النبي ﷺ عليها بواسطة سيد خزاعة، بديل بن ورقاء.

وصل الوسيط الثالث، مكرز بن حفص، إلى الحديبية للاجتماع بالنبي ﷺ لبحث موضوع الأزمة القائمة بين الفريقين.

وعندما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قال: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ».

إلا أن النبي ﷺ استقبل مكرزًا في مقر قيادته في الحديبية ولم يرفض مقابلته بالرغم من علمه بأنه من النوع الغادر الذي لا يوثق به.

وقد أجرى مكرز مع النبي ﷺ محادثات حول مجيئه، وكانت محادثات مكرز بن حفص تتركز - على ما يظهر - حول إبلاغ النبي ﷺ رغبة قريش في أن يعود من حيث أتى، وإلا فإن قريشًا قد صممت على منع المسلمين من دخول مكة.

غير أن مكرزًا لم يسمع من النبي ﷺ جوابًا على كل ما قاله أكثر مما أعلنه صراحة للوسيطين السابقين (بديل بن ورقاء وعروة بن مسعود)، وأبلغه قريشًا رسميًا، وهو أنه لم يأت لقتال، وإنما أتى زائرًا معظمًا للبيت - إلا أنه مع ذلك مستعد لمقاتلة من يقاتله.

فعاد مكرز إلى قريش وأبلغها تمسك النبي ﷺ بموقفه الذي أعلنه للوسيطين (عروة) و(بديل).

[صلح الحديبية لباشمیل ١٧٣-١٧٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «قَالَ: ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ مَكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخِيْفِ، أَخَا بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا، قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَلَّمَهُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ أَمَّا قَالَ لِبَدِيلٍ وَأَصْحَابِهِ، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٢/٢].

وقد ورد خبر إرسال قريش له في حديث المسور ومروان، ففيه من طريق معمر بعد أن ذكر قصة عروة والحليس قال: «فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: أَتَيْهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مِكَرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

وفي حديثها من طريق ابن إسحاق: «ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ بْنِ الْأَخِيْفِ أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَحْوِ مِمَّا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

قَالَ الْوَأَقِدِيُّ: «قَالُوا: ثُمَّ جَاءَ مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ بْنِ الْأَخِيْفِ، فَلَمَّا طَلَعَ وَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَلَّمَهُ بِنَحْوِ مِمَّا كَلَّمَ أَصْحَابَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى قُرَيْشٍ أَخْبَرَهُمْ بِمَا رَدَّ عَلَيْهِ». [المغازي للواقدي ٢/٥٩٩].

**الْحَلِيسُ بْنُ عَلْقَمَةَ الْكِنَانِي رَسُولٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ:**

يقول د/ هيكل: «كانت قريش تعتمد فيما أعدت من قتال محمد ﷺ على حلفائها من الأحابيش (أحياء من القارة - قوم من العرب رماة - سمعوا بذلك لاسودادهم، أو لتجمعهم أو نسبة إلى حبشي - بضم الحاء وسكون الباء - جبل بأسفل مكة)، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً لا يسمع له ولا يتفاهم وإياهم، ازداد لقريش نصرة، فزادهم على محمد ﷺ قوة.

وخرج الحليس سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين، فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً أمر بالهدي أن تطلق أمامه؛ لتكون تحت نظره دليلاً مادياً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاؤوا حاجين معظمين البيت، ورأى الحليس الهدي سبعين بدنة تسيل عليه من عرض الوادي قد تأكلت أوبارها؛ فتأثر لهذا المنظر واثارت في نفسه ثائرات دينية، وأيقن أن قريشاً ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حرباً ولا عدواناً، فانقلب إلى قريش دون أن يلقي محمداً ﷺ وذكر لهم ما رأى، فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

وغضب الحليس لمقاتلتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصد عن البيت من جاء معظماً إياه، وأنهم إن لم يخلوا بين محمد ﷺ وما جاء به نفر بالأحابيش من مكة.

وخشيت قريش عاقبة غضبه، فاسترضوه وطلبوا إليه أن يُنظرهم حتى يفكروا في أمرهم.

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ الْخَلِيسَ بْنَ عَلَقَمَةَ أَوْ ابْنَ رَبَّانَ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (يتعبدون) وَيُعْظُمُونَ أَمْرَ الْإِلَهِ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ (جانبه) الْوَادِي فِي فَلَائِدِهِ (ما يعلق في أعناق الهدي ليعلم أنه هدي)، وَقَدْ أَكَلَ أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ (موضعه الذي ينحر فيه من الحرم)، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى، فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْخَلِيسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا خَالِفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْخَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُخَلَّنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا نَفَرَنَّا بِالْأَحَابِيشِ نَفَرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كُفَّ عَنَّا يَا خَلِيسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَفْسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٢/٢].

يقول د/ الحكمي: «أشار إلى قصة إرسال قريش للخليس المسور بن مخزوم ومروان بن الحكم من طريق معمر: فبعد أن ذكر قصة عروة بن مسعود قال: فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي أَنِّيهِ، فَقَالُوا: إِنِّيهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظُمُونَ الْبُذْنَ، فَابْعَثُوا لَهُ»، فَبَعَثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلْبُونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي هَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ قُلِدْتُ وَأُشْعِرْتُ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. [البخاري في الشروط (٢٧٣١-٢٧٣٢)].

وفي حديثهما من طريق ابن إسحاق أشار إلى القصة، وصرح باسمه قال: قَالَ: فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْخَلِيسَ بْنَ عَلَقَمَةَ الْكِنَانِيَّ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْأَحَابِيشِ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ»، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي فَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ الْهَدْيَ فِي فَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ. فَقَالُوا: اجْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ». [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

ووردت قصته أيضًا في مرسل عروة بن الزبير من طريق الزهري: فبعد أن ذكر قصة عروة بن مسعود قال: «وَدَعَوْا رَجُلًا مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ<sup>(١)</sup>، يُقَالُ لَهُ: الْخَلِيسُ، فَقَالُوا: انْطَلِقْ، فَانْظُرْ مَا قَبْلَ هَذَا الرَّجُلِ، وَمَا يَلْقَاكَ بِهِ؟، فَخَرَجَ الْخَلِيسُ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا عَرَفَهُ، قَالَ: «هَذَا الْخَلِيسُ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظُمُونَ الْهَدْيَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ»، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ.

(١) الحارث بن عبد مناة هو: ابن كنانة، ينظر: جهمرة أنساب العرب: ١٨٨، وإذن فلا تنافي بين هذه الرواية والتي قبلها.

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: فَاخْتَلَفَ الْحَدِيثُ فِي الْخُلَيْسِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: جَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِبَدِيلٍ وَعُروَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ لَهَا رَأَى الْهُذَيَّ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً لَيْسَ صَدْدُ مَوْتِهِ إِلَيَّ لِحَافَةٍ عَلَيْكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ عَنَتٌ (أي مشقة وهلاك)، فَأَبْصِرُوا بَصَرَكُمْ، قَالُوا: اجْلِسْ.

[المصنف لابن أبي شيبة ٤١٩/٢٠ رقم ٣٨٠١٠].

وجاء في حديث عروة أيضاً من طريق ابن هشام بعد أن ذكر نزول الرسول ﷺ الحديبية ما نصه: «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِهِ قُرَيْشٌ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ أَخَا بَنِي خُلَيْسٍ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظَّمُونَ الْهُذَيَّ، فَقَالَ: «ابْعَثُوا الْهُذَيَّ»، فَلَمَّا رَأَى الْهُذَيَّ لَمْ يَكَلِّمْهُمْ كَلِمَةً، وَانصَرَفَ مِنْ مَكَانِهِ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، الْفَلَايِدُ وَالْبُدُنُ وَالْهُذَيَّ، فَحَذَرْتُمْ وَعَظَّمْتُمْ عَلَيْهِمْ، فَسَبُّوهُ وَتَجَهَّمُوهُ (استقبلوه بوجوه كريهة)، وَقَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ (الرجل الجافي)، لَا نَعَجِبُ مِنْكَ، وَلَكِنَّا نَعَجِبُ مِنْ أَنْفُسِنَا إِذْ أَرْسَلْنَاكَ، اجْلِسْ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٣٩٩/٢٠ رقم ٣٧٩٩٤].

وقد روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن الخليس قد غضب من فعل قريش وهددهم: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْخُلَيْسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا عَلَيَّ هَذَا خَالِفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَيَّ هَذَا عَاقِدْنَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْخُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُخَلَّنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرَّغَ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كَفَّ عَنَّا يَا خُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٢/٢].

وهذا الحديث ضعيف؛ لأنه مرسل». [مرويات الحديبية للحكمي ٢٣٢-٢٣٥].

ويقول أ/ باشميل: «وعندما لم يفلح مكرز بن حفص العامري في وساطته لجأت قريش إلى سيد الأحابيش، الخليس بن زبان حليفها الأكبر، فطلبت منه أن يكون وسيطها الرابع لدى النبي ﷺ عسى أن يتمكن من حل هذا النزاع الخطير لصالحها.

فقد كان الخليس بن زبان ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيداً مطاعاً، وكان النبي ﷺ يعرفه ويعرف فيه التآله الشديد والتعظيم للحرم.

لذلك كانت قريش - حينما اختارته وسيطها - تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب، ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي ﷺ تأثير على الرسول ﷺ وأصحابه، تكون نتيجة عودتهم من حيث أنوا دون أن يدخلوا مكة أو يحصلوا على ضمان يضمن السماح لهم بدخولها في وقت آخر.

### أخطر انشقاق في معسكر قريش:

غير أن الذي حدث هو أن وساطة سيد الأحابيش جاءت لقريش بعكس ما كانت تأمل، حيث كانت نتيجة هذه الوساطة نقطة التحول الحاسم لصالح المعسكر الإسلامي، وتأييداً للمبدأ والفكرة والتي



يتمسك بها النبي ﷺ وأصحابه، وهي أن من حقهم الطواف بالبيت وليس لأحد كائناً من كان يحول بينهم وبين مباشرة هذا الحق.

فقد قبل الحليس بن زبان أن يكون وسيط قريش إلى ابنها النبي ﷺ، كانت قريش تزيف الحقائق وتلبس على حليفها الحليس وأمثاله بأن محمداً ﷺ وأصحابه إنما جاؤوا بغاة معتدين يريدون هتك حرمة البيت بالحرب والقتال.

فكان سيد الأحابيش - حتى وصوله معسكر المسلمين في الحديبية - يحمل في قرارة نفسه عن المسلمين هذه الفكرة الخاطئة التي رسبتها في الأذهان دعايات المشركين وأبواق الوثنيين القرشيين.

### ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت:

توجه الوسيط الرابع (الحليس بن زبان) من معسكر قريش داخل الحرم إلى حيث يعسكر النبي ﷺ بأصحابه خارج الحرم في الحديبية. [صلح الحديبية لباشمیل ١٧٧-١٧٨].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَبَعَثُوا الْخَلِيسَ بْنَ عَلَقَمَةَ - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الْأَحَابِيشِ - فَلَمَّا طَلَعَ الْخَلِيسُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْهَدْيَ وَيَتَأَلَّهُونَ، ابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَبَعَثُوا الْهَدْيَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْهَدْيِ يَسِيلُ فِي الْوَادِي عَلَيْهِ الْقَلَائِدُ قَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ يُرْجَعُ الْحَيْنَ، وَاسْتَقْبَلَهُ الْقَوْمُ فِي وَجْهِهِ يَلْبُونَ قَدْ أَقَامُوا نِصْفَ شَهْرٍ، قَدْ تَفَلُّوا وَشَعَثُوا، رَجَعَ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِغْظَامًا لِمَا رَأَى، حَتَّى رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ، رَأَيْتُ الْهَدْيَ فِي قَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مَعْكُوفًا عَنْ مَحَلِّهِ، وَالرَّجَالُ قَدْ تَفَلُّوا وَفَعَلُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهَذَا الْبَيْتِ». [المغازي للواقدي ٥٩٩/٢].

وفي رواية: فلما رأى الحليس الهدى يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي قد أكل أوباره، من طول الحبس عن محله (أي موضعه الذي ينحر فيه من الحرم)، ورأى المسلمين قد استقبلوه يلبنون وقد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم، صاح مستنكراً تصرف قريش: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لَهُؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، أَيْ اللَّهُ أَنْ يُحْجَّ لَحْمٌ وَجَذَامٌ وَنَهْدٌ وَحَمِيرٌ وَيُمْنَعُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، هَلَكْتُ قُرَيْشٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، إِنَّهَا الْقَوْمُ (يعني المسلمين) أَتَوْا عَمَّارًا، أَيْ: مُعْتَمِرِينَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ يَا أَخَا بَنِي كِنَانَةَ». [السيرة الحلبية ٦٩٦/٢].

### سيد الأحابيش ينذر قريشاً:

يقول أ/ باشمیل: «وهنا غضب هذا السيد الكناني لقول قريش هذا غضباً شديداً، ثم هدهداً بإلغاء الحلف الذي بينه وبينها والانحياز إلى جانب المسلمين إذا لم تقلع عن غيها، فتفسح الطريق للنبي ﷺ وأصحابه ليطوفوا بالبيت كسائر العرب، فقال: «أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالُفُنَاكُمْ وَلَا عَاقِدُنَاكُمْ عَلَى أَنْ

تَصُدُّوا عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لِحُرْمَتِهِ مُؤَدِّيًا لِحَقِّهِ، وَسَاقَ الْهَدْيَ مَعْكَوْفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَحُلْنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ، أَوْ لَا يَفْرَنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٩-٦٠٠].

وكان هذا الإنذار من سيد الأحابيش الذي أمَلته عليه الرجولة، كافيًا لأن يحدث الذعر والفرع بين صفوف المشركين في مكة ويجعلهم يفكرون مليًا في إعادة النظر في موقفهم المتعنت المتصلف الذي وقفوه من المسلمين.

فقد كان تهديد سيد الأحابيش بنسف التحالف الذي بينه وبين قريش إذا لم يخلوا بين النبي وأصحابه ليطوفوا بالبيت، يعني أن أخطر انشقاق بل أخطر تمرد سيحدث في معسكر الشرك في مكة التي كانت في حالة تأهب واستنفار للحرب.

لأن الأحابيش الذين هم تحت قيادة الحليس بن زيان الكناني يمثلون عدة قبائل قوية غير قرشية بالحلف تسالم من سالم قريشًا وتحارب من حاربها.

وهذه القبائل هي بنو الهون بن خزيمه، وبنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المصطلق ابن خزيمه.

وخروج هذه القبائل على القرشيين وإلغاؤها الحلف الذي بينها وبينهم يعتبر بمثابة ضربة صاعقة للمعسكر القرشي، وخاصة في ذلك الطرف الحرج الذي بلغ فيه التوتر ذروته بين المسلمين ومشركي مكة.

لذلك اهتز المعسكر القرشي لتصريحات سيد الأحابيش الذي كان يعني كل كلمة قالها في إنذاره الموجّه لطغاة مكة وعناثها.

فتجسد لسادات مكة ما يهددهم من خطر الانقسام بعد الموقف المشرف الذي وقفه سيد الأحابيش، ضد طغيانهم.

وتبين لسفهاء قريش وعقلائها على السواء أن النفوس - حتى وإن لم يكن أصحابها مسلمين - ليست كلها بالتي ترضى البغي وتقر العدوان والظلم والتعسف، وذلك على ضوء ما سمعته من حليفها المشرك سيد الأحابيش الذي شجب تصرفاتها التعسفية وحملها مسؤولية تأزم الموقف الذي يهدد بانفجار حرب ليس لها من مبرر إلا العنجهية والتزق.

وعلى أثر موقف سيد الأحابيش الحازم الجاد المنبثق من جداول الخلق العربي الأصيل، لم يعد لدى قريش أدنى شك في أن المتهورين والسفهاء ودعاة الحرب منها قد أوقعوها في ورطة كبيرة، عندما استجابت لهم، فركبت رأسها بعد أن نفخ الشيطان في مناخر زعمائها، فأعلنوا بأنهم سيصدون النبي ﷺ

وأصحابه عن البيت، ولو استدعى ذلك امتشاق الحسام وصددهم عن طريق الحرب، بالرغم من تأكدهم من نوايا المسلمين السلمية واستيقانهم بأنهم لم يأتوا محاربين وإنما معتمرين زائرين للبيت.

### البحث عن مخرج من الورطة:

وبعد غضبة سيد الأحابيش لتصرفات قريش الرعناء، وإنذاره الصريح الشديد الذي وجهه إليها أحد ساداتها وزعمائها، يبحثون جدياً عن مخرج ينقذهم من الورطة التي أوقعوا فيها أنفسهم، ورأت أن هذا المخرج لن يكون إلا بعقد صلح يتم بينها وبين النبي ﷺ يحفظ لها ماء وجهها، بعد أن أقسمت أن لا يدخل محمد عليها مكة أبداً حتى تفنى عن بكرة أبيها.

وتمهيداً للظفر بهذا الصلح الذي لا سبيل لقريش إلى الخروج من ورطتها إلا بالظفر به، أخذت في ملاطفة حليفها الأكبر سيد الأحابيش، بعد أن أسمعها كلمات الرجولة والعدل، تلك التي أداخت باطلها وأزالت عنها كل فعاليات سُكر البغي والطغيان، حتى صَحَّتْ كل الصحو لترى جريرة تعتتها وبطرها تكاد تحقيق بها ويلاتهما من كل جانب.

فقد طلب سادات قريش - في رجاء - من سيد الأحابيش الذي أعلن أنه سيجاز إلى جانب الحق إذا لم ترجع قريش عن غيها فتخلي بين المسلمين وبين البيت، طلبوا منه أن يمنحهم الفرصة الكافية ليهبوا عن مخرج من ورطتهم قائلين: «إِنَّمَا كُلُّ مَا رَأَيْتَ مَكِيدَةً مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَانْكُفْ عَنْنَا حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا بَعْضَ مَا نَرْضَى بِهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٠].

وكان الذي يرضون هو الصلح الذي أبرموه مع النبي ﷺ كما سيأتي.

وقد أجابهم سيد الأحابيش إلى ما طلبوا، فلم ينسحب من حلفهم بعد أن رأى أن ثمار إنذاره قد آتت أكلها بتراجع قريش عن موقفها المتصلب وسعيها للصلح مع المسلمين.

لقد أوقعت تصريحات سيد الأحابيش الشديدة قريشاً في مأزق حرج للغاية، وزاد من موقفها حرجاً أن ارتفعت أصوات كثيرة - بعد تصريح سيد الأحابيش - داخل المعسكر القرشي تستهجن الحماقة التي أقدمت عليها قريش بمنعها المسلمين وصددهم عن البيت بغياً وعدواناً.

إن قريشاً وجدت نفسها في نهاية المطاف في موقف لا تُحسد عليه بين جذب وشد، تتخبط في جو من الحيرة والتردد.

فلا شيء أثقل على نفسها من أن يدخل محمدٌ وأصحابه وهم على هذه الهيئة من العزة والقوة والمنعة، وهم بالأمس القريب خرجوا من مكة ضعفاء خائفين، يتحسسون رؤوسهم وهم يغادرون مكة في جنح الظلام خلسة.

ماذا سيكون مصير مركز قريش الروحي والسياسي الممتازين بين العرب، وأكثرهم يوم ذاك لا يزال على الشرك بدین لقريش بالريادة والقيادة لمكانتها من البيت؟

ماذا سيكون مصير مركزها بين عرب الجزيرة إذا ما علموا أن محمداً وأصحابه البالغ عددهم ألفاً وخمسمائة، قد دخلوا مكة آمنين مطمئنين دون أن يلقوا من سدنة الشرك والوثنية أية مقاومة؟ إن المصير معروف، وهو تصدع وانهار هذه المركز في نفوس كل العرب الوثنيين. هكذا كانت تتصور قريش الباغية.

من هنا كانت الرغبة ملحة في نفوس سادات مكة للحيلولة دون دخول المسلمين مكة، ولو أدى هذا إلى استخدام القوة المسلحة.

غير أن المشركين مع هذه الرغبة الشريرة الملحة في نفوسهم يشعرون شعوراً كاملاً بأنهم سيكونون الخاسرين إذا ما نشبت الحرب بينهم وبين المسلمين المرابطين في الحديبية، وهذا الشعور مصدره التجارب العملية القاسية التي مرت بقريش في معارك بدر وأُحُد والخندق، حيث تلقوا على أيدي المسلمين - وهم قلة قليلة - أشنع الهزائم والانذحارات المريعة.

فشبح انقضاخ ثلاثائة من المسلمين كالنمور الكاسرة على ألف من فرسان مكة وصناديدها يتفوقون عليهم في كل شيء - إلا قوة العقيدة - في بدر، وبعثتهم في الشعاب والوهاد كما يبعثر الريح العاصف أوراق الخريف، لا يزال كابوساً خفيفاً يرعب سادات مكة ويشدهم إلى الوراء كلما أرادوا التفكير - جدياً - في الدخول في حرب ضد المسلمين لصدهم عن البيت بالقوة.

وزاد الطين بلة موقف سيد الأحابيش الذي شجب تصرفات قريش التعسفية وحملها مسؤولية ما قد يحدث من صدام مسلح داخل الحرم، بل وأندرها بأنه لن يلوث يده بالدم في هذا الصدام إذا ما أصرت قريش على عنادها وبطرها.

ومن جهة أخرى ازداد موقف المسلمين قوة لا سيما بعد أن وجدوا داخل المعسكر القرشي كالحليس بن زبان، وبين جيران الحرم من غير القرشيين كسيد خزاعة بديل بن ورقاء، مَنْ يؤيدهم ويرى الحق في جانبهم، ويُلقي باللوم على قريش ويحملها مسؤولية الأزمة الحادة القائمة والتي كادت تصل إلى درجة اشتعال نار الحرب، ولكن الأمل الكاذب ظل يراود سادات مكة في تحقيق أهدافهم العدوانية.

[صلح الحديبية لباشميل ١٨٠-١٨٤].

### تحرشات قريش بالمسلمين وموقف المسلمين حيالها:

يقول د/ الحكمي: «نزلت قريش ببلدح وجعلت تتربح أخبار المسلمين - والحق قد أخذ بمجامع قلوبها - إذ كيف يستقر لها قرار أو يهدأ بها بال وهي ترى المسلمين يداهمونها في عقر دارها - ولما علمت

بنزول المسلمين في الحديبية أخذت ترسل مجموعات من فرسانها عليهم يصادفون غرة من المسلمين يحققون فيها بعض مآربهم المشينة». [مرويات الحديبية للحكمي ١٩٩].

ويقول أ/ باشميل: «بالرغم من الانشقاق الخطير الذي حدث في صفوف المشركين نتيجة معارضة سيد الأحابيش الحليس بن زبان وعروة بن مسعود لتصرف قريش المتعنت إزاء المسلمين، هذا التصرف الطائش الذي انسحب - احتجاجاً عليه - سيد ثقيف عروة بن مسعود من التجمع القرشي بقومه إلى الطائف، وهدد أيضًا - احتجاجاً على هذا التصرف الأخرق - الحليس بن زبان بالتمرد على قريش والانسحاب من تجمعها بقومه الأحابيش كما تقدم، بالرغم من هذا الانشقاق الخطير في معسكر الشرك، فإن قريشاً - بدلاً من أن تسلك سبيل الاعتدال وتخفف من تصلفها وغلوها وتحرشها بالمسلمين - أخذ سفهاؤها في تصعيد الأزمة وزيادة حدة التوتر إلى درجة كادت تصل بالتوتر إلى حد انفجار الحرب.

فبينما كان النبي ﷺ وأصحابه في الحديبية محافظين على ضبط النفس وعاملين - بكل الوسائل - على قفل كل باب يمكن يؤدي فتحه إلى إشعال نار الحرب بينهم وبين قريش، وبينما كان العقلاء في المعسكر القرشي نفسه - أمثال الحليس بن زبان وقائد الأحابيش الحلفاء - يتوقعون من سادات مكة أن يضعوا حداً لتسلط الغلاة المتطرفين في معسكرهم، فيجئوا للسلم ويعملوا على تجنب ما من شأنه الاقتراب بالفريقين إلى حافة الحرب، إذا بقريش ترسل العنان لسفائها - ومطرفيها - ليذهبوا في تصعيد الأزمة وتعقيدها إلى درجة العدوان على المسلمين بالهجوم عليهم - عن طريق التسلل - في معسكرهم بالحديبية». [صلح الحديبية لباشميل ١٨٦-١٨٧].

ويقول د/ هيكل: «وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلاً يرمون عسكر النبي ﷺ بالحجارة؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلاً يوماً ليصيبوا من أصحاب النبي ﷺ، فأخذوا أخذاً وجيء بهم إليه، أفتردي ماذا صنع؟ عفا عنهم وخلق سبيلهم تشبثاً منه بخطة السلم واحتراماً للشهر الحرام أن يسفك فيه دم في الحديبية وهي من حرم مكة. ووهبت قريش حين عرفوا هذا، وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمداً يريد حرباً، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد ﷺ لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر دنئ، لمحمد ﷺ الحق في أن يدفعه بكل ما أوتي من قوة». [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٧٨-٣٧٩].

### اعتقال سبعين متسللاً من المشركين:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحَدِيبَةِ] أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ [النَّبِيِّ] ﷺ [وَأَصْحَابِهِ] مِنْ [قَبْلِ] [جَبَلٍ] [جِبَالٍ] [التَّنْعِيمِ] (موضع بمكة في الحل وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة، وقيل: على أربعة، وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له التنعيم، وآخر عن شماله يقال له

الناعم، والوادي نعيمان) مُتَسَلِّحِينَ [فِي السَّلَاحِ] عِنْدَ صَلَاةِ [الصُّبْحِ] الْفَجْرِ يُرِيدُونَ غِرَّةَ (غفلة) النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، لِيَقْتُلُوهُمْ [وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ]، فَأَخَذَهُمْ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] سَلَامًا (أي أسرهم، والمراد من السَّلَم: الاستسلام والإذعان)، [فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأُخِذُوا أَخَذًا] فَاسْتَحْيَاهُمْ (أي أبقى على حياتهم، ولم يقتلهم. ذكر ابن عبد البر: أن هؤلاء الذين أعققتهم الرسول ﷺ سموا العتقاء وإليهم ينسب العتقيون)، [فَأَعْتَقَهُمْ [فَعَفَا عَنْهُمْ] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمُؤَاذِيكَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكَ وَالْأَيْدِيَّكُمْ عَنْهُمْ يَبْظِنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢١﴾ [الفتح] [قَالَ: يَعْنِي جَبَلَ التَّنْعِيمِ مِنْ مَكَّةَ].

[مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٨)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٨٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٦٤)، ومسند أحمد ١٩/٢٧٧-٢٧٨ رقم ١٢٢٢٧، ١٢٢٥٤، ٢١/٤٦٥ رقم ١٤٠٩٠].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ لَا أَتَمُّ عَنْ عِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا يَعْثُونَ أَزْبَعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَوْ خَمْسِينَ رَجُلًا، وَأَمْرُهُمْ أَنْ يُطِيقُوا بِعَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُصِيبُوا هَمَّ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، فَأُخِذُوا أَخَذًا، فَأَتَى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَفَا عَنْهُمْ، وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا رَمَوْا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالْحَدِيثِيِّ يَتَخَارَسُونَ اللَّيْلَ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِهِ يَبِيتُ عَلَى الْحَرَسِ حَتَّى يُصْبِحَ يُطِيفُ بِالْعَسْكَرِ، فَكَانَ ثَلَاثَةً مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَنَاقَشُونَ الْحِرَاسَةَ: أَوْسُ بْنُ حُوَلٍ، وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ عَلَى فَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي وَعُثْمَانُ بِمَكَّةَ بَعْدُ، وَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ بَعَثَتْ لَيْلًا خَمْسِينَ رَجُلًا، عَلَيْهِمْ مَكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ، وَأَمْرُهُمْ أَنْ يُطِيقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ رَجَاءً أَنْ يُصِيبُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، أَوْ يُصِيبُوا مِنْهُمْ غِرَّةً، فَأَخَذَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمَةَ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَجَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٢].

يقول أ/ باشميل: «ذكر جمهرة المؤرخين أن سبعين من فرسان المشركين تسللوا في جماعات أثناء الليل إلى معسكر المسلمين لعلهم ينالون منهم بالقتل أو الأسر غدرا في غلس الظلام، إلا أن رجال دوريات الحراسة التي أقامها النبي ﷺ عند نزوله الحديبية كانوا لهم بالمرصاد، حيث أحبطوا جميع مخططات هؤلاء المتسللين، الذين انتهى بهم التسلل إلى الوقوع في أسر دوريات المسلمين مجموعة بعد أخرى، حتى بلغ عدد الذين ألقى عليهم الحرس الإسلامي القبض أثناء الليل سبعين فارسًا، أتى بهم الحراس مقيدين إلى مقر قيادة النبي الأعظم ﷺ في الحديبية.

وكان هؤلاء المتسللون الأشرار قد نجحوا - في غلس الظلام - من أسر بعض الصحابة حيث هاجمهم غدرا وهم عزّل آمنون، إلا أن دوريات المسلمين استنقذت هؤلاء الأسرى المسلمين عندما أُلقت القبض على السبعين من المتسللين المشركين.

### النبي ﷺ يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم:

غير أن النبي ﷺ بالرغم من هذا التصرف من قبل المشركين المتسللين الذي يحمل كل معاني البغي والاستفزاز، قد عفى عنهم فأطلق سراحهم جميعهم، قائلاً لأصحابه: دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ.

[تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٠] [صلح الحديبية لباشمیل ١٨٧].

### نشوب القتال في الحديبية:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَبَلَغَ قُرَيْشًا حَسْبُ أَصْحَابِهِمْ، فَجَاءَ جَمْعٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حَتَّى تَرَامُوا بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ، وَأَسْرُوا أَيْضًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ حِينَئِذٍ أَسْرَى». [المغازي للواقدي ٢ / ٦٠٢].

### قريش تقتل رجلاً من المسلمين:

بل لقد بلغ البغي بقريش إلى أن أقدمت على قتل أحد أصحاب النبي ﷺ بقصد استفزاز المسلمين، وكان هدف السفهاء الذين أقدموا على القتل استدراج المسلمين إلى الدخول في حرب شاملة تجعل المتعطلين في المعسكر القرشي أمام الأمر الواقع، فيخوضوا حرباً هم لها كارهون، ولكن النبي ﷺ فَوَّت على هؤلاء المتطرفين فرصتهم، إذ التزم جانب الحكمة والحلم والتروي، فلم يسمح لأن يكون ذلك العدوان الطائش باعثاً للمسلمين على خوض حرب شاملة لا يرغبون فيها.

روى الطبري بإسناده عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ زَيْتَمٌ، أَطْلَعَ الثَّيَّةَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَرَمَاهُ الْمُشْرِكُونَ فَقَتَلُوهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلًا، فَأَتَوْهُ بِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَرَسَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ عَهْدٌ؟ هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ ذِمَّةٌ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: فَأَرْسَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْقُرْآنَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝١٢﴾ [الفتح]. [تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٠].

### تحرشات أخرى لقريش بالمسلمين:

يقول د/ الحكمي: «وقد ذكر بعض تحرشاتهم أيضًا حديث سلمة بن الأكوع ؓ عند مسلم، فقد جاء فيه ما نصه: قَالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا، فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا، قَالَ: فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ قُتِلَ ابْنُ زَيْتَمٍ، قَالَ: فَأَحْزَنْتُ سَنِي، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أَوْلِيكَ الْأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْنًا فِي يَدِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لَا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسَوْفُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:

وَجَاءَ عَمِّيَ عَامِرُ بْنُ جُلٍّ مِنَ الْعَبَلَاتِ يُقَالُ لَهُ: مَكَرَزُ يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَفَنَاءُ»، فَعَقَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الْآيَةَ كُلَّهَا. [مسلم في الجهاد (١٣٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُرِّيَّ ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقَعُ مِنْ أَغْصَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى بُنْ أَبِي طَالِبٍ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدْيِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيٍّ ؓ: «اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فَأَخَذَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدْيِهِ، فَقَالَ: مَا نَعْرِفُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ، قَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَكَتَبَ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ، فَأَمْسَكَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَدْيِهِ وَقَالَ: لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولُهُ اكْتُبْ فِي قَضِيَّتِنَا مَا نَعْرِفُ، فَقَالَ: اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَتَبَ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا ثَلَاثُونَ شَابًا عَلَيْهِمُ السَّلَاحُ فَتَارُوا فِي وُجُوهِنَا فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ اللَّهُ ﷻ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَدِمْنَا إِلَيْهِمْ فَأَخَذْنَاهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ جِئْتُمْ فِي عَهْدٍ أَحَدٍ أَوْ هَلْ جَعَلْ لَكُمْ أَحَدٌ أَمَانًا؟»، فَقَالُوا: لَا، فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: قَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، وَقَالَ حُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، وَهَذَا الصَّوَابُ عِنْدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

[مسند أحمد ٢٧/ ٣٥٤ رقم ١٦٨٠٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح، ومجمع الزوائد ٦/ ٢١١-٢١٢ كتاب

المغازي والسير (١٠١٨٢)، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.]



## المبحث التاسع

## رسل الرسول ﷺ إلى قريش

## النبي ﷺ يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً:

يقول د/ الحكمي: «كانت قريش قد استثارت القبائل من حولها وألبتها على رسول الله ﷺ بدعوى: أنه اعتدى عليها في عقر دارها وفي الحرم، وكانت العرب تعظم البيت وتجل قريشاً لمكانتها من البيت. وأراد رسول الله ﷺ أن يبطل تلك الدعاوى التي وجهتها قريش ضده، ويكسب تلك القبائل أو على الأقل يخفف من حدتها وحساسها ضده، فأرسل من قبله رسلاً ليلغوا قريشاً بمرأى ومسمع من الناس: أنه لم يأت يريده حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومُعظماً لحرمته». [مرويات الحديبية للحكمي ٢١٢].

ويقول د/ هيكل: «والت المحادثات على النحو الذي قدّمنا، ففكر محمد ﷺ في أن رسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يُقنعون به قريشاً بالرأي الذي يرى، فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه، لكنهم عقروا جمل هذا الرسول، وأرادوا قتله لولا أن منعتة الأحابيش فخلوا سبيله، وقد دل أهل مكة بتصرفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قلق له صبر المسلمين، حتى لقد فكر بعضهم في القتال». [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٧٨].

## خراش ﷺ رسول الرسول ﷺ إلى قريش:

وعندما استقر المقام بالنبي ﷺ في الحديبية، ولما كان قد استبعد فكرة الحرب أساساً منذ خروجه من المدينة، بعث إلى قريش من يبلغهم رسمياً، أنه ﷺ لم يأت للحرب، وإنما جاء مسالماً، لا هدف له من مجيئه سوى أداء مناسك العمرة ثم الانصراف بعد ذلك إلى المدينة، وطلب من مبعوثه الخاص خراش بن أمية الكعبي في رسالة شفوية حمله إياها إلى قريش أن يبلغهم ذلك، ويحاول إقناعهم بأن يتركوا التصلب، فلا يتسببوا في إثارة حرب مدمرة لا ضرورة لها، وذلك بأن يخلوا بينه وأصحابه وبين مكة ليقضوا مناسكهم ثم يعودوا إلى المدينة.

وكان مبعوث النبي ﷺ إلى قريش رجلاً من خزاعة جارة قريش، والتي ليست على خلاف معها، بل كانت أقرب ما تكون إلى الحياد.

وقد ذهب خراش بن أمية ﷺ - الذي يمكن تسميته بمبعوث السلام - ذهب إلى قريش حيث تعسكر بقضها وقضيضها وحلفائها ونسائها وأطفالها وادي بلدح، ذهب ليلغها عرض الرسول ﷺ المتضمن دعوتها إلى التخلي عن فكرة الحرب والجنوح إلى السلم، ولكن مبعوث السلام لم يكد يصل إلى معسكر قريش ليلغ أشرافها رسالة النبي ﷺ، حتى حال بينه وبين ذلك المتهورون منهم، فهاجموه وعقروا الجمل

الذي كان يركبه وحاولوا قتله، لولا أن حماه عقلاؤهم من ذلك، وكان الذي حاول قتله عكرمة بن أبي جهل.

وجاء خبر إرساله إلى قريش في حديث المسور ومروان من طريق ابن إسحاق: فبعد أن ذكر قصة عروة بن مسعود قال: «وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ بَعَثَ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الثَّغْلَبُ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ عَقَرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ، وَأَرَادُوا قَتْلَ خِرَاشٍ ﷺ، فَمَنَعَهُمُ الْأَحَابِيشُ [الْأَحَابِيشُ]، حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ... [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ ﷺ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الثَّغْلَبُ؛ لِيُبَلِّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، فَمَنَعَتْهُ الْأَحَابِيشُ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٤].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قُرَيْشٍ خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ الْكُعْبِيِّ ﷺ عَلَى جَمَلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُقَالُ لَهُ: الثَّغْلَبُ؛ لِيُبَلِّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ لَهُ، وَيَقُولَ: إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ مَعَنَا الْهَدْيُ مَعْكُوفًا، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنُحَلِّ وَنُنْصِرِفُ.

فَعَقَرُوا جَمَلَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالَّذِي وَلِيَ عَقْرَهُ عَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَمَنَعَهُ مَنْ هُنَاكَ مِنْ قَوْمِهِ، حَتَّى خَلَّوْا سَبِيلَ خِرَاشٍ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَكِدْ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا لَقِيَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْعَثْ رَجُلًا أَمْنَعُ مِنِّي». [المغازي للواقدي ٢/٦٠٠].

### عمر بن الخطاب ﷺ يعتذر عن الوساطة:

«ثم إنه ﷺ حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى بإرسال رسول يفاضهم؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب ﷺ كي يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧٩].

رأى النبي الأعظم ﷺ أن يتدب عمر بن الخطاب ﷺ ليكون مبعوثه الخاص إلى قريش يدعوها إلى السلام، وطرح فكرة الحرب جانبًا.

فاستدعى الرسول ﷺ عمر وأبلغه بأنه يرغب في أن يكون رسوله إلى قريش؛ ليعرض عليهم من جديد نفس العرض السلمي الذي حمله إليهم خراش بن أمية، فلم يتمكن من إبلاغهم إياه لمحاولتهم الفتك به قبل أن يفاتحهم بشأن هذا العرض.

غير أن عمر بن الخطاب ﷺ اعتذر للنبي ﷺ عن القيام بهذه المهمة، وأعطى لهذا الاعتذار مبررات معقولة جدًا، وهي شدة العداوة التي بين عمر بن الخطاب وبين المشركين، وضعف عصبية القبيلة بين قريش.

عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَا: ... فَدَعَا عُمَرُ   لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، [فَيَبْلُغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ]، فَقَالَ (مَعْتَذِرًا): يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِهَا [بِمَكَّةَ] مِنْ بَنِي عَدِيٍّ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عِدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَذْكَكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ مِنِّي (يعني في قومه بمكة): عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، السيرة لابن هشام ٣١٥/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ   عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ   لِيَبْعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، قَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عِدَاوَتِي لَهَا، وَلَيْسَ بِهَا مِنْ بَنِي عَدِيٍّ مَنْ يَمْنَعُنِي، وَإِنْ أَحْبَبْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ.

فَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ   شَيْئًا، قَالَ عُمَرُ  : وَلَكِنْ أَذْكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ أَعَزُّ بِمَكَّةَ مِنِّي، وَأَكْثَرُ عَشِيرَةً وَأَمْنَعُ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ». [المغازي للواقدي ٦٠٠/٢].

فَقَبِلَ النَّبِيُّ   اعْتِدَارَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ  ، وَاسْتَصَوَّبَ مَشُورَتَهُ بِشَأْنِ إِسْرَافِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ   مَبْعُوثًا خَاصًّا إِلَى قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ   عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ  ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَإِنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ». [السيرة لابن هشام ٣١٥/٢].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ   عُثْمَانَ   فَقَالَ: «أَذْهَبْ إِلَى قُرَيْشٍ، فَخَبِّرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا زَوَارًا لِهَذَا الْبَيْتِ، مُعْظَمِينَ لِحُرْمَتِهِ، مَعَنَا الْهَدْيُ نُنْزِرُهُ وَنَنْصَرِفُ».

[المغازي للواقدي ٦٠٠/٢].

فَصَدَعَ عُثْمَانَ   بِأَمْرِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ  ، وَفِي ذَلِكَ الْجَوِ الْمَكْهَرِبِ الْمَشْحُونِ بِالتَّوْتَرِ الشَّدِيدِ تَوَجَّهَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ لِيَبْلُغَ سَادَاتَهَا حَقِيقَةَ مَوْقِفِ النَّبِيِّ   وَنَوَايَاهَا السَّلِيمَةَ الْمُحْضَةَ، فِي رِسَالَةٍ - بَعْضُهُمْ يَقُولُ خَطِيبَةً، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ شَفْوِيَّةً - حَمَلَهَا عُثْمَانُ   إِلَى سَادَاتِ قُرَيْشٍ وَزَعَائِمِهَا. [صلح الحديبية لباشمیل ١٩٢].

### المبعوث النبوي عثمان  :

يقول أ/ باشمیل: «بالرغم من محاولات إحلال السلام التي بذلت جدًّا - بنية صادقة - من قِبَلِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ  ، وَمِنْ قِبَلِ بَعْضِ الْوَسْطَاءِ الْآخَرِينَ، فَقَدْ ظَلَّ الْمَوْقِفُ فِي الْحَدِيبَةِ وَفِي بَلَدِ (هُوَ الْوَادِي الَّذِي كَانَتْ قُرَيْشٌ فِيهِ بِجِيوشِهَا أَثْنَاءَ أَزْمَةِ الْحَدِيبَةِ) مَتَوْتِرًا بَلْ زَادَهُ تَوْتَرًا، أَنْ قَامَ سَبْعُونَ مِنْ سَفَهَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّسْلِ - لِيَلَّا - إِلَى مَعْسَكِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَدِيبَةِ لِلْعُدْوَانِ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ  . وَلَكِنَّ النَّبِيَّ   وَهُوَ سَيِّدُ الْحُكَمَاءِ وَإِمَامُ الْعُقَلَاءِ لَمْ يَغْلُقْ بَابَ الْأَمَلِ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى حَلٍّ سَلْمِيٍّ لِهَذِهِ الْأَزْمَةِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي بَدَتْ مَوْشَرَاتُهَا تَشِيرُ إِلَى أَنَّهَا سَتَتَحَوَّلُ إِلَى حَرْبٍ ضَرُورٍ لَا تَبْقَى وَلَا تَذُرُ، حَرْبٍ أَعْلَنَ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ   أَنَّهُ سَيَعْمَلُ عَلَى تَجْنِبِهَا مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

كان النبي ﷺ - ليؤكد لأهله وعشيرته نواياه السلمية في مجيئه هذا - قد بعث حال نزوله الحديبية بمبعوث خاص إلى قريش، يبلغها - وهي في بلدح - هذه النوايا وينصحها بالتعقل والتخلي عن فكرة الحرب، وكان مبعوثه الخاص هذا - كما تقدم - هو خراش بن أمية الكعبي ثم الخزاعي ﷺ.

غير أن الحمية الجاهلية والعنجهية الوثنية لم تترك فرصة لسادات مكة لينظروا بتعقل في العرض السلمي النبوي الذي حمله إليهم مبعوثه الخاص، فلم يكتفوا برفض هذا العرض السلمي وعدم النظر فيه، بل حاول سفهاؤهم قتل حامله خراش بن أمية ﷺ، بمجرد أنه جاء يحمل هذا العرض، فعاد المبعوث النبوي الأول دون أن يتمكن من إبلاغ قريش هذا العرض السلمي، وقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، ابعث رجلاً - امنع مني - أي أقوى وأكثر عصبية بين قريش.

ولما كانت فكرة السلام في هذه الأزمة الخطيرة تحتل المقام الأول في ذهن النبي الأعظم ﷺ بين الحلول التي يمكن اتباعها فقد قام من جانبه، بالرغم مما أقدمت عليه قريش من حماقات واستفزازات طويلة البضعة عشر يوماً التي مرت على الأزمة، قام من جانبه النبي ﷺ بمحاولة سلمية أخرى، وكانت هذه المحاولة الجديدة عن طريق مبعوث خاص آخر بعث به إلى قريش في معسكرها بوادي بلدح وفي مكة ذاتها. [صلح الحديبية لباشمیل ١٨٩-١٩١].

يقول د/ الحكمي: وفي حديث المسور ومروان من طريق ابن إسحاق أيضاً بعد قصة خراش ﷺ قال: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتَ مُعْطِيًا حُرْمَتَهُ. فَخَرَجَ عُثْمَانُ ﷺ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ، وَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَتَزَلَّ عَنْ دَابَّتِهِ، وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَرَدَفَ (الراكب خلف الراكب) خَلْفَهُ، وَأَجَارَهُ حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ ﷺ حَتَّى أَتَى أَبَا سَفْيَانَ وَعُظْمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ، فَقَالَ ﷺ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: فَاحْتَبَسْتَهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ قَدْ قُتِلَ...».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وفي حديث سلمة بن الأكوع ﷺ من طريق موسى بن عبيدة الرديي قال: قَالَ إِيَّاسُ، عَنْ أَبِيهِ: فَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ عَلَى مَنْ كَانَ فِي يَدِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ ﷺ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ، هَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي إِخْوَانِكَ مِنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ: لَا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا لِي بِمَكَّةَ مِنْ عَشِيرَةٍ (عشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون أو قبيلته)، غَيْرِي أَكْثَرُ عَشِيرَةٍ مِنِّي، فَدَعَا عُثْمَانَ ﷺ فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ عُثْمَانُ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، حَتَّى جَاءَ عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ، فَعَبَثُوا بِهِ، وَأَسَاؤُوا لَهُ الْقَوْلَ، ثُمَّ أَجَارَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، ابْنَ عَمِّهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى السَّرِجِ (رحل الدابة)، وَرَدَفَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: يَا بَنَ عَمِّ، مَا لِي أَرَاكَ مُنْحَشَفًا؟

(أي ما لي أراك لابسا الثياب الخلقية) أُسْبِلْ (فعل أمر من إسبال الثوب)، قَالَ: وَكَانَ إِزَارُهُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ ؓ: هَكَذَا إِزْرُهُ صَاحِبِنَا، فَلَمْ يَدْعُ أَحَدًا بِمَكَّةَ مِنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/٤١٢-٤١٣ رقم ٣٨٠٠٧].

هذا الحديث في سنده موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف، لكن هذا الجزء منه يتقوى بحديث المسور ومروان السابق، وهو حسن.

وقد أخرجه البيهقي عن عروة مرسلًا، قال: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ؓ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلَانَةَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لُحَيْعَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي نَزُولِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْحَدِيثِ قَالَ: وَفَزَعَتْ قُرَيْشٌ لِنَزُولِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ لِيَبْعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَا أَتَمْنُهُمْ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي كَعْبٍ يَغْضَبُ لِي إِذَا أُودِيتُ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ ؓ؛ فَإِنَّ عَشِيرَتَهُ بِهَا وَإِنَّهُ مُبْلَغٌ لَكَ مَا أَرَدْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ؓ فَأَرْسَلَهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَقَالَ: «أَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عَمَّارًا، وَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا بِمَكَّةَ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ فَيَدْخُلَ عَلَيْهِمْ وَيُشِيرَهُمْ بِالْفَتْحِ وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ وَشَيْكَ أَنْ يَظْهَرَ دِينَهُ بِمَكَّةَ حَتَّى لَا يُسْتَخْفَى فِيهَا بِالْإِيمَانِ تَشِيئًا يُشْتَهُمْ، فَاَنْطَلَقَ عُثْمَانُ ؓ فَمَرَّ عَلَى قُرَيْشٍ بِبَلَدَحَ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: أَيْنَ؟ فَقَالَ: بَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ لِادْعَوْكُمْ إِلَى اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُخْبِرْكُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ وَإِنَّمَا جِئْنَا عَمَّارًا، فَدَعَاهُمْ عُثْمَانُ ؓ كَمَا أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ فَاَنْفُذْ لِحَاجَتِكَ، وَقَامَ إِلَيْهِ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، فَرَحَّبَ بِهِ، وَأَسْرَجَ قَرَسَهُ، فَحَمَلَ عُثْمَانُ ؓ عَلَى الْفَرَسِ، فَأَجَارَهُ (أجار جوارًا وإجارة: أخذ العهد والأمان لغيره، ومنه معاني الحماية والحفظ والضمان والمنع) وَرَدَّاهُ (الراكب خلفه) أَبَانُ، حَتَّى جَاءَ مَكَّةَ، ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا بُدَيْلَ بْنَ وَرْقَاءَ الْخَزَاعِيَّ، وَأَخَا بَنِي كِنَانَةَ، ثُمَّ جَاءَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّقْفِيُّ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَمَا قَالُوا وَقِيلَ لَهُمْ، وَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ: إِنَّمَا جَاءَ الرَّجُلُ وَأَصْحَابُهُ عَمَّارًا فَحَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَلْيَطُوفُوا، فَشَتَمُوهُ، ثُمَّ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَحُوَيْطَبَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى، وَمَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، لِيُصْلِحُوا عَلَيْهِمْ فَكَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَدَعَوْهُ إِلَى الصُّلْحِ وَالْمُؤَادَعَةِ، فَلَمَّا لَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُمْ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الصُّلْحِ وَالْمُؤَادَعَةِ، وَقَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَرَاوَرُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ وَطَوَّافٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَشْرِكِينَ لَا يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَسْتَظِرُّونَ الصُّلْحَ وَالْهُدَنَةَ، إِذْ رَمَى رَجُلٌ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ رَجُلًا مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ فَكَانَتْ مُعَارَكَةً وَتَرَامَوْا بِالْبَبْلِ (السهم) وَالْحِجَارَةِ، وَصَاحَ الْفَرِيقَانِ كِلَاهُمَا، وَارْتَمَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَنْ فِيهِمْ، فَارْتَهَنَ الْمُسْلِمُونَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، وَارْتَهَنَ الْمَشْرِكُونَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ؓ وَمَنْ كَانَ

أَتَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ (البَيْعَةُ وَالْمَبَايَعَةُ: عبارة عن المُعَاقَدَةِ وَالْمُعَاهَدَةِ عَلَى الْأَمْرِ كَأَن كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَاعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ صَاحِبِهِ وَأَعْطَاهُ خَالِصَةً نَفْسِهِ وَطَاعَتَهُ وَدَخِيلَةً أَمْرَهُ)، وَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلَا إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ، فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَبَايَعُوا (المبايعة: إعطاء المبايع العهد والميثاق على السمع والطاعة وقبول المبايع له ذلك)، فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايَعُوهُ عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا أَبَدًا، فَرَعَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَأَرْسَلُوا مَنْ كَانُوا أَرْهَنُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعَوْا بِالْمُؤَادَعَةِ وَالصُّلْحِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثُ فِي كَيْفِيَّةِ الصُّلْحِ وَالتَّحَلُّلِ مِنَ الْعُمْرَةِ، قَالَ: وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ: خَلَصَ عُثْمَانُ مِنْ بَيْنِنَا إِلَى الْبَيْتِ فَطَافَ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْضَرُونَ»، قَالُوا: وَمَا يَمْنَعُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ خَلَصَ، قَالَ: «ذَلِكَ ظَنِّي بِهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ حَتَّى يَطُوفَ مَعَنَا»، فَجَعَلَ إِلَيْهِمْ عُثْمَانُ ﷺ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: اشْتَقَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ: نَفْسٌ مَا ظَنَنْتُمْ بِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ مَكُنْتُ بِهَا مُقِيمًا سَنَةً، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِيمٌ بِالْحُدَيْبِيَّةِ مَا بِهَا حَتَّى يَطُوفَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ دَعَنْتَنِي قُرَيْشٌ إِلَى الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ فَأَبَيْتُ (أبَى: رفض وامتنع)، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَعْلَمَنَا بِاللَّهِ وَأَحْسَنَنَا ظَنًّا. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣٣-١٣٥].

هذا الأثر مرسل، وفي سنده ابن لهيعة ضعيف، وأبو علاثة لم أجد ترجمته لكن أصله ثابت من حديث المسور ومروان السابق دون ما في آخره. [مرويات الحديبية للحكمي ٢١٦].

### محاولة الاعتداء على عثمان ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «ولم يكن ابن الخطاب ﷺ مخطئًا في تقديراته بأن قريش لن تتورع عن الفتك بمن تجده من أصحاب النبي ﷺ حتى ولو كان عند أستار الكعبة.

لقد اجتاز عثمان بن عفان ﷺ حدود الحرم بمفرده قاصدًا مكة غير مبال بخطر الموت الذي قد يتعرض له على أيدي السفهاء من قريش، وفعلاً كاد المشركون المتهورون أن يقتلوا عثمان ﷺ لولا أن أجاره أحد أفراد قبيلته العزيزة في مكة، ففي ضواحي مكة وفي وادي (بلدح) التقى عثمان بدورية مسلحة من فرسان قريش فكدوا أن يفتكوا به لولا وجود أبان بن سعيد بن العاص بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الذي كان ضمن رجال الدورية.

### عثمان ﷺ في معسكر قريش ببلدح:

ففي أطراف معسكر التجمع القرشي في وادي (بلدح) غربي مكة، التقت دورية مسلحة من فرسان قريش بعثمان ﷺ، فحاولوا الفتك به بعد أن عرفوه، لولا أن أبان بن سعيد بن العاص الأموي كان بينهم، فحال بين رجال الدورية وبين الاعتداء على عثمان ﷺ، حيث أعلن حمايته لابن عمه إذ نادى: يا معشر قريش إن عثمان بن عفان في جوارحي، فكفوا عن عثمان.

قال الكلاعي: «فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَانَ ﷺ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ، فَخَرَجَ عُمَانُ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَجَارَهُ. وَقَالَ لَهُ فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ ابْنِ إِسْحَاقَ:

أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا      بَنُو سَعِيدٍ أَعَزَّةُ الْحَرَمِ

[الاكتفاء للكلاعي ٤٦٧/١، وإمتاع الأسباع للمقريزي ٢٨٩/١].

### قيمة الجوار في الجاهلية:

وهذا الإعلان من أبان بن سعيد كاف لأن يشل أي يد يريد صاحبها أن يمس عثمان بن عفان ﷺ بسوء، ذلك أن قانون الجوار عند العرب في الجاهلية - وهو قانون غير مكتوب - له مكان القداسة، يُجمعون على احترامه والعمل به، ولا يخرق هذا القانون إلا الذي لا يبالي أن يُعرض نفسه وقبيلته لحرب ضروس مدمرة.

فقد كان المتعارف عليه أن من حق أي فرد في القبيلة أن يعطي جواره ويعلن حمايته لأي إنسان أراد، وإذا ما فعل ذلك، فإن قبيلة المجير تصبح - تلقائيًا - ملزمة بتحمل مسؤولية هذا الجوار، وهي حماية الإنسان الذي يجيره الفرد المتسبب إليها.

وحسب قواعد قانون الجوار هذا كف رجال الدورية القرشيون عن عثمان بن عفان ﷺ؛ لأنهم يعرفون أن التعرض له بسوء سيعرضهم لمناعب ومصاعب عديدة بعد أن أصبح - بإعلان هذا الجوار - في حماية بني عبد شمس جميعًا، وهي قبيلة لها ثقلها العظيم بين القبائل القرشية.

### اجتماع عثمان ﷺ بسادات المشركين في بلدح:

وفي وادي (بلدح) خارج مكة حيث تعسكر قريش وحلفاؤها بقواتهم الضاربة، اجتمع عثمان بن عفان ﷺ بقيادة قريش وأبلغهم الرسالة التي كلفه النبي ﷺ أن يبلغهم إياها، والمتضمنة تخييرهم بين أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، وإما إقامة سلام بينهم وبين المسلمين، وترك النبي ﷺ وسائر العرب، على أن يلتزم القرشيون الحياد التام إزاء أي صراع دام ينشب بين النبي ﷺ، وبقية مشركي العرب، كما تضمنت الرسالة أيضًا إبلاغ قريش رسميًا أن النبي ﷺ لم يأت للحرب ولا رغبة له فيها، وإنما جاء معتمرًا، وأنه فور انتهائه وأصحابه من نحر الهدي وإكمال مناسك العمرة سيغادرون مكة عائدين إلى المدينة.

ولكن قريشًا رفضت كل هذه الحلول السلمية التي تضمنتها الرسالة النبوية الكريمة وأصرروا على التثبت بموقفهم المتعنت. [صلح الحديبية لباشميل ١٩٣-١٩٥].

## خلاصة الرسالة النبوية إلى قريش:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَخَرَجَ عَثْمَانُ ﷺ حَتَّى أَتَى بَلَدَ، فَبَجِدُ قُرَيْشًا هُنَالِكَ فَقَالُوا: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ تَدْخُلُونَ فِي الدِّينِ كَافَّةً، فَإِنَّ اللَّهَ مُظَهِّرُ دِينِهِ وَمُعِزُّ نَبِيِّهِ، وَأُخْرَى تَكْفُونُ، وَيَلِي هَذَا مِنْهُ غَيْرُكُمْ، فَإِنْ ظَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَذَلِكَ مَا أَرَدْتُمْ، وَإِنْ ظَفَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ كُنْتُمْ بِالْخِيَارِ أَنْ تَدْخُلُوا فِيهِ دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، أَوْ تَقَاتِلُوا وَأَنْتُمْ وَافِرُونَ جَاثُونَ، إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ تَهَكَّتْكُمْ وَأَذْهَبَتْ بِالْأَمْثَالِ مِنْكُمْ! وَأُخْرَى، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، إِنَّمَا جَاءَ مُعْتَمِرًا، مَعَهُ الْهُدْيُ عَلَيْهِ الْقَلَانِدُ يَنْحَرُهُ وَيَنْصَرِفُ.

فَجَعَلَ عَثْمَانُ ﷺ يُكَلِّمُهُمْ فَيَأْتِيهِمْ بِمَا لَا يُرِيدُونَ، وَيَقُولُونَ: قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ، وَلَا كَانَ هَذَا أَبَدًا، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُوءٌ، فَارْجِعْ إِلَى صَاحِبِكَ فَأَخْبِرْهُ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْنَا». [الغازي للواقدي ٦٠٠/٢-٦٠١].

## عثمان ﷺ في مكة:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن أبلغ عثمان رسالة النبي ﷺ إلى كبار قادة قريش الموجودين في المعسكر بوادي (بلدح) قرر أن يتوجه إلى مكة نفسها ليبلغ الرسالة النبوية من لم يكن حاضراً في بلدح» من سادات قريش.

وعندما علم أبان بن سعيد - مجير عثمان - برغبة ابن عمه في دخول مكة قرر أن يكون في صحبته ليعرف الناس أنه في جواره فلا يعتدي عليه أحد، فقد أحضر أبان فرسه وأردف عثمان ﷺ خلفه ثم انطلق به نحو مكة، ولما وصل مكة رأى الناس عثمان ﷺ وكانوا يعرفونه، وكانت رغبتهم جامحة في أن يفتكوا به كأحد الأركان من أصحاب محمد ﷺ، ولكنهم لما رأوه رديفاً لأبان بن سعيد بن العاص على فرسه، عرفوا أنه في جواره فكفوا عن أذاه على مضض.

وفي مكة أبلغ أبان بن سعيد عثمان بن عفان ﷺ بأن له مطلق الحرية أن يبقى في مكة أية مدة يشاء، وأن يذهب فيها إلى حيث يشاء، وأن يتصل بمن يشاء من سادات مكة ممن لم يكن قد اجتمع بهم في بلدح.

## عثمان ﷺ عند أبي سفيان:

ولما كان أبو سفيان بن حرب هو سيد بني أمية وكل عبد شمس وزعيم قريش الكبير، فقد نزل أبان بن سعيد بعثمان ﷺ عليه في داره، فاستقبل أبو سفيان عثمان ﷺ فيها.

وكان أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وزعماء قرشيون آخرون غير حاضرين في معسكر قريش (ببلدح) حين بلغ عثمان ﷺ وجوه القوم وقادتهم رسالة النبي ﷺ.

ولذلك اجتمع عثمان ﷺ بهؤلاء الزعماء - صفوان بن أمية وأبي سفيان بن حرب وبقية الزعماء - في مكة فأبلغهم رسالة النبي ﷺ وقال لهم مثلما قال لزملائهم من الزعماء والقادة في وادي بلدح.



ولكن جواب أبي سفيان وصفوان وبقية الزعماء في مكة لم يكن يختلف عن القادة الذين في معسكرهم ببلدح، حيث كان جوابهم في مكة الرفض الكامل لكل ما جاء في الرسالة النبوية جملة وتفصيلاً.

[صلح الحديبية لباشمیل ١٩٦-١٩٧].

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَقَامَ إِلَيْهِ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، فَرَحَّبَ بِهِ وَأَجَارَهُ، وَقَالَ لَا تُقْصِرْ عَنْ حَاجَتِكَ، ثُمَّ نَزَلَ عَنْ فَرَسٍ كَانَ عَلَيْهِ فَحْمَلُ عُمَانَ عَلَى السَّرَجِ وَرَدَفَهُ وَرَاءَهُ، فَدَخَلَ عُثْمَانُ مَكَّةَ، فَأَتَى أَشْرَافَهُمْ رَجُلًا رَجُلًا، أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَغَيْرَهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ بِلَدْحٍ وَمِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ بِمَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَرُدُّونَ عَلَيْهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا أَبَدًا!». [المغازي للواقدي ٦٠١/٢].

### قريش تطلب من عثمان ﷺ أن يطوف فيرفض:

ولما كان عثمان ﷺ في ضيافة قومه بني أمية وفي جوارهم لم يجرؤ أحد من المشركين على التعرض له بأي أذى، بل صاروا يتوددون إليه، فقد قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، وما كانوا ليقولوا له ذلك لولا أنه في جوار بني عبد شمس وحماتهم، غير أن عثمان ﷺ رفض عَرَضَ القرشيين.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَصَلَ عُثْمَانُ إِلَى الْبَيْتِ فَطَافَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ عُثْمَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْضَرُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا يَمْنَعُهُ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى الْبَيْتِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ظَنِّي بِهِ أَلَّا يَطُوفَ حَتَّى نَطُوفَ»، فَلَمَّا رَجَعَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: اسْتَفْتَيْتَ مِنَ الْبَيْتِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، قَالَ عُثْمَانُ ﷺ: بِئْسَ مَا ظَنَنْتُمْ بِي! لَوْ كُنْتُ بِهَا سَنَةً وَالنَّبِيُّ مُقِيمٌ بِالْحَدِيبَةِ مَا طُفْتُ، وَلَقَدْ دَعَنِي قُرَيْشٌ إِلَى أَنْ أَطُوفَ فَأَبَيْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَعْلَمَنَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنَنَا ظَنًّا». [المغازي للواقدي ٦٠١/٢-٦٠٢].

### مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة:

وقد انتهز مبعوث النبي ﷺ إلى قريش عثمان بن عفان ﷺ فرصة وجوده في مكة والحرية الكاملة التي أعطيت له في ظل جوار قومه بني أمية المشركين، انتهز فرصة وجوده هذه، فقام بزيارة المستضعفين المسلمين من النساء والرجال الذين ظلوا يعيشون داخل المجتمع القرشي المشرك في مكة؛ لعدم تمكنهم من الهجرة واللحاق بالمسلمين في المدينة، إما لكونهم من النساء، وإما لكونهم من الذين لا عصبية لهم في قريش تحميهم من الاضطهاد، كالموالي أو كالأفراد الذين استوطنوا مكة وهم ليسوا من أهلها.

فقد قام عثمان ﷺ بزيارة المستضعفين المسلمين في مكة فرداً فرداً، وبشّرهم بأن عهد التخلص من الظلم الوثني قد أزف وأن اليوم الذي يكونون فيه أحراراً لا يستخفون فيه بدينهم من أحد بمكة لقريب جداً، وقد كان هذا التبشير ضمن رسالة خاصة حملها عثمان ﷺ إلى هؤلاء المستضعفين من النبي محمد ﷺ.

فقد قال عثمان رضي الله عنه - فيما يرويه المحدثون عنه ضمن قصة سفارته إلى قريش: «ثُمَّ كُنْتُ أَذْخُلُ عَلَى قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُسْتَضْعَفِينَ، فَأَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَشِّرُكُمْ بِالْفَتْحِ، وَيَقُولُ: أُظِلُّكُمْ حَتَّى لَا يَسْتَحْفِي بِمَكَّةَ الْإِيمَانُ، فَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ وَالْمَرْأَةَ تَتَجَبَّحُ حَتَّى أَظُنُّ أَنَّهُ يَمُوتُ فَرَحًا بِمَا خَبَرْتُهُ، فَيَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُخْفِي الْمَسْأَلَةَ وَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيَقُولُونَ: اقْرَأْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَّا السَّلَامَ، إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِالْحَدِيثِ لَقَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَهُ بَطْنَ مَكَّةَ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠١].

**عرض قريش على ابن أبي أن يطوف:**

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «حَدَّثَنِي جَابِرُ بْنُ سُلَيْمٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ: فَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَرْسَلَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَدْخُلَ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فافْعَلْ، وَإِنَّمَا جَالِسٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتِ، أَذْكَرُكَ اللَّهُ أَنْ تَفْضَحَنَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ! تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَطُفْ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَأَبَى ابْنُ أَبِي وَقَالَ: لَا أَطُوفُ حَتَّى يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلَامَهُ ذَلِكَ فَسَرَّ بِهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٥].

## المبحث العاشر

## بيعة الرضوان

إِشَاعَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «لقد مضى على المسلمين في سهل الحديبية حوالي عشرين يومًا وهم محصورون ممنوعون من دخول الحرم.

وكانوا طيلة هذه الأيام مُحْرَمِينَ، لا يَقْلَمُونَ ظَفَرًا ولا يَقْطَعُونَ شَعْرًا ولا يَمْسُونَ طَبِيبًا، ولا يَقْرَبُونَ امرأةً، قد شعت واتسخ شعرهم وقمل بعضهم، لطول بقائهم مُحْرَمِينَ، ولا يخفى ما في طول المكث بالإحرام من مشقة نفسية وجسدية على المُحْرَم.

ولا شك أن صحة الكثير منهم باتت معرضة للخطر، نتيجة هذا الحبس والإحصار الذي لا مبرر له، والذي نالهم بسبب تهديد قريش باستخدام السلاح ضد المسلمين والدخول معهم في حرب ضروس إن اجتازوا حدود الحرم، حربٌ ما كان مخففُ آلام البشرية ومنقذ الإنسانية والداعية الأول للسلم والمحبة والسلام، راغبًا فيها بل حريصًا كل الحرص على تجنبها؛ ولذلك لم تكن واردة ضمن برنامجهم منذ تحرك في رحلته الروحية السلمية من المدينة، والتي كان شعارها الوحيد: «إننا لم نأت لقتال أحد إنما جئنا لنطوف بهذا البيت»، كلمة يردد النبي ﷺ معناها في كل مناسبة وهو في رحلته السلمية هذه.

لقد بذل النبي ﷺ - بروحه السمحة العالية المحبة للسلم، والكارهة للحرب - بذل كل ما وسَّعَهُ لإحلال السلام بينه وبين قومه وعشيرته، وإبعاد شبح الحرب البغيض التي بدل واضحًا أن كبرياء سفهاء قريش الوثنية تنوق إلى إشعال نيرانها، ظنًا من هؤلاء السفهاء أنهم بخوضهم هذه الحرب ضد المسلمين بالقرب من مكة قد يستعيدون ما فقدوه من كرامة عسكرية في بطاح بدر وسمعة حربية وسياسية عند مشارف الخندق قرب أسوار المدينة.

بذل النبي الأعظم ﷺ كل ما في وسعه ليجنب أصحابه المؤمنين في الحديبية، وقومه وعشيرته المشركين في مكة شرور وويلات هذه الحرب، وذلك في مختلف العروض السلمية البناءة الهادفة، التي تقدم بها إلى أهلها وعشيرته في مختلف المواقف والمناسبات.

عرضها للوسطاء الذين بعث بهم قريش لمفاوضته ومناقشته، بل وبعث بها إلى زعماء قريش في مكة سفراء من خاصته وبطانته؛ لعله ينجح في إقناع قريش بالجنوح إلى السلم، والتخلي عن فكرة الحرب التي لم يكن لدى قريش من مبرر لها أو موجب، لا سيما وأن سادات مكة قد تبلغوا - بما لا يدع مجالاً للشك - أن النبي ﷺ وأصحابه لم يأتوا للحرب ولم تكن لهم أية رغبة فيها، بدليل أن كل شيء في مخيماتهم بالحديبية يدل على أنه ليس بينهم أية علامة تدل على نية للحرب، وإنما كل شيء يشير - كما شهد بذلك رسل قريش ووسطاؤها والمحايدون الذين قاموا بزيارة المسلمين في معسكرهم - إلى السلم والسلم فقط.

### تضاييق المسلمين من طول المكث:

لقد بدا واضحاً أن المسلمين باتوا متضايقين لطول مكثهم في الحديبية دونما الوصول إلى حلٍّ يدخلون بموجبه مكة لأداء مناسك العمرة والتحلل من إحرامهم الذي أجبرهم بغي قريش وشططها على الالتزام بموجباته الشاقة حوالي عشرين يوماً.

وأخذت حدة التوتر تتزايد نتيجة تضاييق المسلمين من طول الاحتباس في الحديبية، ونتيجة استمرار قريش في تمسكها بموقفها المتعنت المتصدق، رغم العروض السلمية العادلة المتصفة التي عرضها النبي ﷺ على سادات مكة حقناً للدماء والمتضمنة أن توافق قريش على السماح للمسلمين بزيارة البيت على أن يغادر هؤلاء مكة إلى المدينة بمجرد تحللهم من إحرامهم المتلبسين به منذ خروجهم من المدينة.

### المسلمون واقتحام مكة بالقوة:

لقد كان رأي الصحابة رضي الله عنهم أن يقوموا باقتحام مكة وشق طريقهم إليها بحد السيف، ما دام أن جميع المحاولات السلمية الصادقة ظلت تُبذل من جانب النبي ﷺ طيلة حوالي عشرين يوماً دون أن تلقى من جانب القرشيين أية استجابة أو حتى تخفف غطرستهم وشططهم.

وكان بإمكان المسلمين أن يقتحموا مكة ويحتلوها بالرغم من الفارق الكبير بينهم وبين قريش في العدد، حيث إن القوات القرشية وحلفاءها يفوقون عدد المسلمين عدة أضعاف، ولكن التجارب في بدر وأُحُد والخندق وكل المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم أثبتت أن النصر دائماً ليس للكثرة الغامرة وإنما لمن يحمل العقيدة الصادقة.

غير أن المسلمين مع رغبتهم العارمة في دخول مكة وقدرتهم على اقتحامها بالقوة لكسر طوق الحصار الذي فرضته قريش عليهم بدافع من كبرياء الثنية والعنجهية الجاهلية ليس إلا، فإن هناك شيئاً واحداً قد قيدهم تقييداً كاملاً عن الإقدام على ما يريدون، وهو رغبة النبي الأعظم ﷺ - الذي يدرك ما لا يدركون - في تجنب القيام بأي عمل يكون من شأنه زيادة حدة التوتر والإسراع إلى إراقة الدماء.

وهكذا فإن النبي ﷺ إزاء كل ما أقدمت عليه قريش من حماقات تمثلت في استفزازاتها المسلمين والإصرار على اللجوء إلى السلاح لمنعهم من دخول الحرم، التزم ضبط النفس وكظم الغيظ، ولم يتسرع في الإقدام على أية خطوة من شأنها قدح شرارة الحرب التي أعلن - على لسان مبعوثيه الخاصين إلى قريش وأمام رسلها ووسطائها الذين زاروه في معسكره بالحديبية - كرهها وورغبته الأكيدة الصادقة في تجنبها، وأنها آخر ما يفكر فيه من الوسائل لإقناع قريش بالتسليم بحق النبي ﷺ وأصحابه في الطواف بالبيت وتركهم يباشرون هذا الحق.

### بيعة الرضوان نقطة التحول في حل الأزمة:

كان النبي ﷺ يعني كل كلمة يقولها عندما أعلن في اليوم الأول الذي نزل فيه بأصحابه الحديبية، بأنه قد استبعد نهائياً فكرة محاربة قومه عن طريق البدء بالهجوم، وأنه مستعد لفتح الحوار معهم، وعلى استعداد لقبول أية خطة سلام يعرضونها يكون فيها للحفاظ على صلة الرحم وصون حرمة الحرم عن سفك الدماء، حين قال: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي فُرَيْشَ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَّةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» [تاريخ الطبري ٦٢٤/٢]، وفي رواية: «وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونَنِي الْيَوْمَ خُطَّةً فِي تَعْظِيمِ حُرْمَةِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» [مغازي الواقدي ٥٨٧/٢]، ثم أمر أصحابه بالعودة حيث عسكروا في الحديبية وكان قد ترك الحديبية وأخذ في الاتجاه لاجتياز حدود الحرم، وكان ساعتها - وقبل أن يُدلي بهذا التصريح السلمي الهام - قد رسخ في أذهان أصحابه الألف والأربع مائة أنه سيستخدم السلاح لمقاتلة قريش في اليوم الأول من وصوله، إنْ هي حاولت التعرض له ومنعه من دخول مكة بالقوة؛ ولذلك استعد أصحابه للحرب تحسباً لأي طارئ، إلا أن تصريحه الهام هذا، وابتعاده بأصحابه عن حدود الحرم قد جعل نشوب الحرب بينه وبين قومه أمراً بعيد الاحتمال.

وقد ظلت فكرة السلم والبعد عن الحرب والحرص على صون دماء الفريقين من أن تُراق في حرم الله، هي السائدة لدى النبي القائد ﷺ؛ ولهذا فإنه ﷺ كُنِيَ جاء رحمه للعالمين أولاً، وكقائد حكيم يحرص على هداية قومه وصلة أرحامهم وأن يبرهم وإن عقوه ثانياً، ابتعد وأمر أصحابه بالابتعاد عن أية مزايدات كلامية أو تصريحات عنترية يكون من شأنها إلهاب الموقف والاقتراب بالفريقين إلى حافة حرب لم يأت لها ولا رغبة له فيها؛ ولهذا ظل ﷺ شعاره الرئيس دعوة قومه وعشيرته إلى السلام في كل حديث أو حوار يدور بينه وبينهم طيلة إقامته محصوراً في الحديبية.

فعل ذلك بالرغم من أن قومه من أهله وعشيرته لم يتركوا وسيلة من وسائل الاستفزاز والتحدي له ولأصحابه إلا واتبعوها، فملأوا الدنيا بالمزايدات الكلامية والتصريحات العنترية، واستنفروا حلفاءهم للحرب سفهاً وبطراً ورتاء الناس، وأخذوا فوق ذلك - في استفزاز ملهَب للأعصاب - يستعرضون - أمام النبي ﷺ وأصحابه - عضلاتهم العسكرية بإقامة استعراضات حربية لمختلف كتائب جيوشهم من خيالة ومشاة على مرمى الحجر من المسلمين، بل ذهبوا في سفههم إلى أبعد من ذلك، حيث تسللت عدة وحدات من فرسانهم إلى داخل معسكر المسلمين في الحديبية أثناء الظلام، بغية إثارة المسلمين واستدراجهم إلى الحرب التي لم يأتوا لها، ولن يكونوا خاسرين إذا ما خاضوها، ولكنها أوامر النبي الأعظم ﷺ الذي لا يصدر إلا عن أمر ربه.

### تحول المسلمين نحو الحرب، جعل قريشاً تطلب السلم:

وبالرغم من كل هذه الحماقات ظل النبي ﷺ شعاره هو هو، لم يتغير (الدعوة إلى السلام وحسن الدماء)، وظلت قريش من جهة أخرى ممعنة في غرورها وبطورها تهدد بالحرب وتصر على منع المسلمين من دخول مكة كانت النتائج.

غير أنه ظهر على سطح الأحداث فجأة حادث، أوجد تغييراً جذرياً في موقف المسلمين، جعلهم يتحولون من موقف الصبر والسلم إلى موقف الحرب، وذلك حينما اتخذ النبي ﷺ قراراً حاسماً بمحاربة قريش والدخول معها في معركة حاسمة.

الأمر الذي كان له من ناحية أخرى الأثر الحاسم في تبخير العنجهية من أدمغة سادات مكة واختفاء التصريحات العنترية والمزايدات الكلامية، وجعل سادات مكة يبحثون عن السلم بنفس الرغبة الملحة التي كانوا بها يسعون إلى الحرب.

وذلك عندما جاءت الفكرة وذهبت السكرة - كما يقول المثل - على أثر القرار الحاسم الذي اتخذته النبي ﷺ وأعلن بموجبه الاستنفار العام بين جميع وحدات جيشه المرابطة في الحديبية لتكون على أهبة الاستعداد لمناجزة المشركين بالزحف على مكة.

فقد عم الذعر صفوف المشركين وانتاب قاداتهم الخوف والفرع للقرار الحاسم الذي اتخذته النبي ﷺ بمحاربة قريش، وصار لذلك هم سادات المشركين محصوراً في إيجاد وسيلة لإبعاد شبح الحرب وإحلال السلام بين الفريقين، وهو ما ظل النبي ﷺ يدعو إليه صادقاً طيلة عشرين يوماً، وتأباه قريش وترفضه في غطرسة بغیضة.

فبعد أن كان النبي ﷺ يسعى في تحقيق السلام فبعث بالمبعوث تلو الآخر إلى قريش لتحقيق هذه الغاية، تغير الموقف عكساً وانقلبت قريش نفسها تسعى جاهدة طالبة إحلال السلام، وانتهت مساعيها - وهي لا تكاد تصدق - إلى إقامة صلح بينها وبين المسلمين تحقن بموجبه الدماء وتضع الحرب أوزارها لمدة عشر سنين، ويمكن المسلمين بموجبه من دخول مكة وزيارة البيت الذي حُرِّموا زيارته طوال سبع سنوات كاملة. [صلح الحديبية لباشمیل ٢٠٠-٢٠٦].

### سبب اتخاذ النبي ﷺ القرار بإعلان الحرب:

يقول د/ هيكل: «وطال الحديث، وطال احتباس عثمان ؓ عن المسلمين، وترامى إليهم أن قريشاً قتلت غيلة وغدرًا، ولعل سادة قريش كانوا في هذه الأثناء يبحثون مع عثمان ؓ عن صيغة توفيق بين قسَمهم ألا يدخل محمد ﷺ هذا العام مكة عنوة، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق

ويؤدوا إلى رب البيت فرضه، ولعلمهم قد أنسوا إلى عثمان ؓ وكانوا في هذه الأثناء يبحثون وإياه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد ؐ وتنظيم علاقات محمد ؐ بهم.

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان ؓ أشد القلق وتمثل أمامهم غدر قريش وقتلهم إياه في هذا الشهر الذي لا تجيز فيه أديان العرب جميعاً لعدو أن يقتل في حرم الكعبة ولا في حرم مكة عدوه، وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم في رسالة سلم وموادة، ووضع كلٌ منهم يده على قبضة سيفه؛ سمة النذير وسمة البطش والغضب، ودخل في روع النبي ﷺ أن قريشاً قتلت عثمان ؓ فغدرت في الشهر الحرام فقال: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٧٩-٣٨٠].

ويقول أ/ باشميل: «أما سبب التحول الفجائي الحاسم في موقف المسلمين نحو الحرب، فهو أن النبي ﷺ قد بعث كما تقدم (ضمن مساعيه السلمية) عثمان بن عفان ؓ إلى مكة لإبلاغ قريش حقيقة نوايا المسلمين السلمية، وأنهم لا يرغبون في الحرب، ومحاولة إقناع قريش بالتخلي عن مواقفها المتصلفة المشبعة بروح الحرب الظالمة؛ كي يُتاح للمسلمين أداء مناسكهم وإبلاغ الهدي محلّه.

وبينما كان عثمان بن عفان ؓ موجوداً في مكة بلغ النبي ﷺ - وهو في الحديبية - أن قريشاً بدلاً من أن تفهم نواياه السلمية وتحييه إلى ما دعا إليه من إقامة سلام بين الفريقين، عدّت على عثمان ؓ وعشرة من الصحابة كانوا معه في مكة فقتلوهم جميعاً. [صلح الحديبية لباشميل ٢٠٦-٢٠٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَخَرَجَ عُثْمَانُ ؓ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَجَارَهُ حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقَ عُثْمَانُ ؓ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظْمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ حِينَ فَرَعَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ: إِنَّ شَيْئًا أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ قَدْ قُتِلَ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/٢].

قَالَ الْوَلَوَائِدِيُّ: «وَكَانَ عُثْمَانُ ؓ بِمَكَّةَ قَدْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا يَدْعُو قُرَيْشًا، وَكَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ دَخَلُوا مَكَّةَ بِإِذْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَهْلِيهِمْ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُثْمَانَ وَأَصْحَابَهُ قَدْ قُتِلُوا، فَذَلِكَ حِينَ دَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ». [المغازي للواقدي ٦٠٢/٢].

يقول أ/ دويدار: «وهنا تغير الموقف، وتبدل الحال غير الحال، وصار لابد أن تُعالج المشكلة بطريقة أخرى، لقد أعلن رسول الله ﷺ نيته واضحة صريحة، وأظهر بالقول وبالفعل رغبته في السلم منذ أول لحظة خرج فيها من المدينة، ودعا قريشاً بكل وسائل اللين والموادة إلى أن تبادل هذه الرغبة، حقناً للدماء، وإبقاء على صلوات الرحم، وصيانة حرمة البيت والشهر الحرام، وأعذر إليهم من نفسه غاية

الإعذار، ولكن قريشاً ركبت رأسها وتجاوزت حدودها، حتى لم يبق في قوس الصبر منزع (أي: أن الصبر نفد، وأصبحت الحالة لا تطاق ولا تُعالج بالصبر بعد ذلك)، ولم يعد هناك بُدٌّ من أن تقابل القوة بالقوة وأن يُفْلَ الحديد بالحديد، وهنا قال ﷺ: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ!» ودعا المسلمين إلى مبايعته على القتال، فأسرع الناس يبايعونه حتى تداكؤا (تلاحموا وتداخل بعضهم في بعض من شدة تراحهم) ووطؤوا متاعهم، ثم لبسوا السلاح وتهيؤوا للحرب، وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها، وشدت سكيناً في وسطها». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٥٨].

### مُبايعةُ الرُّسُولِ ﷺ النَّاسَ عَلَى الْحَرْبِ<sup>(١)</sup>:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ بَلَغَهُ إِنَّ عُثْمَانَ ﷺ قَدْ قُتِلَ: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ»، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرُّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يُبَايِعْنَا عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/٢].

قَالَ الْوَلَوَائِدِيُّ: «قَالَتْ أُمُّ عِمَارَةَ: وَالرُّسُلُ تَخْتَلِفُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِي مَنْزِلِنَا، قَالَتْ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ حَاجَةً، فَإِذَا هُوَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَجَلَسَ فِي رِحَالِنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِالْبَيْعَةِ»، قَالَتْ: فَأَقْبَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَهُ فِي رِحَالِنَا، حَتَّى تَدَارَكَ النَّاسُ فَمَا بَقِيَ لَنَا مَتَاعٌ إِلَّا وَطِئٌ، وَرَوَّجَهَا غَزِيَّةُ بْنُ عَمْرٍو، وَقَالَتْ: فَبَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ.

قَالَتْ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَلَبَّسُوا السَّلَاحَ وَهُوَ مَعَنَا قَلِيلٌ، إِنَّمَا خَرَجْنَا عَمَّارًا، فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى غَزِيَّةِ بْنِ عَمْرٍو وَقَدْ تَوَشَّحَ بِالسَّيْفِ، فَقُمْتُ إِلَى عَمُودٍ كُنَّا نَسْتَظِلُّ بِهِ فَأَخَذْتُهُ فِي يَدِي، وَمَعِيَ سَكِينٌ قَدْ شَدَدْتُهُ فِي وَسْطِي، فَقُلْتُ: إِنَّ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ رَجَوْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ يُبَايِعُ النَّاسَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ آخِذٌ بِيَدِهِ، فَبَايَعَهُمْ عَلَى أَلَّا يَفِرُّوا، وَقَالَ قَائِلٌ: بَايَعَهُمْ عَلَى السَّيْفِ، وَيُقَالُ: أَوَّلُ النَّاسِ بَايَعَ سِنَانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَايَعُكَ عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ عَلَى بَيْعَةِ سِنَانِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ ﷺ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا عَلَى أَهْلِيهِمْ عَشْرَةً مِنْ الْمُهَاجِرِينَ: كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفَهْرِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُهَيْلٍ بْنِ عَمْرٍو، وَعَبَّاسُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ، وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَحَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَأَبُو حَاطِبٍ بْنُ عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الشَّمْسِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَافَةَ، وَأَبُو الرُّومِ بْنُ عُمَيْرٍ، وَعُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ الْجُمَحِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ وَهَبٍ حَلِيفُ سُهَيْلٍ فِي بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى».

[المغازي للواقدي ٦٠٣/٢].

(١) سيأتي في الدروس التربوية: «على أي شيء كانت البيعة؟».



ولم يسع النبي ﷺ - عندما بلغه مقتل عثمان رضي الله عنه وأصحابه على أيدي القرشيين - إلا أن يستنفر أصحابه ويدعوهم إلى مقاتلة المشركين، وذلك بأن دعاهم إلى مبايعته على الموت، بعد أن نزل الأمر بذلك من السماء.

وقد لبى أصحابه جميعاً (وعدهم ألف وأربعمائة) نداه فبايعوه تحت شجرة في الحديبية، فامتحهم الله تعالى وأثنى عليهم وأعلن رضاه عنهم، بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. وهذه هي بيعة الرضوان المشهورة.

### سبب هذه البيعة:

يقول د/ الحكمي: «اشتهرت هذه البيعة بيعة الرضوان لأن الله ﷻ أخبر أنه قد رضي عن أصحابها. عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: قَالَ سَلَمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا نَحْنُ قَائِلُونَ زَمَنَ الْحَدِيبَةِ، نَادَى مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّهَا النَّاسُ الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ، نَزَلَ رُوحُ الْقُدُسِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، قَالَ: فَتَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَمُرَةٍ، قَالَ: فَبَايَعْنَاهُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. [تفسير الطبري ط هجر ٢١/ ٢٧٤].

وأخرجه ابن أبي حاتم عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله بن موسى به نحوه. [تفسير ابن كثير ٤/ ١٩١].

سند هذا الحديث ضعيف لضعف موسى بن عبيدة، لكن يشهد له حديث جابر رضي الله عنه الذي رواه الترمذي، وسيأتي في علام كانت البيعة.

أما سبب هذه البيعة فما رواه ابن إسحاق قال: «فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قتل: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ»، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرُّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٣١٥].

وأخرجه ابن جرير والبيهقي كلاهما من طريق ابن إسحاق.

هذا الأثر مرسل وسنده إلى عبد الله بن أبي بكر حسن.

وأخرج البيهقي بسنده إلى عروة بن الزبير أثراً ذكر فيه سبب احتباس قريش لعثمان بن عفان رضي الله عنه: فبعد أن ذكر قدوم وفد قريش على رسول الله ﷺ للمفاوضة قال: فَكَلَّمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَدَعَوْهُ إِلَى الصُّلْحِ وَالْمُؤَادَعَةِ، فَلَمَّا لَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَهُمْ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ الصُّلْحِ وَالْمُؤَادَعَةِ، وَقَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَرَاوَرُّوا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ وَطَوَائِفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَشْرِكِينَ لَا يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

يَنْتَظِرُونَ الصُّلْحَ وَالْهُدْنَةَ، إِذْ رَمَى رَجُلٌ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ رَجُلًا مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ فَكَانَتْ مُعَارَكَةً وَتَرَامَوْا بِالنَّبْلِ وَالْحِجَارَةِ، وَصَاحَ الْفَرِيقَانِ كِلَاهُمَا، وَازْتَهَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَنْ فِيهِمْ، فَازْتَهَنَ الْمُسْلِمُونَ سَهْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَازْتَهَنَ الْمُشْرِكُونَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَمَنْ كَانَ أَتَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، وَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلَا إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ، فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَبَايعُوا، فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَبَايعُوهُ عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا أَبَدًا...». [دلائل النبوة ٤/ ١٣٤]. [مرويات الحديثية للحكمي ٢٤٣-٢٤٦].

### مكان البيعة:

يقول د/ الحكمي: «أخبر الله ﷺ أن تلك البيعة وقعت تحت الشجرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا ﷺ يُسْأَلُ: هَلْ بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ صَلَّى بِهَا، وَلَمْ يُبَايَعْ عِنْدَ الشَّجَرَةِ إِلَّا الشَّجَرَةُ الَّتِي لِلْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا دَعَا عَلَى بَنِي الْحُدَيْبِيَّةِ. [مسند أحمد ٢٢/ ٣٧٠ رقم ١٤٤٨٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

والشجرة المشار إليها هي سمرة، كما صرح بذلك حديث جابر ﷺ وغيره.

قال ابن سعد: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: شَجَرَةُ الرُّضْوَانِ فَيُصَلُّونَ عِنْدَهَا، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، فَأَوْعَدَهُمْ فِيهَا، وَأَمَرَ بِهَا فُقِطِعَتْ. [الطبقات الكبير ٢/ ٩٦ رقم ١٧٢٧].

وسند هذا الأثر صحيح كما ذكر ابن حجر. [فتح الباري ٧/ ٤٤٨]. [مرويات الحديثية للحكمي ٢٤٧-٢٥٢].

### مبايعة عمر وابنه عليه السلام:

عَنْ نَافِعٍ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ ﷺ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ ﷺ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنْ عُمَرُ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ ﷺ إِلَى فَرَسٍ لَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَأْتِي بِهِ لِيُقَاتَلَ عَلَيْهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ وَعُمَرُ لَا يَذِرِي بِذَلِكَ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْفَرَسِ فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ، وَعُمَرُ يَسْتَلِئِمُ (يلبس لأمه الحرب، وهي أداته) لِلْقِتَالِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَذَهَبَ مَعَهُ حَتَّى بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَهِيَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ.

[البخاري في المغازي (٤١٨٦)].

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ (هكذا أخرجه البخاري معلقًا، وذكر ابن حجر أن الإسماعيلي قد وصله، ينظر: فتح الباري ٧/ ٤٥٦): حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعُمَرِيُّ: أَخْبَرَنِي نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: أَنَّ

النَّاسَ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ تَفَرَّقُوا فِي ظِلَالِ الشَّجَرِ، فَإِذَا النَّاسُ مُحْدِقُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ<sup>(١)</sup>: يَا عَبْدَ اللَّهِ، انْظُرْ مَا شَأْنُ النَّاسِ قَدْ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَهُمْ يُبَايعُونَ فَبَايَعَهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عُمَرَ فَخَرَجَ فَبَايَعَهُ. [البخاري في المغازي (٤١٨٧)].

### ابن الخطاب ﷺ يمسك بيد الرسول ﷺ للمبايعة:

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ خَضِرَاءَ، وَقَدْ كَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ مُنَادِيَهُ فَنَادَى: إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَبَايَعُوا. قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: فَخَرَجْتُ مَعَ أَبِي وَهُوَ يُنَادِي لِلْبَيْعَةِ، فَلَمَّا قَرَعَ مِنَ النَّدَاءِ أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَخْبِرَهُ أَنِّي قَدْ أَذْنْتُ النَّاسَ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَرْجِعْ فَأَجِدْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ فَبَايَعْتَهُ الثَّانِيَةَ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِعُمَرَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَذِنَ لَهُ فَرَجَعَ، وَكَانَ يُمْسِكُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُبَايِعُ، فَلَمَّا نَظَرْتُ قُرَيْشٍ - سَهِيلُ بْنُ عَمْرِو، وَحُوَيْطُ بْنُ عَبْدِ الْعَزَى وَمَنْ كَانَ مَعَهُ وَعِيُونُ قُرَيْشٍ - إِلَى مَا رَأَتْ مِنْ سُرْعَةِ النَّاسِ إِلَى الْبَيْعَةِ وَتَسْمِيرِهِمْ إِلَى الْحَرْبِ اسْتَدْرَعَهُمْ وَخَوْفُهُمْ، وَأَسْرَعُوا إِلَى الْقَضِيَّةِ»

[المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٤].

### النبي ﷺ يبايع عن عثمان:

ولما كان عثمان بن عفان رضي الله عنه غائبا في سفارته إلى قريش بمكة، بايع عنه النبي ﷺ فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ رضي الله عنه رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَبَايَعَ النَّاسَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ»، فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ خَيْرًا مِنْ أَيْدِيهِمْ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا.

[الترمذي في المناقب (٣٧٠٢)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ: ضَعِيفٌ].

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتِ، فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ [الْفُقُودُ]؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنْ [هَذَا] الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، [فَاتَّاهُ] قَالَ: يَا بَنُ عُمَرَ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ [أَتُحَدِّثُنِي] قَالَ: أَتَشُدُّكَ [اللَّهُ] بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَتَعْلَمُ

(١) يظهر أن سبب إرسال عمر لابنه في هذا الحديث غير السبب المذكور في حديث نافع السابق، وقد جمع بينهما ابن حجر فقال: ويمكن الجمع بينهما بأنه بعثه يحضر له الفرس، ورأى الناس مجتمعين فقال له: انظر ما شأنهم فبدأ بكشف حالهم فوجدهم يبايعون فبايع وتوجه إلى الفرس فأحضرها وأعاد حينئذ الجواب لأبيه. فتح الباري ٧/ ٤٥٦.

فَحَدَّثَنِي هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ قَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ وَلَمْ يَشْهَدْ [فَلَمْ يَشْهَدْهَا]؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ [تَخَلَّفَ] عَنِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ [فَكَبَّرَ الْمُضَرِّيُّ]، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: تَعَالَى [لِأَخْبَرِكَ] أُبَيُّنَ لَكَ [عَمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ]: أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ [عِنْدَهُ] بِنْتُ [ابْنَةِ] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ مَرِيضَةً [عَلِيلَةً]، [وَأَيُّهَا مَرَضَتْ] فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ يَمِّنُ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمُهُ» [وَأَمْرُهُ أَنْ يَخْلُفَ عَلَيْهَا]، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه لَكَبَعْتُهُ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ رضي الله عنه إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «هَذِهِ لِعُثْمَانَ»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ. [البخاري في المناقب (٣٦٩٨)، وفي المغازي (٤٠٦٦)، والترمذي في المناقب (٣٧٠٦)، ومسند أحمد ١٠/٥٢، ٢١١ رقم ٥٧٧٢، ٦٠١١].

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عُثْمَانَ رضي الله عنه أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ [مِنَ الْقَصْرِ] حِينَ حَصَرُوهُ [وَهُوَ مَحْصُورٌ]، فَقَالَ: أَتَشُدُّ بِاللَّهِ رَجُلًا سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ الْجَبَلِ [حِرَاءٍ] حِينَ اهْتَزَّ، فَرَكَلَهُ بِرِجْلِهِ [بِقَدَمِهِ] وَقَالَ: «اسْكُنْ [حِرَاءً] فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ [شَهِيدٌ]»، وَأَنَا مَعَهُ، فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ، ثُمَّ قَالَ: أَتَشُدُّ بِاللَّهِ رَجُلًا شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ [إِذْ بَعَثَنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ] يَقُولُ: «هَذِهِ يَدُ اللَّهِ [يَدِي]، وَهَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»، [فَبَايَعُ لِي] فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ، ثُمَّ قَالَ: أَتَشُدُّ بِاللَّهِ رَجُلًا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جَنْشِ الْعُسْرَةِ يَقُولُ: «مَنْ يُنْفِقْ [الْيَوْمَ] نَفَقَةً مُتَبَقِّلَةً»، فَجَهَزْتُ نِصْفَ الْجَيْشِ مِنْ مَالِي، فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ، ثُمَّ قَالَ أَتَشُدُّ بِاللَّهِ رَجُلًا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَزِيدَ [يُوسِعَ لَنَا هَذَا الْبَيْتَ] فِي هَذَا الْمَسْجِدِ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»، فَاشْتَرَيْتُهُ [فَابْتَعْتُهَا] مِنْ مَالِي [فَوَسَّعْتُ بِهِ الْمَسْجِدَ]، فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ، ثُمَّ قَالَ: أَتَشُدُّ بِاللَّهِ رَجُلًا شَهِدَ رُومَةَ تَبَاعُ [تُبَاعُ] مَاوُهَا ابْنُ السَّيْلِ، فَاشْتَرَيْتُهَا [فَابْتَعْتُهَا] مِنْ مَالِي فَابْتَعْتُهَا لِابْنِ السَّيْلِ، فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ.

قال النسائي: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ الرَّحِيمِ قَالَ: حَدَّثَنِي زَيْدُ بْنُ أَبِي أَنَسَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلَمِيِّ قَالَ: لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ فِي دَارِهِ اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَ دَارِهِ قَالَ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ. [النسائي في الأحياس (٣٦٠٩)، (٣٦١٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح لغيره، مسند أحمد ١/٤٧٨ رقم ٤٢٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: «وَحَدَّثَنِي مَنْ أُنْتُ بِهِ عَنْ حَدَّثِهِ بِإِسْنَادٍ لَهُ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَرَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَايَعَ لِعُثْمَانَ رضي الله عنه فَضَرَبَ بِأُخْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٦].

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحِيارِ: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ قَالَ لَهُ: ابْنُ أَخِي! أَذَرَكْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: لَا، وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ وَالْيَقِينِ مَا يَخْلُصُ إِلَى الْعُذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، قَالَ: فَشَهِدْتُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَأَمِنَ بِمَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ هَاجَرْتُ الْهَجْرَتَيْنِ كَمَا قُلْتُ، وَنَلْتُ صَهْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَيْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ.

[مسند أحمد ١/ ٥٦١ رقم ٥٦١، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري].

### من هو أول من بايع بيعة الرضوان:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَذَكَرَ وَكِيعٌ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ أَبُو سَيَّانٍ الْأَسَدِيُّ ؓ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٦].

### تخلف الجند بن قيس عن المبايعة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَبَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إِلَّا الْجُدُّ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، فَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ؓ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا صِفًا يَبْطِئُ نَاقَتِهِ، قَدْ ضَبًّا (لصق بها واستتر) إِلَيْهَا، يَسْتَتِرُ بِهَا مِنَ النَّاسِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٦].

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: «قَالَ أَبُو قَتَادَةَ ؓ: فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ قَرَّ الْجُدُّ بْنُ قَيْسٍ فَدَخَلَ تَحْتَ بَطْنِ الْبُعَيْرِ، فَخَرَجْتُ أَعْدُو، وَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ كَانَ يُكَلِّمُنِي فَأَخْرَجَنَاهُ مِنْ تَحْتِ بَطْنِ الْبُعَيْرِ، فَقُلْتُ: وَيَحْكَ مَا أَذْخَلَكَ هَاهُنَا؟ أَفَرَأَا إِنَّمَا تَزَلُ بِهِ رُوحُ الْقُدْسِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي رُعِبْتُ وَسَمِعْتُ الْهَيْعَةَ (صوت تنزع منه وتخافه من عدو)، قَالَ الرَّجُلُ: لَا تَضْحَكْ (نضح عنه: ذب ودفع) عَنْكَ أَبَدًا، وَمَا فِيكَ خَيْرٌ.

فَلَمَّا مَرَضَ الْجُدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَنَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ لَزِمَ أَبُو قَتَادَةَ بَيْتَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى مَاتَ وَدُفِنَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَذَا وَكَذَا، وَاسْتَحْيَيْتُ مِنْ قَوْمِي يَرَوْنِي خَارِجًا وَلَا أَشْهَدُهُ.

وَيُقَالُ خَرَجَ أَبُو قَتَادَةَ إِلَى مَالِهِ بِالْوَادَيْنِ، فَكَانَ فِيهِ حَتَّى دُفِنَ، وَمَاتَ الْجُدُّ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ ؓ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٩١].

### من ذكر من أصحاب الشجرة:

١- أَبُو رُحْمٍ الْغَفَارِيُّ ؓ: عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَخِي أَبِي رُحْمٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا رُحْمٍ الْغَفَارِيَّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ - يَقُولُ ... [مسند أحمد ٣١/ ٤٢٢-٤٢٤ رقم ١٩٠٧٢، ١٩٠٧٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف لجهالة ابن أخي أبي رهم].

٢- أَهْبَانُ بْنُ أُوسٍ رضي الله عنه: وَعَنْ جَزَاءَ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ اسْمُهُ أَهْبَانُ بْنُ أُوسٍ وَكَانَ اشْتَكَى رُكْبَتَهُ وَكَانَ إِذَا سَجَدَ جَعَلَ تَحْتَ رُكْبَتِهِ وَسَادَةً. [البخاري في المغازي (٤١٧٤)].

٣- الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَقِيتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رضي الله عنه فَقُلْتُ: طُوبَى (شجرة في الجنة، وتطلق ويراد بها الخير) لَكَ! صَحِبْتَ النَّبِيَّ ﷺ، وَبَايَعْتَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْنَا بَعْدَهُ. [البخاري في المغازي (٤١٧٠)].

٤- ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه: عَنْ أَبِي قَلَابَةَ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ.

[البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٣)، وفي الأدب (٦٠٤٧)].

وَعَنْ أَبِي قَلَابَةَ أَنَّ ثَابِتَ بْنَ الضَّحَّاكِ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ بَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

[البخاري في المغازي (٤١٧١)، ومسلم في الإيمان (١١٠)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٧)].

٥- سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه: عَنْ سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَايَعْنَا النَّبِيَّ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ لِي: «يَا سَلَمَةُ لَا تَبَايِعْ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ بَايَعْتُ فِي الْأَوَّلِ، قَالَ: «وَفِي الثَّانِي».

[البخاري في الأحكام (٧٢٠٨)].

وَقَالَ سَلَمَةُ رضي الله عنه: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَنْ بَايَعَهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ثُمَّ مَرَزْتُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَعَهُ قَوْمٌ، فَقَالَ: «بَايِعْ يَا سَلَمَةُ»، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ، قَالَ: «وَأَيْضًا»، فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ. [مسند أحمد ٨١/٢٧-٨٢ رقم ١٦٥٤٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عمر بن راشد الباهمي وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين].

٦- سُؤَيْدُ بْنُ الثُّعْمَانِ رضي الله عنه: عَنْ بُشَيْرِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سُؤَيْدِ بْنِ الثُّعْمَانِ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ - كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَتَوْا بِسَوِيْقٍ فَلَاكُوهُ. [البخاري في المغازي (٤١٧٥)].

٧- عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: عَنْ أَبِي جَهْمَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِذَ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ -: هَلْ يُنْقَضُ الْوُثْرُ، قَالَ: إِذَا أَوْتَرْتَ مِنْ أَوَّلِهِ فَلَا تُؤْتِرُ مِنْ آخِرِهِ.

[البخاري في المغازي (٤١٧٦)].

٨- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ اعْتَمَرَ فَطَافَ فَطَفْنَا مَعَهُ، وَصَلَّى وَصَلَيْنَا مَعَهُ، وَسَعَى بَيْنَ الصَّغَا وَالْمَرَوَةِ، فَكُنَّا نَسْتُرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَا يُصِيبُهُ أَحَدٌ شَيْءٌ.

[البخاري في المغازي (٤١٨٨)].

٩- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِّي رضي الله عنه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِّي رضي الله عنه: إِنِّي مِمَّنْ شَهِدَ الشَّجَرَةَ...

[البخاري في تفسير القرآن (٤٨٤٢)].

١٠- فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رضي الله عنه: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُقَدَّمِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ حَجَّاجًا يَذْكُرُ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُخَرِّبٍ قَالَ: قُلْتُ لِفَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ: أَرَأَيْتَ تَغْلِقُ يَدَ السَّارِقِ فِي الْعُنُقِ أَمِنْ السُّنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُنِيَ بِسَارِقٍ فَأَمَرَ بِهِ فَقُطِعَتْ يَدُهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَعُلِقَتْ فِي عُنُقِهِ.

قَالَ حَجَّاجٌ: وَكَانَ فَضَالَةٌ مِّنْ بَايَعِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

[مسند أحمد ٣٩ / ٣٧٠ رقم ٢٣٩٤٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].

١١- الْمُسَيَّبُ بْنُ حَزْنٍ بْنُ أَبِي وَهَبٍ رضي الله عنه: عَنْ طَارِقٍ قَالَ: ذُكِرَتْ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ الشَّجَرَةُ، فَضَحِكَ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي وَكَانَ شَهِدَهَا. [البخاري في المغازي (٤١٦٥)].

١٢- مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ رضي الله عنه: عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُبَايِعُ النَّاسَ وَأَنَا رَافِعٌ عُصْنًا مِّنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ... [مسلم في الإمامة (١٨٥٨)].

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه أَنَّهُ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْحَدِيبَةِ وَهُوَ رَافِعٌ عُصْنًا مِّنْ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ بِيَدِهِ عَنْ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُبَايِعُ النَّاسَ... [مسند أحمد ٣٣ / ٤١٢ رقم ٢٠٢٩٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير الحكم بن عبد الله الأعرج فمن رجال مسلم].

هؤلاء ما وردت أحاديث بأنهم شهدوا الحديبية، وقد ذكر د/ الغضبان عدة منهم، وهم حسب الترتيب الألفبائي:

١٣- أَبُو شُرَيْحٍ الْخَزَاعِيُّ الْكَعْبِيُّ رضي الله عنه، ١٤- أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه، ١٥- بُرَيْدَةُ بْنُ الْحَصْبِ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه، ١٦- بُسْرُ بْنُ سَفْيَانَ الْخَزَاعِيُّ رضي الله عنه، ١٧- جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، ١٨- حَمْرَةُ بْنُ عَمْرِو الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه، ١٩- خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الْغَفَارِيِّ رضي الله عنه، ٢٠- خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ الْفَضْلِ الْخَزَاعِيِّ رضي الله عنه، ٢١- زَاهِرُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ حَجَّاجِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، ٢٢- زَيْدُ بْنُ خَالِدِ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه، ٢٣- عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه، ٢٤- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، ٢٥- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، ٢٦- عَمْرُو بْنُ عَبْدِ نُهْمِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، ٢٧- كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ رضي الله عنه، ٢٨- مَجْمَعُ بْنُ جَارِيَةَ رضي الله عنه، ٢٩- مِرْدَاسُ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، ٣٠- الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه، ٣١- نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدُبِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، ٣٢- نَاجِيَةُ بْنُ الْأَعْجَمِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، ٣٣- النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنِ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه. [التربية القيادية للغضبان ٤ / ٢١٧-٢٥٦].

ويُضَافُ إِلَيْهِمْ - من سياق الأحداث:

٣٤- أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، ٣٥- عُمَرُ رضي الله عنه، ٣٦- أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، ٣٧- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.  
يقول د/ هيكَل: «وبهذه البيعة اهتزت السيوف في غمودها، وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها، وجعل كلُّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية، وفؤاد مرتاح، وقلب مطمئن».  
[حياة محمد صلى الله عليه وسلم لهيكَل ٣٨٠].

عثمان رضي الله عنه يبایع النبی صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ رضي الله عنه بَاطِلٌ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٦].

وبعد أن أطلقت قريش سراح عثمان رضي الله عنه والعشرة من الصحابة دعا النبي ﷺ وجاء به وبايعه تحت الشجرة، بعد أن بايع له في غيابه.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «فَلَمَّا رَجَعَ عُثْمَانُ رضي الله عنه أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الشَّجَرَةِ فَبَايَعَهُ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ حِينَ بَايَعَ النَّاسَ قَالَ: «إِنَّ عُثْمَانَ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ، فَأَنَا أَبَايَعُ لَهُ»، فَضَرَبَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ». [المنغزي للواقدي ٦٠٥/٢].

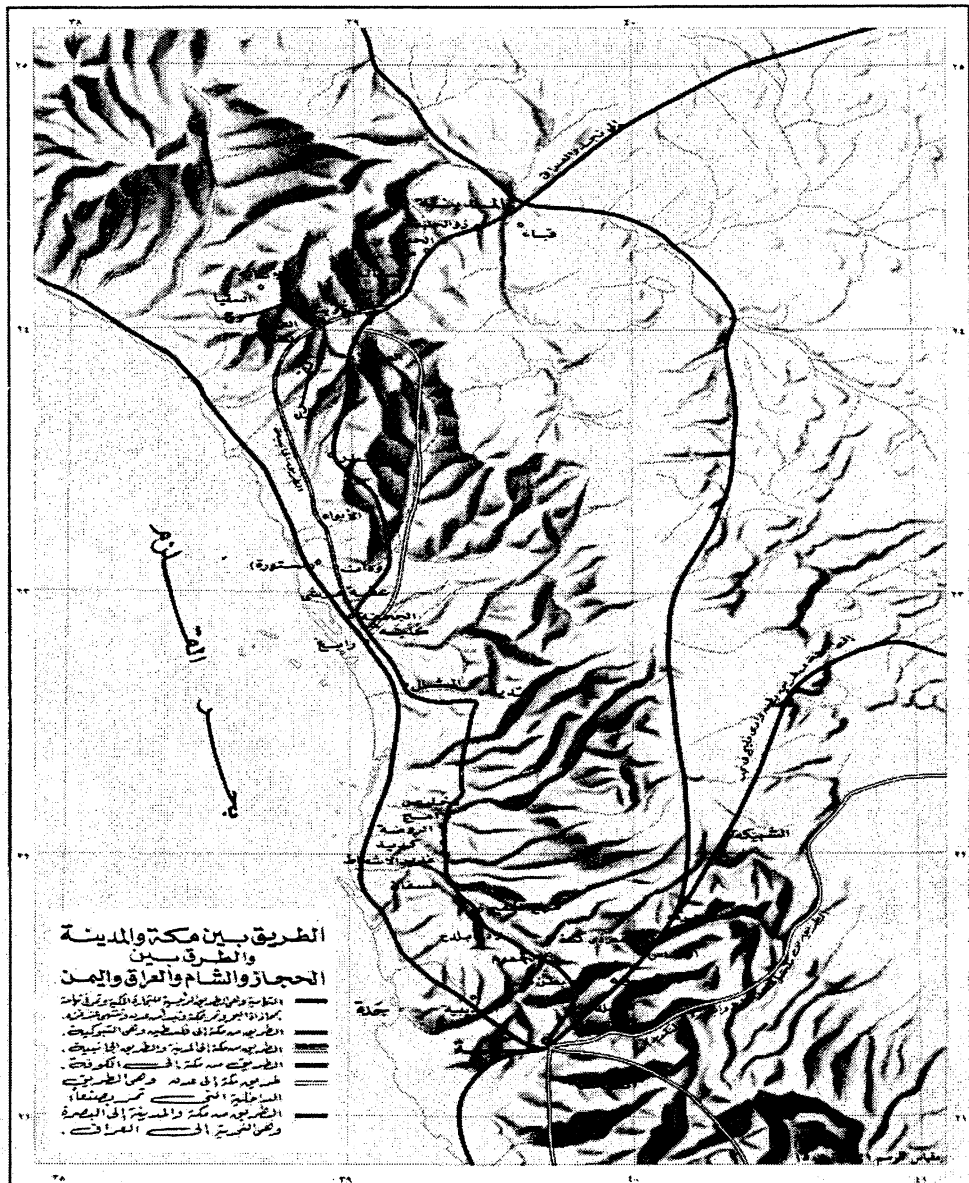
يقول د/ هيكل: «وإنهم لذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان رضي الله عنه لم يُقتل، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان رضي الله عنه بنفسه إليهم.

على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى، علماً في تاريخ المسلمين، كان محمد ﷺ يستريح إلى ذكره؛ لما كشف عنه من متانة الروابط بينه وبين أصحابه، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون، ومن أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين.

عاد عثمان رضي الله عنه فأبلغ محمداً ﷺ ما قالت قريش، فهم لم يبق عندهم ريبة في أنه وأصحابه إنما جاؤوا حاجين معظمين للبيت، وهم يقدرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم، وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدده عن دخول مكة، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات، فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكة تحدثت العرب بأنهم انهزموا أمامه، فتضعضت في نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم؛ لذلك هم يصرون على موقفهم منه هذا العام إبقاء على هذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة، فليفكر وإياهم، وهذا موقفه وموقفهم، لعلهم جميعاً يجدون من هذا الموقف مخرجاً، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً، بل إنهم لها لكارهون في هذه الأشهر؛ تقديرًا لحرمتها الدينية من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى، وإذا لم تحترم اليوم حرمتها وقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب في مستقبل أيامهم أن يجيؤوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرة أخرى، فيجني ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٨٠-٣٨١].

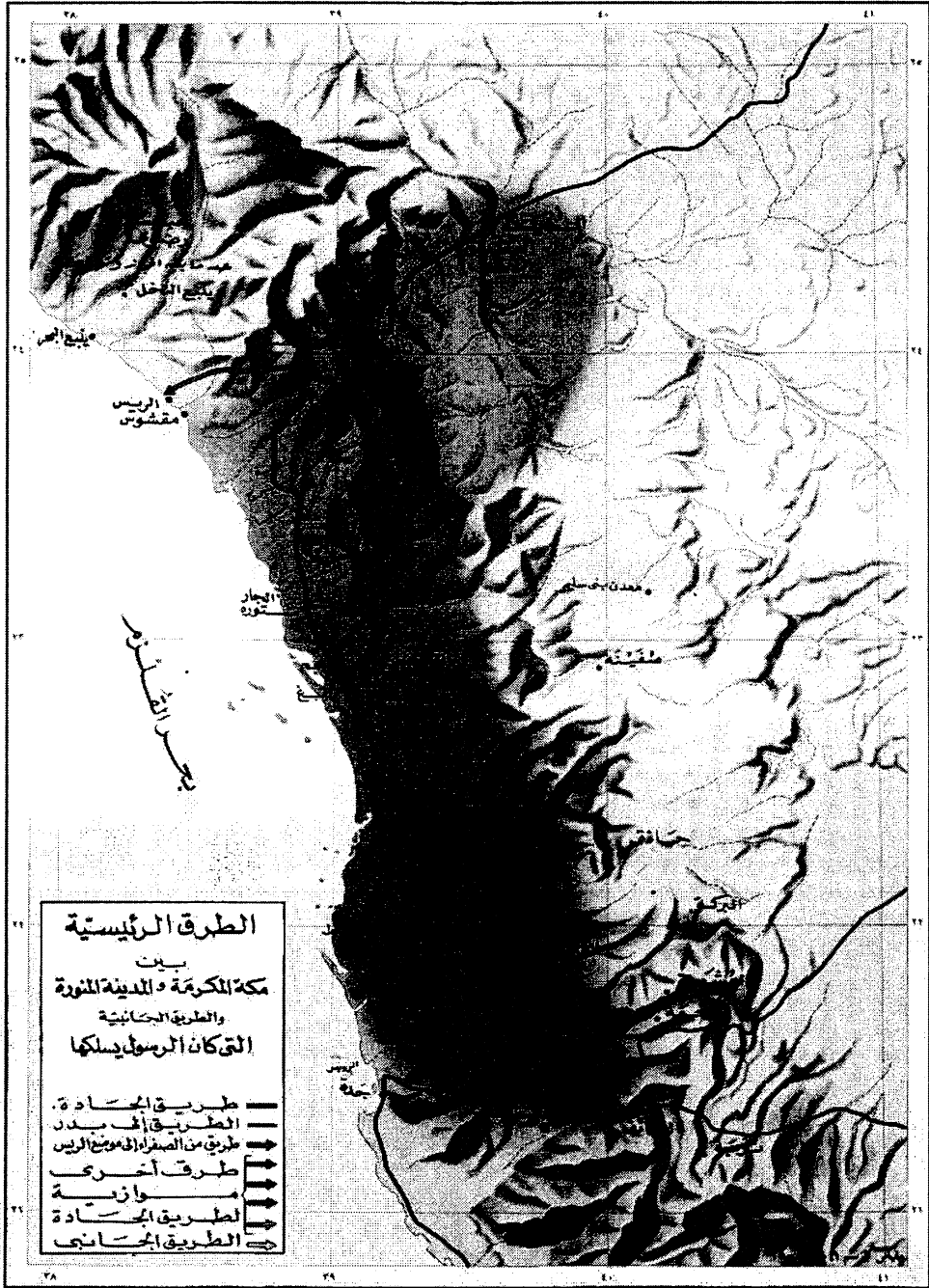




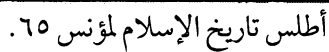
• **W**



(٣)



6. 1000



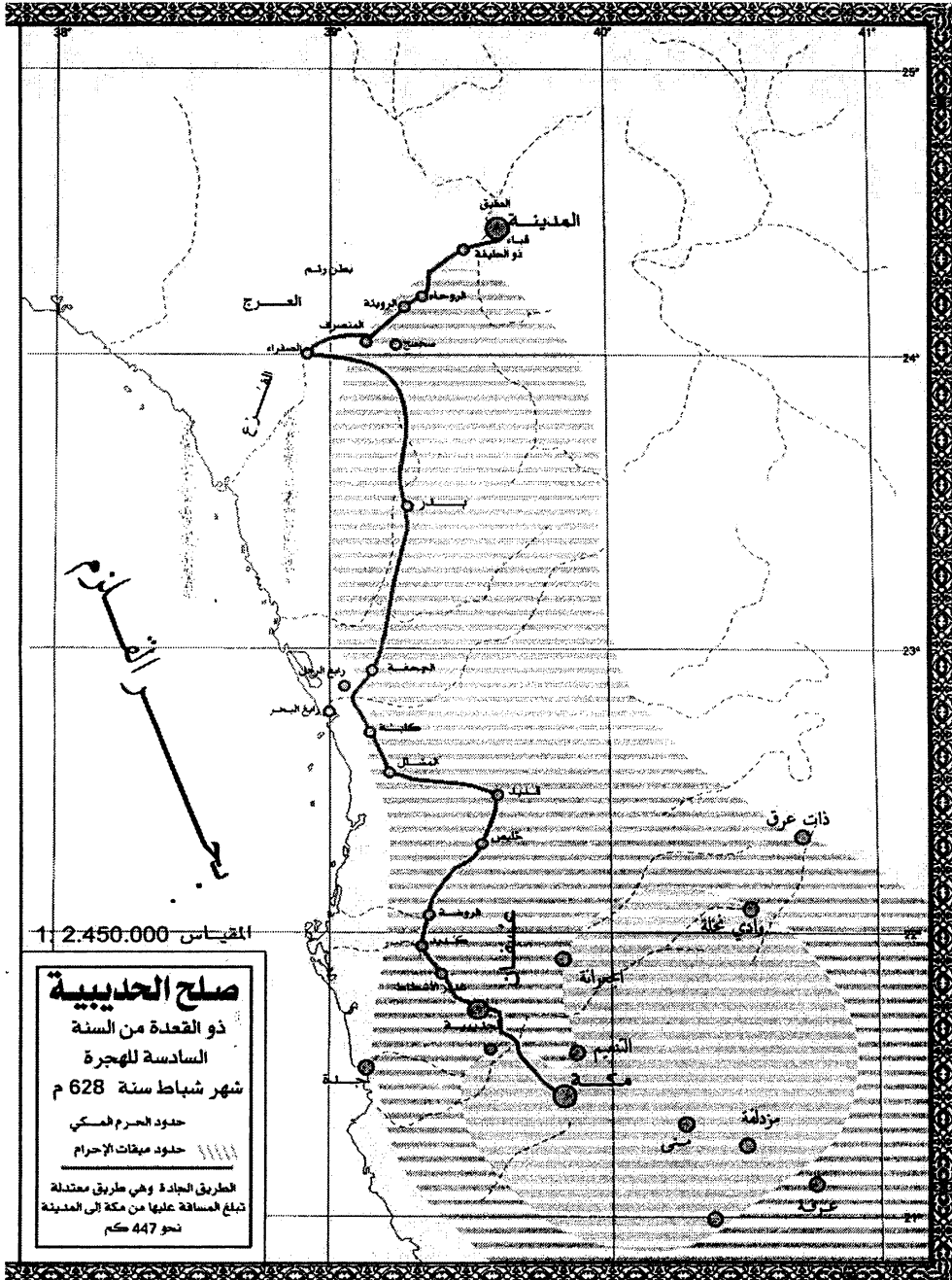
**معلومات**

المسافة بين مكة والمدينة مسيرة ١١٧ ساعة  
يسير الأمل في كنف السيرة القديمة عشر مراحل  
من المدينة إلى رايغ مسيرة ٦٦ ساعة ومن  
رايغ إلى مكة ٥١ ساعة حرم سنة ١٣٢٦ هـ  
بين كل من ذات عرق وقبة المنار وبينهم  
وبين مكة والجبلة أربع مراحل تقريباً  
من المسجد الحرام إلى علي عرفة ١٨٣٣ متر  
" " " " نخلة ١٣٣٠ متر  
" " " " النخيم ٦٤٨ متر  
" " " " أضواء ٩٠٥-١٢٠ متر  
والمسافات متقولة عن شفاء الغرام  
بعد تحصيلها إلى أمتار  
من مكة إلى علي عرفة مسيرة خمس ساعات  
من مكة لعلهي الجديبية مسيرة  
أربع ساعات وربع  
وأجعت في عمل هذه  
الخريطة خريطة  
صادق باشا وخريطة  
المساحة وخريطة  
وزارة الحربية وخريطة  
الجيش الإنجليزى  
في نوفمبر سنة ١٩١٦ م  
ومعجم البلدان لياقوت ومادونه  
في رحلتنا عن الطرقات.  
○ علامة المقيات  
■ علامة أعلام الحرم  
— علامة الطرق  
الرسم تقريبي  
بعض الأماكن

**خرائط وأعلام**

المدينة المنورة  
وأعلام الحرم  
ومناسك الحج  
تلاعن كتاب امرأة  
الحرمين لإبراهيم يشارفعت

(٦)



أطلس تاريخ العرب والإسلام للكاتب ١٧.

**الحديدة**

**(بيعة الرضوان)**

**ذي القعدة ١٤٠٦ هـ**

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ١٦٠.



## الحديبة

## بيعة الرضوان:

﴿ الفتح ٤٨/١٨ ﴾.

حدود الحرم المكي



(٩)

## الحديبية (بيعة الرضوان)

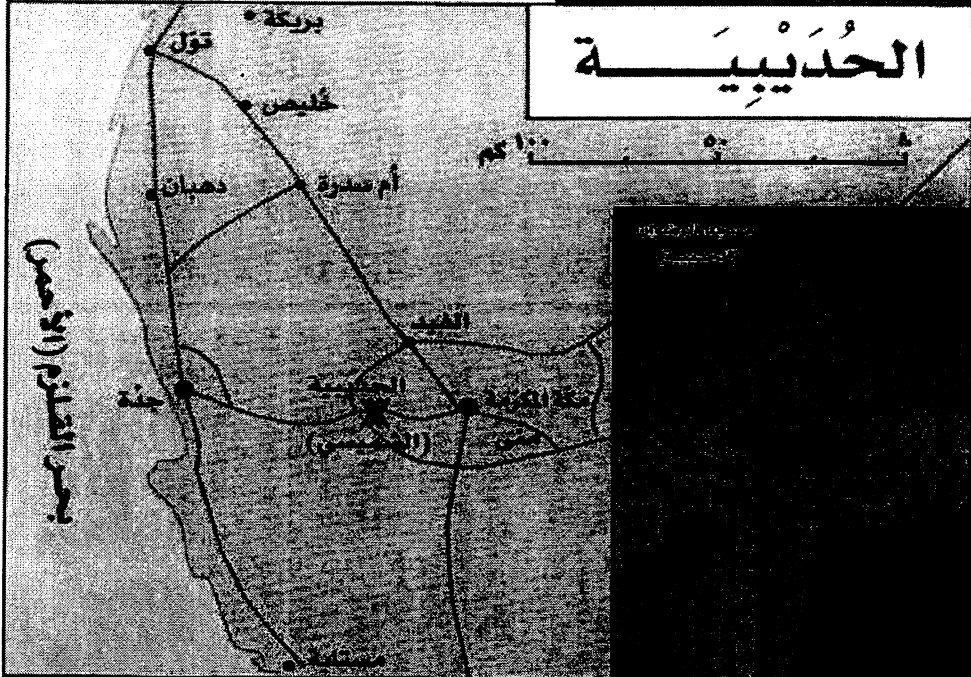
القبيلة	مسلم	أبو طلحة	الزبدي	النسائي	ابن عامر
---------	------	----------	--------	---------	----------

بين موقع الحديبية ومكة المكرمة مرحلة (٢٢ كم)  
وهي غرب مكة المكرمة على طريق حلة (موقع  
الشمسي اليوم، ويعرف بالحديبية أيضاً).

فيها بئر، ومسجد الشجرة، وعندها كانت ببيعة  
الرضوان (ذي القعدة ٦هـ).

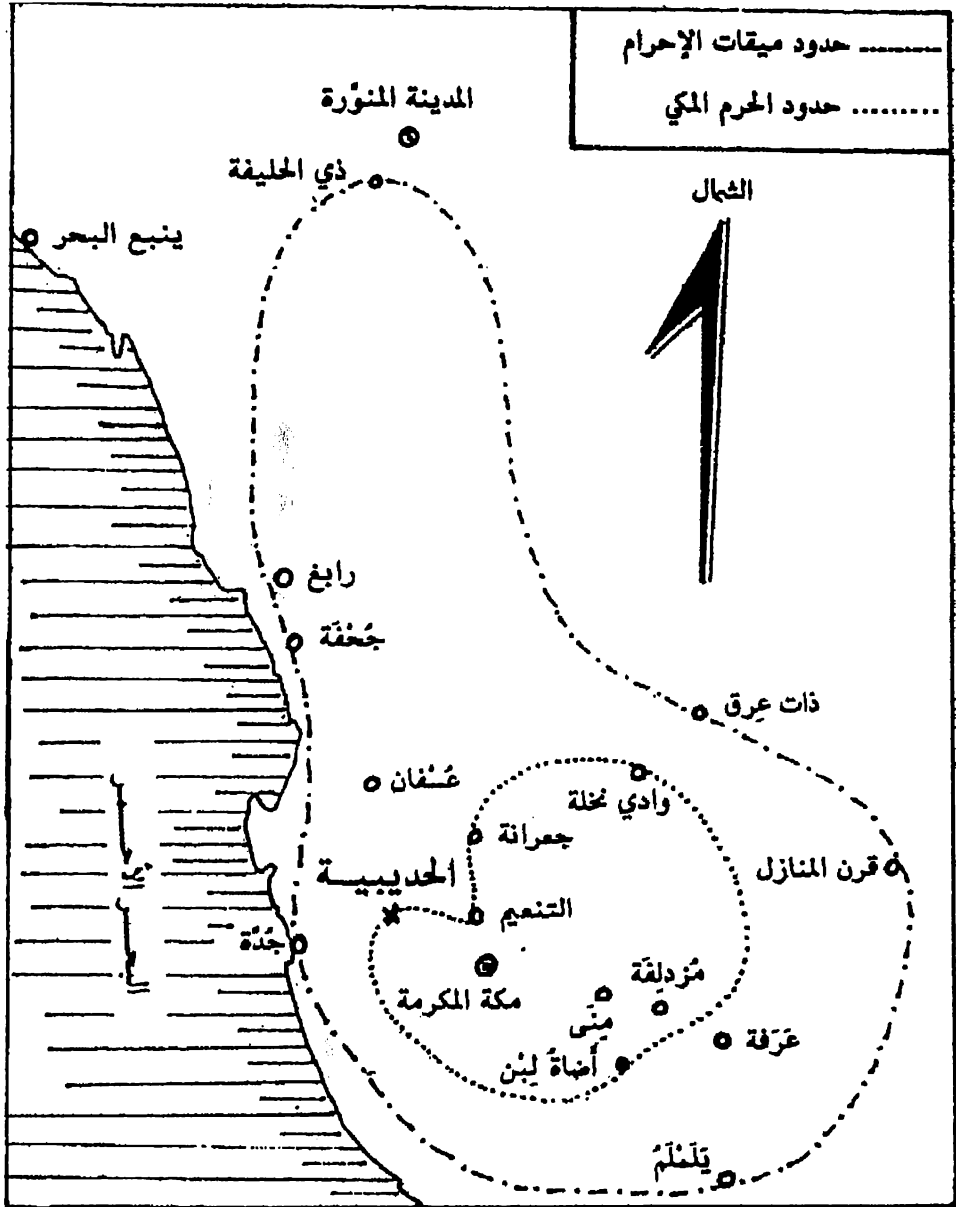
(كتاب الرّوض المغطار ١٩٠، معجم البلدان ٢/٢٣٣)

## الحديبية



أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ١٤١.

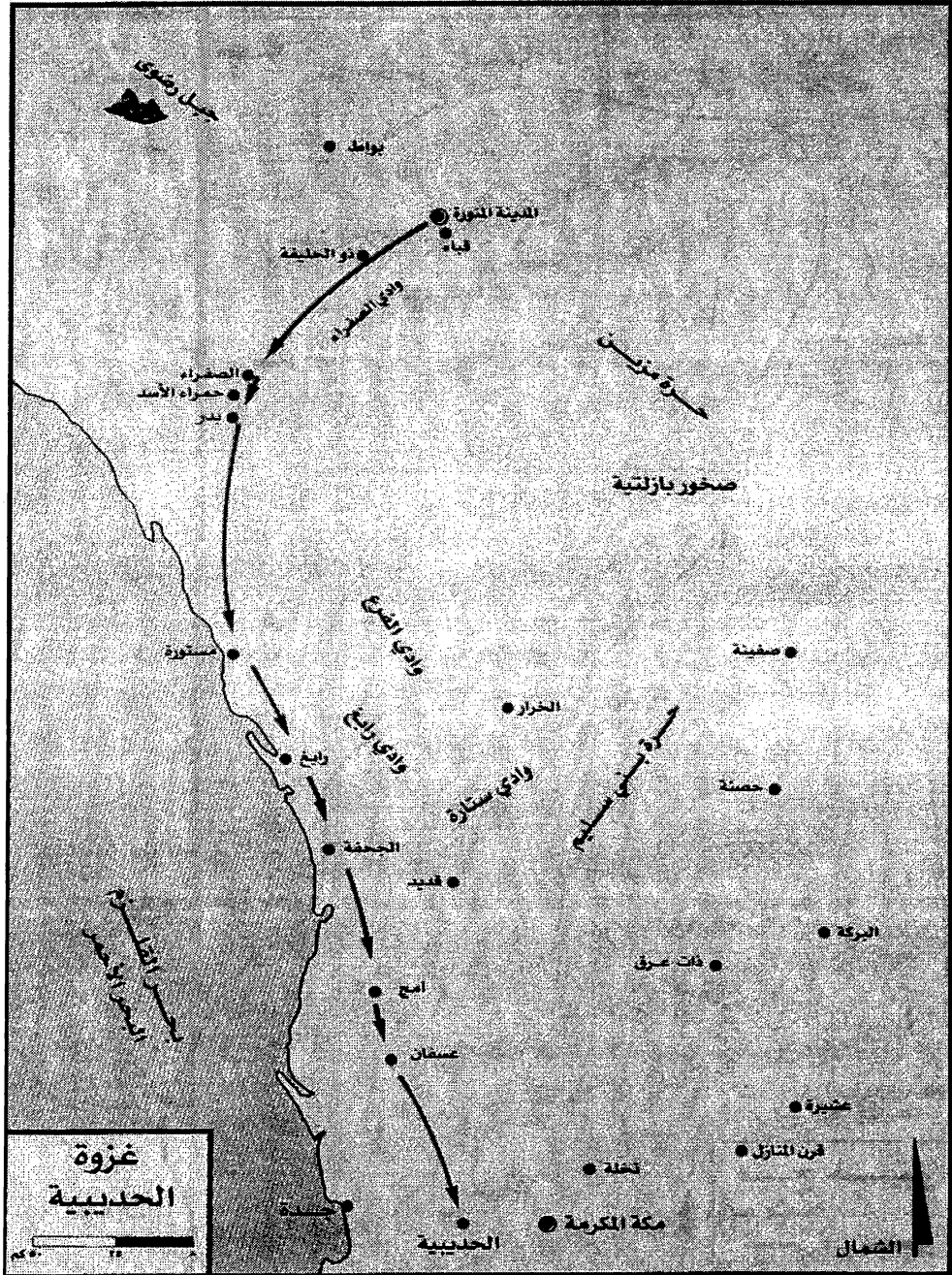
(١٠)



## موقع الحديبية وحدود حرم مكة المكرمة

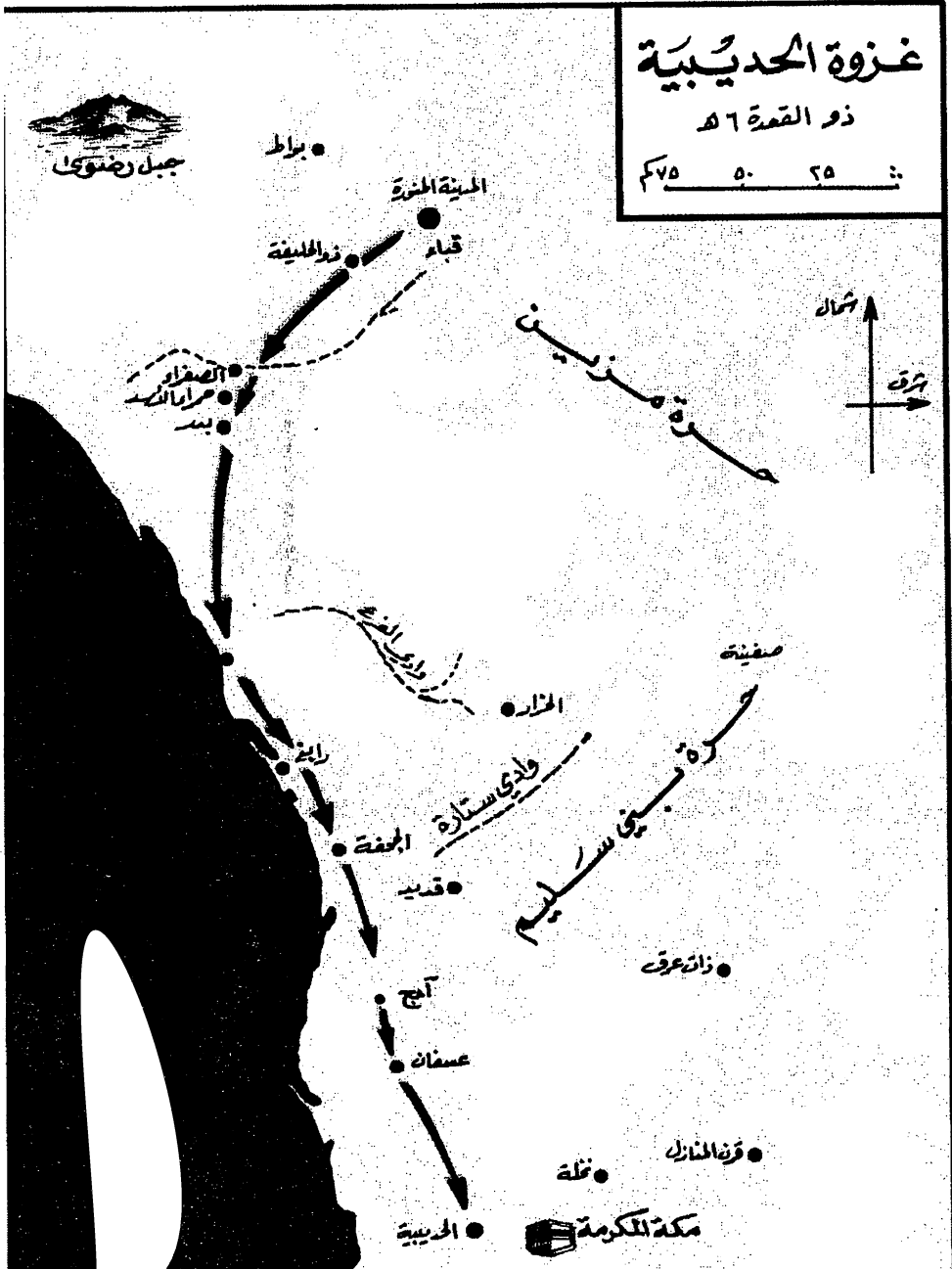
في التاريخ الإسلامي لأبي خليل ١١٠.

(١١)

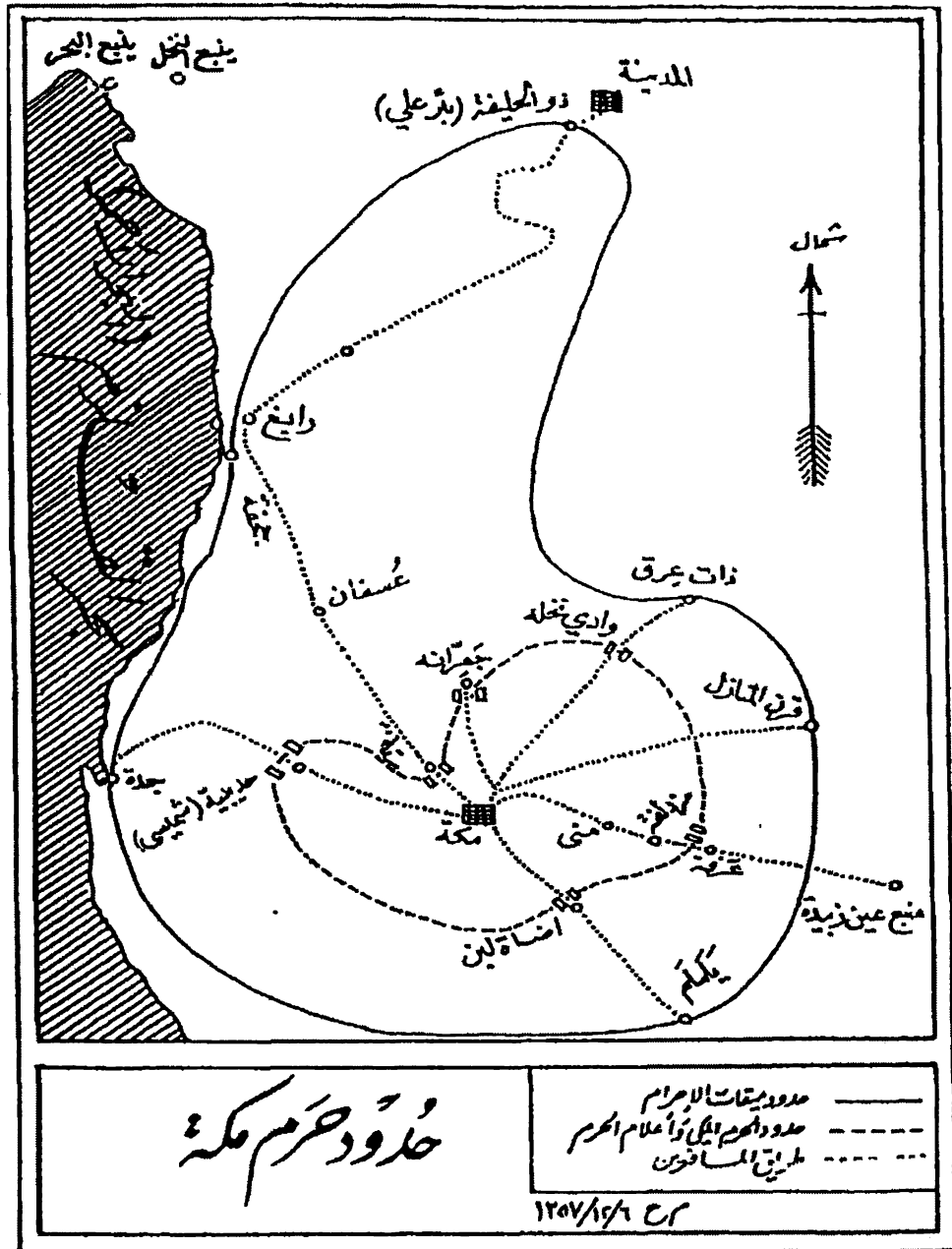


حدايق الأنوار لبحرق ٥٤٥.

(١٢)

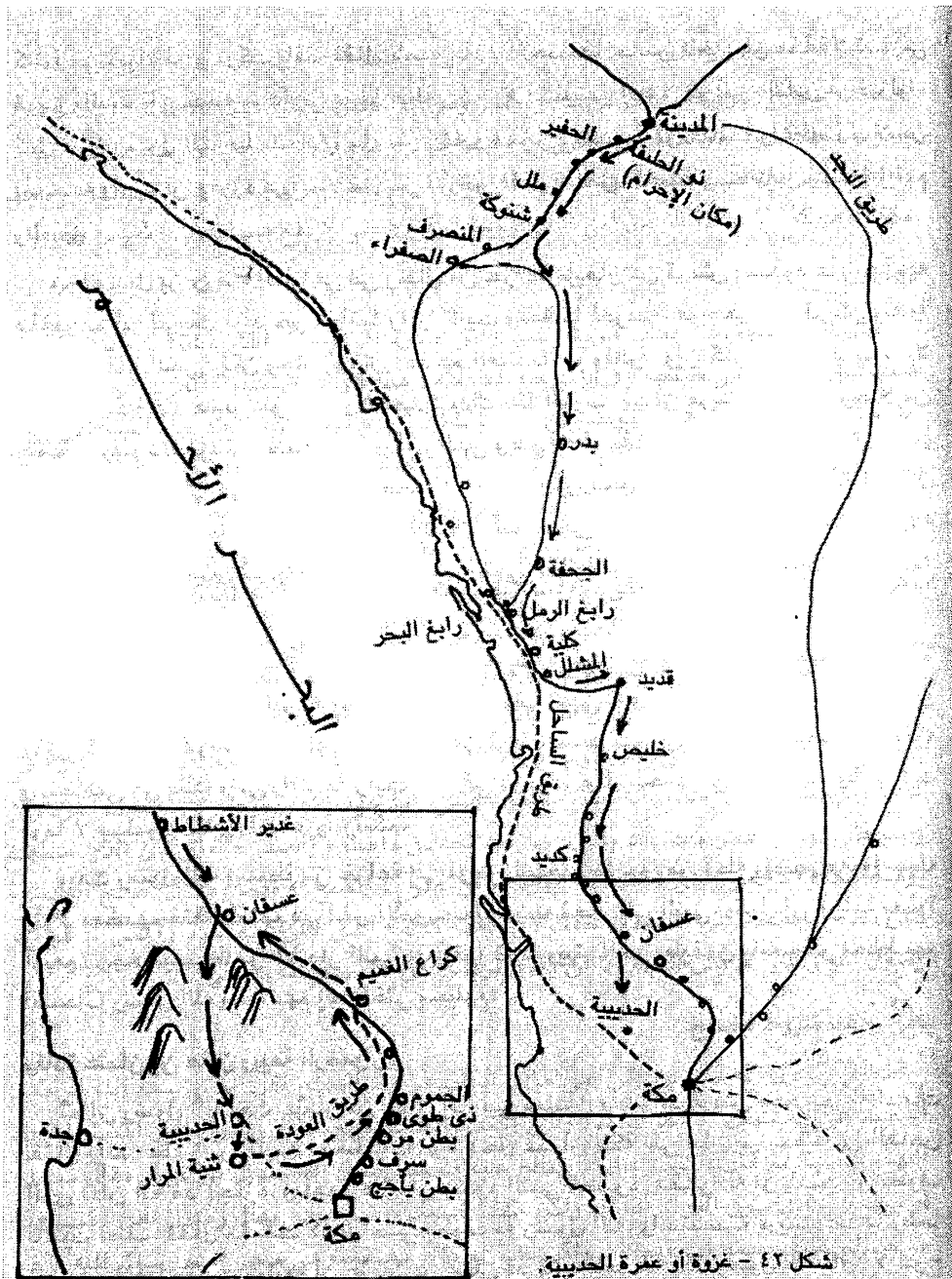


(١٣)





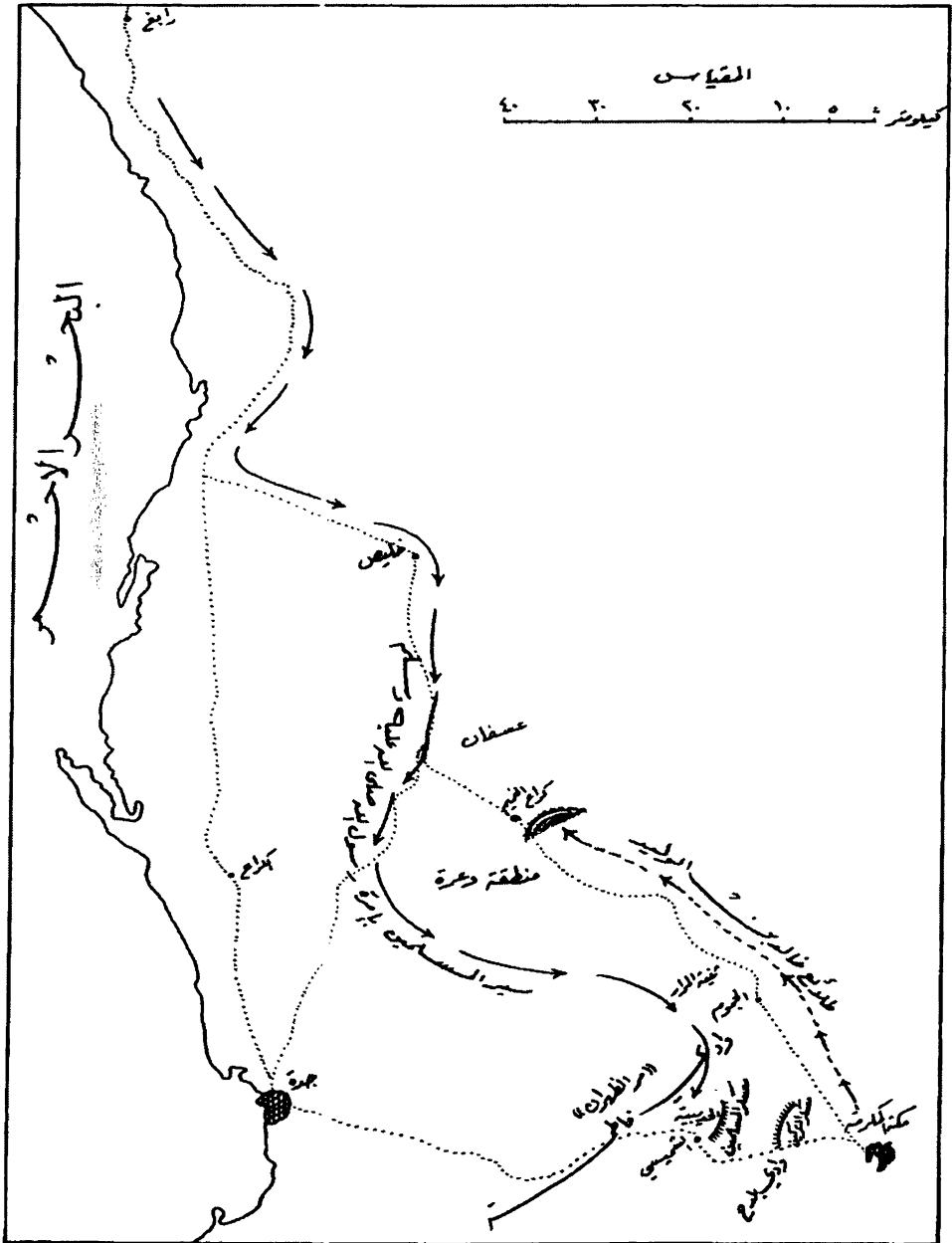
(١٥)



شكل ٤٢ - غزوة أو عمرة الحديبية.

خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدر اوي ٦٨٥.

(١٦)



منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٦٥، ٣٤٥.





## الفصل الثاني

### الدروس والعبر المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الحديبية

#### (قبل الغزوة)

#### المبحث الأول

#### الدروس العقائدية

##### ١ - رؤيا الأنبياء حق ووحى وشرع:

يقول د/ فيض الله: «قدمنا في أول هذه العمرة، أو الغزوة، أن النبي ﷺ رأى في منامه أنه يدخل المسجد الحرام، هو والمسلمون، مُحَلِّقِينَ رؤوسهم، وذلك بعد أن طال العهد بمكة، واستبد المشركون بالبيت، فصدوهم عنه حتى في الأشهر الحُرِّم، وخالفوا ما أَلْفُوهُ من تأمين داخلية، ولو كانوا من ذوي الثأر.

فلما رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا، استبشر، وحَدَّثَ بها أصحابه، وَأَذَّنَ فيهم بالعمرة، لزيارة البيت العتيق.

وهذا الصنيع، يدل على أن رؤيا النبوة حق، وَبُيِّنَتْ بها الحكم، الدَّالُّ على الشرعية واقتضاء الامتثال، كما يثبت بالوحي المنزل؛ ومن ثم بادر النبي ﷺ فخرج بأصحابه معتمرًا، واستنفر العرب ومن حوله، خشية أن تعرَّضَ له قريشٌ بحرب، أو تصده عن البيت.

ومن قبل قال إبراهيم عليه السلام في محنته وابتلائه لابنه إسماعيل عليه السلام وقد بلغ سن العمل معه: ﴿وَبَيَّنَّا إِبْرَاهِيمَ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ أَذْبَحَكَ فَأَنْظَرْنَا مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَبْنَوتُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الصافات]. فلما همَّ إبراهيم عليه السلام بالامتثال، وألقى إسماعيل عليه السلام على جنبه، وسقط جبينه على الأرض، لينفذ أمر الله، فداه بكبش عظيم.

إن مبادرة الرسول ﷺ إلى العمرة بعد الرؤيا، ومبادرة إبراهيم عليه السلام إلى ذبح ولده بعد رؤياه، مما يشهد بأن رؤيا الأنبياء حقٌّ، وأنه لا سبيل للشيطان على قلوبهم، وأن ما يَرِدُ في ثناياها من الأفعال، تكاليف شرعية، يجب عليهم الإيمان بحقيقتها، والعزم على امتثالها، والقيام بتنفيذها فعلاً».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٧٨-٢٧٩].

ويقول د/ الغضبان: «ولم ير رسول الله ﷺ رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وهي بمثابة الوحي لرسول الله ﷺ، وقد «أرى رسول الله ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين، مُحَلِّقِينَ رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه وعَرَّفَ مع المعرفين»، أي أنه وقف في عرفات مع المسلمين.

وتحمل هذه الرؤيا معنيين لقلب المصطفى ﷺ:

المعنى الأول: هو نصر المسلمين على قريش، فلا يمكن أن يتم هذا إلا بهزيمة قريش التي تعتبر دخول رسول الله ﷺ وجيشه مكة إذلالاً لها، وهي التي أخرجتهم منها، وهذا متناسب مع الخط الجديد الذي رسمه رسول الله ﷺ لأفق الدعوة الوضئ: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣/ ٢٤٠-٢٤١، رقم ١٨٣٠٩، ١٨٣٠٨، ١٨٤/٤٥، رقم ٢٧٢٠٦].

وتأتي هذه الرؤيا إعلاناً لإشارة البدء وبعد سنة وشهر من غزو الأحزاب العربية للمدينة بعشرة آلاف مقاتل.

المعنى الثاني: إقرار نسك العمرة في هذا الدين الجديد، وتعظيم البيت فيه؛ إذ لم يرد أي توجيه نبوي قبل هذا العام، وهو نهاية العام السادس للهجرة، بتأدية هذا النسك بصفته نسكاً إسلامياً وشعيرة إسلامية، وفي حس رسول الله ﷺ أن هذا الأمر قادم، لكن صيغة وإشارة البدء فيه كانت خافية على قلب المصطفى ﷺ حتى أعلنت في هذه الرؤيا.

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٠٢-٢٠٣، وينظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٢٤-٢٦].

## ٢ - تحقق الرؤيا أو الدعاء في الوقت الذي يريده الله:

يقول الشيخ أبو خوات: «إن مما نفيده من دروس اجتماعية دينية من الحديبية، أن الرؤيا الصادقة والدعاء المستجاب لا يلزم لهما أن يتحققا في الوقت الذي يتمناه الداعي أو الرائي، فإن ذلك يتوقف على علم الله وتدبيره، مما قد يظنه الإنسان ردّاً لدعائه ورفضاً لرؤيا، والله وحده هو الذي يعلم الوقت الجامع للمصالح لتحقيق فيه الرؤيا أو يستجاب الدعاء، وعلينا أن نتعلم هذا الدرس مما حدث في الحديبية، حيث كان الإنسان متمثلاً في عمره ﷺ وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم يعتقدون أن في رجوع المسلمين دون دخول مكة كسرًا لشوكتهم ومساساً بعزتهم وعزة دينهم، بينما تدبير الله وعلمه يجعل النبي البشر المصطفى ﷺ يرضى بالرجوع محققاً به أضعافاً مضاعفة من عزة المسلمين وعزة الدين، ولكن... في الوقت المناسب.

ويعطينا هذا الدرس أيضاً ما نعلمه عن الزمن الطويل الذي وقع بين دعاء إبراهيم عليه السلام أن يبعث الله في أبناء إسماعيل عليه السلام رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة يزيكيهم، وبين تحقيق الدعاء وإجابته على أرض الواقع ببعثة محمد ﷺ في العرب وفي الناس أجمعين، ولو كان هذا الدعاء قد أُجيب وتحقق قبل الوقت الذي تحقق فيه، لدرست رسالته ومضت مع ما مضى من رسالات الغابرين.

فلما رأى الرسول ﷺ رؤياه وبدأ في تحقيقها كان في علم الله أن تأجيل تحقيقها عامّاً بالطريقة التي تم بها التأجيل أعظم وأكرم للدين والمؤمنين به جميعاً. [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١٠٢-١٠٣].

### ٣ - الظن السيء للأعراب:

يقول أ/ الشامي: «كان قد مضى عام كامل على انتهاء غزوة الأحزاب أعلن رسول الله ﷺ عزمه على أداء العمرة واستنفر الناس للمشاركة في ذلك.

والمستنفرون هم أهل المدينة المهاجرون والأنصار، وكذلك الأعراب الذين أسلموا حديثاً واستقروا حول المدينة، وهم من أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والدليل.

[ينظر تفسير سورة الفتح في تفسير العلامة أبي السعود].

لم تكن المعطيات العامة - بغض النظر عن الالتزام الإيماني - تشجع على المشاركة في هذه العمرة، لأكثر

من سبب:

- فالحرب ما زالت قائمة بينه ﷺ وبين قريش، وقد هاجمته في المدينة مرتين خلال سنتين، في أحد والخذندق، وذهابه ﷺ للعمرة فيه تحدٍ كبير لقريش؛ مما يُتوقع معه بل يغلب على الظن وقوع القتال.

- كانت العرب كلها تناب قريشاً، ولا تريد أن تدخل معها في معركة، بل إن وفد بني عبد بن عدي

حين وفدوا على رسول الله ﷺ وأسلموا اشترطوا ألا يقاتلوا قريشاً، فكان من قولهم: يا محمد، نحن أهل الحرم وساكنته وأعز من به، ونحن لا نريد قتالاً، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك، ولكننا لا نقاتل

قريشاً، وإنا لنحبك ومن أت منه... فأسلموا. [طبقات ابن سعد ١/ ٣٠٦].

وإذن فالمعركة لو حدثت ستكون مع قريش، وهذا أمر لا ترغب به كثير من القبائل.

- إن قوة الرسول ﷺ ما زالت قليلة في نظر كثير من الناس؛ ولذلك لو حدث قتال فالتوقع حسب

المعطيات المادية أن ينتصر صاحب القوة الأكبر.

لهذا ولغيره لم يجد استنفار النبي ﷺ من المنافقين الذين هم في المدينة (إلا الجد بن قيس فإنه خرج - فيما

يبدو - لحاجة خاصة به، ولذلك لم يشترك في البيعة)، ولا من الأعراب الذين هم في أطراف المدينة أذناً

صاغية، فقد كانوا يتوقعون ويظنون ظن السوء، وقد سجل القرآن أمر الفريقين في سورة الفتح: فقال

تعالى في حق المنافقين: ﴿وَيَعِزُّكَ الْمُتَفَيِّقِينَ وَالْمُتَفَقِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ

دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾.

وقال تعالى في حق الأعراب: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيراً ۝﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْلُبَ الرُّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّرَتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّهُ السُّوءَ

وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝﴾.

وهكذا تذكر الآيات الكريمة ما كان يحول بخاطرهم وخاطر المنافقين من أن قريشاً سوف تحصّد المسلمين حصداً، بحيث لن يرجع أحدٌ إلى أهله». [السيرة النبوية للشامي ٢٥٧-٢٥٩].

ويقول د/ أبو خليل: «لقد تناقل الأعراب ظناً منهم أنها مغامرة يقوم بها رسول الله ﷺ ومن معه، ولا بد وأن قريشاً سوف تنتهزها فرصة للقضاء عليهم، ولن يصدها عن ذلك الشهر الحرام - ذو القعدة - ولا البيت العتيق، فقد لجت في الخصومة، وبلغت فيها إلى الشوط الأبعد، الذي ليس بعده صلح ولا مسالة، واعتبروا أن هذه سفرة بلا عودة، وعلى عادة الأعراب من الحذر، أبطأوا فلم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح].

[صلح الحديبية لأبي خليل ٥٦-٥٧].

موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة: يقول الشيخ الصوياني: «موقف كالعار، فبعض الأعراب تصحر من رأسه حتى قدميه، فهم يتلهفون للنهب والسلب والغنيمة الباردة، وحساباتهم لا تعدو ذلك، وهم وإن ادعوا الإسلام إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم، وحشود الأحزاب ما زالت في نظرهم تكمن خلف الأكمام والهضاب، أما نصر الله ووعدته والثقة برسوله ﷺ ووحى الله له فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة، إنها سراب في الصحراء الممتدة داخلهم، لقد ظنوا أن قريشاً ستفني محمداً ﷺ وأصحابه ﷺ فلا داعي للمجازفة في معركة معروفة النتائج سلفاً، ولذا فقد ادعوا أنهم مشغولون بأمورهم وأهلهم وشؤون دنياهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم وأن يساعدهم عن المسير معه نحو مكة، لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله، ويعرى حقيقتهم، ويكشف عارهم، يقول الله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا﴾ (١٤) [الفتح].

آيات عظيمة، آيات تخترق أعذار بعض الأعراب الواهية لتنزع منها جنبهم وأسرار تخلفهم، ولا بد أن المنافقين شاركوهم الرأي والتخلف، لم يلح النبي ﷺ عليهم، فلا خير فيهم ولا في صحبتهم، إنه ليس بحاجتهم عند جلال السيوف والعراك، فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه». [السيرة النبوية للصوياني ١٥٣/٣ - ١٥٤].

## ٤ - الأعراب والمنافقون:

يقول د/ الغضبان: «وفي مقارنة نشهد بها فعل التريبة العظيم في هذا الجبل الذي استعصى ثلثه في أحد، وبعد سنتين نجحت التريبة في الخندق، أن وُجِدَ فيه جيب صغير من المنافقين داخل الصف الداخلي في المدينة يريد الفرار من المعركة، ويتحلل الأعداء: ﴿إِنَّ يَتُوتَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ويكشفون خبث طويتهم قائلين: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، ويعوّقون المؤمنين ويدعونهم للتخلي عن المواجهة، وألستهم حداد على المسلمين في الخفاء يأكل الرعب قلوبهم خوفاً من الأحزاب.

نجد أن سنة ثالثة من التريبة، قد أدت إلى اختفاء هذا الجيب، وأصبح الصف الداخلي من القوة والمتانة والانضباط، ما ينهي كل مظاهر التحدي والمخاتلة من المنافقين، ويتقلل الحديث عن الأعراب خارج المدينة، وهذه هي ثمرة التريبة العظيمة خلال ثلاث سنوات من الجهد الدؤوب في البناء والتكوين، حتى ليسير - كما سبق وقلنا: قادة المنافقين مع الجيش الإسلامي إلى مكة، ولا يجرؤون على إبداء رأيهم في التخلف، وإن كانت نفثات قلوبهم تنفخ السم، ويكفي أن نعرض صورتين لهذين الزعيمين، تعريهما من الداخل، وقد شهدا معجزة فوران الماء بالبر.

يقول ناجية بن الأعجم رضي الله عنه: «وَعَلَى الْمَاءِ يَوْمَئِذٍ نَفَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَأَوْسٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ، وَهُمْ جُلُوسٌ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَاءِ وَالْبُرِّ نَحِيضٌ بِالرَّوَاءِ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَفِيرِهَا، فَقَالَ أَوْسٌ بْنُ خَوْلٍ: وَيْحَكَ يَا أَبَا الْحُبَابِ، أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تُبَصِّرَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ؟ أَبَعْدَ هَذَا شَيْءٌ؟ وَرَدْنَا بِئْرًا يَتَبَرَّضُ مَاؤُهَا - يُتَبَرَّضُ يَخْرُجُ فِي الْقَعْبِ جَرَعَةٌ مَاءٍ - فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّلْوِ وَمَضَمَضَ فَاهُ فِي الدَّلْوِ، ثُمَّ أَفْرَغَ الدَّلْوَ فِيهَا وَنَزَلَ بِالسَّهْمِ فَحَنَحَتْهَا فَجَاشَتْ بِالرَّوَاءِ.

قَالَ: يَقُولُ ابْنُ أَبِيٍّ: قَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا، فَقَالَ أَوْسٌ: قَبَحَكَ اللَّهُ وَقَبَحَ رَأْيَكَ، فَيَقْبِلُ ابْنُ أَبِيٍّ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ أَبَا الْحُبَابِ، أَيْنَ رَأَيْتَ مِثْلَ مَا رَأَيْتَ الْيَوْمَ؟»، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلِمَ قُلْتَ مَا قُلْتَ؟»، قَالَ ابْنُ أَبِيٍّ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، قَالَ ابْنُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لَهُ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٨٨-٥٨٩].

هذا موقف ابن أبيٍّ من معجزة فوران الماء في البر، وأما موقفه من المطر، فكما نقل أبو قتادة رضي الله عنه: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِيٍّ يَقُولُ - وَنَحْنُ بِالْحَدِيثِيَّةِ وَمُطَرْنَا بِهَا - فَقَالَ ابْنُ أَبِيٍّ: هَذَا نَوْءُ الْحَرِيفِ، مُطَرْنَا بِالشَّعْرَى! [مغازي الواقدي ٢/ ٥٩٠].

هذا عن عبد الله بن أبيٍّ، فماذا عن الجد بن قيس؟

يروى لنا أبو قتادة، الحارث بن ربيعي رضي الله عنه، وهو من بني سلمة قبيلة الجد نفسه، فيقول: لَمَّا نَزَلْنَا عَلَى الْحَدِيثِيَّةِ، وَالْمَاءُ قَلِيلٌ، سَمِعْتُ الْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ يَقُولُ: مَا كَانَ خُرُوجُنَا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بِشَيْءٍ، نَمُوتُ مِنْ

الْعَطَشِ عَنْ آخِرِنَا، فَقُلْتُ: لَا تَقُلْ هَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَلِمَ خَرَجْتُ؟ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ قَوْمِي، قُلْتُ: فَلِمَ تَخْرُجُ مُعْتَمِرًا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا أَحْرَمْتُ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: وَلَا تَوَيْتَ الْعُمْرَةَ؟ قَالَ: لَا، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ فَنَزَلَ بِالسَّهْمِ، وَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّلْوِ وَمَجَّ فَاهُ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّه فِي الْبِئْرِ فَجَاشَتْ الْبِئْرُ بِالرَّوَاءِ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: فَرَأَيْتُ الْجَدَّ مَاذَا رَجَلِيهِ عَلَى شَفِيرِ الْبِئْرِ فِي الْمَاءِ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَيْنَ مَا قُلْتُ؟ قَالَ: إِنَّمَا كُنْتُ أَمْرُحُ مَعَكَ، لَا تَذْكُرُ لِحَدِّدٍ يَمَّا قُلْتُ شَيْئًا، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُهُ قَبْلَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: فَغَضِبَ الْجَدُّ، وَقَالَ: بَقِينَا مَعَ صَبْيَانٍ مِنْ قَوْمِنَا لَا يَعْرِفُونَ لَنَا شَرْفًا وَلَا سِنًا، لَبَطُنُ الْأَرْضِ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِبْنُهُ خَيْرٌ مِنْهُ».

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: فَلَقِيتُ نَفَرًا مِنْ قَوْمِي فَجَعَلُوا يُؤَبِّوْنِي وَيُلْوِمُونِي حِينَ رَفَعْتُ مَقَالَتَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُمْ: يَسُّ الْقَوْمِ أَنْتُمْ، وَيُحْكَمُ عَنِ الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ تَذُبُّونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَقُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ طَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُؤدَدَهُ عَنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَسَوَّدَ عَلَيْنَا بَشْرَ بْنَ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، وَهَدَمْنَا الْمَنَامَاتِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَابِ الْجَدِّ وَبَنَيْنَاهَا عَلَى بَابِ بَشْرَ بْنِ الْبَرَاءِ، فَهُوَ سَيِّدُنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[المغازي للواقدي ٢ / ٥٩٠-٥٩١].

هذا الجد مع المعجزة، فأين الجد مع البيعة؟

يتابع أبو قتادة رضي الله عنه حديثه فيقول: فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ فَرَّ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ فَدَخَلَ تَحْتَ بَطْنِ الْبَعِيرِ، فَخَرَجْتُ أَعْدُو، وَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ كَانَ يُكَلِّمُنِي فَأَخْرَجْتُهُ مِنْ تَحْتِ بَطْنِ الْبَعِيرِ، فَقُلْتُ: وَيْحَكَ مَا أَذْخَلَكَ هَاهُنَا؟ أَفَرَارًا يَمَّا نَزَلَ بِهِ رُوحُ الْقُدُسِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي رُعِبْتُ وَسَمِعْتُ الْهَيْعَةَ (صوت تفرع منه وتخافه من عدو)، قَالَ الرَّجُلُ: لَا نَصَحْتُ عَنْكَ (نصح عنه: ذب ودفع) أَبَدًا، وَمَا فِيكَ خَيْرٌ.

فَلَمَّا مَرَضَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، وَنَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ لَزِمَ أَبُو قَتَادَةَ بَيْتَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى مَاتَ وَدُفِنَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَصِلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَذَا وَكَذَا، وَاسْتَحْيَيْتُ مِنْ قَوْمِي يَرَوْنِي خَارِجًا وَلَا أَشْهَدُهُ.

وَيُقَالُ: خَرَجَ أَبُو قَتَادَةَ إِلَى مَالِهِ بِالْوَادِيَيْنِ، فَكَانَ فِيهِ حَتَّى دُفِنَ، وَمَاتَ الْجَدُّ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه.

[المغازي للواقدي ٢ / ٥٩١].

وإذا كان العرب في الجاهلية يفاخرون بأكرم خصلتين، ويعقدون عليهما المفاسخ كلها، وهما الكرم والشجاعة، فنحن نجد ههما مفقودتين عند الجد بن قيس، فهنا نحن شهدنا شجاعته أثناء البيعة، أما بخله فنشهده من سبب نزع الزعامة منه، كما أشار أبو قتادة رضي الله عنه لذلك:

فقد روى الزهري من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: «من سيدكم يا بني نضلة»، قالوا: الجد بن قيس، قال: «بم تسودونه؟»، فقالوا: إنه أكثرنا مالاً،

وإننا على ذلك لنزنه بالبخل، قال: «وأي داء أودأ من البخل؟! ليس ذا سيدكم»، قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «بشر بن البراء بن معرور».

تابعه ابن إسحاق عن الزهري وقال في روايته: «بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء».

[الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/ ١٥١].

وحين نقارن بين الجو في أحد، حين يفصل ابن أبي بلث الجيش، ويقول: أطاعهم وعصاني، لا ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس، وبين موقفه اليوم وهو يمضي جندياً في الجيش، لا عزوة له ولا نصير، وقلبه يرتجف أن يعرف الناس ما قال، وحين نقارن بين الجو في أحد حين يهجم الجند بن قيس أن يفصل بيني سلمة، لكن القيادات المسلمة منعت، وبين موقفه اليوم وهو يرتعب أن يعرف محمد ﷺ مقالته، ندرك في هذه المقارنة، كيف أن معسكر النفاق قد انتهى وجوده، وإن كان بقي بعض الأشخاص في الخفاء يتحركون دون جدوى.

ولهذا نجد الآيات القرآنية في سورة الفتح لا تتحدث عن المنافقين في المدينة أي حديث، إنما تذكر اسمهم عرضاً مع الكافرين، إنما تركز الآيات في حشد ضخم حول المعسكر الجديد الذي ينضم إلى المدينة من خارج المدينة.

وهو معسكر القبائل العربية المجاورة بأعداد ضخمة، وكيف أن هؤلاء عندما استنفروا تشاقلوا عن الخروج، كما يصفهم القرآن الكريم في سبع آيات متتاليات، فيضع المجهر عليهم؛ ليحرق موقعهم الذي يعيشون فيه، ويحصر خطرهم من أن يمتد إلى غيرهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا فَإِنَّمَا.. وَمَنْ يَتَوَلَّ يَكُدْ بِهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الفتح: ١١-١٧].

والملاحظ من الآيات أنها لا تشير إلى أن المخلفين من الأعراب هم من المنافقين، إنما هم من ضعاف الإيمان الذين لم يتعمق الإيمان في قلوبهم بعد، ولم يملأ كل ذرات كيانه، وكما وصفهم النص: «فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمُرُّ بِالْأَعْرَابِ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَيَسْتَنْفِرُهُمْ، فَيَتَشَاغَلُونَ لَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ - وَهُمْ بَنُو بَكْرٍ، وَمَرْبِئَةُ، وَجُهَيْنَةُ - فَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَيُرِيدُ مُحَمَّدٌ يَغْزُو بَنَانًا إِلَى قَوْمٍ مُعَدِّينَ مُؤَيَّدِينَ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ؟ وَإِنَّمَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَكَلَةُ جُزُورٍ، لَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا أَبَدًا! قَوْمٌ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ وَلَا عُدَّةً، وَإِنَّمَا يَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ حَدِيثٍ عَهْدُهُمْ بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ بِدَرٍّ!». [الغازي للواقدي ٢/ ٥٧٤-٥٧٥].

هذه النماذج خارج الصف الإسلامي في المدينة سوف تتجه الطاقات لتربيتها فيها بعد، وذلك بعد أن وجه القائد الأعظم ﷺ وصحبه الأبرار ﷺ كل طاقاتهم لعملية البناء في الداخل.

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٠٨-٢١٢].



## ٥ - الأخذ بالأسباب:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يأخذ بالأسباب، كالخذر واليقظة ومراقبة العدو ورصد تحركاته، وعلى الداعية المسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك، فيجدد به أن يكون حذرًا يقظًا، عينه لا ينام عن مراقبة الأعداء، ويتأكد هذا إذا وُسد له مسؤولية، كالحاكم والقائد، فهؤلاء عليهم ألا يركنوا إلى الراحة بل عليهم أن يعلموا أن من مأمته يؤتى الخذر». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨].

## ٦ - الإصرار على المبدأ بداية طريق النصر على الأعداء:

يقول د/ أبو فارس: «نعم لقد أصر الرسول الكريم ﷺ على المبدأ الذي يحمله، وعاش له، ووقف حياته كلها له، تأمل قوله ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأِي أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرَدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

إن هذا يعني أنه لو فني المسلمون جميعًا، وبقي الرسول ﷺ بعدهم وحيدًا ل بقي طويلاً أشمًا ثابتًا ثبات الشَّم الرواسي، ولما ضعف عن قتالهم بل استمر عليه حتى النصر أو الشهادة.

وقال ابن حجر: «قَالَ ابْنُ الْمُنِير: لَعَلَّهُ ﷺ نَبَّهَ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَيْ إِنَّ لِي مِنَ الْقُوَّةِ بِاللَّهِ وَالْحَوْلِ بِهِ مَا يَقْتَضِي أَنْ أُقَاتِلَ عَنْ دِينِهِ لَوْ أَنْفَرَدْتُ، فَكَيْفَ لَا أُقَاتِلُ عَنْ دِينِهِ مَعَ وُجُودِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثَرَتِهِمْ وَنَفَازِ بَصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى».

أقول: إن هذا الإصرار من الرسول ﷺ على المبدأ الذي كان مشفوعًا بالجهاد والبذل والتضحية بالنفس والمال هو الذي جعل قريشًا تلين أمامه، وتتنازل عن كثير من مواقفها المتعجرفة، وتطامن من كبريائها وغرورها.

إن كلام النبي ﷺ الذي تكلم به لبديل بن ورقاء أراد أن يقرع أسباع قريش، حتى تدرك موقفه القوي في الصراع، فيبرد حماسها للقتال، حين تعلم أنه لم يرعبه خروجها بسلاحها وفرسانها».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٣٢-٣٣].

## ٧ - مشيئة الله في الكون:

يقول د/ أبو فارس: «كل شيء في هذا الكون يسير بأمر الله ومشيئته، ولا يخرج في سيره عن مشيئته وإرادته، تأمل معي ناقة رسول الله ﷺ أين بركت؟ وكيف كره الصحابة بروكها وحاولوا إنهاضها لتستمر في سيرها، فيستمرروا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النتائج، ولكن الله ﷻ أراد غير ذلك».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٣].

## ٨ - للإنسان سجية وطبع، وللحيوان سجية وطبع:

يقول د/ أبو فارس: «ولقد كانت سجية ناقة الرسول ﷺ والطاعة والانقياد لرغبة رسول الله ﷺ، وهكذا خبرها فكيف تتوقف فجأة؟ إنها مأمورة تسير حسب إرادة الأمر سبحانه، فهي بركت حيث أمرها أن تبرك، كما حبس الفيل عن مكة.

هذا وقد يعاقب الإنسان في سوء خلق دابته، فترهقه من أمره عسراً، وقد يُثاب الإنسان بحسن خلق دابته، فيهون عليه السفر ويطوى عنه بعده، ويجعل الله له من أمره يسراً». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٣].

## ٩ - الإنسان أولى بالطاعة من الناقة:

يقول د/ أبو فارس: «إذا كانت ناقة رسول الله ﷺ القصواء، وهي بهيمة تطيعه، ولا تحزن في سيرها معه، أليس الأولى بالذين وهبهم الله آذاناً يسمعون بها وأعيناً يبصرون بها وعقولاً يفكرون بها، أن يستجيبوا لرسول الله ﷺ، ويخضعوا لأمره، وينقادوا لشرعه، إن الذين يتمردون على أمره ليسوا أنعاماً؛ لأن الأنعام خلقت ولها وظيفة تؤدّيها كما قال تعالى ﷻ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ⑤ ولكم فيها جمال حيث تريحون وحين ترحون ⑥ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لئلا تكونوا بالغيث إلا بشيئٍ أنفيس إن ربكم لرهوفٌ رجيء ⑦﴾ [النحل]، والخيل والحمر لها وظيفة: قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

هؤلاء أضل من الأنعام، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَلَئِن قُلُوبُ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ⑦﴾ [الأعراف]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٣-٤٤].

## ١٠ - معجزة النبي ﷺ في تكثير ماء البئر:

يقول د/ الحميدي: «فيه معجزة للنبي ﷺ وذلك في جريان الماء من النبع الذي جف ماؤه، حينما أمر ﷺ بوضع سهم من كنانته بذلك النبع فكفى الجيش حتى صدروا عن ذلك المكان وعددهم ألف وخمسمائة تقريباً». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٠٥].

ويقول د/ أبو فارس: «ويستفاد من هذه المعجزات ما يلي:

- ١- هذه المعجزات الثابتة أمارات تدل على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، فقد حدثت على مرأى ومسمع من صحابته رضي الله عنهم، ونقلوها إلينا بطرق صحيحة، ومن ثم فيجب على كل مسلم أن يصدق معها.
- ٢- وهذه المعجزات أيضاً كانت تكريماً لرسولنا ﷺ، وتكريماً لصحابته رضي الله عنهم، وهذا يدل على منزلتهم عند الله تبارك وتعالى؛ لأن التكريم من الله تاج فخار لا يستحقه إلا من كان عند الله من خيار أهل الأرض.

٣ - حدوث هذه المعجزات على مرأى ومسمع من الصحابة رضي الله عنهم جعلتهم يوقنون يقيناً ليس فيه أدنى شك أن الرسول ﷺ على حق، وأن الله معه، ومعهم، ولن يتخلى عنه وعنهم، وهذا بحد ذاته يرفع معنوياتهم، ويشحن نفوسهم بالثقة والاعتزاز ثم التصدي لكل من يتعرض لهم بسوء أو تسوّل له نفسه بذلك.

٤ - من المعلوم أن الحديبية في ذلك الوقت كانت مليئة بالعيون والينابيع، وكان الماء فيها غزيراً - كما تروي لنا كتب السيرة - وفي نفس الوقت تذكر لنا كتب الحديث وكتب السيرة النبوية أن المسلمين كانوا يعانون من نقص الماء عندهم، وشكوا من ذلك إلى رسول الله ﷺ، فعوّض عليهم هذا النقص بالمعجزتين السابقتين. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٦-٥٧].

#### ١١ - اللجوء إلى رسول الله ﷺ في الشدائد:

يقول د/ أبو فارس: «إنه الرسول ﷺ الذي أنقذهم الله على يديه من النار، وهو وليهم وناصرهم وطبيبهم وقائدهم فينبغي أن يلجأوا إليه في الملمات، وهو يلجأ إلى ربه ويناجيه فيجري الله على يديه ما يجري من معجزات». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٨].

#### ١٢ - بيان كفر من اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث زيد بن خالد: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ [مُطَرْنَا]: بَنُو كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِمُؤْمِنٍ بِالْكَوْكَبِ».

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقادي أو كفر النعمة بحسب حال القائل.

فمن قال مطرنا بنوء كذا معتقداً أن للكوكب فاعلية وتأثيراً في إيجاد المطر، فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة.

قال الشافعي: «من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان أهل الجاهلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا، فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ، لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا غيره شيئاً، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفراً وغيره من الكلام أحب إلي منه». [الأم ١/ ٢٥٢].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقادي.

أما من قال: مطرنا بنوء كذا، ويقصد أن النوء علامة للمطر فقط وأن المدبر هو الله، فهذا لا يكفر كفراً مخرجاً من الملة، كما قال الشافعي.

لكن قال ابن حجر: «يجوز إطلاق الكفر عليه، وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين، والله أعلم».

[فتح الباري ٢/ ٥٢٤].

وكذلك قال ابن مفلح في الفروع: «إنه كفر نعمة لكن قال يحرم إطلاق هذا اللفظ، أي «مطرنا بنوء كذا» [الفروع ٢/ ١٦٣]، ووافقه على تحريم ذلك صاحب الإنصاف. [الإنصاف ٢/ ٤٦١].

وكذلك قال بتحريم إطلاقه صاحب تيسير العزيز الحميد [تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ٤٠٣]، وصاحب فتح المجيد [فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ٣٢٦]، لكن قالوا: إنه من الشرك الأصغر.

قلت: ويلحق بهذا الحكم كل من نسب شيئاً من التأثير في الكون لغير الله بحسب حاله على التفصيل السابق. [مرويات الحديثية للحكمي ٥٤٥-٥٤٦].

ويقول د/ العوا: «فجاء حديث النبي ﷺ في هذه الحادثة ناقلًا عن رب العزة - تبارك اسمه - نفى هذا الاعتقاد الجاهلي، وراذًا قول المنافق الذي يقرره، ومبينًا كفر من اعتقد أن للنوء (النجم الساقط أو الطالع) تأثيرًا من أي نوع في نزول المطر أو عدم نزوله، وأن ذلك كله إنما يعود إلى رحمة الله بالناس وفضله عليهم. فمن نسب الفضل في ذلك الخير الذي يصيب الناس - أي المطر - إلى الله تعالى وحده فهو مؤمن بالله ﷻ، كافر بما دونه مما ينسب الناس إليه تأثيرًا وفعلاً، من الكواكب وغيرها، ومن نسب ذلك المطر إلى الكوكب، الذي طلع في السماء أو اختفى منها، فهو كافر بالله ﷻ؛ لأنه ينكر انفراده ﷻ بالخلق والأمر والإنشاء».

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ (٢) [غافر]، ويقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣١) [لقمان].

وفي بعض روايات الحديث أن الله - تبارك وتعالى - قال: «مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: مُطَرَّنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا، فَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِي وَحَدَّثَنِي عَلَى سُقْيَايَ، فَذَاكَ الَّذِي آمَنَ بِي وَكَفَرَ بِالْكُوكَبِ، وَمَنْ قَالَ: مُطَرَّنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ الَّذِي كَفَرَ بِي وَآمَنَ بِالْكُوكَبِ».

[النسائي في الاستسقاء (١٥٢٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح. وليس فيه ذكر للحديثية].

وفي رواية ثالثة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نُوءُ كَذَا وَكَذَا»، قَالَ: فَتَرَكْتُ

هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿وَيَعْمَلُونَ لَكُمْ آبَتْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة]. [مسلم في الإيمان باب (٧٣)].

ولهذه الروايات الصحيحة فَرَّقَ العلماء بين من اعتقد أن الكوكب — أي النوء — فاعل مدبر مشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، وبين من اعتقد أن المطر من فضل الله ورحمته، ولكنه ذكر النوء باعتباره علامة له وميقاناً، على النحو الذي جرت به العادة من معرفة أكثر الناس بمواقيت نزول المطر وعلامات قربته، فكان هذا قال: مطرنا في وقت كذا، فأما الأول — المعتقد أن للنوء تدبيراً وفعلاً — فهو عند العلماء لا شك في كفره، وأما الثاني — الذي يعتبر النوء ميقاناً وعلامة — فهذا ليس بكافر، ولكنه مخطئ لاستعماله لفظاً يدور بين الكفر وغيره فيساء الظن بقاتله؛ ولأنه كلام من شعار الجاهلية ومن كان على شاكلة أهلها — من مثل المنافق الذي قال: مطرنا بالشعرى — فالأولى ترك هذا اللفظ لأنه مكروه، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: «لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها»، وقال ابن حجر في فتح الباري: «من اعتقد أن ذكر النوء من قبيل التجربة فليس بشرك»، ونقل عن الشافعي: «أن من قال: مطرنا بنوء كذا، وهو يقصد في وقت كذا لا يكفر». [فتح الباري ٢/٥٢٣، ٥٢٤].

ويجوز أن يكون تأويل الحديث أن الكفر المذكور فيه هو كفر النعمة الإلهية — وهذا في حق من لا يعتقد أن التأثير للكوكب — ويدل لصحة هذا التأويل الروايات التي فيها ذكر نعمة الله والكفر بها، وذكر الشكر والكفر في مقابلته؛ لأن هذه العبارات تدل على أن المراد هنا هو كفر النعمة لا كفر الملة؛ ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول عند نزول المطر: «مطرنا بنوء الفتح»، ثم يتلو قول الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهُمْ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر]، قال الإمام أبو عمر بن عبد البر: «وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مُطْرُنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ».

[التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٦/٢٨٦، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨٥م، وقد ذكر في هذا الموضع سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ عندما استسقى به: «يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا»، قال ابن عبد البر: فكان عمر رضي الله عنه قد علم أن نوء الثريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمل، فسأله عنه: «أخرج أم بقيت منه بقية»، وذكر أن مالك بن أنس كره أن يقول الرجل للغير والسحابة: وما أخلقها للمطر، واستدل بذلك على احتياط العلماء ومنعهم الناس من الكلام بما فيه أدنى تعلق بما كان يقوله أهل الجاهلية. وينظر: محمد زكريا الكاندهلوي، أوجز المسالك إلى موطأ مالك ٤/١٦٠، طبعة مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات، الهند ٢٠٠٣م].

فتأمل الفرق بين نسبة المطر إلى رحمة الله ونعمته وفضله، ونسبته إلى شيء من خلقه، تَعَلَّمَ الفرق بين من أخلص دينه لله، ومنْ شابهته فيه شوائب الكفر أو النفاق.

وتأمل حلم رسول الله ﷺ على ذلك المناق الذي أنكر المعجزة في عودة الماء إلى البئر كثيرًا وفيرًا بعد أن أوشكت على الجفاف، ونسب المطر إلى النوء والزمن لا إلى الله وحده، تعلم كم يبتعد عن الهدى النبوي أولئك الذين يتشددون في غير موضع الشدة، ويكفرون المؤمنين بالريية والشك والشبهة، ويُنفرون الناس بحملهم قسرًا على ما يرونه هم، ولو كان عاريًا عن الدليل خاليًا عن الحكمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده!». [الحديث للعوا ٥١-٥٥].

ويقول الشيخ الصوياني: «توقف ﷺ للاستراحة فالفجر شاق وطويل، والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض، والصحابة ينسابون في عالم النوم بعد أن فرغوا من مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة، وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك، فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم، وأفرحتهم فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم، لكن النبي ﷺ أحس بحاجة أصحابه إلى ما هو أهم من الاثنين، لقد أحب أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معًا؛ لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر، تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر.

إن الكواكب لا تضر ولا تنفع، والتعلق بها شرك، إنها خلق من خلق الله، وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان ويستفيد منها؛ ليكتشفها ويتفكر في خلقها، أما المشركون المتخلفون فقد أهانوا عقل الإنسان وانحطوا به إلى مستوى يخضع فيه العقل لجلاميد الصخور ورماد اللهب، لقد نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف؛ ليطلقه في الكون، نزل القرآن يقدم النجوم والشمس والقمر والبحار وكل ما في السموات والأرض هدايا للإنسان، يستمتع بها، ينعم بها، يستغلها في رفاهية البشرية جميعًا، القرآن يقدم الكون للإنسان في علبه هدايا، يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد، ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣].

القرآن إذا يجعل من الإنسان سيدًا في هذا الكون، وما حوله خدم مسخرون، فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبدًا لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد، هذا هو الفرق بين الإنسان موحدًا سيدًا في الكون وبين الإنسان مغلولًا بالشرك والأوهام.

المطر من عند الله والنجوم من عند الله، ومتى ما اعتقد المسلم أن نجماً ينزل المطر أو يمنعه فقد اعتقد شركاً..

حفر الصحابة رضي الله عنهم تلك الكلمات في صدورهم، وأشرقت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر.

[السيرة النبوية للصوياني ٣/ ١٦١-١٦٣].

### ١٣ - رؤية الحقيقة الكبرى:

يقول الشيخ الخولي: «الفتح فتحان: فتح يستعمل في الأمور الحسية، كقول أحدنا: فتحت الباب - إذا كان مغلقاً - وكقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِئَهُمْ زُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، ومنه على سبيل المجاز فتح المدن والأقاليم، أي إزالة الموانع دون دخولها والاستيلاء عليها.

وفتح يستعمل في الأمور المعنوية، كقول العلماء: إن فلاناً فتح باباً في العلم: كيت وكيت.. ومنه فتح القلوب المغلفة دون هداية الله، ورؤية الحق، وهو المهمة الكبرى لرسول الله - صلوات الله عليهم - فإن في باطن الإنسان - أو في دخيلة فطرته - حقائق ذات إبصار وإدراك هي التي يعبر عنها في القرآن الكريم بالقلب، ولكنه إبصار مطمور تحت شواغل الدنيا، محجوب بحجاب الحس البشري، فيظل صاحبه لا يدرك من حقائق الوجود سوى كائنات المادة، وقوانين العيش، وهي لا تعد شيئاً مذكوراً إلى جانب ما حجب عنه، فإذا أدركته رحمة الله، فهدى إلى نفسه بتأمله في الكائنات، أو قيض له مرشد حكيم، تفتَّح ما كان في باطنه من مواهب وبصائر، فأبصر وأدرك ما لم يكن مدرّكاً ولا مبصرًا.

وتلك الملكات الباطنة لا تدرك مادة، ولا تبصر شخصاً محسّ، إنما هي لطائف قدسية خاصة بإدراك المعنويات، أو الروحانيات، وكل ما وراء المادة من غير الأمور المحسّة، وتدرك ذلك على كيف مجهول لم يُقدَّر الله لنا معرفته بعد، ومهما يكن من شيء، فإن الإنسان بعد تفتُّح تلك الملكات يشعر كأن وجوده صار عامراً بمواجيد وحقائق لها خصائص النور والبهجة والحياة، والقوة، والكرامة، والحب، والرفعة، وغير ذلك من القيم العليا التي تنغرس في إحساسه وتغدو صلب حياته، وقوام أمره، وحقيقة وجوده، فإذا قامت تلك القيم أو تلك الحقائق بنفسه فهو حي حق الحياة، وإلا فلا قيمة لوجوده، أي فهو ميت وإن شهدت له الحواس بأنه من الأحياء.

والحقيقة الكبرى في الوجود هي الله تعالى، وما عداه فهو أمر من أمره، وكائنات من خلقه وتدبيره، تستمد وجودها منه سبحانه.

ومن شقوة المرء ألا يرى ما هو ظاهر فوق كل ظهور، وألا يشهد ما هو أجدر بالشهود من كل ما عداه، يشهده ببصيرته ويحسه بوجدانه، فإن ذلك ليس عمى فحسب، بل هو عمى، وعقم، ومحل،

وموت يحيل الحياة بلا قيمة، ويرد المرء إلى وجود تعس مهين، إذ يحجبه عن سبب الأسباب، ومصدر الحياة والبر والنور لكل نفس.

ولا خير للإنسان - إطلاقاً - ولا جدوى لعلمه أو عقله، إذا لم يشهد الحقيقة الأولى والأخيرة في هذا الوجود، وإن شهد له الناس بأنه أذكى الأذكياء، وأعلم العلماء.

ولا خير في مُعلِّم إذا لم يبدأ علمه بتعليم هذه الحقيقة، ويجعلها أساساً وإطاراً لكل ما يُعلِّم الناس، ويهديهم إليه من معرفة.

وكذلك كان شأن رسول الله ﷺ، أو كان شأنه ﷺ أجل وأعلى من ذلك.

وعلى هذا النحو نراه يوم الحديبية عقب ليلة مطيرة، يُقبل على أصحابه بعد صلاة الصبح بوجهه الكريم، ويقول: «تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي».

[البخاري في المغازي (٤١٤٧)، وبنحوه رواه: البخاري في الأذان (٨٤٦)، وفي الاستسقاء (١٠٣٨)، والموطأ كتاب الاستسقاء (٤٥١)، وأبو داود في الطب (٣٩٠٦)، ومسنند أحمد ٢٨/٢٩٣ رقم ١٧٠٦١].

فإنه ﷺ بذلك يخلص عقولهم وبصائرهم من ظلمة الوثنية وخبط الوثنية، فينفي عن الكائنات أن تكون مصدر أي فعل يحدث في الأرض أو السماء، ويرد الضمائر والعقول إلى السبب الحق والمصدر الأصيل لما يكون في عالم النفس أو الحس أو المادة والروح، إلى الله ﷻ.

ومفتاح هذا العلم الذي تنفتح به مصاريعه كلها، ويفضي إلى ما شاء الله من آفاق المعرفة ولباب الحق، هو أن يقترن شهود الخلق بذكر الخالق، أي شهود الفعل بذكر الفاعل، فإنه لا أثر بدون مؤثر، ولا صنعة بدون صانع، وتلك إحدى بديهيات المنطق، وتُسمى في معايير العقل بقانون السببية.

فمن شهد في المطر أنه فعل الله، فقد اجتاز أفقاً خطيراً من آفاق المعرفة والعلم، وإن بدا لأول وهلة أنه بديهي لا خطر له، وإلى هذا التعليم، وذلك الأفق وجهنا الحق ﷻ بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة]، فإذا أفرت ضمائرنا بأن الله هو الذي أنزله وشهدته البصائر حق شهوده، فهو أولى مراحل العلم القدسي الذي جاء من أجله رسل الله.

وتُعرف تلك المرحلة - لدى المتصوفين المتحقيقين - بمرحلة التحول من الكون إلى الفعل، أي مرحلة الانتقال من رؤية الكائنات الجامدة لا دلالة لها على فعل الفاعل الحق، إلى رؤيتها ذات دلالة على ذلك الفعل، فهو أثر المؤثر وصنعة الصانع، وفعل الفاعل الحق جل علاه.



ومن هذه المرحلة يبدأ المرء بشهود (معنى النعمة) في ذلك الفعل، فإنه ما من فعل له ﷺ إلا وهو حق، والحق هو النعمة الكبرى للعباد، فإذا تعلق فعل من أفعاله ﷺ بأمر من أمور معاشنا - كالمطر الذي أنزله سبحانه يوم الحديبية - فهو منفعة لنا حسية، ونعمة روحية، فأما أنه منفعة لنا حسية فواضح من أنه سبب حياة للنبات، والحيوان، والإنسان، فهو رزق طيب عميم، وأما أنه نعمة روحية فإن الإحساس بأن الله هو مُدَبِّرُ هذا الرزق، وهو مصدره، وهو سائقه، يشرق على القلب بصفة من صفاته هي أنه وحده الرزاق، وصفاته ﷺ حق، وهي حقيقة العلم القدسي، الذي تقوم به كل مقوماتنا الروحية، ووضوح تلك الصفة هو ما أراده ﷺ بقوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ بِالْكَوْكَبِ».

وهي نعم من جانب واحد، والنعمة حين تُجْزَى يتساوى طرفاها في الفضل، أو يكون لكل منهما خطة على تفاوت بينهما فيه، أما نعمته ﷺ فهي - كما أسلفنا - من جانب واحد، وقد بُدلت تَكْرُماً ومنة بحسب حاجتنا إليها، وهي تعز على الإحصاء حساً ومعنى، فالفضل فيها مقدور لجانبه وحده جل شأنه، وهي معان يعظم بها قدر النعمة في صدورنا، فلا يكون لذلك من أثر إلا شهود ذلك (الفضل) له ﷺ، وهو حقيقة أخرى، أو صفة جليلة من صفاته سبحانه التي تمنحها خصائص الوجود الحق، وتهب لحياتنا قيمها التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، وهو المعنى الذي أراده ﷺ بقوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ بِالْكَوْكَبِ».

ونمسك عن الاستمرار في شرح بقية الحديث الشريف، فما مضى منه يعين على فهم باقيه، فإننا لم نقصد الشرح، بل أردنا أن نعرض لوثناً من الحكمة التي كان يفتح بها رسول الله ﷺ بأمر الله ﷻ قلوب المؤمنين لما في الحياة من حقائق وقيم». [من أسرار الفتح للخولي ٥٢-٥٦].

#### ١٤ - ليس بعد تعظيم الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ مزيد ولا غاية:

يقول ابن حجر: «وَفِي قِصَّةِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا يُدُلُّ عَلَى جَوْدَةِ عَقْلِهِ وَيَقْطَعُ بِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْقِيرِهِ وَمُرَاعَاةِ أُمُورِهِ وَرَدِّعٍ مَنْ جَفَا عَلَيْهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَالتَّبَرُّكِ بِأَثَرِهِ». [فتح الباري ٣٤٢/٥].

ويقول الصالحى: «في تعظيم الصحابة ﷺ رسول الله ﷺ ما ذكره يعد إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه عروة من فرارهم، وكأنهم قالوا بلسان حالهم: من يجب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن به أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه ونصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضاً بمجرد الرحم». [سبل الهدى والرشاد للصالحى ١١٩/٥].

ويقول د/ فيض الله: «شهد أحد رسل قريش إلى النبي ﷺ وهو عروة بن مسعود، هذا الذي تحدثنا عنه أنفًا عن خشونته، وغلظته في مكالمته رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى قومه، شهد عندهم بما عاينه من إكبار الصحابة، وإعظامهم، وحفاوتهم، برسول الله ﷺ، مما لم يره ملك قبله ولا عظيم:

رأهم يتسابقون إلى تقديم وُضوئه، ويتمسحون بفضله، ويلتقطون شعره إذا سقط، يطرقون رؤوسهم عنده، ويغضون من أصواتهم إذا كلموه، وينصتون إلى حديثه في لهفة، ويستمعون إلى قوله في وعي، ولا يكادون يجروون على أن يُحْدِثُوا إليه النظر، تعظيمًا وإكبارًا؛ فقال لهم فيما قال: «إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِيهِ، وَجِئْتُ قَبْصَرٍ وَالنَّجَاشِيِّ فِي مُلْكِيهَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ - فِي قَوْمِهِ - مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ».

نعم! ليس أحد من الناس يجل أحدًا، مثل إجلال الصحابة رضي الله عنهم سيدنا رسول الله ﷺ، ومن قبل قال أبو سفيان لزيد بن الدثنة رضي الله عنه - كما تقدم في يوم الرجيع، وفيما رواه ابن إسحاق -: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا، كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا».

وإن حبه وإجلاله رضي الله عنه من حب الله وإجلاله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة].

ولا شك أن في الآية وعيدًا لمن فضّل هذه المذكورات، أو أحدًا منها، على حب الله ورسوله؛ ولهذا ثبت في الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

[البخاري في الإبان (١٤، ١٥)، ومسلم في الإبان (٤٤)، والنسائي في الإبان وشرائعه (٥٠١٣، ٥٠١٤، ٥٠١٥)،

وابن ماجه في المقدمة (٦٧)، ومسنند أحمد عن أنس رضي الله عنه ٢٠/٢٠٢، ٣٩٧ رقم ١٢٨١٤، ١٣١٥١ ومواضع أخرى].

وقال علي رضي الله عنه يصف حب الصحابة للنبي ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا، وَأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَأَحَبَّ إِلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا».

وتقدّم في غزوة أحد كيف كان الصحابة يُرْسُونَ النبي ﷺ بأنفسهم، ويتلقى أبو طلحة رضي الله عنه السهام بصدره، ويقول: «هَكَذَا، يَا أَيُّ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا يُصِيبُكَ سَهْمٌ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ».

وتقول أنصارية استشهد زوجها وأخوها وأبوها، بعد أن اطمأنت عن سلامة رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ»، أي هينة.

إن كلمة التوحيد لا تتكامل، والإسلام لا يستوي، إلا بالشهادة لمحمد رضي الله عنه بالرسالة، وإن توقيره وحبّه من نبع الإيمان، وفيض اليقين، وما التبرك بآثاره ووضوئه وشعره وما يتصل به، إلا من وميض الحب، ودفق الإكبار والتوقير.

وما كان أمرهم ليقف عند هذا الحد، بل كانوا يرجون مرافقته في الآخرة في أعالي الجنان، ولما رأى النبي ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذات ليلة وهو يصلي، قال له: سل تعطه، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيْمَانًا لَا يَزِيدُ، وَنَعِيمًا لَا يَنْقُذُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقُطُ، وَمُرَافَقَةً نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ، جَنَّةِ الْخُلْدِ». [مسند أحمد ٦/ ٣٤٦ رقم ٣٧٩٧، ٧/ ٢٨٧-٢٨٨، ٣٥٩ رقم ٤٢٥٥، ٤٣٤٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: صحيح بشواهده وهذا إسناد حسن].

إنه لا حد لفضل سيدنا رسول الله ﷺ علينا وعلى الناس، فلا أحد أجدر منه بحبنا وإجلالنا.

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٣٨٧-٢٨٨].

ويقول د/ الزيد: «في أثناء تلك المراسلة فعل الصحابة رضي الله عنهم شيئاً لا يفعلونه في العادة، كان ﷺ إذا تمنع تلقوا نخامته بأيديهم، ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا؛ لكن لأجل إذا ذهب رسول الكفار إلى الكفار بين لهم حال الصحابة مع نبيهم ﷺ».

[شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ١/ ٢٦١].

والمقصود من ذلك إغاظة العدو وإظهار توقير الصحابة رضي الله عنهم للرسول ﷺ.

[فقه السيرة للزيد ٥٣٦].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر بيان لشدة حب الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ واحترامهم له، وتأديبهم معه، وتبركهم به، ولقد أذهلت هذه المظاهرة عروة بن مسعود الثقفي فعاد يحكيها لقريش مع أن حكايتها مما يغيظهم، ولكن قوة التأثير بما شاهد غلبت على مداراتهم، فنطق بذلك الكلام الذي يعتبر عاملاً من عوامل الانهزام النفسي لدى الكفار، فإن الزعيم الذي يعامله أصحابه هذه المعاملة لا يتوقع منهم أن يفروا ويتركوه، وإنما المتوقع أن يشبوا معه، وأن يحموه ولو قُتلوا بين يديه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٠٦].

### ١٥ - هل يجوز التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم؟

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور ومروان: «فَوَاللَّهِ مَا تَنْخَمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهٌ وَجِلْدُهُ... وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتِيلُونَ عَلَى وَضْئِهِ...».

قال ابن حجر عند هذه القصة: «جواز التبرك بفضلات الصالحين الطاهرة». [فتح الباري ٥/ ٣٤١].

قلت: قد تطرق الشاطبي لهذه القضية وذكر كلاماً جيداً بين فيه إجماع الصحابة على ترك هذا الأمر: ووجه ذلك:

فقد ذكر الشاطبي ما في حديث المسور ومروان هذا، وأحاديث أخرى تماثله ثم قال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعاً في حق من ثبت ولايته واتباعه لسنة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضله

وضوءه ويتدلك بنخامته ويستشفى بآثاره كلها، ويرجى نحو مما كان في آثار المتبوع الأصل ﷺ [قال محقق كتاب الاعتصام: يظهر أن الجملة محرفة]، إلا أنه قد عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة رضي الله عنهم بعد موته ﷺ لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى من خلفه إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو كان خليفته ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثم كذلك عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركاً تبرك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسير التي اتبعوا فيه النبي ﷺ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء.

وبقي النظر في وجه ترك ما تركوا منه، ويحتمل وجهين:

أحدهما: أن يعتقدوا فيه الاختصاص وأن مرتبة النبوة يسع فيها ذلك كله للقطع بوجود ما التمسوا من البركة والخير، لأنه ﷺ كان نوراً كله في ظاهره وباطنه، فمن التمس منه نوراً وجدته على أي وجه التمس به بخلاف غيره من الأمة - وإن حصل له من نور الاقتداء به والاهتداء بهديه ما شاء الله - لا يبلغ مبلغه على حال توازيه في مرتبته ولا تقاربه، فصار هذا النوع مختصاً به كاختصاصه بنكاح ما زاد على الأربع، وإحلال بضع الواهبة نفسها له، وعدم وجوب القسم على الزوجات وشبه ذلك، فعلى هذا المأخذ: لا يصح لمن بعده الاقتداء به في التبرك على أحد تلك الوجوه ونحوها، ومن اقتدى به كان اقتداؤه بدعة، كما كان الاقتداء في الزيادة على الأربع نسوة بدعة.

الثاني: ألا يعتقدوا الاختصاص ولكنهم تركوا ذلك من باب سد الذرائع خوفاً من أن يجعل ذلك سنة - كما تقدم ذكره في اتباع الآثار - [ينظر: الاعتصام ١/ ٣٤٦]، والنهي عن ذلك، أو لأن العامة لا تقتصر في ذلك على حد بل تتجاوز فيه الحدود، وتبالغ بجهلها في التماس البركة، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج به عن الحد، فربما اعتقد في المتبرك به ما ليس فيه، وهذا التبرك هو أصل العبادة، ولأجله قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بوع تحتها رسول الله ﷺ، بل هو كان أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية - حسبما ذكر أهل السير - فخاف عمر رضي الله عنه أن يتهدى الحال في الصلاة إلى تلك الشجرة، حتى تُعبد من دون الله، فكذلك يتفق عند التوغل في التعظيم...

إلى أن قال: وقد يظهر بأول وهلة أن هذا الوجه الثاني أرجح لما ثبت في الأصول العلمية أن كل قربة أعطيها النبي ﷺ فإن لأمته أنموذجاً منها ما لم يدل دليل على الاختصاص.

إلا أن الوجه الأول أيضًا راجح من جهة أخرى، وهو إطباقهم على الترك إذ لو كان اعتقادهم التشريع لعمل به بعضهم بعده أو عملوا به ولو في بعض الأحوال، إما وقوفًا مع أصل المشروعية، وإما بناء على اعتقاد انتفاء العلة الموجبة للامتناع.

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال: حدثني رجل (هو: عبد الرحمن بن أبي قراد رضي الله عنه). الترغيب والترهيب ٣/ ٥٨٩) من الأنصار أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أو تنخم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ونخامته فشر به ومسحوا به جلودهم، فلما رأهم يصنعون ذلك سألهم: (لم تفعلون هذا؟)، قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلْيُصِدِّقْ الْحَدِيثَ، وَلْيُؤَدِّ الْأَمَانَةَ، وَلَا يُؤْذِ جَارَهُ».

[هذا الحديث قال عنه الألباني: هو حديث ثابت له طرق وشواهد في معجمي الطبراني وغيرهما، وقد أشار المنذري في الترغيب ٣/ ٢٦ إلى تحسينه، وقد خرجته في الصحيحة برقم ١(٢٩٩٨) هـ. التوسل: ١٤٧ حاشية (١)].

فإن صح هذا الحديث فهو مشعر بأن الأولى تركه وأن يتحرى ما هو أكد. [الاعتصام ٨/ ٢ وما بعدها].  
وبهذا يتبين أن ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم مع النبي ﷺ من التبرك لا يُقاس عليه غيره فيه لما خصه الله ﷻ به من أمور لا توجد في أحد غيره ﷺ، ولأنه لو كان جائزًا مع غيره لسارع الصحابة رضي الله عنهم - وهم أحرص الناس على الخير - إلى فعله مع أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ، ومن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، لكنه لم يحصل شيء من ذلك، بل أفاد حديث عبد الرحمن بن أبي قراد هذا: أن الأولى تركه حتى مع النبي ﷺ والانصراف إلى ما هو أولى وأنفع، ولعل سكوت النبي ﷺ عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروة بن مسعود رسول قريش مدى تعلق الصحابة رضوان الله عليهم بالنبي ﷺ وحبهم له لا سيما وقد قال للنبي ﷺ: «وَلَيْتَ لَأَرَى أَوْشَابًا (أَخْلَاطًا) مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ».

[مرويات الحديبية للحكمي ٥٤٧-٥٥١].

#### ١٦ - حكم التوسل والتبرك بآثار النبي ﷺ:

يقول د/ البوطي: «قلنا إن عروة بن مسعود، جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فَوَاللَّهِ مَا تَنَحَّمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَابَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِيدُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ».

إنها لصورة بارزة حية أوضحها عروة بن مسعود لمدى محبة أصحاب رسول الله ﷺ له، وإن فيها لدلالات هامة يجب أن يقف عندها كل مسلم.

إنها تدل أولاً: على أنه لا إيمان برسول الله ﷺ بدون محبة له، وليست المحبة له معنى عقلياً مجرداً، وإنما هي الأثر الذي يستحوذ على القلب فيطبع صاحبه بمثل الطابع الذي وصف به عروة بن مسعود أصحاب رسول الله ﷺ.

وهي تدل ثانياً: على أن التبرك بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع، ولقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن التبرك بسَّعَر النبي ﷺ وعَرَقه، ووضوئه، وبصاقه، والقدح الذي كان يشرب فيه ﷺ، وقد ذكرنا تفصيل بعض هذه الأحاديث فيما مضى.

وإذا علمت أن التبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته، علمت أن التوسل بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع، فضلاً عن التوسل بذاته الشريفة.

وليس ثمة فرق بين أن يكون ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته، فأثار النبي ﷺ وفضلاته، لا تتصف بالحياة مطلقاً، سواء تعلق التبرك والتوسل بها في حياته أو بعد مماته، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في باب شيب النبي ﷺ.

ومع ذلك فقد ضل قوم لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله ﷺ وراحوا يستنكرون التوسل بذاته ﷺ بعد وفاته، بحجة أن تأثير النبي ﷺ قد انقطع بعد وفاته، فالتوسل به إنما هو توسل بشيء لا تأثير له البتة! وهذه حجة - كما ترى - تدل على جهل عجيب جداً!

فهل ثبت لرسول الله ﷺ تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته، حتى نبحت عن مصير هذا التأثير بعد وفاته؟! إن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في الأشياء لغير الله الواحد الأحد ﷻ، ومن اعتقد خلاف هذا يكفر بإجماع المسلمين كلهم.

فمناط التبرك والتوسل بآثار النبي ﷺ وبه ليس هو إسناد أي تأثير إليه، والعياذ بالله، وإنما المناط كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وكونه رحمة من الله على العباد، فهو التوسل بقربه ﷺ إلى ربه، وبرحمته الكبرى للخلق، وبهذا المعنى توسل الأعمى به ﷺ في أن يرد عليه بصره، فرده الله عليه (سيأتي تحريجه في الهامش التالي)، وبهذا المعنى كان الصحابة رضي الله عنهم يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أي إنكار، وقد مرَّ في الكتاب بيان الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء بما فيهم الشوكاني وابن قدامة الحنبلي، والصنعاني وغيرهم. والفرق بعد هذا بين حياته وموته ﷺ خلط عجيب وغريب في البحث لا مسوغ له».

[فقه السيرة للبوطي ٢٥٣-٢٥٤].

ويقول الشيخ القرني: «وفي حديث عروة بن مسعود لقريش ما يدل على الحب الشديد من جانب المسلمين للنبي ﷺ، فقد أخبرهم بأن المسلمين يتنافسون في محبته ويتسابقون إلى التبرك بآثاره، فهم يبتدرون ما تبقى من وضوئه للانتفاع ببركته، والتوسل بآثار النبي ﷺ وجاهه أمر مشروع لا ينكره إلا كل من سُدت في وجهه نوافذ محبة النبي ﷺ، وقد أورد الترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم عن عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ؓ أَنَّ رَجُلًا ضَرَبَ الْبَصَرَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قَالَ: فَادْعُهُ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنُ وُضُوئَهُ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ». وزاد النسائي: «فَرَجَعَ وَقَدْ كُشِفَ لَهُ عَنْ بَصَرِهِ».

[الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٧٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي وعثمان بن حنيف هو أخو سهل بن حنيف، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة الحاجة رقم ١٣٨٥، وقال الشيخ الألباني عنها: صحيح، والنسائي في السنن الكبرى ٩/٢٤٤-٢٤٥ كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٤١٩-١٠٤٢١)، ومسنند أحمد ٢٨/٤٧٨ رقم ١٧٢٤٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات، والمستدرک للحاكم ١/٧٠٨ كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر رقم ١٩٦١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي].

وزاد الطبراني قصة له، فروى عن عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ؓ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَحْتَلِفُ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؓ فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَكَانَ عُثْمَانُ ؓ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلَا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ ابْنَ حُنَيْفٍ فَشَكَى ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: أَتَيْتِ الْمِيضَةَ (مُطَهَّرَةٌ كَبِيرَةٌ يُتَوَضَّأُ مِنْهَا. والإناء الذي يُتَوَضَّأُ مِنْهُ كَالإَبْرِيقِ وَغَيْرِهِ، وَهِيَ اسْمُ لِمَكَانِ الْوُضُوءِ) فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ أَتَيْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلَّ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فَتَقْضِي لِي حَاجَتِي وَتَذْكُرَ حَاجَتَكَ، وَرُوحَ حَتَّى أَرْوَحَ مَعَكَ، فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ فَصَنَعَ مَا، قَالَ لَهُ، ثُمَّ أَتَى بَابَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؓ، فَجَاءَ الْبَوَابُ حَتَّى أَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ؓ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى الطَّنْفَسَةِ حُنَيْفًا، فَقَالَ: حَاجَتُكَ؟ فَذَكَرَ حَاجَتَهُ وَقَضَاهَا لَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا ذَكَرْتُ حَاجَتَكَ حَتَّى كَانَ السَّاعَةُ، وَقَالَ: مَا كَانَتْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَأَذْكُرْهَا، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ، فَقَالَ لَهُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مَا كَانَ يَنْظُرُ فِي حَاجَتِي وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ حَتَّى كَلِمَتُهُ فِيَّ، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: وَاللَّهِ مَا كَلِمَتُهُ، وَلَكِنِّي شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ ضَرَبَ فَشَكَى إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَتَصَبَّرْ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ لِي قَائِدٌ وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَيْتِ الْمِيضَةَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ ادْعُ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ»، قَالَ ابْنُ حُنَيْفٍ: فَوَاللَّهِ مَا

تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثَ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضَرْقٌ.

[المعجم الكبير للطبراني ٩/ ١٧-١٨ رقم ٨٣١١، والمعجم الصغير للطبراني ١/ ٣٠٦-٣٠٧ رقم ٥٠٨، ومجمع الزوائد

٢/ ٣٣٠ في الصلاة رقم ٣٦٦٨، وقال الهيثمي: قلت روى الترمذي وابن ماجه طرفاً من آخره خالياً عن القصة، وقد قال

الطبراني عقبه: والحديث صحيح بعد ذكر طرقه التي روي بها]. [هدي السيرة للقرني ١٨٥-١٨٦].

#### ١٧ - المبايعة على الموت في سبيل الله من أعظم أسباب مرضاة الله:

يقول د/ فيض الله: «بايع الصحابة النبي ﷺ على جهاد الكفار يوم الحديبية، حتى الموت، وعلى ألا

يفروا من القتال، وذلك لما أشيع أنهم قتلوا رسوله إليهم، عثمان بن عفان ؓ.

وقد سمع الله - تعالى - هذه البيعة، وعلم بصدق نوايا الصحابة المبايعين، فبارك هذه البيعة، وجعل

فيها رضاه، ووعد المسلمين من ورائها فتحاً قريباً للإسلام، ومغانم وخيرات كثيرة للمسلمين، وأنزل

فيها قرآناً يثلي، سجّل فيه نماذج التضحية المثلّية، ونداء الدعوة الفريد، وجعل من الصحابة المبايعين أنجم

هدى، وأمثلة تُحتذى، على مر التاريخ، وتعاقب الأجيال.

والخشية كل الخشية من أن تُتخذ هذه البيعة مثلاً للمسلمين، شكلياً لا عملياً، فيبايعون على الموت،

للهتاف والشعارات والهالات، فإذا ما جد الجدد، وطولوا بتنفيذ بيعتهم، تولوا معرضين، وتؤول البيعات

إلى هيئات وصيحات، تُستغلّ في المناسبات، ثم لا تجد لها رصيذاً ولا وجوداً، في ساحات الوغى،

وميادين القتال.

ففي مثل هذه الظاهرات، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا

عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف].

ومن قبل وَعَدَ المنافقون في المدينة، بنصر الله، ثم أخلفوا، وأعطوا العهود على أن يقاتلوا مع المسلمين،

فلما جد الجدد، ووجب القتال، انسحبوا منهزمين، فنزلت هذه الآية، كما جاء في بعض أسباب نزولها.

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٨٩-٢٩٠].

#### ١٨ - السمة الجديدة لهذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أكدت بيعة الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ سمة بارزة في هذا الدين، إنها

سمة الجدية؛ ذلك لأن هذا الدين يواجه الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، والفكر

بالفكر.

ولا يقف عند هذا إذا ما استخدم أعداؤه القوة للفتك بأهله، إنه يستخدم القوة لدفع المعتدين، وهذه

الجدية هي القوة التي ترغم العدو على التدبر قبل أن يتخذ أي قرار يؤذي المسلمين، تأمل معي حينما أخذ

الرسول ﷺ البيعة على القتال أي مهاجمة مكة والدخول إليها عنوة مهما كانت النتائج.



وتدافع المؤمنون يعطونها للرسول ﷺ وسمعت قريش بما حدث، لقد أرسلت عثمان رضي الله عنه سريعاً، وأوفدت سهيل بن عمرو ليعقد هدنة مع المسلمين». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٦-٩٧].

### ١٩- تعظيم الإسلام للبيت الحرام:

يقول د/ الحميدي: «في حبس ناقة رسول الله ﷺ عن المسير عبرة عظيمة في تعظيم حرمة الحرم، فقد شاء الله ﷻ أن ينه رسول الله ﷺ إلى تفادي القتال في الحرم، ولو صُدَّ عن البيت وعاد هو وأصحابه بغير عمرة؛ تعظيماً للحرم؛ ولذلك قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) حُطَّةً (الخطيئة) الأمر والحال والخطب) يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ يَأْهَأُ».

ومن ذلك عفوهُ ﷺ عن فرقة من المشركين حاولوا الهجوم على المسلمين فأخذوهم أسرى، وقد أخرج ذلك الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٠٥].

ويقول د/ أبو خليل: «وتمر خلال هذه الأحداث - أي أحداث بيعة الرضوان - قافلة فيها عدد من المشركين يريدون العمرة، فقال بعض المسلمين لما صُدَّ رسول الله ﷺ عن البيت: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فهؤلاء المشركون ليسوا قوة تقف على الحياد بين المسلمين والمشركين، إنهم قوة رافدة لقريش زعيمة الوثنية في جزيرة العرب، يشكلون دعماً بشرياً لها في حروبها. [راجع بحث (واجبات الدول المحايدة) في كتاب: الحرب في القانون الدولي العام للعميد بشير مراد، طبعة ١٩٧٣م، ص ٢١٩ وما بعد، وما جاء ص ٢٢٣: (يبدأ حياد الدولة المحايدة والتزامها بواجبات الحياد منذ تاريخ علمها بقيام الحرب وإفصاحها عن رغبتها بالوقوف على الحياد)].

ومع ذلك؛ تعظيماً للبيت الحرام، ولما في العمرة من احترام للبيت العتيق أنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا أَشْهَرَ الْحَرَامِ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيْدَ وَلَا ءَائِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً﴾ [المائدة: ٢].  
[صلح الحديبية لأبي خليل ٨٦، وينظر درس «تقرير مبدأ تعظيم حرمة البيت الحرام» في الدروس السياسية].

### ٢٠- مهمة الرسول ﷺ ومستشاريه الميامين الصادقين ﷺ:

يقول صاحب الظلال: «عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوهاً بوظيفته، مبيناً للغاية منها، موجهاً المؤمنين إلى واجبه مع ربهم بعد تبليغهم رسالته، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة، وعقد العقدة معه جل جلاله، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه، وفي ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ (١٠) [الفتح].

فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها، يشهد أنه بلغها ما أمر به، وأنها استقبلته بما استقبلته، وأنه كان منها المؤمنون، ومنها الكافرون، ومنها المنافقون، وكان منها المصلحون ومنها

يقول الشيخ الخولي: «ومن ذلك ترى أنه ﷺ كان شديد الاهتمام بتعليم أمته كيف يحيون الحياة الطيبة، وقد قلنا في مقدمة هذه الرسالة: أنه «ليست العبرة بما يكون من سلم أو حرب، إنما العبرة بأن تكون في حياة المرء قيم عليا، وأن تكون تلك القيم هي مناط همته وقوام أمره، فإذا كَلَّفْتَهُ أن يسالم سالم، وإذا كَلَّفْتَهُ

أن يحارب حارب، ورب حرب أجدى على الإنسانية من سلم، والناس بخير ما كانت لهم قيم عليا يحسنون - في سبيلها - إثار الموت، كما يحسنون - من أجلها - أن يختاروا الحياة».

قلنا ذلك تعليقاً على قول من لم ينظر في صلح الحديبية سوى رغبة السلم التي أبداهها رسول الله ﷺ، ورتب عليها من البطولة له ﷺ ما رتب، وهو نظر محدود المدى لا يلم بجوهر الموقف، فإنه ﷺ قد بُعث بالحرب كما بُعث بالسلم، وقد أنزل عليه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وأنزل عليه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وأنزل عليه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِعْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وأنزل عليه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَاحِ وَأَسْتُرُوا أَلَعَلَّوْنَ ءَالَهُ مَعََكُمْ وَلَٰكِنْ يَزِيدُكُمْ ءَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد ﷺ]، ولا تعارض في هذا - إطلاقاً - ولا تناقض إلا في رأي من قلد وثنية الغرب في أنه لابد من (سلم) على أي حال بأي ثمن ؛ لأنه لابد من (حياة) على أي صورة، في أي مستوى.

والحق في تقويم الموقف النبوي أنه ما كان ينبغي سلماً للسلم، ولا حرباً للحرب، فأساس رسالته أنه مُعَلِّمُ حياة، نودي إليها المؤمنون بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ووسيلته عقائد صحيحة يغرسها في ضمائر الناس، فإذا هي بصائر وقوى منشئة ترى في الحياة غير قيم الطعام والشراب، وتبدع في عالم الحق ثمراً تشرف به قيمة الإنسان، أو إذا هي حياة قدسية كريمة قوامها الحق، وعملها عبادته، وإبداع مثله، وتحقيق مبادئه، وإقامة أوضاعه.

ووجدانها السعادة به، والغيرة عليه، والفرح بنصره، والتوفيق فيه.

فهي حياة غير التي عرفناها محكومة بقيود الحس ورق الضرورة، ووجود لا يدركه الموت إذا عدت على البدن عوادي الفناء.

وهذا يكون للحياة والموت - في نظر الإنسان - تقويم جديد، ومعنى غير الذي نعهده في مألوف العادة، ونرى المؤمن يحيا في عقائده ؛ لأنها لب حياته، وحقيقة وجوده، فهي حياة له إذا مات، وهي حياة له إذا بقي على الأرض.

وإذ يستوي لديه الأمان، فلا خيار له في أحدهما، إلا ما يقتضيه منطق القيم والأهداف، وبهذا المنطق يتقرر ما يجب أن يكون من سلم أو حرب.

هذا هو التقويم الحق لموقفه ﷺ في الحديبية، وقد بينه وأجزه في قوله لبشر بن سفيان وبديل بن ورقاء: «فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشُ؟ ! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ، أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»، ووضع يده على صفحة عنقه.

ففي الوجود - إذن - قيم، ومبادئ، وحقائق، وواجبات، أقوم من حياة الحس، هي التي يتقرر على ضوئها متى يكون الموت، ولماذا تكون الحياة.

وعلى هذا الأساس كانت البيعة تحت الشجرة على الموت كما جاء في البخاري.

وكان أول من بايع سنان بن أبي سنان الأسدي رضي الله عنه، إذ قال للنبي ﷺ: أبسط يدك أبايعك، فقال ﷺ:

«علام تباعيني؟»، فقال أبو سنان رضي الله عنه: على ما في نفسك، قال ﷺ: «وما في نفسي؟»، قال: أضرب بالسيف

بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل، وصار الناس يقولون: نبايعك على ما بايعك عليه سنان.

لقد بلغه ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قتل، قتلته قريش وقد أرسله إليها رسولاً يعرض عليهم أنه جاء زائراً

للبيت، مُعظماً لحرمته، ولم يجرى لحرب، وقتل السفير أو الرسول الذي لا جريرة له فيما يبلغ.

وهذا شر يستعلن، وباطل يتعرض لناواة الحق، وما كان الحق - وهو القيمة الأصلية في الوجود،

والسلطان القائم في الكون - ليستخذي أمام هذا الشر، فكان رفع الروح المعنوية للمسلمين بتلك البيعة،

هو الإجراء الحكيم الذي يمثل منطق الموقف.

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْعَةِ، وَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ: أَلَا إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

ﷺ فَأَمَرَ بِالْبَيْعَةِ، فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، فَبَايعُوا.

وكان يشد لهم البيعة بمثل قوله: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، لا يحمسهم بالباطل بل يذكر لهم حقيقة

حالمهم، فليس في الشرق حيث كسرى، ولا في الغرب حيث قيصر، ولا في شمال الأرض أو جنوبها، قوم

يخرجون عن حياتهم للحق، ويبيعون نفوسهم لله إلا هؤلاء، وإعلان الثناء الحسن في مثل هذه المواقف

من الحكم المهمة التي يرفع بها القائد الموفق روح أتباعه، ويضاعف ثقتهم بأنفسهم وأهدافهم.

ومن شأنه ﷺ في ذلك ما رواه صاحبه أبو سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قَالَ: ... ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا

بِالْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، وَبَايَعَ، وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ مِنَ النَّاسِ قَالَ: «يَا

سَلَمَةُ بَايَعْنِي»، قَالَ: قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَيْضًا فَبَايَعَ»، وَرَأَيْتُ أَعَزَّ لَا - أَيَّ أَعَزَّ

لَا سِلَاحَ لِي - فَأَعْطَانِي حَجَّةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ، قَالَ: «أَلَا تَبَايَعْنِي»،

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ بَايَعْتُ أَوَّلَ النَّاسِ وَأَوْسَطَهُمْ وَآخِرَهُمْ، قَالَ: «وَأَيْضًا فَبَايَعَ»، فَبَايَعْتُهُ، ثُمَّ

قَالَ: «أَبِينَ دَرَقَتَكَ أَوْ حَجَفَتَكَ الَّتِي أُعْطَيْتَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَبَنِي عَمِّي عَامِرٌ أَعَزَّ لَا فَأَعْطَيْتُهُ

إِيَّاهَا، قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ: اللَّهُمَّ ابْغِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي»، وَضَحِكَ.

فهل علمنا دعوة للموت أسمى من هذه الدعوة؟ وتعليلًا للحياة أقدس من ذلك التعليم؟

وكان من شأنه ﷺ أيضًا أنه ذكر عثمان رضي الله عنه فأحب أن يكون له نصيب في شرف هذا الموقف، فباع نفسه نيابة عنه وقال: «إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ»، وضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ خيرًا لعثمان رضي الله عنه من يد نفسه.

على أن لب الحكمة لا يقتصر على مجانسة البيعة لمنطق الموقف، فإنها بيعة على الموت كما نعرف، والبيعة من البيع، أمر يتضمن المعاونة والمبادلة، فهم إذ يبذلون الحياة، إنما يبذلونها بعوضها من حياة أعلى، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَرٍ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ لِيُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُوا وَيُقْتَلُوا وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِمَا بَعَثَ اللَّهُ الَّذِي بِالْغُزَا الْعَظِيمِ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] في الحقيقة، وما أنت إلا سفير الصفقة، ووسيط البيع، وما كان ذلك كله إلا عن بصيرة أدركت قيم الحياة، وميزت فاضلها من مفصولها، فابتعت لنفسها ما هو أذكى وأفضل، وسمت في التجرد من علائق الخس فأقبلت على بذل الوجود المادي؛ إيثارًا للوجود هو أقدس وأسمى.

نعم ما كان ذلك إلا عن بصيرة مدركة لأقدار القيم، ووجوه الترجيح بين الصفقات، وإلا لما كان بيع، وما كان موت، ففانون المعاوضة بعض فطرة الإنسان، والحياة أعز على من لا يملك أغلى منها، ولقد كان في القوم بعض من لا بصائر لهم من المنافقين، فلم يشهد العوض الذي شهدوه، فأبى أن يبذل في غير عوض متيقن، فهرب من البيعة، واستخفى تحت ذراع ناقتة، قال ابن إسحاق: «فَبَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، فَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا صِقًا يَأْبِطُ نَاقَتِهِ، قَدْ صَبَأَ إِلَيْهَا، يَسْتَبْرِئُ بِهَا مِنَ النَّاسِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٣١٦/٢]

وهذا الحذق في الموازنة والترجيح بين القيم هو أسمى ما تقوم به الأعمال في الحياة، ويرفعها إلى مرتبة الإحسان، وقد لمح بعض المفسرين هذا المعنى في قول: تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فرأى أن اليد في الموضعين بمعنى الإحسان والصنيعة - كما تذكر كتب اللغة - ووجه المعنى إلى أن «نعمة الله عليهم في الهداية إلى الإيمان فوق ما صنعوا من البيعة»، فبيعتهم على القتال والموت ضرب من الإحسان في تصريف القيم، ولكن إحسان الله إليهم بما وهب من بصائر الإيمان وصدق التمييز أعلى وأجل.

وإذا كنا نقرر بهذا شأن طراز من البشر تحلم الإنسانية اليوم بمثاله، فلا ننسى أننا بلازاء حكمة رسول الله ﷺ التي كان يعلم بها الناس فضيلة الموت، كما يعلمهم فضيلة الحياة. [من أسرار الفتح للخولي ٥٦-٦٠].

## المبحث الثاني

### الدروس التربوية والأخلاقية

#### ١ - بواعث وأسباب غزوة الحديبية:

يقول د/ أبو فارس: «من خلال دراستنا للغزوة وللأحداث التي سبقتها وصاحبها، ومن خلال دراسة الظروف والملابسات التي كانت في تلك الحقبة من الزمن ظهر لنا أن هناك جملة من البواعث والأسباب والمبررات لهذه الغزوة:

(١) إن مكة المكرمة والبيت الحرام، وسائر أمكنة الشعائر التعبدية فيها معظمة عند القبائل العربية قبل الإسلام، وزاد هذا التعظيم والمهابة في نفوس العرب المسلمين بعد إسلامهم؛ لما علموه من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة النبي ﷺ، فهي أول بيت وُضع للناس، وحرمة عند الله تبارك وتعالى عظيمة، وثواب الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وما إلى ذلك من أمور.

(٢) إن من حق كل إنسان أن يعظم البيت الحرام، ويسوق له الهدى، ويظوف ويسعى، وإن المسلمين هم أولى الناس بالبيت الحرام وليس لواحد من الناس أن يصدّهم عن مسجدهم، وإلا فهو يستحق التنكيل والعقوبة من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعِدُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال].

(٣) نعم إن المؤمنين أولى من المشركين بهذا البيت المعظم؛ لأنهم عمّاره حقيقة ومجازاً. فالمهاجرون الذين أخرجوا منه ومن ديارهم هم الذين شاركوا في بناء الكعبة، ورسول الله ﷺ قد وضع الحجر الأسود بيده الشريفة في مكانه من الكعبة، وسلّم له الجميع يومها بأهليته لهذا الشرف، ورضي به الجميع حكماً، وخضعت كل القبائل لحكمه وسارت بعدالته وحكمته الركبان.

والمهاجرون والأنصار هم عمّاره بالصلاة والذكر والدعاء والعبادة والتعظيم والإجلال والمهابة، أما المشركون فنجس ليسوا أهلاً لذلك، قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفَرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [١٧] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ [١٨]. [التوبة].

(٤) إن قسمًا كبيرًا من المسلمين هم من المهاجرين الذين خرجوا فرارًا بدينهم من مكة، وتركوا ديارهم وأموالهم وأقرباءهم، أليس من حق هؤلاء أن يشفوا غليلهم ويبلوا ظمأ حنينهم برؤية أوطانهم ومقدساتهم وإخوانهم المستضعفين في مكة؟

نعم إن الحنين للأوطان وحبها أمر أقره الشرع وشجعه، ولا أدل عليه من قول الرسول ﷺ حين غادر بطاح مكة حزينا: «وَاللَّهِ إِنَّكَ [إِنِّي لَأَعْلَمُ إِنَّكَ] لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». [الترمذي في المناقب رقم (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، ومسنند أحمد ١٠ / ٣١٥ رقم (١٨٧١٥، ١٨٧١٦)، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح، وسنن الدارمي في السير (٢٥٥٣)، وصحيح ابن حبان ٩ / ٢٢ رقم (٣٧٠٨)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والمستدرک للحاكم ٨ / ٣، ٣١٥، ٤٨٩ رقم (٤٢٧٠، ٥٢٢٠، ٥٨٢٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والمعجم الأوسط ١ / ١٤٤ رقم (٤٥٤)].

(٥) أليس المسجد الحرام والكعبة المشرفة قبلة المسلمين يتوجهون إليها بقلوبهم وبجوارحهم في كل صلاة آناء الليل وأطراف النهار، امتثالاً لقوله ﷺ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]. أليست هذه القبلة التي تعلق بها قلب رسول الله ﷺ وهو يصلي جهة بيت المقدس، وتمنى أن تكون الكعبة قبلته، فمن الله عليه بذلك، قال: ﴿قَدْ رَأَى نَقْلُوبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٦) ست سنوات مضت على المسلمين لم تكتحل عيونهم برؤية البيت الحرام، ولم يتمكنوا من الصلاة فيه، والطواف حول البيت العتيق والسعي بين الصفا والمروة، لقد كانوا في شوق عظيم لهذا كله وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ.

(٧) لقد أرى الله ﷻ رسول الله ﷺ في منامه أنه قد دخل وأصحابه البيت الحرام آمنين محلقيين رؤوسهم ومقصرين، فسر رسول الله ﷺ وأخبر أصحابه بذلك، وأخبرهم أنه يريد العمرة، وندبهم إليها كما ندب الأعراب حول المدينة.

وفي هذه الرؤيا قال ﷻ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

(٨) تحرك رسول الله ﷺ بألف وأربعمائة من المسلمين علنا لا خفية في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة النبوية قاصداً زيارة بيت الله الحرام، وحاولت قريش جاهدة حرمانهم من حقهم المشروع في أداء النسك، إلا أنها لم تفجح، ووقع الصلح بين الطرفين في الحديبية.

(٩) وقد يدور بخلد القارئ الكريم تساؤل هو: لم اختار النبي ﷺ أن يعتمر في العام السادس من الهجرة، حيث صبر هو ومن آمن معه هذه المدة الطويلة التي بلغت ست سنوات.

ونحسب - والله ﷻ أعلم - أن الرسول ﷺ والمسلمين قد انشغلوا في بناء الدولة الإسلامية، وتثبيت أركانها، وإنشاء مؤسساتها الإدارية والعسكرية والتربوية.

لقد قضوا ست سنوات مع أعداء الدعوة الإسلامية ودولتها في الداخل والخارج في معارك طاحنة، وسرايا متعددة، ومناوشات لم تنقطع، حتى استتب لهم الأمن، وثبت البنيان شامخ الأركان.

ثم إن الظروف المحلية والدولية كانت مواتية ومناسبة لزيارة الرسول ﷺ:

(أ) فالنبي ﷺ طهر المدينة من رجس اليهود، فأجل على عنها يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، وقتل محاربي بني قريظة، وسبى نساءهم وذرايرهم، وقسم أموالهم على المسلمين.

(ب) إن المنافقين في المدينة بعد ست سنوات قد خضدت شوكتهم، وضعفت قوتهم بالقضاء على حلفائهم يهود.

(ج) إن القبائل العربية الطامعة قد يئست من النبل من المسلمين أو التأثير عليهم، أو التفكير في احتلال المدينة، أو مهاجمتها؛ لأن تجاربهم الماضية مع المسلمين أعطتهم دروساً قاسية ورادة، إذ لاحقتهم جيوش المسلمين، وغزتهم في عقر دارهم، فلم يصمدوا للقاء المسلمين بل فروا فرار الحمار من الأسد تاركين وراءهم أبناءهم ونساءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، وملاً الذعر قلوبهم، وأصبحوا يتوجسون خيفة من المسلمين.

(د) إن أحزاب الشرك التي اجتمعت لاستئصال شأفة المسلمين في العام الخامس من الهجرة النبوية لم تفلح في خطتها، بل عادت تجر وراءها أذيال الهزيمة، ولا تفكر قبيلة في غزو المسلمين منفردة بعد أن فشلت الأحزاب مجتمعة في التأثير على المسلمين.

(هـ) أصبحت المدينة في هذه الفترة بلداً إسلامياً خالصاً ليس فيه عدو ذو شأن يمكن أن يؤدي المسلمين.

(و) أما اليهود في حصون خيبر فقد رأوا ما حل باليهود في المدينة، وهم يتوجسون خيفة من أمرهم، بل إنهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد رسول الله ﷺ. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٢-١٥].

ويقول د/ عماد الدين خليل: «من مركز القوة الذي أحرزه المسلمون بعد الخندق قرر الرسول ﷺ أن ينطلق ليعتمر بأصحابه في مكة؛ مستهدفاً تحقيق أهداف ثلاثة:

أولها: إشعار الناس جميعاً أن علاقات الإسلام بالقوى الأخرى ليس شرطاً لها أن تظل قائمة على الحرب والعنف والقتال، وأن بالإمكان أن تسودها فترات من السلم والتهادن والتعايش المشترك على خلاف المذاهب والاتجاهات.

وثانيها: تجميد الصراع ضد قريش، ذلك الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة الإسلامية، والالتفات إلى الجهات الأخرى لغرض التركيز عليها، ولا سيما بعد التصعيد الذي شهده الصراع ضد اليهود من جهة وضد البيزنطيين وحلفائهم نصارى العرب من جهة أخرى.



وأما ثالث الأهداف: فهو إقرار حقيقة أن مكة ومقدساتها ليست حِكْرًا على الوثنية تمارس فيها تقاليدها بحرية، وتسيطر على مقدراتها، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء.. على العكس، إن المسلمين أحفاد إبراهيم عليه السلام أبي الحنيفة، وباني الكعبة، أحق وأجدر بدخول الحرم الآمن، وممارسة شعائرتهم على التوحيد الخالص، الذي من أجله أُقيم البلد الحرام في الواد غير ذي الزرع.

ثم إن المسلمين المهاجرين ورسولهم ﷺ لازالوا يحنون إلى وطنهم القديم، ويطوون جوانحهم — عبر سني الصراع الطويل — على الشوق العارم إلى الديار التي وُلدوا فيها، وترعرعوا بين أكنافها، وآثروا دعوة الحق بين طرقاتها وأحيائها.. الحنين الذي كان بلال رضي الله عنه قد باح به في أيام الهجرة الأولى، والحمى تعتصمه:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً  
بَفَحٍّ وَحَوْلِي إِذْ خَرُّ وَجَلِيلُ  
وَهَلْ أَرِدُنَّ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَةٍ  
وَهَلْ يَذُونُ لِي شَامَةً وَطْفِيلُ

وها هو الرسول ﷺ يجيب على السؤال ويعلن — في ذي القعدة — أنه سيتجه إلى مكة معتمرًا لا يريد حربًا، ويستنفر العرب وأهل البوادي من حوله ليخرجوا معه، ويخشى أن تعرض له قريش بحرب أو تصده عن البيت». [دراسة في السيرة لخليل ١٨٥].

ويقول أ/ كولن: «كانت الكعبة آنذاك مملوءة بالأصنام، كما كانت هناك أصنام عديدة حول الكعبة، كان طواف المشركين حول الكعبة شيئًا يدعو إلى السخرية ويخلو من معنى الطواف؛ لذا وصف القرآن طوافهم هذا بأنه مكاء وتصدية، (قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥])، كانوا يصفقون بأيديهم ويصفرون، وكانت النساء يطفن — ولا سيما في الليل — عاريات قد خلعن ملابسهن بحجة أنه لا يجوز الطواف بالملابس التي اقترفن الذنوب فيها [مسلم في التفسير (٢٥)، والنسائي في المناسك (١٦١)]، كان طوافًا للرجال والنساء مختلفًا تمامًا مستندًا إلى أسس أخرى لعهد آخر يصعب علينا فهمه وشرحه.

كان الرسول ﷺ يود بيان كيف يكون الطواف وكيف تؤدي العمرة، كان هذا هو غايته الأولى، أما الثانية فهي إظهار أن الكعبة ليست ملكًا للمكيين أو القرشيين فقط، وأن الآخرين أيضًا حقًا فيها، والحقيقة أن لرسول الله ﷺ الذي سبي إلى الكعبة شرفها وشهرتها ومجدها ولجأته المقدسة حقًا أكبر من الآخرين، والكعبة كانت قد أصبحت منذ مدة طويلة مثل محراب فارق منبره، فكان رسول الله ﷺ يريد أن يقرب المنبر الذي وضعه في المدينة من المحراب؛ ذلك لأن الكعبة هي محرابنا الأبدي ومحراب النبي ﷺ قبل أي أحد، وقد توجه فترة من الزمن في صلاته إلى المسجد الأقصى لوجود الأصنام في الكعبة، ولكن نظره كان يتقلب في السماء إذ لم يكن يتحمل صرف وجهه عن الكعبة، فأنزل الله تعالى إليه يسري عنه ويشره: ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

كانت الفترة التي قضاها متوجّهاً في صلاته إلى المسجد الأقصى فترة غربة وهجران بالنسبة إليه، كانت الكعبة محرابه والمدينة منبره؛ لذا، كان من الضروري أن تكون الكعبة في يد المؤمنين، وكان أداء العمرة يعد الخطوة الأولى في هذا السبيل؛ لذا كان يخطط لأداء عمرة على الأسس الإسلامية وحسب العقيدة الإسلامية وروحها وفكرها، لم يكن الحج قد فرض بعد، لقد فرض الحج في أواخر حياته ﷺ؛ لذا أدى فريضة الحج مرة واحدة، وأطلق القرآن الكريم على ذلك الحج اسم «الحج الأكبر» (قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَعْلَبُ إِلَهُكُمْ ۚ﴾ [التوبة]، وعلى العمرة «الحج الأصغر».

وقد انتشر بين جمهور الناس أن الحج الأكبر هو الحج الذي يصادف يوم عرفة فيه يوم الجمعة، ولكن اسم الحج الأكبر يُطلق على الحج الذي يؤدي في أثناء موسم الحج، أما الحج الأصغر فيُطلق على العمرة. والغاية الثالثة له ﷺ كانت إظهار جماعته المباركة للقبائل، وأنها عندما تمر لا تقوم بإيذاء أحد في طريقها، ولا تمس أحداً بضرب، فلا تدخل بستان أحد، ولا تنهب داراً أو ملكاً لأحد، سيرى الجميع أن هذا الجيش بعيد عن هذه الأمور، بينما كان من المعتاد آنذاك أن أي جيش يمثل هذه القوة يقوم بأعمال السلب والنهب، بينما كان هذا الجيش جيش السكينة والاطمئنان.. فهم كانوا يمثلون الإسلام في هذا الحج أمام العرب جميعاً، وكان هذا شيئاً مهماً جداً وإيضاً لرسالة الإسلام إليهم؛ لأن الذين شاهدوهم كانوا يقولون في أنفسهم في الأرجح: «ما هذا؟ نحن لم نر حتى الآن مثل هؤلاء الناس.. إنهم أشبه بالملائكة».

كانت هذه هي أهداف النبي ﷺ وهو في طريقه إلى مكة؛ لذا فلم يأخذ الصحابة معهم سوى السيوف في القرب». [النور الخالد محمد ﷺ لكونن ٢/ ١١٠-١١٢].

ويقول د/ قلنجي أيضاً: «بلغ رسول الله ﷺ أن تحالفاً عسكرياً عُقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة، وخير في شأها، والغاية من هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيتها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها.

ولما لم يكن في مقدور رسول الله ﷺ كسر ذلك التحالف عسكرياً بالمواجهة المسلحة، فكّر ﷺ بكسره سياسياً، ولابد من أن يكون قد جال في خاطر رسول الله ﷺ ما يلي:

الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل عليه السلام؛ ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء، وتحميز مَنْ تشاء، هذه حقيقة لا جدال فيها عند العرب ولا عند قريش نفسها، فمن حق محمد ﷺ وأصحابه إذن زيارة الكعبة، وفكّر رسول الله ﷺ أنه إذا ما عزم على هذه الزيارة ومشى إليها، فلا بد من أن يواجهه أحد ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن تمنعه قريش بالقوة من دخول مكة وزيارة الكعبة نظرًا لما بينها وبينه من الدماء، ولكن قريشًا لن تُقدم على هذا التصرف لأمرين:

أولهما: أن هذا سيثير حفيظة العرب ضد قريش؛ لأنها تمنع من يريد تعظيم الكعبة من تعظيمها، وإن أقدمت قريش على هذا العمل، فهو في صالح الدولة الإسلامية قطعًا؛ لأنه سيثير شقاقًا في الصف العربي المعادي للدولة الإسلامية، وقريش أعقل من أن تقدم على مثل هذا التصرف.

وثانيهما: أن الدولة الإسلامية قد أكدت وجودها في الجزيرة العربية، وأوقعت الرعب في قلب القبائل العربية، وقريش تعلم هذا تمام العلم؛ ولهذا فإنها لن تجازف بخوض حرب معها.

الاحتمال الثاني: أن تسمح قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ بدخول مكة، ولكن هذا أمر تأباه الكرامة العربية، إذ كيف يطمأ القاتل أرض المقتول متمتعًا بحماية ذويه له؟! وعلى فرض أن قريشًا تجاوزت ذلك كله وقبّلت دخول محمد ﷺ وأصحاب محمد ﷺ فمن يضمن أن لا تقع بعض الحوادث عندما يشاهد الرجل قاتل أبيه وأخيه ينعمان بالأمن والحرية أمامه؟! وإذا ما وقعت بعض هذه الحوادث فلن يكون ذلك في صالح قريش؛ لأنه سيشتع بين العرب أن قريشًا تقتل في الحرم من أتى لتعظيم الكعبة وأكبرها من قولة.

الاحتمال الثالث: أن تعرض قريش على الرسول ﷺ الرجوع دون دخول مكة؛ وهو في هذه الحالة لن يعود إلا بشروط يرضاهما، وستبذل له قريش ما يريد خوفًا من الوقوع في أحد الاحتمالين السابقين.

كيفما كان الأمر، وأي الاحتمالات الثلاثة قد وقع فهو في مصلحة الدولة الإسلامية إذا نظر إليه سياسيًا». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢١٣-٢١٤].

ويقول د/ قلعه جي: قال ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشَ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ حَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالْفَةُ».

إن هذا التصريح السياسي لرسول الله ﷺ ليدل على صواب تفسيرنا السياسي لهدنة الحديبية، وأن رسول الله ﷺ لم يرد الحج في الأصل، وإن أظهر ذلك، وإنما كان يريد الحصول على هدنة بينه وبين قريش تمكّنه من التحرك العسكري المأمون، ولا نشك بأن هذا التصريح السياسي قد بلغ قريشًا؛ ولذلك تحولت قريش إلى الهدنة وبدأت فعلاً مفاوضاتها». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢١٥].

ويقول د/ إبراهيم: «إن من أهم ما يجب أن يحرص عليه أي مفاوض هو أن يعرف الهدف الذي يرجو أن يصل إليه من التفاوض، وإلا فعلام يفاض، فيا ترى ما هدف النبي ﷺ من الذهاب إلى مكة؟

تقول كتب السيرة: إن النبي ﷺ كان هدفه من الذهاب لمكة هو أن يقوم هو والمسلمون بالعمرة، وذلك بعد أن رأى النبي ﷺ - ورؤياه حق - أنه سيدخل هو والمسلمون المسجد الحرام آمنين، محلقيين رؤوسهم، ولكن بالقراءة المتأنية نكتشف أن النبي ﷺ لم يكن مقصده الأساسي العمرة، وإن كان يرغب فيها، أما المقصد الرئيس الذي خرج له النبي ﷺ - في ظني - فهو إزاحة قريش من طريق الدولة الإسلامية ودليلي على هذا أخذته من كلام النبي ﷺ نفسه، فعندما جاءه بشر بن سفيان الكعبي ؓ قائلاً: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعُوذُ الْمُطَافِلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلْهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَنَحْ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ...» [السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٩/٢].

لاحظ أخي القارئ أن النبي ﷺ لم يقل: «ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين الحرم»، هذا يوضح أن ما كان يرنو إليه النبي ﷺ أن تحلي قريش بينه وبين الناس وليس العمرة.

والدليل الثاني: أن النبي ﷺ وقت كتابة المفاوضات لم يصمم على أن يعتمر في نفس السنة، إنما صمم على الصلح، وعندما سأله الصحابة: «أَلَمْ تَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَدْخُلُ مَكَّةَ أَمِنًا؟ قَالَ: «بَلَى، أَفَقُلْتُ لَكُمْ مِنْ غَامِي هَذَا؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهُوَ كَمَا قَالَ لِي جَبْرِيلُ ؑ» [السيرة النبوية لابن هشام ٣٢٧/٢].

وهذا أيضًا دليل على أن النبي ﷺ لم يكن يقصد العمرة في ذاتها.

كيف إذن يمكن للنبي ﷺ إجبار قريش على الصلح وتحييدها؟

لن يتم هذا إلا عن طريق التفاوض والصلح، ودليلي على أن هذا هو الطريق الذي اختاره النبي ﷺ عندما بركت ناقته ﷺ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّأَتْ (أي حرنت) الْقَصُوءَاءَ، خَلَّأَتْ الْقَصُوءَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّأَتْ الْقَصُوءَاءَ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

هنا يتأكد أن النبي ﷺ كان يرغب في التفاوض، وتعلم من هذا أن البحث عن التفاوض - لو أنه سيبعد الضرر ويجلب المنفعة - أولى.

ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفاوض كان بأمر من الله، حيث أشار النبي ﷺ إلى أن الناقة حبسها حابس الفيل، والمعنى أن الله ﷻ هو الذي منعها، فهذا دليل على أن الإذن بالتفاوض قد أتى النبي ﷺ في هذه اللحظة، وكذلك عندما اعترض عمر ؓ على نصوص الصلح قال له النبي ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وهذا أيضًا دليل على أن التفاوض كان بأمر من الله ﷻ.

الخلاصة: كان هدف النبي ﷺ هو تحييد قريش؛ لذلك اختار النبي ﷺ العمرة (كوسيلة) إن جاز التعبير، لإجبار قريش على التفاوض وجاءه الأمر من الله تأكيداً لهذا.

[محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٤١-١٤٣].

ويقول أ/ شاكر: «رأى ﷺ في نومه أنه قد دخل وأصحابه البيت الحرام آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، وفي العمرة عبادة، وفيها جسٌّ لبنض قريش ومعرفة لأحوالها، وفيها اعتراف ضمني من قريش بالمسلمين الذين دخلوا عليها مكة، وفيها إظهار لقوة المسلمين الذين جاؤوا إلى قاعدة قريش لا يهابونها، وفيها نصر للمسلمين بين الأعراب، وفيها تعظيم لبيت الله كسائر العرب، البيت الذي بناه أبوههم إسماعيل وإبراهيم ﷺ فهم على الحنيفة السمحاء وليسوا بصائبين كما تزعم قريش، هذا إضافة إلى إشعار المستضعفين من المسلمين والموجودين في مكة بقرب الخلاص وبداية الفرج». [التاريخ الإسلامي لشاكر ٣٠٣/٢-٣٠٤، وينظر: صلح الحديبية وأبعاده في نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها لبيان ٦٨-٧٠].

## ٢ - شوق ورؤيا صادقة:

يقول د/ العوا: «كان المسلمون، لا سيما المهاجرون منهم، يكابدون شوقاً حقيقياً لزيارة مكة ورؤية البيت الحرام والطواف به، بعد أن حرموا منه نتيجة العداوة التي أظهرتها قريش للإسلام وأهله، والحرب التي قامت بين الفريقين وما تبعها من ثارات في نفوس قريش وأهل مكة لمن قُتل من صناديدهم (جمع صنديد، وهو السيد الشجاع، وكل عظيم غالب صنديد) في المعارك مع المسلمين.

وكان المهاجرون - قبل ذلك - قد استوحشوا جو المدينة المنورة واستوحوه، بعد أن أُصيب عدد منهم بالحمى، كان من بينهم أبو بكر وبلال رضي الله عنهما فكان النبي ﷺ يحببهم في الصبر وتحمل مشقة الإقامة في المهجر الجديد، حتى قال لهم ﷺ: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ شَهِيداً». [مسلم في الحج (١٣٧٨)].

وقال لهم ﷺ: «إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةِ أَنْ يَقْطَعَ عِصَاهُمَا أَوْ يُقْتَلَ صَبِيْهَا - وَقَالَ - الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبَدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يُبْتِغَى أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجْهٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [مسلم في الحج (١٣٦٣)].

وكانت عائشة قد أخبرت النبي ﷺ أنها دخلت على أبي بكر وبلال رضي الله عنهما فسألتها عن حالهما، فقال لها أبو بكر رضي الله عنه:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وقال لها بلال ؓ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً      بَفَحٍّ وَحَوْلِي إِذْ خَرُّ وَجَلِيلٌ <sup>(١)</sup>  
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِائَةً مَحْنَةً      وَهَلْ يَسُدُّونَ لِي شَامَةً وَطُفِيلٌ <sup>(٢)</sup>

فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحْحَهَا لَنَا وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ (موضع بين مكة والمدينة غير مسكون)».

[البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٧٦)].

وفي الأحاديث الصحيحة عدد من الروايات التي دعا فيها رسول الله ﷺ للمدينة بالبركة، منها وما رواه أبو هريرة ؓ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ». [مسلم في الحج (١٣٧٣)].

كان ذلك كله تطييباً لقلوب الصحابة بالإقامة في المدينة المنورة والاستقرار في مهجرهم الجديد حتى تقوى قدم الإسلام ويشدد عوده، ويستقر كيانه الناشئ في المدينة المنورة. ومن المدينة انطلقت قوة الإسلام تواجه قوى الشرك والطغيان، موجهاً متكررة، لم تحسم الموقف العسكري لصالح المسلمين، ولكنها أرهقت قريشاً وألحقت بها خسائر فادحة وأفقدها عدداً من ساداتها وكبرائها.

وهذه المواجهات، في الوقت نفسه، لم تنجح في رد المسلمين عن دينهم، ولا تفريقهم من حول النبي ﷺ، أو إخافة الراغبين في الدين الجديد من أتباعه أو الهجرة إلى رسول الله ﷺ.

في ظل هذه الظروف القاسية أرى رسول الله ﷺ - ورؤيا الأنبياء حق - أنه يدخل مكة المكرمة، ويُعطى مفتاح الكعبة، ويَطُوف بالبيت العتيق، ويقف بعرفة مع الواقفين، فاستبشر النبي ﷺ بهذه الرؤيا خيراً كثيراً ويُسّر به أصحابه، وقال لهم إنه أرى أنه دخل معهم «مكة آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه وعَرَّفَ مع المعرفين (أي وقف بعرفة)». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٥٥]، ففرح الصحابة - رضوان الله عليهم - بهذه البشارة، وتهيأت نفوسهم لزيارة مكة المكرمة، والطواف بالبيت الحرام، وأرسل رسول الله ﷺ إلى من حول المدينة من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه إلى

(١) نبتان.

(٢) محنة: موضع كان سوقاً في الجاهلية. شامة وطفيل: جبلان.

العمره؛ لأنه كان يريد أن يستكثر من الناس لخشيته من قريش وسوء العلاقة معهم أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن المسجد الحرام.

ولكن الأعراب لم يلبوا دعوة النبي ﷺ، حتى إنه لما مر ببعض الأعراب في طريقه إلى مكة واستنفرهم للخروج معه إلى العمرة تشاغلو بأموالهم وأهليهم، وقالوا فيما بينهم: «أَبْرِدُ مُحَمَّدٌ يَغْزُو بِنَا إِلَى قَوْمٍ مُعَدِّينَ مُؤَيَّدِينَ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ؟ وَإِنَّمَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ، لَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا أَبَدًا! قَوْمٌ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ وَلَا عُدَّةً، وَإِنَّمَا يَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ حَدِيثٍ عَهْدُهُمْ بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ بِبَدْرٍ!».

وقد فضح الله تبارك وتعالى هذا الاعتذار الكاذب بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَتَعَلَّلُونَ خَيْرًا ۖ﴾ (١١) بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَطَنَنْتُمْ ظَنَكُمْ السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ [الفتح]. [الحديبية للعوا ٢٩-٣٣].

### ٣ - حب الوطن أثر في سلوك الإنسان:

يقول الشيخ أبو خوات: «أما ما يؤخذ من دروس من الحوادث نفسه، فأثر حب الوطن في سلوك الإنسان، حتى وإن طابت له الحياة في مهجره، مما يجعله يسعى في سبيل زيارته متى سنحت له الفرصة، على أي وجه من الوجوه، فما هو إلا أن يرى النبي ﷺ في منامه أنه وأصحابه يطوفون بالبيت ويدخلون مكة محلّقين مقصّرين، حتى يشرع فعلاً في تحويل رؤياه إلى حقيقة واقعة، وذلك وإن كان مطلباً من حيث إن رؤيا الأنبياء حق، ولكن وراء سرعة السعي في تحقيقه ذلك الحنين الطبيعي في نفس الإنسان إلى وطنه الذي درج فيه». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١٠٢].

ويقول أ/ كولن: «وقعت حادثة الحديبية في السنة السادسة للهجرة، أي في وقت كانت مشاعر الشوق والحنين إلى مكة قد استولى على قلوب ونفوس المهاجرين.. وحتى أبو بكر ﷺ وهو صاحب الإرادة الحديدة تأثر من فراق مكة تأثراً كبيراً وأنشد:

كُلُّ امْرِئٍ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فمثلاً بلال الحبشي ؓ - مع أنه لم يكن من مكة بل من الحبشة - عندما أقام بمكة أحبها إلى درجة أنه عندما هاجر إلى المدينة وأصابته الحمى هناك، بدأ يحن إلى مكة ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْسَنَ لَيْكَةً بِفَحٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرْ وَجَلِيلٌ (١)  
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَحَجَّةٍ وَهَلْ يَدُونُ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلٌ (٢)

(١) نبتان.

(٢) محجة: موضع كان سوقاً في الجاهلية. شامة وطفيل: جبلان.

واشتكى عامر بن فهير رضي الله عنه مولى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

إِنِّي وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ      إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفُهُ مِنْ قُوِّهِ

[البخاري في مناقب الأنصار (٤٦)؛ الموطأ، المدينة ١٤؛ مسند أحمد ٦ / ٦٥، ٨٣، ٢٢٢].

كان الشوق إلى الوطن قد استولى على جميع القلوب.. الشوق إلى مكة أم القرى.. كان قد مر على فراقها ست سنوات لم يستطيعوا فيها الطواف حول الكعبة، بينما كان جدهم إبراهيم عليه السلام قد قام بإصلاح الكعبة وتعميرها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران].

والكعبة التي تشير إليها هذه الآية كانت أول بناء على الأرض بناها آدم عليه السلام، بناها أول نبي وأصلحها خليل الرحمن.. والآن كان الكفار يعدون عنها أفضل أولاد إبراهيم عليه السلام وهو محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقرست سنوات كاملة لا يستطيع فيها هذا النبي الكريم المشتاق إلى زيارتها والطواف حولها.. لم يكن يريد شيئاً كثيراً.. كل ما كان يطلبه هو أن يسمح له ولأتباعه القيام بالطواف حول الكعبة بالكيفية التي وضعها الإسلام.. [النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم لكون ١٠٩/٢-١١١].

ويقول د/ حجازي: «وإنه وإن كانت لمكة المكرمة تلك المكانة العظيمة من المحبة والاحترام والتقدير في نفوس المؤمنين في كل مكان من هذه الدنيا؛ لما فيها من مكان طاهر عزيز على نفوس المؤمنين، ألا وهو المسجد الحرام، الذي جعله الله مثابة للناس وأمتاً.

فإن المهاجرين كان يرون فيها أيضاً بأنها مسقط رؤوسهم ووطنهم الغالي الذي أخرجوا منه ظمأً وعدواناً وبغيًا، والمكان الذي شهدوا فيه مراتع صباهم وهو لا يزال يضم أهلهم وذويهم، والله سبحانه يشير في كتابه العزيز إلى عملية الإخراج من الوطن عنوة، ويقارنها بعملية القتل للنفس، فيقول سبحانه في هذا: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبَسًا عَلَيَّهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

لهذا فقد كانت فرحة المهاجرين بهذه البشري فرحة لا تعدلها فرحة، وهي أعظم وأقوى من فرحة غيرهم بعد ذلك الحرمان الطويل والشوق العظيم.

لذا فما كادوا يسمعون نبأ هذه البشري الكريمة حتى هبوا فرحين مستبشرين ملبين نداء الله تعالى ونداء نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنهم يعلمون حقاً بأن رؤيا الأنبياء الكرام لا تحيي إلا حقاً، ولا تقع إلا صدقاً وعدلاً. [منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٢٣-٢٤].

ويقول د/ يمان: «لم ينس الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرون مكة بعد أن خطوا رحالهم في المدينة، فهي بالنسبة إليهم أحب أرض الله تعالى؛ لأنها منزل الوحي، وبها البيت الحرام ومآثر إبراهيم عليه السلام، وليس أدل على ذلك كمن قوله صلى الله عليه وسلم حين ترك مكة وهاجر منها: «وَاللَّهِ إِنَّكَ [إِنِّي لَأَعْلَمُ إِنَّكَ] خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ



أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْ لَأَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ». [الترمذي في المناقب رقم (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٨)، ومسنند أحمد ١٠/٣١، رقم ١٨٧١٥، ١٨٧١٦، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: صحيح، وسنن الدارمي في السير (٢٥٥٣)، وصحيح ابن حبان ٩/٢٢ رقم ٣٧٠٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والمستدرک للحاكم ٣/٨، ٣١٥، ٤٨٩ رقم ٤٢٧٠، ٥٢٢٠، ٥٨٢٧، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والمعجم الأوسط ١/١٤٤ رقم (٤٥٤)].

كما أن المهاجرين رغم ما لاقوه من صنوف العذاب من الكفار بمكة كانت قلوبهم تحن إلى مكة على الرغم مما وجدوه من تكريم الأنصار في مدينتهم؛ ذلك أنهم حُرِّموا من بلدهم وطرِّدوا من حرم الكعبة المشرفة، ذلك الحرم الذي يستقطب ذكرياتهم وأجسادهم وتاريخ أمتهم، وبسبب ذلك ظلوا ست سنوات محرومين من حقهم في الحج والطواف بكعبتهم المشرفة.

وكان الطواف من شعائرهم الدينية التي كان لها شأن بارز، فهو ركن من أركان حجهم، ومنسك من مناسكه، وكانوا يطوفون كلما جاؤوا البيت الحرام أو سافروا [المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٦/٣٥٤]، إلا أن ذلك بطبيعة الحال كان مرتبطاً في الجاهلية بعبادة الأصنام والأوثان، فلما جاء الإسلام محاماً لا يتفق مع روح الدين القويم، وطهر بيت الله الحرام من لوثات الجاهلية وجهالاتها وما ألصقته ببيت الله من خرافات وأوهام.

ولما أقر الإسلام المعاني السامية التي يشع بها بيت الله وأكدها وأدخلها في منهجه، زاد شوق المسلمين من مهاجرين وأنصار، وتحركت فيهم دوافع التوجه إلى مكة من جديد وأداء الشعائر الدينية فيها... ولم يكن الأنصار أقل حنيناً إلى مكة من المهاجرين، فقد كانوا يشاركونهم شوقهم إليها باعتبارها قبلة المسلمين، وكان اتصالهم برسول الله ﷺ فيها، وهي البلد التي ولد فيها رسول الله ﷺ ونشأ، ومنها انطلق محمد ﷺ للدعوة إلى الإسلام، وفي ربوعها كانت بيعة الأنصار والتعهد بنصرته.

وقد وقع حادث تحويل القبلة عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في السنة الثانية من الهجرة، وهذا حادث هام من حوادث السيرة في العهد المدني أكد الشخصية المستقلة للدعوة الإسلامية بما يتناسب مع قدسية الكعبة وعظمة مكانتها، إذ هي قبلة المسلمين في أهم أركان الإسلام التعبدي (الصلاة والحج)، وجعلها مهوى قلوبهم وأفتدتهم ووجهتهم الوحيدة في عبادتهم أينما كانوا في أرجاء المعمورة على مر الأيام والسنين، فكانت بذلك مظهرًا لوحدة المسلمين الإيمانية والروحية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد قوى حادث تحويل القبلة مكانة مكة في قلوب الصحابة المهاجرين وأنصاراً، وزاد من حنينهم وشوقهم إليها، وكانوا يبدون حسرتهم الشديدة دائماً لبقاء مكة في أيدي المشركين؛ ولحرمانهم من زيارتها وأداء الشعائر التعبدي في أرجائها المقدسة، وهم يعلمون يقيناً أنهم أحق بها من المشركين، وأنهم أهلها الجديرون بها. [صلح الحديبية وأبعاده في نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها لبنياني ٦١-٦٤].

## ٤ - لماذا لم يُحرّم أبو قتادة ؓ؟

يقول د/ أبو فارس: «تساؤل وقع في نفسي: إن الذي لفت نظري واسترعى انتباهي وأنا أقرأ قضية إحرام الرسول ﷺ وأصحابه هو عدم إحرام أبي قتادة ؓ مع الأنصار والمهاجرين وقد سار معهم وأحرّموا جميعاً.

فساءلتُ: لم كان ذلك؟ وهل من وراء ذلك حكمة؟  
أنا أجزم أن وراء ذلك حكمة، وأخذتُ أجهد نفسي وعقلي لأبحث عن هذه الحكمة، وأنا بدوري أدعو القارئ الكريم أن يفكر ملياً وأن يجهد عقله في استخراج الحكمة من ذلك.  
أقول: لعل رسول الله ﷺ قد أذن لأبي قتادة ؓ ألا يحرم؛ لأنه قد كلفه بمهمة، والإحرام من شأنه أن يعيق تنفيذها على الوجه الأكمل والأتم، والله ﷻ أعلم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٦-٢٧].

## ٥ - منزلة عبّاد بن بشر ؓ قائد طليعة المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «إن اختيار الرسول ﷺ لعبّاد بن بشر ؓ ليكون قائداً لطيعة الجيش الإسلامي يدل على منزلة عبّاد بن بشر ؓ عند رسول الله ﷺ وثقته به، كما تدل على كفاءته لمثل هذه المهمة الصعبة.  
إذ لا يختار النبي ﷺ لهذه المهمة إلا من آنس فيه الصبر والشجاعة والإقدام والثبات والتضحية والفداء والحكمة والخنكة، والقدرة على علاج الأمور بحزم وسرعة.  
إن الذين اختارهم ليكونوا الطليعة كانوا من المهاجرين والأنصار، وهؤلاء هم عماد الإسلام وأركانه وركائزه، صُبرٌ عند الحرب صدقٌ عند اللقاء، لهم خبرة ومراس في مواجهة العدو، إنهم آمنوا بهذا الدين وبذلوا كل ما يملكون في سبيله.

إن اختيار الطليعة يجعل بقية الجيش في يقظة وحذر». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٩].

## ٦ - مقدمات المعاهدة لم تكن تؤذن بشيء مما كان فيها وما كان بعدها:

يقول الشيخ عرجون: «كان لهذه المعاهدة مقدّمات كانت الطريق إلى الوصول إليها، وكان لها آثار بعيدة المدى عميقة الجذور في تاريخ المد الإسلامي وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.  
فأما آثارها فتتمثل في أحداث التاريخ، وفي سياسة الفتوحات التي جاءت متتابعة بعد توقيعها.  
وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التي وقعت بها؛ ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسياً شديداً على نفوس المسلمين، وهذه المقدمات بعضها بعيد، وبعضها قريب، ولكنها متصلة الحلقات متسلسلة الوقائع.

فالنبي ﷺ رسول من عند الله، ختم الله برسالته الرسالات الإلهية، ورسالته هي رسالة الإسلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذري في بناء المجتمع البشري، وإصلاح ما فسد في أممه وشعوبه

فكريًا، وسياسيًا، واجتماعيًا، وروحيًا، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعًا مريضًا، أسقمه المرض إلى حد جعل كيانه الاجتماعي والروحي كيانًا متهاويًا لا يتماسك في عقيدة يسندها عقل أو منطق، ولا يتماسك في نظام اجتماعي يسنده علم يهدي إلى حق وخير.

كانت مجتمعات البشرية يوم عقد هذه المعاهدة بقايا بناء إنساني ينخر فيه سوس الفناء: ويحيط بهذا المجتمع المتهاافت في بنائه الاجتماعي مجتمعات بشرية مزرقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة لتاريخ ظلم قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء، دولتان أو أمتان كانتا في عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحًا لبناء إنساني مهتدم، ينخر فيه سوس الفناء، وتنسج له الحياة أكفان الزوال. ففي الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة من طول ما عانت من أمراض الاضطرابات الداخلية والخلافات المذهبية وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان.

وفي الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسدًا عريض الأكتاف لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية والمجادلات المذهبية والحروب الخارجية مع الفرس.

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شرادم إنسانية المظهر متناثرة هنا وهناك تنثر الدقل والخصى على الأرض، تعيش كما تعيش الأنعام في غياهب البراري وغياض الغابات، إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئًا من عصارة، حتى تركها عودًا ناشفًا لا تطعمه إلا نيران الجهالة والهمل.

هجرة الدعوة إلى الله من مكة إلى يثرب كانت هي طريق المواجهة لنشر الرسالة: وفي هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ رسولًا إلى الناس كافة بشريعة هي خاتمة الشرائع الإلهية، فدعا أول ما دعا قومه، استجابة لأمر الله له في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]، فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان، وحثهم من عقابه، وأنذرهم بطشه، فتولوا عنه مدبرين، وما آمن به منهم إلا قليل، فصر عليهم وصابرهم، وتحمل منهم أشد الأذى، ولم ينتهوا حتى تأمروا على قتله، ولما لم يجد سبيلاً إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهب إليهم في مواطنهم ومحافلهم أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب ويطونها إلى بلده ليعظموا بيت ربهم بما تعودوه في جاهليتهم من مناسك وشعائر، وأقبل عليه أبناء يثرب أو سهم وخزرجهم، وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم، وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم، ويحموا دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشار على أصحابه الذي أودوا في سبيله وسبيل دعوته بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه، فهاجر منهم من استطاع أن يهاجر، واتخذوا من يثرب مدينتهم، وفيها دوى صوت الدعوة حتى عم أرجاءها، فلم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام، ودُعرت مكة، بل رُعبت وركبت ظهر

الشیطان، فجری بها إلى أسوأ تدبیر، وأعلم الله نبيه ﷺ بما بیت من کید ومکر، فخرج إلى المدينة مهاجراً یصاحبه صديقه أول المؤمنين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلین أبو بکر الصديق رضي الله عنه وأرضاه. استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوته إقبال الفصائل على حُفْل أمهاتها للرضاع.

#### القرآن الحكيم يجعل اليهود والمنافقين في قرن واحد:

وكانت المدينة مستوطناً لجالیات من اليهود والعرب المتهوِّدين یملكون الثروة فيها، فتحرک فيهم عرق الحسد، فنافقوا، واستنفقوا قوماً ممن شاركهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهُموا بما لم ینالوا، واليهود والمنافقون جنباء لا یجروون على الوقوف نهائراً جهاراً أمام الدعوة الجديدة وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم في قوله: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُوا لَا ذُبْرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقُولُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدِّ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَرِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المنافقون]، وفي قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتٌ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهَ الْهَادِ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة].

هذه الآية على خلاف ما قيل في سبب نزولها ظاهرة الورود في المنافقين واليهود.

رأى النبي ﷺ بتسديد الله أن يهادن اليهود ويفك عرى قوتهم، ويذل غرورهم، ويكبت حسدهم، فكتب كتاب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفيه أدخل اليهود تابعين لبيوت الأنصار، يجعل كل فريق من اليهود تابعاً لفريق من الأنصار، وأمن في هذا الكتاب اليهود على دينهم وأموالهم وأعراضهم ما داموا قائمين على حفظ العهد؛ ليتفرغ ﷺ لتبليغ دعوته ونشر رسالته ويؤمن طهر مجتمعه.

#### أول حركة إيجابية ينهض إليها المجتمع المسلم لدفع الظلم:

وكانت المدينة طريق مكة إلى الشام في تجارتها، وفي زعماء أهل مكة عنجهية حاسدة، ولهم قلوب من الصخر منحوتة حاسدة حاقدة، ونفوس للحق والهدى مبغضة، وعقول بالله كافرة، أرمضها أن يفلت

المسلمون بدعوتهم إلى قلعة منيعة تقف في طريق تجارتهم، وتهدم طغيانهم، يحميها أنصارها من الأوس والخزرج وهم - على ما تعلم قريش ولُفُّها - أبناء السيف والقنا، وأحلاس الحرب والوعى.

وقريش في مكة تعلم أنها استولت على أموال المهاجرين إلى المدينة ظلمًا وعدوانًا وبغيًا وعتوًّا، وأخرجتهم من ديارهم بغير حق، فهل تنام قريرة العين، وتمر بتجارتها على هؤلاء الذين وترتهم بالأمس آمنة مطمئنة؟

فلتجرب، وليمض عاهلها أبو سفيان بن حرب قائدًا لقافلتهم، ومضى يسوق قافلته إلى الشام، وفيها باع واشترى، وريح واستريح، وعاد إلى قومه يحمل إليهم غرائر المال ومكاسب التجارة.

ولعل في هذا المال الذي التجرت به قافلة قريش مالا من أموال المسلمين المهاجرين، وإلا يكن عينه فهو عوضه، وللمظلوم أخذ حقه من ظالمه، وقد أذن الله - جل ذكره - لهم بالقتال لدفع الظلم وإقامة دعائم الحق، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢١) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج].

وقربت القافلة من المدينة، وتسامع أهلها من الأنصار والمهاجرين بقدمومها، فحرّكتهم حمية الحق، وحمية الدفاع عن كرامتهم، فهؤلاء أعداؤهم وهم أعداء الحق لم يكتفوا ببغيهم عليهم حيث كانوا بين أظهرهم، بل أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وتجاوزوا كل بغي وعتوٍّ، فداسوا بقافلتهم الباغية طريق مهاجرهم علانية، لا، لا، لن يكون لأهل البغي والعدوان الظالمين مرور بقافلتهم، وفي أنصار الله عين تطرف.

وخرج بعض المسلمين من المهاجرين وإخوانهم الأنصار يعترضون طريق القافلة إلى مكة، فعلم بهم خطرifyها أبو سفيان بن حرب، فعدل عن الطريق وساحل بقافلته، وكان قد أندر أهل مكة فخرجوا ينجرون أذيال الغرور والكبرياء، يسوقهم البأو والخطرة إلى حتوفهم، وأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد نجا ونجت معه القافلة، فلم ينههم ذلك عن المضي في طريق البغي.

شاور النبي ﷺ أصحابه، فأشار جمهورهم بملاقاة أعداء الله على كثرتهم وعظيم استعدادهم، وقلة المسلمين وضعف ظهرهم وعدتهم، وكانت وقعة بدر الكبرى كما تحدثنا عنها، وفيها انتصر الحق على الباطل، وظفر الإيمان بالشرك، وهُزم الظلم والبغي هزيمة ساحقة، وكانت هذه الواقعة أول وقعة واجه فيها المسلمون - وهم قلة في العدد، وضعف في العدة - المشركين بقوتهم الباغية، وكان سلاح الإيمان بالحق هو الفيصل في هذه المواجهة.

عادت فلول مكة خائبة خاسرة بعد عنجهية الكبرياء وحمية الجاهلية، مقصوصة الأجحنة، ثم توالى الوقائع وظهر نجيت (أتانا نجيتُ القوم: أي أمرهم الذي كانوا يُيسرونه) اليهود وخبث النفاق، وشرأبت

أعناقهم خشية أن تعلق كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم وبين المؤمنين، وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين على شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألب فيها المشركون من ألفاف القبائل التي لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود والمنافقون، فهزمهم الله، ونصر جنده، وأعلى كلمته.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٦٢-٢٦٧].

#### ٧- بداية مرحلة متميزة من تاريخ الدعوة الإسلامية:

يقول الشيخ الغزالي: «جاء تفكير المسلمين في زيارة المسجد الحرام بداية لمرحلة متميزة في تاريخ دعوتهم، أليسوا يعالنون بعزمهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأمس وحُوربوا حيث استقر بهم النوى؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تسفر عن نتيجة حاسمة؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف؟

والجواب أن النبي ﷺ أراد بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم عليه السلام، والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون: ﴿وَلَا تَوْنَأُ لِلْإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرَكَ فِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝﴾ [الحج].

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه، ولئن استطاعوا قديماً إقصاءهم، فإنهم - بعدما وقع من قتال - لن يصثروا على خطتهم القديم.

وإحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علائق أهدأ وأرق.

ومتى يحدث هذا؟ بعد أن استفرغت قريش جهدها في إيذاء المسلمين، وبعدها بدا فشلها الذريع في ذلك، لقد استمرت بضع سنين تقاتل وتبذل من دمها وما لها لتهزم الإسلام فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات العضوض، على حين رسخت أقدام المسلمين، وعلت راياتهم، وانكمش عدوهم، وها هم أولاء يخرجون إلى مكة عبّاداً مخبتين، لا غزاة متقمين، أجل إنهم لا ييغون إلا أن ينالوا مثل ما لغيرهم من حق الاعتمار والحج، ولا يسوغ أن يُجرموا من ذلك أبداً.

وبذلك القصد السمع المذهب، استنفر رسول الله ﷺ جمهور المسلمين وأعراب البوادي، وآذنه أنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً، وساق أمامه الهدى الذي سيُذبح ليطعمه فقراء مكة، الفقراء الذين حُشدوا لاستئصاله يوم الأحزاب.

أكان الكافرون برسالة محمد ﷺ يفقهون هذه النية ويقدرّون مكانة صاحبها؟ لا، إنهم بقوا على العهد بهم من فساد الضمير ونية السوء.

فالأعراب المنتشرون حول يثرب، ومن على شاكلتهم من المنافقين، عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمدًا ﷺ أمراً قتال، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت - كما أعلن - فلن تدعه قريش حتى تهلكه أو تهلك هي دون إبلاغه مأربه، فهي عُمره مخوفة بالأخطار في نظرهم، والفرار منها أجدى!

ولو فرض أن الرسول ﷺ نجح في مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا أَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَظَنَّئِهِ ظَنُّ السَّوءِ وَكَشَفْنَا قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾ [الفتح].

[فقه السيرة للغزالي ٣٣٥-٣٣٦].

ويقول د/ أبو فارس: «إن سير النبي ﷺ إلى مكة لأداء النُسك كان بداية تحرك في مرحلة جديدة، سبقتها مرحلة الدفاع، وقد انتهت بغزوة الأحزاب، أما المرحلة الجديدة فهي مرحلة الانطلاق إلى مجابهة العدو خارج المدينة.

- ونحسب أن سير النبي ﷺ ومن معه من المسلمين متوجّهاً إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام رغم سوء العلاقة مع قريش، كان تطبيقاً لهذه المرحلة.

إن اختيار النبي ﷺ لوقت الزيارة كان موفقاً، حيث كان في شهر ذي القعدة، أي في الشهر الحرام وشهر الحج، مما يؤكد أنه لا يريد قتالاً ولا حرباً، وإنما جاء معظماً لبيت الله الحرام. ويدل على هذا أيضاً سَوْقُ الهدي بعد أن أشعره وقلّده القلائد.

- ما ذكر سابقاً فعلة رسول الله ﷺ رداً على ما يمكن أن يشوّه المشركون به صورة المسلمين النظيفة في أعين الناس، فهم ليسوا غادرين، فلم يفاجؤوا أهل مكة ولا أحداً بخروجهم، ولو كان رسول الله ﷺ يريد الغدر بهم ومحاربتهم لخرج سراً يُخفي مسيره عن أقرب الناس إليه، ومستعداً أقصى درجات الاستعداد للقتال.

ثم إن هذا الشهر (شهر ذي القعدة) يُحرم فيه القتال عند العرب قبل الإسلام، فإذا فكّرت قريش بقتال المسلمين والاعتداء عليهم في هذا الشهر، فإن كثيراً من حلفاء قريش قد يتخلى عنها ولا ينصرها، وبهذا قد يفر لها عن أسباب القوة في صراعها مع رسول الله ﷺ.

- إن هذا التحرك من رسول الله ﷺ إلى مكة لأداء النُسك قد أوقع مشركي مكة في حرج شديد، وإرباك مفرع، إذ انتابتهم الحيرة، ولّفهم الاضطراب، لا يدرون ماذا يفعلون: أقاتلون المسلمين؟ أم يسمحون لهم بأداء النُسك وفي ذلك مذلة؟ أم يصالحونهم؟

- إن زيارة الرسول ﷺ للبيت الحرام تحقق مصلحة للمسلمين، وفي الوقت نفسه تكون خسارة للمشركين.

إن المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ حين يزورون البيت الحرام سيختلطون بوفود القبائل العربية القادمة إلى مكة، ويتحدثون معهم، ويتعاملون، وسيروُن عن طريق ذلك حبهم للبيت وتعظيمهم له، بالإضافة إلى حسن أخلاقهم ومعاشرتهم وتعاملهم.

إن ذلك سيزيد قوة المسلمين، وسيجعل قلوب المشركين تهوي إليهم، وسيذكر كون أن ما سمعوه عن المسلمين من خلال أجهزة إعلام قريش ما كان إلا محض افتراء، وسيشعرون بأنهم يظلمون المسلمين إن هم منعوهم من زيارة البيت الحرام.

- إن الرسول ﷺ حين يزور البيت الحرام سيحقق كسباً سياسياً، حيث يكسب ود الذين يعظمون البيت الحرام، فتزداد هيبتهم في قلوبهم، وسيخفف كل ذلك من حقدهم وبغضائهم التي حملوها في قلوبهم قبل ذلك، فلا تجتمع قلوبهم على معاداة المسلمين أبداً.

- وما يجدر ذكره هنا أن الرسول ﷺ حينما أخبر بالرؤيا التي رآها في منامه، لم يذكر وقت الطواف وزمنه، ولكن الصحابة رضيه الله عنهم حين قص عليهم ذلك وندبهم إلى الزيارة فهموا أن الرؤيا ستطبق عامهم هذا. [غزوة الخديبية لأبي فارس ١٥-١٧].

## ٨ - أمور مستفادة من دعوة الأعراب وموقفهم:

يقول د/ أبو فارس:

(١) إن السؤال الذي يبرز في الذهن هو: لم حرص النبي ﷺ أن يشارك الأعراب في زيارة بيت الله الحرام؟

أقول: لعله ﷺ أراد أن تدرك قريش أنه خرج زائراً ولا يريد قتالاً.

- ونحسب والله تعالى أعلم أن الرسول ﷺ دعا الأعراب لزيارة البيت معه، لتوقعه أن قريشاً قد تتصدى له لمنع من أداء النُسك فلا بد من وجود قوة في وجه قريش إن قررت الصدام والقتال.

- إن عدد المسلمين كان قليلاً ربما أغرى المشركين بالاعتداء عليهم، بخلاف ما إذا كانت الجماهير مع رسول الله ﷺ غفيرة.

- ونحسب أيضاً أن الرسول ﷺ يحقق هدفاً آخر من وجود الأعراب معه، لا سيما إذا منعت قريش القادمين للزيارة أو حاولت منعهم من هذا الشرف بعد أن ضربوا إليه أكباد الإبل، إن هذا الهدف هو إثارة الأعراب على قريش.



(٢) المبادرة إلى فعل الطاعات ابتداء من غير توقف، وترك النظر إلى ما يتوقع من الموانع؛ لأن النبي ﷺ خرج إلى العمرة مع أنه توقع صد قريش له عن البيت.

(٣) لقد كان أمر النبي ﷺ للمسلمين وللأعراب بالاستعداد والتوجه لزيارة بيت الله الحرام قد حقق درساً عظيم الأهمية بالنسبة للصف المسلم، إذ أظهر كثيراً من الأعراب على حقيقتهم، فهم يُظهرون الإسلام، ويزعمون الود للمسلمين ومناصرتهم، وإذا بهم ما كانوا كذلك إلا رجاء تحقيق منافع مادية لهم. والخروج إلى مكة في زعمهم كله مَعْرَم وليس فيه مغنم إذ كانوا يتوقعون استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم، ومن هنا أحجموا عن الخروج واعتذروا بأعذار كاذبة، وهم في الوقت الذي يظنون أن خروجهم مع الرسول ﷺ والمسلمين يحقق مغنماً لهم سيلحون على الرسول ﷺ بالخروج والصحبة، وصدق الله العظيم: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْمَدُوكُمْ أَوْ لَا بَقَّةَ هُونٍ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ [الفتح].

(٤) إن السبب الذي امتنع الأعراب من أجله عن الخروج إلى مكة مع رسول الله ﷺ كان مجرد وهم وظن وسراب قد أظهرت الأحداث بطلانه، كما أظهرت أهله، على حقيقتهم.

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٨-٢٠].

## ٩ - أنموذج من التربية النبوية:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّيْبَةَ ثِنْيَةَ الْمَرَارِ، فَإِنَّهُ يُحِطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

ويتجلى في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية جدير بالتأمل والتدبر.

فرسول الله ﷺ يستحث أصحابه على صعود الثنية، ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة الله تعالى.

وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة أهمها أمران:

الأول: أن رسول الله ﷺ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

الثاني: أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها وكل عمل يقومون به - حتى ما يرون أنه

من العادات أو من دواعي الغريزة - يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم.

وكان ﷺ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في قلوب أصحابه:

فتراه يقول في موطن آخر: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا أَحَدُنَا شَهَوْتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». [مسلم في الزكاة (١٠٠٦)].

ويقول في موطن ثالث: «وَأِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللَّقْمَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِي أَمْرَاتِكَ». [البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)].

ولكن ما الذي يحدث حين ترسخ تلك المعاني في شعورهم؟  
إن تلك المعاني - إذا تمكنت من قلب المسلم - لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم فإن لهذا الشمول آثاراً مباركة سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله.

«ومن أبرز تلك الآثار أمران:

الأول: أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع، وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الديني وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

الثاني: أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والديني، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته». [ينظر كتاب: العبادة في الإسلام للقرضاوي ٦٦].

وقد يقول قائل - انطلاقاً من واقعنا المؤلم الذي تلاشت فيه هذه المعاني أو كادت - إن هذه المعاني خيالات وأوهام لا تعدو ذهن قائلها ولا رصيدها من الواقع، ونحن نطالبه أن يرجع إلى الوراء قليلاً فينظر واقع الصحابة رضي الله عنهم كيف استحالت تلك المعاني إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لتكون حجة على كل من جاء بعدهم». [مرويات الحديث للحكمي ٥٦٧-٥٦٩].

### ١٠ - طبيعة المشركين العدوانية:

يقول د/ أبو فارس: «يعبر النبي ﷺ عن هذه الطبيعة بقوله: لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، إن الحقد على الإسلام وأهله قد أكل قلوبهم فانبأوا يصدون المسلمين عن البيت.

وإذا كان للدعاة من درس هنا يستفيدون منه هو أن يدرخوا طبيعة الشرك وأهله، وأن يتعاملوا معهم على حذر، ولا يغفلون عن أسلحتهم لحظة واحدة فيميلون عليهم ميلة واحدة.

إننا نحسب أن الذي دفع زعماء المشركين لهذا العداء الهوى وحب الزعامة والجاه والسلطان والمحافظة على ذلك؛ لأن هذا الدين لا يعترف بالجاه والسلطان إلا إذا كانا وفق الشرع، بعيدين عن الظلم والتعسف والجور». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٣٠-٣١].

### ١١ - التجرد:

يقول د/ فيض الله: «إن مما يلفت النظر في هذه العمرة أو الغزوة، هو مبادرة النبي ﷺ إلى موادة قريش، ورغبته الظاهرة في السلم والسلام، وهو حديث عهد بهم، في حرب كادت - لولا العناية الإلهية - تنسف المدينة، وتقتلع منها جذور الإسلام، وتأتي على المسلمين جميعاً، كما رأينا في غزوة الأحزاب. ومع أن المشركين ارتدوا عن المدينة خاسرين جولتهم، فها هو النبي العظيم الرؤوف الرحيم ﷺ، وهو في طريقه السلمي المسالم إلى بيت الله الحرام، عندما بركت ناقته، وتصايح الناس يقولون: خلأت القصواء، يقول، وهو الصادق الأمين المصدق: «مَا خَلَأْتُ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُوتٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». بعد تلك الحرب الضروس، وما قبلها من الحروب والمواجهات والدماء المهرقة، يعلن استعدادة للمهادنة الإيجابية في سبيل الدعوة إلى الله، وتعظيم حرمة الله، وصلة الرحم التي أمر الله بها أن توصل. ولا يبدو في هذه الخطوة الإيجابية نحو السلم أي أثر للذات، ولا أية رواسب للماضي القريب والبعيد الأسود، والظلم الصارخ التي تجاوزت فيه قريش حدود العرف، والتقاليد الإنسانية. لكنها سلم لا استسلام، وفي سبيل الدين لا في سبيل الدنيا، ومن أجل أن تعلق كلمة الله، لا من أجل الحطام القرية، والحطوط الفانية، والرغبات المسفة.

وكم لرسول الله ﷺ من مواقف، تتلاشى فيها ذاته، وتسوى نفسه، حتى ما يكاد يشعر لها بحق، ويبقى الحق كله لله، والبقاء كله لدين الله، وللدعوة إليه.

ألم يأتيه جبريل عليه السلام، ويقول له: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجَبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَتَادَانِي مَلَكُ الْجَبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ تُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». [البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥)].

إنه بمقدار الفناء في المبدأ، يُكْتَبَ له النجاح والخلود، وبمقدار حظوظ النفوس من المبادئ والفلسفات تُقَاسُ أَعْمَارُهَا.

أو ليس من الفناء في الدعوة إلى الله، أن يبادر الرسول ﷺ للعمرة وزيارة البيت الذي صُدَّ عنه، وأُخْرِجَ منه قبل بضع سنين، تخللتها حروب ومصادمات، وأُرِيقَتْ دماءٌ زكيةٌ، وَقُطِّعَتْ أَشْلاءٌ من اللحم كثيفة، بمجرد رؤياه أنه يزور البيت؟

أوليس من قدسية الدين وتقديمه على كل اعتبار، هذا الاستعداد المطلق للمهادنة في هذا الطرف، وهو في مركز القوة، ومكان الحق، وسمو السلم؟

أوليس في هذا لأولي الأمر القائمين على الجماعات البشرية، عبرة التأسي؛ لتناسي الشر ورواسبه العميقة البعيدة، وتطوير العلاقات، وتوجيه الفكر الإنساني إلى تلافي النقص، وَزَمَّ الرَّثِّ، وسد الخلل، وإصلاح التصور الخاطي، لهذه الرسالة السماوية الخالدة، ودعوتها الفريدة السعيدة؟.

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٨١-٢٨٢].

١٢ - رسول الله ﷺ يمدُّ يد المسألة لأهل مكة ويخرج معتمراً ولكن البغي أبى على

قريش أن تفتح لنفسها باب السلام:

يقول د/ العمري: «وكان الرسول ﷺ يحرص على الاستبقاء على حياة قريش ويأمل إسلامهم وإفادة الدعوة منهم، فالناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وقريش من أكثر العرب فصاحة وذكاء وخبرة ومكانة، واستبقاؤها للإسلام فيه خير عظيم للدولة والدعوة كما برهنت الأيام.

وها هو الرسول ﷺ يتحسر لعناد قريش وفنائها في الحرب مع المسلمين، فيقول: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَأَنَّ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَأَفْرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَنْظُنُّ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنْ لَمْ أَزَلْ أُجَاهِدْهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفِرَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

وقد بيّن الرسول ﷺ لقريش عن طريق رجال محايدين أحياناً، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض أحياناً أخرى، أنه لا يريد حرب أحد، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وقد قدم عليه بديل بن ورقاء الخزاعي، وبيّن أن قريشاً تعترم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح له الرسول ﷺ موقفه، فقام بتوضيحه لقريش، فأجابته قريش: وَإِنْ كَانَ إِتْمًا جَاءَ لِدَلِّكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عُنُوَّةٌ، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ.

والحق أن المسلمين كسبوا الموقف سياسياً سواء دخلوا مكة وتحذت العرب عن ذلك، أو لم يدخلوا فتحذت العرب عن صد قريش لمن قصدوا تعظيم البيت العتيق، بعد أن كانت قريش تدّعي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات.

وقد سعى الرسول ﷺ لبيان موقفه أمام الناس جميعاً، فأرسل رسله تترى إلى قريش يعلنون مقصدهم، فأرسل خراش بن أمية الخزاعي ﷺ، فأرادت قريش قتله لولا أن منعهم الأحابيش. وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب ﷺ ثم عدل عنه إلى عثمان بن عفان ﷺ عندما بين عمر ﷺ شديد عداوته لقريش، وأنها تعلم ذلك، وأن بني عدي قومه لا يحمونه. فذهب عثمان ﷺ إلى قريش، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص.

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٣٨-٤٣٩].

ويقول الشيخ عرجون: «رأى رسول الله ﷺ بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة، وأن يوادع أهلها موادة من لا يرغب في الحرب ولا يستهدف العداوة والقتال، بل يدعو إلى الأمن والسلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار، عامداً إلى البيت الحرام زائراً، وساق معه الهدى ليأمن الناس، ويعلموا أنه خرج معظماً للبيت متعبداً لربه، ولكن غطرسة المشركين الباغية وعجرفتهم الطاغية ألبا إلا عناداً فاجراً، وعقدوا الخناصر على أن يصدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيمهم بيت ربهم في رحلتهم المسالمة.

تواردت الأخبار على رسول الله ﷺ أن أهل مكة تجمعوا وتعاهدوا على أن يمنعه من دخول مكة، فقال كلمته الوادعة الموادة الحكيمة المحكمة: «يَا وَيْحَ قُرَيْشُ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَنِيَّ وَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا بِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأِي أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

فهل رأى الناس إنصافاً ومعدلة مثل ما في هذه الكلمة الجامعة؟

وهل سمع الناس بموادعة ومسالمة مثل هذه المسالمة الوادعة؟

وهل عرف الناس طريقاً لفتح باب الحرية للعدو يملكه أمر خصمه مثل ما عرضت له هذه الكلمة

الوافقة الموثقة؟

وهل ذكر التاريخ عزيمة مصممة على المضي قدماً في أمر بدأ متوارياً ثم استعلن شامخاً كما بدأ أمر

الإسلام مثل ما في هذه الكلمة الحازمة الصارمة؟

بلى، كانت مرة في التاريخ، نفس تاريخ هذه الدعوة فقط، يوم أن انفراد رسول الله ﷺ في جانب والأرض كلها ومن عليها في جانب آخر، حتى عمه الذي كان يحنو عليه ويحوطه بدا أنه خضع لبعض الأمر مع قومه، فقال له النبي ﷺ أخت هذه الكلمة: «يَا عَمُّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٦].

ثم عدل رسول الله ﷺ إمعاناً في إظهار رغبته في السلام عن طريق مواجهة قريش ليعلم الناس حقيقة مقصده من المودة وتأمين الناس، حتى إذا بلغ مكاناً قريباً من قرية الحديبية بركت راحلته، فجعل الناس ينهضونها فألحت ولم تنهض، فقالوا: خَلَأَتْ (أي حرنت) الْقَصَوَاءُ، خَلَأَتْ الْقَصَوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَلِكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا - أي عن مكة - حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

ثم زجرها فوثبت به حتى نزل بأقصى قرية الحديبية، انتظاراً لما تنفجر عنه أسرار الغيب، وما عسى أن يكون من قريش وقد ظهر لها ظهوراً بيئاً أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يقدموا إلى مكة إلا من بعد أن مدوا حبل السلام والمودة، وأنهم لم يأتوا إلا لزيارة البيت الحرام وتعظيمه.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٦٧-٢٦٨].

ويقول أ/ رضوان: «ما أعظم الرسول القائد ﷺ، فمع عداوة قريش له ومحاربتهم إياه أظهر هنا محبة عظيمة لقريش لأنهم قومه، وتكلم في حزن عليهم بالنصيحة المخلصة غاية الإخلاص، التي لو أخذت بها قريش لحفظت الكثير من الدماء والأموال منذ بداية دعوة الرسول ﷺ حتى فتح مكة، كان الواجب على قريش حقاً وهم آل الرسول الأعظم ﷺ أن لا يقاوموا دعوته، وإنما يقفوا على الحياد على الأقل بين الرسول ﷺ وبين قبائل العرب، فإذا انتصر - الرسول ﷺ - فالأمر لهم في النهاية، إن شاؤوا دخلوا في الإسلام كما دخل فيه غيرهم، وإن لم يشاءوا الدخول في الإسلام قاتلوا وقد احتفظوا لهذه الحرب بكل قواهم، وفي النهاية فالرسول ﷺ منهم وعزه وعزهم وسلطانهم سلطانهم».

ما أعظمك يا رسول الله، وما أسمى نفسك وما أكبر قلبك، وما أرق عواطفك، تريد الخير لأقصى أعدائك، وتسوق النصيحة المخلصة لأشد الناس حقداً عليك وكرهية لك، وتريد السلام مع العدو الشرس الذي تستطيع أن تسحقه في معركة فاصلة، ولكنك أعظم قواد العالم قاطبة؛ لأنك انتصرت على كل أهواء النفس البشرية، وغزت قلوب أعدائك بالرحمة عليهم والعفو عنهم، وإخلاص النصيحة لهم، والحفاظ على دمايتهم وأعراضهم وكرامتهم.

**الرسول ﷺ يثبت لقريش عملياً أنه ما جاء للحرب:**

أولاً: كان الرسول ﷺ يستطيع مهاجمة مكة في مفاجأة ساحقة صاعقة بعد أن خدع فرسان قريش وسلك طريقاً لم يخطر لهم أنه سيسير فيه، ولا شك أن المفاجأة كانت ستحقق الانتصار الحاسم، وخصوصاً أن المهاجرين في جيش الرسول ﷺ كانوا في غاية الشوق إلى مواطن صباهم في مكة، وفي غاية الشجاعة والحدق على قريش، وارتفاع الروح المعنوية، والثقة في نصر الله لهم، وكذلك كان حال الأنصار، وكان

لرسول ﷺ كل الحق في مهاجمة مكة؛ لأن قريشاً أعلنت عليه الحرب، وحشدت فرسانها لمواجهة، ومنعته من حق زيارة البيت الحرام، الذي هو بيت الله ومن حق كل من يشاء زيارته.

ولكن الرسول ﷺ كان يريد السلام، وحقق الله له ذلك بأن أمر ناقة الرسول ﷺ بالبقاء في الحديبية، فلم تتقدم عن ذلك الموضع، وقال الرسول ﷺ: «لقد حبسها الله ﷻ الذي حبس الفيل عن مكة، حينما أراد أبرهة هدم الكعبة».

وهذا المكوث في الحديبية دليل واضح وعملي على أن الرسول ﷺ يريد السلام مع قريش ولا يسعى للحرب والقتال.

ثانيًا: سقط سبعون فارساً من قريش أسرى في يد أبطال الإسلام، وكان الرسول ﷺ يستطيع ضرب أعناقهم لإرهاب قريش، أو أخذ الفدية عنهم، لو كان جاء للحرب، ولكنه أطلق سراحهم لثبت لقريش عملياً أنه جاء لأداء العمرة فقط، ولم يأت للحرب والقتال.

ثالثاً: رأى الرسول ﷺ الحليس بن علقمة سيد الأحابيش قادماً كرسول من قبل قريش إلى رسول الله فقال: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَاذْبَعُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِي فِي فَلَائِدِهِ، وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى، فَقَالَ هُمْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَغْرَابِي لَا عِلْمَ لَكَ.

فَغَضِبَ الْحَلِيسُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَيَّ هَذَا خَالِفَانُكُمْ، وَلَا عَلَيَّ هَذَا عَاقِدَانُكُمْ، أَيْصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَسْتُ خَلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرِّقَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كَفْ عَنَّا يَا حَلِيسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَفْسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٢].

وهذا دليل على حكمة رأي رسول الله ﷺ وبعد نظره، حيث وقف سيد الأحابيش معه حينما رأى الهدي، وهو من قوم يعظمون البيت الحرام غاية التعظيم، ولا يقفون أبداً في وجه من جاء لزيارته.

ولقد اقتنعت قريش بأن الرسول ﷺ ما جاء للحرب، بعد تلك الأدلة العملية التي أظهرها لهم رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا يريدون حفظ ماء الوجه أمام قبائل العرب، فكان هدفهم أخذ بعض الشروط من الرسول ﷺ حتى يأذنوا الرسول ﷺ وللمسلمين في أداء العمرة.

[محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام لرضوان ١٠٤-١٠٦].

ويقول د/ أيوب: «وفي قول النبي ﷺ لبديل: «إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ أَحَدٍ، إِنَّمَا جِئْنَا لِنُطَوِّفَ بِهَذَا الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ فَأَتَيْنَاهُ...»، جعلت بديلاً يقول: (والله لن تفلح قريش ولن تنصر عليه أبداً)، من هذا يظهر

موقف النبي ﷺ وأنه مسلم لا يقصد حرباً، وهكذا كل الدعاة إلى الله يتتغون السلام؛ لأن الإسلام دين السلام، نزل دستوره في ليلة القدر: ﴿سَلِّهُنَّ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر].

وفريضة الصلاة في الإسلام تبدأ بالتكبير لله وحده، وتختتم بالتسليم، التسليم على الدنيا كلها يميناً ويساراً، على صاحبها في الأرض وفي السماء أحياء أو أمواتاً.

والله يدعو إلى دار السلام، ومن أسماء ربنا السلام، فخلق بكل من يتبع السلام أن ينادي بالإسلام، فلنشرك الدنيا كلها أو تغرب، فليس هناك سلام دائم إلا في الإسلام، فليعتز المسلم بالإسلام؛ لأنه يرفع للدنيا كلها علم السلام والراحم والإخاء. [صلح الحديبية لأبواب ٣٣-٣٤].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ قد كان حريصاً كل الحرص على السلام وعدم سفك الدماء مع قدرته على كسب النصر والتغلب على أعدائه، إجلالاً للحرمة وتعظيماً له، وأملًا في هداية هؤلاء الناس ليكونوا مادة الإسلام وجنده الذين يحملونه للناس». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤١].

### ١٣ - صلة الأرحام:

يقول د/ أبو فارس: «حرص النبي ﷺ على صلة الأرحام والإحسان إليها، وتجنبها الصدام المسلح وسفك الدماء، ويجهتد كل الاجتهاد لجلب الخير لأرحامه، ودفع الشر عنهم، وفي مقدمة الخير إنقاذهم من الضلال إلى الهدى، ومن النار إلى الجنة، ومن الظلمات إلى النور». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٤].

### ١٤ - رَدُّ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ وَلَوْ نُسِبَ إِلَى غَيْرِ الْمُكَلَّفِ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: رَدُّ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ وَلَوْ نُسِبَ إِلَى غَيْرِ مُكَلَّفٍ، فَلَيْتَهُمْ لَمَّا قَالُوا: خَلَأْتُ الْقُصُوءَ، يَعْنِي حَرَنْتُ وَأَلَحْتُ فَلَمْ تَسِرْ، وَالْخَلَاءُ فِي الْإِبِلِ - بِكَسْرِ الْحَاءِ وَالْمَدِّ - نَظِيرُ الْحِرَانِ فِي الْخَيْلِ، فَلَمَّا نَسَبُوا إِلَى النَّاقَةِ مَا لَيْسَ مِنْ خُلُقِهَا وَطَبْعِهَا رَدُّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «مَا خَلَأْتُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ»، ثُمَّ أَخْبَرَ ﷺ عَنْ سَبَبِ بُرُوكِهَا، وَأَنَّ الَّذِي حَبَسَ الْفِيلَ عَنْ مَكَّةَ حَبَسَهَا لِلْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسَبَبِ حَبْسِهَا وَمَا جَرَى بَعْدَهُ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٢].

ويقول الصالح: «في قوله ﷺ: ما خلأت وما ذاك لها بخلق، جواز الحكم على الشيء بما عُرف من عادته، وإن جاز أن يطرأ عليه، وإذا وقع من شخص هفوة لا يُعهد مثلها منه لا تنسب إليه ويُرد على من نسبه إليها من، لا يعرف صورة حاله؛ لأن خلأ القُصُوءَ لولا خارق العادة لكان ما ظنه الصحابة جميعاً صحيحاً، ولم يعاتبهم النبي ﷺ بعذرهم في ظنهم». [سبل الهدى والرشاد للصالح ١١٤-١١٥].

ومنه إذا كان الرسول ﷺ دَفَعَ عن عِرْضٍ غير مكلف، فمن باب أولى الدفع عن عِرْضِ المكلف المصون، بأن لا نقول غيبة لأحد أو نسمعها في أحد ونُدفع الغيبة ونرد على المغتاب. [فقه السيرة للزبد ٥٣٤].



ويقول د/ العوا: «وقد استنبط الفقهاء من قوله ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقِي» جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته، وأنه إذا وقعت من شخص هفوة، لا يعهد مثلها منه، لا تنسب إليه ويرد على من نسبه إليها، من الذين لا يعرفون حاله وطباعه، قالوا: ولم يعاتب النبي ﷺ أصحابه فيما قالوه عن الناقة لأنهم لا يعرفون عاداتها!

وهذا استنباط سديد من حديث الرسول ﷺ، والأصل أن يظن المرء بالناس الخير كما يعرفه من نفسه، وذلك كما قال تعالى في شأن الاتهام الظالم الباطل لأم المؤمنين عائشة ؓ: ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور].

وكثير من الناس لا يراعون هذا الأصل في علاقاتهم الاجتماعية وصلاتهم الإنسانية، ومخاطر الوقوع في إساءة الظن لا تحصى، ولعل من أخطرها إفساد ذات البين التي قال رسول الله ﷺ إن فسادها هي الخالقة «لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ». [الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٨-٢٥١٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن]. [الحديبية للعوا ٤١-٤٢].

#### ١٥ - حَبَسَهَا اللَّهُ ﷻ حَابِسَ الْفِيلِ:

يقول ابن حجر: «وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ جَوَازُ التَّشْبِيهِ مِنَ الْجِهَةِ الْعَامَّةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْجِهَةُ الْخَاصَّةُ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ الْفِيلِ كَانُوا عَلَى بَاطِلٍ مُحَضَّرٍ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ النَّاقَةِ كَانُوا عَلَى حَقٍّ مُحَضَّرٍ، لَكِنْ جَاءَ التَّشْبِيهُ مِنْ جِهَةِ إِرَادَةِ اللَّهِ مَنَعَ الْحَرَمِ مُطْلَقًا، أَمَّا مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ فَلِلْمَعْنَى الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَفِيهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ وَاعْتِبَارٌ مَنْ بَقِيَ بِمَنْ مَضَى، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَى تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَرْكُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَالْجُنُوحُ إِلَى الْمُسَالَمَةِ، وَالْكَفُّ عَنْ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ. وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ لِمَنْ قَالَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ: عَلَامَةُ الْإِذْنِ التَّيْسِيرُ وَعَكْسُهُ، وَفِيهِ نَظَرٌ».

[فتح الباري في الشروط (٢٥٢٩)].

ويقول الصالحى: «قوله ﷺ: «حَبَسَهَا حَابِسَ الْفِيلِ»، أي: حبسها الله ﷻ عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، وقصة الفيل مشهورة، وتقدمت الإشارة إليها.

ومناسبة ذكرها أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدتهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال، كما لو قُدِّرَ دخول الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله - تعالى - في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خلقٌ منهم، وسيخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون.

وكان بمكة في الحديبية جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فلو طرق الصحابة مكة لما أمن أن يُصاب منهم ناس بغير عمد كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى - في قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ الآية [الفتح: ٢٥].

استبعد المهلب جواز إطلاق حابس الفيل على الله ﷻ، وقال: المراد: حبسها أمر الله ﷻ. وتعقب بأنه يجوز إطلاق ذلك في حق الله - تعالى - فيقال: حبسها الله حابس الفيل، وإنما الذي يمكن أن يمنع تسميته - تعالى - حابس الفيل ونحوه، كما أجاب به ابن المنير، وهو مبني على الصحيح من أن الأسماء توقيفية.

وقد توسط الغزالي وطائفة فقالوا: محل المنع ما لم يرد نص بما يشتق منه بشرط ألا يكون ذلك الاسم المشتق منه مشعراً بنقص، فيجوز تسميته بالواقعي: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩]، ولا يجوز تسميته البناء، وإن ورد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْتِيكُ﴾ [الذاريات: ٤٧].

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ١١٥/٥ - ١١٦].

ويقول د/ العوا: «وقد ذُكر النبي ﷺ أصحابه - عندئذ - بقصة الفيل الذي منعه قدرة الله وإرادته عن دخول مكة - مع الفارق بين دخول المؤمنين المعظمين للبيت الحرام وبين دخول جيش الحبشة الذين كانوا يريدون هدم الكعبة المشرفة - لأن المسلمين لو دخلوا مكة عنوة وصدتهم قريش لوقع قتال في الحرم قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال، وهو ما حالت دون مثله القدرة الإلهية عام الفيل، لما سبق في علم الله تعالى من أن أهل مكة سيدخل في الإسلام منهم خلق كثير، وسيكون من أبنائهم المسلمون المجاهدون في سبيل الله لنصرة دينه.

وزاد الأمر صعوبة في عمرة الحديبية أن مكة كان يعيش فيها جمع كثير من المسلمين المستضعفين كان من المحتمل، بل الراجح، لو دخل النبي ﷺ وأصحابه ﷺ مكة ووقع قتال، أن يُصاب بعض هؤلاء، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَرَبَعَلَوْهُمْ أَنْ تَكُونُوا لَهُمْ فِتْنَةً﴾ [الفتح: ٢٥].

فكان ربنا - تبارك اسمه - منع الحرم من أن يُدخل عنوة مطلقاً، فأما من أهل الباطل - كأصحاب الفيل - فلما هو ظاهر من قبح ما قصده وفساده، وأما من أهل الحق - كأصحاب النبي ﷺ - فللمعنى الذي ذكرته، وبهذا المنع الإلهي تمت للبيت والبلد حرمتها الباقية إلى يوم القيامة.

ولا يُعترض على ذلك بما وقع من الجماعة المحاربة التي عرفت (بجماعة جهيمان العتيبي) الذين احتلوا المسجد الحرام في شهر المحرم من عام ١٤٠٠ هـ فهؤلاء دخلوا البيت مسلمين مُعظمين له في الظاهر،

ولم يدخلوه بجيش مسلح شأن المحاربين الفاتحين، ثم إنهم انتهكوا الحرمة المقررة شرعاً والمحفوظة واقعاً بجرائم عوقبوا عليها، فكان شأنهم شأن أي مرتكب لمعصية في الحرم، لا شأن الجيش الذي يهتك حرمة المكان كله بدخوله عنوة. والله أعلم.

وليس في شيء من طرق الحديث الذي يرويه العلماء عن واقعة الناقة وحبسها، وتعهد النبي ﷺ بقبول ما تدعوه قريش إليه من عهد يريدون به تعظيم حرمة الله أو صلة الرحم - كما قال الإمام السهيلي في كتابه الروض الأنف - أنه قال «إن شاء الله!»، وقد علل العلماء ذلك بتعليلات أصحها أن التعليق على المشيئة سقط من الراوي». [الحديبية للعوا ٤٢-٤٤].

#### ١٦ - الشجاعة والحزم:

يقول د/ الحميدي: «وذلك حينما عرض على قريش خطة الصلح، وجعل البديل منها إن أبوا ذلك الجهاد القوي المتواصل الذي عبر عنه بقوله: «وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرُوا سَالِفَتِي، وَلَيُفْلِنَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

وهذا الكلام القوي والوعيد الشديد لا شك أنه كان له أثر في قريش حتى قبلوا بالصلح الذي لم يكن من صالحهم كما سيأتي». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٠٥-٢٠٦].

#### ١٧ - جيل الصحابة رضي الله عنهم وجيل بني إسرائيل:

يقول د/ أبو فارس: «في هذه الأحداث قد ظهر البون الشاسع بين معدن الصحابة رضي الله عنهم ومعدن الجيل الذي عاش مع موسى عليه السلام من بني إسرائيل، تأمل هذين الموقفين:

**الموقف الأول:** موقف مع من كان مع موسى عليه السلام، إذ أنعم الله عليهم نعمًا كثيرة فأغرق عدوهم وأنجاهم منه، وأمرهم أن يدخلوا الباب متواضعين قائلين كلمة حطة، ووعدهم بالمغفرة والتوبة وزيادة المثوبة لهم، فماذا كان موقفهم من هذا الأمر؟ إنهم لم يستجيبوا لأمر الله جل وعلا، ونفخ الغرور أوداجهم والكبرياء نفوسهم فاستحقوا غضب الله ﷻ.

**الموقف الثاني:** موقف هذا الجيل القرآني الفريد حين تخطى الصعاب وسار في تلك الطريق الوعرة، كثيرة الحجارة، وأصابه العنت والمشقة، ومع هذا لم يتبرم رغم ما لاقاه، وحين أمره الرسول ﷺ أن يقول: نستغفر الله ونتوب إليه. قال الجميع ذلك.

فاستحقوا المدح والثناء من الله ﷻ، بينما استحق أولئك السخط من الله ﷻ.

وهذان الموقفان يذكرنا بموقف بني إسرائيل من القتال الذي أمرهم الله به لدخول الأرض المقدسة فلم يستجيبوا لهذا الأمر بل تمردوا عليه، وقالوا لموسى عليه السلام: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» (١٢) [المائدة].

وموقف الصحابة رضي الله عنهم في بدر على قلتهم وقلة سلاحهم حينما استشارهم الرسول ﷺ في أمر القتال، قالوا فأحسنوا الكلام، وكان من قول المقداد بن الأسود رضي الله عنه ما هو عظيم المقال كما مر بنا في غزوة بدر الكبرى». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤١-٤٢].

### ١٨ - كِبَرُ كَاذِبٍ:

في معجزة فوران البئر بالماء وموقف عبد الله بن أبي بن سلول منه، يقول د/ العوا: «إن هذا الرجل، ونظراءه من المنافقين، لم يمنعه من صدق الإيثار بنبو محمد ﷺ أنهم لم يروا الآيات الدالة على هذه النبوة، ولا أنهم لم يفهموا القرآن العربي الذي كان ينزل عليه فيتلو على الناس - وهم منهم - ولا أنهم كانوا يرونه ساحراً أو كاهناً أو شاعراً، كما كان بعض الحمقى من قريش، ومنَ والاها، يزعمون في أول البعثة النبوية، ولكن الذي كان يحمل هؤلاء الذين «مردوا على النفاق»، من أهل المدينة، على نفاقهم كان نوعاً من الكبر الكاذب ملك عليهم نفوسهم: أنهم يكونون أعظم، في نظر الناس، وأعلى مكانة، إذا أعلنوا مخالفتهم لما عليه عامة أهل المدينة من اتباع محمد والإيمان به، والنزول على حكمه، والانقياد لأمره ونهيه.

وقد أوردهم هذا الكبر الكاذب موارد الهلكة، فقد كانوا: ﴿تُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ووصفهم القرآن الكريم بأنهم: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ إِنَّهُ الْمُنْقِصِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، ولم يكونوا يُخَفُّونَ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بل كانت حالهم بينة: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]، وأمر القرآن الكريم رسول الله ﷺ أن يبشر: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وأخبر القرآن الكريم عنهم أنهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَهُمْ فِيهَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وكفى بذلك خزيًا وسوء مصير.

وقد نبأ القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأن الذي يحمل المنافقين على ما يفعلون هو ذلك الكبر الكاذب، فقال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَحِذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وهذه الآية مدنية - كما قال ابن عباس وغيره - فهي تتناول كل مَنْ جادل في آيات الله بغير سلطان من أهل المدينة من اليهود والمنافقين، وقيل: كل مَنْ كفر بالنبي ﷺ، قال القرطبي: «وهذا حسن»، والمقصود بالسلطان هو الدليل والبينة التي تنهض حجة لصاحبها وشاهدة على صحة قوله أو معتقده، وهيئات أن يجد هذا الدليل أو تلك البينة المنافقون وأشباههم أو أتباعهم، لا في زمان النبي ﷺ وحده، بل في كل زمن ومكان.

ولا شك أن الكبر في المنافقين أظهر منه في سواهم بدليل استكبار رأسهم عبد الله بن أبي عن التسليم للآية الظاهرة في فوران ماء البئر وزيادته أمام عينيه وقوله كذبًا: «قد رأيت مثل هذا»، كبرت كلمة تخرج

من أفواههم، إن يقولون إلا كذبًا، وانظر - مع ذلك كله - إلى قول جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لمن سأل: كم كنتم؟ قال: «لو كنا مائة ألف لكفانا (!) كنا خمس عشرة مائة»، تعرف الفرق بين يقين المؤمن وريبة المنافق». [الحديبية للعوا ٤٧-٤٩].

### ١٩ - الاقتصاد في استعمال الماء:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذا الذين لا يجب لأهله الإسراف والتبذير ولا يرضاه لهم، بل حرّمه عليهم؛ لأن شيوعه بينهم يعني الهلاك، ولقد حذر الله من التبذير فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ (٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧﴾» [الإسراء].

تأمل معي عبارة الحديث: يَبْرُضُهُ النَّاسُ تَبْرُضًا، أي يأخذون من الماء قليلًا.

وهذا إن دل على اقتصاد المسلمين في الماء التزامًا بأمر النبي ﷺ القاضي بعدم التبذير وإن كان المسلم على نهر جار، فإنما يدل أيضًا على التعاون بين المسلمين، وانعدام الأثرة عندهم التي تدفع صاحبها لبحوز الخير لنفسه ولا يبذله لأحد». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٨-٥٩].

### ٢٠ - الخلق العظيم:

يقول د/ العوا: «وصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأنه على خلق عظيم، وجعل الرسول ﷺ من أسباب رسالته أن يتم مكارم الأخلاق، فقال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». [مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه (٨٩٥٢) وصححه الشيخ الأرنؤوط، مجمع الزوائد ٨/ ٣٤٣ في البر والصلة (١٣٦٨٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواية البزار «لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» - مجمع الزوائد ٨/ ٥٧٤ في علامات النبوة (١٤١٨٨)، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق الله الكلؤاني وهو ثقة - ينظر: أخلاق النبي ﷺ للحداد ١/ ٤٤ هامش ٣]. وفي بعض الروايات الصحيحة: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ».

[أخرجه مالك في الموطأ بلاغًا في حسن الخلق الباب الأول ٢/ ٩٠٤، وقال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة رضي الله عنه وغيره].

والناس يعرفون أن ذوي الخلق الحسن منهم يكونون عليه في أوقات رخائهم وأمنهم وراحتهم، فإذا انشغل الواحد منهم بهم من الهموم العارضة، أو ضاقت به بعض أحواله، أو استغرق في شأن من الشؤون العامة أو الخاصة، تبدل منه حسن الخلق سوءًا، وأصبحت سعة صدره ضيقًا، وصد عنه أقرب الناس إليه حتى أهله وولده، بل ربما كان على هؤلاء أجرأ منه على سواهم؛ لأنهم يقبلون منه، ويحتملون له، ما لا يقبله غيرهم ولا يحتمله.

وهذا كله سلوك إنساني طبيعي؛ لأنك لا تتوقع من الناس أن يكونوا على الجادة في أحوالهم كافة، أو أن يكونوا في رضا دائم لا يحاطه سخط، أو في هدوء مستمر لا يشوبه غضب، ولا يكون الرجل في

غضبه كما يكون في هدوئه، ولا في سخطه كما يكون في رضاه، اللهم إلا إن كان من الأفذاذ النوادير الذين يتخلقون بأخلاق الأنبياء، وقليل ما هم!

والقارئ لسيرة الرسول ﷺ لا يجده يتخلى عن حسن خلقه، وكريم طبعه، في أي موقف من مواقف حياته، لا في الإقامة ولا في السفر، ولا في الحرب ولا في السلم، ولا في الرضا ولا في الغضب، بل كان حُسن الخلق ولين الطبع ملازمين له، حتى قال ربنا ﷺ مخاطباً نبيه ﷺ: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩].

وفي الحديبية تكررت المواقف التي تبدى فيها حسن خلق الرسول ﷺ ولين جانبه وسعة صدره، فقد ذكرت من قبل أنه لما قال له عبد الله بن أبي بن سلول: استغفر لي، استغفر الله له بعد ما كان منه من جحد معجزة فيضان البئر بالماء بعد أن كادت تجف، ولم يكن ذلك إلا حسن صحبة من رسول الله ﷺ حتى للمنافق الذي عرف نفاقه.

ومن هذه المواقف النبوية المضيئة أن عمرو بن سالم وبُسر بن سفيان الخزاعيين أهديا إلى رسول الله ﷺ بالحديبية غنماً وجزوراً (الجزور الواحد من الإبل يطلق على الأنثى والذكر)، وأهدى عمرو بن سالم - أيضاً - لسعد بن عباد، وكان صديقاً له، جزراً، فجاء سعد ﷺ بالجزر (جمع جزور) إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عمراً أهداها له، فقال: «وعمرؤ قد أهدى لنا ما ترى، فبارك الله في عمرو».

[سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٧٠].

ثم أمر رسول الله ﷺ بالجزر أن تنحر وتقسم في أصحابه، وفرَّق الغنم عن آخرها، وجعل قسمتها بين أصحابه جميعاً، الرجال منهم والنساء، حتى كان نصيب أم سلمة من لحم الجزور كنصيب الرجل من أصحاب النبي ﷺ، وشرَّك في الشاة التي كانت من نصيبه (أي جعلها شركة تقسم بين أصحابه) فكانت لأم سلمة نصيب منها.

ولم يكن ذلك أمراً غير معتاد من رسول الله ﷺ، بل كان ذلك سلوكه الدائم مع نسائه رضي الله عنهن، ففي الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرْقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: «وَهَذِهِ؟»، لِعَائِشَةَ (يعني: هل تدعوها معي)، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا»، فَقَالَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهَذِهِ»، قَالَ: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا»، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَهَذِهِ»، قَالَ: نَعَمْ، فِي الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَا فَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَزْلَةً.

[مسلم في الأشربة (٢٠٣٧)].

فحسن معاملة الرسول ﷺ لنسائه كانت من خلقه العظيم المستمر الذي لا يصرفه عنه حال من أحواله في سفر ولا حضر، وانظر إلى دعائه لعمرؤ بن سالم مكافأة على هديته، وقد أمر لبسر بن سفيان بكساء

للتعبير عن تقديره ﷺ لما صنعاه، ثم إلى أمره ﷺ بقسمة الجزر بالسوية بين أصحابه الرجال والنساء، تجد ذلك كله دليلاً على الخلق العظيم الذي وصفه القرآن به، فكان علامة له لا يخطئها الناظر في سيرته، ومسلماً دائماً لا يتغير في أحواله كلها ﷺ. [الحديبية للعوا ٦٢-٦٥].

## ٢١ - قضاء الله ﷻ بعدم القتال:

يقول د/ أبو فارس: «إن الله ﷻ، جلت قدرته، وعزت عظمته قضي - ألا يكون قتال بين المسلمين والمشركون من أهل مكة في هذه الغزوة بالذات لحكم ظهرت فيما بعد، منها:

(أ) دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتُسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يردده البارئ سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركون.

(ب) إن من المحتمل أن ينال الأذى والقتل والتشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكة، وهذا فيه ما فيه من المعرة التي لا يليق بمسلم أن يقع فيها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ لَرَعَلْتُمْ وَلَقَدْ كَفَرْتُمْ وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِهِمْ وَأَبَيْنَا لَهُمْ الصَّغِيرَةَ﴾ [الفتح: ٢٥].

(ج) لقد سبق في علم الله ﷻ أن هؤلاء الذين يقفون اليوم صادين رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ عن المسجد الحرام، هم الذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام، سيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرة، حين يحملون هذه الرسالة للناس وينيرون ظلمة الطريق للمُدجلين، قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٥].

## ٢٢ - أثر الظهور بالمظهر السلمي:

يقول د/ الحميدي: «إن من عوامل كسب القضية المتنازع عليها الظهور بالمظهر الذي يجعل الخصم يتعاطف مع خصمه ويتحول إلى مدافع عنه أمام قومه، وهكذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يستقبلوا الحليس بن علقمة الكناني بالمظهر الذي يفرض عليه اعتقاد كون المسلمين إنما جاؤوا للعمرة حيث أرسلوا أمامه الإبل المعدة للهدي، وهو ممن يعظمون مشاعر الحج والعمرة، وقد أثر عليه هذا المنظر فرجع مُنكراً على قريش وقوفها في وجه المسلمين وصدهم عن البيت الذي جاؤوا معظماً له.

وقد جاء ذلك واضحاً في رواية ابن إسحاق، وفيها: «ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ الْحَلِيسَ بْنَ عَلْقَمَةَ أَوْ ابْنَ رَبَّانٍ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ، وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لَمَّا رَأَى، فَقَالَ هُمْ ذَلِكَ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْحُلَيْسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُحْلَنَ يَبْنَ مُحَمَّدٌ وَيَبْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرَّنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفَرَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَفْسِنَا مَا نَرُضِي بِهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٢].

وهكذا كان هذا التصرف من رسول الله ﷺ مُقْنَعًا للحليس كي يتحول عن رأيه ويقف في صف المسلمين ويهدد قريشًا بأن يواجههم بالحرب إن هم صدوا المسلمين وقد جاؤوا معظمين للبيت. ولقد تحول رأي زعماء قريش بعد هذا الموقف من الرأي المتصلب نحو صد المسلمين بالقوة إلى نوع من المساومات السياسية كما في هذه الرواية حيث قالوا: كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَفْسِنَا مَا نَرُضِي بِهِ، يعني أننا لن نصد المسلمين بالقوة عن الوصول إلى البيت ولكننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة لنكسب هذه القضية أمام العرب». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٢٠٦-٢٠٧].

### ٢٣ - ما يستفاد من سفارة بديل الخزاعي:

يقول د/ أبو فارس:

(١) جواز الاعتماد على غير المسلمين في الاستخبارات شريطة أن لا يعرف عنهم الغدر ويؤمن

جانبهم.

(٢) جواز اتخاذ الوسطاء بين المسلمين وأعدائهم وإن كانوا من غير المسلمين، فقد قبل النبي ﷺ من

بديل أن يكون وسيطاً بينه وبين مشركي مكة، وكان بديل على شركه.

ويشترط في ذلك أن يؤمن من جانب الوسيط، بحيث لا تُعرف عنه الخيانة والغدر.

(٣) ليس كل كافر لا أمان له: نعم قد يكون معظم الكفار لا أمان لهم، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا

ذمة، وفي نفس الوقت قد يكون من الكفار عدد قليل أمناء لا يغدرون ولا يخونون.

فها هو ذا بديل بن ورقاء الخزاعي يصدق مع النبي ﷺ هو وقومه ويتعاطفون مع المسلمين وهم على

شركهم، بل كان مشركو قريش لا يطمثون إلى بديل وخزاعة وهم جميعاً على دين الشرك، بل يذكر لنا

كتاب السير أن خزاعة على شركها كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ، أي موضع سر له.

(٤) الدقة في المعلومات: لقد زُوِّد بديل الرسول ﷺ بمعلومات دقيقة عن قريش في غاية الأهمية

بالنسبة للمسلمين، فقد أخبر عن مكان تجمعهم بدقة: (نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاءِ الْحُدَيْبِيَّةِ)، كما أخبر عن قوة

حشدهم للحرب فقال: (وَمَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَافِيلُ)، وأخبر عن تصميمهم على التصدي للمسلمين ومنعهم

من أداء النُسك بقوله: (وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ).



ويمكن أن يستفيد الرسول ﷺ من هذه المعلومات الدقيقة في اتخاذ القرار المناسب وفق الإمكانيات والظروف المحيطة به.

(٥) الروح المعنوية العالية والإرادة القوية الصارمة: وأمام هذه الأخبار والأخطار ماذا كان موقف

النبي ﷺ؟

لقد أجاب بديل بن ورقاء إجابة تدل على روح معنوية عالية، وعزيمة قوية وتصميم أكيد على المبدأ والعقيدة، ولقد ألقى في روع بديل الخزاعي وقومه أن خروج قريش وحشودها في هذا الوقت لا يدل على قوتها وتفوقها، بل هي في حقيقتها ضعيفة منهكة، أنك المسلمون قواها، في السرايا التي شنوها عليها، والمعارك التي حطموا فيها غرورها، وقتلوا صناديدها وأبطالها، ودمروا اقتصادها، ومرغوا سمعتها في الوحل، وما غزوة بدر وأحد والأحزاب ببعيدة.

وإن الظروف والأحوال لتقنعهم أن الحرب لن تكون في صالح قريش، فما عليها إلا أن تبحث جاهدة عن طريق آخر قبل فوات الأوان، وحصول الندم، ولات ساعة ندم.

(٦) العرض من مركز القوة: ومع أن الرسول ﷺ قوي الجانب وعدوه قد أنهكته الحروب، وحطمت اقتصاده، فلا يريد أن يستغل حالة الضعف عند قريش عدوته بل يعرض ومن مركز القوة على زعماء قريش الهدنة، وتوقف القتال، وإجراء حوار يوضح فيه دعوته.

(٧) البراعة السياسية: إن الرسول ﷺ حين يعرض على مشركي قريش الهدنة والصلح فإنما يحرز أكثر

من فائدة.

فبالهدنة يضمن حياد قريش ويعزلها عن أي صراع يحدث في المنطقة سواء أكان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى أم مع اليهود، ذلك العدو اللئيم الغادر الذي يتربص بالمسلمين الدوائر.

نعم إنه يمزق جبهة المشركين بهذا الصلح، أما هو فجبهته قوية مترابطة لا يؤثر عليها شيء، وسينفرد بهم واحدًا واحدًا.

(٨) العاقبة للرسول ﷺ: ونجد الرسول ﷺ يخبر بديل بن ورقاء بأن العاقبة له وللمسلمين،

فسينصره الله على قريش وينصر دينه مهما حاول الطواغيت من محاولات، فمحاولاتهم كلها يائسة.

(٩) إن الرسول ﷺ حرص أن يصل كلامه هذا إلى كفار مكة كاملاً لا يحذف منه شيء، ذلك لأنه

يحقق عدة أمور:

(أ) تحطيم معنويات مشركي مكة: إنه أعلمهم أن الرسول ﷺ يعلم حقيقة أحوالهم، وما خرجوا لقوة

وغلبة وهم مطمئنون للنصر، وإنما خرجوا فقط بطراً ورتاء الناس، وليس لهم قدرة على القتال، تأمل معي: (إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ).

وبديل يحطم معنوياتهم حين ينقل إليهم تحدي الرسول ﷺ وإصراره هو ومن معه من المسلمين على هدفهم المنشود، ثم إن العاقبة له والهزيمة والذل سيكون إن عاجلاً أو آجلاً لاحقاً بهم لا محالة.

(ب) إن الرسول ﷺ كان يحرص أن يبقى باب الاتصال مفتوحاً بينه وبين قريش؛ لسمع منهم ويسمعوا منه بواسطة الرسل والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

(ج) تعاطف العقلاء مع المسلمين: إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول ﷺ، وأنه جاء معظماً للبيت والمشركون يردونه، وهو يصبر على تعظيمه، سيقف هؤلاء بجانبه ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

(د) لقد حرص الرسول ﷺ أن تدرك خزاعة بقيادة بديل والركب الذي معه أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبنى هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي ولم بلغ وتأكد في صلح الحديبية.

(هـ) إن مشركي مكة لم يطمئنون إلى كلام بديل الذي نقله إليهم؛ ذلك لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ، ويشعرون بود خزاعة للرسول ﷺ والمسلمين.

(١٠) طريقة بديل في عرض الكلام كانت موقفة ومشوقة، تأمل معي قوله: (إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا).

ألا ترى أنه شوقهم إلى معرفة كلام الرسول ﷺ، وجعلهم ينقسمون إلى قسمين: السفهاء أبوا مجرد السماع، وذوو الرأي حرصوا على سماع كلام الرسول ﷺ. فحدثهم مشعراً بإيهاهم أنه أسدى إليهم معروفاً.

(١١) لا عبرة برأي سفهاء القوم والطغمان من الناس؛ لأنهم لا يُقدِّرون حقيقة الموقف ونتيجته حق التقدير، بل إنهم يجهلون مغبة ذلك، وأخطر ما تُصاب به أمة أن يحكم سفهاؤها في دمائها وأموالها وأعراضها، ومما يؤسف له أن كثيراً من بلاد المسلمين تعاني من حكم السفهاء، بل ويستخف السفهاء شعوبهم فتطيعهم، قال تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيقِينَ﴾ [الزخرف].

(١٢) ويؤخذ من جواب الرسول ﷺ للسفراء حسن التلطف في الوصول إلى الطاعات وإن كانت غير واجبة، ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأن النبي ﷺ أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض لهم والكراهية فيهم، لطفاً منه ﷺ، فيما يؤمل من البلوغ إلى الطاعة التي خرج إليها. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٦٤-٦٨].

## ٢٤ - في العرب غلظة وجفاف:

يقول د/ فيض الله: «أفصح رسل قريش إلى النبي ﷺ في حديثهم معه، عما استقر في جبلتهم من جفاف البادية، وخشونة الأعراب، وغلظة القلوب، واعوجاج التصرف:

فقد تكرر على ألسنتهم وصفهم الصحابة رضي الله عنهم بأنهم أوشاب الناس، جمعهم النبي ﷺ ليجتاح بهم قومه، وليس الصحابة رضي الله عنهم إلا فريقاً منهم أنفسهم.

وعمد عروة في حديثه مع النبي ﷺ فأمسك لحيته بيده، وهزها مرة بعد مرة، تنبيهاً وإيقاظاً، وما هكذا يفعل الموفدون في مهام إلى الآخرين، وكان المغيرة رضي الله عنه يقرع يده كل مرة، ويهدده بقطعها، فيرى تهديد المغيرة غلظة، ولا يرى لفعلة ظلاً من الغلظة أو الفظاظة، ويُعير المغيرة رضي الله عنه بفعلة فعلها في الجاهلية، وأنه ما تحلى عنها إلا من قريب، ويذكره بفعلاته في الجاهلية، التي جَبَّها له الإسلام.

ثم ها هم أولاء، يقفون من خراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه، رسول النبي ﷺ إليهم، فيعقرون بعيره، ويهمون بقتله، لولا أن حال بينهم وبينه الأحابيش.

وليس ذلك فحسب، فلكَيْتَهُمْ وقفوا عند حد العنف في القول، والغلظة في التعامل، لكنهم تجاوزوا، فأرسلوا أربعين رجلاً منهم؛ ليجدقوا بعسكر محمد ﷺ وأصحابه، لينالوا منهم نيلاً، أو يصيبوا منهم أحداً، أو يُنزِلُوا فيهم بأساً أو مكرهاً.

وكان المسلمون يقظين مرابطين في احتراس، فأخذوهم أسرى، واقتادوهم إلى رسول الله ﷺ الذي ما إن رآهم حتى عفا عنهم، وردهم إلى حيث انطلقوا.

ولابد للمنصف النزيه، أن يوازن بين هذه التصرفات النابية، والغلظة البادية، التي اتسم بها رسل العرب في التمهيد للهدنة، وبين المواقف الحكيمة الرزينة الهادئة التي اتخذها المسلمون حيالها.

وكذلك يربي الإسلام ذويه وأصحابه، يبدل غلظتهم برقة، وخشونتهم بأدب، وفظاظتهم بلطف ولين، ويقذف في قلوبهم الطمأنينة والسكينة، ويستأصل منها شأفة التزق الطائش، والحمية المندفعة.

وصور القرآن الكريم هذين الموقفين المتضادين بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

اللهم خَلِّقْنَا بأدب الإسلام، وَجَمِّلْنَا بتريته، وَزَيِّنَّا بسلوكه الأفضل». [صور وعبر لفيض الله ٢٨٦-٢٨٧].

## ٢٥ - ما يستفاد من سفارة عروة:

يقول د/ أبو فارس:

(١) لقد أحسن عروة بن مسعود في طريقة حديثه مع المشركين، إذ بدأ بذكر حبه لهم، وإبتغائه لمصلحتهم، ومناصرتهم، وأشعرهم أنه في صفهم، فهو - والحالة هذه - ليس متهماً كبديل بن ورقاء الخزاعي وقومه، كيف لا؟ وقد جاء عروة بقومه وأهله وولده ومن أطاعه لنصرة قريش، وبهذا نال ثقة قريش.

أقول: إن الداعية ينبغي عليه أن يستفيد من هذا الأسلوب، عليه أن يحسن للناس، ويتبنى مطالبهم العادلة، ويقف بجانبهم مدافعاً عن حقوقهم، ويرفض الظلم الواقع عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وحينئذ ينال ثقتهم ويكسب ودهم، ومن ثم تصبح طاقاتهم مُسَخَّرَةً لخدمة دعوته دعوة الحق، وليعلم أن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها.

(٢) لقد كان عروة حكيماً بعيد النظر حين عرض على قريش أن تسمح لرسول الله ﷺ والمسلمين معه بأداء النُسك، ولا تتعنت برأيها، فيؤدي ذلك إلى تأزم الموقف ومن ثم يكون الصراع الدموي الذي لا يُحمد عقباه بالنسبة لهم.

وزيادة في اطمئنانهم طلب منهم أن يسمع من الرسول ﷺ، وينقل إليهم النتيجة.

(٣) مناورات سياسية بارعة من عروة: لقد أدرك عروة إصرار الرسول ﷺ ومن معه على موقفهم وأنهم يريدون زيارة بيت الله الحرام، وهو يعلم أيضاً إصرار قريش على منعهم من حقهم، وصددهم عن بيت الله، فناور مناورة سياسية بارعة مجدثاً عنها الأستاذ باشميل فيقول: (لقد كان سيد ثقيف يعلم يقيناً بأن الحق كل الحق في جانب النبي ﷺ وأصحابه، وأن الخطأ في أن تصر قريش على منعهم من دخول مكة، لزيارة البيت وأداء مناسك العمرة، ومع ذلك فإنه قد تجاهل هذه الحقيقة أثناء محادثاته التي أجراها مع النبي ﷺ في الحديبية، بل حاول في هذه المحادثات إلقاء اللوم على النبي ﷺ، وتحميله مسؤولية تصعيد الأزمة التي بدت وكأنها تتحول إلى حرب يتفانى فيها الفريقان، قاصداً بذلك إقناع النبي ﷺ، بل تخويفه، ليُخرج عروة حلفاءه من ورطتهم، وذلك لن يكون إلا بأن يعود النبي ﷺ وأصحابه دون أن يدخلوا مكة، ودونها أي قيد أو شرط، وهذا ما حاول عروة بن مسعود أن يركّز في محادثاته لتحقيقه، فقد قال عروة بن مسعود للنبي ﷺ: أَجْمَعْتَ أَوْ شَابَ النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ لِتَقْضَاهَا بِهِمْ.

ثم أخذ عروة يضرب على وتر الإشارة بقوة قريش العسكرية، والتلويح بأنها قادرة على منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول الحرم، إن هم أصرّوا على دخوله فقال: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي تَرَكْتُ قَوْمَكَ، كَغَبِّ بْنِ لُؤَيٍّ وَعَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ عَلَى أَعْدَادِ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ، مَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطْفِئُ، قَدْ اسْتَنْفَرُوا لَكَ أَحَابِيْشَهُمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَهُمْ يُقْسِمُونَ بِاللَّهِ لَا يُحْلُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبَيْتِ حَتَّى تَجْتَاحَهُمْ. [الغازي للواقدي ٢/ ٥٩٥].

فشل مناورة عروة على براعتها؛ ولكن هذه المحاولات على براعتها باءت بالفشل، وأصر النبي ﷺ على أن من حقه ومن حق أصحابه أن يدخلوا مكة ويطوفوا متى شاؤوا، إلا أنهم لن يتعجلوا الأمور لنيل هذا الحق عن طريق اقتحام مكة بحد السلاح، وذلك رغبة منهم في حقن الدماء، وأمثلاً منهم أن يصحو عقلاء قريش من سكرة طغيانهم، فيتهجّجوا أي نهج به يحولون دون سفك الدماء، ويفسحون الطريق

للمسلمين ليباشروا حقهم الطبيعي ليزوروا بيت الله الحرام شأنهم في ذلك شأن كل العرب).

[صلح الحديبية لباشمیل ١٧١].

(٤) حاول عروة بذور الفتنة في الصف المسلم، ويشكك في إخلاص المسلمين وحبهم لرسول

الله ﷺ، وزعم أنه إن جد الجد واشتدت الحرب فإن أصحابه سيتخلون عنه ويفرون من حوله.

وهذا أسلوب يستعمله الطواغيت في كل زمان ومكان فيحاولون تشكيك القاعدة بالقيادة، ونزع

الثقة بينهما، ليسهل عليهم بعد ذلك تفريقهم، ومن ثم القضاء عليهم واحدًا واحدًا.

ألا فليحذر الدعاة من ذلك، ولا يسمعوا لمثل هذه الأحاديث المقترة، وليقفوا صفاً واحداً كالبنیان

المرصوص يشد بعضه بعضاً.

(٥) الموقف الحازم من ترويح الفتنة: وأمام هذا الأسلوب المشكك الذي سلكه عروة وقف أبو بكر

رضي الله عنه ليطفي نار الفتنة التي حاول عروة إشعالها، ويرد كيده إلى نحره، ويعلن التفاف المسلمين جميعاً حول

قيادة الرسول ﷺ، ويخاطبه بالأسلوب الذي يستحقه من الإهانة والزجر والتوبيخ قائلاً: **أَمْضُضْ بَطْرَ**

**اللَّاتِ، نَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟!**

قال ابن حجر: (وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سب

عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار).

[فتح الباري ٦/٢٦٦].

(٦) ويؤخذ من جواب أبي بكر رضي الله عنه لعروة بن مسعود المتقدم جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ

زجرًا لمن بدا منه ما يستحق به ذلك.

ويؤخذ أيضًا جواز التصريح باسم العورة لحاجة ومصلحة، وأنه ليس بفحش منه (عنه).

[نيل الأوطار ٨/٤١، وينظر: زاد المعاد ٣/٣٥٠].

(٧) فضل أبي بكر رضي الله عنه ومنزلته عند الناس: لقد كان أبو بكر رضي الله عنه ذا فضلٍ ومعروفٍ حتى مع غير

المسلمين، فهو يجب الإصلاح بين الناس، ويتحمل في سبيل ذلك الأموال، يدفعها لإصلاح ذات البين

ولا يبالي.

لقد شهد عروة وهو على شركه بهذه الخصلة الطيبة لأبي بكر رضي الله عنه؛ لهذا كان يحله الناس مسلمهم

وكافرهم في الغالب.

(٨) نلاحظ من النص أن عروة قد أقسم بالله ﷻ وكانت صيغة قسمه: والذي نفسي بيده.

ويمكن إزاء هذا أن نقول:

(أ) لقد حلف بالله وهو على شركه: لقد كان أهل الجاهلية يقسمون بالله تعالى، وهذا من بقايا ديانة إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فلم يكونوا ملحدين بالله بل كان قسم كبير منهم يعتقد بوجود الخالق كما يعتقد بتعظيمه، لكن صور التعظيم قد يكون فيها زيغ وانحراف.

(ب) الكافر طاهر وليس نجسًا نجاسة عينية: أخذنا هذا من تكرار عروة لمس لحية الرسول ﷺ ولم ينكر عليه، ولو كان نجسًا نجاسة عينية لما أذن له الرسول ﷺ بذلك.

(٩) رابطة العقيدة أمتن الروابط: إن الرابطة التي تجمع بين المهاجرين والأنصار هي رابطة العقيدة والدين، ولا تقف في وجهها رابطة التراب والطين، فرابطة العقيدة أقوى من رابطة الدم ورابطة النسب ورابطة المصلحة.

إن هذه الرابطة هي التي ميز الله بها الإنسان عن الحيوان، وكرمه بصور كثيرة، إذ خلقه بيديه وأسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه وجعل له رابطة يتجمع حولها على اختلاف ألوان الجنس ولغاته وأجناسه وشعوبه.

(١٠) حب الصحابة للرسول ﷺ وظهور هذا لعروة كان دليلًا ينقض ما ذهب إليه أنهم سيتخلون عنه في الشدائد، إن هذا الذي يحب رسول الله ﷺ هذا الحب، ويؤثره هذا الإيثار، ويجله هذا الإجلال، ولا يتردد في طاعته لأمره ﷺ، لا يمكن أن يتخلى عنه وقد هيا نفسه لأن يفديه بنفسه وماله وولده والناس أجمعين.

إن هذا الجواب العلمي أذهل عروة وأوقفه على حقيقة الأمر، وحين أبلغ قريشًا بهذا الحب الذي لمسه ورآه مما جعلها تدرك أنها ليس من المصلحة أن تشتبك معهم في أي صراع.

(١١) لقد خسرت قريش بعجرفتها نصيرها عروة: لما سمع عروة من الرسول ﷺ وسمع من قريش أدرك أن الحق مع الرسول ﷺ وليس لقريش صده عن المسجد الحرام، ولكن قريشًا لم تسمع منه قوله، بل لم تقبل منه شيئًا، مما جعله ينسحب هو ومن اتبعه إلى الطائف بعد أن أعلن موقفه بوضوح بقوله: (ما رأيت مثل محمد وما هو بملك، ولكن رأيت الهدي معكوفًا، وما أراكم إلا أن تصيكم قارعة).

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٧٠-٧٤، ٧٦، ٧٧].

## ٢٦ - ما يستفاد من قصة المغيرة ؓ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) جواز أن يقف المسلم حارسًا على رأس الرسول ﷺ وعلى رأس أي قائد إن خيف على حياته، وخاصة في الأوقات الحرجة والظروف الصعبة.

(٢) استحباب الفخر والخيلاء في الحرب لإرهاب العدو، وأنه ليس داخلًا في مَنْ ذمه رسول الله ﷺ لمن أحب أن يتمثل له الناس قيامًا. [ينظر: زاد المعاد ٣/ ٣٠٤].

(٣) لقد أقر الرسول ﷺ تصرف المغيرة بن شعبه ﷺ بشأن عروة وزجره له كلما مديده إلى الحية رسول الله ﷺ، وهذا يدل على جواز زجر من لا يتأدب مع الرسول ﷺ.

(٤) جواز التستر والتمويه والتخفي في الغزو والقتال وعند الحاجة حتى لا يُعرف المقاتل من قِبَل غيره.

(٥) موقف المغيرة ﷺ من عمه كان ترجمة عملية صادقة للقاعدة القائلة: رابطة العقيدة أقوى الروابط، فتراه يفضل رسول الله ﷺ على عروة بن مسعود، بل ويرفض مجرد أن يلمس بيده حية رسول الله ﷺ.

(٦) خصلة يُمدح عليها عروة: وهي الإصلاح بين الناس والبذل من ماله لإطفاء نار الفتنة والانتقام.

(٧) أثر الإسلام في المغيرة ﷺ: تأمل معي هذا التغير العجيب في حياة المغيرة ﷺ.

لقد كان قبل الإسلام مدمنًا على الخمر، قاطعًا للطريق، غدارًا، ليس له عهد ولا عقد، يقتل الرجل من أجل دراهم معدودة، وإذا به بعد الإسلام الذي أصلح نفسه وقلبه يتغير تغيرًا جذريًا، فيتواضع للرسول والمسلمين، ويتولى حراسته ﷺ واقفًا، ويكف عما كان يقترفه من ذنوب وسيئات.

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٧٤-٧٦].

## ٢٧ - الغدر خُلُقٌ ذميم يرفضه الإسلام:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرّم الإسلام الغدر على المسلم واعتبر الغدر من صفات المنافقين التي يحرم على المسلم التحلي بها؛ ولهذا أنكر الرسول ﷺ على المغيرة غدره، ولم يعتبره وسيلة من وسائل التملك الفردي المشروع، بل رفض أن يأخذه تأمل قول الرسول ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَكْسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

قال في الروض الأنف ٤ / ٣٥: «وقوله أما المال فلست منه في شيء، فيه من الفقه أن أموال المشركين حرام إذا أمنوا إليهم، وإنما تحل بالمحاربة والمغالبة لا عند طمأنينتهم إليك وأمنهم منك».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٧٤-٧٥].

## ٢٨ - حبل الإسلام ومودته أقوى من مودة القري:

يقول د/ العودة: «ما عرفت الدنيا رابطة أقوى من رابطة العقيدة، ولا نسبتًا أعظم من نسب الإسلام، والذين جمعهم الإسلام مع رسول الله محمد ﷺ كانوا يمثلون قبائل شتى، ولكنهم في توادهم وتراحهم

كالجسد الواحد، وكانوا مع رسول الله ﷺ على التقدير والتضحية بما لم تبلغه بلاطات الملوك والأمراء والعظماء؛ ذلك الذي اعترف به (عروة بن مسعود) حين قدم في الحديبية على النبي ﷺ، وصحح فهمه الخاطئ حين قال للنبي ﷺ: في البداية -: أَيُّ مُحَمَّدٍ! أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وَجُوهَهَا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا (أخلاقًا) مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعَوْكَ.

وهنا احتملت الغيرة أبا بكر ﷺ إذ تولى الرد على عروة فقال: امْضُضْ بِظُرِّ اللَّاتِ، أَنْحَنُ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدْعُهُ؟! (البَطْرُ) قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، وكانت عادة العرب الشتم بها، لكن بلفظ (الأم)، فأراد أبو بكر ﷺ المبالغة في سبِّ (عروة) بإقامة من كان يعبد مقام أمه؛ وذلك أن عروة نسب المسلمين إلى الفرار.

قال ابن حجر: «وَفِيهِ جَوَازُ النُّطْقِ بِمَا يُسْتَبْسَعُ مِنَ الْأَلْفَازِ لِإِرَادَةِ رَجْرٍ مِنْ بَدَائِنِهِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: فِي قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ تَحْسِيسٌ لِلْعَدُوِّ وَتَكْذِيبٌ لَهُمْ، وَتَعْرِضٌ بِالزَّامِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ إِنْ اللَّاتِ بِنْتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ بِنْتُ لَكَانَ لَهَا مَا يَكُونُ لِلْإِنَاثِ». [فتح الباري ٣٤٠/١].

وكم أنت عظيم يا أبا بكر: إن تكلمت فأنت شجاع، وإن سكنت فأنت راضٍ مسلم لأمر الله. وفقه القصة (إجمالاً) كما قال الحافظ ابن حجر: «وَفِيهِ أَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ أَنَّ الْجِيُوشَ الْمُجْمَعَةَ لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهَا الْفِرَارُ، بِخِلَافِ مَنْ كَانَ مِنْ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَإِنَّهُمْ يَأْنِفُونَ الْفِرَارَ فِي الْعَادَةِ، وَمَا دَرَى عُرْوَةُ أَنَّ مَوَدَّةَ الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ مَوَدَّةِ الْقَرَابَةِ، وَقَدْ ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ مَبَالِغَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي تَعْظِيمِ النَّبِيِّ ﷺ».

[السيرة النبوية من فتح الباري ٢٠٥-٢٠٦].

وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. [فقه الحديبية للعودة ٧].

ويقول د/ أبو خليل: «قال عروة هذا؛ لأن العادة جرت أن الجيوش المجتمعة من قبائل عدة، لا يؤمن عليها الفرار، بخلاف من كان من قبيلة واحدة، فإنهم يأنفون الفرار عادة، وما دري عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة، وسيظهر له ذلك بعد قليل، عندما رأى مبالغة المسلمين في تعظيم رسول الله ﷺ».

وقطع ﷺ لجاجة عروة، وأنهى الجدال، لما أخبر عروة أنه ما جاء لحرب، فعاد عروة إلى قريش بعد أن رأى ما يصنع به أصحابه من الإجلال والإكرام، والتعظيم والإكبار والتقدير والاحترام والتأدب في



حضرته ﷺ، إذا تكلم أحدهم عنده خفض صوته، ولا يحدّون النظر إليه، ولا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه يتبركون به، ولا يسقط شعره إلا أخذوه، فكان في فعلهم ذلك رد لما ظنه عروة من فرارهم، فكانهم قالوا بلسان الحال: من نجه هذه المحبة، ونعظمه هذا التعظيم، كيف يُظن بنا أن نفر عنه، ونسلمه لعدوه، بل هم أشد تعلقاً وتمسكاً به وبدينه ونصره من هذه القبائل التي تنصر بعضها لمجرد الرحم.

وخير وصف ينطبق على المسلمين الذين رأهم عروة، وسينقل صورتهم إلى قريش، قول أحد الأعراب يصف قوماً: «هم ليوث غابات، وغيوث جدبات (الجدب: المحل نقيض الخضب)، ما في عهودهم حَوْرٌ (صَغْفٌ)، ولا في صفوفهم كَدْرٌ (نقيض الصفاء، خلاف الصفو)، ولا في خدودهم صُغْرٌ (ضد الكبر، والصغار: الذل والضميم، وكذلك الصُغر)، ولا في عيونهم حَزَرٌ (الحزر: كسر العين بصرها خِلقة، وقيل: هو ضيق العين وصغرها، وقيل: هو حَوْل إحدى العينين)، ولا في صدورهم وَعَرٌ (شدة توقد الحر، واحتراق الغيظ)، ولا في حديثهم زَوْرٌ (عوج، ازور عن الشيء ازوراراً أي عدل عنه وانحرف)، ولا في قولهم خَلْفٌ (الرديء من القول)». [صلح الحديبية لأبي خليل ٧١، ٧٤-٧٥].

### ٢٩ - أهمية السلوك وتأثيره على الآخرين:

يقول د/ الزيد: «أهمية السلوك وأن له تأثيراً أشد من تأثير القول، فإن عروة قال للرسول ﷺ عن الصحابة في البداية: وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِّنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَن يَقْرُوا وَيَدْعُوكَ، وسرعان ما تغير هذا الظن عنده، لما جلس معهم ورأى تعامل الصحابة مع الرسول ﷺ، وعظيم احترامهم، وشديد توقيرهم له، حتى عاد لقريش وقال لها: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي جِئْتُ كِنْسَرِي فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قَيْصَرَ وَالنَّبَاشِيَّ فِي مُلْكِهِمَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسَلِّمُونَهُ لِسْنِيءٍ أَبَدًا، قَرُّوا رَأْيَكُمْ. ويستغرب الشخص كيف يصدر هذا القول المتعارض من شخص واحد ولكن حينما يتبين الأمر يعرف تأثير السلوك في الشخص، وأنه مُعَيَّرٌ مُؤَثَّرٌ أكثر من طويل الكلام». [فقه السيرة للزيد ٥٣٧].

### ٣٠ - ما يستفاد من سفارة الحليس:

يقول د/ أبو فارس: «إننا بعد قراءتنا للنص المتقدم في سفارة الحليس بتأمل وتدبر نستفيد الأمور التالية:

(١) المعرفة بمعادن الرجال: من هذا النص وغيره فيما يتعلق بالسفارة بين المسلمين وقريش يتبين لنا

أن الرسول ﷺ قد كان عارفاً بمعادن السفراء الذين أرسلتهم قريش، وميوهم وأخلاقهم.

تأمل قوله حين رأى الحليس: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، وحين رأى مكرز بن حفص قال: «هَذَا مَكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»، وحينما رأى سهيل بن عمرو قال: «لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»، «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ».

(٢) الوسيلة المناسبة في التأثير على الناس: وبمعرفة النبي ﷺ لمعادن الرجال وصفاتهم وميولهم ونزعاتهم استطاع أن يستخدم الوسيلة المناسبة للتأثير على كل واحد منهم.

فهو يعلم أن الحليس من قوم متدينين، وهو في حد ذاته متدين، معظّم للبيت ومحِبُّ من يعظّم البيت ويتعاطف معه؛ لذلك رأى أن يسوق المسلمون في وجهه الهدي، ويشفعوا ذلك بالتلبية، فيعرف أن هؤلاء جاؤوا عماء ولم يأتوا غزاة مقاتلين.

وفي بعث الهدي في وجه الحليس دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسَل الكفار.

[زاد المعاد ٣/ ٣٠٤].

(٣) لقد استطاع الرسول ﷺ أن يقنع الحليس زعيم الأحابيش بأنه على حق، وأن مشركي قريش ظالمون لهم حين يصدونهم عن المسجد الحرام، ومن ثم فلا بد أن يكون للحليس موقف من هذا الأمر.

إنه ينبغي أن يقف مع الحق وأهله ويرفض الباطل ويتبرأ من أهله، وإن كانوا حلفاء.

ومن الحق أن يُقال: إن موقف الحليس كان موقفاً موفقاً كل التوفيق، إذ كان نزيهاً وعادلاً وعاقلاً لا تسيره العاطفة والهوى.

لقد قامت الشواهد والأدلة على صدق ما أخبر به الرسول ﷺ، إنه يرى الهدي ويسمع التلبية، فيعود لتوه وقد اقتنع أن من حق هؤلاء أن ينحروا هديهم وأن يؤدوا شعائرهم، وكل من يحاول منعهم ظالم، وطالب قريشاً بتحقيق ذلك.

(٤) تحييد الأحابيش: ولقد استطاع رسول الله ﷺ أن يقنع الأحابيش بالحياد فيما لو قامت معركة بين المسلمين والمشركين من أجل تعظيم البيت وأداء النسك.

ولقد ذهب الحليس إلى تهديد القرشيين بقتالهم إن هم منعوا أصحاب الرسول ﷺ من أداء النسك، تأمل معي قول الحليس لقريش: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَيَّ هَذَا خَالِفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَيَّ هَذَا عَاقِدْنَاكُمْ، أَيْصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُخَلَّنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا نَفَرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٢].

(٥) ولقد تبين لقريش بما لا يدع مجالاً للشك على أثر موقف الحليس سيد الأحابيش أن المتهورين والسفهاء ودعاة الحرب لأنفه الأسباب قد أوقعوها في ورطة كبيرة عندما استجابت لهم.

[صلح الحديبية لباشمیل ٢٠٤].

(٦) تعظيم البيت هدف لكل زائر له: والذي يقرأ كتب السيرة يعلم أن مشركي العرب كانوا يعظّمون البيت، وهذا من بقايا ديانة إبراهيم عليه السلام. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٧٨-٨٠].

## ٣١- المعرفة بمعادن الرجال:

يقول د/ أبو فارس: «وذلك في معرفة رسول الله ﷺ بمعادن مكرز، وأنه يتصف بصفة خسيصة هي صفة الفجور في الخصومة والغدر في المعاملة، وكان الرسول ﷺ يحذر أصحابه منه ومن غدره وفجوره فلا يطمئن إليه، فإنه لا يطمئن لغادر فاجر. [فتح الباري ٦/ ٢٦٨].

ولقد صدق مكرز بن حفص نظرة الرسول ﷺ الصائبة فيه، وإذا بمكرز بن حفص وفي أثناء تبادل السفراء بين المسلمين وقريش، يقود خمسين من رجال قريش ويتسلل خلصةً حتى يصيب غرة من المسلمين غدرًا». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٨٠].

## ٣٢- أثر هذه السياسة الحكيمة المحكمة على الموقف المتأزم بين المجتمع المسلم

وبين قريش:

يقول الشيخ عرجون: «كان لهذه السياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التي ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها في توجيه الأمور إلى نهايتها التي قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التي تحمّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتنح فيها أصحابه ﷺ أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن تحصوا تمحيصًا أخلص أنفسهم للتأسي والتسليم لما يراه رسول الله ﷺ ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره.

ولما اطمأن رسول الله ﷺ في منزله الذي نزله من الحديبية أنه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه، وخزاعة - مسلمها ومشرکہا - كانت موضع نصح رسول الله ﷺ، مأمونة على سره لا تخفي عليه شيئاً تراه بمكة، فسأل بديل ورفاقه النبي ﷺ: ما الذي جاء به؟ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ، وَمُعَظَّمًا لِحُرْمَتِهِ»، فرجع بديل ومن معه من قومه إلى قريش وأبلغوها مقالة رسول الله ﷺ، وتتابعت الرسل منهم إلى رسول الله ﷺ، فكان يجيب كل رسول بما أجاب به بديلاً، وكان من أمتع هذه المقاولات مسائلة عروة بن مسعود الثقفي وما احتف بها من أمور لها مكانها الخاص في تصوير إجلال أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم وحبهم له، ومتابعتهم له ﷺ في كل ما يأمر به.

ولكن الشرك كان لا يزال يفكر بعقلية الوثنية التي لم تستطع أن ترتفع عن حمأة الكيد الأحمق، ففكرت قريش بهذه العقلية وقدرت، ففكرت في الغدر، فبعثت خمسين رجلاً ليتحينوا غرة من المؤمنين فيفتكوا بمن ينالونه منهم، وكان هؤلاء الخمسون بُلّه التفكير والتقدير، فرموا في جموع الصحابة بالحجارة والنبل، وما هي إلا هبة من بهاليل الإيذان حتى أخذوهم سواقاً إلى رسول الله ﷺ، فمنّ عليهم وعفا عنهم، وخلّى سبيلهم تأكيداً لمقاصده النبيلة ﷺ في السلام والمسالمة.

لم يكتف رسول الله ﷺ بما كان بينه وبين رسل قريش من مقاولات كانت واضحة أشد الوضوح في أنه ﷺ لم يكن من قصده في قدومه إلا التعبد لربه وزيارة بيته المحرم وتعظيم حرمة، بل تقدم إلى صاديه

أعداء الحق فأرسل إليهم من يبلغهم عنه ما أجاب به رسلكم من المسالمة والمودعة وترك الفرصة لهم، إزالة لكل شك، وتبديلاً لكل ارتياب، فعسى ألا يكون رسلكم قد أدوا ما حُمِّلوا من أمانة الرسالة إليهم بتفصيلها ووضوحها، فقد كانوا يجهلون الرسل، ويلقون منهم عتاً وتسفيهاً مما قد يمنع من كمال الإبلاغ، فأراد رسول الله ﷺ أن يقطع دابر الشك ويعذر إليهم حتى لا تبقى لهم حجة عليه وعلى أصحابه.

غدر قريش برسول رسول الله ﷺ فنجاه الله منهم: فقد روي أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي ﷺ فبعثه إلى قريش، وحمله على بعير له ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فسفّهت قريش على رسول رسول الله ﷺ، وعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعه قومه وحلفاؤهم الأحابيش وخلّوا سبيله، وعدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت قريش معه.

لم يجعل رسول الله ﷺ على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها، ولكنه طاوّلها وصابرها رجاء أن تثوب إلى مرادها فدعا عمر بن الخطاب ﷺ ليعثته إلى مكة، فيبلغ عنه أشرافها ما جاء له.

[محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٦٨-٢٦٩].

### ٣٣ - ما يستفاد من سفارة خراش ﷺ:

يقول د/ أبو فارس:

(١) حسن الاختيار: لقد أحسن رسول الله ﷺ في اختياره لخراش بن أمية الخزاعي ﷺ ليكون سفيراً له، فالسفير هو المعبر الصادق الأمين لمن أرسله، وعلى هذا ينبغي أن تكون الثقة كاملة وتامة بين الطرفين. نحن نعلم أن خزاعة على شركها كانت عية نصح لرسول الله ﷺ، أي موضع سرّ، وإذا كان مشركها مخلصاً لرسول الله ﷺ باغياً مصلحته، فكيف إذا كان هذا الخزاعي مؤمناً موحّداً، رضي بالله ﷻ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وشفيعاً له في الآخرة.

لا شك أن الثقة تزداد وتتأكد، ويؤمن الجانب، ويرتاح القلب، وتطمئن النفس.

(٢) الغدر طبيعة المشركين الغالبة: لقد تعارف الناس على احترام السفراء وعدم الإساءة إليهم، بل إحسان معاملتهم ووفادتهم، وما جرى من قريش كان مناقضاً للأعراف السياسية القائمة، والعادات السائدة عند الناس في الجزيرة العربية وخارجها، وهذا يعود إلى طبيعة نفوس المشركين في الغالب، لا سيما إذا قامت علاقة عدائية بينهم وبين غيرهم وخاصة المسلمين، فإن المشركين لا يحافظون على عهد أو عقد ولا يراعون عرفاً أو عادة اعتادها الناس، إن طبيعة الغدر تجري في عروقهم انطلاقاً من الحقد الذي يأكل قلوبهم.

(٣) الفرق في المعاملة: تأمل معي كيف كان يعامل رسول الله ﷺ سفراء المشركين مع معرفته بهم وبصفاتهم، فمكرز بن حفص رجل غادر فاجر، وعروة بن مسعود يريد إحداث فتنة بين المسلمين وتمزيق

الصف المسلم، ومع هذا فقد استقبله المسلمون وودعوه ولم يفكروا في قتله فضلاً أن يحاولوا ذلك، بينما نجد سفير رسول الله ﷺ لم يصدر عنه ما ينافي الأدب أو يسيء إلى أحد، ومع هذا عقروا الجمل الذي يحمله، وأرادوا قتله في الشهر الحرام في البلد الحرام الذي تعارف الناس على منع ذلك ويشاعته والنفور منه. (٤) حماية الأحابيش لخراش ﷺ تدل على أنهم لم يرضوا عن سياسة قريش في هذه الأحداث، بل تعاونوا مع سفير خصم قريش، ومنعوه فعاد سالمًا غائبًا.

وهكذا فلا يعدم الإنسان في الدنيا أناسًا يستخدمون عقولهم، ويتدبرون الأحداث ومجرياتها، ثم يحكمون عليها بشيء من الموضوعية، فعلى صاحب الحق أن يكون قادرًا على شرح حقه وتوضيح قضيته بأسلوب فصيح لائق، وكلام معبر واضح، مشفوعًا بالحجج القوية، والبراهين الدامغة، والأدلة الساطعة. لقد خسرت قريش عطف الأحابيش، وكسب رسول الله ﷺ عطفهم نتيجة حسن تأنيبه للأمور وشرحه لها. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٨١-٨٢].

### ٣٤ - وضع الأمور في نصابها:

يقول د/ أيوب: «تقديم عمر لعثمان رضي الله عنه والدلالة على الأحق بالأمر ومن يصلح له، وإثارة الغير في الخير مادام يصلح له بدلاً عنه ويقوم به دون إيقاع الأذى في رجل من رجالات المسلمين، فإن الرجل الواحد في جيش المسلمين له وزنه، ويمكن القول بأن قائد المسلمين رضي الله عنه وافق على ما قاله عمر رضي الله عنه بأن عثمان رضي الله عنه أفضل مني؛ لأنه له من يدخل في جواره، حتى يبلغ مقالة الرسول ﷺ، وحين يوافق الرسول ﷺ على ذلك يريد أن يحقن دماء المسلمين بله دماء الأبطال والقادة أمثال عمر رضي الله عنه يضمن بقطرة الدماء حين لا يكون وراءها مكاسب للدعوة الإسلامية، أما حين تُهدر الكرامات ويُشاع بأن أحد المسلمين قُتل، فإنه ﷺ لا يضمن بالجيش كله ليقاتل ويدافع عن دم مسلم واحد، ولكي يرى المشركون كيف يحافظ القائد الأمين على دماء المسلمين.

إنه الحكيم والقائد المظفر الأمين يضع الأمور في نصابها، فلا يقيم الحرب لأتفه الأسباب، بل يقيمها لإعلاء كلمة الله في الأرض وفي السماء؛ حتى تكون كلمة الله (لا إله إلا الله) هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

يا لهذا الإسلام!! ياله من قوة هالت المشركين وزعر منها عبَاد الأصنام، إنها قوة الحق وقوة الرسالة وقوة الرسول تهز الجبال - تحر لها الجبال هذا - إن قذائف الحق أقوى من قذائف المدفع، فإن الأولى تزيل الضلال وتبيد الكفر والشرك وتبني البناء الراسخ الشامخ، تبني الدولة القوية - دولة الإسلام، دولة الحق، دولة القوة، دولة الدفاع عن مهضومي الحقوق ومسلوبيها، تبني دولة بسم الله مجريها، وجبريل الأمين عليه السلام قد نزل بدستورها من السماء من الله رب العالمين: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ

مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فُصِّلَتْ]، الناس أمامه سيان، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا قويهم وضعيفهم، الخائف يأمن في رحابها، والمشرقة أمنت على نفسها بين جنود دولة الإسلام، أما قذائف المدفع فإنها تدمر وتخرب لاسيما إذا كانت في يد عمياء، ففيها هلاك الحرث والنسل، وفيها ضياع الدول النامية، وفيها نشر للرديلة وقتل للفضيلة، وفيها الشر بحذايره؛ لأنها تدافع عن الضلال والشرك، فيها تسفل دائماً، تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً بما تزيّعه وتشره على الناس من مبادئ هدامة». [صلح الحديبية لأيوب ٣٢-٣٣].

### ٣٥ - تعظيم المسؤولية:

يقول د/ أبو خليل: «ما عُرف عن عمر رضي الله عنه جبن قط، ولا تخل عن المسؤولية أبداً، فهو المسلم الوحيد الذي تحدى قريشاً وهاجر علناً، وكانت في عمر رضي الله عنه حدة وشدة على قريش تعلمها، وهي أيضاً شديدة الحقد عليه لمواقفه منها منذ بداية إسلامه في مكة مروراً ببدر ورأيه في أسراها وانتهاء برأيه منذ بداية العمرة أن يحمل المسلمون السلاح لقتال قريش؛ ولذلك خشي أن تكون هذه المواقف سبباً في إخفاقه بالمهمة الكبيرة والخطيرة التي أوكلها الرسول ﷺ إليه، فلو قام في مكة أحد الحاقدين الناقمين باغتياله، ولا سيما أنه لا مجير له فيها، فإن خسارة الإسلام فيه كبيرة، إضافة إلى الموقف الحرج الذي سيجد المسلمون أنفسهم أمامه، وما جاؤوا من أجله، فاختر عثمان رضي الله عنه، وهو المعروف بحكمته ومرونته، فضلاً عن وجود من يجيره في مكة، مما جعل احتمال نجاح المهمة أكثر، مع تلافي المواقف الحرجة التي كان المسلمون في غنى عنها، وهذا ما كان». [صلح الحديبية لأبي خليل ٧٧].

ويقول الشيخ عرجون: «وكان هذا الرأي من عمر رضي الله عنه سديداً موقفاً لما يقصد إليه رسول الله ﷺ من المسألة والمواذعة؛ لأن عمر رضي الله عنه لو ذهب إلى قريش وهو معها كما وصف نفسه، لأسرعت إليه، تمد يدها بالسوء، ويكون ذلك سبباً في اشتعال نار الحرب، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يحاول تجنبه والابتعاد عنه، فكان عدم بعث عمر رضي الله عنه من حسن السياسة الموقفة الموافقة لمقاصد رسول الله ﷺ.

وخرج عثمان رضي الله عنه في سفارته إلى مكة، وحقّق الله ﷻ ظن عمر رضي الله عنه فيه، فلم يكد عثمان رضي الله عنه يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص، فجعله بين يديه، وعرف منه ما جاء به سفيراً فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملائق قريش، فلم تُرفع بالإنكار عليه رأس لعزته في قومه وعزة قومه في قريش». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٤/ ٢٧٠].

### ٣٦ - رأي حول إرسال عمر رضي الله عنه سفيراً إلى المشركين:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَدَعَا عُمَرَ رضي الله عنه لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بَهَا مِنْ بَنِي عَبْدِئٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَذْلكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ مِنِّي: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ.

قَالَ: فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن. السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/٢، المغازي للواقدي ٢/٦٠٠].

وحول هذه الرواية يقول أ/ رضوان: «وهذه الرواية لا تصح في رأينا من عدة وجوه: أولاً: ليس هناك من الصحابة رضي الله عنهم من يرفض رغبة لرسول الله ﷺ، بل كل صحابي يعتبر رغبة رسول الله ﷺ فرضاً يجب عليه القيام به.

ثانياً: تذكر رواية أخرى لابن هشام: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ بَعَثَ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى جَهْلٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: الثَّغْلُبُ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ عَقَرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ، وَأَرَادُوا قَتْلَ خِرَاشٍ ﷺ، فَمَنَعَهُمُ الْأَحَابِشُ [الْأَحَابِشُ]، حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وهذه الرواية أيضاً غير صحيحة في نظرنا؛ لأن الرسول ﷺ ما كان في حاجة إلى إثبات نواياه السلمية بأكثر مما ذكرنا من أمور عملية، وقد شهد سفراء قريش إلى رسول الله ﷺ لقريش بأن محمداً ما جاء إلى حرب، بل جاء لزيارة بيت الله الحرام.

وهذا يكفي، وعلى فرض صحة هذه الرواية فما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأقل شجاعة من خراش بن أمية، وخصوصاً أن الرسل لا تقتل ولا تُجس، ولو شاءت قريش قتل خراش لقتلته، ولكن كان المراد بذلك التهديد فقط، وكسب ود الأحابيش بعد إهانتهم لزعيمهم الحليس، بتظاهرهم بقبول حمايتهم له.

ثالثاً: وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يهاب قريشاً، وحينما هاجر، هاجر على رؤوس أبطال قريش جميعاً، ولم يخف هجرته، وصاح بهم مهدداً: من أراد أن تثكله أمه، وترمل زوجته، ويستم ولده فليقتني خلف هذا الوادي، فما جرؤ واحد منهم على الوقوف في وجهه، أو منعه من الهجرة.

وحينما أسلم عمر رضي الله عنه كان الفاروق الذي فرق الله به بين عهدين، وبين الحق والباطل، فقد كان الإسلام يتخفى مع أتباعه في دار الأرقم، وحينما أسلم عمر رضي الله عنه خرج المسلمون بناء على رغبته في صفين على رأس واحد منهما عمر رضي الله عنه، وعلى رأس الآخر أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، يجهرون بإسلامهم، ويزلزلون جبال مكة بتكبيراتهم، وتوحيدهم لربهم، فما جرؤت قريش على الوقوف في وجه المسلمين وفيهم: عمر، وحمزة.

ورجل في مثل شجاعة عمر رضي الله عنه، وبطولته وقوة إيمانه وثقته في نصر الله، ووجه لرسول الله ﷺ، ولا يخطر ببال عاقل أن يرفض شرفاً خلعه عليه رسول الله ﷺ، يجعله سفيراً للسلام إلى قريش، وهذه مكانة يتقاتل عليها الصحابة لشرفها.

وقد رآهم عروة بن مسعود الثقفي، يتقاتلون على أيهم يسارع في تنفيذ رغبات رسول الله ﷺ وأوامره فيما دون ذلك من الأمور.

رابعاً: عمر بن الخطاب رضي الله عنه جندي بطبيعته، والرسول ﷺ هو قائده، والجندي لا يناقش قائده في ميدان المعركة، وهذه معركة سلام أخطر من معارك الحرب، والجندي الشجاع لا يخاف على حياته ولا يضمن بها لتحقيق النصر للجماعة.

خامساً: ليس عثمان بن عفان رضي الله عنه بأعز من عمر رضي الله عنه بمكة، وإن بقي بنو أمية رهط عثمان رضي الله عنه بمكة، ولم يبق بنو عدي رهط عمر رضي الله عنه؛ لأن أحوال عمر هم بنو مخزوم، ومنهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وبنو مخزوم هم قادة العداوة لرسول الله ﷺ بمكة، لم يسلم منهم إلا القليل، وهم المنافس الأول لبني عبد مناف رهط رسول الله ﷺ ورهط عثمان رضي الله عنه، ومن أخواله بنو مخزوم فهو العزيز الجانب المصان الحرمة، وما كان بنو مخزوم ليرتكبوا أحدًا ينال شعرة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهم أخواله.

سادساً: ما كان الرسول ﷺ بالذي يجهل مكانة عثمان بن عفان رضي الله عنه من أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه زعيم مكة، فهما من دوحة واحدة، وابنا عم، فهما من بني أمية، وكانوا دائماً ينافسون بني هاشم، ويحقدون عليهم، ويسعون إلى التناول إلى مكانتهم، مع أن الأسرتين من بني عبد مناف، وأقرب الناس رحماً إلى بعضهم.

ولم يكن الرسول ﷺ في حاجة إلى تنبيه عمر رضي الله عنه له إلى مكانة عثمان رضي الله عنه في مكة، وحب قريش لعثمان رضي الله عنه؛ لكرمه، ولحيائه، ولمسالته، ولكن الحق أن الرسول ﷺ وجد أن قريشاً قد مالت إلى السلام، فأراد بإرساله عثمان رضي الله عنه وهو من هو من أبي سفيان زعيم مكة ومن بني أمية، ومن قلوب قريش، فضلاً عن مكانته من رسول الله ﷺ حيث كان زوجاً لابنته أم كلثوم، أن يتفق مع قريش على شروط السلام، وإنهاء حالة الحرب بين الجانبين، وكان واثقاً تماماً من نجاح عثمان رضي الله عنه في مهمته.

[محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام لرضوان ١١١-١١٤].

### ٣٧ - الأمور المستفادة من سفارة عثمان رضي الله عنه:

يقول د/ أبو فارس:

(١) إن محاولة الاعتداء على حياة سفير رسول الله ﷺ - خراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه - لم ترهب الرسول ﷺ، ولم ترهب أصحابه رضي الله عنهم، بل صمم الرسول ﷺ أن يرسل سفيراً آخر للاتصال بقريش وإقامة الحجة عليهم بتبليغهم رسالة الرسول ﷺ إلى قريش.

(٢) لقد رشح الرسول ﷺ لهذه المهمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما عرف عنه من شجاعة وثبات وتضحية، إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رأى أنه لا يصلح لأداء المهمة السياسية التي يريد بها رسول الله



ﷺ؛ وذلك لأن تاريخه السياسي مع مشركي قريش لا يقوم على المودة والمحبة أو على الأقل على المسالمة والملاينة، نعم إن تاريخه معهم لا يؤهله للسفارة؛ ذلك لأنه أعلن عداوته لهم في كل المناسبات: في بدر، وفي أُحُد، وفي الخندق، فهو الوحيد من المهاجرين الذي رأى قتل أسرى بدر وعدم المَنِّ عليهم أو أخذ الفداء، وزيادة في ذلك فقد اقترح أن يضرب كل مهاجر عنق قريبه من المشركين حتى يعلم الله أنه ليس في قلوب المسلمين على المشركين هوادة.

وهذا التاريخ الحافل بالعداوة مع عدم وجود أناس في مكة من بني عدي يحمونه قد يغري مشركي قريش لا سيما السفهاء منهم بعمر ﷺ، فيؤذونه، وربما قتلوه، كيف لا؟ وقد حاولوا قتل خراش بن أمية الخزاعي ﷺ، ولم يُعرف عنه ﷺ ما عُرف عن عمر بن الخطاب ﷺ من فتكه بالمشركين وعداوتهم. وإذا أقدمت قريش على جريمتها بالاعتداء على حياة عمر ﷺ فلن يقف الرسول ﷺ والمسلمون مكتوفي الأيدي، بل سيناجزون قريشاً، وينشغلون عن المهمة التي جاؤوا من أجلها. ويزيد توقع عمر ﷺ هذا ما فعله عكرمة بن أبي جهل بخراش بن أمية ﷺ إذ قتل البعير الذي يحمله، وحاول مع بعض نفر من قريش قتله، ذلك لعدم وجود عصبة قوية في مكة تحميه.

(٣) هكذا يكون إبداء الرأي في الأمور التنفيذية: لقد بسط عمر بن الخطاب ﷺ رأيه بين يدي رسول الله ﷺ مشفوعاً بالأدلة المسوغة له، ثم ترك الأمر، وفي نفس الوقت فقد أعلن عمر ﷺ الاستعداد التام، والالتزام الكامل لتنفيذ ما يوكل إليه من مهمة السفارة إلى قريش، مهما كانت النتائج، تأمل معي قول عمر ﷺ لرسول الله ﷺ: (إن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم).

وهكذا ينبغي أن تكون الجندية المسلمة، إن الجندي المسلم من حقه أن يعلن عن رأيه أمام قائده، وإن كان هذا الرأي متعلقاً به، ثم ينتظر الأمر، ولا يتردد في تنفيذه مهما كانت النتائج.

(٤) تقرير لمبدأ الشورى وحرية الرأي: إن ما حدث يقرر مبدأ هاماً من مبادئ الشريعة الإسلامية، مبدأ حرية الرأي ومبدأ الشورى، لقد عوّد رسول الله ﷺ أصحابه أن يبدوا آراءهم بحرية تامة، ولا يترددون أن يُظهروا ما في نفوسهم دون تخرج أو تلجلج، فإن كان صواباً أخذ به وأجروا أجريه، وإن كان خطأ لم يأخذ به وأجروا أجراً واحداً هو أجر الاجتهاد.

فها هو ذا عمر بن الخطاب ﷺ يقول رأيه بحرية ويشفع هذا الرأي بالأدلة التي يمتلكها، وأمام هذه الأدلة القوية ما كان من الرسول ﷺ إلا أن تنازل عن رأيه، وأخذ برأي عمر ﷺ، وليس في ذلك غضاضة، بل الغضاضة والاستهجان يكون في الاستبداد وعدم الشورى.

لقد استجاب ﷺ لرأي عمر ﷺ في إعفائه من هذه المهمة، واستجاب له أيضاً في ترشيحه للبديل وهو سيدنا عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنهم أجمعين.

هكذا ينبغي أن يربي الحاكم النزيه العادل رعيته على حرية الرأي والشورى حتى تصبح لها شخصيتها المستقيمة المتميزة المستقلة، التي لا تنعاج في شخصية أي إنسان، بل تسهم في تقرير مصيرها في الملأ إذا ادلهمت الخطوب واحلوككت الليالي.

إن الحكم الفردي المستبد حكم مجرم، يقترب جريمة من أكبر الجرائم، بل هي في الحقيقة أكبر الجرائم على الإطلاق، إنها جريمة قتل شخصية الأمة فلا تقوى على الدفاع عن شيء أو اتخاذ قرار مصيري بالنسبة لها.

إنه مجرم يقتل الطاقات الإبداعية في الأمة ويسلب منها كرامتها وعزتها ورمز وجودها، فتركن إلى الذل، وترضى بالضيم وتستمرى الحياة المهينة، ومن ثم تكون فريسة سهلة لكل طامع.

(٥) إن قبول عثمان بن عفان ؓ عن رضا وطوعية السفارة بين الرسول ﷺ وبين قريش، ومعرفته للأخطار المحدقة بها، والمكارة التي تحف بها من كل جانب، أمر يدل على قوة شخصية عثمان ؓ وشجاعته، وبذله وتضحيته، إن حياته قد تُستهدف كما استهدفت حياة خراش بن أمية الخزاعي ؓ، إنه توقع كل هذا، ومع هذا مضى على الطريق غير هيّاب ولا وَّجِل.

نعم إن له بمكة عشيرة تحميه، لكن قد لا يسلم من سفه سفيه، أو ثورة حاقد موتور، أغراه به انفراده في السير.

رضي الله عنك يا ذا النورين، فقد حق لك أن تكون صهراً لخاتم الأنبياء والمرسلين سيد ولد آدم وشفيعهم بتعجيل الحساب وشفيع أمته بحسن الثواب ﷺ.

إن مصاهرة الرسول ﷺ بابنة واحدة شرف لا يدانيه شرف، فكيف وقد زوجه الرسول ﷺ ابنته فلذتي كبده، لا شك في أن ذلك كان لمؤهلات وصفات كان يتصف بها عثمان ؓ، إنها الشجاعة والإقدام والبذل والكرم والسخاء وشدة الحياء وطيب المعدن وحسن العشرة، وحسن الخلق.

(٦) جواز الاستعانة بالمشركين والدخول في جوارهم: لقد مر معك كيف استقبل أبا بن سعد بن العاص عثمان بن عفان ؓ بحفاوة وتكريم وأركبه على فرسه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، وطاف بمكة واتصل بأشرافها وبغير أشرافها.

والرسول ﷺ قد أقر هذا ولم ينكره على عثمان ؓ، بل إن من مسوغات إرسال عثمان ؓ وجود عشيرة قوية له تحميه حين يدخل في جوارها.

(٧) انضباط عثمان ؓ: لقد ظهر هذا جلياً عندما عرض عليه مشركو مكة الطواف بالبيت فأبى؛ لأن قائده رسول الله ﷺ وإخوانه المسلمين قد حُرِّموا من هذا، فكيف يتقدم الجندي على قائده، وكيف يعمل الجندي عملاً لا يمكن قائده منه.

إنه قد جاء لمهمة محددة هي تبليغ رسالة رسول الله ﷺ والاتصال بالمستضعفين يطمنهم بقرب الفرج والمخرج.

(٨) اهتمام النبي ﷺ بالمستضعفين: لقد بقي في مكة أناس من المسلمين قد استضعفوا ولم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم المهاجرين والأنصار بالمدينة، إلا أن قلوبهم متعلقة بالرسول ﷺ والمسلمين يسألون عن أخبارهم، يسرهم ما يسرهم ويحزنهم ما يحزنهم، إنهم يتطلعون إلى نصرة الإسلام وأهله، ترفرف رايته على مكة وبطاحها، ويتلهفون إلى رؤية الرسول ﷺ والسماع منه، والأنس بالجلوس معه.

والرسول ﷺ الذي أرسله الله رحمة للناس، رؤوف بهم، لم ينس هؤلاء لحظة واحدة، إنه يفكر في إسعادهم وإنقاذهم، بل ما خرج إلا من أجل إسعادهم وإسعاد البشرية.

لقد اغتنم فرصة دخول عثمان بن عفان ؓ مكة، حتى يتصل بهم، ويشيرهم بقرب الفرج والمخرج، ويأخذ منهم رسالة شفعية إلى رسول الله ﷺ: **أَقْرَأُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ السَّلَامَ، إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِالْحَدِيثِ لَقَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَهُ بَطْنُ مَكَّةَ**. [الغازي للواقدي ٦٠١/٢].

(٩) مكانة الإنسان في الإسلام: إن الرسول ﷺ قد قرر أن يخوض حرباً مع المشركين وعلى أرضهم ثأراً لكرامة إنسان نسلم هو عثمان ؓ، فحينما أشيع أن عثمان ؓ قد قُتل قال رسول الله ﷺ: **«لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ»**.

نعم إن كرامة الإنسان وحُرْمته في الإسلام لا تعدلها حرمة، ولو كانت حرمة الكعبة، فقد طاف رسول الله ﷺ يوماً بالكعبة وقال: **«مَا أَطْيَبُكَ وَأَطْيَبَ رِيحُكَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتُكَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ: مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَأَنْ نَظُنُّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»**.<sup>(١)</sup>

(١٠) قيمة السفير في الفكر السياسي الإسلامي: ويؤخذ من تعرف الرسول ﷺ واتخاذ القرار بالمناجزة أن السفير له مكانة مهمة في الدين الإسلامي، فليس لواحد أن يعتدي عليه، والدولة مكلفة بالمحافظة على حياته والدفاع عنه، وعقوبة كل من يعتدي عليه أو يحاول الاعتداء عليه، ولو أدى ذلك إلى نشوب حرب بين الطرفين، وهذا ما أراد فعله حين أشيع مقتل عثمان ؓ، وهذا ما فعله حين قتل الملك

(١) بدايته: عن عبد الله بن عمر ؓ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ: .... ابن ماجه في الفتن باب حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، وجاء برواية: «مَرَّحَا بِكَ مِنْ بَيْتٍ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَلِلْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنْكَ وَاحِدَةً، وَحَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثًا: دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ». صحيح: السلسلة الصحيحة للألباني: ٣٤٢٠، وورد بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ: دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ»، وقال عنه العراقي: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ؓ بسند ضعيف، ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ؓ. الإحياء ٢١٨/٣.

الغساني سفير الرسول ﷺ الحارث بن عمير الأزدي ؓ، إذ كون جيشاً قومه ثلاثة آلاف مقاتل وغزا الصليبيين في عقر دارهم وحدثت هناك غزوة مؤتة المشهورة». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٨٦-٩٢].

### ٣٨ - الظن الحسن:

يقول د/ أبو فارس: «لقد وصل عثمان بن عفان ؓ إلى مكة، وأدى رسالة الرسول ﷺ، وقد خطر ببال بعض المسلمين أن يغتنم عثمان ؓ فرصة وجوده في مكة ليشفي غليله ويطنئ ظمأ شوقه إلى بيت الله العتيق، فيتشرف بالطواف به، إلا أن عثمان ؓ لم يطف، بل إن المشركين قد عرضوا عليه أن يطوف فأبى ؓ. لم كان ذلك؟

نعم إن عثمان ؓ فطن إلى أمر آخر لم يفطن إليه الذين توقعوا أن يطوف بالكعبة، إنه فطن إلى أمر أهم من الطواف، ذلك هو وحدة الموقف في الصف المسلم، وألا يتقدم على رسول الله ﷺ أحد في الطواف. ومن هذا المنطلق ولهذا المعنى نفى النبي ﷺ أن يكون عثمان ؓ قد طاف بالبيت ونسي هذه الأسباب. ولقد استيقن المسلمون بعد عودته إليهم أنه فطن إلى ما لم يفطنوا إليه فلم يطف، فقال المسلمون: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَعْلَمَنَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنَنَا ظَنًّا.

وتعلم من هذا أن يُحسن المسلم الظن بأخيه المسلم، ولا يتوقع منه إلا ما يحقق المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ويتأكد هذا كله في أيام المحن والشدائد والابتلاءات، حتى تبقى الصدور سليمة، والنفوس منسجمة متآلفة متعاطفة كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الأعضاء بالحمى والسهر. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٢].

ويقول د/ الزيد: «لما تأخر عثمان ؓ ظن بعض المسلمين أن عثمان ؓ طاف بالبيت، ولكن الرسول ﷺ قال: «مَا أَظُنُّ عُثْمَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْصُورُونَ»، فكان الأمر كما ظنه الرسول ﷺ، وهكذا على المسلم دائماً أن يحسن الظن بأخيه، ويقدم الظن الحسن على الظن السيء والله ﷻ يقول: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» ﴿١٣﴾ [النور].

وقال عمر ؓ: (لا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها من الخير محملاً).

[تاريخ عمر بن الخطاب ؓ لابن الجوزي ص ٢٠٣]. [فقه السيرة للزيد ٥٣٧].

### ٣٩ - عدم تيقن الرسول ﷺ من موت عثمان ؓ:

يقول د/ أبو فارس: «إن في مبايعة الرسول ﷺ نفسه عن عثمان ؓ تدل على أن رسول ﷺ لم يتيقن من موت عثمان ؓ، بل هي قرينة على أن أمل الرسول ﷺ قوي في حياته، فلا زال على قيد الحياة.

قال في الفتوحات الإلهية: (وقد يشعر بأنه ﷺ علم بنور النبوة أن عثمان ﷺ لم يقتل حتى بايع عنه، فيكون هذا من معجزاته ﷺ، ويؤيده ما جاء أنه لما بايع الناس قال: «إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ»، فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ خَيْرًا مِنْ أَيْدِيهِمْ لَا نَفْسِهِمْ) [الترمذي في المناقب (٣٧٠٢)، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ] [الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمال ٤/ ١٦٥]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٠].

#### ٤٠ - أهمية انضباط الأفراد:

يقول الشيخ حوى: «وفي قصة الحديبية تجد المستوى الرفيع من الأدب والانضباط اللذين وصل إليهما أصحاب رسول الله ﷺ بفضل تربيته: فعثمان ﷺ لا يطوف بالبيت على حبه لذلك ما دام رسول الله ﷺ لم يطف، والصحابة كانوا كالسكارى عند توقيع الصلح وتأخير العمرة، ولكن لم يقولوا هُجْرًا ولم يخرجوا عن انضباط.

ومن مظاهر ما ذكرناه ههنا ما أشار إليه الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة: «ومن السكينة التي تنزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله ﷺ وتروح فلا يعترضها أحد، أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك، كاد خراش بن أمية الخزاعي ﷺ يُقتل، لولا أن أنقذه الأحابيش، فرجع وقد عُقر جملهُ، وكان النبي ﷺ أرسله ليلُغ أهل مكة حقيقة جميته، وأنه يريد العبادة لا الحرب، والرسل لا تُقتل، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعي». [فقه السيرة للغزالي ٣٤١].

[الأساس في السنة - السيرة - لحوى ٢/ ٧٨٩].

ويقول د/ أبو فارس: «إن سلمة ﷺ حين أسر النفر من المشركين لم يقتلهم وقد استسلموا، بل أخذهم لرسول الله ﷺ؛ لأن الذي يصدر الحكم بشأن الأسير هو القائد رسول الله ﷺ، ومن بعده كل حاكم مسلم ملتزم بالإسلام عقيدة وشرعية ونظام حياة.

ولا ينبغي للجندي أن يصدر أي حكم حول هذا الأمر، وإلا فهو الفوضى والاضطراب».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٧].

#### ٤١ - حقيقة مهمة عثمان ﷺ:

يقول أ/ رضوان: «ذهب عثمان ﷺ إلى زعماء مكة، وبلغهم رغبة رسول الله ﷺ في عقد معاهدة سلام بين المسلمين وقريش، تُصان فيها الدماء، وتُحفظ بها حرية العقيدة، وتُصان الأموال، وتُتاح بها الفرصة لصلة الأرحام، وإحياء الصداقات القديمة، ويرتفع بها صوت العقل، وتُخمد أنفاس العصبية واتباع باطل الآباء والأجداد، وينعم في ظل تلك المعاهدة أهل الجزيرة العربية بالسلام، وتفتح بها القلوب لنور الإسلام،

وتتاح بها الفرصة للحوار الديني بين المسلمين وغيرهم من المشركين؛ لتكون كلمة الحق هي العليا، وتُصرع كلمة الباطل بسهام الفكر السديد، وتعترف بها قريش في حق المسلمين في زيارة البيت الحرام. تلك كانت في الحقيقة هي مهمة عثمان بن عفان ؓ التي أرسله الرسول ﷺ من أجلها، وليس من أجل إخبار قريش فقط بأن الرسول ﷺ ما جاء للحرب والقتال، بل لزيارة البيت الحرام، كما ذهب إلى ذلك كل كتاب السيرة من القدماء وتابعهم جميع المحدثين. لأن حقيقة محيي الرسول القائد ﷺ لزيارة البيت الحرام هو والمسلمون أثبتوها الرسول ﷺ بالأدلة العملية التي ذكرتها سابقاً.

وأيقن بها كل سفراء قريش إلى رسول الله ﷺ، فكان من العتب ولغو الفعل إرسال عثمان ؓ لإثبات ذلك، وحاشا للرسول ﷺ أن يكون عابثاً أو يتبع لغو الأفعال أو الأقوال. وما كان احتباس قريش لعثمان ؓ إلا من أجل التدبر في شروط المعاهدة، التي أصبحت لهم طوق الإنقاذ أمام العرب، وأمام زحف الإسلام المنتصر بالقوتين المعنوية والعسكرية معاً، فكانوا يريدون أن يكون انتصار الإسلام عليهم انتصاراً معنوياً لا انتصاراً عسكرياً ينال من مكانتهم وكبريائهم أمام قبائل العرب؛ ولهذا رجوا عثمان ؓ البقاء بعض الوقت لتدبر أمرهم، ولم يكن احتباس قريش لعثمان بن عفان ؓ إكراهاً له على البقاء في مكة رغماً عنه كأسير في أيديهم، كما ظن كل كتاب السيرة القدامى والمحدثين. أولاً: لأنه رسول، والرسول لا يُقبض عليه.

ثانياً: لأن زعيم مكة وهو أبو سفيان بن حرب هو ابن عمه، ومكانة بني أمية في مكة وصلة القربى، تحُول بين قريش وحبس عثمان ؓ رغماً عنه. ثالثاً: ما روته سيرة ابن إسحاق وتابعه ابن هشام من أن أبان بن سعيد الأموي قد أجاز عثمان ؓ عند دخوله مكة، وقبل لقاء زعمائها، يحول بين قريش وبين نقض إجازة أبان وهو سيد من سادات قريش، إن صحت تلك الرواية.

رابعاً: لو كانت قريش قد قبضت على عثمان ؓ كأسير حرب لما أطلقت سراحه قبل الاتفاق بينها وبين المسلمين، ولساومت به المسلمين، ولم يحدث ذلك، بل جاء عثمان ؓ إلى رسول الله ﷺ قبل الاتفاق بين المسلمين وقريش، وهذا دليل قاطع على بطلان احتباس قريش لعثمان ؓ عندها رغماً عنه. بل أبقتة عندها باختياره لحمل شروطها للسلام، ورَحَّب عثمان ؓ بذلك؛ ليتحقق السلام على يديه بين المسلمين وقريش.

خامساً: ويدل على ذلك -أيضاً- أن قريشاً عرضت على عثمان ؓ الطواف بالبيت الحرام، كما روى ابن إسحاق وابن هشام، ولكن عثمان ؓ رفض ذلك قائلاً: «مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

فما كانت قريش لتعرض عليه هذا العرض ثم يحبسونه عندهم رغماً عنه.  
وأثبت رد عثمان بن عفان ﷺ مدى محبة الصحابة للرسول ﷺ، وإعزازهم له، وإكبارهم لمكانته، وعدم التقدم عليه في أمور الخير، وبذل نفوسهم بين يديه في مواطن الهول والخطر». [محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام لرضوان ١١٥-١١٧].

#### ٤٢ - خطورة الإشاعة والإرجاف بين المسلمين:

يقول د/ الزيد: «في المواقف الحرجة يجتهد الأعداء في إلقاء الإشاعة والإرجاف بالمؤمنين، وهنا أشيع أن عثمان ﷺ قد قُتل، فعلى المسلم أن يكون حذراً من الإشاعة، فلا يستمع إليها ويصدقها ولا يرويها ولا يتأثر بها، وليتأكد منذ البداية أن مصدرها هو العدو، فلا يتعجل الخبر بل يتثبت ويتبين ولا يتصرف تصرفات تسر العدو وتدخل الخوف والفرع على المسلمين». [فقه السيرة للزيد ٥٣٧-٥٣٨].

#### ٤٣ - تعامل الرسول ﷺ مع الإشاعات:

يقول د/ الزيد: «التعامل مع الإشاعة أمر مهم، وهنا نرى كيف تعامل الرسول ﷺ مع الإشاعة بعكس ما يحقق هدف العدو، فالإشاعة كان القصد منها أن تفت في عضد المسلمين وتدخل الفرقة والخلاف بينهم، ولكن الذي حصل بعد الإشاعة هو عكس ما يريد العدو ألا وهو الدعوة إلى بيعة الرضوان، فتسابق الصحابة ﷺ إلى البيعة وظهروا بمظهر المجتمع المتماسك المتكاتف المستعد للتضحية ومواجهة الأعداء بكل تصميم وإقدام، وهكذا تحولت الإشاعة لتصبح مصدر قوة للأمة المسلمة، ونحن علينا أن نتعامل على هذا النحو مع ما نسمعه من إشاعات، فنحولها إلى مصدر تكاتف بيننا لا مصدر تفريق ونزاع ووهن كما يريد العدو». [فقه السيرة للزيد ٥٣٨].

#### ٤٤ - دلالة بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «إن بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ تدل على أمرين:  
الأول: تضامن المسلمين وإخاؤهم، وتضحية كل واحد منهم من أجل إخوانه.  
الثاني: الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها الذين بايعوا رسول الله ﷺ.  
إنهم مصممون على القتال حتى الموت أو الصبر ودخول مكة لأداء النسك».  
[غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٩].

#### ٤٥ - جودة معدن الصحابة ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ظهر من خلال تدافع الصحابة ﷺ لإعطاء البيعة لرسول الله ﷺ حقيقة معدنهم، وجودته، بخلاف بعض الأجيال التي كانت تعيش مع بعض الرسل، كالذين عاشوا مع موسى ﷺ، حينما طلب منهم الدخول إلى الأرض المقدسة تقاعسوا وجنبوا عن ملاقة العدو.

ولقد حدثنا الله ﷻ عن هذا الموقف في القرآن الكريم، فقد جاء في سورة المائدة: ﴿يَقَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١٠١﴾ قَالَوا يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ١٠٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٠٣ قَالَوا يَمْوَسَّى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ١٠٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ١٠٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ١٠٦﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٦].

#### ٤٦ - امتحان الصدق والالتزام:

يقول د/ أبو خليل: «لقد بايع ﷺ عن عثمان رضي الله عنه، ووضع يده على يده، ووضع يده اليميني على يده اليسرى وقال: «اللهم إن هذه عن عثمان، فإنه في حاجتك وحاجة رسولك، فأنا أبايع عنه»، فضرب يمينه شماله، وهذا يدل على علم رسول الله ﷺ بعدم صحة القول بأن عثمان رضي الله عنه قد قُتل، كما بايع عثمان رضي الله عنه بعد مجيئه من مكة.

فكيف أمر جبريل عليه السلام بالبيعة وعثمان لم يُقتل؟

ولماذا البيعة ورسول الله ﷺ يبايع عن عثمان رضي الله عنه، وما بايع عنه إلا لأنه علم بعدم صحة القول بأن عثمان قد قُتل؟

البيعة امتحان للمسلمين، ومحك لصدق إيمانهم، فالنبي ﷺ علم بعدم صحة القول بأن عثمان رضي الله عنه قد قُتل، فمن باب أولى معرفة الوحي بذلك، بل ما عرف ﷺ بعدم مقتل عثمان رضي الله عنه إلا من الوحي، ولكن مثل موقف البيعة موقف يزيد من ارتباط المسلمين، ومن تماسكهم، ومن التفافهم حول نبيهم، وخاصة وأنهم قادمون إلى موقف لن يفهموا أبعاده مباشرة، ولن يستشفوا أهدافه فوراً.

فالبيعة امتحان الصدق والإيمان من جهة، ومن جهة ثانية ستملاً البيعة قلوب القرشيين رعباً وفرعاً، فهي اليقين بأنهم لن يفروا من حول نبيهم ﷺ، فالبيعة على عدم الفرار، وأنه إما الفتح أو الشهادة، فزلزلت قريش، وسعت في الصلح.

لقد علمت قريش أن الصحابة تراحوا حتى تدكوا ووطؤوا أمتاعهم، مع أنهم لم يكن عليهم الدروع لتقيهم ضربات السيوف ليبايعوا على الموت، فهزت البيعة قريشاً وأعادت لها رشدها وبصرها، فأعادت حساباتها بتعقل، فهو لاء بايعوا على الموت، وأقدموا على الشهادة بجرأة، فبدا لها أن الصلح خير لحفظ ماء الوجه.



ومبايعة رسول الله ﷺ عن عثمان ؓ، تكريم لعثمان ؓ، وجزاء له؛ لأنه كان في ذروة الأدب والإخلاص عندما دُعي إلى الطواف فلم يطف في البيت العتيق، ما دام رسول الله ﷺ لم يطف به بعد. وفي عدم طواف عثمان ؓ - على الرغم ما في الروح من أشواق للبيت العتيق - موقف التزام وإخلاص ومحبة لرسول الله ﷺ، فرأت قريش نموذجاً من الرجال الذين حول رسول الله ﷺ، رأت المحبة والإخلاص والأدب في شخص عثمان ؓ، ففكرت جدياً بحلّ يرضي رسول الله ﷺ، ويحفظ لها ماء الوجه أمام حلفائها، وأمام القبائل العربية كلها. [صلح الحديبية لأبي خليل ٨٢-٨٤].

ويقول الشيخ عرجون: «بلغ عثمان ؓ رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف مكة كما أمره رسول الله ﷺ، فأرادوا أن يتملقوا عثمان ويصرفوه عن مقصده، فقالوا له: إِنَّ شَيْئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ، ولكن عثمان ؓ أحد السابقين الأولين، وأحد أصحاب المهجرتين، الأثر بالصهر في مطلع البعثة قبل أن يُشَرَّفَ أحد قبله بهذا الصهر العلي المستعلي، عثمان ؓ صاحب الفضائل والفواضل على الإسلام والمسلمين، أبى لصدق إيمانه على قريش هذا الملق الوضيع، ورد عليهم بالكلمة الراسخة في صدق الإيمان وقال لهم: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ». [محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٢٧١/٤].

#### ٤٧ - المؤمن يجب أن يتصرف في كل موقف بما يناسبه:

يقول الشيخ أبو خوات: «إن المؤمن يجب أن يتصرف في كل موقف بما يناسبه، فالمعروف في هذه الرحلة أنها للزيارة والعمرة وليست للقتال والفتح، ولكن حدث ما جعل المسلمين يقفون موقف المقاتل المضحي بكل شيء حتى الحياة؛ لأن الدين نفسه يلزمهم أن يقفوا هذا الموقف، ولنذكر الموقف من أوله. دعا رسول الله ﷺ حين نزوله بالحديبية عثمان بن عفان ؓ وحده أو هو وعشرة من المسلمين - على الخلاف - أن يذهب إلى مكة ليخبر كبار قريش أن النبي ﷺ وأصحابه لم يأتوا غازين ولا محاربين وإنما جاؤوا زائرين معتمرين قد ساقوا الهدى، فذهب عثمان ؓ إلى كبار مكة وأخبرهم بما أمره به رسول الله ﷺ. وكان المفروض أن يرجع عثمان ؓ بالرد في الوقت المناسب، ولكن أبطأ عثمان ؓ واستبطأ المسلمون حتى شاع أنه قُتل، ولما كثرت وسرت هذه الإشاعة أمر رسول الله ﷺ عمر ؓ أن ينادي الناس إلى البيعة، ولما حضر الناس بايعوه على عدم الفرار وفي رواية أحدهم: بايعناه على الموت، ولقد ظهر بعدها أن عثمان ؓ لم يُقتل.

وموضع العبرة أن المسلمين رغم أنهم لم يأتوا لقتال، إلا أنهم حين يُعتدى عليهم أو تُمس كرامتهم يقفون رجالاً يبايعون على الموت في سبيل مُثلهم العليا، وما أحلى هذه الجملة: بايعناك على الموت، ولكن لا عجب، فالقوم قد باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، ولرفعة قدر هذه البيعة سميت (بيعة

نعم تسابق الصحابة رضي الله عنهم لمبايعة رسول الله ﷺ، فعلى أي شيء كانت تلك البيعة يا ترى؟ حتى استحقت تلك المبادرة؟

سُئِلَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذَا السُّؤَالُ فَأَجَابُوا عَنْهُ بِمَا يَلِي:

(أ) أَجَابَ سَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنَّهُمْ بَايَعُوا عَلَى الْمَوْتِ:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [مَوْلَى سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: قُلْتُ لِسَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ.

[البخاري في المغازي (٤١٦٩)، وفي الأحكام (٧٢٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٦٠)، والترمذي في السير (١٥٩٢)، والنسائي في البيعة (٤١٥٩)، ومسند أحمد ٦٣/٢٧ رقم ١٦٥٣٣].

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ سَلْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ قَالَ: «يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ أَلا تُبَايِعُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَيْضًا»، فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُسْلِمٍ! عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُتُمْتُ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٠)، ومسند أحمد ٨٢/٢٧ رقم ١٦٥٤٩].

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ النَّاسِ فِي الْحَدِيبَةِ، ثُمَّ قَعَدْتُ مُتَنَحِّيًا، فَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ أَلا تُبَايِعُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَيْضًا»، قُلْتُ: عَلَامَ بَايَعْتُمْ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ.

[مسند أحمد ٣٥/٢٧ رقم ١٦٥٠٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وجاء عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يؤيد جواب سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ زَمَنُ الْحَرَّةِ أَتَاهُ أَتٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ ابْنَ حَنْظَلَةَ يُبَايِعُ النَّاسَ عَلَى الْمَوْتِ، فَقَالَ: لَا أَبَايِعُ عَلَى هَذَا أَحَدًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [البخاري في الجهاد (٢٩٥٩)، ومسلم في الإمارة (١٨٦١)].

وَعَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحَرَّةِ وَالنَّاسُ يُبَايِعُونَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ، فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَى مَا يُبَايِعُ ابْنُ حَنْظَلَةَ النَّاسُ؟ قِيلَ لَهُ: عَلَى الْمَوْتِ، قَالَ: لَا أَبَايِعُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ شَهِدَ مَعَهُ الْحَدِيبَةَ. [البخاري في المغازي (٤١٦٧)].

(ب) وَأَجَابَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِأَنَّهُمْ بَايَعُوا عَلَى عَدَمِ الضَّرَارِ:

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُبَايِعُ النَّاسَ، وَأَنَا رَافِعُ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: لَمْ تُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفَرَّ.

[مسلم في الإمارة (١٨٥٨)، ومسند أحمد ٢٦/٣٨٧، ٣٩٣ رقم ١٦٤٦٣، ١٦٤٧١].

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحَدِيبَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ سَمُرَةٌ، وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفَرَّ، وَلَمْ تُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ.

[مسلم في الإمارة (١٨٥٦)، ومسند أحمد ٢٣/١٢٥، ٣٠٨ رقم ١٤٨٢٣، ١٥٠٧٨].

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ تُبَايِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، إِنَّمَا بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا تَقْرَ.

[مسلم في الإمامة (١٨٥٦)، والترمذي في السير (١٥٩٤)].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْنَا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَنْ لَا تَقْرَ.

[مسند أحمد ١٢/٢٢ رقم ١٤١١٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات].

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ الْعَبَّاسُ آخِذًا بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوَاقِفُنَا، فَلَمَّا فَرَعْنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخَذْتُ وَأَعْطَيْتُ»، قَالَ: فَسَأَلْتُ جَابِرًا يَوْمَئِذٍ: كَيْفَ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعَلَى الْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا تَقْرَ، قُلْتُ لَهُ: أَفَرَأَيْتَ يَوْمَ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، حَتَّى بَايَعْنَاهُ، قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: كُنَّا أَرْبَعٌ عَشَرَ مِائَةً، فَبَايَعْنَاهُ كُلُّنَا إِلَّا الْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ، اخْتَبَأَ تَحْتَ بَطْنِ بَعِيرٍ، وَنَحَرْنَا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ مِنَ الْبُذْنِ، لِكُلِّ سَبْعَةٍ جَزُورٌ.

[مسند أحمد ٢٣/٤٠٧ رقم ١٥٢٥٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل عبد الرحمن بن أبي الزناد].

وَعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَهُوَ رَافِعٌ عُصْنًا مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ بِيَدِهِ عَنْ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ، فَبَايَعُوهُ عَلَى أَنْ لَا يَقْرُوا، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ.

[مسند أحمد ٣٣/٤١٢ رقم ٢٠٢٩٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وَعَنِ الْحَكَمِ بْنِ الْأَعْرَجِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴿الْفَتْح: ١٠﴾ قَالَ: أَنْ لَا يَقْرُوا.

[مسند أحمد ٣٣/٤١٣ رقم ٢٠٢٩٤، وقال الشيخ الأرنؤوط: هذا الأثر إسناده محتمل للتحسين].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الْفَتْح: ١٨]، قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا تَقْرَ، وَلَمْ تُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ.

[الترمذي في السير (١٥٩١)]، وَقَالَ: وَفِي الْبَابِ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَابْنِ عُمَرَ وَعُبَادَةَ وَجَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ أَبُو عِيْسَى: وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ عِيْسَى بْنِ يُونُسَ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمْ يُذَكِّرْ فِيهِ أَبُو سَلَمَةَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقِلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ أَحَدَ الرَّهْطِ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [التوبة: ٩٢]، قَالَ: إِنِّي لَأَخِذُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ أُظِلُّ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ وَهُمْ يُبَايِعُونَهُ، فَقَالُوا: تُبَايِعُكَ عَلَى الْمَوْتِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا تَقْرُوا».

[مسند أحمد ٣٤/١٦٧-١٦٨ رقم ٢٠٥٤٦، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقِلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي لَمِنْ أَحَدِ الرَّهْطِ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ تَنَازُؤُهُ: ﴿لَا أَحَدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، قَالَ: إِنِّي لَأَخِذُ بِبَعْضِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ تَحْتَهَا أُظِلُّهُ،

قَالَ: فَبَايَعْنَا عَلَى أَنْ لَا نَقِرَّ. [جمع الزوائد ٦/ ٢١٣ في المغازي والسير (١٠١٨٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده جيد إلا أن الربيع بن أنس قال: عن أبي العالية أو عن غيره].

(ج) وقد سئل نافع على أي شيء كانت البيعة؟ فأجاب بأنها كانت على الصبر: عَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: رَجَعْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، فَسَأَلْتُ نَافِعًا: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ؟ عَلَى الْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ. [البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٨)].

بينت هذه الروايات الشيء الذي بايع عليه رسول الله ﷺ الصحابة يوم الحديبية، لكن رأينا في بعضها أنه بايعهم على الموت، وفي بعضها بايعهم على عدم الفرار، وفي بعضها على الصبر، فكيف التوفيق بينها؟ الواقع أنه لا خلاف بين هذه النصوص كما بين ذلك بعض العلماء:

قال الترمذي: وَمَعْنَى كِلَا الْحَدِيثَيْنِ صَحِيحٌ، قَدْ بَايَعَهُ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: «لَا نَزَالُ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى نُقْتَلَ، وَبَايَعَهُ آخَرُونَ فَقَالُوا: لَا نَقِرُّ». [الترمذي في السير (١٥٩٤)].

وقال ابن حجر: «لَا تَنَافٍ بَيْنَ قَوْلِهِمْ: (بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ وَعَلَى عَدَمِ الْفِرَارِ)؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَايَعَةِ عَلَى الْمَوْتِ أَنْ لَا يَقِرُّوا وَلَوْ مَاتُوا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقَعَ الْمَوْتُ وَلَا بُدَّ؛ وَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَهُ نَافِعٌ وَعَدَلَ إِلَى قَوْلِهِ: «بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ» أَيَّ عَلَى الثَّبَاتِ وَعَدَمِ الْفِرَارِ سِوَاءَ أَفْضَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْمَوْتِ أَمْ لَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [فتح الباري ٦/ ١١٨].

قلت: ويؤيد توجيه ابن حجر ما ورد في مرسل الشعبي الآتي في قصة أبي سنان رضي الله عنه وفيه: «قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: بَايَعْنِي؟ قَالَ: «عَلَى مَاذَا؟ قَالَ: عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، قَالَ: «مَا فِي نَفْسِي»، قَالَ: الْفَتْحُ أَوْ الشَّهَادَةُ، فَبَايَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَجَاءَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: نُبَايِعُكَ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ».

[عيون الأثر في المغازي والسير ٢/ ١٢٥]. [مرويات الحديبية للحكمي ٢٥٢-٢٦٠].

ويقول د/ الحميدي: «والذي يظهر أنه لا يترتب على هذا الخلاف تغاير في المدلول؛ لأن الذين عبروا بعدم الفرار رويوا ما تم من ألفاظ البيعة، والذين عبروا بالبيعة على الموت قد اهتموا ببيان مضمون البيعة؛ لأن من بايع على عدم الفرار فقد وطَّن نفسه على الموت في سبيل الله تعالى.

وإنه لموقف عظيم لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حيث أجمعوا جميعاً على هذه البيعة وباعوا أنفسهم رخيصة لله ﷻ، ولم يتردد منهم أحد غير رجل واحد من المنافقين لم يُرد الله له أن يفوز برضوانه.

وقد سجَّل الله ﷻ رضوانه عن هؤلاء المؤمنين الذين أقدموا على هذه البيعة مما يدل على صدقهم وإخلاصهم جميعاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ أَنْ حَرَامٍ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَزِيزٌ مُخْلِصٌ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح].

ولعله يندر أن يوجد في التاريخ جيش بأكمله يبايعون على الموت جميعاً ما عدا رجل واحد، مما يشهد شهادة صدق أن الصحابة رضي الله عنهم هم أفضل هذه الأمة وقودتها في الخير والرشاد.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٢٠٩/٦].

#### ٤٩ - من هو أول من بايع بيعة الرضوان؟

يقول د/ الحكمي: «ورد في بعض الروايات أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان هو أبو سنان الأسدي رضي الله عنه، إلا أنه قد عرف بهذه الكنية اثنان من بني أسد أحدهما: أبو سنان محصن أخو عكاشة بن محصن، والآخر أبو سنان بن وهب؛ ولذلك وقع خلاف أيهما المراد هنا، وقد ذكر بعضهم في ذلك غير أبي سنان الأسدي، وسوف يأتي بيان ذلك كله إن شاء الله.

قال ابن سعد: أَخْبَرَنَا وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثُمَيْرٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ أَبُو سِنَانٍ الْأَسَدِيُّ رضي الله عنه.

[الطبقات الكبرى ١٠٠/٢، سيرة ابن هشام ٣١٦/٣].

وأخرجه البيهقي من طريق سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ انْتَهَى إِلَيْهِ أَبُو سِنَانٍ الْأَسَدِيُّ رضي الله عنه، فَقَالَ: ابْسُطْ يَدَكَ أَبَايَعُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى مَا تَبَايَعُنِي؟»، فَقَالَ أَبُو سِنَانٍ رضي الله عنه: عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ. [دلائل النبوة للبيهقي ١٣٧/٤].

وقال ابن سيد الناس: وروينا عن أبي عروبة، ثنا علي بن المنذر، ثنا محمد بن فضيل عن عاصم عن عامر قال: كان أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي رضي الله عنه، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعْنِي؟ قَالَ: «عَلَى مَاذَا؟» قَالَ: عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، قَالَ: «مَا فِي نَفْسِي؟» قَالَ: الْفَتْحُ أَوِ الشَّهَادَةُ، فَبَايَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَاءَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: نُبَايَعُكَ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ. [عيون الأثر في المغازي والسير ١٢٥/٢].

هذا الأثر صحيح بمجموع طرقه إلى الشعبي وهو مرسل.

قال الطبراني: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ قَالَ: نَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدٍ بْنِ عَقِيلٍ قَالَ: نَا يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزُّهْرِيُّ قَالَ: نَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عِمْرَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ النَّاسَ لِلْبَيْعَةِ، فَجَاءَ أَبُو سِنَانٍ بْنُ مُحْصَنٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَايَعُكَ عَلَى مَا فِي نَفْسِكَ، قَالَ: «وَمَا فِي نَفْسِي؟» قَالَ: أَضْرِبُ بِسَيْفِي بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى يُظْهِرَكَ اللَّهُ أَوْ أَقْتَلَ، فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَ النَّاسُ عَلَى بَيْعَةِ أَبِي سِنَانٍ رضي الله عنه.

قال الطبراني: «لم يروه عن الزهري إلا محمد بن عبد العزيز، ولا عنه إلا عبد العزيز بن عمران، تفرد

به يعقوب». [المعجم الصغير ٣٢٦/٢ رقم ٢١١٩].

وأورده الهيثمي ثم قال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو متروك».

[مجمع الزوائد ٦/١٤٦].

قلت: وفيه أيضًا محمد بن عبد العزيز شيخ عبد العزيز بن عمران، قال البخاري: منكر الحديث، وقال

النسائي: متروك. [لسان الميزان ٥/٢٦٠].

وقد عد ابن رجب بيّتهم في البيوت التي اشتهرت بالضعف. [شرح علل الترمذي ٥٢٧].

وهذا الحديث مع ضعف سنده في متنه نكارة أيضًا، ففيه أن أول من بايع أبو سنان بن محصن، وأبو

سنان بن محصن مات قبل ذلك في حصار بني قريظة. [الإصابة ١١/١٨١].

وقد ظن الواقدي أن المشار إليه في الروايات السابقة هو هذا فوهم قائله، وقال: إن أول من بايع بيعة

الرضوان هو سنان بن أبي سنان [المغازي للواقدي ٢/٦٠٣، الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/١٠٠]، وتبعه على

ذلك أبو هلال العسكري [كتاب الأوائل: ١٧٠]، وابن سيد الناس [عيون الأثر ٢/١٢٥]، وكأنه لم تبلغهم

الروايات التي وردت عن الشعبي وغيره تصرّح بأن المذكور في البيعة هنا هو أبو سنان بن وهب، والروايات

هي:

قال ابن عبد البر: ذكر الحلواني، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: أول من

بايع تحت الشجرة أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: «علام تبائع؟»، قال: على ما

في نفسك، فبايعه وتتابع الناس فبايعوه. [الاستيعاب ١١/٣١٣ مع الإصابة].

وقال أيضًا: ذكر أبو العباس محمد بن إسحاق السراج قال: حدثنا هناد بن السري قال: حدثنا أبو بكر

بن عياش، عن عاصم، عن زر قال: أول من بايع تحت الشجرة أبو سنان بن وهب رضي الله عنه.

[الاستيعاب ١١/٣١٤].

قال ابن حجر: وأخرجه ابن منده من طريق عاصم عن زر بن حبیش فذكر مثله. [الإصابة ١١/١٨١].

وذكر ابن حجر أن طريق زر بن حبیش وطريق الشعبي كلاهما صحيح. [الإصابة ٤/٢٦٤].

فهذا الحديث حسن لغيره وإن كان مرسلًا، إلا أنه قد اختلف مخرجه فدل على أن له أصلًا وقد أشار

إلى هذه القاعدة ابن الصلاح بقوله: «ثم اعلم أن حكم المرسل حكم الحديث الضعيف، إلا أن يصح مخرجه

بمجيئه من وجه آخر». [علوم الحديث لابن الصلاح ٤٩].

وهنا قد صح مخرجه من وجهين، فارتفع إلى درجة الحسن لغيره، والله أعلم.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نتيجة وهي: رجحان القول بأن أول من بايع هو أبو سنان بن وهب

الأسدي رضي الله عنه، وليس أبو سنان بن محصن رضي الله عنه لهذا الحديث؛ ولأن حديث ابن عمر الذي ذُكر فيه أبو سنان

بن محصن ضعيف جداً لا يقوى على المعارضة والروايات التي قالت: أبو سنان الأسدي تفسرها هذه الرواية، والله أعلم.

ذكر ابن حجر: أن البغوي أخرج في ترجمة أبي سفيان بن الحارث من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم قال: «أول من بايع تحت الشجرة أبو سفيان بن الحارث». [الإصابة ١١/ ١٧١].  
وقد تعقبه ابن حجر بقوله: «ولم يصب في ذلك، فقد أخرجه غيره من هذا الوجه فقال: أبو سنان بن وهب، وهو الصواب، وهو المستفيض عند أهل المغازي كلهم، واسم أبي سنان: عبد الله».

[الإصابة ١١/ ١٧١].

وقد أورد السفاريني على قصة أبي سنان بن وهب - من كونه أول من بايع - ما روى مسلم في حديث سلمة أنه أول من بايع: ثم أجاب عن ذلك بقوله: «والجمع بينهما: بأن أبا سنان أول من بايع مطلقاً، وأن سلمة أول من بايع من الأنصار فأوليته بالإضافة إلى ما دون أبي سنان». [شرح ثلاثيات مسند أحمد ٢/ ٧٣٣].  
[مرويات الحديبية للحكمي ٢٦١-٢٧٠].

#### ٥٠ - مبررات البيعة:

يقول د/ أبو فارس: «إن تدافع المسلمين على بيعة الرسول ﷺ لقتال قريش ومهاجرتها في عقر دارها، ودخول مكة عنوة، كان له ما يبرره.

فقد نفذ صبر المسلمين وهم يعسكرون أياماً بالحديبية دون أن يتمكنوا من أداء نسكهم، فهم في ضيق شديد وكرب عظيم، إنهم لباس الإحرام، لم يؤدوا النسك ولم يتحللوا، فالتطيب بحقهم حرام، والخلق بحقهم كذلك وسائر محظورات الإحرام مطلوب منهم أن يتجنبوها.

لقد ملأ القمل رؤوس كثير منهم ككعب بن عجرة ؓ.

وزيادة على هذا كله فقد اعتدى المشركون على سفيرهم وأخيهم، فلا بد أن يؤدبهم».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٩].

#### ٥١ - الثبات على الحق:

يقول أ/ دويدار: «لم يكن الصحابة ؓ يحملون من السلاح سوى السيوف، ولم يكن عددهم يُقاس شيئاً إلى أعداد قريش، ولم يكن عليهم من لباس الحرب ما بقي أجسامهم ضربات العدو عند اللقاء، وكانوا يعلمون أنهم يجازفون بأرواحهم حين يُقدمون على القتال في هذه الظروف، ولكنهم مع كل ذلك أقدموا على البيعة في حماسة وقوة، باعوا نفوسهم لله في رضى واغتراب؛ فرضى الله عنهم وأرضاهم، وتقبل البيعة منهم وباركها لهم، فكانت فتحاً مبيناً فتح الله لهم به أبواب النصر والخير، وسار الإسلام بعدها



قُدُماً في طريق الغَلَب والقوة والظهور، حتى غلب على كل ما حوله من الأراضي والبقاع: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨]. [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٥٩].

ويقول د/ العودة: «لقد أثنى الله على المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة (يوم الحديبية) وسميت بيعتهم (بيعة الرضوان) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وكان الصحابة الذين شهدوها يعدونها (فتحاً)؛ ففي صحيح البخاري من حديث البراء ؓ قَالَ: تَعْدُونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ (بِيعَةَ الرُّضْوَانِ) يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ...

[البخاري في المغازي (٤١٥٠)].

قال ابن حجر: «المراد بالفتح هنا الحديبية؛ لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة، من ذلك كما وقع لحالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؓ، وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح». [فتح الباري ٧/ ٤٤١].

كما كان الرسول ﷺ والمسلمون يعدّون (صلح الحديبية) (أعظم الفتوح) جاء ذلك في رواية موسى بن عقبة عن الزهري، والبيهقي عن عروة، قالوا: وأقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً، فقال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت وصدّ هديتنا، وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية، وردّ رسول الله ﷺ رجلين من المسلمين خرجا، فبلغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابه: إن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الكلام! هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفّعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله ﷻ عليهم، وردّكم سالين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في آخركم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟».

قال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله ﷻ وبالأمر منا. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦٠-١٦١].

أما روائع (البيعة) و(صدق المبايعين) فهي قمم في الصدق والتضحية، وأحد المبايعين، بل أولهم (أبو سنان الأسدي ؓ) يبايع رسول الله ﷺ على ما في نفسه ﷺ: «الفتح، أو الشهادة».

ثم يتتابع المسلمون ويبايعون على بيعة أبي سنان ؓ.

وآخر من المبايعين (سلمة بن الأكوع رضي الله عنه) بايع رسول الله ﷺ ثلاث مرات في أول الناس ووسطهم وآخرهم (كما رواه مسلم) وهذا مؤشر آخر للصدق والتضحية والثبات.

وثمة مؤشر مهم لهذه البيعة في الثبات على الحق حتى الممات، ويد الله فوق أيديهم، وأثر هذه البيعة ينبغي أن يمتد في لاحق الزمن (ثباتاً على الحق، وتضحيةً لهذا الدين).

وبقي رجال الحديبية على العهد، ولم ينكث منهم أحد، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم يقرؤون ما نزل بشأنهم من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].

ألا وإن في الحديبية درساً في الثبات على الحق يوازي الصدق في الجهاد والتضحية في سبيل الله. [المنهج التربوي للغضبان بتصرف ٢/ ٣٦٧].

وبالجملة: كانت بيعة على الصبر والجهاد والثبات، وعدم الفرار، ويكفي المبايعين أن الله زكّاهم ورضي عنهم، وعلم ما في قلوبهم فأنزل عليهم السكينة والفتح. [فقه الحديبية للعودة ١٠].

## ٥٢ - البيعة كانت طريقاً لمعرفة مدى رغبة الصحابة رضي الله عنهم في قتل المشركين:

يقول د/ أبو فارس: «إن القائد الناجح هو الذي يكون حريصاً على معرفة رغبة الجند في القتال ويتخذ قراره بناء على ذلك، فإن كانوا يرغبون فيه فليمض على بركة الله، وإن كان غير ذلك فلا بد أن يبحث عن الحلل ويعالجه.

إن الذي يدل على وجود الرغبة في القتال أو عدمها هو الموقف من البيعة، فإن بايعوا فالرغبة موجودة والحماس للقتال متوفر، وإن أبوا وامتنعوا وتقاعسوا كما فعل الجليل الذي كان على زمن موسى عليه السلام فالرغبة مفقودة، ومن ثم اتخاذ القرار مع رغبة الجنود في الفرار أمر له آثاره العكسية».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠١].

## ٥٣ - بيعة الرضوان انتصار للإسلام وللمسلمين:

يقول أ/ رضوان: «أرادت قريش اختبار قوة المسلمين على الحرب داخل مكة، وقد أيقنت أنهم ما جاؤوا للحرب والقتال بل للسلام وزيارة البيت الحرام.

وقد غرّتها قلة المسلمين، فلم يحشد لهم الرسول القائد ﷺ كل قواته الضاربة، بل جاء معه فقط بست عشرة مائة من جنوده الأبطال، وهو الذي حشد لهم في غزوة الأحزاب في العام الخامس من الهجرة ثلاثين مائة من المقاتلين.

وذلك لأن تلك هي الفرصة الأخيرة لقريش للقضاء على الرسول ﷺ والإسلام والمسلمين، وهم في هذا العدد القليل، ولم يأت بهم رسول الله ﷺ بنية الحرب والقتال، فأطلقت قريش إشاعة قتل عثمان بن عفان ﷺ لترى رد فعل المسلمين.

فإن صمموا على القتال تيقنت من قوتهم، وعقدت معهم معاهدة السلام. وإن استسلموا لهذا العمل الدنيء، سمحت لهم بدخول مكة ثم قضت عليهم في داخلها غدراً وخيانة. لست أشك مطلقاً في صحة هذا الرأي الذي ذهبْتُ إليه والذي لم يذهب إليه أحد مطلقاً من القدامى والمحدثين من كُتّاب السيرة، والمفكرين المسلمين وغيرهم ... رغم وضوحه كل الوضوح، وظهوره كل الظهور.

فابن إسحاق وابن هشام يقولون: «فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ قَدْ قُتِلَ..». فمن الذي بلغ الرسول ﷺ والمسلمين ذلك غير قريش، وما هدفها من تلك الإشاعة؟ أليس العقل والمنطق والفكر السديد يقول بأن هدف قريش من تلك الإشاعة هو ما ذكرتُ؟ وحينما سمع الرسول ﷺ بتلك الإشاعة، قال في حزم وتصميم القائد الواق من نصر-الله له، والذي يسعى إلى السلام من موقع القوة: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ»، أي: لن نترك هذا المكان حتى نقاتل قريشاً لغدرها بعثمان ﷺ وقتله.

ثم دعا رسول الله ﷺ إلى مبايعة المسلمين له على النصر أو الاستشهاد في سبيل الله، فبايعه المسلمون جميعاً على ذلك في شجاعة كاملة، واشتياق إلى الاستشهاد في سبيل الله، تحت شجرة الرضوان، ولم يتخلف من بيعة الرسول ﷺ إلا منافق عُدَّ بين صفوف المسلمين وليس منهم وهو الجذ بن قيس، الذي اختبأ لجبنه تحت بطن ناقته حتى لا يراه الرسول ﷺ فيطلب منه البيعة.

و ضرب الرسول ﷺ بإحدى يديه على الأخرى مبايعاً عن عثمان ﷺ، وكان أول من بايع رسول الله ﷺ هو أبو بكر الصديق ﷺ، وليس كما زعم ابن هشام أن أول من بايع رسول الله ﷺ هو أبو سنان الأسدي ﷺ؛ لأن الأول لن يكون سوى صاحب الأول لرسول الله ﷺ، والذي لو وُزن إيمانه بإيمان الأمة الإسلامية لرجح إيمانه في الميزان كما قال رسول الله ﷺ، وهو أبو بكر الصديق ﷺ.

و حينما علمت قريش بهذه المبايعة على النصر أو الموت، ورأت قوة المسلمين الكاسحة، أمرت عثمان ﷺ بالإسراع إلى رسول الله ﷺ لإطفاء نيران غضبه عليها، ولإثبات كذب تلك الإشاعة التي أطلقتها هي، ولتبشيرهم بمجيء سهيل بن عمرو في أثره حاملاً شروط قريش وموافقتها على عقد معاهدة السلام بينها وبين المسلمين.

ولا شك أن هذه المبايعة على النصر أو الموت، دلت على أعظم انتصار للإسلام والمسلمين في هذا الموقف العصيب، فنزل قول الله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٨) وَمَعَانِهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُ بِهَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمًا (٩) [الفتح].

لقد رضي الله ﷻ عن المؤمنين بتلك المبايعة ووعدهم بالفتح القريب، والنصر والغنائم العظيمة. ونزل قول الله - تعالى أيضًا - مبيِّنًا مكانة الرسول ﷺ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورٌ بِهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) [الفتح]. فكَرَّم الله تعالى رسوله بجعل يده بمنزلة يد الله، وبشَّر الأوفياء بعهدهم بدخولهم الجنة.

لقد كانت تلك المبايعة كما قلت، هزيمة لقريش لأنها أيقنت بقوة المسلمين بهذه المبايعة على قريش: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٨) [الفتح]. والفتح القريب هو: معاهدة السلام التي وقَّعتها قريش مع رسول الله ﷺ صاغرة، بعد أن رأت قوة المسلمين بالمبايعة على الموت في سبيل الله والإسلام، وفي هذه المعاهدة تعرَّف لأول مرة بالإسلام.

ويدل دلالة قاطعة على صحة ما ذهبْتُ إليه من أن قريشًا أطلقت إشاعة قتل عثمان ؓ؛ ل ترى رد فعل المسلمين، وتحاربهم وتعذبهم وتقضي عليهم لو رأت منهم استسلامًا وضعفًا، وتسالمهم إذا رأت منهم عزيمة ماضية على القتال وتبين لها قوتهم.

يدل على ذلك دلالة قاطعة قول الله ﷻ في سورة الفتح: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْوَلَوَّا لَادَّبَرْتُمُ لَا يَحْدُوثَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) [الفتح].

أي لو غدرُوا بكم وقتلوكم بعد إطلاقهم إشاعة قتل عثمان ؓ؛ هُزموا شر هزيمة، وما وجدوا لهم معينًا على المسلمين ولا نصرًا عليهم.

ويدل - أيضًا - على أن هذه المبايعة كانت هزيمة معنوية لقريش قول الله - تعالى - في سورة الفتح: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ يَعْمَلُ مَا يُنْصِرُ﴾ (٢٣) [الفتح]. ﴿بَطَّنْ مَكَّةَ﴾: المراد به الحديبية لقربها من مكة.

و﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ببعة الرضوان، التي أدت إلى اعترافهم بالإسلام والمسلمين والرسول ﷺ بصلح الحديبية، حتى ولو كابرت قريش على لسان ممثلها سهيل بن عمرو وبرفض ذكر (محمد رسول الله ﷺ) في صحيفة المعاهدة، فالتوقيع معه على المعاهدة هو اعتراف ملزم برسالته قانونيًا، وعُرفيًا، وإن لم يكن اعترافًا دينيًا.

وليس المراد بهذا الظفر هو سقوط خمسين فارساً من قريش بأيدي المسلمين وإطلاق الرسول ﷺ لسراحيهم كما ذهب المفسرون. [محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام لرضوان ١١٨-١٢٢].

#### ٥٤ - بين الجبناء والمخذلين:

يقول د/ العوا: «ولأن أصحاب النبي ﷺ كانوا بشرًا من البشر ولم يكونوا ملائكة أو أشباه ملائكة، فقد حفظت لنا الرواية الصحيحة أن بعضهم لم يبايع، بل فر من البيعة واختبأ تحت بطن ناقته يستتر بها من الناس! فروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن جد بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره!

[مسلم (١٨٥٦)، واسم الصحابي يروى هكذا، ويروى (الجد)].

وروى ابن إسحاق عن جابر رضي الله عنه أيضًا أنه قال عن الجد بن قيس: «والله لكانني أنظرُ إليه لأصفاً بِإِطِ نَاقَتِهِ، قَدْ ضَبَّأَ إِلَيْهَا (لصق بها واستتر)، يَسْتَرُّ بِهَا مِنَ النَّاسِ».

وليس في المروي عن هذه الواقعة عقاب، ولا عتاب، ولا لوم للجد بن قيس الأنصاري بسبب تخلفه عن البيعة، نعم في سورة الفتح لوم وتقريع للذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من الأعراب الذين دعاهم إلى الخروج معه للعمرة فأبوا، وقالوا قالة سوء عن الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهم بطون من بني بكر، ومن مزينة، ومن جهينة، استنفرهم رسول الله ﷺ فسخروا منه، فأنزل الله تعالى فيهم قوله في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ وَيَأْسِنُ عَلَيْهِمْ مَا أَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ [الفتح].

فهؤلاء تخلفوا عن رسول الله ﷺ لأنهم لم يثقوا بقدرة الله - تعالى اسمه - على نصرته نبيه ﷺ، وظنوا ظن السوء، وأهلكوا أنفسهم بهذا الظن القبيح، فاستحقوا ذلك التقريع واللوم، كما يستحقها كل من يصنع مثل صنيعهم إلى يوم القيامة.

والجد بن قيس لم يبايع فرقاً أو جنباً، لكنه لم يكن يضمّر ظن سوء بالله تعالى ولا برسوله ولا بالمؤمنين.

فشأن الأولين كشأن الذين يعيشون اليوم بيننا من المخذلين والمثبطين الذين يقولون: متى تنتصرون على

الصهاينة؟

ومتى يكون لكم النصر على المحتلين الأمريكيين؟

أين قوتكم من سلاحهم، وأين عددكم من عدتهم وعتادهم؟

وهم يسخرون من المقاومة الفلسطينية، ومن المقاومة الإسلامية اللبنانية، ومن المقاومة العراقية الوطنية، ومن المقاومة الأفغانية، التي لم يسمعوا عنها ولا يعرفون عنها شيئاً، وهم في النهاية يظنون بالله وعباده المؤمنين ظن السوء، ويعتقدون أن العاقبة لا يمكن أن تكون لنا على عدونا، ولا يعتقدون في

مقتضى قول ربنا سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح].

وشأن الجد بن قيس كشأن كثير من الطيبين الصالحين الذين يشفقون على المجاهدين الذين يَفُذُّون الأوطان والأديان والمقدسات بأرواحهم، وهم شباب وشابات في مقتبل الأعمار، وفي وقت الطمع في الحياة وملاذاتها، والأمل في التمتع بخيرات الدنيا قبل التطلع إلى نعيم الآخرة، وهم مع هذا الإشفاق لا يجدون في أنفسهم القدرة على المقاومة ولو بالكلمة أو النفقة! ولكنهم يتمنون في قلوبهم للمجاهدين النصر والظفر، وأنت تراهم يبالغون في التأمين (قول: آمين) خلف الأئمة في الخطب والصلوات إذا دعوا بالنصر للمجاهدين! وهذا مبلغهم من القدرة، وطاقتهم من العمل، فهل يستحق هؤلاء لومًا أو تقييرًا؟؟  
بمثل هذا الشعور الطيب الصادق نجا الجد بن قيس - والله أعلم - من اللوم والتقريع، وبمثل قول المخذلين والمثبطين استحق المخلفون من الأعراب ما ألحقه بهم القرآن الكريم من سوء ذكرٍ باقٍ في العالمين». [الحديبية للعوا ٨٧-٩٠].

#### ٥٥ - العفو عند المقدرة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أسر المسلمون من هؤلاء الغادرين ما يقارب ثمانين منهم، جناؤوا للقتل الرسول ﷺ والتَّيْل من أصحابه في الشهر الحرام والبلد الحرام. إنهم ارتكبوا جريمة مغلظة أو أن شئت فقل إنهم ارتكبوا أكثر من جريمة، منها جريمة التآمر على حياته ﷺ، ومع هذا كله نجد الرسول ﷺ يعامل هؤلاء المحاريين الغادرين الذين يستحقون القتل، وبوسعه ﷺ أن يقتلهم، وإذا بنا نجد الرسول ﷺ يعفو عنهم.  
إنها أخلاق النبوة تعلمنا كيف يكون العفو عند المقدرة». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٦].

ويقول د/ العوا: «ورسول الله ﷺ عند كل نصر للمسلمين على من أرادوا بهم الغدر والخيانة، يأمر بالعفو عن المشركين، ويسألمهم عن ذمتهم وعهدهم، وهم يقولون ألا ذمة لهم ولا عهد، أي إن رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ لا لوم عليهم ولا تثريب إن هم اعتبروهم أسرى، أو قتلوهم بغدرهم، فلقوم كانوا محاربين للقتال أتوا، ولكن خلق الإسلام، الذي بُعث رسول الله ﷺ ليتمم محاسنه، يدعوه إلى العفو عنهم، وإلى أن يخلي سبيلهم وسط دهشة المسلمين وتعجبهم من صنيع نبيهم ﷺ، الذي آلى على نفسه وأصحابه أنهم لم يأتوا لقتال، وإنما قصدوا البيت الحرام وحده». [الحديبية للعوا ٧٩-٨٠].

#### ٥٦ - أثر البيعة في عودة قريش إلى رُشدِها وسعيها إلى الصلح:

يقول أ/ دويدار: «وبلغ قريشًا أمر هذه البيعة، وردّها هذا العمل الجريء إلى رُشدِها، فأخذت تعيد النظر في موقفها، وتفكر في أمرها على هدى وبصيرة، وستنبئ الماضي والحاضر عما عسى أن يكون من شأنها وشأن محمد ﷺ في المستقبل المجهول، ولعلها قدّرت فيما قدّرت أن هؤلاء الذين باعوا نفوسهم لله، وأقدموا على الموت بهذه الحمية، وهم على هذا الحال من ضعف العُدَّة وقلة العدد، لم يفعلوا ذلك إلا وهم

على ثقة بنصر الله لهم لأنهم على الحق، ولم تكن قريش تجهل أنهم على الحق فيما يطلبون من زيارة هذا البيت، وأنها على الباطل فيما تريد من صدهم عنه، ولم تكن كذلك تجهل أن الله ينصر الحق ويخذل الباطل، فلو أنها التقت بالمسلمين في هذه الواقعة فانتصروا عليها، لكان في ذلك القضاء على سمعتها بين العرب، ولقد بكت قريش من مواقف المسلمين ما بلت، ورأت من صدق دفاعهم عن الحق ما رأت، فكانت خليقة أن تتعظ بما رأت من كل ذلك وأن ترعوي عما هي فيه من عناد وبغي.

لعل قريشاً فكرت في كل هذا، وقدّرت على ضوء ماضيها وحاضرها ما عسى أن يكون من أمر مستقبلها، وقارنت بين الحق والباطل في موقفها، وبين الخير والشر في أمرها، فبدأ لها أن الصلح خير من التماهي في البغي والعدوان، وأن الرجوع إلى الحق خير من التماهي في الباطل، وأن الجنوح إلى السلم أبقي على هيئتها من قتال لا تدري ماذا تكون عاقبته، ولا سيما بعدما بدا لها من الأحايث ومن رجال ثقيف من مظاهر التفرق عنها، وعدم الرضا عن موقف العناد الذي تقفه من محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

لعل قريشاً قدّرت كل هذا، وقدّرت معه أنها بقتالها محمداً ﷺ ستحل البيت الحرام والشهر الحرام، وستسن بذلك سنة سيئة قد لا يعود وبها إلا عليها، ففادت إلى الرشد وعادت إلى الصواب، ورأت أن تستجيب إلى دواعي السلم، فأرسلت سهيل بن عمرو في نفر من رجالها يفاوضون محمداً ﷺ في الصلح، على أن يرجع عن قريش عامه هذا، إبقاء على سمعتها وحفظاً لكرامتها بين العرب.

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٥٩ - ٤٦٠].

## ٥٧ - تراجع قريش عن القتال كان لمصلحتها:

يقول د/ أبو فارس: «إن تراجع قريش عن القتال واتخاذ موقف آخر هو المشي في الصلح مع الرسول ﷺ كان لمصلحتها لعدة أسباب:

(أ) لو اختارت القتال وحدثت لكنت الخسارة في جانبها، ومن ثم زالت هيئتها عند القبائل، وأفل نجمها، ودالت دولتها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) [الفتح].

(ب) إن جبهة المشركين متصدعة، فعروة ذهب مغاضباً إلى الطائف محتجاً على تصرف قريش مع الرسول ﷺ، بعد أن أشار عليهم برأيه ولم يستجيبوا له ولا لمن معه، وقد جاء بقومه ومن يطيعه لينصرهم. وأعلن الحليس زعيم الأحايث انتقاده لموقف قريش وتعتتها، وأنه ليس معها، بل إن قوته ستكون لخدمة أصحاب الحق الذين جاؤوا لأداء النسك، فقد صرح عن موقفه بوضوح أنه سيقااتل من أجل أن يبلغ الرسول ﷺ والمسلمون البيت الحرام ويطوفوا بالبيت العتيق، وهذا يعني أنه لن يقف معها إذا قررت قتال المسلمين.

(ج) إن قيادة المسلمين قوية متماسكة مهيمنة على الوضع بشكل تام، وهي في نفس الوقت حكيمة حليلة حازمة، بخلاف قيادة المشركين كانت مترددة تنقصها الحكمة والروية وحسن معالجة الأمور قبل استنفالها.

(د) رغبة الجنود المسلمين الشديدة والقوية في القتال، وعلو الروح المعنوية عندهم، كيف لا؟ وهم أصحاب حق مقدس لن يتخلوا عنه بسهولة وأعداؤهم يحاولون منعهم من ذلك. أما جنود المشركين فلم تكن الروح المعنوية بمستواها كمستوى الروح المعنوية عند المسلمين، خاصة بعد فشلهم في محاولة غادرة أرادوا التلئ فيها من المسلمين فُردوا على أعقابهم خاسرين. أضف إلى ذلك أن قاداتهم ظالمون، والظلم بحد ذاته ضعيف الحجة متداعي البنيان، فكيف يقتل هذا الجندي نفسه لغير حق.

(هـ) التعاطف الدولي: لقد كان الناس متعاطفين مع المسلمين لأنهم أصحاب حق، ومطلبهم عادل. [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠١-١٠٢].

#### ٥٨ - دعوهم يكن لهم الفجور:

يقول د/ أبو فارس: «تأمل معي هذا القول البديع البليغ من رسول الله ﷺ، واللام هنا للتتمليك، وكأن المعنى أن الغدر والفجور يملكونه ويحصر فيهم، ولا شك هذه هي صفاتهم، فقد عاهدوا وفجروا وغدروا بعد عهد الحديبية.

أما المسلمون فلهم الوفاء وشتان بين الوفاء والغدر والعدل والفجور، فالوفاء بالعهد والعقد دين في نظر المسلم ينبغي أن يتمسك به». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٧].

#### ٥٩ - تعرية قريش على حقيقتها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أظهر هذا العدوان الغادر حقيقة قريش العدوانية، وأنها لا ترعى القواعد الأخلاقية التي تحكمها، وفي مقدمتها احترام الأشهر الحرام، واحترام الحرم، فلا يؤذى من دخله وإن كان عدواً، ولا يقاتل في الشهر الحرام عدو، هكذا كانت تقاليدهم وأعرافهم.

لقد كانت نتيجة هذه المحاولة الفاشلة سلبية على المشركين وإيجابية للمسلمين، فالمسلمون قويت معنوياتهم، والمشركون ضعفت معنوياتهم». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٨].



## المبحث الثالث

## الدروس الفقهية

## ١ - جواز خروج النساء في الغزو:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من حضور بعض النساء في هذه الغزوة جواز خروج النساء في الغزو مع الجيش، وتجاوز مشاركتهم في خدمة الجيش ومباشرة القتال إن اقتضى الأمر؛ لأنهم بايعن على ذلك». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٥]. [وقد سبق تفصيل هذا الدرس في غزوة أحد].

## ٢ - الإِحْرَامُ بِالْعُمْرَةِ مِنَ الْمِيقَاتِ أَفْضَلُ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الإِحْرَامَ بِالْعُمْرَةِ مِنَ الْمِيقَاتِ أَفْضَلُ، كَمَا أَنَّ الإِحْرَامَ بِالْحَجِّ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَحْرَمٌ بِهِمَا مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ مِثْلُ أَوْ نَحْوَهُ، وَأَمَّا حَدِيثُ: «مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، وَفِي لَفْظٍ: «كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ»، فَحَدِيثٌ لَا يُثْبِتُ، وَقَدْ أَضْطَرَّ بِفِيهِ إِسْنَادًا وَمَتْنًا اضْطِرَّابًا شَدِيدًا». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٠٠-٣٠١].

ويقول د/ أبو فارس: «ومن الأحكام التي تستنبط هنا ما يلي:

أ- يجوز الاعتمار في وقت الحج، فقد أحرم النبي ﷺ بعمره في شهر ذي القعدة، وهو من أشهر الحج.

ب- ميقات أهل المدينة ذو الحليفة، فقد أحرم الرسول ﷺ منه.

ج - يُسْتَحَبُّ الإِحْرَامُ بعد صلاة، والسنة أن يصلي المسلم ركعتين ثم يلبي كما فعل رسول الله ﷺ.

والإِحْرَامُ هنا المقصود به هو النية لأداء النُسك سواء كان عمرة أو حجاً أو تمتعاً أو قراناً.

د- التلبية من شعائر العمرة التي يبدأ بها المسلم فور إحرامه، استجابة لأمر الله ﷻ الذي أمره بالطواف

بالبیت العتيق فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿١٩﴾ [الحج].

هـ- يستحب التوجه نحو القبلة عند التلبية اقتداء برسول الله ﷺ، فقد أمر أن نأخذ عنه مناسكنا.

و- يجوز أن يلبي المحرم بالعمرة أو غيرها على ظهر دابته أو سيارته أو طائرته أو السفينة التي تقله على

ظهرها، فقد لبى رسول الله ﷺ وهو على راحلته مستقبلاً القبلة.

ز- سَوَقُ الهدي للمعتمر سنة.

ح - يسن إشعار الهدي: والإشعار جرح ما يهدى إلى البيت جرحاً خفيفاً في سنامه الأيمن إعلاناً بأنه

مُقَدَّمٌ على بيت الله الحرام.

فقد اشعر الرسول ﷺ البدن في سفره هذا.

هذا وينبغي التنبيه إلى أن هذا ليس من المثلة التي نهى الشارع عنها.

ط - وَضَعَ القلائد في رقاب الهدي سنة مستحبة؛ لأن رسول الله ﷺ قد وضعها، ولوضع القلائد في رقاب الهدي له دلالة هي إعلام الناس أن هذه الإبل مُهداة إلى بيت الله الحرام فلا يتعرض إليها أحد، وحتى يعلم الناس أن الذين يسوقونها يريدون أداء النُسك وتعظيم البيت وإجلاله».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٥-٢٦].

### ٣ - الصيد لغير المحرم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: انْطَلَقَ أَبِي [مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ يُحْرِمِ، وَحَدَّثَ النَّبِيَّ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] أَنَّ عَدُوًّا [بَغِيْقَةً] بَغَزُوهُ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]، فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَ أَصْحَابِي يَضْحَكُ [يُضْحِكُ] بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَتَنَظَرْتُ [إِذْ تَنَظَرْتُ] فَإِذَا أَنَا بِحِمَارٍ وَخَشٍ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَطَعَنْتُهُ، فَأَتَيْتُهُ، وَاسْتَعْنْتُ بِهِمْ [فَاسْتَعْنَتْهُمْ] فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُونِي، فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ، وَحَشِينَا أَنْ نُقْتَطَعَ، فَطَلَبْتُ [فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ] النَّبِيَّ ﷺ أَرْفَعُ فَرَسِي شَاوًا وَأَسِيرُ شَاوًا، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي غِفَارٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، قُلْتُ: أَيْنَ تَرَكْتَ النَّبِيَّ [رَسُولَ اللَّهِ ﷺ]؟ قَالَ: تَرَكْتُهُ بِتَعْنٍ، وَهُوَ قَائِلُ السَّقِيَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَهْلَكَ [أَصْحَابَكَ] يَقْرَءُونَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ خَشُوا أَنْ يُقْتَطِعُوا دُونَكَ، فَانْتَظِرْهُمْ [فَانتَظَرْتُهُمْ]، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ حِمَارَ وَخَشٍ [إِنِّي أَصَدْتُ]، وَعِنْدِي [وَمَعِيَ] مِنْهُ فَاضِلَةٌ، فَقَالَ [النَّبِيُّ ﷺ] لِلْقَوْمِ: «كُلُوا»، وَهُمْ مُحْرَمُونَ.

[البخاري في جزاء الصيد (١٨٢١)، ومسلم في الحج (١١٩٦)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٢٤)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَالَ: انْطَلَقْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ يُحْرِمِ، فَأَتَيْنَا بَعْدَ بَغِيْقَةٍ، فَتَوَجَّهْنَا نَحْوَهُمْ، فَبَصَرَ أَصْحَابِي بِحِمَارٍ وَخَشٍ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَضْحَكُ إِلَى بَعْضٍ، فَتَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُهُ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ الْفَرَسَ فَطَعَنْتُهُ فَأَتَيْتُهُ، فَاسْتَعْنْتُهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُونِي، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، ثُمَّ لَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَشِينَا أَنْ نُقْتَطَعَ أَرْفَعُ فَرَسِي شَاوًا وَأَسِيرُ عَلَيْهِ شَاوًا، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي غِفَارٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تَرَكْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُهُ بِتَعْنٍ، وَهُوَ قَائِلُ السَّقِيَا، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابَكَ أَرْسَلُوا يَقْرَءُونَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ خَشُوا أَنْ يُقْتَطِعَهُمُ الْعَدُوُّ دُونَكَ، فَانْتَظِرْهُمْ، فَفَعَلَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا أَصَدْنَا حِمَارَ وَخَشٍ، وَإِنَّ عِنْدَنَا فَاضِلَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا»، وَهُمْ مُحْرَمُونَ.

[البخاري في الحج (١٨٢٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَلَمْ يُحْرِمِ أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: وَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عَدُوًّا بَغِيْقَةً، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَ أَصْحَابِي فَضَحِكَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِحِمَارٍ وَخَشٍ، فَاسْتَعْنْتُهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُونِي، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُ، فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ، وَحَشِينَا

أَنْ نَقُتَعَ، فَأَنْطَلَقْتُ أَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَرْفَعُ فَرْسِي شَاوًا وَأَسِيرُ شَاوًا، وَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي غِفَارٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تَرَكْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَتَعَهَّنَ، وَهُوَ بِمَا لِي السُّقْيَا، فَأَذَرَكْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَصْحَابَكَ يُقْرُؤُونَكَ السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ، وَقَدْ خَشُوا أَنْ يُتَطَعُوا دُونَكَ، فَانْتَظِرْهُمْ، قَالَ: فَانْتَظِرْهُمْ، قُلْتُ: وَقَدْ أَصَبْتُ حِمَارًا وَخَشٍ، وَعِنْدِي مِنْهُ فَاضِلَةٌ، فَقَالَ لِلْقَوْمِ: «كُلُوا»، وَهُمْ مُحْرِمُونَ. [مسند أحمد ٣٧/ ٢٦٠ رقم ٢٢٥٦٩، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ نَافِعِ مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ سَمِعَ أَبَا قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْفَاحَةِ [مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَلَاثِ]، وَمِنَّا الْمُحْرِمُ وَمِنَّا غَيْرُ الْمُحْرِمِ، فَرَأَيْتُ أَصْحَابِي يَتَرَاوُونَ شَيْئًا، فَظَنَرْتُ فَإِذَا حِمَارٌ وَخَشٍ، يَغْنِي وَفَعَ سَوَطُهُ، فَقَالُوا: لَا نُعِينُكَ عَلَيْهِ بَنِيءٍ، إِنَّا مُحْرِمُونَ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَأَخَذْتُهُ، ثُمَّ أَتَيْتُ الْحِمَارَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةِ فَعَقَرْتُهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ أَصْحَابِي، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُلُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَأْكُلُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ أَمَامَنَا، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «كُلُّوهُ حَلَالٌ».

قَالَ لَنَا عُمَرُو: اذْهَبُوا إِلَى صَالِحٍ فَسَلُّوهُ عَنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، وَقَدِمَ عَلَيْنَا هَا.

[البخاري في جزاء الصيد (١٨٢٣)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ حَاجًّا، فَخَرَجُوا مَعَهُ، فَصَرَفَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ، فَقَالَ: «خُذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ حَتَّى نَلْتَقِيَ»، فَأَخَذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا أَحْرَمُوا كُلُّهُمْ إِلَّا أَبُو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرِمِ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ رَأَوْا حُمُرَ وَخَشٍ، فَحَمَلَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَى الْحُمْرِ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا، فَتَرَلُّوا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا، وَقَالُوا: أَنَا كُلُّ لَحْمٍ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ؟ فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِ الْأَتَانِ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا أَحْرَمْنَا، وَقَدْ كَانَ أَبُو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرِمِ، فَرَأَيْنَا حُمُرَ وَخَشٍ، فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا، فَتَرَلْنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهَا، ثُمَّ قُلْنَا: أَنَا كُلُّ لَحْمٍ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ؟ فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا، قَالَ: «أَمِنَكُمْ أَحَدٌ أَمْرُهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا». [البخاري في جزاء الصيد (١٨٢٤)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزَاةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ: فَأَهْلُوا بِعُمْرَةٍ غَيْرِي، قَالَ: فَاصْطَدْتُ حِمَارًا وَخَشٍ، فَاطْعَمْتُ أَصْحَابِي وَهُمْ مُحْرِمُونَ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَنْبَأْتُهُ أَنَّ عِنْدَنَا مِنْ لَحْمِهِ فَاضِلَةٌ، فَقَالَ: «كُلُّوهُ»، وَهُمْ مُحْرِمُونَ.

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمِيِّ حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، وَأَبُو قَتَادَةَ مُحِلٌّ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ: فَقَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ»، قَالُوا: مَعَنَا رِجْلُهُ، قَالَ: فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَكَلَهَا.

وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ وَإِسْحَاقُ عَنْ جَرِيرٍ كِلَاهُمَا عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه فِي نَفَرٍ مُحْرَمِينَ وَأَبُو قَتَادَةَ مُحِلٌّ، وَافْتَصَّ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ قَالَ: «هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ أَوْ أَمَرَهُ بِشَيْءٍ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَكُلُوا».

[مسلم في الحج (١١٩٦)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ السَّلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا مَعَ رَجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي مَنْزِلٍ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَازِلٌ أَمَانَنَا، وَالْقَوْمُ مُحْرَمُونَ، وَأَنَا غَيْرُ مُحْرَمٍ، فَأَبْصَرُوا حِمَارًا وَحَشِييًّا، وَأَنَا مُشْغُولٌ أَحْصِفُ نَعْلِي، فَلَمْ يُؤْذِنُونِي بِهِ، وَأَحْبَبُوا لَوْ أَنِّي أَبْصَرْتُهُ، وَالتَفْتُ فَأَبْصَرْتُهُ، فَقُمْتُ إِلَى الْفَرَسِ فَأَسْرَجْتُهُ، ثُمَّ رَكِبْتُ وَتَسَيْتُ السَّوْطَ وَالرُّمَحَ، فَقُلْتُ لَهُمْ: نَاوِلُونِي السَّوْطَ وَالرُّمَحَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نُعِينُكَ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَعَظِيبْتُ، فَتَزَلْتُ فَأَخَذْتُهُمَا، ثُمَّ رَكِبْتُ، فَشَدَدْتُ عَلَى الْحِمَارِ فَعَقَرْتُهُ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ وَقَدْ مَاتَ، فَوَقَعُوا فِيهِ بِأَكْلُونَهُ، ثُمَّ إِيَّاهُمْ شَكُّوا فِي أَكْلِهِمْ إِيَّاهُ، وَهُمْ حُرْمٌ، فَرَحْنَا وَخَبَأْتُ الْعَصَدَ مَعِي، فَأَدْرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَتَاوَلْتُهُ الْيَعْسَدَ فَأَكَلَهَا، حَتَّى تَفَدَّهَا وَهُوَ مُحْرَمٌ. [البخاري في الهبة (٥٤٠٧)].

وَعَنْ نَافِعٍ مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى إِذَا كَانَ يَبْغِضُ طَرِيقَ مَكَّةَ تَخَلَّفَ مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ مُحْرَمِينَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْرَمٍ، فَرَأَى حِمَارًا وَحَشِييًّا فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُنَاوِلُوهُ سَوْطَهُ فَأَبَوْا، فَسَأَلَهُمْ رُمَحَهُ فَأَبَوْا، فَأَخَذَهُ ثُمَّ شَدَّ عَلَى الْحِمَارِ فَقَتَلَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَأَبَى بَعْضٌ، فَلَمَّا أَدْرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطَعَمَكُمُوهَا اللَّهُ».

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ فِي الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي النَّضْرِ قَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ؟». [البخاري في الجهاد (٢٩١٤)، وفي الذبائح (٥٤٩٠، ٥٤٩١)، وموطأ مالك في الحج (٧٨٦)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَتَخَلَّفَ أَبُو قَتَادَةَ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ وَهُمْ مُحْرَمُونَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْرَمٍ، فَرَأَوْا حِمَارًا وَحَشِييًّا قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ تَرَكُوهُ حَتَّى رَأَاهُ أَبُو قَتَادَةَ، فَكَرَبَ فَرَسًا لَهُ يُقَالُ لَهُ الْجَرَادَةُ، فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُنَاوِلُوهُ سَوْطَهُ فَأَبَوْا، فَتَنَاوَلَهُ فَحَمَلَ فَعَقَرَهُ، ثُمَّ أَكَلَ فَأَكَلُوا، فَتَدَبَّرُوا فَلَمَّا أَدْرَكُوهُ قَالَ: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟»، قَالَ: مَعَنَا رِجْلُهُ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَأَكَلَهَا.

[البخاري في الجهاد (٢٨٥٤)].

وَعَنْ نَافِعٍ مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي صَالِحٍ مَوْلَى التَّوَّامَةِ سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَهُمْ مُحْرَمُونَ وَأَنَا رَجُلٌ حِلٌّ عَلَى فَرَسٍ، وَكُنْتُ رَقَاءً عَلَى الْجِبَالِ، فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ رَأَيْتُ

النَّاسُ مُتَسَوِّفِينَ لِشَيْءٍ، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ حِمَارٌ وَحْشٍ، فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: لَا نَدْرِي، قُلْتُ: هُوَ حِمَارٌ وَحْشِيٌّ، فَقَالُوا: هُوَ مَا رَأَيْتَ، وَكُنْتُ نَسِيتُ سَوَاطِي، فَقُلْتُ لَهُمْ: نَاوِلُونِي سَوَاطِي، فَقَالُوا: لَا نُعِينُكَ عَلَيْهِ، فَتَزَلْتُ فَأَخَذْتُهُ، ثُمَّ صَرَبْتُ فِي أَثَرِهِ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا ذَاكَ، حَتَّى عَقَرْتُهُ، فَأَتَيْتُ إِلَيْهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: قُومُوا فَاحْتَمِلُوا، قَالُوا: لَا نَمْسُهُ، فَحَمَلْتُهُ حَتَّى جِئْتُهُمْ بِهِ، فَأَبَى بَعْضُهُمْ، وَأَكَلَ بَعْضُهُمْ، فَقُلْتُ: أَنَا أَسْتَوْقِفُ لَكُمْ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَذَرَكْتُهُ فَحَدَّثْتُهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ لِي: «أَبْقَى مَعَكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «كُلُوا فَهُوَ طَعْمٌ أَطْعَمَكُمْ مَوْهَا اللَّهُ». [البخاري في الذبائح (٥٤٩٢)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ ؓ أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ: فَأَهْلُوا بِعُمْرَةَ غَيْرِي، فَأَصْطَلَدْتُ حِمَارَ وَحْشٍ، فَأَطْعَمْتُ أَصْحَابِي مِنْهُ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَنْبَأْتُهُ أَنَّ عِنْدَنَا مِنْ لَحْمِهِ فَاضِلَةٌ، فَقَالَ: «كُلُوهُ»، وَهُمْ مُحْرِمُونَ.

[النسائي في مناسك الحج (٢٨٢٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ ؓ قَالَ: انْطَلَقَ أَبِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ يُحْرَمْ أَبُو قَتَادَةَ، فَأَصَابَ حِمَارَ وَحْشٍ فَطَعَنَهُ وَأَكَلَ مِنْ لَحْمِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حِمَارَ وَحْشٍ فَطَعَنْتُهُ، فَقَالَ لِلْقَوْمِ: «كُلُوا»، وَهُمْ مُحْرِمُونَ. [الدارمي في المناسك (١٨٦٧)، وقال الشيخ أسد: إسناده صحيح].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ ؓ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ وَهُمْ مُحْرِمُونَ وَأَبُو قَتَادَةَ حَلَالٌ إِذْ رَأَيْتُ حِمَارًا فَرَكِبْتُ فَرَسًا فَأَصْبَيْتُهُ، فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، وَلَمْ أَكُلْ، فَأَتَوْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: «أَشْرُتُمْ قَتَلْتُمْ أَوْ قَالَ صَرَبْتُمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَكُلُوا». [الدارمي في المناسك (١٨٦٩)، وقال الشيخ أسد: إسناده صحيح].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ ؓ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ أَصْحَابُهُ وَلَمْ أُحْرَمْ، فَرَأَيْتُ حِمَارًا فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ وَاصْطَلَدْتُهُ، فَذَكَرْتُ شَأْنَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَكَرْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحْرَمْتُ، وَإِنِّي إِنَّمَا اصْطَلَدْتُهُ لَكَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَأْكُلُوهُ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ حِينَ أَخْبَرْتُهُ أَنِّي اصْطَلَدْتُهُ لَهُ. [ابن ماجه في المناسك (٣٠٩٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وَعَنْ عُمَيْرِ بْنِ سَلَمَةَ الصَّمِرِيِّ عَنْ الْبَهْزِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يُرِيدُ مَكَّةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالرُّوْحَاءِ إِذَا حِمَارٌ وَحْشِيٌّ عَقِيرٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوهُ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ صَاحِبُهُ»، فَجَاءَ الْبَهْزِيُّ وَهُوَ صَاحِبُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَأَلْتُكُمْ هَذَا الْحِمَارَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرٍ ؓ فَقَسَمَهُ بَيْنَ الرَّفَاقِ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْأُنَابَةِ بَيْنَ الرُّوَيْثَةِ وَالْعُرْجِ، إِذَا ظَنِّي حَاقِفٌ فِي ظِلِّ فِيهِ سَهْمٌ، فَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ لَا يَرِيْبُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يُجَاوِزَهُ.

[الموطأ في الحج (٧٨٩)].

## ٤ - القضايا الأربعة على طريق العمرة:

يقول د/ الغضبان: «إنها شعائر حية لأول مرة يتلقاها المسلمون، كأنها ولدوا بها من جديد، فصلاة ركعتين، لم تكن عند المعتمرين في الجاهلية، ورسول الله ﷺ يؤدي العمرة لأول مرة في الإسلام، وجاءت التلبية لتحطم لوثة الشرك التي أفسدت النسك كله، فقد كانت تلبية الجاهلية: (ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك وما ملك...) فقد دخل الشرك حتى في مناسك الحج والعمرة، وجاء البشير والنذير؛ ليخرج الناس من ظلمات الشرك والوثنية إلى عالم التوحيد ونور الوجدانية، فجاءت هذه التلبية التي لبي المسلمون بها، وأحرموا بها من دون الناس جميعاً، وانتشر الخبر في الأرض العربية بتوجه العصبة المؤمنة إلى مكة، مهلة بالعمرة، فآمن الناس جميعاً خروجهما، وفوجئ المسلمون، وهم على طريق العمرة بقضايا أربعة، أفتى بها رسول الله ﷺ لهم، وما أسعدهم وهم مع الرحمة المهداة والنور الرباني المنزل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) [المائدة].

فأما الكتاب المبين فالقرآن الكريم، وأما النور، فمحمد ﷺ، فيه يزون الوجود والحياة والكون والإنسان.

**المعضلة الأولى:** حيث ابتاع المسلمون ثلاثة أضب، والضب إنما يتم صيده ابتداءً، فما هو حكم أكله للمحرم؟ فقد توقف المحرمون ينتظرون الفتوى من رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «كُلُوا، فَكُلُّ صَيْدِ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ فِي الْإِحْرَامِ إِلَّا مَا صِدْتُمْ أَوْ صِيدَ لَكُمْ». [سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٨]. وبذلك انتهى الحرج حيث تقرر المبدأ في حرمة الصيد المباشر أو غير المباشر، وجواز أكل أي صيد بعد ذلك.

**المعضلة الثانية:** وعطب من ناحية بن جندب ؓ بعير من الهدى، فجاء بالأبواء إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فقال: «أَنْحَرَهَا وَاصْبُغْ فَلَا تَدْهَا فِي دِمَهِهَا، وَلَا تَأْكُلْ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ رُقَّتِكَ مِنْهَا شَيْئًا، وَخَلِّ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَهَا». [الغازي للواقدي ٢/ ٥٧٨].

وتعلم المسلمون بذلك كيف يتعاملون مع الهدى إن أشرف على الهلاك قبل أن يبلغ محله، حيث يُذبح ويأكل منه الناس جميعاً إلا صاحب الهدى.

**المعضلة الثالثة:** حيث يرويهما أبو قتادة ؓ الفارس المَعْلَم، والذي بقى حياً ولم يُحرم بالعمرة مع المسلمين، وإذا بالحرار الوحشي يترامى للمسلمين، وهو وليمة دسمة لهم في هذه الصحراء القاحلة، غير أن الصيد يحرم عليهم، والجوع كافر بلغ بهم مبلغه، ويجد أبو قتادة ؓ نفسه حرّاً وجلاً فيمتطي صهوة جواده ويشد على الحمار فيعقره، وعادت المشكلة من جديد، ماذا يفعل الحُرْم؟ وهل يجوز أن يأكلوا منه أم لا؟ ويتجهون إلى معلّم الخير ﷺ، إلى مربي البشرية فيسأل ﷺ قبل أن يعطي الجواب: «هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ

إِنْسَانٌ مِنْكُمْ أَوْ أَمْرُهُ بِشَيْءٍ؟»، قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ولهذا رفضوا أن يساعده حتى في مناولته السوط والرمح؛ كي لا يكونوا شركاء معه، فقال ﷺ: «كُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهِ، إِنَّمَا هُوَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَكُمْوَهَا اللَّهُ، هُوَ حَلَالٌ»، وكي ينفي الحرج والإثم من نفوسهم جميعاً سألهم: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟».

قال أبو قتادة: فناولته العضد فأكلها وهو محرم.

وتقبل ﷺ الهدايا من جنوده وحلفائه، وأكل منها، ووزع منها على الجيش الإسلامي صغيرها وجليلها، فتناول الخبز والقثاء والعتر وغيره وسرَّ بها، وقبل هدية خفاف بن إبياء مائة شاة، وفرقها على أصحابه وعلم المسلمين أن لا حرج في الهدية على المحرم، ورفض ﷺ هدية المشركين.

المعضلة الرابعة: يصفها لنا كعب بن عجرة ؓ الذي أكلته الهوام وهو مُحْرَم، وراع الربى العظيم منظره، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ؓ قَالَ: وَقَفَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدَيْبِيَّةِ، وَرَأَيْتُ يَتَهَفَّتُ (يتساقط) قَمَلًا، فَقَالَ: «يُؤْذِيكَ هَوَائُكَ؟» (جمع هامه وهي ما يدب من الأخشاش، وبينت الرواية أن المراد بها هنا القمل)، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ رَأْسَكَ - أَوْ قَالَ - اخْلُقْ»، قَالَ: فِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ (مكيال يسع ستة عشر رطلاً) بَيْنَ سِتَّةٍ، أَوْ أَنْسُكْ (اذبح) بِهَا تَسِيرَ». [البخاري في المحصر (١٨١٥)].

وكانت هذه فسحة للمسلمين في الأرض إلى يوم الدين، وتخفي الحادثة في ثناياها مدى اهتمام المصطفى ﷺ بجنده وحده عليهم إذ قال له - كما في الرواية الأخرى: «مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى أَوْ مَا كُنْتُ أَرَى الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى». [البخاري في المحصر (١٨١٦)].

لقد حبس المسلمون أنفسهم عشرين عاماً تقريباً بالصبر عن أعز مقدساتهم، حتى جاءهم الإذن بالاتجاه إلى العمرة، فانطلقوا وهم أسعد أهل الأرض، دون أن يتألوا على الله ورسوله، ودون أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، وحين جاءهم الإذن نفذوا أمر رسول الله ﷺ، ومضوا إلى مكة وسلاحهم السيوف فقط، دون أن يسجل تاريخ الغزوة حالة مخالفة واحدة لا لفظاً ولا عملاً أنه يرفض المسير إلى هذه التهلكة وهذه المقتلة، إنه الجليل الذي لم تشهد البشرية مثيلاً له في تاريخها الطويل.

[التربية القيادية للغضب ٢٠٦/٤ - ٢٠٨].

## ٥ - حكم الاستعانة بالمشرك:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن النبي ﷺ بعث بسر - بن سفيان الخزاعي عيناً إلى مكة.

وقد استدلل بعض العلماء بقصة بسر هذه على جواز الاستعانة بالمشركين في الجهاد.

قال ابن القيم: «الاستعانة بالمُشْرِكِ المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة؛ لأنَّ عَيْنَهُ الخِزَاعِيَّ كَانَ كَافِرًا إِذْ ذَاكَ، وَفِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى اخْتِلَاطِهِ بِالْعَدُوِّ وَأَخْذِهِ أَخْبَارَهُمْ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠١].

هكذا قال ابن القيم، وقد سبقه إلى ذلك مجد الدين ابن تيمية [متقى الأخبار ٧٣٢]، وتبعهما بعض المتأخرين. خاتم النبیین ﷺ لأبي زهرة ٨٥٨، وفقه السيرة للبوطي ٣٥٢.

والظاهر أن ليس في قصة الخزاعي هذه دلالة على جواز الاستعانة بالمُشْرِكِ في الجهاد؛ لأنه لم يرد في هذا الحديث ولا في غيره ما يدل على أنه كان كافراً إذ ذاك.

بل ورد عن بعض العلماء ما يدل على أنه أسلم قبل الحديبية.

قال ابن عبد البر: «بسر بن سفيان بن عويمر الخزاعي، أسلم سنة ست من الهجرة، وبعثه النبي ﷺ عيناً إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان قوله: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بسر بن سفيان هذا». [الاستيعاب ١/ ٣٠٩ مع الإصابة].

وقد نقل ابن حجر كلام ابن عبد البر وسكت عليه. [الإصابة ١/ ٢٤٥].

وقال الزرقاني: «واختاز بسر بن سفيان بن عمرو هذا، لقرب عهده بالإسلام؛ لأنه أسلم في شوال فلا يظنه من رآه عيناً فلا يؤذيه». [شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٨١].

فقد رأينا من كلام ابن عبد البر والزرقاني أنهما يريان أن بسر بن سفيان أسلم قبل الحديبية.

وعلى فرض أنه لم يثبت ما ورد في إسلامه فلا تصلح قصته دليلاً على جواز الاستعانة بالمُشْرِكِ، لوجود الاحتمال، لا سيما وهي معارضة بأحاديث صحيحة.

فالخاص: أن قصة بسر بن سفيان الخزاعي لا دلالة فيها على جواز الاستعانة بالمُشْرِكِ مطلقاً، ولم يثبت في ذلك شيء عن النبي ﷺ كما ذكر بعض العلماء، وإنما وردت بذلك أحاديث كلها ضعيفة، وهي:

١- حديث ابن عباس رضي الله عنه: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب أنا الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: قال أبو يوسف أنبأ الحسن بن عمار عن الحكم بن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «استعان رسول الله ﷺ بيهود بني قينقاع، فرضخ (الرضخ: العطية القليلة) لهم ولم يسهم لهم». [السنن الكبرى ٩/ ٥٣].

قال البيهقي: «تفرد به الحسن بن عمار وهو متروك، ولم يبلغنا في هذا حديث صحيح».

٢- حديث الزهري: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أبو الوليد الفقيه ثنا الحسن بن سفيان ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا حفص عن ابن جريج عن الزهري أن رسول الله ﷺ غزا بناس من اليهود فأسهم لهم. [السنن الكبرى ٩/ ٥٣].



وهذا الحديث قد أرسله الزهري، والمرسل من قسم الضعيف، لا سيما مراسلات الزهري.

٣- حديث فطير الحارثي: قال البيهقي: وقد روى الواقدي عن ابن أبي سيرة عن فطير الحارثي قال: «خرج رسول الله ﷺ بعشرة من اليهود من يهود المدينة إلى خيبر فأسهم لهم كسهمان المسلمين». قال البيهقي: «هذا منقطع وإسناده ضعيف». [السنن الكبرى ٥٣/٩].

فهذه الأحاديث التي دلت على جواز الاستعانة بالمشرك، وهي ضعيفة لا تقوم بها حجة ولا يثبت بها حكم.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ خلاف ذلك: عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ (على ثلاثة أميال من المدينة، وهي المشرفة على وادي العقيق) أَدْرَكَهُ رَجُلٌ، قَدْ كَانَ يُدْكِرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَنَجْدَةً، فَفَرَّحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لَأَتَّبِعَكَ وَأَصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ» قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ (هي ذو الحليفة) أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ، فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَانْطَلِقْ».

[مسلم في الجهاد والسير (١٨١٧)، والترمذي في السير (١٥٥٨)، وقال الترمذي: «وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: لَا يُسْأَلُ لِأَهْلِ الذِّمَّةِ، وَإِنْ قَاتَلُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ الْعُلُوَّ، وَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُسْأَلَ لَهُمْ إِذَا شَهِدُوا الْقِتَالَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ». وقد وردت آثار وأحاديث كثيرة في عدم الاستعانة بالمشركون هذا أقوالها].

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا خَلَفَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ إِذَا كَبِيَّةٌ، قَالَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ؟»، قَالُوا: «بَنُو قَيْنِقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: «وَأَسْلَمُوا؟»، قَالُوا: لَا. قَالَ: «بَلْ هُمْ عَلَى دِينِهِمْ»، قَالَ: «قُلْ لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا؛ فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينَ بِالمُشْرِكِينَ».

وأشار البيهقي إلى أن سند هذا الحديث صحيح. [السنن الكبرى للبيهقي ٦٤/٩].

وعن حُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ غَزْوًا أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي، وَلَمْ نُسَلِّمْ، فَقُلْنَا: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ يَشْهَدَ قَوْمُنَا مَشْهَدًا لَمْ يَشْهَدْهُ مَعَهُمْ، قَالَ: «أَوْ أَسْلَمْتُمَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينَ بِالمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»، قَالَ: فَأَسْلَمْنَا وَشَهِدْنَا مَعَهُ، فَقَتَلْتُ رَجُلًا وَصَرَبْنِي صَرْبَةً وَتَزَوَّجْتُ بِابْنَتِهِ. [مسند أحمد ٤٢/٢٥ رقم ١٥٧٦٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف دون قوله: «فلا نستعين بالمشركون على المشركون» فهو صحيح لغيره، وقال د/الحكمي: وسند هذا الحديث حسن].

وقد ذهب إلى جواز الاستعانة بالمشركون جماعة من العلماء، وهو مروي عن أبي حنيفة والشافعي وأحمد [ينظر: المغني لابن قدامة ٨/٤١٤، ونيل الأوطار ٧/٢٣٧]؛ للأحاديث السابقة في جواز الاستعانة بهم.

[السنن الكبرى ٣٧/٩، والاعتبار في النسخ والنسخ ٣٩٧].

وقد استدلوأ أيضًا بقصة شهود صفوان بن أمية لغزوة حنين، وهو مشرك، وبشهود قزمان غزوة أحد وهو مشرك، وبشهود ابن أبي لبعض الغزوات. [نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧].

وقد اشترطوا لجواز ذلك شروطاً هي:

١- أن يكون في المسلمين قلة وتدعوا الحاجة إلى ذلك.

٢- أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخشى ثائرتهم.

[ينظر: الاعتبار في النسخ والنسخ ٣٩٦، والمغني لابن قدامة ٨/ ٤١٤].

٣- أن يكون مع الإمام جماعة يستقل بهم في إمضاء الأحكام. [نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧، وسبل السلام ٤/ ٥٠].

وذهب جماعة إلى عدم جواز الاستعانة بالمشركين، ومن قال بذلك ابن المنذر، والجوزجاني، وهو مروي عن الشافعي. [المغني لابن قدامة ٨/ ٤١٤، ونيل الأوطار ٧/ ٢٣٧].

واستدل أصحاب هذا القول: بحديث عائشة رضي الله عنها، وحديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، وحديث خبيب بن عبد الرحمن رضي الله عنه السابقة.

وقالوا: إن الأحاديث الدالة على الجواز كلها ضعيفة، لا تقوى على المعارضة.

وقد رجح الشوكاني هذا القول حيث قال: (والحاصل أن الظاهر من الأدلة عدم جواز الاستعانة بمن كان مشركاً مطلقاً لما في قوله ﷺ: «إنا لا نستعين بالمشركين».

من العموم، وكذلك في قوله: «لن أستعين بمشرك». [نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧].

وأجاب عن قصة قزمان بأنه لم يثبت أن النبي ﷺ أذن له بذلك في ابتداء الأمر.

قال: وأما استعانته بابن أبي فليس ذلك إلا لإظهاره الإسلام. [نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧].

قلت: وقصة صفوان بن أمية ليس فيها دليل أيضاً على ذلك؛ لأنه لم يثبت أن النبي ﷺ طلب منه

الخروج، وإنما الثابت في ذلك استعارة رسول الله ﷺ للأدراع منه فحسب [حديث صفوان أخرجه أبو داود في

السنن، كتاب البيوع: ٣٥٦٢-٣٥٦٣، وصححه الألباني: إرواء الغليل ٥/ ٣٤٨]. [مرويات الحديبية للحكمي ٥١٧-

٥٢٤، وقد سبق تفصيل هذا الدرس في غزوة بدر، وفي غزوة أحد، ومواضع أخرى].

## ٦ - الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال:

يقول د/ البوطي: «قلنا إن النبي ﷺ أرسل بشر بن سفيان عينا إلى قريش ليأتيه بأخبارهم، وبشر بن

سفيان كان مشركاً من قبيلة خزاعة، وفي هذا تأكيد لما كنا قد ذكرناه سابقاً من أن أمر الاستعانة بغير المسلم

يتبع ظرف وحالة الشخص الذي يُستعان به، فإن كان ممن يطمأن إليه ولا تُخشى منه بادرة غدر أو خديعة

جازت، وإلا فلا، وعلى كلٍّ فإن النبي ﷺ في كل الحالات إنما استعان بغير المسلمين بما دون القتال،

كإرساله عيناً على الأعداء أو استعارة أسلحة منهم وما شابه ذلك، والذي يبدو أن الاستعانة بغير المسلمين في القضايا السلمية أشبه بالجواز منها في أعمال القتال والحرب». [فقه السيرة للبوطي ٢٥٢].

#### ٧- مشروعية الشورى<sup>(١)</sup>:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: اسْتِحْبَابُ مَشُورَةِ الْإِمَامِ رَعِيَّتِهِ وَجَيْشِهِ، اسْتِخْرَاجُ لَوْجِهِ الرَّأْيِ، وَاسْتِطَابَةُ لِنْفُسِهِمْ، وَأَمْنًا لِعَتَبَتِهِمْ، وَتَعَرُّفًا لِمَصْلَحَةِ يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ، وَأَمْتًا لِأَمْرِ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَدْ مَدَحَ ﷺ عِبَادَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]». [زاد المعاد ٣/٣٠٢].

ويقول د/ الحكمي: «الشورى ميزة عظيمة لهذه الأمة، وقد ذكرها الله ﷻ في معرض المدح للمؤمنين، وقرنها بالطاعة والصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وأمر بها نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِثَ لَكُمْ لَعْنٌ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه استشار أصحابه رضوان الله عليهم في أكثر من موطن:

#### ١- استشارهم في غزوة بدر مرتين:

المرّة الأولى: استشارهم في العير. [مسلم في الجهاد والسير (٨٣)].

والثانية: في المنزل، ونزل على رأي الحباب بن المنذر ﷺ. [ينظر: مرويات غزوة بدر للعليمي ص ١٥٧].

#### ٢- في غزوة أحد استشارهم في البقاء بالمدينة أو يخرج إلى العدو، فخرج بمشورة أكثر الصحابة.

[سيرة ابن هشام ٣/٦٣، وينظر: مرويات غزوة أحد للباكري ٦١].

#### ٣- في غزوة الأحزاب، استشارهم مرتين:

الأولى: في الخندق حيث أمر بحفره بمشورة سلمان الفارسي ﷺ. [ينظر: مرويات غزوة الخندق لعمبر ٩٠].

والثانية: في مصالحة غطفان، بثلاث ثمار المدينة، استشار في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد - رضي الله عنهما -

ونزل على رأيها في عدم إعطائهم شيئاً. [المرجع السابق ٨٣].

#### ٤- في غزوة الحديبية - هذه - استشار مرتين:

الأولى: استشار الصحابة في الإغارة على ذراري المشركين أو تركهم، ونزل على رأي أبي بكر ﷺ في

تركهم.

(١) سبق تفصيل هذا الدرس في غزوة بدر الكبرى، وفي غزوة أحد، ومواقع أخرى.

والثانية: استشار أم سلمة رضي الله عنها في أمر الناس حين لم يبادروا بالنحر والحلق، وقد أمرهم بذلك، فأشارت عليه بأن يبدأ ذلك بنفسه ففعل رضي الله عنه.

٥ - في غزوة بني المصطلق: استشار علي بن أبي طالب وأسماء بن زيد رضي الله عنهما في فراق عائشة رضي الله عنها.

[مسلم في التوبة (٥٦)، وينظر: مرويات غزوة بني المصطلق لقريب (٢١٣)].

وقد جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة من بعده شورى في الستة الباقية من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم. [البخاري في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٣٧٠)].

وهذا تتضح لنا أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام حيث جعلها الله من صفات المؤمنين، وأمر بها نبيه ﷺ، وعمل بها النبي ﷺ في مواطن كثيرة، وعمل بها الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم.

فمن بعدهم أولى بالمشورة وأحوج إليها منهم.

وقد نوه ابن عطية بشأن الشورى، ثم حكى الإجماع على وجوب عزل من لا يستشير أهل الدين.

قال: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله

واجب، هذا ما لا خلاف فيه. [تفسير ابن عطية ٣/ ٢٨٠].

وقال ابن تيمية [السياسة الشرعية ١٥٧]: «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله قد أمر بها نبيه ﷺ

فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومحل الشورى: هو أمور الحرب، والنوازل، وسائر الأمور التي لم يرد فيها دليل صريح من الشرع.

[ينظر: السابق، وتفسير ابن عطية ٣/ ٢٨١].

ومن فوائد الشورى:

١- تأليف قلوب الأتباع واستطابة نفوسهم.

٢- استخراج وجه الرأي منهم. [ينظر: المصدرين السابقين، وزاد المعاد ٣/ ٣٠٢].

٣- التعرف على مصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض. [زاد المعاد ٣/ ٣٠٢].

[مرويات الحديدية للحكمي ٥١٣-٥١٦].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ - وهو الموحى إليه من السماء، والمتصف بصفات الكمال

البشري من حيث الذكاء ورجاحة العقل، وقوة التفكير، وتحري الصواب - لم ينفرد برأيه، بل استشار

الصحابة رضي الله عنهم بقوله: «أشيروا علي أيها الناس!» فأولى بكل حاكم ومسؤول ألا يستبد بالأمر وأن يجعله

شورى بين المسلمين، فالشورى في حق غير رسول الله ﷺ أكد وأوجب وألزم.

[غزوة الحديدية لأبي فارس ٣٧].

التزام مبدأ الشورى في الأمور كلها، وعلى التخصيص في الحرب: يقول د/ أبو فارس: «نرى أن الرسول ﷺ حينما سمع أبا بكر ﷺ يشير عليه برأيه، وأخذ برأي أبي بكر ﷺ وترك رأيه، ليعلمنا أن نسلك هذا الطريق في حياتنا السياسية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وإن الذي يلاحظه القارئ من النص أن الرسول ﷺ استشار الناس، وطلب منهم إبداء ما يرون حول ما أشار به من مهاجمة المشركين وقتالهم في هذا الطرف.

ولم يتضمن النص ذكرًا لآراء الصحابة الآخرين، وهذا لا يعدو أمرين:

أما أن يكون الصحابة رضيه الله عنهم قد أقرروا أبا بكر ﷺ على ما رأى فأخذ الرسول ﷺ برأي الأغلبية.

وإما أن يكون الرسول ﷺ اقتنع بوجهة نظر أبي بكر ﷺ فتنازل عن رأيه، وتوقف النقاش عند هذا، إذ

لم يعد مطروحًا على بساط البحث والتشاور شيء يرى الناس رأيهم فيه». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٣٧].

ويقول د/ فيض الله: «قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، يَرِيدُونَ الْعِمْرَةَ،

سَمِعْتُ قُرَيْشَ بِخُرُوجِهِ، فَاسْتَنْفَرَتِ النَّاسَ، تَعَاهَدُ اللَّهُ عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ مَكَّةَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ أَبَدًا، وَعَزِمَتْ

عَلَى أَنْ تَصُدَّ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، مَهْمَا يَكُنْ مِنَ الْأَمْرِ.

وهذا موقف خطير، يحتاج إلى شيء غير قليل من التفكير والتدبر، فلجأ النبي ﷺ إلى المشورة، فقال:

أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَالَ لَهُ الصَّدِيقُ ﷺ كَلِمَتَهُ الْحَكِيمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا هَذَا الْبَيْتِ، لَا

تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

ويبدو أن هذا كان رأي الآخرين، فما علمنا أن أحدًا أبدى غير هذا الرأي، أو خالف فيه؛ فلهذا قال

النبي ﷺ: «امضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ».

ومن قبل رأينا في بدر، كيف استشار الصحابة في مبدأ الخروج للقتال، واستشار في ميدان القتال، كما

استشار في الأسرى.

وهذا يعني أن النبي ﷺ كان يلتزم مبدأ الشورى، في كل ما لم يتنزل فيه عليه وحي، تطبيقًا للقاعدة

الكبرى التي أرساها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا يقرر أن الشورى هي أساس نظام الحكم في الإسلام، وأن الأمة المسلمة ينبغي أن تُرَبَّى على هذه

القاعدة، وتُسَاسُ أمورها انطلاقًا منها، وخاصة فيما يتصل بالحرب، وأن الأمة ينبغي أن تشارك الحاكم في

تَحْمِيلِ التَّعَابِتِ، وتدريب على الاضطرلاع بالمسؤوليات الحِسَامِ في شؤون الدولة، حتى عندما يكون أمر

الأمة في يد أئمة قادرة راشدة يُوحَى إليها من السماء، لا يُلغَى مبدأ الشورى ولا يُعْطَل.

إن الشورى تعتمد رأي الجماعة، التي يَكْمُنُ الحق والصواب في أفرادها، ويد الله مع الجماعة، وإنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلَالَةٍ». [ابن ماجه في الفتن (٣٩٥٠)، وتكملته «فَإِذَا رَأَيْتُمْ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جداً دون الجملة الأولى، وقال عنه في السلسلة الضعيفة رقم ٢٨٩٦: ضعيف].

ولو ترتبت بعض الأضرار على الشورى، في بعض الأحوال، فإنها خفيفة وطفيفة، بالقياس إلى الأضرار التي تقع نتيجة الاستقلال بالرأي، والاستبداد في الحكم، وفرض الفرد نفوذه، وسيطرته على الجماعة.

وفي التاريخ القديم والحديث أمثلة وعبر، وفي سقوط الإمبراطوريات، وتهاوي العروش، الدليل الصادق، على سيادة مبدأ الشورى، واندحار الرأي الفردي، الذي لا يأتي بخير ولا ينتهي إلى خير.

وفي عهود عزة الإسلام، وسعادة جماعة المسلمين، كانت السيادة دائماً لمبدأ الشورى، وفي عهود الذلة والشقوة كانت السيادة للفردية البغيضة؛ وهذا من أكبر العبر، والدلالة على مبلغ أثر الشورى في منهج القرآن، والتربية المحمدية، وتمت كلمة رَبَّنَا تعالى في وصف المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٧٩-٢٨٠].

**طبيعة الشورى في الإسلام وحكمها:** يقول د/ العيسوي: «لقد رأينا من خلال استشارة الرسول ﷺ أصحابه في الحديبية، ومن عامة تصرفاته الأخرى ما يدل على مشروعية الشورى وضرورة التمسك بها. والشورى في الإسلام ليست من الأمور التنفلية التي تُترك لرغبة الحاكم، فإن شاء استشار وإن شاء ترك، بل هي واجبة على كل حاكم أو أمير. [ينظر: الإسلام وأوضاعنا السياسية ١٤٤، والإسلام عقيدة وشريعة ٣٦٨، والشورى في الإسلام ٣٥، ومبدأ الشورى في الإسلام ٤٦-٤٧، والدولة ونظام الحكم في الإسلام ٧٨].

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَبِثَ لَهْمٌ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران].

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].  
والأدلة في السنة الفعلية والوقائع العملية لسيرة سيدنا محمد ﷺ كثيرة، وقد مر بنا في غزوة بدر الكبرى أن الحباب بن المنذر ؓ، يسأل رسول الله ﷺ عن منزله: أمّنزل أنزل لك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. ثم أخذ برأي الحباب وقال ﷺ: لقد أشرت بالرأي. [ينظر ذلك في أحداث غزوة بدر الكبرى].

وفي غزوة الخندق حينما استشار الرسول ﷺ السعديين ؓ، بأن يعطي عطفان ثلث ثمار المدينة على أن لا يقاتلوا مع الأحزاب ويعودوا إلى ديارهم، قالوا له: يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه أم شيء أمرك الله بن لا بد لنا فعله أم شيء نصنعه لنا؟ قال واحد وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عليكم من

شؤكتهم»، فقال له سعد بن معاذ رضي الله عنه: والله ما بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، ونزل صلى الله عليه وسلم عند رأيه. [ينظر ذلك في أحداث غزوة الأحزاب].

وكذلك ما فعله في الحديبية التي نحن يصدد الكلام عنها، حيث استشار المسلمين في الإغارة على ذراري المشركين وأخذ برأس الصديق رضي الله عنه واستشار صلى الله عليه وسلم أم سلمة رضي الله عنها في أمر الناس لما لم يبادروا بالنحر والحلق حين أمرهم وأخذ برأيها.

وقد ورد عن علماء الأمة ما يؤيد ذلك أيضًا، فقد قال عبد الحق بن عطية المالكي: إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا مما لا خلاف فيه. [أحكام القرآن القرطبي ٢٤٩/٤].

وقال الإمام ابن تيمية: «لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه صلى الله عليه وسلم».

[السياسة الشرعية ١٦٩].

وقال ابن خويز منداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش وفيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس، وفيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والوزراء والعمال، وفيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارها. [تفسير القرطبي ٢٥٠/٤].

إن الأمر حينما يتكرر حتى لا نجد حادثة واحدة مشهورة لم يشاور فيها النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة، وحينما يكون هذا بالفعل بمثابة تطبيق وتفسير لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإن الأمر يخرج من دائرة الاستحباب والندب إلى دائرة الوجوب. [ينظر: الشورى وأثرها في الديمقراطية ٨٧].

هذا والشورى لا تكون إلا في الأمور التي ليس فيها نص قاطع من الكتاب أو السنة، إذ أنها لا تتصل بالأمور التشريعية التي انفرد بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وللرسول صلى الله عليه وسلم صفتان:

الأولى: أنه مبلِّغ ومشرِّع لأُمَّته.

الثانية: أنه صلى الله عليه وسلم ولي أمر المسلمين إلى ما فيه المصلحة ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

والصفة الأولى التي ينفرد بها الرسول صلى الله عليه وسلم عن باقي المسلمين؛ لأنه من المصطفين الأخيار من الله، فكل ما يأتينا بهذه الصفة لا اعتراض عليه، وإنما يتوجب فيه طاعته والتزام أمره، واجتناب نهيه، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله.

أما الصفة الثانية: وهي ما يأتينا به كولي أمر المسلمين وليس فيه نص قاطع وإنما أمر اجتهادي، فإننا قد ذكرنا وقائع فعلية من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه قد استشار بها الصحابة، معنى هذا أن دائرة الشورى محددة، فليس كل موضوع أو أمر يُستشار فيه، فهناك أمور قد نص الشارع على حكمها فلا يستشار فيها؛ لأن آراء

الرجال لا تُقَدَّم على الوحي، فالشورى اجتهاد - كما هو معلوم - ولا اجتهاد في معرض النص، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم، بل كانوا قبل أن يعرضوا رأيهم على الرسول ﷺ يسألونه: هل الأمر موحى به من عند الله أو اجتهاد منه ﷺ، فإن كانت الثانية أبدوا رأيهم وإلا فلا. [صلح الحديبية، الحكم والدلالات ص ١٧٩].

يتبين من هذا أن الشورى في غير الأمور المنصوص عليها، لكل هل إن الشورى تكون فيها جميعاً، أم إن للإمام الحق أن يشاور في بعضها ويترك البعض الآخر؟ اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

الأول: يقول إن الشورى تقع في جميع الأمور التي لا وحي فيها، قال بهذا ابن قتيبة والآمدني، والزنجشري، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم وغيرهم. [ينظر: تفسير الطبري ١٥٢/٤، وتفسير القرطبي ٢٥٠/٤، وتفسير الزنجشري ٤٧٤/١، وينظر: السيرة الكريمة ص ١٥٨، ومنتهى السؤل ٥٨/٣].

قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، هو للمؤمنين أن يشاوروا فيما لم يأتهم عن النبي ﷺ أثر. [تفسير الطبري ١٥٢/٤].

الثاني: يقول أن الشورى لا تكون إلا في أمور الحرب، نقل هذا عن قتادة، والربيع بن إسحاق، والشافعي، وابن القيم، وابن علي الجبائي.

[ينظر: تفسير الطبري ٢٤٥/٤، وتفسير القرطبي ٢٤٩/٤، وتفسير الألوسي ١٠٦-١٠٧].

والمستبع لحوادث السيرة المعطرة يجد أن القول بوجوب الشورى في جميع الأمور التي لا وحي فيها أرجح، يؤيد هذا ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ﷺ الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمع منك فيه شيء؟ قال: اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد. [ينظر: تفسير الألوسي ٤٦/٢٥].

فالمشاورة إذن تقع في جميع الأمور المهمة مثل سياسة الدولة العامة، وتسيير الجيوش، وإعلان الحرب، وعقد المعاهدات، والتراتب والتنظيمات الإدارية، وإقامة المشاريع، ونحو ذلك.

وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنها تكون في صغائر الأمور وجزيئاتها؛ لأن هذا أمر غير ممكن ولا معقول، ولا حاجة إليه ولا منفعة فيه ولا دليل عليه.

[ينظر: مجموعة بحوث فقهية - د/ عبد الكريم زيدان ص ١٠٢].

كما أن هناك أموراً يُراد بها البت على وجه السرعة، فهي لا تتحمل المشاورة لما فيها من التأخير، عند عرض الأمر وطرحه للمناقشة، فمن حق الأمير أو الحاكم البت بها دون مشاورة والله أعلم.

[فقه الغزوات للعيسوي ٣٦١-٣٦٤].



## ٨ - جواز سبي ذراري المشركين:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ مما تقدم حكم مهم وهو جواز سبي ذراري المشركين قبل التعرض لرجالهم في القتال أو حرب إن كانت الحالة بينهم وبين المسلمين حالة حرب.

ذلك لأن أموالهم ودماءهم وذراريهم مستباحة للمسلمين. [ينظر: نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٤١].

فقد رأى النبي ﷺ أن يسبي ذراريهم، وهذا سنة ودليل شرعي على هذا الحكم الذي ذكر آنفاً.

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٣٨، وقد سبق تفصيله في غزوة بني المصطلق].

## ٩ - مشروعية اليمين:

يقول د/ أبو فارس: «ونستطيع أن نستنبط من قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» ما يلي:

أ - مشروعية اليمين: إذ أقسم رسول الله ﷺ هنا، وقسمه يدل على مشروعية اليمين.

ب - صيغ اليمين كثيرة، ومن صيغها «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ!».

ج - اليمين المشروعة هي الحلف بالله ﷻ.

د - اليمين التي حلفها رسول الله ﷺ كانت لتأكيد شيء يريده وهو عدم القتال، وتعظيم البيت،

وصلة الأرحام.

هـ - يجوز للمسلم أن يحلف لتوكيد شيء يريده، شريطة أن يكون هذا الشيء حقاً وصدقاً، وإلا فهو

اليمين الفاجرة أو يمين الغموس». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٥-٤٦].

ويقول د/ العوا: «وبينوا أن قول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» يدل على جواز تأكيد القول

باليمين ليكون أدعى إلى القبول، قال الإمام محمد الصالح في كتابه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير

العباد ٥/ ١١٦): «وقد حفظ عن رسول الله ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعاً»، وقال مثله عدد من

العلماء الحفاظ، فليتأمل إخواننا من أهل التشديد على الناس ما في هذا المحفوظ عن الرسول ﷺ من

تخفيف على المسلمين، نعم ترك الحلف في الصغائر والتوافه وأمور العادات أفصل وأحب إليّ، ولكن التشدد

في تحريمه غير صحيح». [الحديبية للعوا ٤٤].

## ١٠ - استحباب الحلف على الخبر الديني الذي يراد تأكيده:

يقول ابن القيم: «ومنها: جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الديني الذي يريد تأكيده، وقد حفظ

عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة

مواضع في [سورة يونس: ٥٣] و [سبأ: ٣] و [التغابن: ٧]. [زاد المعاد ٣/ ٣٠٢].

## ١١ - تقرير مبدأ تعظيم حرَمَاتِ الله:

تحت عنوان «إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ وَالظُّلْمَةُ أَمْرًا يُعْظَمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ أُعِينُوا عَلَيْهِ» يقول الإمام ابن القيم: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلَ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ، وَالْبَغَاةَ وَالظُّلْمَةَ، إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعْظَمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأَعْطَوْهُ وَأُعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ، فَبِعَاوُنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ التَّمَسَّ الْمُعَاوَنَةَ عَلَى مَحَبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَأَنَّهُ مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحَبُوبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ، وَأَضْعَفِهَا، وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفُوسِ؛ وَلِذَلِكَ ضَاقَ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ ضَاقَ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا قَالَ، حَتَّى عَمِلَ لَهُ أَعْمَالًا بَعْدَهُ، وَالصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَلَقَّاهُ بِالرَّضَى وَالتَّسْلِيمِ، حَتَّى كَانَ قَلْبُهُ فِيهِ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجَابَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمَّا سَأَلَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ بِعَيْنِ جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَأَكْمَلُهُمْ، وَأَعْرَفُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَعْلَمُهُمْ بِدِينِهِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِمَحَابِيهِ، وَأَشَدَّهُمْ مُوَافَقَةً لَهُ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَسْأَلْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمَّا عَرَضَ لَهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدِيقَهُ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ أَصْحَابِهِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٠٣، وسيأتي تفصيله في الدروس السياسية].

## ١٢ - صلاة الخوف:

سبق أن عرضنا أقوال العلماء قديماً وحديثاً في صلاة الخوف، وذلك عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع في الجزء الرابع (مجموعة غزوة أحد)، وكان الراجح لدى كثير من العلماء أنها كانت في غزوة ذات الرقاع، ولكن الدكتور الحكمي يعرض أقوال العلماء في أنها كانت في غزوة الحديبية، وسأعرض هنا ما قاله باختصار لمزيد الفائدة.

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث أبي عياش الزرقني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى بعسفان صلاة الخوف، لكن لم يرد فيه تحديد الغزوة التي صلى فيها، وحيث إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عسفان في أكثر من غزوة فقد وقع خلاف في تعيين الغزوة التي صلى فيها تلك الصلاة. وسأورد حديث أبي عياش ثم أذكر الخلاف مع الترجيح إن شاء الله:

روى أبو داود بسنده عن أبي عياش الزرقني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُسْفَانَ، وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَصَلَّيْنَا الظُّهْرَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَقَدْ أَصَبْنَا غَرَّةً، لَقَدْ أَصَبْنَا غَفْلَةً لَوْ كُنَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَتَرَكْتُ آيَةَ الْقَصْرِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعَصْرُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَالْمُشْرِكُونَ أَمَامَهُ، فَصَفَّ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفٌّ وَصَفَّ بَعْدَ ذَلِكَ الصَّفِّ صَفٌّ آخَرُ، فَرَكَعَ رَسُولُ

الله ﷺ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يُلُونَهُ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَخْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى هَؤُلَاءِ السَّجْدَتَيْنِ وَقَامُوا سَجَدَ الْآخَرُونَ الَّذِينَ كَانُوا خَلْفَهُمْ، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ إِلَى مَقَامِ الْآخَرِينَ، وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الْآخِرُ إِلَى مَقَامِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَخْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ سَجَدَ الْآخَرُونَ، ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، فَصَلَّاهَا بِعُسْفَانَ وَصَلَّاهَا يَوْمَ بَنِي سُلَيْمٍ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَى أَيُّوبُ وَهْشَامٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ دَاوُدُ بْنُ حُصَيْنٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ، وَكَذَلِكَ قَتَادَةُ عَنْ الْحُسَيْنِ عَنْ حِطَّانَ عَنْ أَبِي مُوسَى فِعْلُهُ، وَكَذَلِكَ عِكْرِمَةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَذَلِكَ هِشَامُ بْنُ غَزْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ. [أبو داود في الصلاة (١٢٣٦)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح، وينظر تخریج د/ الحكمي لروايته وأقوال العلماء في الحديث.

وقد أفاد حديث أبي عياش ؓ هذا أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف، لكنه لم يسم الغزوة التي صلى فيها، وحيث إن رسول الله ﷺ قد نزل بعسفان في غزوة بني لحيان وفي غزوة الحديبية، فقد وقع خلاف في تحديد الغزوة التي صلى فيها تلك الصلاة.

فقد أورد ابن كثير حديث أبي عياش في غزوة بني لحيان، ثم قال: «وفي سياق حديث أبي عياش الزرقني ما يقتضي أن آية صلاة الخوف نزلت في هذه الغزوة يوم عسفان فاقضى ذلك أنها أول صلاة خوف صلاها والله أعلم». [البداية والنهاية ٤/ ٨٣].

وقد تابع ابن كثير على ذلك الساعاتي حيث قال: «وعسفان أول غزوة شرعت فيها صلاة الخوف ويقال لها: غزوة بني لحيان، وسببها ما نقله ابن كثير في تاريخه». [بلوغ الأماني ٧/ ٤ مع الفتح الرباني].

ويظهر من كلام صاحب المنهل العذب المورد، أنه قد تابع ابن كثير أيضًا على ذلك، فقد ذكر أن صلاة النبي ﷺ بعسفان كانت في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة بعد الخندق وبني قريظة.

[المنهل العذب المورد ٧/ ١٠٠].

وهذا التاريخ الذي حدد به هو تاريخ غزوة بني لحيان نقله ابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق.

[سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٩، والبداية والنهاية ٤/ ٨١].

وذكر الواقدي وابن سعد وابن الجوزي أن صلاة الخوف بعسفان كانت في غزوة الحديبية، إلا أن

ظاهر كلام ابن سعد يفيد أنها صلاة الظهر وهو مخالف لحديث أبي عياش.

[الغازي للواقدي ٢/ ٥٨٢، والطبقات الكبرى ٢/ ٩٥، والوفاء بأحوال المصطفى ٢/ ٦٩٧].

وقد نقل ابن حجر عن الواقدي أنه روى بإسناده حديثاً عن خالد بن الوليد يصرح فيه بأن صلاة عسفان كانت في غزوة الحديبية ونصه:

عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ لَقِيْتَهُ بِعُسْفَانَ، فَوَقَفْتُ بِإِزَائِهِ وَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ، فَهَمَمْنَا أَنْ نُغَيِّرَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَعْزِمْ لَنَا، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الْعَصْرَ صَلَاةَ الْخَوْفِ» الْحَدِيث. [فتح الباري ٧/٤٢٣].

فهذه الرواية صرحت بأن الحادثة كانت في غزوة الحديبية، ومعنى الرواية عموماً متفق مع حديث أبي عياش ؓ إلا أنها زادت تحديد الغزوة، وهذه الزيادة وإن كانت ضعيفة من الناحية الحديثية، لأنها بدون سند، ولمجيئها من طريق الواقدي وهو متروك عند المحدثين، لكن يستأنس بها لأمرين: أولاً: لأنها في المغازي، وقد قال ابن حجر: «والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي، فهو مقبول عند أصحابنا». [التلخيص الحبير ٢/٢٩١].

ولم يخالف هذا خبراً صحيحاً ولا خالف غيره من أهل المغازي، نعم خالفه ابن كثير، لكن ابن كثير انفرد بذلك، وهو وهم منه رحمته، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

ثانياً: ورد ما يشهد لهذه الزيادة في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق ابن إسحاق عند أحمد ففيه ما نصه: «وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ (محطة تاريخية بين مكة والمدينة على ثمانين كيلاً من مكة) لَقِيَهُ بِشُرْبْنِ سَفْيَانَ الْكَعْبِيِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْغُزُوءُ الْمَطَافِلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ غَنَوَةٌ (أي قهراً وغلبة) أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدِمُوا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ».

[مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

فهذه الرواية تفيد أمرين:

الأول: أن النبي ﷺ نزل عسفان في غزوة الحديبية.

الثاني: أن خالد بن الوليد خرج لملاقاة النبي ﷺ في هذه الغزوة.

ولم يذكر أحداً من أهل المغازي أن خالد بن الوليد قد لقي النبي ﷺ بهذا المكان في غير غزوة الحديبية. وقد رجح ابن حجر والكاندهلوي أيضاً على أن صلاة عسفان هذه كانت في غزوة الحديبية.

[فتح الباري ٧/٤٢٣، حاشية بذل المجهود في حل أبو داود ٦/٣٢٩].

وهذا هو الراجح عندي لما سبق من الأدلة.

ولأن النبي ﷺ لم يلق أحداً من كفار قريش في غزوة بني لحيان، كما ذكر ذلك أهل المغازي.

قال ابن سعد بعد أن ذكر انصراف النبي ﷺ من غزوة بني لحيان: «ثم خرج رسول الله ﷺ حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر ﷺ في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعروهم، فأتوا الغميم، ولم يلقوا كيداً». [الطبقات الكبرى ٢/ ٧٩].

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعد منصرفه من غزوة بني لحيان: «نزل عسفان وبعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم، ثم كرا وراح رسول الله ﷺ قافلاً». [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٨٠].  
وذكر نحوه ابن كثير أيضاً [البداءة والنهاية ٤/ ٨١]، وبهذا يتبين أن ما ذهب إليه ابن كثير وهم منه ﷺ.  
تنبيه: يلاحظ أن ابن سعد ذكر أن النبي ﷺ بعث عشرة فوارس بينما ذكر ابن إسحاق أنه بعث فارسين.

وقد جمع بينهما الزرقاني: «بأنه ﷺ بعث الفارسين أولاً، ثم بعث أبا بكر في العشرة أو عكسه». [شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٤٧].  
بيان أن ابتداء مشروعية صلاة الخوف كان في غزوة الحديبية: ثبت أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الخوف في أكثر من غزوة، غير أنه لم يرد في شيء من النصوص الثابتة تعيين للغزوة التي صلى فيها صلاة الخوف أولاً.

نعم ساق الواقدي بسنده حديثين: أحدهما حديث أبي عياش الزرقني في عسفان زاد في آخره ما نصه: «وذكر أبو عياش أنه أول ما صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف». [مغازي الواقدي ٢/ ٥٨٣].  
وهذه الزيادة ضعيفة لأن الواقدي تفرد بها.

والحديث الثاني: حديث جابر ﷺ قال: صلى رسول الله ﷺ أول صلاة خوف في غزوة ذات الرقاع، ثم صلاها بعد بعسفان بينهما أربع سنين. [مغازي الواقدي ٢/ ٥٨٣].

ثم قال الواقدي عقب هذا الحديث: وهذا أبين عندنا.

وهذا الحديث أيضاً ضعيف لمجيئه من طريق الواقدي.

ثم إن هذا الحديث لا يتمشى مع تحديد الواقدي لزمن كل من ذات الرقاع والغزوة التي صلى فيها بعسفان: ذلك أنه جعل ذات الرقاع في السنة الخامسة، وصلاة عسفان جعلها في غزوة الحديبية - وهو صحيح - وقد اتفق أهل المغازي وهو في جملتهم على أن غزوة الحديبية كانت سنة ست، فكيف يقول: «بينهما أربع سنين»؟

ولعدم وجود نص ثابت صريح في تعيين الغزوة التي صلى فيها صلاة الخوف أول مرة، فقد وقع خلف في تحديد تلك الغزوة:

فجمهور أهل المغازي يجعلون أول غزوة وقعت فيها صلاة الخوف هي غزوة ذات الرقاع.

[ينظر: مغازي الواقدي ١/٣٩٦، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٦١، وسيرة ابن هشام ٣/٣٠٤، وتاريخ ابن جرير

الطبري ٢/٣٩].

والحقيقة أن أهل المغازي لم يصرحوا بأن صلاة الخوف بذات الرقاع أول صلاة وقعت - إلا ما ذكره الواقدي وقد بينا ضعفه - وإنما قدّموا غزوة ذات الرقاع على غزوة الحديبية التي وقعت فيها صلاة عسفان، فلزم من صنيعهم أن تكون صلاة الخوف بذات الرقاع أول صلاة وقعت، ولم يكن لأهل المغازي معتمد في تقديم ذات الرقاع؛ لذلك فقد اختلفوا في تحديد زمنها اختلافاً كبيراً.

فعند ابن إسحاق أنها كانت في جمادى الأولى سنة أربع للهجرة. [سيرة ابن هشام ٣/٢٠٣].

وذهب الواقدي وابن سعد وابن حبان إلى أنها في المحرم سنة خمس.

[مغازي الواقدي ١/٣٩٥، والطبقات الكبرى ٢/٦١، وصحيح ابن حبان ١/٢٥٧].

وتردد موسى بن عقبة في زمنها فلا يدرى أكانت قبل بدر أو بعدها أو قبل أحد أو بعدها.

[فتح الباري ٧/٤١٧].

وأما أبو معشر السندي فيرى أنها بعد بني قريظة والخنق. [فتح الباري ٧/٤١٨].

وذهب البخاري - وتبعه ابن القيم، وابن كثير، وابن حجر - إلى أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن

غزوة الحديبية، بل وعن غزوة خيبر. [ينظر: البخاري مع الفتح، كتاب المغازي: باب غزوة ذات الرقاع، وزاد المعاد ٣/٢٥٣، والبدایة والنهاية ٤/٨٣، وفتح الباري ٧/٤١٩].

وبذلك تكون صلاة عسفان أول صلاة وقعت لأنها في غزوة الحديبية، كما سبق بيانه.

وما ذهب إليه البخاري ومن تبعه متعين لما يلي:

أولاً: ورد في صحيح البخاري أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه شهد غزوة ذات الرقاع:

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ، بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَتَقَبَّتْ أَقْدَامُنَا (أي رقت جلودها ونفطت من المشي)، وَتَقَبَّتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلْفُ عَلَى أَرْجُلِنَا الْحِرْقَ، فَسُمِّتْ غَزْوَةُ ذَاتِ الرَّقَاعِ؛ لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنَ الْحِرْقِ عَلَى أَرْجُلِنَا.

وَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ

عَمَلِهِ أَفْشَاءً. [البخاري في المغازي (٤١٢٨)].

وقد جاء في حديث آخر أن أبا موسى رضي الله عنه لم يصحب النبي ﷺ إلا بعد فتح خيبر ونصه:

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَفْتَحَ خَيْبَرَ، فَقَسَمَ لَنَا وَلَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدٍ لَمْ يَشْهَدْ

الْفَتْحَ غَيْرَنَا. [البخاري في المغازي (٤١٣٣)].

وإذا كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قد شهد الغزوة كما في الحديث الأول، ولم يلق النبي ﷺ إلا بعد فتح خيبر كما في الحديث الثاني، فيلزم من ذلك تأخر غزوة ذات الرقاع عن خيبر، وإذا كانت بعد خيبر فهي بعد الحديبية من باب أولى.

ثانيًا: جاء في حديث عند أبي داود أن أبا هريرة رضي الله عنه شهد هذه الغزوة:  
عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: هَلْ صَلَّيْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: نَعَمْ، قَالَ مَرْوَانُ: مَتَى؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عَامَ غَزْوَةِ نَجْدٍ... ثم ذكر صفة صلاتهم.  
[أبو داود في الصلاة (١٢٤٠)، والنسائي في صلاة الخوف (١٥٤٣)، ومسنند أحمد ١٤/ ١٢ رقم ٨٢٦٠، وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: صحيح].

وأخرجه أبو داود من وجه آخر، وصرح فيه باسم الغزوة.  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى نَجْدٍ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرَّقَاعِ مِنْ نَحْلِ لَقِيَّ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ. [أبو داود في الصلاة (١٢٤١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].  
فهذان الحديثان أفادا أن أبا هريرة رضي الله عنه شهد غزوة ذات الرقاع مع النبي ﷺ، وأبو هريرة رضي الله عنه لم يصحب النبي ﷺ إلا بعد فتح خيبر كما في الحديث الآتي:

عَنْ خُثَيْمٍ - يَعْنِي ابْنَ عِرَازٍ - عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي رَهْطٍ مِنْ قَوْمِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بِخَيْبَرٍ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ سِبَاعُ بْنُ عَرْظَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي الرِّكْعَةِ الْأُولَى بِـ ﴿كَهَيْعَةٍ﴾ [مريم]، وَفِي الثَّانِيَةِ ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين]، قَالَ: فَقُلْتُ لِنَفْسِي: وَيْلٌ لِفُلَانٍ إِذَا اكْتَالَ أَكْتَالَ بِالْوَافِي، وَإِذَا كَالَ كَالَ بِالنَّاقِصِ، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّى زَوَدَنَا شَيْئًا حَتَّى أَتَيْنَا خَيْبَرَ، وَقَدْ افْتَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ، قَالَ: فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ فَأَشْرَكُونَا فِي سِهَامِهِمْ.

[مسنند أحمد ١٤/ ٢٢٦-٢٢٧ رقم ٨٥٥٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وإذا تقرر أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يلق النبي ﷺ إلا بعد فتح خيبر كما أفاد هذا الحديث، وقد شهد غزوة ذات الرقاع كما في الحديثين السابقين، فشهوده لها دليل ظاهر على تأخرها عن الحديبية وخيبر.  
ثالثًا: قال البخاري: قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَجَاءٍ: أَخْبَرَنَا عِمْرَانُ الْقَطَّانُ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فِي الْخَوْفِ فِي غَزْوَةِ السَّابِعَةِ غَزْوَةَ ذَاتِ الرَّقَاعِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الْخَوْفَ بِذِي قَرْدٍ. [البخاري في المغازي (٤١٢٥)].

هذا الحديث أورده البخاري معلقًا لكن بصيغة الجزم، وقد وصله أبو العباس السراج في مسنده وسمويه في فوائده. [ذكر ذلك ابن حجر: هدي الساري: ٥٢، وفتح الباري ٧/ ٤١٩].

قال ابن حجر في معرض كلامه على الحديث: «في التَّنْصِصِ عَلَى أَنَّهَا سَابِعُ غَزْوَةٍ مِنْ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ تَأْيِيدًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْبُحَارِيُّ مِنْ أَنَّهَا بَعْدَ خَيْبَرَ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْغَزَوَاتُ الَّتِي خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا بِنَفْسِهِ مُطْلَقًا وَإِنْ لَمْ يُقَاتَلْ، فَإِنَّ السَّابِعَةَ مِنْهَا تَفَعُّ قَبْلَ أَحَدٍ، وَلَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ إِلَى أَنَّ ذَاتَ الرِّقَاعِ قَبْلَ أَحَدٍ إِلَّا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَرُدُّدِ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ تَكُونَ ذَاتَ الرِّقَاعِ بَعْدَ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ الْغَزَوَاتُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْقِتَالُ، وَالْأُولَى مِنْهَا بَدْرٌ، وَالثَّانِيَةُ أَحُدٌ، وَالثَّلَاثَةُ الْخَنْدَقُ، وَالرَّابِعَةُ قُرَيْظَةُ، وَالْخَامِسَةُ الْمُرَيْسِيعُ، وَالسَّادِسَةُ خَيْبَرُ، فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ تَكُونَ ذَاتَ الرِّقَاعِ بَعْدَ خَيْبَرَ لِلتَّنْصِصِ عَلَى أَنَّهَا السَّابِعَةُ، فَالْمُرَادُ تَارِيخُ الْوُقُوعَةِ لَا عَدَدُ الْمَغَازِي، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ أَقْرَبُ إِلَى إِرَادَةِ السَّنَةِ مِنَ الْعِبَارَةِ الَّتِي وَقَعَتْ عِنْدَ أَحْمَدَ بِلَفْظِ «وَكَانَتْ صَلَاةُ الْخَوْفِ فِي السَّابِعَةِ»، فَإِنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ فِي الْغَزْوَةِ السَّابِعَةِ، كَمَا يَصِحُّ فِي غَزْوَةِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ». [فتح الباري ٧/٤١٩].

قلت: قد وقع عند أحمد التصريح بالسنة عن جابر ؓ ونصه: «غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّ مَرَارٍ قَبْلَ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَكَانَتْ صَلَاةُ الْخَوْفِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ». [مسند أحمد ٢٣/٨٠ رقم ١٤٧٥١، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة].

وقد تبين لنا من قصة أبي موسى الأشعري وأبي هريرة ؓ ومن جابر بن عبد الله ؓ رجحان القول بتأخر غزوة ذات الرقاع عن غزوة الحديبية، فتكون صلاة الخوف في غزوة الحديبية أول صلاة وقعت.

وقد قال بعضهم إن غزوة ذات الرقاع وقعت أكثر من مرة، وأن التي صليت فيها صلاة الخوف غير التي شهدها أبو موسى ؓ. [فتح الباري ٧/٤١٧، ٤١٩].

وهذا القول مردود لشهود أبي هريرة ؓ غزوة ذات الرقاع، وقد ذكر أنه صلى مع النبي ﷺ صلاة الخوف فيها، وإنما صحب النبي ﷺ بعد فتح خيبر كما سبق بيانه.

وقد رد ابن القيم ؒ القول بتعدد الغزوة: فقد أورد حديث أبي موسى وأبي هريرة ؓ ثم قال: «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ بَعْدَ خَيْبَرَ، وَأَنَّ مَنْ جَعَلَهَا قَبْلَ الْخَنْدَقِ فَقَدْ وَهَمَ وَهَمًا ظَاهِرًا، وَلَسَا لَمْ يَفْطَنَ بَعْضُهُمْ هَذَا ادَّعَى أَنَّ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ كَانَتْ مَرَّتَيْنِ، فَمَرَّةً قَبْلَ الْخَنْدَقِ، وَمَرَّةً بَعْدَهَا، عَلَى عَادَتِهِمْ فِي تَعْدِيدِ الْوُقُوعِ إِذَا اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهَا أَوْ تَارِيخُهَا.

وَلَوْ صَحَّ لِهَذَا الْقَائِلِ مَا ذَكَرَهُ - وَلَا يَصِحُّ - لَمْ يُمَكِّنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةُ الْخَوْفِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى لَسَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ عُسْفَانَ، وَكَوْنِهَا بَعْدَ الْخَنْدَقِ، وَهُمْ أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا بِأَنْ تَأْخِيرَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ جَائِزٌ غَيْرُ مَسْنُوحٍ، وَأَنَّ فِي حَالِ الْمُسَافَةِ يَجُوزُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ إِلَى أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنْ فِعْلِهَا، وَهَذَا أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ ؒ وَغَيْرِهِ، لَكِنْ لَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي قِصَّةِ عُسْفَانَ أَنَّ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا لِلْخَوْفِ بِهَا، وَأَنَّهَا بَعْدَ الْخَنْدَقِ.



فَالصَّوَابُ تَحْوِيلُ غَزْوَةِ ذَاتِ الرَّقَاعِ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى مَا بَعْدَ الْحَنْدَقِ، بَلْ بَعْدَ خَيْبَرَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاَهَا هَا هُنَا تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الْمَغَازِي وَالسَّرِّ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَنَا وَهُمْهُمْ. وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. [زاد المعاد لابن القيم ٢٥٢/٣].

قلت: جزم ابن القيم رحمه الله هنا أن أول صلاة صلاها النبي ﷺ للخوف هي صلاة عسفان، وكأنه اعتمد في ذلك على ما في حديث أبي عياش من أن آية صلاة الخوف نزلت في شأن صلاة عسفان، وهو دليل ظاهر، وصلاة عسفان هذه وقعت في غزوة الحديبية كما سبق بيانه.

[مرويات غزوة الحديبية للحكمي ١٢٩-١٦٢].

### ١٣ - أهمية الصلاة جماعة:

يقول د/ الزيد: «في صلاة الرسول ﷺ صلاة الخوف دلالة على أهمية الصلاة وأهمية الصلاة جماعة حيث حافظ الرسول ﷺ على الجماعة حتى في ظروف الحرب والخوف من الأعداء، ولم يأذن الرسول ﷺ للمسلمين أن يصلوا فرادي في أمكتهم، وقد تهاون المسلمون كثيرًا في عصرنا الحاضر في صلاة الجماعة في المسجد، ولو عرف المسلم سيرة سلفنا الصالح في المحافظة عليها وعظم الأجر المترتب على هذه العبادة لحافظ عليها». [فتحة السيرة للزيد ٥٣٤-٥٣٥، وقد سبق تفصيله في غزوة ذات الرقاع].

### ١٤ - مشروعية الصلاة في الرحال:

أوردنا الروايات التي جاءت في صلاة المسلمين في رحالهم في الحديبية؛ نتيجة المطر الذي نزل عليهم بها، ويقول الشيخ السيد سابق تحت عنوان «أعذار التخلف عن الجماعة»:

٢-١: البرد والمطر: فعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ نَادَى بِالصَّلَاةِ فِي لَيْلَةٍ ذَاتِ بَرْدٍ وَرِيحٍ وَمَطَرٍ، فَقَالَ فِي آخِرِ نِدَائِهِ: أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، أَلَا صَلُّوا فِي الرِّحَالِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُ الْمُؤَذِّنَ إِذَا كَانَتْ لَيْلَةٌ بَارِدَةٌ أَوْ ذَاتُ مَطَرٍ فِي السَّفَرِ أَنْ يَقُولَ: أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ. رواه الشيخان.

[البخاري في الأذان (٦٦٦)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٧)، واللفظ له].

وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَمَطَرْنَا، فَقَالَ: «لِيُصَلِّ مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ فِي رَحْلِهِ (أي في منزله)». رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي. [مسلم في صلاة المسافرين (٦٩٨)، وأبو داود في

الصلاة (١٠٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤٠٩)، ومسنده أحمد (٣/٣١٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ لِمُؤَذِّنِهِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ: «إِذَا قُلْتَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَلَا تَقُلْ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قُلْ: صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ، فَكَانَ النَّاسُ اسْتَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَتَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَدْ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، النَّبِيُّ ﷺ، إِنَّ الْجَمَاعَةَ عَزَمَةٌ (يقال: هذا عَزَمَةٌ من عَزَمَاتِ الله: حقٌّ من حقوقه)، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُخْرِجَكُمْ، فَتَمَشُّونَ فِي الطِّينِ وَالِدَحْضِ (الطين المبلل والزَّلَق)».

ومسلم: أن ابن عباس رضي الله عنه أمر مؤذنه في يوم جمعه، في يوم مطير.

[البخاري في الجمعة (٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٩٩)].

ومثل البرد الحر الشديد، والظلمة، والخوف من ظالم، قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن التخلف عن الجماعة في شدة المطر، والظلمة، والريح، وما أشبه ذلك مباح. [فقه السنة لسابق ١/ ٢٧٩].

### ١٥ - التيسير على الناس:

يقول د/ العوا: «من معالم الإسلام التي لا يحفلها عارف بأحكامه: التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، وهو معلّم قرره القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، حتى قال العلماء: إن نفي الحرج من ثوابت الإسلام التي تميز شريعته وفقهه.

وقد تجلّت في قصة الحديبية صور من تطبيق الرسول ﷺ لهذا المعلّم الزكي من معالم الإسلام، يتعلم الواقف عليها خطة رشد في الدعوة والتربية تحبب المسلمين في دينهم، وتقرب إليهم الالتزام به، لقد سمعت من بعض تلامذة المدارس في مصر أن المدرس - أو المدرسة - يضرب التلميذ الذي صلى الفريضة وحده قبل أن تُقام الجماعة في مصلى مدرسته، إما لأنه ظن أن الجماعة سبقته، أو لأنه كان متعجلاً ليدرك درساً بدأ أو أوشك على البدء، ولو أن هؤلاء المرين تأملوا فيما صح وثبت عن رسول الله ﷺ من التيسير على الناس، وهو كثير متوافر في الكتب والمرويات النبوية، حتى وُصف ﷺ بأنه: «ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه». [متفق عليه من حديث السيدة عائشة، وهو في البخاري برقم ٣٥٦٠، ٦٧٨٦، وفي مسلم برقم ٢٣٢٧] بلفظ مختلف.

أقول: لو أنهم تأملوا في ذلك لتغير منهجهم في تربية البنين والبنات وتوجيههم، لا سيما فيما يتصل بالدين نفسه الذي مبنى أحكامه كلها على التيسير ورفع الحرج.

في رحلة عمرة الحديبية أصاب الناس مطر «لَمْ تَبَلَّ أَسَافِلُ نَعَالِنَا» - كما وصفه الراوي - فنادى منادي رسول الله ﷺ أن «صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ» [ابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٣٦)]، وقال الشيخ الألباني: صحيح، والصلاة في الرحال تعني أن يصلي الناس فرادى، وألا يلتزموا بإقامة الجماعة الواجبة أصلاً في كل صلاة، ووصف المطر بأنه لم تبل منه أسافل النعال يعني أنه كان مطراً خفيفاً لا يؤدي، ولا تتحول التربة الرملية بسببه إلى تربة طينية يصعب الخوض فيها، ولا تبتل منه الملابس بللاً يزعج مرتديها، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أمرهم - تخفيفاً عليهم وتعليماً لهم - أن يصلوا في الرحال، وينبغي للمتفقه أن يستحضر هذا الحديث النبوي كلما نظر في كتب المذاهب فوجد بعضها يشترط أن يكون من أثر المطر طين يصعب السير فيه، وبعضها يمنع

استعمال عذر المطر في صلاتي الظهر والعصر (أي يمنع الجمع بينهما بسبب المطر)، وبعضها يمنع الصلاة في البيت لمن كان يسكن قريباً من المسجد، أو غير ذلك من الشروط التي لم ترد بها سنة صحيحة تفيد التضييق من الرخصة كما قررها رسول الله ﷺ.

ومر رسول الله ﷺ بكعب بن عجرة ؓ، وقد أصابته هوام رأسه - وكان غزير الشعر وأصابته حشرات كالقمل ونحوه - وكان كعب ؓ محرمًا، فسأله رسول الله ﷺ: «أَبُو ذِيكُ هَؤُلَاءِ هَذِهِ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلُقْ رَأْسَكَ وَأَطْعِمْ قَرَقًا (مكيال يسع ستة عشر رطلاً) بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ - وَالْفَرْقُ ثَلَاثَةُ أَصْعٍ، أَوْ صُمُّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ أَنْتُكَ نَسِيكَةٌ». قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ: «أَوْ أَذْبَحْ شَاةً». [مسلم في الحج (١٢٠١)].

فكان التيسير على هذا المريض من رسول الله ﷺ موافقاً لحكم الله الأزلي، الذي نزل به القرآن الكريم؛ ليكون تخفيفاً دائماً وتيسيراً مستمراً على الناس كافة إلى يوم القيامة، لا على كعب بن عجرة ؓ وحده، وأخذاً بمبدأ التيسير ورفع الحرج قاس الفقهاء غير المعذور (في حلق رأسه وهو محرم) على المعذور، ولم يوجبوا عليه إلا الفدية التي أوجبها القرآن الكريم على ذي العذر.

وفي قصة كعب بن عجرة ؓ، ونزول القرآن بشأنه دليل للقاعدة الأصولية: «تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز».

ورخص رسول الله ﷺ - في رحلة الحديبية - لأصحابه وهم محرمون أن يأكلوا من صيد البر الذي لم يصدّه مُحْرَمٌ، ولم يصدّه صائد لأجل إطعامه هؤلاء المحرمين، بل أكل ﷺ هو نفسه من لحم حمار وحشي صاده أبو قتادة - ولم يكن محرمًا - وأهدى عضده إلى الرسول ﷺ فأكل منها.

[متفق عليه من حديث قتادة، البخاري برقم (١٨٢١، ١٨٢٢، ٢٨٥٤)، ومسلم برقم (١١٩٦)].

وأنزل الله ﷻ حكم صلاة الخوف في الحديبية تخفيفاً على المسلمين الذين واجهتهم خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد، فبعد أن صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الظهر ندم المشركون أنهم لم يميلوا على المسلمين في أثناء الصلاة فبنالوا منهم ويصيبوهم، فقال لهم خالد بن الوليد: «قد كانوا على غرة (أي مشغولين بالصلاة) لو حملنا عليهم أصبنا منهم، ولكن تأتي الساعة صلاة أخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم»، فنزل جبريل عليه السلام بين صلاتي الظهر والعصر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة

العصر، صلاة خوف، فقال المشركون: «لقد أخبروا بما أردنا!». [تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط الثانية ١٩٧٢م، ج ٩ ص ١٥٦].  
قال الإمام القرطبي: «وهذا كان سبب إسلام خالد رضي الله عنه».

[الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط دار الكتب المصرية، ج ٥ ص ٣٦٤].

لقد أراد خالد أن يتحين وقت صلاة العصر - التي وصفها بأنها أحب إلى المسلمين من أنفسهم وأبنائهم - ليهاجم المسلمين على غرة، لكن الله تعالى حال بين نبيه وأصحابه وبين المشركين فلم ينالوا منهم، وخفف عليهم في صلاتهم، فكانت الحديبية كلها مغمورة بمظاهر التيسير الإسلامي من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وكفى بذلك خيراً يوجب علينا أن نتذكر معالمها وآياتها. [الحديبية للعوا ٥٦-٦١].

#### ١٦ - حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

يقول د/ الحكمي: «جاء في حديث المسور ومروان: أن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه كان قائماً على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه السيف.

قال ابن القيم: «في قيام المغيرة بن شعبه رضي الله عنه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف، ولم يكن عادته أن يُقام على رأسه، وهو قاعد، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفرح، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمّه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «من أحب [سره] أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار». [أبو داود في الأدب (٥٢٢٩)، والترمذي في الأدب (٢٧٥٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

كما أن الفخر والخيلة في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره. [زاد المعاد ٣/ ٣٠٤].  
قلت: نعم الحديث الذي أورده ابن القيم لا يعني هذا النوع من القيام، إنما ينهى عن القيام للشخص، أما النوع الذي فعله المغيرة فهو القيام على الشخص، وقد ورد فيه نهى بخصوصه، كما في حديث جابر الآتي.

وقد أوضح الفرق بينهم ابن القيم نفسه في تهذيب السنن حين تعقب المنذري: فقد ذكر أبو داود حديث معاوية رضي الله عنه: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

[أبو داود في الأدب (٥٢٢٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصا، فقمنا إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعظم بعضهم بعضاً». [أبو داود في الأدب (٥٢٣٠)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف لكن النهي عن فعل فارس في مسلم، ومسند أحمد ٣٦/ ٥١٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً لضعف رواته واضطرابه].

وذكر المنذري عقب هذين الحديثين حديث مسلم، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّيْنَا وَرَأَاهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَأَانَا قِيَامًا، فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا، فَصَلَّيْنَا بِصَلَاتِهِ قُعُودًا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «إِنْ كِدْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسٍ وَالرُّومِ، يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ، فَلَا تَفْعَلُوا، انْتُمُوا بِأَيْمَتِكُمْ، إِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا». [مسلم في الصلاة (٤١٣)].

والمنذري أورد هذا الحديث عقب الحديثين السابقين لتقويتها، وكأنه يرى أن مدلولهما واحد، فتعقبه ابن القيم بقوله: «وَحُلَّ أَحَادِيثُ النَّهْيِ عَنِ الْقِيَامِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ مُتَمَتِّعٌ، فَإِنَّ سِيَاقَهَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْهَى عَنِ الْقِيَامِ لَهُ إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِمْ؛ وَلَئِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ هَذَا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فِعْلِ فَارِسٍ وَالرُّومِ؛ وَلَئِنَّ هَذَا لَا يُقَالُ لَهُ: قِيَامٌ لِلرَّجُلِ، إِنَّمَا هُوَ قِيَامٌ عَلَيْهِ، فَفَرَّقَ بَيْنَ الْقِيَامِ لِلشَّخْصِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَالْقِيَامِ عَلَيْهِ: الْمُسَبَّحُ لِفِعْلِ فَارِسٍ وَالرُّومِ، وَالْقِيَامُ إِلَيْهِ عِنْدَ قُدُومِهِ الَّذِي هُوَ سُنَّةُ الْعَرَبِ، وَأَحَادِيثُ الْجَوَازِ تَدُلُّ عَلَيْهِ فَقَطُّ». [مهذب السنن ٨/ ٩٢-٩٣ مع مختصر سنن أبي داود للمنذري].

فمن خلال كلام ابن القيم هذا يظهر لنا الفرق بين القيام للشخص الذي ورد فيه حديث معاوية، والقيام على الشخص الذي فعله المغيرة، وقد ورد بخصوصه حديث جابر السابق، وقد علق عليه النووي بقوله: «وفيه النهي عن قيام الغلمان والتباع على رأس متبوعهم الجالس لغير حاجة».

[شرح النووي على مسلم ٤/ ١٣٥].

وقد ساق ابن حجر كلام ابن القيم في التفريق بين أنواع القيام ثم عقب عليه بقوله: «وَوَرَدَ فِي خُصُوصِ الْقِيَامِ عَلَى رَأْسِ الْكَبِيرِ الْجَالِسِ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِأَنَّهُمْ عَظَّمُوا مُلُوكَهُمْ بِأَن قَامُوا وَهُمْ قُعُودٌ».

[فتح الباري ١١/ ٥١، ذكره الهيثمي في المجمع ٨/ ٤٠، وقال: فيه الحسن بن قتيبة وهو متروك].

فالْحَاصِلُ: أن نوع القيام الذي فعله المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهى عنه، والمرخص فيه منه ما كان في مثل تلك الحالة التي فعلها فيها المغيرة، وهي حال قدوم رسل العدو، ليروا مدى طاعة المسلمين لإمامهم وحمايتهم له، وأحسب ابن القيم رحمته الله لا يريد أكثر من هذا المعنى، لأنه قاسه على إظهار الخيلاء والفخر في الحرب، ومعلوم النهي عنهما في غير هذا الموطن، والله أعلم. [مرويات الحديبية للحكمي ٥٣٩-٥٤١].

ويقول د/ البوطي: «لقد علمت مما سبق أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، كان واقفاً على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، وكلما أهوى عروة بن مسعود بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف، قائلاً: أَكْفَفُ يَدَكَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

وقد كنا ذكرنا فيما مضى عند الحديث عن غزوة بنى قريظة - أنه لا يشرع القيام على رأس أحد وهو قاعد، وأن ذلك من مظاهر التعظيم الذي تعافه الأعاجم فيما بينهم وأنكره الإسلام، وإنما التمثل الذي

نهى عنه الرسول ﷺ في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» فكيف كان الأمر على خلاف ذلك هنا؟

والجواب: أنه يُستثنى من عموم المنع، مثل هذه الحالة بخصوصها، أي في حالة قدوم رسل العدو إلى الإمام أو الخليفة، فلا بأس حينئذ من قيام حرس أو جند على رأسه، إظهارًا للعزة الإسلامية، وتعظيمًا للإمام ووقاية له مما قد يفاجأ به من سوء. [ينظر: زاد المعاد لابن القيم ٢/ ١١٤].

أما في أعم الأحوال فلا يجوز ذلك لمخالفته مقتضى التوحيد والعقيدة الإسلامية، دون أي ضرورة إليه. ويشبه هذا، ما مر بيانه عند الحديث عن أبي دجانة في غزوة أحد فقد قلنا: إن كل ما يدل على التكبر والتجبر في المشي ممنوع شرعًا، ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله ﷺ عن مشية أبي دجانة: «إنها مشية يكرهاها الله إلا في هذا الموضع». [فقه السيرة للبوطي ٢٥٤].

ويقول ابن حجر: «فِيهِ جَوَازُ الْقِيَامِ عَلَى رَأْسِ الْأَمِيرِ بِالسَّيْفِ بِقَصْدِ الْحِرَاسَةِ وَنَحْوَهَا مِنْ تَرْهِيْبِ الْعَدُوِّ، وَلَا يُعَارِضُهُ النَّهْيُ عَنِ الْقِيَامِ عَلَى رَأْسِ الْجَالِسِ لِأَنَّ مَحَلَّهُ مَا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْعَظَمَةِ وَالْكَبَرِ». [فتح الباري ٥/ ٣٤٠].

ويقول الشيخ العثيمين: «فالقيام على الرجل منهي عنه اللهم إلا إذا دعت الحاجة لذلك كأن يخاف أن يعتدي عليه أحد، فلا بأس أن يقوم عليه القائم، وكذلك إذا قام عليه الرجل إكرامًا له في حال يقصد فيه إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة ؓ في صلح الحديبية». [شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ١/ ٢٦٠]. [فقه السيرة للزبد ٥٣٥-٥٣٦].

#### ١٧ - مَالُ الْمُشْرِكِ الْمُعَاهِدِ مَعْصُومٌ:

يقول ابن القيم: «وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَغِيرَةِ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ»، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَالَ الْمُشْرِكِ الْمُعَاهِدِ مَعْصُومٌ، وَأَنَّهُ لَا يُمْلِكُ، بَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَغِيرَةَ كَانَ قَدْ صَحِبَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ، ثُمَّ غَدَرَ بِهِمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، فَلَمْ يَتَعَرَّضْ النَّبِيُّ ﷺ لِأَمْوَالِهِمْ، وَلَا ذَبَّ عَنْهَا، وَلَا ضَمِنَهَا لَهُمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ إِسْلَامِ الْمَغِيرَةِ». [زاد المعاد ٣/ ٣٠٤-٣٠٥].

#### ١٨ - احْتِمَالُ قِلَّةِ أَدَبِ رَسُولِ الْكُفَّارِ:

يقول ابن القيم: «وَمِنْهَا: احْتِمَالُ قِلَّةِ أَدَبِ رَسُولِ الْكُفَّارِ، وَجَهْلُهُ وَجَفَوْتُهُ، وَلَا يُقَابَلُ عَلَى ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، وَلَمْ يُقَابَلِ النَّبِيُّ ﷺ عُرْوَةً عَلَى أَخْذِهِ بِلَحْيَتِهِ وَقَتَّ خِطَابِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ عَادَةً الْعَرَبِ، لَكِنَّ الْوَقَارَ وَالْتَعَظِيمَ خِلَافُ ذَلِكَ».

وَكَذَلِكَ لَمْ يُقَابِلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولَ مُسَيْلِمَةَ حِينَ قَالَ: نَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَالَ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تَقْتُلُ لَقَتَلْتُكُمْ». [أبو داود في الجهاد (٢٧٦١)، ومسند أحمد ٢٥/٣٦٦ رقم ١٥٩٨٩، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح، وصححه الحاكم ١٤٣/٢، ووافقه الذهبي، وله شاهد عند أبي داود رقم ٢٧٦٢].

[زاد المعاد ٣/٣٠٥].

#### ١٩ - جَوَازُ التَّصْرِيحِ بِاسْمِ الْعَوْرَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ:

يقول ابن القيم: «وَفِي قَوْلِ الصَّدِّيقِ ﷺ لِعُرْوَةَ: «أَمُضُّ بِظُرِّ اللَّاتِ»، دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ التَّصْرِيحِ بِاسْمِ الْعَوْرَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ تَقْتَضِيهَا تِلْكَ الْحَالُ، كَمَا أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصْرَّحَ لِمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ أَهْلِهِ، وَيُقَالُ لَهُ: «اعْضُضْ أَيْرَ أَبِيكَ»، وَلَا يَكُنِّي لَهُ، فَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ». [زاد المعاد ٣/٣٠٥].

وقال ابن حجر: «وَفِيهِ جَوَازُ النُّطْقِ بِمَا يُسْتَبْسَعُ مِنَ الْأَلْفَاظِ لِإِرَادَةِ زَجْرٍ مَنْ بَدَأَ مِنْهُ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ ذَلِكَ». [فتح الباري ٥/٣٤٠].

وقال ابن عبد الوهاب: «قول أبي بكر ﷺ لعروة ليس من الفحش المذموم».

[بعض فوائد صلح الحديبية ص ٦].

#### ٢٠ - البيعة مشروعة:

يقول د/ أبو فارس: «ثبتت مشروعتها بكتاب ربنا حيث امتدح المبايعين وبشرهم بالفتح والرضوان، كما ثبتت بسنة نبينا محمد ﷺ العملية كما حدث في الحديبية إذ طلب الرسول ﷺ منهم البيعة وبايعهم فعلاً. هذا وهناك أحاديث كثيرة من السنة الفعلية والقولية تتحدث عن البيعة من حيث مشروعتها وحكم إعطائها والوفاء بها.

أما البيعة فمأخوذة من الفعل باع والمصدر بيع، والبيعة الصفقة وفي الاصطلاح إعطاء العهد من المبايع إلى الأمير على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر وتقويض الأمور إليه وعدم منازعته فيها. [ينظر: النظام السياسي في الإسلام للمؤلف د/ أبو فارس] ص ٢٩٩-٣٠٠].

والبيعة في هذا الدين واجبة لا يحل للإنسان أن يمتنع عنها، بل عليه أن يبايع الأمير الكفء، فإن لم يجد الأمير الذي يبايعه عليه أن يعمل لإيجاد الأمير الذي يستحق وإلا فهو آثم، قال رسول الله ﷺ: «... وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عَقْبِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». [مسلم في الإمارة (١٨٥١)].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٧].

ويقول د/ زيدان: «ذكرنا بيعة الرضوان وسببها، وعلى هذا يجوز لأمر الجماعة المسلمة، جماعة الدعوة، أن يطلب منهم مبايعته على أمر مشروع حتى يستوثق من عزمهم على القيام بمتطلبات هذا الأمر الذي

يريد البيعة من أجله، كما بايع المسلمون في الحديبية رسول الله ﷺ على مناجزة قريش إذا صح ما بلغه عنهم أنهم قتلوا عثمان بن عفان ؓ عندما أرسله إلى مكة ليخبرهم بسبب محبي النبي ﷺ.

[المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٢ / ٣٦١].

## ٢١ - مشروعية بيعة النساء:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أخذ رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان بالحديبية من الرجال والنساء، فدل ذلك على جواز أخذ الحاكم البيعة من النساء.

فقد أخذها الرسول ﷺ من أم عمارة ومن غيرها في أكثر من موطن، إلا أن بيعة النساء تختلف عن بيعة الرجال، إن بيعة الرجال كلام مشفوع بالمصافحة، وبيعة النساء كلام فقط، جاء في ثلاثيات مسند الإمام أحمد وشرحه للسفاري رحمه الله عن أميمة بنت رقيقة قالت: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فلَقْنَنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ مِنَّا مِنْ أَنْفُسِنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَايَعْنَا، قَالَ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَرْأَةٍ قَوْلِي لِمَاءَةٍ أَمْرًا».

[فتاى صدر المكمذ وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ٢ / ٩٢٥].

قال السفاري رحمه الله في شرحه للحديث: «والمبايعة عبارة عن المعاهدة سميت بذلك تشبيها بالمعاوضة المالية، ومقصودها هنا بايعنا بيدك الشريفة، وتحصل لنا بركة ذلك».

ولذا كان مجيباً لسؤالها: «لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ». [المرجع السابق ٢ / ٩٢٧].

هذا وفي مشروعية بيعة النساء قال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِإِلَهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [١٢] [المتحنة]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٧-٩٨].

ويقول د/ العيساوي: «تبين لنا عند عرضنا لأحداث الحديبية كيف أن الرجال من الصحابة رضوان الله عليهم قد بايعوا الرسول ﷺ على الموت أو على ألا يفروا، وقد كانت صورة البيعة مصافحة الأيدي تعبيراً عن صدقهم ووفائهم وتأكيذاً للعهد». [مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٩].

ثم أخذ الرسول ﷺ البيعة من النساء بعد صلح الحديبية حيث كان يبايع من تهاجر إليه ولا يراجعها إلى مكة كما قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكَنَّ بِإِلَهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [١٢] [المتحنة].

ومنه نفهم مشروعية البيعة للنساء كما هي مشروعة للرجال، وقد كان ﷺ قد أخذ البيعة من النساء في العقبة الثالثة كما قالت أم عمارة ؓ: كانت الرجال تصفق على يدي الرسول ﷺ ليلة العقبة،



والعباس أخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم منيع نادى زوجي عربة بن عمرو: يا رسول الله، هاتان امرأتان معنا يبايعنك، فقال: «فقد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء».

[ينظر: الإصابة ٤ / ٤٧٩].

كما أنه بايعهن بالحديبية وفي فتح مكة المكرمة، وهذا يعني اشتراك المرأة مع الرجل على أساس المساواة التامة، في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم؛ ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل الوسائل المشروعة الممكنة، كما يأخذ العهد على ذلك من الرجال ليس بينها فرق ولا تفاوت. [فقه السيرة للبوطي ٤٢٠].

وإذا عرفنا أن بيعة الرجال كانت مصافحة بالأيدي، فهل أن بيعة النساء مصافحة بالأيدي كبيعة الرجال؟ لقد علمنا من خلال بيعة النبي ﷺ لمن في الحديبية صفة هذه البيعة، وأنها مشافهة بالكلام من غير مصافحة، وهذه الصديقة عائشة رضي الله عنها، تبين لنا صفة هذه البيعة، فقد قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقرن بذلك في قولهن، قال لمن: انطلقن، فقد بايعتكن، لا والله، ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء إلا بما أمره الله، يقول لمن إذا أخذ عليهن: قد بايعتكن كلاماً. [اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢ / ١٢٥-١٢٦].

وعائشة رضي الله عنها ليست وحدها التي روت أن رسول الله ﷺ لم يصافح امرأة مبايعة، بل غيرها أيضاً، فعن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: أتيت النبي ﷺ في نسوة من الأنصار تباعه، فقلنا: يا رسول الله، تباعك على ألا تشرك بالله شيئاً، ولا نزرق، ولا نأتي بهتاتن نفريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف قال: «فيا استطعتن وأطقتن»، قالت: قلنا الله ورسوله أرحم بنا، هلم تباعك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إني أقول لِمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة، أو مثل قولي لامرأة واحدة». [النسائي في البيعة (٤١٨١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وفي رواية عند أحمد والحاكم: «ولم يصافح رسول الله ﷺ منا امرأة».

[مسند أحمد ٤٤ / ٥٥٧ رقم ٢٧٠٧، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح].

وقد أكدت أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عدم المصافحة كذلك بقولها: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال لنا: «فيا استطعتن؟»، فقلنا: يا رسول الله، بايعنا، فقال ﷺ: «إني لا أصافحكن، إني أقول لِمائة امرأة كقولي لِمائة امرأة». [المطالب العالية ٢ / ٥٢، إتحاف الخيرة المهرة ١ / ١١].

وفي رواية: فقالت له أسماء: إلا تحسر لنا عن يدك يا رسول الله؟ فقال: «إِنِّي لَسْتُ أَصَافِحُ النِّسَاءَ».

[رواه أحمد والحميدي].

وكذلك ما ورد فيبيعة النساء في فتح مكة، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لعمر ﷺ: «بايعهن، واستغفر لهن رسول الله»، فبايعهن عمر ﷺ، وكان رسول الله ﷺ لا يصادح النساء، ولا يمس امرأة ولا تمسه إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه. [الحديث أورده الطبري عن ابن إسحاق ويسند متصل. ينظر: تاريخ الطبري ٣/ ٣١].  
ويؤيد ما مضى أن رسول الله ﷺ نهى عن مس المرأة الأجنبية، والمصافحة مس، فهي تدخل في النهي.  
فعن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ».

[رواه الطبراني والبيهقي، ينظر: الترغيب والترهيب ٣/ ٣٩، وصحيح الجامع الصغير ٢/ ٩٠٠ رقم ٥٠٤٥].

ففي هذا الحديث وعيد شديد لمن مس امرأة لا تحل له، وفي هذا دليل على تحريم مصافحة النساء؛ لأن ذلك مما يشمل المس دون شك. [ضوابط العلاقة بين المسلم والأجنبية ص ٢١].

قال الدكتور البوطي: ولا أعلم في ذلك خلافاً بين المسلمين، اللهم إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة كتطبيب وفصد وقلع ضرس ونحو ذلك، وليس من الضرورة شيوع العرف بمصافحة النساء كما يتوهم البعض، فليس للعرف سلطان في تغيير الأحكام الثابتة بالكتاب أو السنة، إلا الحكم كان قيامه من أصله بناء على عرف شائع، فإن تبدل ذلك العرف من شأنه أن يؤثر في تغيير ذلك الحكم، إذ هو في أصله حكم شرطي مرهون بحالة معينة. [فقه السيرة للبوطي ٤٢٨].

هذا وقد وردت روايات أخرى تروي لنا كيفية المبايعة، وأن فيها مبايعة باليد، ولكنها روايات ضعيفة لا يُحتج بها.

علماً بأن جمهور الفقهاء يحرم على الرجل مس امرأة لا تحل له [ينظر: مجمع الأنهر ٢/ ٥٤٠، حاشية ابن عابدين ٥/ ٢٣٥، وحاشية العدوي على الشرح الصغير ١/ ٩٩، ومغني المحتاج ٣/ ١٣٢، ومنار السبيل ٢/ ١٤٠، وكشف القناع ٥/ ١٤، واللمعة الدمشقية ٢/ ٣٧٢، والبحر الزخار ٤/ ٣٨٣]، باستثناء الحنفية والزيدية فإنهم قد ذهبوا إلى جواز مس ومصافحة المرأة العجوز التي لا تُستهى وهو شيخ كبير شرط أن يأمن على نفسه وعليها الفتنة.

[ينظر: الهداية ٢/ ١٨٧].

وبهذا نصل إلى نتيجة مفادها، حرمة مصافحة المرأة الأجنبية والله أعلم».

[فقه الغزوات للعيسوي ٣٦٤-٣٦٧].

## ٢٢ - الوفاء بالبيعة واجب:

يقول د/ أبو فارس: «إن البيعة التي أخذها رسول الله ﷺ واجبة الوفاء، والنكث بها حرام، قال تعالى: ﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، والبيعة التي أعطوها لرسول الله ﷺ عقد وعهد، والله ﷻ أوجب الوفاء بالعقد، فقال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، كما أوجب الوفاء بالعهد، قال ﷺ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُلٌ﴾ [الإسراء: ٣٤]. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٨].

## ٢٣ - جواز تكرار البيعة:

يقول د/ أبو فارس: «ونستطيع أن نستنبط هذا الحكم من سنة الرسول ﷺ، وهذا التكرار قد يكون في مجلس واحد، وقد تتعدد المرات وتكرر بتكرار المجالس وتعددتها.

فقد بايع سلمة بن الأكوع ﷺ رسول الله ﷺ ثلاث مرات في الحديبية: مرة في أول الناس، والثانية في أوسط الناس، والثالثة في آخر الناس.

كما بايع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بايع مرتين في هذه الغزوة: مرة قبل أبيه عمر رضي الله عنه، والثانية بعد بيعة أبيه عمر رضي الله عنه. [ينظر: تاريخ الطبري ٧٨/٢، وفتح الباري ٤٦٢/٨، والفتح الرباني ١٠٩/٢١].

وقد بايعت أم عماره رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية وبايعت في هذه الغزوة غزوة الحديبية، كما بايع غير واحد من الأنصار في بيعة العقبة الثانية وغزوة الحديبية». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٩٩-١٠٠].

## ٢٤ - فوائد ذكرها الإمام ابن القيم:

قال ابن القيم:

- وَفِي بَعْثِ الْبَدْنِ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ الْآخِرِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ إِظْهَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ لِرُسُلِ الْكُفَّارِ.
- وَمِنْهَا: طَهَارَةُ النُّخَامَةِ سَوَاءً كَانَتْ مِنْ رَأْسٍ أَوْ صَدْرٍ.
- وَمِنْهَا: طَهَارَةُ الْمَاءِ الْمُسْتَعْمَلِ.
- وَمِنْهَا: أَنَّ مَنْ حَلَفَ عَلَى فِعْلٍ شَيْءٍ أَوْ نَذَرَهُ أَوْ وَعَدَ غَيْرَهُ بِهِ وَلَمْ يُعِئْ وَقْتًا، لَا يَلْفُظُهُ، وَلَا يَنْتَهِ، لَمْ يَكُنْ عَلَى الْفَوْرِ، بَلْ عَلَى التَّرَاجِي.
- وَمِنْهَا: أَنَّ الْحِلَاقَ تُسَكُّ، وَأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَأَنَّهُ تُسَكُّ فِي الْعُمَرَةِ، كَمَا هُوَ تُسَكُّ فِي الْحَجِّ، وَأَنَّهُ تُسَكُّ فِي عُمَرَةِ الْمُحْصُورِ، كَمَا هُوَ تُسَكُّ فِي عُمَرَةِ غَيْرِهِ.
- وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُحْصَرَ يَنْحَرُ هَذِيهِ حَيْثُ أُحْصِرَ مِنَ الْحِلِّ أَوْ الْحَرَمِ، وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُوَاعِدَ مَنْ يَنْحَرُهُ فِي الْحَرَمِ إِذَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَحَلَّلُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَحَلِّهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَكُمْ فَانْصَرُوا إِلَيْهِمْ جَمْعًا﴾ [الفتح: ٢٥].

- وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي نَحَرَفِيهِ الْهَدْيَ كَانَ مِنَ الْحِلِّ لَا مِنَ الْحَرَمِ؛ لِأَنَّ الْحَرَمَ كُلُّهُ مُحِلُّ الْهَدْيِ.  
 - وَمِنْهَا: أَنَّ رَدَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَتَنَاوَلُ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مُسْلِمًا إِلَى غَيْرِ بَلَدِ الْإِمَامِ، وَأَنَّهُ  
 إِذَا جَاءَ إِلَى بَلَدِ الْإِمَامِ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّهُ بِدُونِ الطَّلَبِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُرَدَّ أَبَا بَصِيرٍ حِينَ جَاءَهُ، وَلَا أَكْرَهَهُ  
 عَلَى الرُّجُوعِ، وَلَكِنْ لَمَّا جَاؤُوا فِي طَلَبِهِ مَكَّنَهُمْ مِنْ أَخْذِهِ، وَلَمْ يُكْرِهْهُ عَلَى الرُّجُوعِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٣٠٨-٣٠٩].

## المبحث الرابع

### الدروس السياسية

#### ١ - تحليل بيئة الحديبية:

تقول د/ البيلي: « أثبتت العديد من الدراسات أن السبب الرئيس لتخلف الدول هو غياب أو ضعف التخطيط الاستراتيجي، وغياب الرؤية الوطنية التي تجسد الإطار الذي يحدد خط سير الأمة بأكملها مدفوعة بكل طاقاتها وإمكاناتها ومواردها وصولاً إلى تحقيق الأهداف الإستراتيجية.

ولما كان إدراك المصالح الوطنية للدول في ظل تعقيدات البيئة الدولية لا يمكن تحقيقه إلا لأصحاب المزايا والقدرات التنافسية، من هنا فإن امتلاك القوة الإستراتيجية، وتحديد المسار الإستراتيجي للدولة وبلورة الرؤى الإستراتيجية، تصبح مطالب ملحة لا غنى عنها لبناء المستقبل ومواجهة تحدياته.

إن الحديث عن التخطيط الإستراتيجي للدولة، يعني الالتفات نحو الأهداف الإستراتيجية والمسار الإستراتيجي، ومواجهة التحديات والمهددات، وتحديد الرؤى والأهداف على المدى البعيد، وهو ما يعبر عنه بـ «الإستراتيجية العليا للدولة».

وبطبيعة الحال، فإن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه من خلال الإدارة التقليدية للدولة، أو التخطيط قصير الأجل، الذي يلتفت نحو التفاصيل والمهموم الصغيرة.

إن الدولة الناجحة هي تلك التي تتفاعل بحيوية وديناميكية مع التغيرات والتعقيدات التي تحدث في البيئة الدولية.

وإدارة الدول أياً كان وضعها لا يمكن أن يتم بمعزل عما يدور في الساحة الدولية، بل إن تحقيق الأهداف الإستراتيجية في ظل البيئة الدولية المعقدة، يتطلب قراءة وتفاعلاً مستمراً، مع متغيرات ومستجدات تلك البيئة الدولية، الأمر الذي يعكس حجم التحدي الذي يواجه الحكومات والدول.

إن الناظر إلى تاريخ الدولة الإسلامية الأولى (دولة المدينة) وتطورها وسلوكها وممارستها وأولوياتها وتصرفاتها وتمدها، يجعلنا نؤكد أن الرسول ﷺ لم يركن إلى المدد الإلهي دون عمل، بل مارس التخطيط الإستراتيجي في كل عمله.

فالتاريخ يشير إلى أن الدولة الإسلامية امتدت إلى أوروبا ومشارف الصين، وبرزت إلى الوجود في حيز زماني ضيق، وعند التدقيق في مستوى الأداء، وتقاسم الأدوار وطريقة تحديد الأولويات وتوقيت المعارك والتكتيك الحربي والعلاقات الدولية، والتفاعل مع البيئة الدولية في ظل سيطرة قوتين عظيمتين هما الفرس والروم.

عند النظر لكل ذلك نجد أنه يؤكد أن الرسول ﷺ قد مارس التخطيط الاستراتيجي في وقت مبكر جداً، واتبعه في ذلك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ونجد أن الفتوحات الإسلامية تمت عبر إستراتيجية واضحة المعالم محددة الأولويات، هدفها الإستراتيجي الأعلى هو نشر الدعوة الإسلامية وتوفير المناخ الملائم لنشرها.

«لم يكن رسول الله ﷺ اتكاليًا، بل كان متوكلاً على الله، يأخذ بالأسباب ويسعى إلى ما هو موكل به، كان على يقين من أن النصر بيد الله يؤتیه من يشاء، وكان على علم بأن السعي أمر متعلق بالتأج، ففي سبيل الرسالة، كان هدفه ﷺ نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها.

بعد أن اشتد إيذاء قريش للمسلمين قرر ﷺ تكوين قاعدة مصونة للانطلاق منها وتبليغ دعوة الإسلام، وظل ﷺ يجتمع مع القبائل يعرض عليهم الأمر عامًا بعد عام، إلى أن وافق وفد الأوس والخزرج، فكانت المدينة المنورة - يثرب آنذاك - هي الخيار.

ما إن تمكن رسول الله ﷺ من الهجرة إلى المدينة في جو من الترقب والحذر، حتى بدأ ينزع الغل من الصدور، ويرفع الإصرار عن النفوس، فأخى بين الأنصار والمهاجرين، وصاغ دستوراً شاملاً ومؤقناً لأهل المدينة ومن حولها من الأعراب، تمثل هذا الدستور في الصحيفة التي حددت الحقوق والواجبات لكل من يسكن المدينة، فكانت أول دستور في تاريخ البشرية.

بعد أن اطمأن الرسول ﷺ على الوحدة الوطنية، والقضية الإيانية عمداً إلى تحديد خطواته الإستراتيجية التالية.

بدأ ﷺ بالتعرض لطرق التجارة القرشية؛ كي يمارس ضغطاً على قريش، حتى تفرج عن أموال المسلمين بمكة، فكانت معركة بدر الكبرى.

كانت غزوة بدر إرادة «قرشية»، لحماية التجارة بين الشام ومكة، كما أرادت من خلالها تأكيد هيبتها بين القبائل العربية، لكن قريشاً نظرت من زاوية النصر، ولم تعمل حساباً للهزيمة، فجاءت النتيجة مخالفة لكل التوقعات التي اعتقدت، ومحبطة لكافة المخططات التي رسمت «لأن من آمن الهزيمة، رمته صاعقة الهزيمة».

فوجئت قريش بهزيمة لم تكن في الحسبان، فلم يعد أمامها من خيار، إلا استئصال الدعوة الإسلامية من جذورها، فأعدت لغزوة أُحد، لكن قريشاً لم تتمكن من تحقيق أهدافها فعادت بنصر مزيف، وما علمت أن النصر هو في تحقيق الأهداف العسكرية (والإستراتيجية).

لقد ظل طريق التجارة مهدداً، والدعوة الإسلامية تزداد نمواً، ونجح المسلمون في إعادة النظام إلى صفوفهم بعد أُحد، وتخلصوا من يهود بني النضير، وبذلك قوي مركز المدينة قاعدتهم الأمنية.

قررت قريش أن تشن حرباً شاملة ضد المسلمين، وكان لابد من تجميع قوى قريش والقبائل الأخرى واليهود في صعيد واحد للقضاء على المسلمين، إذ أصبح المسلمون بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم بدون حشد كافة القوى المادية والمعنوية، وفعلًا قام المتورون من يهود بني النضير بمهمة تجميع قوات المشركين واليهود حول المدينة، ونجحوا في حشد أكبر قوة معادية للمسلمين، متفوقة عليهم؛ للقضاء على الدين الجديد، حيث استطاعوا أن يحشدوا عشرة آلاف رجل، منهم أربعة آلاف من قريش، وستة آلاف من بني سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان، عدا قوات يهود بني قريظة، بينما كانت قوات المسلمين حينذاك ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول ﷺ.

لقد شارك في هذه الغزوة العديد من القبائل العربية، واليهود، وكافة المنتفعين من التجارة الدولية بين الشام ومكة.

واجه المسلمون الأحزاب بتكتيك جديد لم تعهده الجزيرة العربية، وهو حفر الخندق، الذي يمثل مانعاً من أعظم الموانع الدفاعية، حيث استطاعوا به صد هجوم المشركين، وهُزمت الأحزاب أمام الصمود الإسلامي، فكانت هزيمة نكراء، ونكسة خطيرة للأحزاب، أحدثت تحولاً خطيراً في موازين القوى في الجزيرة العربية». [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٨٣-١٨٤].

وبتحليل هذه النتيجة يمكن التوصل للنتائج الآتية:

١- أن معنى إخفاق الأحزاب واليهود بعد هذا التجمع الهائل، أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى، وأنهم لن يستطيعوا القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين.

٢- انتقال المسلمين من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت فيه غزوة الأحزاب؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠، ٤١١)، ومسند أحمد ٣٠/٢٤٠-٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥ رقم ٢٧٢٠٦].

وفي هذه العبارة دلالة أخرى، وهي إدراك الرسول ﷺ لقوته، وهذا عامل مهم، إذ يدخل في تحديد قوة الدولة عامل كيفية تقييم الدولة لهذه القوة، وتقييم الدول الأخرى لها.

٣- يظهر من خلال نتيجة غزوة الأحزاب تفوق المسلمين: درجة الاستعداد العسكري، وارتفاع الروح المعنوية السائدة لدى المسلمين، فمعنى تفوق (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف مقاتل على عشرة آلاف بالرغم من عدتهم وعتادهم يعني قمة التفوق للمقاتل المسلم.

٤- ومما يُظهر مستوى الكفاءة القتالية المتقدم الذي وصل إليه المسلمون:

أ- استخدام تكتيك جديد لم تشهده الجزيرة العربية ولم تعرفه العرب من قبل.

ب- استخدام أحد أسلحة الحرب النفسية، وهي الإشاعة؛ لتفريق الأحزاب، والذي يدل على تقدم الأساليب القتالية لدى المسلمين.

«لقد كان وراء فكرة الأحزاب، اليهودُ الحاقدون على النبي ﷺ بعد أن أجلاهم عن المدينة من قبل، فأرادوا هدم الكيان الإسلامي، فوضعوا خطة الغزو الشامل للمدينة المنورة، بحيث يشترك فيه أكبر عدد من القبائل العربية القوية، وخاصة قبائل نجد وكنانة وقريش، وتولى اليهود الدعوة إلى هذا الغزو، كما تحملوا جانباً كبيراً من نفقاته المالية، وكونوا وفدًا خامساً غادر خيبر في شعبان في السنة الرابعة للهجرة، فطاف بمكة المكرمة، وبعض القبائل العربية.

أراد ﷺ أن يأمن غدر اليهود، فعندما علم بعزم سلام بن أبي الحقيق على تأليب القبائل من جديد بعث إليه بمن يقتله، وتمكن منه عبد الله بن أبي عتيك ؓ قائد الفدائيين الخمسة. ولما تولى أسيد بن زارم مُلك خيبر خلفاً لسلام بن أبي الحقيق، أقسم أن سيشن حملة أحزاب جديدة، فسار إلى غطفان، فبعث إليه رسول الله ﷺ بكتيبة من المسلمين برئاسة عبد الله بن رواحة ؓ لتنذره بالتخلي عن نواياه السيئة وحشد الحشود، ولما حاول الغدر بالمسلمين تنبه له رئيس الوفد المفاوض عبد الله بن أنيس ؓ وقتل أسيداً ومن معه لم يفلت منهم إلا واحد.

وهكذا أمن رسول الله ﷺ من غدر اليهود والذين تمرسوا على المؤمرات، لكن الأعمال الفدائية هي التي أوقعت في قلوبهم الرعب، فكفوا عن غدرهم.

حينئذ قرر النبي ﷺ أن يؤمّن الجبهة الشرقية، حيث القبائل في نجد وعلى رأسها غطفان، التي تمثل مجموعات من المرتزقة تغريهم اليهود بالمال وبشار خيبر، فأعد لها خطة تتلاءم مع «طوبوغرافية» الصحراء وأسلوب الكر والفر القتالي، فكانت الخطة الاستراتيجية مبنية على الحملات العسكرية السريعة؛ لإنهاك القبائل، وبث الفرع بين أفرادها، وتمزيق صفوفها، وتشيت شملها كلما اجتمع للعدوان.

لهذا قام ﷺ بتجريد عشرين حملة عسكرية صغيرة وسريعة، استطاعت أن تُحدث شللاً في الجبهة الشرقية المعادية. [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٨٥-١٨٦].

بعد أن اطمأن المسلمون إلى الجبهة الشرقية أرادوا تأمين الجبهة الجنوبية التي تتزعمها قريش، فكان تحركه ﷺ إلى مكة بهدف معلن وهو أداء العمرة، وهدف خفي: وهو تحييد الجبهة الجنوبية والتفرغ للجبهة الشمالية حيث يهود خيبر وفدك وتيما، التي تشكل قاعدة للتحريض، ومركزاً للتمويل بالمال والسلاح.

وبهذا نجده ﷺ بمهارة فائقة استطاع تحويل الطاقة الكامنة لدى المسلمين والمتمثلة في النصر الذي تحقق في غزوة الأحزاب، إضافة إلى قوة الحق الذي يعطي لكل عربي الحق في الحج إلى البيت وتعظيمه، هذه القوة مجتمعة استثمرها الرسول ﷺ وحوّلها إلى قوة فعلية تضغط على قريش.



حيث كان العرب يتجهون إلى المسجد الحرام منذ مئات السنين، يحجون إليه في الأشهر الحرم، ويقصدونه ويعبدون أصنامهم، ولكن المسلمين كفروا بالأصنام، إلا أنهم لم يكفروا بالبيت العتيق! فلماذا لا يقصد المسلمون المسجد الحرام زائرين له معظمين حرمة؛ ليرى العرب المجتمعون في مكة المكرمة قوتهم، ويعرفوا مكانة البيت الحرام الرفيعة في نفوسهم.

إن ذلك سيزيد قوة المسلمين قوة، وسيكسر الحاجز النفسي المضروب بينهم وبين القبائل العربية، الذين سيشعرون أنهم يظلمون المسلمين عندما يمنعونهم من حج البيت وأداء العمرة. وسيخفف ذلك من على المسلمين وبغضائهم لهم، ويوفر بين المسلمين من جهة والقبائل العربية من جهة أخرى قاعدة مشتركة وهي تعظيم البيت وتعظيم الأشهر الحرم.

قرر الرسول ﷺ الخروج إلى مكة في شهر ذي القعدة الحرام من السنة السادسة للهجرة، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم للاشتراك للخروج إلى الكعبة مع المسلمين لزيارتها وتعظيمها لا القتال؛ حتى تعلم القبائل العربية بأنه خرج في الشهر الحرام حاجاً لا غازياً، فإن أصرت قريش على مقاتلته في الشهر الحرام، ومنعته من أداء شعائر العمرة أسوة بالعرب، لم تجد من العرب من يؤيدها في موقفها هذا، ولا يعينها على قتال المسلمين، وتفقد حلفاءها.

ولقد أدرك الرسول ﷺ ما للرأي العام من تأثير على المفاوضات، فذهب إلى التأثير عليه، وتعبئته إيجاباً لصالح قضيته». [إستراتيجيات التفاوض الدولي: صلح الحديبية نموذجاً للبلي ١٣٣-١٣٧].

## ٢ - المبادرة الواعية:

يقول د/ العودة: «عجباً لك يا محمد! وأنت تباغت قريشاً في عُقر دارها وتبادرها وتجاوز تهديدها وتحزب أحزابها.

أجل! لقد أطبق المشركون والأحزاب على المدينة في شوال من السنة الخامسة، وكانوا يرومون أن تكون وقعة الخندق نهاية للإسلام والمسلمين، وقد بلغ الكرب بالمسلمين إلى الحد الذي قال الله عنه: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١) [الأحزاب]، وردَّ الله الأحزاب عن المدينة بغیظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال؛ لكن أن تكون هذه الغزوة آخر غزوة للمشركين على المدينة؛ فتلك آية، وأن يصدق فيهم حديثه ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم». [البخاري في المغازي (٤١٠٩)،

(٤١١٠)، ومسنند أحمد ٣٠/٢٤٠-٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

فتلك من علامات النبوة.

ولكن الأمر أعجب حين يستعدُّ النبي ﷺ لمبادرة المشركين، ويخرج بالفعل في ذي القعدة من السنة السادسة متجهًا إلى مكة (عام الحديبية).

نعم! إن (المبادرة) نهجٌ في سيرة النبي ﷺ لمن تأمل، وهي تبدو واضحة المعالم فيما نحن بصددّه من (صلح الحديبية).

والمبادرة إجمالاً ليست خروجًا من المأزق فحسب، بل إرباكًا لسياسة العدو وإحباطًا لمخططاته. وحين ملك المسلمون زمام المبادرة - فيما مضى - كانوا سادة الدنيا، وعدوُّهم يتخوفهم ويحسب لهم ألف حساب، وحين فاز بالمبادرة الأعداء باتوا يفاجئون المسلمين هنا وهناك، ويصيبونهم بالنازلة تلو الأخرى، فهل نعي ونقدّر قيمة المبادرة؟ وكيف كانت سياسته ﷺ للمباغثة؟». [فقه الحديبية للعودة ٢].

ويقول د/ أبو خليل: «جمعت قريش في غزوة الأحزاب جيشًا قوامه عشرة آلاف مقاتل، ولكنها فشلت في تحقيق حتى جزء يسير مما أرادت، فضغفت ضعفًا ظاهرًا بعد انسحابها وقد أسقط بيدها، وأصابتها ضائقة اقتصادية؛ لأن تجارتها باتت متوقفة مع الشام، كما بدأت بعض القبائل تنظر إلى رسول الله ﷺ على أنه قوة ناشئة محترمة، فتقرب بعضها إلى المسلمين بعد هزائم قريش المتكررة.

لقد تحوّل الموقف في جزيرة العرب - بعد غزوة الأحزاب - لصالح رسول الله ﷺ، فامتلك المبادرة، وصار سيد الموقف.

وفي جو الحروب، حيث يشهر السلاح، وتسقط الضحايا، ويؤخذ الأسرى، لا تبادل للرأي، ولا عرض للأفكار، ولا لقاء هادئ للتحاور، فلا تنتشر المبادئ، وهذا أمر طبيعي مرده تعصّب النفوس، وتنافر القلوب، مع إثارة الضغائن والأحقاد.

أمام هذا الواقع، سعى رسول الله ﷺ إلى تهئية الجو المناسب لنشر الإسلام، فمدّ يده إلى قريش مظهرًا منتهى الحنكة السياسية، والنظر البعيد، مع منتهى المرونة والتسامح.

وكسب ﷺ الرأي العام، عندما خرج باتجاه مكة، وقد ساق الهدي ليثبت للعرب كافة تعظيمه للبيت الحرام، مؤكّدًا لهم أن مكة ستبقى على مكانتها التي نالتها من وجود الكعبة المشرفة فيها.

لقد سار بالهدي يريد العمرة، فالظروف مواتية، والفرصة متاحة للعمرة بعد استتاب الأمن في المدينة المنورة، وتطهيرها من اليهود الذين وقفوا موقف العداء من الدعوة أول لحظة بعد الهجرة، وانكسار شوكة المنافقين بعد ذهاب أنصارهم، والأعراب ذاقوا بأس المسلمين عند دفاعهم عن مدينتهم وأموالهم، فتمكنت رهبة الإسلام في قلوبهم، فزلزلت نفوسهم.

ولقد سيطر المسلمون على الموقف بعد غزوة الأحزاب، فساروا يريدون العمرة.

وقريش هنا أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تمنعهم، وإما أن تسمح لهم بدخول مكة. فإن منعت قريش رسول الله ﷺ ومن معه من دخول مكة، كشف ﷺ موقفها العدائي، مثبتاً أن جو الحرب ليس من صنعه ﷺ بل هو من صنع قريش ومن معها، الذين أرغموه ﷺ عليه إرغاماً. وإن دخلها ﷺ فإنه سيلتقي بأهل مكة، وسيحدثهم المسلمون المعتمرون، مما سيدد ويزيل جو التوتر بين الفريقين، وإذا التقى المهاجرون بأهلهم، تتقارب الأرحام، وتحقن الدماء، وسيشعر أهل مكة بظلمهم الذي ألحقوه بالمسلمين، وبخاصة أن المستضعفين المسلمين في مكة - الذي لم يهاجروا - سيشكلون رفقاً للمسلمين، وسيجد المستضعفون ملاذاً عند المسلمين أيضاً.

هذا.. ودخول رسول الله ﷺ مكة، يعني تحقيق انتصار سياسي كبير، فدخله ﷺ مكة يعني عودته إلى حيث أخرج على الرغم من قريش.

ففي كلا الحالين، سيكسب رسول الله ﷺ الجولة على قريش، فلا بد من الحيلولة بينه وبين دخول مكة بأي ثمن، ولو كانت الحرب في الأشهر الحرم، ولو تخرج موقفها أمام القبائل بصددها عن البيت العتيق من جلاء معظماً محترماً، ومن أجل هذا، أعدت قريش جيشاً بلغ عدد فرسانه مائتين.

وانتهى الأمر إلى توقيع هدنة مع رسول الله ﷺ لعشر سنوات، والهدنة: وقف القتال والعمليات الحربية بين الفريقين المتحاربين بصورة مؤقتة احتياطية، بناء على اتفاق بينهما، والهدنة اتفاق عسكري بنصوصه، إلا أنه يبقى سياسياً بأهدافه». [صلح الحديبية لأبي خليل ٧-١٠].

ويقول د/ أبو خليل أيضاً: «قطع رسول الله ﷺ على قريش كل حجة عندما جُلل الهدى وأشعره وقلده، وعندما حمل المسلمون سلاح المسافر فقط، فهم يريدون العمرة ليس غير، لا ييغون إلا أن يؤدوا مناسكهم».

لقد جعل رسول الله ﷺ قريشاً في أخرج موقف، فهي بين الرفض والقبول سيان، فالرفض يجعلها في أعين العرب عامة، وحلفائها خاصة، تصد عن البيت الحرام، وهي بقتاله ستحل حرمان الشهر الحرام خارقة حرمة الأشهر الحرم، وسيعود ذلك على سمعتها ومكائنها وكرامتها بين العرب بالوبال، وإن قبلت فالمشكلة أكبر والموقف أعظم وأخرج!». [صلح الحديبية لأبي خليل ٥٧-٥٨].

ويقول د/ هيكل: «ما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله ﷺ حتى علا بحمد الله صوتهم، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أفيجلبون قريشاً عنه عنوة؟! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة؟

كلا! لا قتال ولا حرب، بل أذن محمد ﷺ في الناس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين،

وحرص محمد ﷺ في الوقت نفسه على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع؛ وحكمته في ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج في الشهر الحرام حاجًا ولم يخرج غازيًا، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل، وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة، فإن أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام، ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها ولا من يعينها على قتال المسلمين، وكانت بإمعانها في الصد عن المسجد الحرام تصريف الناس عن دين إسماعيل عليه السلام، وعن ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام، بذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل، ويزداد دينهم رفعة على رفعة عند العرب الذين لا يؤمنون به.

وما عسى أن تقول قريش لقوم جاؤوا محرمين، لا سلاح معهم إلا سيوفهم في غمودها، يتقدمهم الهدى الذي ينحرون، ولا هم لهم إلا أن يؤدوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعًا! . [حياة محمد ﷺ هيكل ٣٧٣-٣٧٤].

«لقد قرر النبي ﷺ أن يبارس حقه الطبيعي في أداء العمرة بمكة، وهو حق تعترف به القبائل العربية، منذ دعوة إبراهيم عليه السلام.

كان رسول الله ﷺ يعلم أن قريشًا إذا استجابت لحقه في العمرة، أن تنتشر الدعوة الإسلامية من خلال الاحتكاك الفكري والديني مع بقية القيادات التي تغد إلى مكة، وإلى بقية أسواق العرب. أعلن الرسول ﷺ عزمه على التوجه إلى مكة لأداء العمرة، وأعلن أنه لا يريد الدخول مقاتلاً بل مسالماً وأبلغ قريشاً بذلك؛ لهذا استنفر ﷺ أصحابه كما استنفر الحاضرة والبادية لصحبته. كانت رحلة مخوفة بالأخطار، فلا عهد بين المسلمين وبين قريش ولا صلح، كما أن حالة الحرب بينهما ما زالت معلنة، وأراد الله ﷻ ألا يستجيب لاستنفار نبيه ﷺ إلا المؤمنون من أصحابه، فتناقل الأعراب، وتخاذل المنافقون عن ركب الإيمان.

لم يرد الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يدخل مكة المكرمة عنوة، فتوقف عند حدود الحرم في وادي الحديبية، بقوة لا تتجاوز أربعمائة وألف من المؤمنين، في مواجهة سبعة آلاف من قريش وحلفائهم. لقد كان لمطالب الرسول ﷺ المشروعة، قوة صدعت التحالف القرشي فأرغمت قريشاً على التفاوض، خصوصاً وأن بوادر الحرب أخذت تلوح من خلال بيعه الرضوان.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ١٨٦].

### ٣- المنهج الإسلامي العملي في معالجة القضايا:

يقول د/ عويس: «وأهمية الحديبية ليس في أنها مظهر قوي للإستراتيجية الجديدة فحسب، بل في أنها أبرزت - عملياً - المنهج الإسلامي في معالجة القضايا....

إن إستراتيجية الهجوم - لا تعني «إلغاء السلام»، إذا كان ممكناً، بل تعني السعي إليه من موقع القوة. والإسلام لم يأت ليشن الحرب على الناس، بل على الباطل، وهو لا يصطدم بالناس إلا إذا حالوا - بالقوة المسلحة - بينه وبين إعلان مبادئه وقضيته الجوهرية في الأرض.

وبالتالي فليس من مصلحة الإسلام أن يدخل في صراع دموي دائم مع قريش. إنه لم يأت لقريش وحدها، ولم يأت لهداية الوثنية في الجزيرة وحدها، وبالتالي فإن حَصَرَ صراعه في هذه الدائرة خسارة جسيمة للدعوة في أبعادها وطموحاتها المختلفة! ولقد عبّر ألف وخمسمائة من المسلمين في خروجهم لأداء العمرة وزيارة البيت الحرام عن هذه الحقيقة - عندما أظهروا ما يأتي:

- لم يحملوا معهم من المدينة إلا السيوف الموضوعة في أغمادها على عادة العرب في أسفارها. - ساقوا أمامهم الهدى.

- أحرموا من ميقات أهل المدينة (ذي الحليفة).

- دعوا معهم من القبائل المشركة المحيطة بالمدينة من يريد زيارة البيت الحرام.

- وعندما اقتربوا من مكة، وعلموا بتصميم قريش على الحرب، طلب الرسول ﷺ من أحد الأدلاء

أن يقودهم في طريق غير مطروقة، حتى لا يصطدم بهم.

- وأشاع الرسول ﷺ - كي تسمع قريش - قوله: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطْبَةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا

صَلَّةَ الرَّحِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا».

ومع أن الدلائل كانت كلها واضحة على أن الرسول ﷺ وصحبه رضي الله عنهم، إنما أتوا لتعظيم البيت

الحرام، لا للقتال، إلا أن قريشاً فهمت معنى دخول المسلمين مكة في أي صورة من الصور، وقررت ألا

تعترف بالوجود الإسلامي الذي يريد أن يفرض نفسه عليها.

وقد أرسلت قريش أكثر من رسول إلى المسلمين ليعرفوا حقيقة أهدافهم ونياتهم، وعاد الرسل جميعاً

مقتنعين بأن المسلمين إنما جاؤوا سلميًّا، ولم يأتوا حربياً، بهذا قال «بديل بن ورقاء الخزاعي» و«الحليس بن

علقمة» سيد الأحابيش - فلم تستجب قريش لهم. [في ظلال الرسول ﷺ لعويس ١٤٩-١٥١].

#### ٤ - جزيرة العرب قبل الصلح:

يقول د/ إبراهيم: «قبل صلح الحديبية بعام أي العام الخامس للهجرة كانت غزوة الأحزاب، حيث

اجتمعت قبائل العرب تحت راية قريش لاستتصال هذه العصاة من المسلمين، وقد خرجت القبائل على

اختلاف أسباب خروجها، فمنها من خرج بحثاً عن غنائم المدينة، أو رغبة في الإجهاز على الإسلام، أو

ثأراً لهزيمة سابقة، المهم استطاعت قريش لما لها من سمعة وريادة في الجزيرة العربية أن تلم شمل هؤلاء العرب في حربها ضد النبي ﷺ والمسلمين، انتهت هذه المعركة بانسحاب المشركين وهزيمتهم بعد أن أبلى المسلمون بلاء حسناً، في ظل اختبار من أصعب الاختبارات الحربية التي تعرض لها المسلمون قد يكون على مر تاريخهم، وكان من نتائج هذه المعركة أن قرر النبي ﷺ تغيير الإستراتيجية الحربية في مواجهة أعدائه فقال: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسنّد أحمد ٣٠/٢٤٠-٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥، ٢٧٢٠٦ رقم ٢٧٢٠٦].

وتلى هذا أن قام النبي ﷺ بتطهير المدينة ممن خان من اليهود الذين خانوا اتفاقه معهم، ونقضوا حق المواطنة الذي أعطاه ﷺ لهم، وانضموا إلى أعداء وطنهم من الأحزاب، وكذلك أرسل النبي ﷺ السرايا لتأمين تخوم المدينة حتى لا يفكر أحد بعد هذا في القدوم للمدينة محارباً.

الآن أصبحت المدينة آمنة، فماذا بعد؟

إن هدف النبي ﷺ هو إقامة دولة إسلامية، فهل المدينة الآن تعتبر دولة؟ لا تصبح الدولة دولة إلا باعتراف المحيطين لها بكونها دولة، فهل كانت قبائل الجزيرة العربية تعترف بأن المدينة المنورة دولة؟ في تلك الفترة كانت النظرة للنبي ﷺ وأصحابه من باقي قبائل الجزيرة العربية لا تعدو كونهم مجموعة من الأفراد خرجوا عن دين آبائهم وأهلهم، والحرب دائرة بينهم وبين أهلهم، فكان لا بد للنبي ﷺ أن ينهي هذه العلاقة المتوترة بينه وبين القرشيين حتى يفسح المجال أمام الدولة الناشئة، ولكن كيف ينهي هذه العلاقة؟

**الحرب:** هل كان النبي ﷺ يريد غزو مكة في هذا الوقت؟ الإجابة بالنفي وذلك لعدة أسباب:

- عدم رغبة النبي ﷺ في القتال عند المسجد الحرام، وتجلي هذا في فتح مكة عندما أمر قواده ألا يقتاتوا إلا إذا تعرضوا للخطر.

- كان النبي ﷺ أكثر حرصاً على كل نفس بشرية رجاء أن تُسلم أو يأتي من أصلاهم من يُسلم، كما رفض طلب ملك الجبال حين قال له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأُخْشَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً». [البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)].

- لو ألحق النبي ﷺ الهزيمة بقريش حريباً فإنه سيخسر سياسياً، وهذا ما أشار إليه عروة بن مسعود الثقفي عندما قال للنبي ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟

فستقول العرب إن محمداً ﷺ اجتاح قومه وقتلهم، وفي هذا خسارة سياسية لا يريد بها النبي ﷺ.

- لا يستطيع النبي ﷺ الخروج لحرب قريش وترك المدينة مكشوفة، وخصوصاً أن قريشاً عقدت حلفاً مع يهود خيبر شمالي المدينة، فكان من الممكن أن تُغير القبائل على المدينة وقت انشغال النبي ﷺ بحرب قريش.

- إدراك النبي ﷺ وجود مسلمين مستترين في قريش قد يُصابون أو يُقتلون لو اقتحم مكة، فتتال المسلمين بهذا معرة وحزن.

خلاصة الكلام السابق أن النبي ﷺ لم يكن يريد الحرب مع قريش.

**السلام:** هل كان يمكن لكفار مكة عقد سلام مع النبي ﷺ؟ هذا هو الخيار الثاني لإخراج مكة من الصورة وفتح الجزيرة العربية للدولة الناشئة، وهو خيار السلام، فهل كان لدى قريش استعداد للصلح والسلام مع النبي ﷺ؟ واقع الحال يقول: لا؛ لعدة أسباب:

- هزائمهم المتتالية من النبي ﷺ تجعل كرامتهم على المحك، فإن هم سالموا النبي ﷺ في هذا الوقت ستقول الجزيرة العربية: خضعت قريش، وهذا ما لا يريدونه.

- ماذا ستقول العرب عن قريش؟ فمنذ أقل من عام جمعتهم لحرب محمد ﷺ، ثم هاهي تسعى للصلح معه، بطبيعة الحال سيسيء هذا لمكانة قريش وقيادتها في الجزيرة العربية.

- إقامة قريش حلفاً مع يهود خيبر حتى يضعوا المدينة بين شقي الرحى - خيبر من الشمال ومكة من الجنوب - يمنع القرشيين من التفكير في عقد سلام مع النبي ﷺ.

نستنتج مما سبق أن خيار الحرب ليس مطروحاً، وكذلك خيار الصلح، فما الحل؟

الحل الوحيد هو إجبار قريش على الصلح، فكيف أجبرهم النبي ﷺ؟ هذا ما رأيناه في أحداث غزوة الحديبية وصلحها. [محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٣٧-١٤٠].

## ٥ - الصف الداخلي القوي من خلال مقدمات صلح الحديبية:

يقول د/ الغضبان: «لئن كانت غزوة بني لحيان إرهاباً لا ابتداء المرحلة الجديدة، فلقد كانت عمرة الحديبية هي التنفيذ العملي البين لقوله ﷺ: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ» [البخاري في المغازي (٤١٠، ٤١١)، ومسنّد أحد ٣٠/٢٤٠-٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ١٨٤/٤٥، رقم ٢٧٢٠٦].

ولكن هذا الغزو لم يكن غزواً عسكرياً بحثاً، بل كان غزواً سلمياً يهدف العمرة إلى البيت الحرام، لكن لا يغيب عن ذهن رسول الله ﷺ أبعاد هذه العمرة، وأنه قد يلقى مقاومة مسلحة، غير أن التحرك السياسي في الاتجاه الجديد كان لا بد منه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَاسْتَفَرَّ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِي صَنَعُوا، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ،

وَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَسَاقَ مَعَهُ اهْدْيَ،  
وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ؛ وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَافِعًا هَذَا الْبَيْتَ وَمُعَظَّمًا لَهُ.  
وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كُنَّا أَصْحَابَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً. [السيرة لابن هشام ٣٠٩/٢].  
أما مظاهر هذا الصف القوي الموحد فقد بدت على الصور التالية:

أولاً: إن مجرد استجابة المهاجرين والأنصار ﷺ للنفي هو دليل حي على مدى الطاعة والالتزام والانضباط في هذا الصف، فبعد أقل من سنة على غزوة الأحزاب كان هذا التحرك بهذا العدد الضئيل ألف وخمسمائة، فلا ينسى المسلمون أن الأحزاب غزواهم بعشرة آلاف مقاتل.

فكيف يتحرك هذا الجمع الضئيل من المئات إلى مشارف مكة، ولا شك أن الدافع الإيادي القوي هو الذي حدا بالمسلمين إلى الاستجابة، إذ إن رسول الله ﷺ قص عليهم رؤياه أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت، وعرف مع العرفين، وإنها لجرأة متناهية أن يغامر المسلمون بألف وخمسمائة رجل يتجهون بهم إلى مكة التي تعلن الحرب عليهم.

ثانياً: وكانت حرب الأعصاب الأولى التي تلقاها هذا الصف المسلم بعسفان حيث لقيه بشر بن سفيان رضي الله عنه قائلاً له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعَوْدُ الْمُطَافِيلُ، قَدْ لَسُوا جُلُودَ الثَّمُورِ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدَّمُوهَا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَنَحْ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَنْظُنُّ قُرَيْشٌ، فَوَاللَّهِ لَا أَرَأَى أَجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرَدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٩/٢].

وعندما يسمع جيش هذا الوصف لتحرك قريش بشيها وشبابها ونسائها وأطفالها لمواجهة محمد ﷺ لابد أن يصيبه الذعر ويتخلخل من الرعيل وتنتشر به الفوضى وصراع الآراء، لكن جيش النبوة المتلزم بقيادته قد تجاوز هذه المرحلة والضعفاء المخدّلون والمتخاذلون ولو كانوا موجودين في داخل الجيش هم أجبن من أن يرفعوا عقيرتهم بالمخالفة أو يظهرها هلهم وجبنهم ويدعوا إلى الاستسلام أو الفرار، فأى قوة في الصف تعدل هذه القوة؟

لكن الجانب الآخر من القضية هو الجانب السياسي، فهذه أول مرة يعلن فيها رسول الله ﷺ رغبته في تجنب الحرب مع قريش ودعوتها إلى المهادنة، وذلك ضمن خط واضح متميز أن يقفوا على الحياد بينه



وبين العرب، ولم يكتفِ ﷺ بذلك، إنما أوضح أبعاد هذا الموقف بأنه لصالح قريش سواء انتصر محمد ﷺ أم لم ينتصر، وفي هذا كبح لجناح التهور القرشي من الاستمرار في المعركة، وفتح آفاق الدعوة أن تخطو الطريق الذي سدته قريش من كل جانب، إنه السلام القائم على مصلحة قريش ذاتها قبل أن يكون مصلحة المسلمين.

إلا أن هذا الكلام يعني من طرف آخر خفي أن وهنا قد حل بالمسلمين فراخوا يبحثون عن الحل السلمي للابتعاد عن المواجهة، فكان لابد من إسماعهم منطق القوة الذي يفهمون فيه وهو: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأِي أُنْجَاهَهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرَدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

إنه المنطق المتوازن الذي لا يريد الحرب للحرب إنما لإظهار هذا الدين وإعلانه، وهو جاهز لأن يتفهم وجهه نظر الخصم، غير أن هذا المنطق لا يعني خللاً في القوة أو وهناً في الصف، ونحن نرى الصف القوي هنا كذلك، بعد إعلان النبي ﷺ عن استعداده لخوض المعركة دون أن يعترض جندي واحد على ذلك، في الوقت الذي خرج الجيش فيه للعمرة لا للقتال.

ثالثاً: والتحام الصف الإسلامي مع قيادته يبدو جلياً كذلك في أثناء عرض عضلات قريش من قادة وفودها وذلك على أربعة نماذج:

النموذج الأول: وهو بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو أقرب ما يكون لمحمد ﷺ؛ لما بين خزاعة ومحمد ﷺ من ود، واعتبرت قريش أن هذا الرجل يمكن أن يثني محمداً ﷺ عن عزمه على دخول مكة. فأخبرهم ﷺ أنه لا يريد حرباً وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً له، وأسرع بديل ليقول لقريش: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّكُمْ تَعْبَجُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتِ مُعْظِماً لِحَقِّهِ، فَأَتَاهُمُوهُمْ.

قَالُوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عَنُوءٌ، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ.

النموذج الثاني: مكرز بن حفص حيث حدد ﷺ طبيعته، قائلاً: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، وقال له مثل ما قال لبديل، وكان الأمر حتى الآن طبيعياً لا يثير حفيظة هذا الجيش القوي.

النموذج الثالث: وقصدت به قريش أن تعلم محمداً ﷺ أنها ليست وحدها في المعركة، بل معها القبائل المجاورة لمكة، كالحليس بن علقمة سيد الأحابيش.

ولم تفت هذه القضية رسول الله ﷺ، فقال للمسلمين: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَأَبْعَثُوا الْهَذِي فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَبَعَثُوا الْهَذِيَّ، فَلَمَّا رَأَى الْهَذِيَّ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي فَلَانِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، قَدْ رَأَيْتُمْ مَا لَا يَحِلُّ صَدَةُ الْهَذِيَّ فِي فَلَانِدِهِ قَدْ أَكَلَ أُوبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ.

فَقَالُوا: اجْلِسْ، إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

وغضب الحليس عند ذلك، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفَنَّاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدَنَّاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُحْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرَّنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كَفَّ عَنَّا يَا حَلِيسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَفْسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣١٢].

والدلالة في هذا النموذج صارخة على العبقورية العظيمة للنبوة حين صرف سيد الأحابيش وقد تبنى رأيه بالعمرة دون أن يلقاه، وكاد صف مكة الداخلي أن يتفجر وتقع المواجهة بين الأحابيش وقريش، لولا أن تداركت قريش الأمر وأصلحته مع الرجل، ومع ذلك فقد أصبح في صف مكة تيار قوي أعلن عن رأيه بضرورة السماح لمحمد ﷺ بالاعتبار، وهدد بالسلح ما لم يتم تنفيذ ذلك، وقد تم هذا الأمر حتى دون لقاء بين رسول الله ﷺ وسيد الأحابيش، بحسن اختيار الأسلوب المناسب الذي يفهم به هذا الرجل، وهو بعث الهدي في وجهه.

النموذج الرابع: وقصدت به قريش حرباً نفسية كذلك لمحمد ﷺ وأصحابه ﷺ لتعلمه أن ثقيفاً مع قريش حليفة في هذه المواجهة، فبعثت بأذكى وأدهى ما عندها ليفت في أعضاد أصحاب محمد ﷺ، وكان تخطيط قريش أن مجرد رؤية عروة بن مسعود زعيم ثقيف يأتي ممثلاً لقريش في هذه المفاوضات كفيل بأن يزلزل هذا الصف المتين، فكيف إذا استعمل خبثه ودعاه، ولتنظر إلى هذه الحرب السياسية من المنتصر فيها في نهاية المطاف.

(فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جَمَعْتَ أَوْبَاشَ النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ لِيَنْصِتَكَ لِنَقْضِهَا، إِنَّمَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ أَبَدًا، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَكَائِي بِهِؤَلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ عَدَاً.

قَالَ: وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ، فَقَالَ: امْضُصْ بَطْرَ اللَّاتِ، أَنْحُنْ نَنْكَشِفُ عَنْهُ؟ قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ»، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا يَدُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لِكَافَأَتِكَ بِهَا وَلَكِنَّ هَذِهِ بِهَا، ثُمَّ تَنَاولَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْمُغِيرَةُ بَنُ شُعْبَةَ ﷺ. وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيدِ، قَالَ: يَفْرَعُ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمْسِكْ يَدَكَ عَنِ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ وَاللَّهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكَ، قَالَ: وَيَحْكُ، مَا أَفْظَكَ وَأَغْلَظَكَ، قَالَ: فَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: «هَذَا ابْنُ أُحِيكَ الْمُغِيرَةُ بَنُ شُعْبَةَ»، قَالَ: أَعْدُدْ! هَلْ غَسَلْتَ سَوَاتِكَ إِلَّا بِالْأَمْسِ، قَالَ: فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِثْلِ مَا كَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِرِيْدٍ حَرْبًا، قَالَ: فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ: لَا يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُ بُسَاقًا إِلَّا ابْتَدَرُوهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخَذُوهُ.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي جِئْتُ كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قَيْصَرَ وَالتَّجَاشِيَّ فِي مُلْكَيْهِمَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرُؤَا رَأْيَكُمْ. [مسند أحمد ٣١/٢١٢-٢٢٠ رقم ١٨٩١٠].

فلقد عاد عروة بن مسعود بعد هذه الجولة داعية لمحمد ﷺ على غير وعي منه بدل أن يحمس الناس على حربه، لقد هزمت قريش وهزم عروة أمام صلابة الصف المسلم الذي أبدى من ضروب الطاعة والانضباط والالتزام ما أذهل عروة وهزمه في أعماقه، لقد بالغ المسلمون في إظهار الطاعة أمام العدو الغادر ما لم يفعلوه من قبل، وجيش هذا طبيعته وهذه نفسيته، يجابه به قوى الأرض لا قريش وحدها أو قريش ومعها ثقيف والأحابيش، حتى الهادئ الوديع الحليم أبو بكر ﷺ ينقلب أمام عدو الله ليثًا يزأر، ويتهكم بأسلوب فجٍّ من عروة سيد ثقيف وعقله حين أراد أن يفتن الصف بتخويفه من قوة قريش، ويضرب القيادة بالقاعدة فيثني عزيمة محمد ﷺ عن الحرب لتفرق أصحابه عنه، فكان لا بد أن يسمع ما يكره بأسلوب ما عُهد عن أبي بكر قط ﷺ، وكلام غير عفيف يجعل عروة في جحره لا يتعداه، وكان الرد الثاني أعنف وأشد من المغيرة بن شعبه ﷺ، فلئن اعتدت قريش بعروة الثقفي معها، فالبطل الثقفي المغيرة هو سيف محمد ﷺ، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

إن عظمة النبوة السياسية التي لا تدانيها عظمة هي في حسن استعمال اللين في محله والعنف في محله. لقد ارتد كيد قريش في نحرها، وهزمت نفسياً أمام محمد ﷺ وصحبه وجنده، وراحت تعالج أمرها بعد خطبة ابن مسعود فيها من باب المفاوضة لا من باب التهديد والمواجهة وصار الصف المسلم القادم إلى العمرة بألف وخمسمائة أقوى بألف مرة من صف قريش وثقيف والأحابيش الذي ترزعزع وهدد بعضه بالسلاح.

إنه درس عظيم للحركة الإسلامية، درس للقيادة التي تتقن فن التعامل مع العدو فتحطم أعصابه، وتهز نفسه من الأعماق وتتعامل مع الخصوم وكل حسب طبيعته ونفسيته.

ودرس إلى القاعدة كي تفقه معنى الالتزام والانضباط خاصة أمام العدو وعلى أرضه فتكون كلها سهماً واحداً ويداً واحدة في مواجهة العدو.

رابعاً: وكانت المحاولة الرابعة من قريش في إيجاد ثغرة في الصف المسلم، ومن خلال عملية فدائية كلف بها حوالي خمسين من قريش عليهم ينالون بعضاً من أصحابه أسراً أو قتلاً، فيجزع المسلمون ويحاولون إيقاع الرعب فيه. فإذا كانت النتيجة؟!

أخذوا جميعاً أسرى بيد المسلمين حيث ظفر بهم محمد بن مسلمة ﷺ قائد حرس المسلمين.

وبلغ قريشًا حبس أصحابهم، فجاء جمع منهم ورموا بالنبل والحجارة، فرماهم المسلمون وأسروا منهم اثني عشر فارسًا.

وكانت هذه العمليات المرتجلة من قريش صدمة عنيفة أخرى لهم، وكانت مع آراء الوفود كقيلة بأن توقع الوهن في صف العدو.

وترى كم يسّر الجنود المسلمون حين يرون بين ظهرانيهم خمسين رجلًا واثني عشر فارسًا أسرى بيدهم.

خامسًا: وكانت محاولة عرض العضلات الأخيرة والتهديد بالسلاح من قريش هي من خلال خيلهم التي كان على رأسها خالد بن الوليد.

ولقد غزي قائد فرسان قريش في أعماقه، وأيس من النصر، فمن الذي أعلم محمدًا بما يبتّه من غدر؟ لقد عرف خالد بن الوليد أنه أعجز من أن ينال شيئًا من محمد ﷺ، وأضيف هذا الرصيد من الوهن إلى الرصيد السابق فأسقط في يد قريش، وعرفت أن لا جدوى من المواجهة ففكرت في المصالحة.

وها هما الصورتان متقابلتان: صورة الصف المسلم الملتحم القوي المصمم على الثبات، وصورة الصف المتناقض في الرأي والمهزوم نفسيًا في أعماقه من هؤلاء الثقات القلائل.

سادسًا: وكانت الصورة المقابلة التي لا بد أن يقوم بها رسول الله ﷺ هو أن يبعث بسفير من عنده يسمع من قريش مباشرة، وينقل لهم وجهة نظره ﷺ؛ حتى لا تلتبس الأمور، فكان إرسال خراش بن أمية وعثمان بن عفان رضي الله عنهما وما حدث لهما.

إن الحرب بين الفريقين قائمة، وخراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه يقابل بديل بن ورقاء الخزاعي، فخرافة مسلمهم ومشرکہم عيبة نصح لرسول الله ﷺ وهي مع قريش كذلك؛ ومن أجل هذا وجد من يمنعه من قومه عندما تعرض للقتل.

وكانت الشخصية الثانية المرشحة للسفارة هي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولعل ما نزل بخراش رضي الله عنه من جهة، وحقد قريش على عمر رضي الله عنه من جهة ثانية، وكون شوكة بني عدي في مكة ضعيفة، كل هذه العوامل حدث بعمر رضي الله عنه أن يبسط عذره بين يدي قائده رضي الله عنه؛ لأن سفارته لن تحقق الهدف المطلوب منها ومن أجل ذلك قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِهَا [بِمَكَّةَ] مِنْ بَنِي عَدِيٍّ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَذْلُكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ مِنِّي (يعني في قومه بمكة): عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ.

[مسند أحمد ٣١ / ٢٢٠ رقم ١٨٩١٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن. السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥ / ٢].

وقبل ﷺ رأي ابن الخطاب ؓ دون تردد، فليس هو محل تهمة أو ظنة، لكن لكل أمر رجاله، وعثمان ؓ للسفارة خير من عمر ؓ، مع العلم أن السفارة في الجاهلية كانت عند بني عدي، غير أن مكة اليوم يتقاسم النفوذ فيها بنو مخزوم وبنو أمية، ومن أجل ذلك وجد عثمان ؓ من يحميه حتى يؤدي رسالة رسول الله ﷺ، وكان لعثمان ؓ كذلك مهمة سرية أخرى هي الاتصال بالمؤمنين في مكة ودعوتهم إلى الصبر والثبات حتى يأذن الله تعالى بالفتح من عنده.

ولما فرغ عثمان ؓ من تأدية رسالته عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

وكان هذا درسًا بليغًا في الالتزام، حتى ولو كان طواف الكعبة الذي يحل به المسلم منذ سنين خلت، لكنه ينفذ أمرًا حتى يرجع إلى قيادته فيسألها، وامتنع عن الطواف قبل طواف النبي ﷺ.

وحين يلتزم الجندي بأمر قائده عند الأعداء رغم الإحراجات الكثيرة من عشيرته، فهذا يعني أن الولاء لن يكون إلا لله ورسوله، لكن هذا الولاء لم يمنع من قبول حماية أبان بن العاص أحد قادة بني أمية، وما أخرجنا إلى أن نفرق بين القضيتين؛ لأن الأولى لا علاقة لها بطبيعة المهمة وتتم المهمة بدونها، أما الثانية فهي صلب مهمة عثمان ؓ، فلم يجد حرجًا أو إثما بقبول إجارة أبان بن سعيد.

وننتقل إلى المعسكر الإسلامي وقد بلغه إشاعة مقتل عثمان ؓ، وكان لهذه الإشاعة وقع البارود المتفجر فيه، فمضى رسول الله ﷺ إلى أعز معقل من معاقل الأنصار إلى منازل بني مازن بن النجار، وأخبرهم بأمر البيعة.

(فأقبل الناس عليه ﷺ يبائعونه حتى تداكؤا) تلاحوا وتداخل بعضهم في بعض من شدة نزاحهم) فما بقي متاع إلا وطؤوه، ثم لبسوا السلاح، وهم معهم قليل (...).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ ؓ قَدْ قُتِلَ: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ»، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرُّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبَايَعْنَا عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أَنْ لَا نَقْرَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٥].

وإنه لمن أغرب ما روى التاريخ من ولاء والتزام ونصرة، لقد خرج القوم للعمرة، وألحوا على رسول الله ﷺ أن يحملوا السلاح، فرفض ذلك وقال: «لَسْتُ أَحْمِلُ السَّلَاحَ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا»، وساهم في هذا الرأي قادة المهاجرين والأنصار، ومع ذلك فهي يدعوهم إلى المواجهة والموت فيتزاحمون إلى البيعة حتى لا يبقى متاع إلا وطؤوه.

لقد أصبح الصف الإسلامي من القوة والتلاحم بحيث نكاد نقول: إن النفاق قد انتهى منه. وحين نذكر أن المنافقين كانوا بضعة عشر في غزوة الأحزاب، فيها نحن لا نجد وجوداً لهم في الحديبية. إن الصورة الواقعية في عالم الأسباب تقول: أن لا يستجيب للبيعة على الموت والمواجهة إلا أفراد قلائل؛ لأن القوم لم يخرجوا للقتال، وقائدهم أكد لهم أن خروجه للعمرة، ولم يعدوا سلاحاً لذلك، وما نعلمه عن عالم الأحزاب اليوم في مثل هذه الحالة أن يُغتال القائد ويُحاكم بتهمة توريط الجيش في الهلاك، أما أن يسارع الجيش كله للبيعة ويتزاحم عليها، فهذا يعني أن النفاق في هذه المرحلة قد ولى كأمس الدابر، وأن ينفرد رجل واحد من هذا الجيش فيختبئ بظل بطن ناقته ولا يبايع، وأن يكون عبد الله بن أبي من بين المبايعين، فهذا يعني أن الجيش الإسلامي قد تجاوز أزمته، وأجهز على عناصر الضعف فيه.

ونذكر مع هذا الالتزام العجيب النسوة الأربع اللاتي شاركن الحملة، فقد شاركن في البيعة كذلك، وكأني بأمر عماره رضي الله عنه، وقد التمع بعينيهما بريق أحد بعد أن تسلحت بعمود البيت، وشدت السكين على وسطها، وجددت بيعتها كما بايعت يوم العقبة؛ لتكون مع الصف المسلم المقاتل، وهؤلاء النسوة القليلات هن اللاتي شددن نظر عروة بن مسعود، وكان مما قاله لقريش: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ نُسَيَّاتٍ مَعَهُ إِنْ كُنَّ لَيُسْلِمُنَّهُ أَبَدًا عَلَى حَالٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٨-٥٩٩].

ولم يفكر جندي واحد من هذا الصف القوي أن يعتب على قائده صلى الله عليه وسلم الذي يطلب منه الآن البيعة على الموت، وقد جاء به إلى العمرة ومنعه أن يهيء سلاحه.

ومن قوة هذا الالتزام كذلك أن نجد عبد الله بن أبي الذي جاءه وفد خاص من قريش يدعونه ليدخل مكة ويطوف بالحرم، وكان بإمكان ابن أبي أن يهتبل الفرصة ويطوف بالكعبة في عز حراب قريش، لكن ظل ابنه عبد الله والموقف الرهيب الذي وقفه منه يوم المريسيع ووضع السيف على عنقه آنذاك، عاد فارتسم أمامه وابنه يذكره بالله، فما كان من زعيم النفاق إلا أن رضخ لهذا الجو العام وأحنى رأسه للعاصفة وقال: لَا أَطُوفَ حَتَّى يَطُوفَ رَسُولُ اللَّهِ.

وهذا درس عظيم للجماعة المسلمة تتعلم منه أصول الانضباط والسمع والطاعة للقيادة، وكانت البيعة هي محك الرجال فلم يتخلف منهم أحد، بل سارع النساء إليها كذلك.

والنقطة الأخيرة في هذا المجال وهي التي نتوجه بها لقيادة الحركة الإسلامية أن تستوعبها بعد درس القاعدة، هي أهمية الجندي المسلم عند قيادته.

لقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشن حرباً على قريش مع من بايعوه على الموت ثأراً للجندي واحد من جنوده هو عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما أشيع أنه قُتل.

والجندي الذي يرى هذا الاهتمام من قيادته به، وهذه الكرامة والخطوة له عندها، لا ضير أن يفتدي هذه القيادة بروحه ودمه ووجوده وأعز ما لديه في هذا الوجود، ولا ضير إذن أن تُغيّر القيادة موقفًا مصيريًا ثأرًا لجندي من جنودها بعد أن علّمها هذا الدرس رسول الله ﷺ.

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٣/ ١٥ - ٢٤].

## ٦ - تقرير مبدأ الحوار:

يقول د/ الفيتوري: «لا شك أن أبرز سمات صلح الحديبية كانت الواقعية لا المثالية، ومراعاة الروح المقاصدية لا الظاهرية، وبعد النظر لا الآنية؛ لذلك أخذت قيادة الدولة الإسلامية على عاتقها تأسيس نظامها العالمي في كل أرجاء المعمورة، من خلال الحوار، وإيصال القول، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص].

كما أنه كان مقررًا في ذهن القيادة الإسلامية أن عامة الناس لهم خاتمة عديدة معينة ضمن الرسالة الخاتمة سواء أكانوا مسلمين، أم كانوا مشركين، أم أهل كتاب، أم منافقين، (كافة للعالمين)؛ لذلك فتحت قيادة الدولة الإسلامية الحوار مع دولة محاربة، وعدو لدود، على المستويات الدبلوماسية السياسية والاجتماعية كافة، الرسمية منها والشعبية، وهذا هو منطق القيادة الراشدة من موقع السلطة حيث تعرف كيف تعيش وتتعايش مع حقائق مشاكلها الواقعية مجردة بعيدًا عن الخوف، أو الميل إلى الأحلام والشعارات، أو التترس بالهروب من الحقائق الواقعية.

وفيما يلي محطات حوارات صلح الحديبية.

### المحطة الأولى: قنوات حوار شعبية:

١ - حوار ركب خزاعة: وهذا الركب الشعبي غير الرسمي كان بقيادة بديل بن ورقاء الخزاعي، حيث كان هدفه إيجاد تقارب بين الدولة الإسلامية، ودولة الشرك، ومحاولة إيقاف الحرب الاستنزائية بين الآباء والأبناء!!

٢ - حوار بشر بن سفيان الكعبي: لقد كانت نبرات بشر بن سفيان الكعبي - وهو يحاور رسول الله ﷺ - مليئة بالشفقة والرحمة على الطرفين، أهل مكة وأهل المدينة، حيث كان هدفه إيجاد تفاهم بدل الصدام، واستخدام العقل بدل العضل؛ لمعرفته أن الحرب لا تبقي ولا تذر!!

### المحطة الثانية: قنوات إسلامية رسمية:

سفراء الدولة الإسلامية يبادرون بالحوار: لقد كانت قريش قد استثارت القبائل من حولها وألّبتها على رسول الله ﷺ بدعوى: أنه اعتدى عليها في عقر دارها، وفي حرم الله، حيث كانت العرب آنذاك تعظم البيت، وتجل قريشًا لمكانتها من البيت على الرغم من شركها.

فأراد رسول الله ﷺ قائد الدولة الإسلامية أن يبطل تلك الدعاوى التي وجهتها قريش ضده، ويكسب تلك القبائل، أو على الأقل يخفف من حدتها وحاسها ضده، فأرسل من قبله رسلاً ليلغوا قريشاً على مرأى ومسمع من الناس: أنه لم يأت لقتالهم، وإنما جاء زائراً البيت ومعظماً حرمة. فكان سفيره الأول خراش بن أمية رضي الله عنه، ثم سفيره الثاني عثمان بن عفان رضي الله عنه.

#### المحلة الثالثة: قنوات مكية رسمية:

لا ريب أن دولة مكة لما أحست بفشل عملها الإعلامي لتأليب الرأي العام ضد قيادة الدولة الإسلامية، ونجاح الدبلوماسية في أوساط القبائل العربية، بادرت بفتح قنوات حوارية دبلوماسية مع قيادة الدولة الإسلامية لكسب الرأي العام، والحصول على اعتراف ضمني من قيادة الدولة الإسلامية بسيادتها على الحرم المكي، وأنها دولة ذات سيادة مستقلة معتبرة عند العرب.

فكانت سفارة عروة بن مسعود، والحليس بن علقمة، ومكرز بن حفص، ثم سهيل بن عمرو والوفد المرافق له.

هذه العملية استخدم فيها فن الممكن، وفن التوفيق، وفن الإكراه، حيث تعتبر هذه المحاور من أهم متركزات العملية الحوارية الدبلوماسية ضمن أسس نظريات العلاقات الدولية، وقد أسفرت هذه العملية عن نتائج مهمة في عالم السياسة، منها:

- ١- إحياء دور الحوار والتفاهم، وتبادل الآراء ومعرفة وجهات النظر.
- ٢- تمهيد الجو المناسب لتسوية الأزمة سلمياً عن طريق الحوار والمفاوضات.
- ٣- وضع ترتيبات سياسية أمنية لوقف الاشتباكات على مسرح العمليات موضع التنفيذ.
- ٤- اعتراف متبادل بالأفكار والمبادئ والاستقلالية السياسية بين الدولتين.
- ٥- احترام مبدأ القوة، والاعتراف بقدرة الدولة الإسلامية على سرعة الردع (بيعة الرضوان)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفتيوري ١٩-٢٦ باختصار].

#### ٧- فتح أبواب الحرية للشعوب:

يقول د/ أبو فارس: «من قول النبي ﷺ: (مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ) نستنبط أن الطواغيت لو فتحو باب الحرية للناس، وسمحوا لهم أن يطرحوا أفكارهم للنقاش الهادئ والحوار الذي تسوده العقلانية والموضوعية، ويدعم بالحجج الدافعة والبراهين الساطعة لانتصر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.



إن المشكلة التي تعترض الدعاة في عهود الظلام هي أزمة الحرية العلمية والسياسية والانتقال والكلام والعمل وغيرها.

والمطلب الذي ينبغي أن يُصر عليه الدعاة ولا يفترقون عن المطالبة بتوفيره لحظة واحدة، ولا يملكون من المطالبة به هو توفير جو الحرية للناس، ثم يحدد الناس مواقفهم دون ضغط مادي أو إرهاب فكري.

إن الباعث المهم في الجهاد الإسلامي هو إزالة العقبات التي تحول بين الدعاة وبين تبليغ كلمتهم ودعوتهم للناس، فإذا أزيلت هذه العقبات فكل فرد يملك الحرية في أن يختار الدين الذي شرح له صدره وارتضاه عقله ولا يُكرهه على دين حتى وإن كان دين الإسلام، قال ﷺ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَيْنَ لَنَا فَمَنْ كَفَرَ بِالطَّاغُوتِ وَآمَنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٣٥].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٣١-٣٢].

#### ٨ - تقرير مبدأ تعظيم حرمة الله:

يقول د/ الفيتوري: «لا ريب أن الدولة الإسلامية يجب عليها أن تراعي خلال سيرها السياسي في مرحلتها الاستضعاف والاستخلاف مبدأ تعظيم حرمة الله، كحرمة الأديان، وحرمة الأنفس، وحرمة العقول، وحرمة الأعراض، وحرمة الأموال، ومرعاة ترتيبها وفق سلم الكليات الضرورية، والحاجية، والتحسينية، حسب مقدرات الدولة، وطورها، ومرحلتها، ومعطيات الواقع.

فقد جاء تقرير هذا المبدأ ضمن الإطار السياسي المقرر لساحة الحديبية، وذلك حينما كان رسول الله ﷺ على مشارف بيت الله الحرام عندما بركت ناقته القصواء، فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةَ (الخطبة الأمر والحال والخطب) يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا».

فأي خطبة ينتج عنها تعظيم حرمة الله وفق تصور الكليات الضرورية، والحاجية، والتحسينية، وفي أي صورة كانت زماناً ومكاناً وإنساناً، تعتبر خطبة مقصودة شرعاً، وإن كانت في ظاهرها تحقق أهدافاً مشتركة وليست مستقلة للدولتين، أو تخدم في ظاهرها مصالح الخصم، وذلك ما نص عليه الرسول ﷺ عندما أقبل عليه سهيل بن عمرو والمفاوض المكي، قال: «قَدْ سَهَّلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ، الْقَوْمَ مَأْتُونَ إِلَيْكُمْ بِأَرْحَامِكُمْ (أي متوسلون إليكم بقرابة)، وَسَائِلُوكُمْ الصُّلَحَ».

فقد اعتبر الرسول ﷺ الحفاظ على صلة الأرحام مقصداً من مقاصد السياسة العامة والعلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، بل تسعى لتحقيقها من خلال تحركاتها بين الدول، والتكتلات الوطنية، وفق منظومة سياسية، وأطر حركية، ومضامين أمنية، على الرغم من مشقة هذه السياسة على النفوس وصعوبتها، ولكن هذا أمر الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «الْقَوْمُ مَاتُونَ إِلَيْكُمْ بِأَرْحَامِكُمْ (أي متوسلون إليكم بقرابة)، وَسَائِلُكُمْ الصَّلَاحُ، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ، وَأَظْهَرُوا التَّلْبِيَةَ». [المصنف لابن أبي شيبة ٤٠٩/٢٠ رقم ٣٨٠٠٦].

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: «إِنَّ الْمَشْرُكِينَ، وَأَهْلَ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ، وَالْبُعَاةَ وَالظَّالِمَةَ، إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعْظَمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأَعْطُوهُ وَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ، فَيَعَاوُنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمنَعُونَ بِمَا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ التَّمَسَّ الْمَعَاوَنَةَ عَلَى مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَأَنَّهُ مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْعُوضٌ لِلَّهِ أَكْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفْسِ».

[زاد المعاد لابن القيم ٣/٣٠٣].

رحم الله ابن القيم فقد فصل في تقرير هذا المبدأ، مبدأ تعظيم حرمة الله والسعي لإقامتها مع كائن مهمل كان شكله ورسمة، أو دينه ومعتقده، أو حزبه وفكره، المهم: أن تُعْظَمَ حرمة الله تعالى، ويسعى في الحفاظ عليها، وإن أهدر بعضها!!

ولكنه - ابن القيم - تراه بعد ذلك يقرر حقيقة باطنية بخبرته السياسية والنفسية فيقول: «وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ، وَأَصْعَبِهَا، وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفْسِ»!!

فما أحوج قيادات المشروع الحضاري المعاصر للوقوف على هذا النص، ومراجعة الذات، وعدم التترس بالخواجز النفسية التي ضيعت على الأمة الإسلامية فرصاً سياسية بالغة الأهمية.

«ثُمَّ أَرْسَلُوا عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا هَذَا الْحَدِيثُ؟ تَدْعُونِي إِلَى ذَاتِ اللَّهِ، ثُمَّ جِئْتَ قَوْمَكَ بِأَوْبَاشِ النَّاسِ، مَنْ تَعْرِفُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ، لَتَقْطَعَ أَرْحَامَهُمْ، وَتَسْتَحِلَّ حُرْمَتَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ: (إِنِّي لَمْ آتِ قَوْمِي إِلَّا لِأَصِلَ أَرْحَامَهُمْ، يُبَدِّلُهُمُ اللَّهُ بِدِينٍ خَيْرٍ مِنْ دِينِهِمْ، وَمَعَاشٍ خَيْرٍ مِنْ مَعَاشِهِمْ». [المصنف لابن أبي شيبة ٤١١/٢٠ رقم ٣٨٠٠٧].

نص محكم في ضرورة الحفاظ على أصل الدين ودعوة التوحيد: دعوة وسلوكاً «تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى ذَاتِ اللَّهِ».

والحفاظ على الأنفس والعقول التي تعتبر من صلب الرسالة المحمدية، ومقاصدها الكلية وتحقيق الأمن والأمان، والسلامة والسلام لبني الإنسان في أنفسهم وعقولهم وممتلكاتهم «، ثُمَّ جِئْتَ قَوْمَكَ بِأَوْبَاشِ النَّاسِ، مَنْ تَعْرِفُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ، لَتَقْطَعَ أَرْحَامَهُمْ».

والحفاظ على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وذلك تحقيقاً لمقاصد الدولة الإسلامية من سياسة الراعي والرعية، بالعدل والمساواة والفضيلة «جِئْتَ... لَتَقْطَعَ أَرْحَامَهُمْ، وَتَسْتَحِلَّ حُرْمَتَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ».

والحفاظ على الكليات الحاجية والتحسينية للبشرية من مراعاة الصالح العام، والحقوق الإنسانية، وسلامة منشآت الأمة، فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَمْ آتِ قَوْمِي إِلَّا لِأَصِلَ أَرْحَامَهُمْ، يُبَدِّلُهُمُ اللَّهُ بِدِينٍ خَيْرٍ مِنْ دِينِهِمْ، وَمَعَاشٍ خَيْرٍ مِنْ مَعَاشِهِمْ». [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيثوري ٢٧-٣٠].

#### ٩ - القصواء تفتح باب المفاوضات:

يقول د/ عشقي: «لكل غزوة من غزوات الرسول ﷺ سمة معينة، فكما كانت غزوة أُحُد تتسم بكونها مدرسة إستراتيجية نهج المسلمون عليها، كانت غزوة الحديبية تأخذ الطابع التفاوضي، فكانت مدرسة من أهم مدارس التفاوض، وفض المنازعات، وما أوجنا في هذه الأيام لمراجعة الأسس التفاوضية في الإسلام.

لقد كان القتال في الجاهلية أمراً مشروعاً، وظلت مشروعية استخدام القوة المسلحة تسود الفكر الجاهلي، حتى جاء الرسول ﷺ، ليرسي القواعد الفكرية في التفاوض والسلام، واليوم انتشرت الحروب في العالم، فتأثر المسلمون بها ونسوا القيم الإسلامية في هذا المجال، حتى شد انتباههم ما يحدث في العصر من دمار وخراب.

لقد تمخضت الحروب في القرن العشرين عن مأس إنسانية، فتولدت آثار قانونية اعترف بها المجتمع الدولي.

عندما ظهرت المنظمات الدولية، وخاصة عصبة الأمم المنحلة عام ١٩١٩ م، بدأت القواعد القانونية تتجه نحو تحريم استخدام القوة في العلاقات الدولية.

لقد اكتفت عصبة الأمم بكبح جماح القوة، فطلبت من المتنازعين، ضبط النفس، والرؤية في استخدام القوة لبضعة شهور، حتى تعرض المنازعات على العصبة، وتصدر بموجبها الحلول المناسبة، ومن ثم يصبح لأي طرف الحق من استخدام القوة، سواء حسم النزاع عن طريق المنظمة الدولية أو لم يحسم.

ثم جاءت معاهدة باريس المبرمة عام ١٩٢٨ م، لتقضي بمنع استخدام القوة في العلاقات الدولية، وطالبت المجتمع الدولي بأن يرتب آثاراً قانونية على استخدام القوة، باعتبار أن استخدام القوة لفض المنازعات، أصبح أمراً غير مشروع، لكن المعاهدة لم تقرر عقوبة على المتعدي من قبل المجتمع الدولي.

ومع أن معاهدة باريس، تعتبر خطوة جيدة على الطريق الصحيح، إلا أن القانون الذي لا تحميه العقوبة، يصبح عملاً أخلاقياً، ويدخل في قائمة النصح والتوصيات.

أما ميثاق الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٥ م، فقد أكد على فكرة الأمن الجماعي، وأعلن عن تحريم الحرب، وأقر العقوبة عليها.

لقد تحول المفهوم القانوني في العلاقات الدولية، من الحديث عن مشروعية الحرب، إلى البحث عن تحريم الحرب، ورفض استخدام القوة في فض المنازعات.

لقد أصبح الحديث عن الأمن الجماعي يسود الفكر القانوني والفكر السياسي، فالأمن الجماعي يقوم على دعمتين: دعامة سلبية، ودعامة إيجابية، فالدعامة السلبية، تتمثل في عدم استخدام القوة لتسوية المنازعات، والدعامة الإيجابية، تجسد في التصدي لمعاقبة المعتدي، عقاباً جماعياً من خلال مجلس الأمن، وليس من قبل المعتدى عليه.

لم يتمكن فقهاء القانون عبر المسيرة الحضارية للإنسان، من الارتقاء بالقانون الدولي ليصبح قانوناً فوق الدول، فالقانون الدولي لم يخرج عن كونه مجموعة من القواعد التي صيغت لتنسيق العلاقات الدولية، وظل هذا القانون عائماً على المستوى الأفقي.

والقانون الدولي، يختلف عن القانون الداخلي الذي تحكمه مؤسسات الدولة؛ لهذا نجد أن القانون الداخلي أشد تماسكاً، وأكثر إحكاماً من القانون الدولي.

إن العلاقات الدولية تتسم بطبيعة تنازعية، وهذا التنازع، منشؤه العلاقات المتبادلة بين الدول، سواء كانت هذه العلاقات علاقات تنظيمية، أو مصالح مشتركة بين الكيانات، أو الشخصيات الدولية. فللمنازعات الدولية حتمية الوقوع، وتعتبر من القضايا التي لا توجد لها حلول مرضية لكافة الأطراف، خاصة إذا كانت مشوبة بأغراض سياسية، ومن هنا نشأت أهمية المفاوضات، لأنها الخيار الأمثل لتسوية المنازعات بين الدول.

إن العملية التفاوضية هي عملية شاقة، تتطلب كفاءات علمية متخصصة، ومهارات ذاتية عالية، والتفاوض بين الدول يميز بين القضايا المتنازع عليها، والقضايا التي يجب التعاون فيها. في ظل هذه الخصوصيات التي تتميز بها العلاقات الدولية، نجد أن المنازعات، عادة ما تنتهي بالحوار السلمي عبر المفاوضات، أو بالحوار المسلح من خلال القتال.

لقد أصبح الحوار السلمي يسود العلاقات الدولية اليوم، وأصبح للمفاوضات أهمية كبرى، وما ذلك إلا بسبب الرقي الحضاري الذي وصل إليه الإنسان، وفداحه الخسائر التي أورتها الحروب. لهذا قال جروميكو لمدوب العراق أثناء حرب الخليج الثانية: (لأن تفاوض الطرف الآخر خمسة عشر عاماً، خير من أن تقتله ساعة من النهار).

إن النزاع الدولي يتولد من عدة أسباب، منها الاختلاف في تفسير معاهدة قانونية، أو انتهاك دولة لسيادة دولة أخرى، أو الاعتداء على حقوق الغير، وهذا ما جعل الفقهاء يميزون بين موضوع النزاع الدولي، وطبيعة النزاع الدولي.

لقد عرّفت المحكمة الدائمة للعدل الدولي النزاع: بأنه عبارة عن خلاف ينشأ حول مسألة قانونية ومسألة واقعية.

لهذا فإن النزاع الدولي، إما أن ينشأ بسبب موضوع النزاع، أو أن ينشأ بسبب طبيعة النزاع، فإذا كان منشؤه موضوع النزاع فإنه عادة ما يثور نتيجة لتفسير معاهدة دولية، أو مدى مطابقة سلوك القاعدة الدولية لها، وأحياناً يكون موضوع النزاع، انتهاك دولة لسيادة دولة أخرى أو الاعتداء على حقوقها. أما النزاع الناشئ بحسب طبيعة النزاع، فهو إما أن يكون نزاعاً قانونياً، أو يكون نزاعاً سياسياً، أو أن يجمع بينهما فيصبح نزاعاً مختلطاً.

والمنازعات الدولية، قد تكون منازعات بسيطة يمكن احتواؤها، كالمنازعات الناشئة من جراء الممارسة لأمر مخالف للعرف السياسي، فإنها تنتهي بالاعتذار، كانتهاك القواعد البروتوكولية، أو طرد أحد الممثلين الدبلوماسيين.

والمنازعات المختلطة تعتبر من المنازعات الدولية المعقدة، حيث تختلط فيها الأسباب السياسية بالقانونية، وقد تتسع فتمس المصالح لعدة دول أو منظمات سياسية، فتشتد خطورتها بشكل يهدد الأمن والسلام الدوليين، كالنزاع العربي الإسرائيلي، وأزمة الخليج الثانية. إن النزاع الذي نشأ في الحديبية بين المسلمين والمشرّكين، يندرج في قائمة المنازعات المختلطة، البالغة التعقيد.

فالنبي ﷺ بعد أن أمره الله ﷻ بالاتجاه في الصلاة إلى الكعبة، أراد أن يؤدي مناسك العمرة في مكة المكرمة، وكان هذا حقاً مشروعاً لكافة القبائل العربية، فلها أن تسير إلى مكة المكرمة، لأداء العبادة، وتقديّم القرابين للآلهة حول الكعبة، وأبلغ ﷺ قريشاً برغبته وعزمه.

لم يكن النبي ﷺ قادماً إلى مكة المكرمة بحمل أغراضاً سياسية أو عسكرية، لكن قريشاً كانت ترفض قدومه إلى مكة والطواف بالبيت؛ لأنها ترى في ذلك تحدياً إسلامياً لهيبتها بين القبائل، وإهانة لها أمام العرب. عندما وصل الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة يوم الاثنين ١٢ / ١١ / ٦ هـ على مشارف المدينة المنورة، قلد الهدى وأشعره، وأحرم بالعمرة هو وأصحابه، وكانوا أربعمائة وألفاً من المهاجرين والأنصار.

كان معهم سبعون هدياً معدداً للذبح قربة إلى الله سبحانه، وكانوا لا يحملون إلا سلاحهم الشخصي، وهو السيف، مما يعطي الدلالة على أنهم لم يخرجوا لقتال.

لكن قريشاً أجمعت أمرها مع بعض حلفائها على قتال النبي ﷺ، وصدّه عن البيت الحرام، وأوفدت قوة إلى كراع الغميم قريباً من (عُسفان)، وبلغ الرسول ﷺ ذلك.

ما إن وصل ﷺ إلى عُسفان، حتى التقى وجهًا لوجه بالقوات القرشية وكانت عبارة عن مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل مع بعض المشاة.

استشار النبي ﷺ أصحابه بعد أن عسكر في عُسفان، وعرض عليهم ما جاء به بُسر بن سفيان رضي الله عنه، الذي تَسَقَّط أخبار قريش وعزمها، وحدد مواقعها، وأطلعهم على الموقف.

ولقد اتفق رأي المسلمين على المضي إلى البيت العتيق، وكان هذا رأي أبي بكر، والمقداد بن عمرو، وأسيد حضير رضي الله عنه، وهم على استعداد للصدام، إذا ما ألجأهم قريش بإصرارها إلى ذلك.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَبَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ أَصَابُونِي كَمَا الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٩/٢].

ثم أعلن ﷺ العزم على المضي في نشر رسالته، مهما كانت قوة من يحول بينه وبينها، فقرر السير إلى مكة المكرمة، متحاشيًا القوة القرشية في عُسفان، واتخذ مضيق ذات الحنظل رغم وعورته، حتى وصل إلى الحديبية على بُعد ثلاثة أميال من مكة المكرمة، وعسكر المسلمون فيها.

حينما وهنت قريش، وأنهكتها الحروب، وتوقفت عن هجماتها على المدينة المنورة، بدأ الرسول ﷺ في تلقين البشرية مبادئ السلام، في وقت كان القتال فيه أمرًا مشروعًا.

لقد أراد الله ﷻ أن لا يُدخل رسوله مكة المكرمة عنوة، وأراد لغزوة الحديبية أن تكون درسًا من دروس السلام، ومدرسة من مدارس التفاوض، فالسلام حرب سلاحها الفكر، أما التفاوض فإنه حوار هدفه الاتفاق.

إن التفاوض أمر عسير يعجز عنه البشر، فهو ضبط للنفس وكظم للغضب، لقد خرجت قريش بحلفائها من ثقيف، والأحابيش، وكان قوامهم ثمانية آلاف، وكان على رأس ثقيف عروة بن مسعود، وكان على رأس الأحابيش سيدهم الحليس بن زبان.

اتخذت قريش مواقعها في (وادي بلدح)، بالتنعيم داخل حدود الحرم وقريبًا من الحديبية، لمنع الرسول ﷺ من الدخول إلى مكة.

كان المسلمون عازمين على الدخول لأداء العمرة، سلمًا أو حربًا، فما إن اقترب الرسول ﷺ من حدود الحرم حتى بركت ناقته (القصواء) ولم تنهض رغم كل المحاولات، فقال المسلمون: (خلأت القصواء) فقال ﷺ: «مَا خَلَّاتُ وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلَّتٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ».

لقد أدرك الرسول ﷺ التوجيه الإلهي فقال: «لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحْمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد عزم على فتح باب المفاوضات، واتخذ طريقاً لفض المنازعات، فكانت حادثة القصواء نقطة تحول في تاريخ الفكر الإسلامي، والإستراتيجية الإسلامية في التفاوض. أمر الرسول ﷺ أصحابه بالنزول على بئر الحديبية وعسكر المسلمون وهم قادرون على الدخول عنوة، لكنه ﷺ أثر حقن الدماء، ودخل في امتحان مع الصبر. نظم رسول الله ﷺ خطة الحراسة وجعلها في ثلاث فصائل من الأنصار، وهم عبّاد بن بشر، وأوس بن خولي، ومحمد بن مسلمة رضي الله عنه.

بدأ ﷺ بالخطوات السلمية، حالما استقر به المقام في الحديبية، فبعث إلى قريش من يبلغهم رسمياً أنه لم يأت للحرب، وإنما جاء مسلماً لا يبتغي غير أداء مناسك العمرة، ثم الانصراف إلى المدينة. عين مبعوثه الخاص (خراش بن أمية الكعبي رضي الله عنه) وحمله رسالة شفوية إلى قريش، وأوصاه أن يحاول إقناعهم بترك التصلب، وأن لا يكونوا سبباً في حرب مدمرة، وأن يتركوه وأصحابه ليقضوا مناسكهم ثم يعودوا إلى المدينة.

انطلق خراش رضي الله عنه بالمهمة، على جمل لرسول الله ﷺ يقال له: الثعلب، لكن بعض المتصلبين من قريش وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل عقروا الجمل، وأرادوا قتل المبعوث لولا تدخل العقلاء، فعاد خراش وطلب من الرسول ﷺ أن يبعث رسولاً أمتع منه.

لقد بادر ﷺ بإبداء حسن النية وإظهار النوايا السلمية، والحرص عليها، لقد أبدى حسن النية حين أخبر قريشاً أنه لم يأت لقتال أو عدوان، بل جاء للعبادة والنسك، ثم أظهر النوايا الحسنة بأن أرسل مبعوثاً خاصاً لشرح وجهة النظر، وجعله من حلفاء بني مخزوم لتكون له حظوة، وأعطاه واحداً من جماله. بين ﷺ حرصه على السلام رغم التحدي والإثارة، حين تصدّى بعض القرشيين للمبعوث النبوي، وعقروا الجمل، وحاولوا قتل المبعوث، وردوه على عقبه.

إن النبي ﷺ يعلم أن التفاوض، هو الوسيلة المثلى لحل المنازعات الدولية، وهو الطريق للتفاهم المباشر بين الطرفين، فيما يعتبر مصلحة لهما، فالحلول لا تتم إلا بالاعتناع، وهو ما تحققه المفاوضات؛ لأن المفاوضات، ليست إجراءات شكلية، بل هي قضية تتطلب توافر النيات الحقيقية، والاستعداد السليم من كلا الطرفين للوصول إلى حل يرضيها.

إن من يملك إرادة السلام لا بد أن يتمتع بالصبر والمرونة، وأن يراعي فيها حقوق الطرف الآخر، فالمفاوضات لا يكتب لها النجاح إذا عزم أحد الطرفين على أن يكون هو الكاسب الوحيد.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٥٥-٦٤].

## ١٠ - تمتع النبي ﷺ بقدر وافر من الفراسة، وتصرفه المناسب حيالها:

يقول د/ فيض الله: «تالت رسل قريش على النبي ﷺ قبل عقد الهدنة، وكان يتفرس - بما منحه الله من قوة النفوذ، إلى حقائق الرجال، وبواطن الأمور- في كل واحد ما يكشف عن حقيقته، ويتلخص فيه شخصه:

فقد تفرس في مركز الغدر، وقال لأصحابه: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، ولم يغير موقفه منه، وأخبره بأنه إنما جاء لزيارة البيت، وتعظيم حرمة، وأنه لم يأت يريد الحرب.

أما الحليس، سيد الأحابيش، فقد تفرس فيه الديانة والتعبد، وتعظيم أمر الله، فكان قد أمر بقذف الهدى ونثره تلقاء كي يراه، فبيعه ذلك على إقناع قومه، بصحة عزم المسلمين على الزيارة والقربى لرب العالمين، دون الحرب والقتال...

وفعلًا، كان الأمر كذلك، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من جانب الوادي، وفي أعناقها القلائد، وقد ساءت حالها، لطول حبسها عن مواطن نحرها، حتى تأكلت أوبارها، آمن بصدق الخروج، ونبل المقصد، وهو تعظيم الشعائر والبيت، فرجع إلى قومه، دون أن يقابل الرسول ﷺ اكتفاءً بما عاين، وأخبرهم بأن خروج المسلمين لزيارة البيت، وجانب الوادي يسيل بالهدي، وفيض بالقلائد، ولا ورود لفكرة الحرب في أذهانهم.

ولئن لم يقتنع المشركون بذلك، عنادًا وكفرًا وبغيًا، لكن موقف الحليس من كفرهم وبغيهم، كان أن استنكره واستكثره، فقال لقريش: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقِدْنَاكُمْ، أَيْصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُحْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرَّنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفَرَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

وحسب النبي ﷺ والمؤمنين في هذه الفترة الحرجة، أن يدافع عنه حيال المشركين حلفاؤهم، وأن ينتصر له بعضهم.

لقد أوفدت الفراسة الوضيئة الكاشفة، والتصرف الموفق في إثرها، رسولاً إلى المشركين من أنفسهم، يعرض وجهة نظر المسلمين، ويررها تبريرًا كافيًا، فلئن لم يكتب له تمام التوفيق، فقد كان له فضل في تليين القلوب، وتبصير العقول، وإحسان التمهيد لعقد الهدنة.

إن النجح لا يُصاب جملة واحدة، وإنما يُنال بعد مخططات مرسومة مصممة، وخطوات دائبة».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٨٤-٢٨٥].



## ١١ - يبدد شمل عدوه بالرأي لا بالسيف:

يقول الشيخ الخولي: «وكان نود لو اتسع المقام للحديث عن موقفه فيما أهدت خراعة إليه من هدايا الإبل والغنم، إذ كان شأنه فيها كأحدهم، وقد عرفنا أن الشياه وزعت علي مجموعات الجيش، فلم يكن نصيبه ﷺ من شأنه إلا كنصيب أي فرد في مجموعته، وهو القائد الأعلى للجيش، والناس يعلمون أن صغار الضباط - لا كبارهم فحسب - يمتازون من الجند في كل شيء: من المطاعم، والملابس، والمرتبات في الجيوش الحديثة.

وكذلك كنا نود لو اتسع المقام للحديث عن شأنه من المناقق عبد الله بن أبي، إذ أخذ يقلل من شأن الآيات التي رفعت من إيمان الجيش حين رأوا البئر تحيish بالماء، فيقول: لقد رأيت مثل هذا من قبل.. وهي جريمة خطيرة تُعقد لها المحاكمات في الجيوش الحديثة، فإنه ليس أخطر على جيش ما من عوامل التخذييل التي تضعف ثقته بنفسه وبقائده، فكان من حلمه ﷺ وخلقه أن أعرض عنه، بعد أن أوقفه خزبان عريان أمام قومه، لا حيل له إلا أن يستغفر الله مما قال، فيعود أثر هذا الموقف في نفوس الجند حبًا للقائد وثقة به.. وهكذا يستخلص ﷺ من الأخطاء عبرًا تنفع المخطئين والمصيبين جميعًا، دون لجوء إلى عنف المحاكمات، ولبلة الأخذ والرد.. وما أجمل ما ينتهي به الموقف، إذ يتقدم ابنه كالمعتذر يطلب الاستغفار لأبيه، فيستغفر له ﷺ.

كنا نود ذلك، ولكن حسبنا تلك الإشارة لنعرض لموقف آخر أغنى فيه الحق عن إراقة الدماء، وقراع الكتائب، وبلغ من إذلال العدو، ما لم تقم له بعده قائمة.

ففي الوقت الذي كان يعلمهم فيه كيف يختارون الميتة الحسنة، كان يسن لهم مثلاً حكيماً في معالجة العدو، فإن الغاية من القتال، ليست إراقة الدماء، وتمزيق الأشلاء، وبث المآسي، إنما كان القتال - مذ كان قتال - وسيلة لترجيح إرادة على إرادة، وسيادة وجهة لوجهة؛ ليرتب على ذلك من الحقوق الحسية والمعنوية ما يرتب.

والإسلام لا يبغي سوى تغليب إرادة الحق على إرادة الباطل، في نفوس الأفراد ونظم الجماعات، ويتسنى ذلك طبعاً بتقويض شأنه في نفوس ذويه بالبرهان الحق والموعظة الحسنة، أو إضعاف شوكتهم وتوهين بأسهم على أي صوره من الصور، فإن تأتّى ذلك بنفوذ الرأي وصدق السياسة، فهو الغرض الذي لا حول عنه، ومن الإثم والعجز إثثار غيره عليه.

ولقد كان ﷺ في تعليم أصحابه قدسية الموت، يهيء نفوسهم للقتال، إذا لم يكن منه بُدٌّ، وينظر في الموقف نفسه يلتمس منافذ للرأي توهن بأس الشرك، وتذل من عتوه وكبرائه إذا استطاع.

ولقد نظر فما لبث أن تبين موطن البطلان من موقف عدوه، ووهن الأسباب التي جمعت إليه أحلافه وأنصاره، فما أن عرف نقطة الضعف حتى سدّد إليها سهماً بصيراً من كنانة الحق، أصابها في الصميم، فنفض العروة، وأوهن العزم، وترك حمية الجاهلية تترنح فلا تجد ما تستند إليه.

لقد جاء سفراؤهم: بديل بن ورقاء، وعروة بن مسعود، والحليس بن علقمة، فلقي كلاً منهم بالأسلوب الذي يلائمه، ويقع من نفسه الموقع الذي يحقق ما يرجوه من هدف، فإذا السفراء يسمعون العدل والنصفة:

١- «إِنَّا لَمُ تَأْتِ لِقَاتِلَ أَحَدٍ، إِنَّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ هَذَا الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتِلُنَاهُ».

وذلك ما يقوله كل عربي، فلا يجد من يلومه أو يخذله، فاليبت بيت عبادة للعرب كافة، وليس لأحد - قريش أو غيرها - أن يصد عنه مَنْ جاءه زائراً، لا يملك ذلك أحد، ولم يحدث في تاريخ العرب قط، والقوم على جاهليتهم لم يكن لهم من مآثرة محمودة إلا تعظيم حرمة هذا البيت إلى أعظم مدى.

ويسمع عروة بن مسعود كلام محمد ﷺ ذاك، يسمعه مرة من بديل بن ورقاء، وأخرى من محمد نفسه، فكانما تتحل عن كاهله أحمال وأثقال، وتزول عن بصره غشاوات فيبصر ما لم يكن يرى، وتذهب من قلب الرجل كل موجدة دفعته للخروج، بل لعل الموجدة انقلبت عتباً على قريش، وعطفاً على محمد ﷺ، فإن قومه إنما جاؤوا لقتال من يريد البيت بسوء، ولم يجيئوا ليلحدوا فيه برد من جاءه معظماً له.

٢- ويسمع السفراء، ويسمع عروة بن مسعود خاصة، وهو سيد ثقيف، ورجل قريتها العظيم، يسمع اقتراحاً عجيباً في السلم، ليس بعده شأو لمسلم، فمحمد ﷺ يعرض استعداده للاتفاق على مدة، يأمنهم فيها ويأمنونه، لا يعرض لهم بحرب، ولا يعرضون له.

ولو صدر ذلك الاقتراح عن رجل من دهاة ساسة هذه الأيام، لكان بالغ الشأو في بابه، ولكنه ﷺ لم يكن بحاجة إلى حيلة فيها كذب، ولا رأي يعتمد المداينة والختل، فإن بصيرة الحق تكفيه ذلك كله، فقد كان بحاجة إلى السلم، يأمن به جانب هؤلاء، ويفرغ لدعوته مع الآخرين، وكان يعرف مدى رغبات ثقيف والأحباش في سلم البيت، وتأيد مَنْ يدعو إليه، ويدرك مدى الانخزال والوهن الذي يصيب قريشاً بتقرير ذلك السلم، فما أن يسمع عروة ذلك حتى ينقلب إلى القوم بوجه غير الذي ذهب عنهم به، ويأتيه السفير حليس بن علقمة، سيد الأحباش، والرجل من قوم ذوي نسلك وتعبد، فيرى ﷺ أن يجيب سفارته بلسان الحال، لا بلسان المقال، فيقول ﷺ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (يتعبدون ويعظمون) أمر الإله)، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فانطلقت البدن في الوادي مقبلة عليه قد أسعرت وقلدت في انتظار القدوم على البيت، ورفع المسلمون أصواتهم بالتلبية: (لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك

لبيك... إلخ)، فما أن عاين الرجل منظر هذا النسك، حتى وقع في نفسه ما وقع، وقال: سبحان الله! ما يحل لمثل هذا أن يصد عن البيت، وقفل راجعاً دون أن يتم رحلته.

ويرجع السفراء الواحد بعد الآخر.

فيقول بديل بن ورقاء: يا قوم، إن محمداً يعرض عليكم كذا وكذا، فينهرونه، ويتهمونه.

ويقول عروة بن مسعود: (إن بديلاً قد جاءكم بخطة رشد، لا يردها أحد إلا أخذ شراً منها، فاقبلوها منه)، ولما جاء هو من عند محمد ﷺ قال: (يا قوم، قد عرض عليكم خطته، فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح... مع أي أخاف ألا تنصروا عليه، رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدي ينحره وينصرف). ولم يكن عروة يتكلم عن نفسه، بل كان يتكلم بلسان مَنْ جاء معه من ثقيف، فهابوه، وقالوا: لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، يخشون أن يُعرف رأيه فيكون له أثره في الناس، ولكن الرجل تخلى عنهم وعاد بقومه إلى بلده، فكان له في نفوس المجتمع كله ما كان.

أما الحليس سفيرهم الثالث فقد عاد يقول: (قَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ)، فلما رآهم لا ينشطون لقوله صاح فيهم: (أَيْصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُحْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تُفَرَّنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفَرَةٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ).

ويحل الانزعاج بالقوم، فتقيف تتخلى عنهم بالأمس وترجع، والأحابيش يهددون بالعودة إن لم يُجيب محمد ﷺ إلى طلبه، وليس أنكى للمبطل وأسرع في تحذيله من انفضاض أحلافه عنه، وفي ذهول الصدمة وانكسار الحمية قالوا: (كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنُقْسِمَا مَا نَرْضَى بِهِ).

ولما جاءهم سهيل بن عمرو بصاحبيه أول مرة، وقص لهم ما رأى من روعة البيعة، ومسارعة الصحابة إلى الموت، زاد ما بهم من انكسار ورعب، وطلبوا إليه أن يرجع إلى صلح محمد ﷺ، فلما رآه ﷺ مقبلاً بصاحبيه قال: (أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ).

وهكذا آل أمر القوم، فبعد أن لبسوا جلود النمر، وخرجوا بالعوذ المطافيل، يتقاسمون بحمية الجهل ألا يدخلنها عليهم محمد ﷺ أبداً، عادوا فلبسوا جلوداً أخرى، وترنحت حمية الجهل في صدورهم، فلم تجد ما تستند إليه إلا أن تعرض الصلح على محمد ﷺ.

ولم نسمع من قبل، ولا من بعد بقائد فرّق عدوه، وأذل كبريائه، حتى اضطر فلوله أن يسأله المهادنة، دون أن يسئل سيفاً، أو يريق قطرة دم، أو يلجأ إلى حيلة فيها كذب، أو رأي يعتمد المداهنة والختل، إلا بصيرة الحق في ضميره، تنير له مسالك الرأي، وتحسن له تسديد الأمور، صلى الله عليه وسلم.

[من أسرار الفتح للخولي ٦٠-٦٥].

ويقول د/ العوا: «وهكذا عادت رسل قريش إليها ينذرونها سوء العاقبة إن هي صدت محمدًا ﷺ عن البيت الحرام، وأخذ قريشًا كبيرها وحمية الجاهلية: أن يقول الناس دخل محمد ﷺ عليهم مكة وهم كارهون. وكانت نتيجة هذه الأنفة الجاهلية أن انصرف (الحلفاء) الذي استعانت بهم قريش عنها، فعاد عروة بن مسعود ومن معه من ثقيف إلى الطائف، وانصرف الحليس بن علقمة الكناني ومن معه عن مكة إلى دورهم وبيوتهم غضابًا من منع قوم أتوا يريدون اعتماد البيت من دخول الحرم، وهكذا انقلب على قريش أقرب من استعانت بهم إليها، وجعل الله تدمير مكرها في تدبيرها إياه، وكذلك عواقب الظالمين لا تكون إلا خسرانًا وخيبة!

وقد أبى الله ﷻ - منذ البدء - إلا أن ينصر نبيه ﷺ، فقد انصاعت قريش في خاتمة المطاف، بعد خسارتها هؤلاء الحلفاء، إلى اقتراح النبي ﷺ: أن تكون بينها وبينه مدة (هدنة) يأمن الفريقان فيها، فكانت هذه المدة هي الفتح المبين للنبي ﷺ، وبدء التمكين لدينه في أرض العرب كلها». [الحديبية للعوا ٧١].

## ١٢ - قريش... والصلح:

يقول أ/ الشامي: «لقد أذهل مجيء رسول الله ﷺ قريشًا، فلم يمحض إلا أشهر على غزوهم له، وحصارهم للمدينة، وها هو الآن يأتي مع أصحابه، وكأن الصلة بينه وبين أهل مكة صلة ود وعطف، فانبعثت بتجهيز نفسها لصدده، وها هي مقدمتها وطليعتها بقيادة خالد بن الوليد خارج مكة لتمنعه الدخول.

إن العداء ومرارة الكُره له ﷺ بلغت ذروتها، ثم إن سمعتها اليوم معرضة للذل الذي ليس بعده ذل؛ ولذا فهي مصرة ألا يدخل محمد ﷺ مكة مهما كانت النتائج.

أما رسول الله ﷺ، فإنه يخرج لأداء نسك، ومكة بلد الله الحرام ما ينبغي أن يُصد عنه من جاء معظماً له، أما الكُره والحقد، فما عرفه رسول الله ﷺ، ولكنه كان حبه لله وبغضه لله، وهو بهذا يكره قريشًا، ويجب لها أن ترشد وتهتدي إلى سواء الصراط.

ووجدت قريش نفسها مضطرة لإرسال رسول يفهم قصد الرسول ﷺ من مجيئه ذاك، وكان ذلك بداية المحاوراة بين الطرفين.

لم يدر في خلد قريش أن صلحًا وهدنة ستكون بينها وبين رسول الله ﷺ وهم بالأمس قد ذهبوا لاستئصال شأفته، ولكن هذا كان بعض ما يفكر فيه ﷺ، وقد قال وهو في الطريق: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

وكانت المفاوضات أخذًا وردًا، كان موقف رسول الله ﷺ فيها ثابتًا، وهو أنه جاء معظماً للبيت، وكان موقف قريش ثابتًا، وهو أنهم لن يسمحوا له بدخولها عليهم عنوة.

ولعل الذي دعا قريشاً إلى التفكير في الصلح هو:

(أ) كلمة عروة التي وصف بها أصحاب محمد ﷺ ومحبتهم له واحترامهم ومبادرتهم لتنفيذ أمره، ذلك الأمر الذي يجعل منهم قوة لا تُقاوم، وقد جرّبوا القوة من قبل.

(ب) سماعهم بالبيعة بعد حجزهم عثمان ؓ - وسواء أكانت البيعة على الموت أم على عدم الفرار فالمؤدى واحد - وبهذا علموا أن الأمر جد، وأن حرمة مكة التي كانت سنداً قوياً لهم لن تمنع رسول الله ﷺ من عقابهم على سوء تصرفهم.

فمالوا إلى الصلح، وأرسلوا إليه سهيل بن عمرو وقالوا: أَنْتَ مُحَمَّدًا فَصَاحِلُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُوةً أَبَدًا.

كان ذلك شرطهم الأول الذي لا ينبغي لممثلهم أن يتنازل عنه، ففي ذلك حفظ لماء وجوههم، واستنقاذ لسمعتهم». [من معين السيرة للشامي ٣٦٦-٣٦٧].

### ١٣ - حويطب ومركز يستشفان الأمر:

يقول د/ أبو خليل: «لقد رأى سيد خزاعة بديل بن ورقاء، كما رأى سيد الأحابيش الحليس بن علقمة، كما رأى حويطب ومركز بن حفص، وكما رأى عروة بن مسعود الثقفي ما يصنع المسلمون برسول الله ﷺ من الإجلال والتعظيم والإكبار والتقدير والاحترام والتأدب في حضرته، حتى قال عروة لقريش: إِنِّي جِئْتُ كِمَسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَجِئْتُ قَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيَّ فِي مُلْكِهِمَا، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسَلِّمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، قَرُّوا رَأْيَكُمْ».

أمام هذا الواقع، وأثناء وجود مركز وحويطب، وبعد أن سمعوا سمعاً، ورأوا ما رأوا، قال حويطب: لَا تَأْخُذْ مِنْ مُحَمَّدٍ نَصَفًا أَبَدًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى يَدْخُلَهَا عَنُوةٌ، فَقَالَ مَكْرَزُ: أَنَا أَرَى ذَلِكَ.

لقد تيقن وجهاء قريش وأصحاب الرأي فيها منذ الحديبية، أن زمام الأمر أفلت من بين أيديهم، وسيدخل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ مكة فاتحين، ولا قبل لهم بهم بعد موقفهم هذا». [صلح الحديبية لأبي خليل ١١٨-١١٩].

### ١٤ - مفهوم الدبلوماسية:

يقول د/ الفيتوري: «الدبلوماسية تجمع - كما يقال - بين فن الممكن، وفن التوفيق، وفن الإكراه، فهي الجهة أو الوسيلة التي لها المقدرة على تنفيذ سياسات الدولة وتحقيق أهدافها الخارجية بأساليب التفاهم والتفاوض والحوار والمساومة من دون استخدام أساليب القتال. [ينظر: الإستراتيجية والسياسة الدولية، والمفاهيم والحقائق الأساسية، للدكتور إسماعيل صبري مقلد، مؤسسة الأبحاث العربية ص ٣٨].

ومن جهة أخرى فهي قناة الاتصال التي تمر عبرها التهديدات المتبادلة بين القوى في هذه الصراعات، كما ظهر من أساليب وغايات الوفود الشعبية والرسمية التي كانت بيت الدولة الإسلامية ودولة الجاهلية من خلال وقائع صلح الحديبية». [صلح الحديبية وأبعاده السياسية المعاصرة للفيتوري ٩٥].

#### ١٥ - التمهيد للتفاوض:

يقول د/ إبراهيم: «عادة ما تسبق عملية التفاوض عمليات تمهيد من جذب وشد مختلفة ومتعددة، حتى يقيس كل طرف قدرة الآخر على الاحتمال، وتوقع ردود الفعل المحتملة، ومعرفة أنسب الحلول، ومحاولة كل طرف الضغط على الطرف الآخر لقبول شروط أو التنازل عن شروط.

معرفة النوايا: الآن النبي ﷺ على رأس مكة في الحديبية ومعه ألف وأربعمائة معتمر مسلح، فماذا يريد أن يفعل؟ هذا هو السؤال الذي أراد المشركون في مكة معرفة إجابته؛ لذلك أرسلوا للنبي ﷺ بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، وهم بذلك كانوا يضغطون على النبي ﷺ؛ لأن «بديلاً» من خزاعة التي كانت على علاقة وثيقة بالنبي ﷺ، فبال تأكيد لن يداري عليه النبي ﷺ وإلا خسر المسلمون هذه العلاقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِْ لِقَتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَا دَدْتَهُمْ مُدَّةً، وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَّوْا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي، وَلَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

هكذا وضح النبي ﷺ هدفه وأنه لم يأت يريد حرباً وإنما أتى زائراً للبيت ومعظمًا لحرمة يريد السلام للجميع، وعرض الصلح.

فرجع بديل ورفاقه إلى قريش فقالوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ تَعَجَّلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتِ مُعَظَّمًا لِحَقِّهِ.

هنا ثار المشركون لكرامتهم التي ستهدر على يد أحد أبنائهم المارقين - في ظنهم - فقالوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عَنُوءٌ، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ.

ثم أرسلت مكرز بن حفص وهو غادر سيء الخلق كما قال النبي ﷺ عندما رآه، ومع ذلك سمع منه النبي ﷺ وقال له مثل ما قال لبديل بن ورقاء.

ثم أرسلت قريش أحد حلفائها وهو الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وكان معروفًا برجاحة عقله، وتعظيمه شعائر الله فأرادت بهذا أن تشهد على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ بَنَاءُ لِهَوْنٍ، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ»، فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عَرْضِ الْوَادِي فِي فَلَاتَيْدِهِ، وَقَدْ أَكَلَ

أُوبَارُهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحَلِّهِ، رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، فَقَالَ هُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: أَنَّ الْحُلَيْسَ غَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالِفَانَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقِدَانَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَاءَ مُعْظَمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتَحْلُنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تَفْرَنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كَفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِنَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٣١٢/٢].

وهنا نسجل أول تأييد للنبي ﷺ من أحد أحلاف قريش.

وهذا درس نبوي في التفاوض، حيث نلاحظ أن النبي ﷺ كان على علم بصفة كل من أقبل عليه، وشخصيته، بل وعاداته الخاصة، مما سهّل له التعامل مع كل واحد منهم بما يناسبه، مما يفيد في اتجاه الهدف الأساسي للتفاوض.

جس النبض: بعد أن يعرف كل طرف نوايا الطرف الآخر تبدأ مرحلة جس النبض حيث يحاول كل طرف معرفة ما يستطيع الطرف الآخر فعله، وما يمكن التنازل عنه، وما لا يمكن التنازل عنه. أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي لجس نبض النبي ﷺ ومحاولة التأثير عليه وعلى المسلمين، وهنا نستطيع أن نسجل أول بداية للتفاوض (Situational Negotiation) وهو أن يقوم المفاوضون بإجراء مباحثات لا تترتب عليها أية التزامات، إنما الغرض هو تأثير كل طرف في الآخر حتى يسهل التنازل أثناء المفاوضات، وسبر غوره؛ حتى يصبح لدى كل طرف تصور كامل عن أهداف وقدرات الطرف الآخر). ولهذا فإن عروة:

- حاول أن يُبعد النبي ﷺ عن فكرة غزو مكة بقوله: يَا مُحَمَّدُ، أَجْمَعْتَ أَوْشَابَ النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ لِنَقْضِهَا بِهِمْ، ومقصود الكلام جمعت مختلف أنواع الناس لتغزو أهلك.

- حاول تخويف النبي ﷺ من قوة قريش فقال: إِنَّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلْهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ أَبَدًا.

- حاول إظهار ضعف المسلمين وإثارة الفرقة بينهم فقال: وَإِيمُ اللَّهِ، لِكَاثِي بِهِؤُلَاءِ - يقصد المسلمين - قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ عَدَا.

- محاولته النيل من ذات النبي ﷺ وإشعاره بالدونية بالعبث في لحية النبي ﷺ الشريفة.

هذا ما قام به عروة أثناء هذا النقاش، فماذا كان رد النبي ﷺ عليه؟

يلاحظ من كتب السيرة أن النبي ﷺ طوال هذا الوقت كان مُنصتًا لم يقل شيئًا، وهذا هو أبرع الردود بين المفاوضين في مثل هذه الحالة، وهو الصمت، وهذا ما فعله النبي ﷺ، كذلك لم يعاتب النبي ﷺ أبا

بكر ﷺ عندما سبَّ عروة، ولا عاتب المغيرة بن شعبة ﷺ عندما ضرب يد عروة بالسيف وهدده بقطعها إذا لامست لحية النبي ﷺ الشريفة مرة أخرى، وكأنه ﷺ يقر ما قاما به، (وما فعله أبو بكر والمغيرة من التكتيكات المستخدمة في التفاوض حيث يقوم طرف بتصرف عنيف Behavior Outrageous ردًا على كلمة أو تصرف من الطرف الآخر حتى لا يتخطى حدودًا معينة).

كل ما سبق والنبي ﷺ لا يفعل شيئًا، ولم يقل شيئًا، فقط يتبسم، وهذا من أعظم الأساليب التي تُستخدم في مثل هذه الظروف عدم الالتفات للتصرفات الهوجاء والانتباه للغرض الأساسي؛ لهذا أعاد النبي ﷺ على عروة ما قاله لمن سبقه من أنه جاء للعمرة فقط، ولن يمنعه عنها شيء. وعندما عاد عروة عاد منهزمًا مملًا، وقال لقريش إن ما رآه عند النبي ﷺ لم يره عند كسرى أو قيصر ولا النجاشي، فانظروا ماذا تفعلون.

وهنا نسجل ثاني تأييد لموقف النبي ﷺ من أحد حلفاء قريش. كذلك قام النبي ﷺ بخطوات تكتيكية مضادة حتى يؤثر في قريش وفيمن معها من الأحلاف، فأرسل النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي ﷺ وحمله على بعير يقال له: الثعلب؛ ليلجأ أشrafهم عنه ما جاء له، ففعلوا جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فأنقذه الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ. وبهذا أظهر النبي ﷺ سوء تصرف القرشيين مع الرسل أمام العرب، وكذلك عرف أنهم لا يملكون أية حلول واضحة؛ لأنه لو عندهم حل لاستمعوا وردوا، أما التهجم على مبعوث النبي ﷺ فهو دليل على إفلاسهم.

ثم بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ حتى يوضح لهم ما يريده النبي ﷺ. ونلاحظ أن النبي ﷺ في هذه المرة بعث أحد أكابر الصحابة وزوج ابنته حتى يوضح للجميع أنه إنما جاء للسلام.

قياس القوة: عندما تقترب المفاوضات الحقيقية يبدأ كل طرف قياس قوة الطرف الآخر ومدى قدرته على التحمل والصبر، وإلى أي مدى يمكن الضغط عليه. حاولت قريش معرفة قوة النبي ﷺ وهل يستطيع غزوها أم لا، وإلى أي مدى ممكن أن يتنازل النبي ﷺ وذلك في عدة مناسبات، منها:

- إذاؤها خراش ﷺ رسوله وعقر جملة.

- أرسلت قريش بعضًا من شبابها محاولة منها إثارة النبي ﷺ والحصول على أسرى يمكن استخدامهم فيما بعد، فقبض النبي ﷺ عليهم ثم تركهم سالمين حتى لا يُفسد ما جاء من أجله وهو السلام، وكذلك حتى يوضح للعرب أنه إنما جاء مسالمًا، ويضع قريشًا في موقف حرج.



- تعمّد الكفار تأخير عثمان ؓ حتى سرت إشاعة أنه قُتل؛ لقياس المدى الذي يمكن للنبي ﷺ تحمله.  
بعد كل ما فات من احتمال النبي ﷺ لعقر جملة ومحاولة قتل رسوله، وكذلك عفوهُ ﷺ عن شباب قريش المتسللين، كان لابد من الوقوف وإثبات أن هذا تم عن قوة وليس عن ضعف، فلو سكت النبي ﷺ عما أُشيع من مقتل عثمان ؓ لتيقن الكفار من ضعف همة النبي ﷺ وأصحابه عن القتال، وعدم قدرته على غزوهم، وكانوا إما حاربوه ﷺ أو فرضوا شروطهم بالقوة عليه؛ لذلك عندما أُشيع أن عثمان ؓ قُتل لم يخير النبي ﷺ الصحابة أو يستشيرهم كما شاورهم في محاربة خالد بن الوليد عندما تعرض لهم على طريق الحديبية، إنما قال ﷺ: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ»، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة على الموت أو عدم الفرار، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبلغ هذا قريشاً، فعرفت أن للنبي ﷺ القوة على القتال، وأنه غازيهم لا محالة، فأدركوا أنه لا مناص لهم من التفاوض.

وهذه المبادرة القوية (بيعة الرضوان) لو لاحظت أخي القارئ كانت مقصودة من النبي ﷺ، أتذكر أن النبي ﷺ قد بايع لعثمان ؓ وقال: «إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةٍ إِلَهِ وَحَاجَةٍ رَسُولِهِ»، معنى هذا أن النبي ﷺ يعلم أن عثمان ؓ لم يُقتل، ولكنه ﷺ هنا أراد توجيه رسالة واضحة وصريحة للقريشيين: أنه لابد أن تتفاوضوا الآن وإلا...». [محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٤٥-١٥١].

#### ١٦ - المعاهدات السياسية والمفاوضات السياسية:

يقول د/ عشقي: «يكثّر الحديث اليوم عن المعاهدات السياسية والمفاوضات السياسية، فالحديث عنهما يعتبر ظاهرة صحية تسود المجتمعات العربية والدولية.

لأن النزاع بين الدول، لابد أن يفضي إلى واحد من اثنين: إما المفاوضات، وإما الحرب.

فالمفاوضات الدولية: هي المرحلة الأولى من مراحل المعاهدات، وهي تبادل الرأي بين دولتين متنازعتين، بقصد الوصول إلى تسوية للنزاع القائم بينهما.

والمعاهدة: هي اتفاق يُبرم بين أشخاص القانون الدولي، لإحداث نتائج قانونية معينة، وهي عقد مباشر يتطلب إجراؤه ثلاث مراحل منفصلة هي: المفاوضة، والتوقيع، والإبرام.

وهناك فرق بين المعاهدات الدولية، والاتفاقات الدولية، فالمعاهدات (Treaties) يشترط فيها تدخل رئيس الدولة، بينما لا يتطلب في الاتفاقات (Agreements) تدخل رئيس الدولة لا انعقادها، بل تعقد بواسطة وزراء الخارجية أحياناً، وأحياناً تعقد بواسطة ممثلين سياسيين.

لهذا نجد، أن الاتفاقات تمتاز بسرعة الإجراءات؛ لأنها لا تتطلب سوى مفاوضة، وتوقيع، فإذا كان لتدخل رئيس الدولة أثر في توضيح الفرق بين الاتفاقات والمعاهدات، فإن الإبرام أيضاً يعتبر أحد المعايير

القانونية المقبولة لإظهار الفرق بين المعاهدات الدولية، والتعهدات الدولية المبسطة، المتمثلة في الاتفاقات الدولية، وهذا يتضح الفرق بين المعاهدات الدولية والتعهدات الدولية الذي يبنى على الشكل دون المضمون.

فالشكل المبسط للتعهدات والاتفاقات، لا يجعلها تقتصر على الأعمال السياسية الأقل أهمية فقط، بل نجدها تُعالج أيضاً أموراً أكثر حساسية، مثل توقيع التحالف بين الدول، واستئناف العلاقات السياسية، وتطبيق نظام الإعارة والتأجير للقواعد العسكرية، وتنظيم الاستعمال السلمي للطاقة النووية. ويدخل في إطار التعهدات، موثيق الشرق المدونه في المصطلحات القانونية تحت عنوان (Agreements, Gentlement)، ومع أن هذا النوع من الاتفاق يعتبر اتفاقاً دولياً، إلا إنه اتفاق خال من النتائج القانونية الملزمة، ما يجعله يندرج في قائمة الآداب السياسية.

والمعاهدات تنقسم بحسب الطابع المادي، إلى معاهدات تعاقدية، ومعاهدات شارة، كما تنقسم من حيث الشكل، إلى معاهدات ثنائية ومعاهدات متعددة.

والعالم العربي في خضم هذه المتغيرات، في حاجة إلى العودة إلى التراث الإسلامي للاستهداء به في المناهج التفاوضية وصياغة المعاهدات وأهدافها.

لقد كانت المعاهدات الدولية في الجزيرة العربية قبل الإسلام تأخذ في مجملها الطابع العرفي، إلا أن صلح الحديبية قد أحدث انقلاباً في مفهوم المعاهدات، حيث أصبح نظاماً قانونياً وسياسياً متكامل الجوانب.

لقد بدأت معاهدة الحديبية بالمفاوضات السياسية؛ ولأنها معاهدة ثنائية فقد تمت مفاوضاتها بواسطة الدوائر السياسية، إذ لو كانت متعددة الأطراف، لجرت المفاوضات في إطار مؤتمر أو اجتماع سياسي.

إن المنهج السياسي المعاصر، قد جعل المفاوضات الدولية من صلاحية واختصاص الجهاز التنفيذي، أي الحكومة ورئيس الدولة، وقد أصبح قيام رؤساء الدول بإجراء المفاوضات أمراً استثنائياً كما أصبحت المفاوضات الدولية، تستند إلى مجموعة من السياسيين، والقانونيين، والفنيين، ويشترط أن يكون لدى هؤلاء المفوضين صلاحيات مطلقة، وموثقة، ومكتوبة، تصدر عن رئيس الدولة، وهذه الوثيقة من شأنها أن تشير إلى التفويض بإبرام المعاهدة أيضاً، لكن التصديق اللاحق يصبح من اختصاص رئيس الدولة.

والمفاوضات، عادة ما تنتهي بتحرير نص مكتوب، هو المعاهدة التي تُوقع بعد الانتهاء من صياغتها. ويتم التوقيع على المعاهدة على مرحلتين: المرحلة الأولى وتكون بالأحرف الأولى، ويقوم بالتأشير عليها المفوضون المطلقوا الصلاحية، ومن ثم يأتي التوقيع النهائي، لكن المفوضين إذا زودوا بالسلطات الكاملة للتوقيع، أصبح توقيعهم نهائياً.

بدأت معاهدة الحديبية، باتصالات تمهيدية قام بها عروة بن مسعود الثقفي، حليف قريش، وسيد قبائل ثقيف، كان الغرض من هذه الاتصالات، هو التخفيف من غلواء قريش وعنادها، وتهدة الموقف، ونزع فتيل الحرب.

ومع أن عروة هذا يعلم أن مطالب النبي ﷺ كانت عادلة تنحصر في أداء العمرة في مكة المكرمة والعودة دون قتال، إلا أنه يدرك أيضًا، أن صد قريش للمسلمين عن بيت الله الحرام مخالف للنواميس الدينية، والأعراف العربية، خصوصًا وأن على رأس القاصدين للعمرة ابن عبد المطلب. وكممثل لقريش، لم يرض عروة لهم الدّنية بين العرب، بل عقد العزم على إقناع المسلمين بالعودة إلى المدينة المنورة.

ومن خلال الاتصال الذي أجراه عروة، تبين له أن المسلمين عازمون على دخول مكة والطواف بالبيت، كما وجد في المسلمين وحدة وقوة لم يعهدها، كما رأى تفانيًا من الصحابة في حب النبي ﷺ، ما رآه كما قال: في ملوك الروم وفارس والأحباش.

عاد عروة إلى قريش منذرًا ومحذرًا، فكان من تأثير ذلك أن انتقلت قريش، من إرادة القتال، إلى إرادة التفاوض، وإجراء الصلح بما يحفظ ماء الوجه، وأسرؤا بذلك إلى عروة الذي أراد أن يقطع عليهم خط الرجعة، بأن سحب جماعته وعاد بهم إلى الطائف، مما أضعف لديهم خيار المواجهة، وعزز لديهم خيار الصلح.

تحت تأثير المعارضة القرشية لفكرة الصلح، وطمعًا في عدم الرغبة لدى الرسول ﷺ في الحرب، وعزمه على قبول ما تعرضه قريش لحقن الدماء، وصيانة حرمة الحرم، فإن الموقف بقي في حالة اللاحرب واللاسلم.

أرادت قريش أن تبقى على هذه الحالة، حتى تشتد المعاناة على المسلمين، مما قد يضطرهم إلى العودة إلى المدينة المنورة.

بعثت قريش بمفاوض جديد هو مكرز بن حفص، كان معروفًا بالمرأعة والغدر، واختلف الرواة في إسلامه.

ما إن رآه النبي ﷺ مقبلًا حتى وصفه بالقول: «هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ»، لكن مكرز وجد من النبي ﷺ ثباتًا على المبدأ، فلم يغيّر عرضه الذي طرحه على بديل بن ورقاء وعروة بن مسعود، فعاد مكرز إلى قريش فاشلاً.

لم تجد قريش مبعوثًا خيرًا من الخُلَيْس بن زَبَّان سيد الأحابيش، وحليفها الأكبر لإجراء المفاوضات والوساطة مع المسلمين.

ما إن رآه النبي ﷺ حتى قال: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (يتعبدون ويُعظمون أمر الإله)، فَأُبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ».

رأى الحليس الهدي يسيل بقلائده في الوادي، وقد أكلت أوباره من طول الحبس، ورأى المسلمين يلبون وقد شعثوا وقملوا من طول المكث على إحرامهم، فقال متأثراً: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، أَيْ اللَّهُ أَنْ يُجْجَ لَحْمٌ وَجُدَامٌ وَنَهْدٌ وَجَمِيرٌ وَيُمْنَعُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، هَلَكْتُ قُرَيْشٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، إِنَّمَا الْقَوْمُ أَتَوْا عُمَارًا، أَيْ مُعْتَمِرِينَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ يَا أَخَا بَنِي كِنَانَةَ». [السيرة الحلبية ٢/ ٦٩٦].

ما إن سمع الحليس ذلك، حتى قفل راجعاً إلى قريش بعد أن تأكد من تزييفها للحقائق، فقال لقريش: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَا لَا يَحِلُّ صَدُّهُ، رَأَيْتُ الْهَدْيَ فِي قَلَائِدِهِ قَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مَعْكُوفًا عَنْ مَحَلِّهِ، وَالرِّجَالُ قَدْ تَقَلُّوا وَقَمِلُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهَذَا الْبَيْتِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٩٩].

«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا خَالِفُنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقِدُنَاكُمْ، أَبْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظِماً لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحَلِيسِ بِيَدِهِ لَتُحْلَلَنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا تَفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ».

طلبت قريش من الحليس أن يمنحهم الفرصة قائلين له: قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: «مَهْ! كُفَّ عَنَّا يَا حَلِيسُ، حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٢].

ويقصدون بذلك الصلح، واستجاب سيد الأحابيش لذلك.

لقد كان الأمر ثقیلاً على قريش، أيدخل محمد ﷺ في عِزَّةٍ وَمَنْعَةٍ، وقد خرج منها خائفاً يترقب؟ إن هذا الأمر معناه التصدع والانهيار لمركزها في نفوس العرب؛ لهذا التصور كانت قريش تتردد في الصلح.

قام دعاة الحرب في الجانب القرشي بإرسال جماعات أثناء الليل إلى معسكر المسلمين، بقصد القتل أو السرقة، إلا أن الحراسة الإسلامية أسرتهم جميعاً، وكان قوامهم سبعون رجلاً فأطلق الرسول ﷺ سراحهم قائلاً: «دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَنِثَاءٌ».

إن حُسن النية التي أبداها ﷺ زادت من بغى قريش واستفزازها، فعمدت على قتل رجل من أصحاب الرسول ﷺ يدعى (زنيمة) رماه المشركون فقتلوه، فبعث ﷺ ببخيل فأتوه باثني عشرة من الكفار، فقال لهم: «هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ عَهْدٌ؟ هَلْ لَكُمْ عَلَيَّ ذِمَّةٌ؟» قالوا: لا، قال: فأرسلهم رسول الله ﷺ؛

فأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح]. [تاريخ الطبري ٢/ ٦٣٠].

أراد الرسول ﷺ أن يُوفد مبعوثاً إلى قريش، فاعتذر عمر بن الخطاب ؓ، وأشار إلى الرسول ﷺ إرسال من هو أكثر منه منعة، فاستقر الرأي على عثمان بن عفان ؓ.

حمل عثمان ؓ رسالة خطية كما تقول بعض الروايات وانطلق بها إلى قريش، فكان أبان سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ضمن أول دورية تواجه عثمان ؓ، فبادر أبان إلى إدخال عثمان ؓ في جواره، وأصبح عثمان ؓ في حماية بني عبد شمس جميعاً.

اجتمع عثمان ؓ بقيادة قريش، وأبلغهم الرسالة النبوية وفحواها، أنه يخيرهم بين أمرين، إما الدخول في الإسلام، وإما السلام بينهم وبين المشركين، مع إبلاغ قريش أن النبي ﷺ لم يأت للحرب بل جاء للاعتماد وسيغادر مكة إثر إتمام النسك.

توجه عثمان ؓ إلى مكة، ليبلغ من لم يكن في بلدح من سادة قريش وجهة نظر النبي ﷺ، فأردفه أبان بن سعيد، وأدخله إلى مكة، ونزل عثمان ؓ في دار سفيان، وأبلغه كما أبلغ وجوه القوم فحوى رسالة النبي ﷺ، لكن أبا سفيان وبقية زعماء قريش رفضوا ما جاء في الرسالة النبوية.

طلبت قريش من عثمان ؓ أن يطوف بالبيت، لكن عثمان ؓ رفض ذلك، وأشيع بين المسلمين أن عثمان ؓ طاف بالبيت، فقال ﷺ: «مَا أَظُنُّ عُثْمَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْضَرُونَ».

ثم زار عثمان ؓ المستضعفين من المسلمين بمكة، وبشّرهم بقرب الفتح.

بقي المسلمون عشرين يوماً في إحرامهم، ممنوعين عن دخول الحرم، وقد تحلى ﷺ بالصبر والحكمة، لكنه ما إن تلقى الإشاعة بمقتل عثمان ؓ وعشرة من الصحابة كانوا معه، حتى أعلن الاستنفار لقوات المسلمين قائلاً: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ»، ودعا المسلمين إلى بيعة الرضوان فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنبَهُمْ فَفَتَحَ قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح].

لقد بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فكان أول من بايع سنان بن أبي سنان بن محسن ؓ، وبايع النبي ﷺ عن عثمان ؓ، فلما عاد عثمان ؓ أتى به إلى النبي ﷺ فبايعه عند الشجرة.

ما إن سمعت قريش بأمر البيعة، حتى علموا أنها القتال، فأشار عليهم سهيل بن عمرو وسيد بني عامر بن لؤي بطلب الصلح من المسلمين، استقر الرأي لدى قريش بأن توفد سهيل بن عمرو وبعض الزعماء من قريش إلى الحديبية ليستطلعوا الموقف تحت اسم المفاوضة، فشاهدوا جانباً من البيعة، وامتلاّت قلوبهم رعباً.

عاد الوفد القرشي بتقريرهم عما شاهدوا في الحديبية، وقدموه إلى نواب دار الندوة، وأسندوا النصح بالصلح، فاستجاب النواب القرشيون لذلك.

قال أهل الرأي من قريش: ليس خيراً لقريش من أن تصالح محمداً ﷺ، على أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع قابل، فيقيم ثلاثاً وينحر هديه وينصرف وقيم ببلدنا ولا يدخل علينا.

ثم عَيَّنُوا وفداً برئاسة سهيل بن عمرو، وعضوية حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وقالوا لسهيل: **إِنَّ مُحَمَّدًا فَصَاحُجُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَتُوًّا أَبَدًا.**

لقد كان التفويض صريحاً وكانت شروط المفاوضات متمثلة في شخص سهيل بن عمرو، فهو سيد من سادات قريش، يتميز بالعقل، والحلم، والاتزان، وأصالة الرأي، ويُعد النظر، كانت قريش تدخره لأهم القضايا وحل المعضلات، ولما رأت أن الموقف يوشك أن ينفجر، لم تجد غير سهيل على الساحة السياسية، فوسدت إليه رئاسة الوفد.

ما إن رأى رسول الله ﷺ سهيلاً حتى استبشر وبشّر أصحابه بالفرج وقال: **«قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلَحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ».**

افتتح سهيل المفاوضات بالاعتذار للنبي ﷺ عن عمليات التسلل إلى معسكر المسلمين في الحديبية، كما اعتذر عن احتجاز عثمان رضي الله عنه والمهاجرين العشرة رضي الله عنهم في مكة وقال: **مَنْ قَاتَلَكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِي ذَوِي رَأْيِنَا، وَلَا ذَوِي الْأَحْلَامِ مِنَّا، بَلْ كُنَّا لَهُ كَارِهِينَ حِينَ بَلَّغْنَا، وَلَمْ نَعْلَمْ بِهِ، وَكَانَ مِنْ سُفَهَائِنَا.** عقب هذا الاعتذار طلب سهيل من النبي ﷺ إطلاق سراح السفهاء المتسللين فقال: **فَابْعَثْ إِلَيْنَا بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ أَسْرَتَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَالَّذِينَ أَسْرَتَ آخِرَ مَرَّةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي غَيْرُ مُرْسِلِهِمْ حَتَّى تُرْسِلَ أَصْحَابِي»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَنْصَفْتَنَا.**

بعث سهيل بن عمرو الشتيمة بن عبد مناف التيمي إلى قريش، يطلب منهم إطلاق سراح عثمان بن عفان وأصحابه رضي الله عنهم، فأطلقوهم فأطلق النبي ﷺ الذين أسروا أول مرة وآخر مرة. لقد كانت عملية تبادل الأسري سهلة وميسورة، لكن سير المفاوضات كان معقداً، فقد طال فيه البحث والجدل، والأخذ والرد، والشد والجذب، فكان كل فريق يسعى إلى أكبر المكاسب وأقل التضحيات، فكانت حقاً مدرسة للمفاوضات، وستكلم عنها بالتفصيل في الفصول التالية.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٤١-٥٠]

#### ١٧ - الرغبة في السلم والمهادنة لا تعني أبداً المساومة على المبادئ:

يقول د/ فيض الله: **«بدت في إجابة النبي ﷺ بديل بن ورقاء، ومن معه من خزاعة، الرغبة في مهادنة قريش، طمعاً في تغيير موقفها في المستقبل؛ وبدت الإشارة إلى الاحتمالات المتصورة في هذه المهادنة:**

١- إن تم النصر بعدها للرسول ﷺ فلهم حرية الدخول في الدين الذي سبق إليه النصر.

٢- وإن كانت الأخرى وهي انكساره فقد استراحوا من عدوهم.

٣- وإن رفضوا الهدنة، فليقاتلهم حتى تضرب عنقه.

٤ - وإن الغلبة لهذا الدين.

وإنك لا تجد في الهدنة المعقودة، أقوى ولا أثبت ولا أحزم من هذه المتصورات، إن الاستعداد للهدنة، لا يساوي أبداً - في التصور الإسلامي - الحق، أو الاستهتار بالحق، بل إنها إتاحة الفرصة لاتخاذ الحق مجالات أخرى للدعوة، كما قال: «فَإِنْ شَاؤُوا مَا دَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ»، وإنها لا تعني أبداً تقليص المبدأ، أو نقص الحق.

إنها مهادنة القوي للقوي؛ لإتاحة فرصة التروي، ومكنة التفكير والتدبير، ولتكون بمثابة الإعذار فيما يتمخض عنه المستقبل، ولا صلة لهذا بالمبدأ، الذي له السيادة المطلقة، والقدسية التامة، والاعتبار الأكمل. إنها مهادنة إنسانية سالمة مثالية مؤمنة، تبغي الإصلاح ولا تبغي الفساد، وترجو الخير، ولا تفكر في الشر، وتريد - حتى للعدو - الحياة والسعادة، ولا تحيك له خيوط التآمر، والأخذ العنيف على حين غرة. إنها هدنة، وليست استسلاماً، وحسبك أن في طياتها الكثير الفريد الأثير من معاني الصبر والثبات: «لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي».

إنها هدنة الوائق من فائدة الهدنة، وثمراتها المرجوة، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الهدنة لم تكن إلا عن وحي أوحى إليه ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

إن الكلمات التي وقعت جواباً لبديل، تُذكر - في قوتها وتصميمها وثباتها - بقوله النبي ﷺ لعمه أبي طالب، لما كلمه في أن يبقى على نفسه، وعلى عمه، ويذر هذه الدعوة: «يَا عَمِّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ».

المبدأ هو المبدأ، والرسالة هي الرسالة، والدعوة هي الدعوة، كل الذي في المهادنة، تغير في الطريق، ومحاولة جديدة في الأسلوب، دون أي مساس بالمبدأ الذي هو الأصل». [صور وعبر لفيض الله ٢٨٢-٢٨٤]. ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ كان يحرص أشد الحرص على تحييد قريش في أي صراع أو حرب من الحروب؛ ذلك لأن قريشاً هي أعتى قلاع الشرك وأقواها، وأرفع القبائل مكانة في الجزيرة العربية.

فإذا استطاع أن يحمّد هذا الخصم الألد القوي تهاوت بقية الأعداء، وأدى ذلك إلى انعزال قريش عن القبائل، ومن ثم ضعفت قريش وتراجعت، فلا تقوى على مجابهة الرسول ﷺ».

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٣١].

## ١٨ - عثمان بن عفان ؓ المبعوث السياسي:

يقول د/ عشقي: «إذا كان النزاع الدولي كما تُعرّفه محكمة العدل الدولية: عبارة عن خلاف بين أشخاص القانون الدولي حول نقطة قانونية أو واقعية، فإن المفاوضات الدولية، هي أفضل السبل لتسوية المنازعات.

إن من خصائص العلاقات الدولية أن تنشأ المنازعات بين الدول أو الكيانات السياسية، وقد نُحِل هذه المنازعات بصورة لا تُرضي كافة الأطراف أو بعضها على الأقل، وطالما أن الضرر الأكبر يدفع بالضرر الأقل فإن من الحكمة إجراء بعض التنازلات من كافة الأطراف.

وبما أن التفاوض بين الدول، يتم حول موضوع النزاع السياسي، فإن هناك مفاوضات تجري بين الدول، حول قضايا من شأنها التعاون الثنائي، والجماعي المتبادل.

وقد يجمع التفاوض العاملين معًا: النزاع السياسي، والتعاون المتبادل في إطار من الصلح، فيتبلور التفاوض في معاهدة متكاملة، من شأنها تحويل الموقف من النزاع إلى المصالحة، وهذا الصلح قد يكون مؤقتًا وقد يكون دائمًا.

إن معاهدات الصلح المؤقتة، ينحصر توقيتها في إنهاء الصراع المسلح، لكن ما تتضمنه من إجراءات قانونية، فإنها تأخذ شكل الدوام والاستمرارية، طالما أقرت حقًا فإن الحق قديم.

فمعاهدة الحديبية المؤقتة، التي أُقرت فيها قريش حق المسلمين في إداء العمرة، لا تملك فيها قريش أن تسحب هذا الحق عند انتهاء صلح الحديبية.

إن معاهدة الحديبية كانت من قبيل الصلح الدولي المؤقت؛ لهذا فإن المفاوضات، قد اتخذت إطارًا عامًا تميز بعناصر وأساليب معينة، كما بُنيت على أسس وقواعد سادت التاريخ الحضاري فيما بعد.

لقد كانت قريش، تصر على حرمان المسلمين من الدخول إلى البيت الحرام، أبدًا ما بقي لها من سلطان على مكة المكرمة، من أجل ذلك حشدت ثمانية آلاف من المقاتلين في (وادي بلدح).

وكان ﷺ مصممًا على دخول مكة، وأداء حقه في مناسك العمرة، حتى لو أدى ذلك إلى قتال قريش إذا اعترضت سبيله، أو حاولت صده وأصحابه عن البيت العتيق.

لكن المفاوضات انتهت بإرغام قريش على دخول المسلمين مكة، وأداء العمرة، على أن يكون ذلك في العام القادم، وبذلك خرجت قريش من ورطتها، وحفظت شيئًا من ماء الوجه أمام القبائل.

أخذ الموقف على الجبهتين الإسلامية والقرشية، يتبلور لصالح المسلمين، فالوسطاء من قريش، تأكدت لهم عدالة المطالب النبوية، كما أكدوا لقريش تعسفها في استخدام حقها في الدفاع عن الأماكن المقدسة.

لقد قال الحليس بن زيان، حليف قريش وسيد الأحابيش: **أَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَحْمٌ وَجُدَامٌ وَنَهْدٌ وَحَمِيرٌ، وَيُمنَعُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.** [السيرة الحلبية ٢/٦٩٦].

لقد رأت القبائل العربية المجاورة لقريش وعلى رأسها بديل بن ورقاء سيد خزاعة أن الحق في جانب الرسول ﷺ فألقى باللوم على قريش، وحملها مسؤولية ما حدث، وما سوف يحدث، وتسامعت القبائل العربية إلى ما قاله بديل.



لقد أخذ الحلف القرشي في التفكك، فعروة بن مسعود سيد ثقيف انسحب بقبائله، بعد أن حذر قريباً من مغبة الصلف والعناد، والحليس بن زيان هدد بالانضمام إلى المسلمين مع كامل قواته لنصرة العدالة. رغم كل ذلك فإن قريباً لم تسلك سبيل الرشد، بل ظلت أصوات السفهاء تعلو على العقلاء، فازداد التوتر على الجبهة، واقترب الموقف من حافة الخطر.

بقي الرسول ﷺ وأصحابه في حالة من الصمود وضبط النفس، فلم تستخفهم الاستفزازات القرشية. لقد أحبط المسلمون جميع محاولات المتسللين، وألقوا القبض على سبعين منهم، وحينما قام المشركون بهجوم ثانوي استخدموا فيه الحجارة والنبال، كان الرد الإسلامي قوياً، حينئذ أيقنت قريش أنه لا طاقة لها بالنبي ﷺ وأصحابه، رغم فارق العدد والعدة، خصوصاً وإن تجربة بدر، وأحد، والخندق، ما زالت ماثلة في الأذهان.

ما فتى رسول الله ﷺ من طروحاته السلمية، حينما عفا عن المتسللين، وأرسل مبعوثاً للسلام. لقد عرض المهمة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن عمر رضي الله عنه رأى أن توكل المهمة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنه أقل منه حدة، وأكثر منعة، لانتسابه إلى بني عبد شمس، أقوى القبائل القرشية، وأكثرها عددًا، وأوفرها نفوذًا في المجتمع المكي. أمر ﷺ مبعوثه أن يبلغ قريباً بأنه لم يأت لقتال، وإنما جاء لزيارة البيت، يطوف به وينحر الهدى، وينصرف من حيث جاء.

لقد قبض الله لعثمان رضي الله عنه أبان بن سعيد بن العاص من بني عبد شمس فأجاره، وفي ظل هذا الجوار استطاع عثمان رضي الله عنه أن يبلغ الرسالة النبوية إلى قادة قريش. لم يجد عثمان رضي الله عنه تجاوباً من قادة قريش في (وادي بلدح)، فسار إلى مكة لعله يلقى قبولاً من أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وبقية الزعماء لكنه وجدهم على حال إخوانهم.

أرادت قريش أن تظهر شيئاً من الود لعثمان رضي الله عنه، كما أرادت أن تلبس ثوب الاعتدال أمام العرب، فعرضت على عثمان رضي الله عنه الطواف بالبيت، لكن عثمان رضي الله عنه أدرك أبعاد هذا العرض فقال لهم: «مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ».

أشاعت قريش في أسلوب من أساليب الحرب النفسية، أن عثمان رضي الله عنه قد طاف بالبيت، وعندما تلقى الرسول ﷺ الإشاعة قال: «مَا أَظُنُّ عُثْمَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَنَحْنُ مُحْصُورُونَ»، وعندما قيل له ﷺ: وما يمنعه من الطواف وقد وصل البيت؟ أجابهم قائلاً: «ظَنِّي بِهِ أَلَّا يَطُوفَ حَتَّى نَطُوفَ».

لقد كان عثمان رضي الله عنه نعم المبعوث السياسي، فقد توفرت فيه كافة الصفات العلمية والعملية، فالتفاوض علم، له أصوله ومبادئه، وهو نوع من الاتصال الشفوي بين الأطراف، بهدف الاتفاق على أمور مختلف فيها، أو مسائل يقتضى الاتفاق عليها.

لقد راعى النبي ﷺ كافة العناصر الرئيسة في المبعوث السياسي، فقد أحاطه بجوانب القضية التي يجري التفاوض بشأنها.

وكان عثمان رضي الله عنه عالماً بحقيقة الموقف، مخلصاً لمبادئه، لم يتركه الرسول ﷺ حائراً فيما يقول، بل حدد له أهدافه حين قال له: «أَذْهَبْ إِلَى قُرَيْشٍ، فَخَبِّرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا زَوَّارًا هَذَا الْبَيْتِ، مُعْظَمِينَ لِحُرْمَتِهِ، مَعَنَا الْهَدْيُ نُنَحِّرُهُ وَنُنَصِّرُ».

لقد راعى ﷺ عنصر الوقت، كما راعى عنصر الوضوح، حرص أن لا تطول فترة المفاوضات، واتخذ كافة السبل نحو التعجيل بها؛ لأن طول المفاوضات وتعقيدها وتشعبها، وفتح الملفات الفرعية، من شأنه أن يسوّف المشكلة ويؤدي إلى مزيد من التنازلات.

ولأن القوة من عناصر المفاوضات الهامة، فإن النبي ﷺ حافظ على القوة من خلال اليقظة العسكرية، وتماسك الأفراد، بل في القدرة على فعل الأشياء، واتخاذ القرارات، ومنع الأحداث وتطويرها، والشيطرة على المواقف، والتحكم في النتائج المترتبة عليها، وهذا النوع من القوة هو العنصر الحاسم في المفاوضات. ولأن المفاوضات تقتضي وجود مصالح مشتركة يتم التفاهم عليها، فالمصلحة التي يسعى إليها النبي ﷺ هي ممارسة الحق في التمتع بالعمرة، أما المصلحة التي تدافع عنها قريش، فإنها المحافظة على شخصيتها بين القبائل، هذه الشخصية هي التي تهى لقريش الرخاء الاقتصادي من خلال السياحة الدينية. إن جاهلية قريش، كانت تعتقد كما تعتقد جاهلية هذا العصر، أن البغاء والسكر، واللهو، هو السبيل الوحيد لاجتذاب السياح، وأن قفل باب الفساد، قد يؤدي إلى كارثة اقتصادية، ولو علموا أن الله هو الذي ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لانقلبت مفاهيمهم ولتبدلت أفكارهم.

إن من دواعي التفاوض أن يعتمد على المهارات التي تحكم المفاوضات، وإن هذا الفن يُبنى على قواعد وأسس يُفترض وجودها، وهذه المهارات تكمن في الإعداد الجيد، والقدرة على تسيير المفاوضات، والمهارة في إدارة الحوار.

لقد انطلق المبعوث الإسلامي من خلال رؤية واضحة للمصالح الإسلامية، كما أن لديه التصور الدقيق، لوسائل تحقيق الأهداف التي رسمها ﷺ.

كان عثمان رضي الله عنه مؤمناً بدوره، شاعراً بخطورة الموقف، مدركاً لعمق المصالح الإسلامية، لهذا اعتذر عن الطواف بالبيت، وأنف أن ينساق مع الإغراءات القرشية، ولم تكن قوة الجذب القبلية قادرة على استمالة للصف القرشي.

لم يكن عثمان رضي الله عنه مبعوثاً لإجراء الصلح، بل كان مندوباً لتقديم العرض، فلو كان مبعوثاً لإجراء الصلح، لكان قد تلقى الإطار الذي يتم فيه التفاوض، بحيث يستطيع تحديد أقصى ما يمكن التنازل عنه،

ومعرفة أدنى ما يمكن المطالبة به (Maximization of Gains and Minimization of Losses) لكن هذه المسألة تركها ﷺ لنفسه، عندما أجرى المفاوضات النهائية.

لقد استطاع عثمان ؓ، توظيف كافة الفرص لخدمة المصلحة الإسلامية، ففي ظل الجوار، قام بزيارة المستضعفين من المسلمين، من الذين حالت قريش دون هجرتهم. لقد أبلغهم رسالة النبي ﷺ إليهم، وعندما بشرهم بالفتح القريب، كادت نفوسهم أن تطير شعاعاً من شدة الفرح.

عشرون يوماً مضت على المسلمين في الحديبية، حرموا خلالها من تقليم الأظافر، وقص الشعر، ومس الطيب، وإتيان النساء، فاتسخت شعورهم وقملت، حتى باتت صحتهم معرضة للخطر، من طول بقائهم في الإحرام، والاحتباس عن مكة.

لقد كان هذا الموقف الصلب يعطي الدلالة على أن المسلمين، قد جعلوا دخولهم مكة خيارهم الوحيد، كما ينقل هذا الموقف الإشارة إلى القبائل العربية أن المسلمين لا يريدون القتال.

لقد استفذ الرسول ﷺ سبل السلام، وكان آخرها إبلاغ قريش حقيقة النيات السلمية عن طريق عثمان بن عفان ؓ، لم تكن الإشاعة بقتل عثمان وعشرة من الصحابة هي السبب في التحول النبوي من حالة السلم إلى الإعداد للحرب؛ لأنه ﷺ لا ينفق إلى الإشاعات، لكنه ثبت لديه أن عثمان ؓ غداً محجوراً مع أصحابه لدى قريش.

جاء الأمر الإلهي بأخذ البيعة من المسلمين على الموت، فنادى سلمة بن الأكوع وهو منادي النبي ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة نزل روح القدس، فسبق المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة يبايعونه، فنزلت: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨) [الفتح].

ما إن تناهت إلى مسامع قريش مسألة البيعة، حتى بعثت على عجل سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى ومن معهم لمعرفة ما يحدث، فأدركوا أن شرر الحرب قد تصاعدت.

امتلاأت قلوب القرشيين من الرعب، وأفصح سهيل بن عمرو وصحبه عن مخاوفهم من جرأ ما شاهدوا، ونصحوا بالإسراع نحو الصلح.

يقول الواقدي في مغازيه: إن قريشاً أسرعت بإرسال وفد بها برئاسة سهيل بن عمرو، ليتولى مهمة التفاوض مع المسلمين واصطحب معه حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص كأعضاء في الوفد.

لقد قالت قريش في دار ندوتها لسهيل: (أنتُ مُحَمَّدًا فَصَالِحُهُ، وَلَا يَكُونُ فِي صَلَاحِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ عَنَّا عَامَهُ هَذَا، فَوَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنُوةً أَبَدًا).

لقد أصبحت المفاوضات مطلباً للطرفين؛ لأن الطرفين لا يريدان الحرب؛ لهذا أصبح هدف المفاوضات تعظيم المكاسب إلى أعلى حد وتقليل الخسائر إلى أدنى حد، دون أن يترتب على ذلك انهيار المفاوضات. لم تكن قريش حديثة عهد بالمفاوضات، فقد تمرت عليها منذ عشرات السنين، لقد عقدت قريش أهم المفاوضات في تاريخ البشرية، عقدتها مع القبائل العربية داخل الجزيرة لحماية طرق التجارة، فكانت الإيلاف، وعقدتها مع أكبر الدول في ذلك العصر.

عقدت مفاوضات مع كسرى إمبراطور الدولة الفارسية، وعقدتها مع قيصر الروم، كان رجل المفاوضات وسيد قريش هاشم بن عبد مناف، كما فُوض أمية بن عبد شمس بإجراء المفاوضات نفسها مع النجاشي عظيم الحبشة وبذلك صانت قريش تجارتها، وأمنت مسالكها. لهذا كانت مفاوضات الحديبية خليطاً من القواعد، والأساليب والحيل، انطلقت قريش في مفاوضاتها من قاعدة (فرض الإرادة على الخصم) حتى تبدو أمام العرب قوية ومهابة. وانطلق المسلمون في مفاوضاتهم من (الثبات على المبدأ وتأكيد الحق الإسلامي) حتى لو أدى ذلك إلى شيء من التنازلات المؤقتة، وتقديم المكاسب الهامشية لقريش. لهذا تعتبر مفاوضات الحديبية مدرسة من أهم المدارس في المفاوضات.

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٦٩-٧٧].

#### ١٩ - القدرة على التفاوض من أهم صفات العظماء:

يقول د/ إبراهيم: «من أهم الصفات التي يجب أن تتوافر في العظماء قدرتهم على التفاوض، وهذا ما كان يتمتع به النبي ﷺ، فبالرغم من أن المفاوضات كانت بأمر الله إلا أنها كانت بين بشر، ولم يحدث فيها أي تدخلات خارقة أو خارجية، بل تمت في وجود مراقبين للتفاوض من القبائل العربية؛ مما أعطى للمفاوضات أبعاداً إقليمية وإن شئت قل عالمية، وعلى هذا لو لخصنا ما سبق من تحليل لصلح الحديبية لوجدنا التالي:

١- وضوح الرؤية وصدق الرسالة يصنعان فرقاً بين المفاوضين: فمن يفاوض عن رؤية ورسالة ليس كمن يفاوض عن عواطف وأحلام، وهذا هو الفارق بين النبي ﷺ وقريش، فالنبي ﷺ كان يفاوض عن رؤية واضحة أمام عينيه لإقامة دولة إسلامية قائمة على شرع الله، تبلغ الرسالة للعالم لتتسلهم من الظلمات إلى النور، بينما تفاوض قريش عن كرامتها التي تتخيل أن النبي ﷺ سيهدرها.

٢- وضع هدف واضح للمفاوضات يمكن قياسه وتحقيقه: فكان هدف النبي ﷺ هو تحييد قريش وإزاحتها من طريقه حتى يستطيع إبلاغ الإسلام لكل الجزيرة العربية وهو في موقف القوة.

- ٣- توصيل الهدف بكل وضوح للطرف المتفاوض: وذلك حتى تكون المفاوضات مبنية على الشفافية وإدراك كل طرف هدف الطرف الآخر، كما فعل النبي ﷺ مع مبعوثي قريش.
- ٤- يجب على المتفاوض إدراك في أي مرحلة من التفاوض هو: وذلك لأن كل مرحلة لها أسلوبها، فالنبي ﷺ عندما كان عروة عنده أدرك أن هذا ليس التفاوض، وأن عروة ليس مبعوث للتفاوض، لكنه ما يسبق التفاوض من مباحثات؛ لهذا نجد النبي ﷺ ترك المجال لأصحابه يتدخلون، وعندما جاء سهيل بن عمرو أعلن النبي ﷺ لأصحابه أن المفاوضات الحقيقية بدأت.
- ٥- إبداء الصبر وقوة الاحتمال إذا كان سير العملية التفاوضية سيستعرض للاضطراب: وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما تجاوز عن عقر جملة، وإيذاء رسوله، وإرسال قريش فتية لمعسكر المسلمين لإيذائهم وعفوه ﷺ عنهم.
- ٦- يجب أن تكون هناك خطوط حمراء يعرف الطرف الآخر أن عليه ألا يتجاوزها وإلا ساءت عاقبتها، ويجب أن يعلم كذلك أن التفاوض إنما عن قوة وليس عن ضعف: وبمعنى أوضح لا يجب على طرف إبداء السماح وإعطاء التنازلات على طول الطريق للطرف الآخر، بل يجب أن يثبت أن رغبته في التفاوض عن قوة، كما فعل النبي ﷺ بعد سريان إشاعة عن مقتل عثمان ؓ، فبايع المسلمين بيعة الرضوان، عندها أدركت قريش خطورة موقفها، وأذعنت لتفاوض.
- ٧- يجب على المتفاوض أن يعلم الطابع الشخصية وثقافة المتفاوضين والمفاوضين له: وذلك حتى يستطيع توصيل رسالته بطريقة صحيحة، ويفهم دوافع ومنطلقات الطرف الآخر، وهذا ما تميز به النبي ﷺ على طول المفاوضات.
- ٨- عند بدء المفاوضات الفعلية يجب أن يضع المتفاوض هدفه الأساسي نصب عينيه ولا ينساه: وذلك حتى لا يقبل شرطاً يبعده عن هذا الهدف؛ ولهذا نجد أن أول ما سطر في المعاهدة كان شرط الهدنة التي كان يريدتها ﷺ.
- ٩- يجب على المتفاوض أن يحدد ما يمكنه الاستغناء عنه وما لا يمكنه: فقد استغنى النبي ﷺ عن العمرة في هذا العام ولكنه أصر على الهدنة.
- ١٠- يجب على المتفاوض أن يعلم أن عليه قبول شروط قد لا يكون راضياً عنها ولكن في المقابل يجب أن يحصل على تعهدات تفيده في تحقيق هدفه: وهذا ما صنعه النبي ﷺ عندما قبل شرط إرجاع المسلمين في مقابل الاعتراف بوجود كيان اسمه الدولة الإسلامية تحمي من يدخل في حلفها.
- ١١- يجب على المتفاوض أن يضع في حسابه وضعية (مكسب/ مكسب): لأن هذا أفضل شيء في المفاوضات، وعلى أساسها تعيش المعاهدات؛ ولهذا نجد النبي ﷺ لم يذعن لاعتراضات الصحابة عليه السلام على الشرط الثاني وأعطاه لسهيل، حتى يصل بالمفاوضات لهذه الوضعية.

١٢- الوفاء بالعهد حتى قبل كتابته سنة نبوية: وقد سنّها النبي ﷺ عندما أعاد أبا جندل رضي الله عنه لأبيه قبل كتابة العهد بالرغم من رغبته ﷺ شخصياً في الإبقاء عليه.

أخيراً أخي القارئ.. إن ما سبق من فنون التفاوض السابقة استخدمها النبي ﷺ منذ القرن السادس، لكنك لو فتحت أي كتاب حديث في فنون التفاوض فستكتشف أنه تقريباً لا يخرج عما استخدمه النبي ﷺ. هل أدركت الآن لماذا قال مايكل هارت: إن محمداً أعظم العظماء؟.

[محمد ﷺ لماذا هو الأعظم؟ لإبراهيم ١٦٥-١٦٨].

## ٢٠- أهمية اجتماع الأمة الإسلامية:

يقول د/ أيوب: «يجب علينا أن نأخذ كنتيجة وخلاصة من هذا الفصل (بيعة الرضوان) اجتماع الأمة الإسلامية على دعوة الإسلام، والتمسك بها والالتفاف حولها وعدم الشذوذ أو البعد عنها، فلقد شاهدنا في هذه البيعة لمجرد إشاعة أن رجلاً واحداً من رجالات المسلمين قد قتلته المشركون قام النبي الخليم ﷺ الذي لم يحجّ لحرب وبائع المسلمين وهم ألف وأربعمائة، فلم يتخلف منهم إلا الجند بن قيس، فما تهي نسبة تخلف رجل واحد من ألف وأربعمائة، إنها نسبة لا تكاد تُذكر، بله لو اعتبرناه منافق.

يا ليت قومي يعلمون بما يجري الآن وقبل الآن من تخطف للبلاد المسلمة دولة بعد أخرى، ونهب المشركين للأراضي الإسلامية في كل مكان، ففي الفلبين، وفي فلسطين، وفي الأندلس، وفي الحبشة، وفي الصومال، وفي عدن، وفي الهند، وفي غيرها من بلاد المسلمين تُنتهك الحرمات، ويُعتدى على المسلمين أفراداً وجماعات كما حصل في لبنان وخاصة في جنوبها، ولا نكير ولا نذير، فلو كان المسلمون على قلب رجل واحد، وكانت لهم الخلافة الإسلامية ما حدث هذا أبداً.

- ولقد قرأت للإمام حسن البنا - رحمه الله رحمة واسعة - كلمة - لعلها نُشرت في جريدة (الإخوان المسلمون) - التي كانت تصدر يومياً في مصر - جاء فيها: (قرأت فضحكت وبكيت، قرأت في (البحر الرائق): لو أن امرأة من المشرق سُببت بالمغرب لوجب على أهل المشرق أن ينقذوها، ولو أنفقوا مال الدولة لوجب على الحاكم المسلم أن يستقرض الأموال من أغنياء المسلمين حتى يرد هذه المرأة، ثم يرد إليهم أموالهم» ا.هـ.

هذه معنى ما قاله ونشره رحمه الله حيث إنه كان يعمل على جمع المسلمين وتوحيدهم وردهم إلى عزهم ومجدهم وقوتهم باتحادهم في بقاء العالم تحت راية القرآن، وبزعامة رسول السلام سيدنا محمد ﷺ.

فإن يد الله مع الجماعة والتفرق خزلان ومهانة، وصدق الشاعر:

كُونُوا بَجِيعًا يَا بَنِي إِذَا اغْتَرَى  
خَطْبٌ وَلَا تَفَرَّقُوا أَحَادًا  
تَأْتِي الرِّمَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسُرًا  
وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَحَادًا

نعم يجب علينا أن نأخذ - من بيعة الرضوان - درسًا وموعظة ونتيجة هامة هي لؤلؤة العقد وتاجه، وعصب الحياة، وعمود الإنسان الفقري، وقلبه النابض وروحه وحياته ت لكم هي: جماعة المسلمين، فلما اجتمع المسلمون في هذه البيعة - بيعة الرضوان - رضي الله عنهم؛ لعلمه ﷺ ما في قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحًا قريبًا، ومغانم كثيرة يأخذونها، مغانم كثيرة من خير، وفداك، وغيرها من الغزوات مثل فتح مكة وغيره.

حقًا لقد هُزم المشركون يوم أن رأوا المسلمين يبايعون قائد الإسلام على الموت وعدم الفرار، نعم الجماعة في كل شيء تؤتي ثمارها وتؤدي دورها الفعال، وقد لا أكون مبالغًا لو قلت: إن الجماعة في كل شيء هي الوجود لهذا الشيء، مكتملاً، وأن الفرقة والتفرقة بين عناصره هي الموت أو الفناء أو اللوجود لهذا الشيء، ولا فاعلية له، ولا كيان، ولا ثمرة.

نعم إننا نرى كل شيء من حولنا لا فائدة له بدون تجمع عناصره ووجدانه، فإن الحيوان، والنبات، والجماد، فضلاً عن الإنسان، الكل يتكون من وحدة هي الخلية: تتكون من النواة، والسييتوبلازم، وغيرها، فلا يمكن أبداً الوجود لهذه الخلية ولا تكون خلية حية فعالة إذا تبعثرت أو تفرقت عناصرها، أو اختلت في مسارها، فإنها تهشم وتزول، وكذلك لا يرتفع مبنى أبداً إذا تفرقت وحداته وتناثرت على الأرض أكواماً عالية من الطوب وملحقاته من أدوات البناء، كذلك لا تتجمع الصورة على شاشة التليفزيون إذا تفرقت مربعات الشاشة أو تمزقت، وكذلك لا يُستفاد من ضوء الكهرباء ولا من حرارتها ولا من إدارتها للآلات في المصانع إذا حصل تفريق بين السالب والموجب، أو انفصال للدائرة.

كذلك في جسم الإنسان أو الحيوان أو النبات لو عمل كل جهاز منها متفرق عن الآخر لما أدى النتيجة التي يعملها وهو مُتجمع في الجسم، بل لما كان له وجود إذا انفصل عن الجسم، فهل يُتصور أن تؤدي العينين في الإنسان مثلاً نور إبصارها إذا انفصلت عنه؟ الجواب: لا، وكذلك كل جهاز من أجهزة جسم الإنسان - مثل جهاز السمع أو جهاز الهضم، أو جهاز العصب أو غيرها من الأجهزة العديدة في جسم الإنسان - إذا تفرقت تموت ولا تؤدي شيئاً من ثمرة وجودها في الجسم مجتمعة.

وكذلك الحال في النبات الذي يتركب مثلاً من جهاز: الجذور، والساق، والفروع، والأوراق، والأزهار، لا يمكن لهذه الأجهزة أن تؤتي ثمارها في النبات إذا تفرقت عنه، فإنها تموت وتصبح عديمة الفائدة.

ولعلنا نأخذ هذا من قريب أو من بعيد من بيعة المسلمين تحت الشجرة، فهم قد بايعوا مجتمعين تحت ظل شجرة وتحت أغصانها وفروعها مجتمعة والشجرة لو أُزيل من ساقها الغلاف والقشر الخارجي الذي يمدّها بالغذاء لماتت.

إن كل شيء في الوجود يعمل في جماعة واجتماع، فلو تفرقت قطرات الماء لم ترو، ولو تفرقت حبات الرمال لما وجدت صحاري، ولو تفرقت الجيوش وعمل كل جندي بمفرده ما تكون جيش، ولما استطاع أن يكون هناك دفاع أو هجوم، ففي الاجتماع المحبة والألفة، وفي التفرقة كفر وفسوق وعصيان، والله ﷻ يذكرنا بهذه النعمة نعمة اجتماع المسلمين على الإسلام، فيقول في سورة آل عمران: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ثم أمرهم حين تجمعوا لحمل رسالة الإسلام وهم أمة واحدة يدعون به ويبلغونه للناس، ففي ذلك الخير وحياة الأمم وحياة الدعاة أنفسهم، فالدعاة إذا توانوا عن الدعوة ماتت في قلوبهم وماتت مشاعرهم، أما إذا قاموا بها فقد أحيوا أنفسهم وأحيوا الناس معهم؛ ولذلك أمرهم ﷻ بالقيام بهذا الإسلام يدعون به في كل مكان بعد الآية السابقة وفي نفس السورة: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد أخرج مسلم في صحيحه في الحث على جماعة المسلمين عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً، فَقَتِلَ فِقْتَلَهُ جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِدِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ».

[مسلم في الإمامة (١٨٤٨)]. [صلح الحديبية لأيو ب ٤٣-٤٥].

## ٢١ - القيم التفاوضية في الإسلام:

يقول د/ عشقي: «يخطئ من يعتقد أن الجهاد فرض لقتال الكفار بسبب كفرهم، فالله ﷻ لم يجعل أمر الإيمان مبنياً على القسوة والإكراه، بل جعله مبنياً على التمكين والاختيار.

لقد فرض الله ﷻ قتل الكفار لظلمهم؛ لأن الظلم مصادرة للإرادة الإنسانية الحرة، وتعطيل لها، فالظلم يحرم الإنسان من حرية الاختيار، والإنسان لن يجد خياراً من الإسلام عندما تتحرر إرادته.

كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان، تنصرا قبل أن يهاجر الرسول ﷺ، ثم قدما إلى المدينة بعد الهجرة فأمسك بهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تُسلما، فأبيا ذلك، واحتكما إلى رسول الله ﷺ، فقال الأنصاري: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟، فتزلت الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٣].



فعلى المسلم أن يعلم أن الله ﷻ، لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، ألم يقل ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس].

فالإسلام لم يوجب القتال بغرض العدوان، بل أمر به دفعاً للعدوان، وحماية للدعوة ومنعاً للفتنة، فأيات القتال بينت السبب الذي من أجله شرع القتال.

لقد جاء الإسلام ليحرر الإرادة الإنسانية من كل ما يعطلها، ويهيئ المناخ المناسب للدعوة الإسلامية بإيجاد المجتمع الآمن، فالذين دخلوا في الإسلام بعد صلح الحديبية، كانوا أضعاف من دخلوه خلال السنوات العشر السابقة عليها.

فإذا كانت العلاقة الإنسانية تتسم بالتنازع بين المصالح والحقوق، فإن العلاقات الدولية، تختطع لطبيعة التنازع، وهذا النزاع منشؤه العلاقات المتبادلة بين الدول، سواء كان ذلك على صعيد العلاقات التنظيمية، أو المصالح المشتركة بين الكيانات.

فالمنازعات الإنسانية، سواء كانت على المستوى الفردي أو الدولي، تُقضي إلى أمرين، إما القتال.. وإما التفاوض، ومن هنا ظهرت أهمية المفاوضات في الإسلام؛ لأن المفاوضات (هي الخيار الأمثل لتسوية المنازعات).

فالمفاوضات، خيار إسلامي لتهيئة الأجواء الآمنة، التي تتناسب مع الدعوة الإسلامية وتحقيق المجتمع الإسلامي الآمن.

والظلم ظلمات، ظلم للنفس، وظلم للغير، فالقتال المشروع، هو ضد الظلم الواقع على الغير الذي يعطل لديه الإرادة الإنسانية، والظلم ينصبُّ على الحقوق، والحريات المشروعة.

ومن الظلم، منع انتشار الدعوة الإسلامية أو التصدي لها، ومن الظلم تعكير صفو الدين بتلوين نصوصه، وأسس، وانتهاك حرّماته، أو الهجوم عليه، ومن الظلم الاعتداء على جماعة المسلمين أو أحدهم، أو الإعداد للعدوان عليهم، لقد شن الإسلام حرباً لا هوادة فيها على الظلم، حتى لو كان ذلك واقعاً على حيوان لا يعقل.

إن معظم الغزوات الإسلامية، قامت لإنقاذ الشعوب المقهورة التي كانت تستنجد بالمسلمين، كما حدث من الأقباط الذي كانوا يعانون من ظلم الرومان في مصر.

ألم يقل ربّيعي بن عامر ﷺ لرسّتم قائد الفرس وكان موقداً من سعد بن أبي وقاص ﷺ للتفاوض معه: (لقد جئنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام...) هذا مع أن الفرس هم الذين تقدموا لتهديد الأمن الإسلامي والاعتداء عليه؟

إن مفهوم المفاوضات الإسلامية، يختلف عن غيره من المفاوضات التي شهدتها الأمم، سواء كان ذلك من حيث الهدف أو من حيث المضمون.

فالإسلام يرى أن المفاوضات، ما هي إلا لون من ألوان الحوار الحاسم بين المسلمين وغيرهم لإنهاء المنازعات، والتمكين من نشر الدعوة، وإقرار حسن الجوار، وتأسيس أواصر المودة والتعاون في كافة مجالاته.

فالقتال، لم يُشرع في الإسلام إلا بعد خمس عشرة سنة من البعثة، والقرآن استطاع أن يؤصل الروح السلمية، فكان الإسلام منهجاً سلمياً مميزاً.

لقد أفصحت الآية الثامنة وما بعدها من سورة الممتحنة عن جوهر العلاقة بين المسلمين وغيرهم، فالله ﷻ يقول: ﴿لَا يَنْهَكُوكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ نَبْرُوهُمْ وَنُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَنُبْرِوهُمْ وَأَعْلَنَ إِخْرَاجَكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة].

لقد عاهد البعض من القبائل رسول الله ﷺ على ترك القتال، وترك العداوة، فأمر ﷺ بالبر والوفاء لهم. يقول عبد الله بن الزبير ؓ: إن هذه الآية نزلت في أسماء بنت أبي بكر، فقد جاءت أمها فتيلة وهي مشركة مهديا فلم تقبلها، ولم تأذن لها بالدخول، فأمرها ﷺ أن تُدخِلها، وتقبل منها، وتكرمها، وتحسن إليها.

فالآية بيّنت أن الأساس في المعاملة مع الكفار هو البر والعدل والتواصل، فالآية الأولى جاءت لتؤكد هذه القاعدة فكان عدم النهي.

أما الآية الثانية فقد بينت النهي عن الذين قاتلونا في الدين وأخرجوا المسلمين من ديارهم وظاهروا على إخراجهم أن يتولواهم.

إن العنف إجراء قهري لكن تأثيره مؤقت، أما التفاوض فهو بناء واستقرار؛ لهذا كان تأثيره دائماً، فهو يعتمد على الإقناع العقلي والاحترام المتبادل، وإقرار الود ونبذ العدا.

لقد أقر الإسلام كافة أنواع المفاوضات المباشرة منها وغير المباشرة، فالنبي ﷺ دخل في مفاوضات مباشرة دون حاجة إلى وسطاء مع يهود بنى النضير، عندما خرج في عشرة من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي ؓ، يسأل بني النضير المعونة في دية قتيلين قتلها أحد المسلمين عن طريق الخطأ.

كما فاوض ﷺ في صلح الحديبية سهيل بن عمرو مندوباً عن قريش، وفي عام الفتح، فاوض ﷺ أبا سفيان بن حرب زعيم قريش، في فتح مكة المكرمة لإنهاء القتال.

أما المفاوضات غير المباشرة، فهي التي تتم بواسطة شخص أو جماعة أو هيئة دولية لفض النزاع، فالنبي ﷺ أجراها مع قريش عن طريق أبي طالب وكانت هذه أولى المفاوضات غير المباشرة في الإسلام، فقد دعت إليها قريش طمعاً في تخلي الرسول ﷺ عن دعوته.

لقد تفاوض ﷺ مع بديل بن ورقاء الخزاعي من أهل تهامة قبيل صلح الحديبية، حيث قال له ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِ لِقَتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتَهُمْ (أُضْثِثُوا) وبالغت في الإضرار بهم) الْحَرْبُ وَأَصْرَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً، وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُوا فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جُئُوا (استراحوا وكثروا)».

وفي السنة الثانية من الهجرة، استجاب النبي ﷺ لعرض اليهود ففاوض بني قينقاع على الخروج من المدينة على النساء والذرية، وللمسلمين الأموال، فأمهلهم ثلاثة أيام.

وفي السنة الرابعة أرسل ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ لليهود الذين نقضوا العهد ففاوضهم على الجلاء عن المدينة المنورة.

وفي السنة الخامسة للهجرة اشتد الحصار على المدينة في غزوة الأحزاب، وأراد ﷺ أن يرسل إلى عُيَيْنَةَ بن حصن، فيصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان، فقال الأنصار: إنهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار، أبعد الإسلام يشاركونا فيها؟

تعدد الأهداف والغايات في المفاوضات، سواء كان ذلك في الفقه الغربي أو الفقه الإسلامي، فهي تظهر حسب الحاجة إليها، لكن المفاوضات الإسلامية تتميز بالثوابت العليا وهي التي تقوم على نشر الدعوة الإسلامية.

ومن الأهداف المعروفة، أن المفاوضات من شأنها إنهاء حرب دائرة، أو تسوية آثار للنزاع المسلح، أو تبادل للأسرى كما حدث في معركة بدر الكبرى، حيث تم فيها الاتفاق على فداء الأسرى، فكانت الفدية أربع آلاف درهم عن كل أسير، ومن لم يستطع فعليه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة.

وقد تكون أهداف المفاوضات دفع الخطر عن البلاد الإسلامية، ولو دعا الأمر إلى دفع مال من أموال المسلمين، كما حدث في معاهدة الصلح بين المسلمين والروم في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ؛ لظروف اقتضتها المصلحة العامة بسبب الفتن الداخلية، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تُضعف المفاوض المسلم أمام الأعداء.

لقد قيّدت الشريعة الإسلامية المفاوضات بأن يكون الباعث فيها أمراً مشروعاً محققاً مصلحة للمسلمين، سواء كانت المفاوضات ناجمة عن ضعف أو قوة.

فالنبي ﷺ فاوض صفوان بن أمية، و هادنه أربعة أشهر عام الفتح، وكان النبي ﷺ وقتها في أوج انتصاره، لكنه فعل ذلك رجاء إسلام صفوان، وأسلم صفوان قبل انتهاء فترة المهادنة. لهذا فإن على المسلم أن يقيّد معنى السلم والجَنوح إليه بمصلحة الإسلام والمسلمين، وليس بالوقوف عند المصلحة المادية أو السياسية.

والإمام أو الحاكم هو الأمين على المسلمين وعلى مصالحهم، فهو الذي يعيّن المفاوض، وهو الذي يُسدي له النصائح والتوجيهات، فالطرفان حريصان على المكاسب، لكن المكاسب تتسع في الفكر الإسلامي لتستوعب الأهداف الأساسية من حيث نشر الإسلام، بينما هي تضيق لدى غير المسلمين فتتوقف عند المصالح المادية والأمور الدنيوية.

وفقهاء المسلمين أكّدوا على الباعث في المفاوضات، وقَيّدوه بكونه أمرًا مشروعًا محققًا مصلحة للمسلمين، سواء كانوا في حالة ضعف أو قوة.

سُئل الأوزاعي وهو من أئمة أهل السنة والجماعة، عن حصن للمسلمين نزل به العدو، فخاف المسلمون، فقالوا له: أنصالحهم على دفع السلاح والمال والخيل ليرتحلوا عنا، فقال: لا بأس إن لم تكن لكم بهم طاقة.

وعلى الإمام المسلم أو الحاكم، أن يختار المرشحين للمفاوضة، وأن يلتقي بالمرشح، ويحاوره ويناقشه، واشترط الفقهاء في المفاوض المؤهلات، والقدرات العلمية، والممارسة، والخبرة.

لقد بلغ الخلفاء من دقة اختيار المفاوض أن تحرّروا فيه الصفات الجسمانية، والثقافية، والخلقية، ومراعاة النسب.

كان يُستحب في المفاوض بسطة الجسم وكماله، كما يستحسن فيه حسن الصوت وجهوريته، وألا تقتحمه من قعر العيون، ولا تزدريه النواظر من قبح، فلجمال المظهر والوسامة، سحر يبهر النفوس.

وللصفات الخلقية أثر كبير في إنجاح المفاوضات، كما أن لخصافة العقل وسداد الرأي، قدرة على استنباط الغوامض من الأمور، والمعرفة بسرائر القلوب.

لقد اختير عبادة بن الصامت ؓ، ليكون متكلم القوم في سفارته أمام المقوقس، الذي طلب المفاوضة عندما اشتد حصار المسلمين لمصر، فما إن تكلم عبادة، حتى انبهر المقوقس وقال من حوله: هل سمعتم كلامًا مثل كلام هذا الرجل؟ لقد هبّت منظره كما هبت قوله.

لقد كان من المهارات التفاوضية التي أرساها ﷺ في غزوة الحديبية، القدرة الفائقة على التعامل مع العملية التفاوضية في مراحلها المختلفة، وإدارة كل مرحلة.

لقد حَدَّثت اجتماعات تمهيدية، تأثر فيها بذييل بن ورقاء بقول النبي ﷺ، الذي كان يظهر له بوضوح وجلاء الغرض، من زيارة مكة وأداء العمرة، وبين له حُسن النية وعدم الرغبة في القتال. لم يكن سيد خزاعة قد قدم على النبي ﷺ وسيطاً من قريش، بل جاء بمسعى حميد ليكون داعية للسلام، كان محايداً وكان خارج دائرة الصراع، لكنه كان زعيماً له وزنه وتأثيره، فكان كلامه ﷺ، يحمل كل معاني الحصافة، والمرونة، والاتزان، مع إعلان الثقة والقدرة العسكرية، بالإضافة إلى الرغبة في حقن الدماء. وقد تأثر أيضاً عمرو بن سالم وهو أحد أعضاء الوفد الخزاعي، وهو الذي قال لقريش بعد أن عاد مع بديل بن ورقاء: والله لا تُنصرون على من يعرض هذا أبداً.

لقد قام المتطرفون من قريش بمواجهة بديل بن ورقاء، عندما أدركوا أنه جاء ساعياً للسلام، فقال هؤلاء: هَذَا بُذَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ، إِنَّمَا جَاؤُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَخْبِرُواكُمْ فَلَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ حَرْفٍ وَاحِدٍ. فلما رأى بديل أنه لم يُستخبر، قال: إِنَّا جِئْنَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، أَتُحِبُّونَ أَنْ نُخْبِرَكُمْ؟ فقال عكرمة بن أبي جهل ومن معه من المتطرفين: لَا، وَاللَّهِ مَا لَنَا حَاجَةٌ بِأَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ، وَلَكِنْ أَخْبِرُوهُ عَنَّا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَامَهُ هَذَا أَبَدًا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنَّا رَجُلٌ.

كَانَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ سَيِّدَ ثَقِيفٍ حَاضِرًا يَسْمَعُ مَا يَدُورُ مِنْ حَدِيثِ بَيْنِ وَفَدِ خَزَاعَةَ وَالْمُتَطَرِّفِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ عُرْوَةُ قَدْ جَاءَ مِنَ الطَّائِفِ مَنَاصِرًا لِقُرَيْشٍ.

استهجن عروة ما فعل عكرمة ومن معه من المتطرفين، فقال: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رَأْيَا أَعْجَبَ، وَمَا تَكْرَهُونَ أَنْ تَسْمَعُوا مِنْ بُذَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ؟ فَإِنْ أَعْجَبَكُمْ أَمْرٌ قَبِلْتُمُوهُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ شَيْئًا تَرَكْتُمُوهُ، لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا أَبَدًا.

مال عقلاء قريش ودهاتها إلى ما قاله عروة، وقالوا لبديل بن ورقاء ورجاله: أخبرونا بالذي رأيتم والذي سمعتم.

طرح الخزاعيون ما قاله لهم رسول الله ﷺ من عرض سلمى، بين المسلمين والمشركين لمدة معينة يأمن خلالها كل جانب، وتبدأ بالسماح للمسلمين بأداء مناسك العمرة، وتقف خلالها قريش موقف الحياد عند اشتباك الرسول ﷺ بالعناصر الوثنية، فإن انتصر الرسول ﷺ، دخلت قريش فيها يدخل فيه العرب، وإن لم ينتصر، تستطيع قريش أن تقاتل المسلمين، وهي على جانب كبير من القوة.

ثم قال لهم بديل: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتِ مُعْظَمًا لِحَقِّهِ.

لكن القرشيين شتموه واتهموه بالتحيز للمسلمين، وزادوا استكباراً، قالوا: وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا أَبَدًا عَلَيْنَا عُنُوَّةٌ وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ.

لكن عروة بن مسعود نصحهم بالاعتدال وأنكر عليهم رفض العرض النبوي، كان عروة بمثابة قائد للقبائل الحليفة من ثقيف، وكان يعتقد كما صورت له قريش أن النبي ﷺ جاء معتدياً ومهيئاً لكرامة قريش. لقد انضم الخليس بن زبان سيد الأحابيش إلى موقف عروة بن مسعود، وتبين لهؤلاء الحلفاء أنهم كانوا مخطئين في نظرهم لموقف الرسول ﷺ، وأنه ما جاء إلا قاصداً تعظيم البيت؛ لأن ذلك من حقه كسائر العرب.

لقد أعطت لهم قريش خلاف الصورة الصحيحة، فرغمت أن النبي ﷺ ما قدم إلا للقتال، ولم تخبرهم أنه جاء معتمراً مسالماً، لقد أساءت قريش، واستخدمت إعلاماً خاطئاً، وكذبت على العرب، إن القاعدة الحديثة في فن المفاوضات تقول: إن التهويش، والتشويش والافتراء، سوف يضعف من مصداقية الطرف المتفاوض، ويضعف من حجته.

لقد كان للعرض النبوي العادل، أثر في نفس عروة بن مسعود، مما دعاه إلى توجيه اللوم صراحة إلى حلفائه القرشيين، فقال لهم: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، تَنْهَمُونَنِي؟ أَلَسْتُمْ الْوَالِدَ وَأَنَا الْوَلَدُ؟ وَقَدْ اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ لِنَصْرِكُمْ، فَلَمَّا بَلَغُوا (أي امتنعوا من الإجابة) عَلَيَّ نَفَرْتُ إِلَيْكُمْ بِنَفْسِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي، فَقَالُوا: قَدْ فَعَلْتَ، فَقَالَ: وَإِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ، شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ، لَا أَدْخِرُ عَنْكُمْ نَصْحًا، وَإِنْ بُدِيَلاً قَدْ جَاءَكُمْ بِخُطَّةٍ رُشِدٍ (يعني العرض النبوي) لَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ أَبَدًا إِلَّا أَخَذَ شَرًّا مِنْهَا، فَأَقْبَلُوهَا مِنْهُ.

ثم اقترح عليهم أن يكون وسيطهم إلى النبي ﷺ ليتفاوض معه ويتباحث حول النزاع، وخشي أن يؤدي الحلف القرشي والعناد إلى حرب ضروس مدمرة، فوافقت قريش على ذلك.

إن إقناع الطرف المتفاوض بعدالة المطالب، من شأنه أن يلزم الطرف الآخر للرضوخ، أو يحدث تمزقاً داخلياً، إن القيم التفاوضية في الإسلام مدرسة متكاملة لا تقف عند عصر ولا تنقيد بمكان.

انتهى دور بديل بن ورقاء وبدأت المفاوضات المباشرة، وبهذا يكون شبح الحرب قد بدأ في الابتعاد. لقد كان عروة مفاوضاً متمرساً متمكناً، وكمفاوض من طرف قريش وهو يعلم الحق لدى الطرف الآخر، فكان عليه أن يُحْمَلِ النبي ﷺ مسؤولية التوتر، وما ذلك إلا بقصد انتزاع المكاسب لفريقه، وإجبار الخصم على التنازلات.

لم تكن قريش تعيش حالة من التخلف الفكري كما يعتقد البعض، بل كانت مكة المكرمة ملتقى الحضارات، ومركزاً للتجارة، ومحوراً دينياً للجزيرة العربية.

لقد تمكنت قريش من فرض لغتها الثقافية على كافة أنحاء الجزيرة العربية، مما يدل على كفاءتها الفكرية؛ لهذا كانت المفاوضات تجري بين فريقين حضاريين.

لقد أراد عروة أن يُنقذ حلفاءه من ورطتهم بتخويف النبي ﷺ من مغبة الأمر وإقناعه بالعودة دون قيد أو شرط، ومن هذا الهدف انطلقت مهمة عروة التفاوضية.

وأصر النبي ﷺ على حقه في الدخول إلى مكة والطواف بالبيت متى شاءوا، لكنه يرغب في حقن الدماء؛ لهذا انتهت المفاوضة دون الوصول إلى اتفاق.

عاد مبعوث قريش إلى حلفائه دون الحصول على ضمانات ودون اتفاق لكنه حمل إليهم المحاذير والنذر، فقرر إسداء النصح لقريش.

لقد تولدت لدى عروة القناعة بتضامن المسلمين وتفانيهم في سبيل الإسلام، وفي طاعتهم لرسول الله ﷺ وهو الرجل الحصيف الذي ينظر إلى بواطن الأمور، ويعلم أن النصر دائماً للأمة الموحدة، المتفانية في سبيل المبدأ، التي تجتمع تحت راية واحدة، وزعيم واحد.

قال عروة وهو يخاطب سادات مكة، قال كلمة سجلها التاريخ، فعلى الرغم من أنه كان شديداً مع المسلمين، إلا إنه بين لحفائه قدرهم وقوتهم، وتلك هي مهمة المفاوض.

فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي قَدْ وَدَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ: عَلَى كِسْرَى، وَهَرَقْلَ وَالنَّجَاشِيِّ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ أَطْوَعَ فِيمَنْ هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ مِنْ مُحَمَّدٍ فِي أَصْحَابِهِ، وَاللَّهِ مَا يُشِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ، وَمَا يَرْفَعُونَ عِنْدَهُ الصَّوْتَ، وَمَا يَكْفِيهِ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَمْرٍ فَيَفْعَلْ، وَمَا يَتَنَحَّمُ وَمَا يَبْصُقُ إِلَّا وَقَعَتْ فِي يَدَيَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَمْسَحُ بِهَا جِلْدَهُ، وَمَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا أَرْدَحُوا عَلَيْهِ أَيْهَمَ يَظْفَرُ مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَقَدْ حَزَرْتُ الْقَوْمَ، وَعَلِمْتُ أَنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ السَّيْفَ بَذَلُوهُ لَكُمْ، وَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا مَا يُبَالُونَ مَا يُصْنَعُ بِهِمْ إِذَا مَنَعُوا صَاحِبَهُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ نُسَبَاتٍ مَعَهُ إِنْ كُنَّ لَيْسَلِمَتُهُ أَبَدًا عَلَى حَالٍ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ». [المغازي للواقدي ٥٩٨/٢ - ٥٩٩].

لقد نصحهم عروة بقبول ما عرضه رسول الله ﷺ، وحذرهم أن يذهب بهم الطيش إلى الدخول في صدام مسلح مع المسلمين.

«وَأَيَّاكُمْ وَإِضْجَاعَ الرَّأْيِ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةٌ فَمَادُّوهُ، يَا قَوْمُ، اقْبَلُوا مَا عَرَضَ، فَإِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، مَعَ أَنِّي أَخَافُ أَلَّا تُنْصَرُوا عَلَيْهِ، رَجُلٌ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ مُعْظِماً لَهُ مَعَهُ الْهَدْيُ يَنْحَرُهُ وَيَنْصَرِفُ».

[المغازي للواقدي ٥٩٩/٢].

ما إن تلقت قريش هذا التقرير الواضح والدقيق من مبعوثهم الأول، حتى أسقط في أيديهم ورأوا أن لابد من الاستجابة، فقررروا التخلي عن فكرة التحدي ومنع المسلمين من دخول الحرم، لكنهم وجدوا أن ماء الوجه يتطلب أن يعود النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة هذا العام، ثم يأتوا ليدخلوا مكة في العام القادم. لقد أسروا إليه بعزمهم على الصلح على هذا الأساس، وقالوا له: لَا تَكَلِّمْ بِهِذَا يَا أَبَا يَعْفُورٍ، (وهذه كنيته) لَوْ غَيْرُكَ تَكَلَّمَ بِهِذَا لِلْمَنَاءِ، وَلَكِنْ تَرُدُّهُ عَنِ الْبَيْتِ فِي عَامِنَا هَذَا، وَيَرْجِعُ إِلَى قَابِلٍ».

لقد أبدى عروة بعض الرضا لكنه أراد منهم عدم التراجع، فقال لهم: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثم انصرف ومن معه إلى الطائف.

وهذا تكون قريش قد بدأت في الرضوخ إلى المفاوضات، والتراجع عن التحدي.. وأخذ الموقف المتوتر في الانفراج.

لم يكن من اليسير أن تراجع قريش لولا عدة عوامل حرص عليها رسول الله ﷺ لتطويع قريش وإرضائهم للمفاوضات.

لقد كان الأساس في ذلك هو عدالة القضية، فالحق يعلو ولا يُعلى عليه، كما أن الرسول ﷺ حافظ على الغرض وهو الحرص على أداء مناسك العمرة، فلم يدخل في مناوشات أو مواجهات مع خالد بن الوليد.

كما أن بيعة الرضوان، وأخذ المشورة، والتثبت من قناعة قواته بالهدف ساعده على إنجاح المفاوضات. لقد كان الرسول إيجابياً حينما أرسل مبعوثه إلى قريش خراش بن أمية الكعبي ؓ، ومع أنه لم يحقق الكثير، إلا إنه لم يفسد الإجراءات الأولية في المفاوضات، بل كشف سوء التصرف المكي وضبط النفس الإسلامي.

كان لوقع التفاف الصحابة حول قيادتهم، أبلغ الأثر في نفس عروة بن مسعود، الذي ما اطمئن لعدالة القضية حتى هدد بفض التحالف.

إن التأثير على المفاوض يعتبر من فنون المفاوضات وتكتيكاتها المطلوبة، خصوصاً إذا كان له وزن عروة بن مسعود.

إن الحديبية ليست مدرسة إسلامية في المفاوضات بل هي منهج إنساني يثري الفكر السياسي فيضع الأسس والقواعد ويولد المهارة لدى القائمين عليه».

[المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٩ - ٣٧ باختصار].

## ٢٢ - كسب الدعاية الدولية سياسياً وعسكرياً:

يقول د/ أيوب: «لقد كانت قريش تعتبر المسلمين ضعافاً خرجوا على دولة الكفر والوثنية فهم مشردون مبعدون عن الدولة ليس لهم كيان ولا دولة ولا قوة عسكرية تحميهم أو تدافع عنهم، وفجأة وفي صلح الحديبية اعترفت قريش رسمياً حين وقَّعت تلك الشروط - شروط الصلح والهدنة مع دولة الإسلام وقائدها الرسول الأمين ﷺ - وشهد الهدنة وشروطها قواد الرسول العسكرين، وتمت المعاهدة ووقَّعت قريش عليها واعترفت رسمياً بأن للمسلمين دولة وقوة، وأن المسلمين وقائدهم العظيم سيدنا



محمد ﷺ ضرب المثل الأعلى في السياسة وحسن التصرف للأمور، فهو بهذا قمة في السياسة وأستاذ السياسين جميعاً.

فياليت الذين يفرّقون بين الدين والدنيا، وبين السياسة والدين يتأسون بسيد المرسلين ﷺ في خططه السلمية والحربية، وحروبه وغزواته وسرياه، وأموره السياسية، وسياسته للدولة الفتية الناشئة، ومراسلاته لملوك الأرض ورؤسائها ودعوته لهم بدخولهم الإسلام، حتى انتشر نور الإسلام فعم الكون وانطلقت الرجال من الجزيرة العربية ومن أم القرى ومن عاصمة الدولة الإسلامية المدينة المنورة إلى الصين ومن المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً إلى جبال الألب بفرنسا شمالاً، وها هو مضيق طارق في البحار حتى الآن وإلى أن تقوم الساعة حين فتح الأندلس لا يزال يُذكر في التاريخ مضيق جبل طارق، فياليت قومي يعلمون». [صلح الحديبية لأيوب ١٥٣].

## المبحث الخامس الدروس العسكرية

### ١ - المرجحات لتسمية هذه الحادثة بغزوة الحديبية:

يقول د/ الحكمي: «بعد أن تم اختياري لـ (مرويات غزوة الحديبية) موضوعاً لبحثي كانت أول قضية استوقفتني هي: اختلاف الذين كتبوا عن مغازي رسول الله ﷺ (في عنوان هذه الحادثة).

فنرى بعضهم عنون لها بـ (أمر الحديبية) [ينظر: سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨، والمواهب اللدنية ٢/ ١٧٩ مع شرح الزرقاني]، وبعضهم بـ (قصة الحديبية) [ينظر: تاريخ الطبري ٢/ ٧١، وزاد المعاد ٣/ ٢٨٦]، ومنهم من سماها ببعض القضايا التي وقعت فيها مثل: (عمرة الحديبية) [ينظر: الدرر لابن عبد البر ص ٢٠٤، وفقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٣٤٨]، أو (صلح الحديبية) [ينظر: تاريخ خليفة بن خياط ص ٨١، وكتاب صلح الحديبية لمحمد باشميل]، وفريق آخر سماها بـ (غزوة الحديبية). [ينظر: صحيح البخاري مع الفتح ٧/ ٤٣٩، ومغازي الواقدي ٢/ ٥٧١، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٩٥، وتاريخ يعقوبي ٢/ ٥٤، وعيون الأثر ٢/ ١١٣، وجوامع السيرة ص ٢٠٧ وغيرها]. وكان لزاماً علي أن أختار لها عنواناً مناسباً من تلك العناوين المطروحة، لكن وجدت أمامي سؤالاً يطرح نفسه، وهو: لماذا اخترت هذا العنوان دون غيره؟

وللجواب على هذا السؤال وأمثاله قررت أن يكون اختياري للعنوان ناتجاً عن دراسة وتحليل لتلك العناوين المطروحة لأنه لم يوضع واحد منها إلا باعتبار ما.

فأقول وبالله التوفيق: بعد دراسة وتأمل لتلك العناوين رأيت أن العنوان المناسب لهذه الحادثة هو: (غزوة الحديبية) وذلك للأمور التالية:

أولاً: أنه موافق لاصطلاح أهل السير والمحدثين.

قال الزرقاني: «وقد جرت عادة المحدثين وأهل السير واصطلاحهم غالباً أن يُسمَّوا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة (غزوة) وما لم يحضره بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو (سرية) أو (بعثاً)». [شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/ ٣٨٧].

ثانياً: ما يحمله لفظ (غزوة) من إحياءات عميقة تعطي الحادثة اعتباراً خاصاً في شعور المسلم ولا توجد في مثل لفظ (قصة) و (أمر)؛ ذلك لأن لفظ (غزوة) أصبح ملازماً لشخص رسول الله ﷺ فلا تكاد ترى أو تسمع هذه اللفظة حتى يسرح بك الخيال من وراء تلك الأجيال المتعاقبة لترى تحركات رسول الله ﷺ وأصحابه الأبرار يزلزلون الطغاة وأتباعهم.

ثالثاً: شمول هذا العنوان لجميع تحركات الرسول ﷺ في هذه الحادثة ابتداء من إحرامه بالعمرة ومروراً بالبيعة والصلح إلى رجوعه للمدينة.

رابعاً: ورود عدة أحاديث تصرح بأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمونها (غزوة) ومن تلك الأحاديث ما يلي: عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: «غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم سَبْعَ غَزَوَاتٍ، فَذَكَرَ خَيْبَرَ، وَالْحُدَيْبِيَّةَ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ، وَيَوْمَ الْقَرَدِ، قَالَ يَزِيدُ: وَنَسِيتُ بَقِيَّتَهُمْ». [البخاري في المغازي (٤٢٧٣)، ومسند أحمد ٢٧/٧٨ رقم ١٦٥٤٣].  
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أَبَاهُ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم غَزْوَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ، قَالَ: فَأَهْلُوا بِعُمْرَةٍ غَيْرِي... [مسلم في الحج (١١٩٦)].

قال ابن جرير: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُقْدَامِ، قَالَ: ثَنَا الْمُعْتَمِرُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نُسُكِنَا، قَالَ: فَنَحْنُ بَيْنَ الْحَزْنِ وَالْكَأَبَةِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى ﴿وَأَنفَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتَرَفَعْتَ عَلَيْهِكَ وَهَيِّدَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح، ٢]. أَوْ كَمَا شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا». [تفسير الطبري ط هجر ٢١/٢٣٩].

هذا حديث صحيح فرجاله رجال الصحيح ... ويشهد له الحديثان السابقان.

[مرويات الحديبية للحكمي ٢٣-٢٨].

ويقول أ/ الشامي: «عنون بعض كُتَّاب السيرة لهذا البحث بـ «غزوة الحديبية» منهم ابن حزم وابن كثير.. فهل كانت غزوة؟

الذي يبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على قناعة كاملة بأن قريشاً ما زالت الحاجز بينه وبين الناس، وأنه لا بد من إجراء ما، في سبيل كسر هذا الحاجز، ولعل اللقاء بين الفريقين أثناء أداء مناسك العمرة يكون فاتحة جديدة لعهد سلم بين الفريقين.

لقد اتخذ صلى الله عليه وسلم كل الإجراءات التي تؤكد سلامة نيته وأنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً، ومن ذلك:

- إحرامه صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

- سوق الهدى.

- خروجه في ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم التي يضع الناس فيها السلاح.

ولكن إذا كان صلى الله عليه وسلم إنما يريد العمرة ولا يريد القتال، فما الذي يضمن له أن قريشاً ستكون راغبة في السلم؟

إن احتمال حدوث القتال أمر قائم إذا لجأت قريش إلى ذلك، ولهذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اتخذ بعض الاحتياطات لذلك:

- لم يكن جميع الصحابة مُحْرَمِينَ، مما يدل أن مدلول استنفار النبي صلى الله عليه وسلم للناس كان أوسع من كونه

للعمره فحسب، ففي حديث أبي قتادة المتفق عليه قوله: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْقَاحَةِ

(هو واد على ثلاث مراحل من المدينة)، فَمِنَّا الْمُحَرِّمُ وَمِنَّا غَيْرُ الْمُحَرِّمِ [البخاري (١٨٢٣)، ومسلم (١١٩٦)]، وهذا يعني أن غير المحرمين لم يقصدوا العمرة وإنما قصدوا مصاحبة رسول الله ﷺ؛ لأنهم لو أرادوا العمرة لأحرموا من الميقات الذي تجاوزوه.

ويؤكد هذا: وقوف المغيرة بن شعبه، أثناء المفاوضات، خلف رسول الله ﷺ بكامل عتاده الحربي والمغفر فوق رأسه وهذا يعني أنه غير محرم. [البخاري (٢٧٣١)، وهو عند ابن هشام ٢/ ٣١٣].

- وفي حديث مسلم أن رسول الله ﷺ وجه فئة من أصحابه في مهمة منهم أبو قتادة فقال لهم: «خُذُوا سَاحِلَ الْبَحْرِ حَتَّى نَلْتَقِيَ» [مسلم في الحج (٦٠)]، ولعلها كانت مهمة استطلاعية.

- تذكر بعض الروايات أنه كان مع رسول الله ﷺ مائتا فارس. [ينظر: شرح الزرقاني على المواهب ٢/ ١٨١].

- كما تذكر أنه ﷺ قَدَّم أَمَامَهُ عَيْنًا لَهُ مِنْ خِزَاعَةٍ. [المصدر السابق ٢/ ١٨١].

فكل هذه الأمور تدل على أنه ﷺ قد احتاط للأمر وهياً نفسه للحالة التي قد يحدث فيها قتال على الرغم من الاقتصار في السلاح على السيوف.

ولا شك بأنه ﷺ كان غير راغب بحدوث القتال، وما سعيه لتكثير الذين يخرجون معه إلا ليكون ذلك أدعى لقريش حتى لا تفكر في القتال؛ لأنها لو رأت المسلمين قلة فربما تبادر لذهنها أنها فرصة للنيل من رسول الله ﷺ.

يؤيد ذلك أيضاً قوله ﷺ حين بركت ناقته: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي (أي قريش) خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». [رواه البخاري (٢٧٣١)].

نخلص من هذا كله إلى أنها عمرة، ولكن الاحتياطات اتخذت لتحويلها إلى غزوة عند الضرورة.

[السيرة النبوية للشامي ٢٥٩-٢٦١].

## ٢ - تنظيم الجيش الكبير إلى وحدات قتالية صغيرة:

يقول د/ أبو فارس: «جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عدد الصحابة الذين

حضرُوا الحديبية أربع عشر مائة، فما الحكمة من ذكر العدد بالآلاف؟

يحدثنا ابن حجر رحمته الله عن ذلك في كتابه فتح الباري بقوله: وَقِيلَ: إِنَّمَا عَدَلَ الصَّحَابِيُّ عَنْ قَوْلِهِ: أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: أَرْبَعُ عَشْرَةِ مِائَةٍ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْجَيْشَ كَانَ مُنْقَسِمًا إِلَى الْمِائَاتِ وَكَانَتْ كُلُّ مِائَةٍ مُتَمَازَةً عَنِ الْأُخْرَى إِمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقَبَائِلِ وَإِمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الصِّفَاتِ. [فتح الباري ٧/ ٤٤٤].

ويمكننا أن نستنتج من هذا أن تنظيم الجيش الكبير إلى وحدات قتالية صغيرة لا تتجاوز المائة أمر قد

عرفه المسلمون في وقت مبكر في تنظيم جيوشهم، وطبقه عليهم الرسول ﷺ، علماً بأن العرب لا تعرف هذا النوع من التنظيم؛ لأن قتالهم كان فردياً يتبعون فيه أسلوب الكرّ والفرّ. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٤-٢٥].

## ٣ - أهمية الاستخبارات العسكرية:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ رائداً في استخدام الاستخبارات العسكرية والاستفادة منها، في بناء القرار وتنفيذه، فقد علمت كيف كان الرسول ﷺ يرسل العيون، وزيادة في التمويه والتستر عليهم كان يختارهم من غير المسلمين، كما حدث لبشر بن سفيان». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢٨].

قلت: وقد سبق بيان أن بشر بن سفيان رضي الله عنه كان مسلماً يومئذ، وإن لم تكن تعلم قريش بذلك.

## ٤ - التخطيط لمباغطة العدو:

يقول د/ العودة: «استطاع رسول الله محمد ﷺ بقوة يقينه وتوكله على الله وحسن سياسته وعميق تخطيطه أن ينجح في مباغطة عدوه:

أ - فهو حين أراد الخروج للحديبية استنفر العرب كافة للخروج، وجيشهم للذهاب معه إلى مكة، حتى إذا أبطأ عليه المخلفون من الأعراب الذين تشاغلو بالأهل والأموال، وظنوا ظن السوء أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، لم يتأخر رسول الله ﷺ عن مشروعه، بل خرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، كما قال ابن إسحاق.

ب - وأعلن في خروجه أنه يريد تعظيم البيت والطواف به؛ ولذا أحرم بالعمرة من ذي الحليفة وقلد هديه وأشعره، ومهما استكبرت قريش في رفض حق المسلمين في قصد البيت الحرام؛ فالعرب عامة تنكر الصدد عن البيت لمن قصده؛ بل وفي بعض حلفاء قريش وأتباعها متأهلون يستعظمون ردَّ مَنْ أشعر الهدى وقلده، وفي قصة بعث قريش «الحُليْس بن علقمة الكناني» سيد الأحابيش ما يشهد لذلك، وقد تأثر بمشهد الهدى المقلدة حين رآها وقال لقريش: «ما أرى أن يُصدوا عن البيت»، فردت عليه قريش بكبرياء وغطرسة: اجلس، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ، فغضب الحُليْس، وقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ مَا عَلَى هَذَا حَالُنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقِدُنَاكُمْ، أَيُّصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُليْسِ بِيَدِهِ لَنُخَلِّنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَا نَفَرَنَ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ! كُفَّ عَنَّا يَا حُليْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ».

وهكذا نجح رسول الله محمد ﷺ في هذه المباغطة المخططة لها في خلق أجواء المنافرة والاختلاف بين (الخصوم) وتلك واحدة من آليات التخطيط لإضعاف الخصوم.

ج - وفي سبيل التخطيط للمباغطة لم يتحرك رسول الله محمد ﷺ دون علم بواقع عدوه، بل كان الرصد واستنفار العيون لتكون المباغطة مدروسة، والخطة متكاملة، والمعلومات دقيقة ومتوفرة، وقد كان، فمن (ذي الحليفة) بعث (بشر بن سفيان الخزاعي) عيناً له إلى قريش ليأتيه بخبرهم.

وعندما وصل المسلمون (الروحاء) (على بعد ٧٣ كيلو متراً عن المدينة) جاءه نبأ عدوّه بـ (غَيْقَة) فبعث إليهم بعض أصحابه، وعندما وصلوا (عُسفان) (على بعد ٨٠ كم من مكة) جاءهم سفيان بخبر قريش. وهكذا يعتمد النبي ﷺ على المعلومة والرصد الدقيق للتعرف على عدوّه، وهذا سَبَقُ للمسلمين في الرصد والتحري وقيمة المعلومة في كل حال لا سيما في التعامل مع الأعداء.

وفي الجملة فقد استطاع رسول الله ﷺ بمبادرته وتخطيطه أن يُحْطَمَ كبرياء قريش، وأن يُشْعِرَهم بقوة المسلمين؛ إذ أضحت خيلهم على مقربة من مكة، وجُنَّ جنون قريش وطار صوابها، ثم تنادوا وتواصوا ألا تسمع العرب أن محمداً ﷺ دخل عليهم مكة عنوة، ورضوا راغمين أن يدخلها عليهم في عام قابل. وكانت مبادرة الحديبية - بحق - مسأراً يُدَقُّ في نعش الملأ من قريش، وبداية النهاية للمستكبرين، وكانت للمسلمين مقدمة للنصر، مؤذنة بالفتوح، كيف لا وقد سماها الله فتحاً مبيناً، ثم كانت بداية لفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، بل بوابة ومنطلقاً لفتوح أخرى. [فقه الحديبية للعودة ٣].

#### ٥ - فكرة تمزيق جبهة العدو وإرباكه:

يقول د/ أبو فارس: «فكرة تمزيق جبهة العدو وإرباكه بمهاجمته من نقاط لا يحسب لها حساباً فكرة عسكرية رائعة، اقترحها رسول الله ﷺ، ومعارضة أبي بكر ؓ ليس للفكرة من حيث هي فكرة، وإنما المعارضة كانت أيها أولى وألزم وأنسب وأفضل: المصادمة والقتال في هذا الظرف، أم عدم ذلك. إن رأي أبي بكر ؓ أن الرسول ﷺ خرج لهدف فينبغي أن يعمل على تحقيقه، وألا يشغله شاغل عن ذلك، والهدف هو أداء التُّسك وليس قتال أحد.

ولا يعني هذا أنه إذا قامت ظروف تستوجب القتال ألا يقاتل، بل صرح أبو بكر ؓ بضرورة القتال إن أصر المشركون على استخدام القوة، تأمل معي قول أبي بكر ؓ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِداً هَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

وإني استشف من كلام أبي بكر ؓ أن الذي يخرج للحرب والقتال يكون مستعداً نفسياً وعسكرياً لها، وقد أعد من الأسباب المادية ما يؤهله لكسب النصر والتغلب على عدوه، ولا عذر له في أي تقصير في أي جانب من الجوانب التي يستطيع عليها إن فرط في جانب منها». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٣٧-٣٨].

#### ٦ - الحيلة والحذر:

يقول أ/ باشميل: «ولعل أول درس تعلمه الصحابة من النبي ﷺ في هذه القضية هو الحيلة والحذر، فبالرغم من أنه ﷺ قد خرج معتمراً لا يريد حرباً، وبالرغم من إعلانه ذلك لثلاث تظن قريش أنه يريد غزوها، وبالرغم من أنه وعامة أصحابه قد تجردوا من كل خيطة وارتدوا لباس الإحرام بالعمرة، فقد قدّم

بين يديه طلائع من الفرسان بقيادة عبّاد بن بشر رضي الله عنه حسباً للطوارئ وللقيام بأعمال الاستكشاف، كما زود أصحابه بكافة الأسلحة اللازمة.

كما أنه بعث له عيناً - رجل استخبارات - إلى مكة ليوافيه أثناء الطريق بمدى تأثير خروجه بين القرشيين، ورد الفعل بينهم ليتخذ لكل أمر عدته ويرسم لكل شيء خطته.

وفعلاً لم يكد يصل بأصحابه منطقة أشطاط بعسفان قرب مكة حتى عرف - عن طريق استخباراته - كل ما يجب أن يُعرف عن أهل مكة الذين هو معهم في حالة حرب منذ معركة بدر الكبرى.

وقد استفاد صلى الله عليه وسلم من المعلومات الهامة التي تلقاها من رجل استخباراته، فاستطاع - كما تقدم - تجنب الاصطدام المسلح مع طلائع فرسان قريش بقيادة خالد بن الوليد في كراع الغميم بعد أن غير وجهته ناحية اليمين، وبهذا تفادى إشعال نار حرب لم يكن راغباً في إشعالها. [صلح الحديبية لباشميل ٢٧٣-٢٧٤].

ويقول د/ أيوب: «فبالرغم من خروجه صلى الله عليه وسلم للعمرة إلا أنه أخذ حذره، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوَّافِرًا جَمِيعًا﴾ [النساء]، فقد أخرج أمامه طليعة من الفرسان على رأسهم عبّاد بن بشر، وكذلك أرسل عيوناً له (رجال المخابرات والكشف والاستطلاع)؛ لكي يأتوا إليه بأخبار قريش، واستطاع بالحيلة والحذر أن ينجو هو ومن معه من لقاء مسلح مع خالد بن الوليد قبل إسلامه في كراع الغميم، فعبر وجهته ناحية اليمين، وبهذا تفادى إشعال نار حرب لم يكن راغباً في إشعالها.

[صلح الحديبية لأيوب ١٤٩].

## ٧ - التحوُّط للسلامة، والأخذ بالأسباب المشروعة، والحرب ليست هدفاً بذاتها:

يقول د/ العودة: «ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤيّد من ربّه ولكنه مُعلّم لأمته؛ ولذا يحتاط في أموره، ويأخذ بالأسباب المشروعة، وهو داعية للإسلام ويمنح للسلام، لا يتعطش للدماء بل يعظّم ما حرم الله؛ ولذا نجده في صلح الحديبية يُصلي بأصحابه صلاة الخوف في عُسفان حين بلغه قرب خيل المشركين.

[شرح معاني الآثار ٨١٣/١].

وليتفادى الاشتباك مع المشركين سلك طريقاً وعرة عبر ثنية المزار (مهبط الحديبية)، وعندما بركت ناقته القصواء في الحديبية، وقال الناس: خَلَأَتْ الْقَصَوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا خَلَأَتْ الْقَصَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقِي، وَلَكِنْ حَسَبَهَا حَابِسُ الْفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». [البخاري في الشروط (٩٢٥٢)].

ورغم عدوان قريش وكبريائها فقد ظل صلى الله عليه وسلم حريصاً على إسلامهم، مفضلاً حقن الدماء بينه وبينهم، متحسراً على أكل الحرب لهم، وقد عبر صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله بقوله: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا

عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَأَفْرُونَ...». [فقه الحديبية للعودة ٣].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الرسول ﷺ يعلمنا ضرورة الأخذ بالأسباب، ومن هذه الأسباب التي أخذ بها في هذه الغزوة اتخاذ التدابير الأمنية لحماية المعسكر، ومنها وضع الحراسة المشددة عليه ليل نهار، بالإضافة إلى اليقظة والحذر الذي كان سائداً عندهم.

وهؤلاء الحرس قد علمت أنهم كانوا أكفاء على قدر المسؤولية، عيونهم ساهرة، وعقولهم واعية، وهمهم عالية لمراقبة كل حركة وسكنة حول المعسكر والتصدي لأي محاولة، وما إن اقترب الغادرون من المعسكر وإذا بهم يجدون أنفسهم في قبضة الحرس ويساقون سوق النعاج إلى رسول الله ﷺ.

وفي هذا أيضاً وجوب الحيلة والحذر من العدو في كل الظروف والأحوال، وعدم الغفلة، بل التحفز والاستعداد لأي أمر طارئ مفاجئ؛ ذلك لأن أعداء المسلمين يترصدون بهم الدوائر، ويمكرون مكرًا تكاد تزول منه الجبال، فيسعون جاهدين إلى أن تسنح الفرصة لهم، فيها ساعة غفلة من المسلمين، فيميل هؤلاء الكفار عليهم ميلاً واحدة، وصدق الله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

ففي هذه الغزوة لاحظنا غدر المشركين في وقت يسعون فيه إلى إقامة الهدنة بين المسلمين، ولا زال السفراء يتحدثون في الأمر، وكأني بهم قد ظنوا أن المسلمين قد اطمأنوا إليهم وغفلوا عن مراقبتهم، فأرادوا أن يفاجؤوهم بهذه المحاولة الغادرة الفاشلة.

ويلوح لي - والله ﷻ أعلم - أن قريشاً قد أرسلت هؤلاء الغادرين الحاقدين الذين لا شرف لهم، من أجل هدف تريد أن تصل إليه، وهو جس نبض المسلمين وقدرتهم على الرد والتصدي، فجاءهم الجواب واضحاً بيئاً قوياً رأوه وسمعوه، رأوا إخوانهم يؤسرون، ورأوا الرسول ﷺ يعفو عنهم عفو القادر المتمكن. لقد أيقنت قريش أن لا طاقة لها بقتال المسلمين بعد أن تخلى عنها بعض الحلفاء، ورأت قوة المسلمين الحقيقية وإقدامهم على القتال.

لقد أيقنت أن الحرب ليست في صالحها، وأن عليها أن تلغي الحل العسكري من عقلها، وأن تبحث عن طريق آخر غير هذا الحل التي رأت نفسها عاجزة عن استخدامه.

إن هذه الأحداث أفنعت قريشاً أن تفكر في حل آخر». [غزوة الحديبية لأبي فارس ١٠٥-١٠٧].



## ٨ - حس خطر المواجهة:

يقول د/ الغضبان: «وكان حس خطر المواجهة قد برز في ثلاث إشارات:

الأولى: حيث كان يستنفر رسول الله ﷺ الأعراب حول المدينة للخروج معه إلى العمرة، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَاسْتَنْفَرَ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشِ الَّذِي صَنَعُوا أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ، وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ؛ وَلَيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ رَازِئًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعْظَمًا لَهُ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٣٠٨].

الثانية: فيما وُضِّحَ جلياً عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث سأل وهو الوزير الثاني، والشريك الثاني في صنع القرار فلا بد من أن يبارس مسؤوليته في ذلك، فقال: أَتَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْنَا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ، وَلَمْ نَأْخُذْ لِلْحَرْبِ عُذَّتَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَذْرِي، وَلَسْتُ أَحِبُّ أَهْلَ السَّلَاحِ مُعْتَمِرًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٣].

الثالثة: ثم تكلم سيد الخزرج سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه في اقتراح مماثل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ حَمَلْنَا السَّلَاحَ مَعَنَا، فَإِنْ رَأَيْنَا مِنَ الْقَوْمِ رَيْبًا كُنَّا مُعِدِّينَ لَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَسْتُ أَهْمِلُ السَّلَاحَ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٧٢-٥٧٣].

إنها القيادات المسؤولة عن المواجهة تطرح بين يدي رسول الله ﷺ فكرة حمل السلاح خوف المواجهة، ويحجب ﷺ قائلاً: «لَسْتُ أَهْمِلُ السَّلَاحَ، إِنَّمَا خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا».

وهو تعظيم لشعائر الله، حيث الأمن والسلام للبيت الحرام ولأُمِّيهِ ولأَهْلِهِ، فالعرب تضع السلاح في الأشهر الحرم، وذو القعدة من الأشهر الحرم، وقاصد النسك يضع سلاحه، والمسلمون جاؤوا عُمَرَاءَ لبيت الله، والسلاح إيذان بالمواجهة؛ ولهذا لم يكن مع الجيش إلا سلاح المسافرين الآمن؛ السيوف في القرب والخيال: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج] والبدن والقلائد والهدي إيذاناً بالنسك، وقطعاً لخط التأول ودابر الفتنة تتذرع بها قريش ومن والاهها للمواجهة.

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢٠٤-٢٠٥].

## ٩ - النجاح في تلافي الصدام الذي لم يردده ولم يخطط له:

يقول د/ أبو فارس: «لقد نجح النبي ﷺ في خطته القاضية بتغيير الطريق حيث تملص من صدام محقق لم يردده ﷺ، ولم يخطط له، وإن أخطر ما يُصاب به جيش أن يجره عدوه إلى معركة لم يخطط لها ولم يستعد لها.

لقد وصل رسول الله ﷺ إلى عسفان، واقترب من طليعة جيش المشركين التي يقودها خالد بن الوليد، وهنا لا بد أن يتصرف ويختار أمرًا من ثلاثة أمور [ينظر: الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨٠]:  
 الأول: أن يتابع السير حتى يصطدم مع طليعة جيش المشركين ثم الاشتباك مع جيش المشركين الذي أعد واستعد للصدام، والرسول ﷺ لم يرد هذا الصدام ولم يخطط له، فليس من المصلحة إذن الاستمرار في هذا الطريق.

الثاني: أن ينسحب الجيش الإسلامي إلى الورا باتجاه المدينة، وهذا يغري جيش المشركين بالجيش الإسلامي فيطارد، ويحصل الصدام أيضًا الذي لم يردده الرسول ﷺ ولم يستعد له.  
 الثالث: أن يخرج عن الطريق العام إلى طريق فرعية باتجاه مكة، فلا يحدث اصطدام، ويرغم طلائع جيش المشركين إلى العودة على مكة سريعًا، وهذا أمر لم يتوقعه المشركون.  
 إن الذعر قد أصاب المشركين حين فوجؤوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر، وأصبحت مهددة من المسلمين تهديدًا مباشرًا.

يقول ل.ر. محمود شيت خطاب في هذا الدرس الرائع: «ولم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفًا من قوات قريش؛ لأن الذي يخاف عدوه لا يقترب من قاعدته»<sup>(١)</sup> الأصلية وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خطوط مواصلات (هي التي تربط الجيش بقاعدته) العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٨١].

أقول: ولكن هذا الموقف كان نابعًا من قوة ويسير في طريق الهدف الذي خرج من أجله رسول الله ﷺ، وجاء في كتاب (اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ) ما يبين الحكمة من تغيير الطريق ما نصه: (ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن من فن القيادة الواعية البصيرة أن تسلك في سيرها بالجيش طرقًا بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعًا تحت تصرفات العدو أو هجماته). [اقتباس النظام العسكري في عهد الرسول ﷺ - مقال زايد ص ٢٥٨].

[غزوة الحديبية لأبي فارس ٤٠-٤١].

### ١٠ - سرايا للحراسة والاستطلاع:

يقول د/ حجازي: «لم يكد يستقر المقام بالرسول ﷺ وأصحابه الكرام في الحديبية، حتى أمر بتشكيل ثلاثة سرايا للقيام بمهمة الحراسة والاستطلاع حول معسكر المسلمين بالحديبية. [مغازي الواقدي ٢/ ٦٠٢].

(١) القاعدة هي المنطقة التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات الحربية، والقاعدة نوعان: قاعدة العمليات، وقاعدة التموين، وتتوحدان على الأغلب ويندر أن تكونا منفصلين.

ولا شك أن هذا الإجراء الحكيم يدل دلالة واضحة على حسن التصرف والقيادة المثل التي كان يتمتع بها رسول الله ﷺ، والتي لم يعرف التاريخ البشري لها مثيلاً، وذلك بالأخذ بالأسباب وتصريف الأمور تصرفاً حكيماً يتلاءم وطبيعة المرحلة التي يعيشها المسلمون.

والجدير بالذكر أن أهمية هذه السرايا تأتي من أهمية وجود المسلمين في تلك المنطقة، حيث يقف المسلمون وجهاً لوجه مع ألد أعدائهم القرشيين، الذين حشدوا من القوات المسلحة الضاربة ما يزيد على عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة.

وتقضي المهمة الرئيسة لهذه السرايا القيام بأعمال الاستطلاع والخفارة الليلية؛ وذلك لمنع أي تسلل إلى داخل معسكر المسلمين؛ ولصد أي عدوان أو هجوم مفاجئ، قد تقوم به قريش وحلفاؤها على المسلمين، كذلك فإن من مهمات هذه السرايا أيضاً معرفة أخبار المنطقة المحيطة بالمسلمين، والاتصال المباشر بمقر القيادة العليا داخل معسكر المسلمين.

وهذه الإستراتيجية الحكيمة يكون الرسول ﷺ أخذ بالأسباب، في تأمين الحماية اللازمة للمسلمين، وتوفيت كل فرصة على المشركين من أخذ المسلمين فيها على حين غرة.

هذا وقد وقع اختيار الرسول ﷺ لإسناد هذه المهمة على ثلاثة أبطال من أصحابه الكرام لتولي قيادة هذه السرايا، كلهم من الأنصار، وهم على التوالي :

١- عباد بن بشر رضي الله عنه. ٢- محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه. ٣- أوسي بن خولي رضي الله عنه.

هذا ولقد استقر رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام في الحديبية بصورة مؤقتة منتظرين ما سيستجد من أمور، مصرين على هدفهم الذي جاؤوا من أجله بدخول مكة وأداء مناسك العمرة.

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٩٠-٩٢].

## ١١ - ضبط النفس ساعة الاستفزاز:

يقول أ/ باشميل: «والدرس الذي ألقاه النبي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم عملياً فوعوه، والذي يجب أن يعيه كل من هو في مركز المسؤولية ومرتبة القيادة والريادة، هو خلق ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب والصبر، والتحمل عند تحدي الجهلاء واستفزاز السفهاء هذا الخلق الذي تحلى به النبي القائد ﷺ والتزمه في أشد الساعات حرجاً وتحدياً على المسلمين، مع أنه كان قادراً على أن يكيل الصاع صاعين للمستفزين المتهورين، ولكنه لم يفعل لأن ذلك لم يكن ضرورياً.

لقد خرج النبي ﷺ من المدينة - خروجه ذاك - وهدفه الأول والأخير هو زيارة البيت الحرام وهو هدف سلمي محض علمته قريش وتبلغته من المسلمين رسمياً للإعذار.

ولكن قريشًا التي كانت كلمة الفصل في كل أمورها - يوم ذاك - للعقلية الوثنية الحمقى، أبت إلا أن تصد النبي ﷺ وأصحابه عن زيارة البيت.

فبمجرد علمها بخروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة نفخ الشيطان في مناخر زعمائها المشركين، فأعلنوا التعبئة العامة واستنفروا كل ما لديهم من قوات عسكرية ثم خرجوا بها إلى ما وراء حدود مكة استعدادًا لمحاربة المسلمين ومنعهم (بحد السيف) من زيارة البيت.

فعلوا ذلك بالرغم من أن المعلومات التي حصلت عليها استخباراتهم، أكدت لهم أن النبي ﷺ وأصحابه لم يميؤوا لحربهم وإنما جاؤوا زائرين ومعظمين للبيت العتيق يسوقون الهدى بين أيديهم قد ارتدوا ملابس الإحرام، ولكنها الجاهلية العمياء حادت بالمشركين عن جادة الصواب.

لقد كان خروج قريش بجيوشها ومرابطة خالد بن الوليد بفرسانها على الطريق الرئيس في كراع النخيم تحديًا مثيرًا واستفزازًا خطيرًا في الإمكان أن يتسبب بسهولة في إشعال نار حرب ضروس بين المسلمين والمشركين على حدود أو داخل الحرم، تُسفك فيها دماء غزيرة لا يرغب النبي ﷺ في سفكها وتزهق فيها أرواح كثيرة كان ﷺ حريصًا كل الحرص على ألا يزهق شيء منها.

لقد كان باستطاعة النبي القائد ﷺ أن يتخذ من طغيان قريش وتحديها واستفزازها مبررًا للدخول معها في صدام مسلح، فيمر حيث يعسكر فرسان خالد بن الوليد ويقتحم عليه حدود الحرم بحد السيف لا سيما وأن قريشًا تعرف سلفًا أن قواتها ستكون هي الخاسرة إذا ما هاجها النبي ﷺ ليشق طريقه نحو مكة بالقوة.

لأن وراءه ألفًا وأربعمائة من نوع أولئك المغاوير الأشاوس الذين عرفهم مشركو مكة في ساحات الوغى حق المعرفة، حيث حطم ثلاثمائة منهم يوم بدر جيش مكة الضخم المؤلف من ألف مقاتل يمثلون صفوة فرسان وصناديد قريش ومحاربيها.. كما أنزل سبعمائة منهم (يوم أُحد) تلك الهزيمة المخجلة بثلاثة آلاف مقاتل أعدتهم قريش لاجتثاث الإسلام ومحو كيانه من الوجود.

غير أن النبي ﷺ - مع قدرته على كل ذلك - قابل استفزاز قريش وتحديها بالحلم والصبر، ورد على سفهها وشططها بالرزانة والتعقل حتى إنه عندما بلغه أن قريشًا قد ركبت رأسها وأبت إلا محاربتة قال في أسف بالغ كلمته التاريخية الخالدة تلك: «يَا وَيْحَ قُرَيْشُ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْحَرْبَ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا بِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأُلُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

ثم أمر أصحابه بأن يسلكوا طريقاً لا يمر على عسكر قريش المرابطين في كراع الغميم، لا جبناً ولا خوفاً من الحرب، ولكن ضناً بالأرواح من أن تُزهق وحرصاً على الدماء من أن تُراق في غير ما ضرورة موجبة. وفعلاً، كم - بهذا التصرف النبوي الحكيم - أرواح حفظت كان يمكن أن تزهق المئات منها، لو لم يتصرف النبي ﷺ هذا التصرف الذي به تحاشى الاصطدام مع عسكر قريش، أرواح كان الكثير من أصحابها على رأس جيش المشركين، ثم صاروا فيما بعد قادة لجيوش الإسلام دكوا عروش كسرى وعصفوا بكراسي قيصر مثل: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وعمرو بن العاص، وسهيل بن عمرو، الذين - وأمثالهم من صناديد قريش - كان يمكن أن يخروا صرعى في المعركة لو لم يغير النبي ﷺ اتجاهه بأصحابه وينزل بهم على الحديبية.

وهكذا فإن كل قائد مسؤول يجب عليه أن يقف عند هذا التصرف النبوي ليستخلص منه الدروس في ضبط النفس وعدم التسرع في مثل هذه المواقف، ووزن الأمور بموازين مصلحة الأمة والدين لا بموازين العاطفة والعنجهية والهوى والعنتريات الفارغة». [صلح الحديبية لباشملي ٢٧٤-٢٧٧].

## ١٢ - العدو لا يرده الظهور بالمسألة:

يقول الشيخ أبو خوات: «ومما يجب أن نتعلمه أن العدو لا يرده عن عدوانه ظهور عدوه بمظهر المسألة، وإنما يجب أن نتعلم أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يكسر الشوكة إلا شوكة أقوى منها، تلك طبيعة الحياة خلق الله الناس عليها: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَوَاطِينُ النَّاسِ فَذَرْنَاهُمْ وَمَا نَصَبْنَا لَهُمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ لَعَسَا يُفْهِمُوا عَلَاقَةً﴾ [الحج].

فرغم ما أفرغ فيه المسلمون جهدهم من سوق الهدي وعدم حمل شيء من أسلحة الحرب وظهورهم في سيمياء المعتمرين الزائرين، لم تسمح لهم قريش بدخول مكة اتفاقاً ورضاً، يقول رسول الله ﷺ - حين بلغه أن قريشاً خرجت ومعها العوذ المطافيل، يعني الجمال ومعها أطفالها علامة على نية الإقامة الطويلة خارج مكة -: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَأِفْرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَنْظُرُ قُرَيْشُ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأَى أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ١٠٣-١٠٤].

## ١٣ - استيلاء المشركين على الماء بالحديبية:

يقول د/ أبو فارس: «والسؤال الذي يطرح نفسه: أين ذهب هذا الماء الكثير؟

من الحق أن يُقال: إن كفار قريش قد سارعوا إلى هذه المياه وعسكروا عليها، فانتفعوا بها وحرموها المسلمين منها، حتى عطش المسلمون عطشاً شديداً.

هذا ما يُفهم بشكل جلي من كلام بديل بن ورقاء الخزاعي الذي يرويهِ الإمام البخاري رحمهُ الله عنه فيقول لرسول الله ﷺ: (إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ) (قال ابن حجر: إنما اقتصر على ذكر هذين لكون قريش الذين كانوا بمكة ترجع أنسابهم إليهما. فتح الباري ٥/ ٣٣٨) نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحَدِيثِيَّةِ). والأعداد جمع عد وهو الماء الذي لا انقطاع له. ومن الحق أن يُقال أيضًا: إن هذا التصرف كان ناجحًا عسكريًا حيث وفروا الماء لأنفسهم وحرموه غيرهم. فتأمل!

فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، وهو أحق الناس بها. إن على الدعاة إلى الله أن يطلعوا على تجارب الآخرين وأن يستفيدوا من هذه التجارب لا سيما إذا كانت في الأمور العملية كالتواحي العسكرية. وهذا الذي صنعه المشركون قام به المسلمون في بدر إذ نزلوا على مياه بدر وغوروا الماء وجمعوه في حوض عظيم، يشرب المسلمون منه ولا يشرب أعداؤهم، ولقد حاول بعض المشركين أن يشرب من الحوض بالقوة فصرعه المسلمون. [غزوة الحديبية لأبي فارس ٥٧-٥٨].

#### ١٤- الحرب النفسية في مفاوضات عروة بن مسعود:

يقول د/ حجازي: «كان سيد ثقيف هذا يعلم يقيناً في قرارة نفسه بأن الحق في جانب النبي ﷺ، وأن قريشاً هي المعتدية، بإصرارها على منع المسلمين من دخول مكة وأداء مناسك العمرة. ولكنه وبصفته وسيطاً سياسياً لقوم هم أصهاره وحلفاؤه، فإنه حاول إلقاء اللوم على النبي ﷺ وتحميلة المسؤولية كاملة في تصعيد هذه الأزمة التي بدت من ساعة إلى ساعة، وكأنها تتحول إلى حرب مدمرة، تدور رحاها بين الأهل والعشيرة على ساحة الحرم الشريف بمكة المكرمة. لقد أخذ عروة بن مسعود يعمل على إضعاف ثقة المسلمين بأنفسهم محاولاً - بأسلوب الحرب النفسية - تفتيت جبهة المسلمين الداخلية وتوهين عزائمهم، والفت في عضدهم، وإقناع النبي ﷺ بأن المعركة إذا ما نشبت بينه وبين قريش، فإنها سوف لا تكون بصالحه، وأنه ليس من مصلحته خوضها. والجدير بالذكر أن عروة بن مسعود باتباعه هذا الأسلوب الذي حاول به التأثير على قوة المسلمين وعزيمتهم الداخلية واخلخلتها، إنما كان يقصد بذلك إحراز النصر لحلفائه القرشيين وإخراجهم من ورطتهم التي أوشكت أن تنتهي بهم إلى هزيمة عسكرية وإعلامية منكرة، وإن ذلك لن يتم إلا بعودة النبي ﷺ وأصحابه الكرام من حيث أتوا دون أن يدخلوا مكة، وبدون أي قيد أو شرط. هذا ما حاول عروة بن مسعود جاهداً تحقيقه، والوصول إليه في مفاوضاته التي أجراها مع النبي ﷺ في الحديبية.

وفي التحليل الإعلامي لروايتي مفاوضات عروبة بن مسعود، نرى أن عروة بن مسعود الثقافي قد سلك في هذه المفاوضات سبيل التخويف، وتثبيط الهمم، واللعب بالأعصاب، والتركيز على إضعاف الجبهة الداخلية للمسلمين، ثم التلويح بقوة قريش العسكرية بأنها لا تقهر، وتصوير نتائج المعركة بأنها في غير صالح المسلمين.

وهذه الطريقة هي التي يسميها ويتعارف عليها العسكريون والإعلاميون في عصرنا اليوم بالحرب النفسية.

وبالنظر إلى أن طبيعة الأجواء التي كانت تحيم على المفاوضات التي دارت في الحديبية بين الرسول ﷺ والوفود الأخرى، كانت تتسم بشكل عام بطابع الحرب النفسية. وقد سبق الحديث التفصيلي عن الحرب النفسية في غزوة أحد.

ولا شك أننا نستطيع من خلال استعراضنا للروايتين التاريخيتين لابن هشام والواقدي، أن نستنتج بأن عروة بن مسعود قد عمل على تحقيق الأهداف الرئيسة للحرب النفسية، وذلك في حصر مفاوضاته التي أجراها مع رسول الله ﷺ في الحديبية لتكون في أربع نقاط رئيسة هي: إثارة روح الانقسام بين المسلمين، وإظهار عدوهم بمظهر القوي الذي لا يقهر، وإضعاف ثقة القيادة بقوتها وقوايتها، وأخيراً إظهار المسلمين بمظهر المعتدي على الأهل والحرمة المقدسة، وتعنيفهم ولومهم على ذلك، وتصوير المعركة بأنها إذا ما نشبت، فإنها ستنتهي بغير صالحهم لا محالة.

وهذه هي الأهداف التي عمل عروة بن مسعود على تحقيقها في تلك المفاوضات. والجدير بالذكر أن هذه الأهداف الأربعة هي الأهداف الرئيسة للحرب النفسية من وجهة نظر رجال الإعلام.

ويوضح لنا ذلك د/ إبراهيم إمام بقوله: (وقد ثبت من تجارب الحرب النفسية، أن هناك أربعة أهداف رئيسة ينبغي على الدولة المحاربة أن تبلغها، وهي:

أولاً: إثارة روح الانقسام في صفوف العدو، وتحطيم معنوياته، والحض على كراهيته.  
ثانياً: تقوية الجبهة الداخلية، ورفع الروح المعنوية، وتعميق الإيمان بقضية الوطن وتأيدها.  
ثالثاً: كسب ود الدول المحايدة، وإقناعها بعدالة القضية التي تحارب من أجلها، وتأكيد الإيمان بالنصر.

رابعاً: توثيق أزواصر الصداقة والإخاء مع الدول الحليفة).

[الإعلام والاتصال بالجمهور - د/ إبراهيم إمام ص ٢٥٤-٢٥٥ - مكتبة الأنجلو المصرية].

والجدير بالذكر أن هناك أساليب وأهدافاً أخرى تُستخدم لتغذية أغراض الحرب النفسية لكسب المعركة، وهذه الأساليب جميعها تهدف في النهاية إلى الوصول إلى تحقيق الأهداف الرئيسة لهذه الحرب في خدمة الميدان والسيطرة على نفسية العدو وأعصابه.

ومن هذه الأساليب: أسلوب الشتم والتحدي والتهديد والشعر الحماسي أو الشعر الذي يوهن من قوة العدو، إلى غير ذلك من الأساليب الأخرى التي تستخدم في هذه الأغراض.

ولنستمع إلى ما يقول د/ إمام وهو يتحدث عن هذه الأساليب بقوله: «والحقيقة أن أسلوب الشتم والتلويث أسلوب معروف في الحرب النفسية منذ أقدم العصور، وقد استخدمت قصائد المدح وأشعار الهجاء، كأساليب للحرب النفسية في المجتمع العربي وغيره من المجتمعات الأخرى منذ آلاف السنين...»، ثم يستشهد د/ إمام بأبيات من قصيدة الشاعر اليوناني هوميروس في وصفه للقتال الذي دار بين اليونانيين والطوراديين سنة ٨٠٠ قبل الميلاد. [الإعلام والاتصال بالجماهير - د/ إمام ص ٢٥٧]:

ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا المقام عن دور الشعر والشعراء في الحرب النفسية النموذج التالي، وهي أبيات ذكرها ابن هشام للشاعر معبد، قالها بعد معركة أُحُد، وأراد بها قائلها تحطيم معنويات أبي سفيان والمشرّكين، عندما أرادوا الرجوع إلى المدينة المنورة مرة أخرى ليعيدوا الكرة على المسلمين، وفي هذه القصيدة يصف الشاعر قوة المسلمين وتحرقهم وحنقهم عند خروجهم للحاق بقريش والقضاء عليها، وقد قالها معبد لأبي سفيان بعد أن سأله الأخير عن النبي ﷺ وجيشه، أثناء ما كان قادماً من المدينة المنورة، قال معبد:

كَادَتْ مُهْدٌ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي	إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَائِلِ <sup>(١)</sup>
تَرْدِي بِأُسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَعَازِلِ <sup>(٢)</sup>
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً	لِمَا سَمَوُا بِرَيْسٍ غَيْرِ مُخْذُولِ <sup>(٣)</sup>
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِهِمْ	إِذَا تَغَطَّمَتْ الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ <sup>(٤)</sup>
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ صَاحِبَةٍ	لِكُلِّ ذِي إِزْبَةِ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ <sup>(٥)</sup>

(١) مُهْدٌ: تسقط هول ما رأت من أصوات الجيش وكثرته. الجُرد: الخيل العتاق. الأَبَائِل: الجماعات.

(٢) تَرْدِي في الواقدي: تَعْدُو. التَّنَابِلَةُ: القصار. الميل: جمع أميل وهو الذي لا رمح معه، وقيل: هو الذي لا ترس معه، وقيل: هو الذي لا يثبت على السرج. المعازيل: جمع معزال، وهم الذين لا سلاح معهم.

(٣) الْعَدُو: المشي السريع. سَمَوُا: علوا وارتفعوا.

(٤) تَغَطَّمَتْ: اهتزت وارتجت. البطحاء: السهل من الأرض. الجِيل: الصنف من الناس.

(٥) الْبَسَل: الحرام، وأراد بأهله قريشاً لأنهم أهل مكة، ومكة حرام. الضاحية: البارزة للشمس. الإربة: هي هنا العقل.



مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشٍ تَنَابِلَةٍ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقِيلِ<sup>(١)</sup>

فَتَنَى ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٠٣، المغازي للواقدي ١/ ٣٣٨-٣٣٩].

فعندما سمع أبو سفيان هذه الأبيات التي يصف بها الشاعر قوة المسلمين وبأسهم ولى مسرعاً بجيشه نحو مكة.

ولا شك أن أهداف وأساليب الحرب النفسية قد اتخذت أشكالاً عديدة من أجل الوصول إلى الغاية المطلوبة، ومن هنا فإن عروة بن مسعود كان في مفاوضاته مع رسول الله ﷺ يستخدم إحدى هذه الأساليب، مما يدل على أن العرب في الجاهلية كانوا على علم تام بفنون أساليب وأهداف الحرب النفسية، وأنهم كانوا يستخدمونها في أغراضهم الحربية، ولكنهم باستخدامهم لفنون وأساليب هذه الحرب لم يكونوا على علم بالأنشطة ذات الطابع التنظيمي كما هو الحال عليه في عصرنا الحاضر، رغم أن هذا الاستخدام أيضاً لم يكن بعيداً كل البعد عما هو عليه التنظيم الحالي.

يقول د/ مختار التهامي: «والقول بأن أساليب الحرب النفسية جديدة تماماً على ميدان الدعاية، قول مبالغ فيه، ومع ذلك فليس ثمة شك في أن هذه الأساليب لم تتخذ في أي عصر من العصور الطابع التنظيمي والتخطيطي الشامل الذي نتخذه في عصرنا الحديث».

[الرأي العام والحرب النفسية ١/ ١٠٢- دار المعارف- مصر ١٩٦٧م].

عناصر الحرب النفسية: ثم يتحدث د/ مختار التهامي موضحاً العناصر الرئيسة التي تقوم عليها الحرب النفسية، فيقول: «والحرب النفسية تقوم -بالإضافة إلى استخدام الدعاية السائدة - على عناصر ثلاثة رئيسة هي: ١- الإشاعات. ٢- افتعال الأزمات. ٣- إثارة الرعب.

ثم يتناول د/ التهامي هذه العناصر الثلاثة بالشرح فيقول:

أولاً: الإشاعات: ومن دراستنا لخصائص الإشاعات يمكن أن نضع لها التعريف التالي: فالإشاعة هي الترويج لخبر مختلق لا أساس له من الواقع، ويعتمد المبالغة والتهويل، أو التشويه في سرد خبر فيه جانب ضئيل من الحقيقة، أو إضافة معلومة كاذبة أو مشوهة لخبر معطمه صحيح، أو تفسير خبر صحيح والتعليق عليه بأسلوب مغاير للواقع والحقيقة، وذلك بهدف التأثير النفسي في الرأي العام المحلي والإقليمي، أو العالمي، أو النوعي، تحقيقاً لأهداف سياسية أو عسكرية، أو اقتصادية على نطاق دولة واحدة، أو عدة دول، أو النطاق العالمي بأكمله». [الرأي العام والحرب النفسية ١/ ١٠٢-١٠٣].

(١) الْوَخْشُ: رُذَالَةُ النَّاسِ وَأَخْسَاؤُهُمْ. الْقِيلُ: وَالْقَوْلُ وَاحِدٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمُ: الْقَوْلُ: الْمَصْدَرُ، وَالْقِيلُ: الْأَسْم.

وتأسيسًا على هذا الفهم مفإن عروة بن مسعود، أثناء مفاوضاته مع النبي ﷺ، قد اعتمد هذه العناصر الرئيسية التي في قول د/ التهامي في نقاطها الثلاث السالفة الذكر، وهي: الإشاعة، وافتعال الأزمات، وإثارة الرعب.

وأما فيما يتعلق بالإشاعات فإنه -أي عروة بن مسعود- قد قام باستخدام هذا السلاح، وذلك عندما بدأ يلوح ويعظم بقوة قريش العسكرية بأسلوب مغاير للحقيقة، معتمدًا على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين؛ ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية.

ثانيًا: افتعال الأزمات: وهذه النقطة الثانية من تحليل د/ التهامي والتي يقول فيها: «ولعل أبرز الأمثلة في افتعال الأزمات هي عملية التأثير في الرأي العام»، ثم يناقش الكاتب هذا الموضوع، ويورد له عدد من الأمثلة التي يمكن الرجوع إليها في كتابه. [الرأي العام والحرب النفسية ١/ ١٠٤]:

ومن هنا نستطيع القول أن عروة بن مسعود قد حاول أن يفتعل أزمة عسكرية بين النبي ﷺ وجنوده، وأن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده، عندما قال للنبي ﷺ: «أَوْ يَبْنَ أَنْ يَحْدُثَكَ مَنْ تَرَى مَعَكَ، فَإِنِّي لَا أَرَى مَعَكَ إِلَّا أَوْبَاشًا مِنَ النَّاسِ لَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ».

إن هذا الأسلوب الذي اتبعه عروة بن مسعود، وحاول به افتعال أزمة عسكرية ونفسية كبيرة بين الرسول القائد ﷺ وبين جنوده المؤمنين؛ كان من أجل التأثير على معنوياتهم، وتحطيم عزائمهم، ليعتبر من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات.

ثالثًا: إثارة الرعب: أما فيما يتعلق بالنقطة الثالثة، وهي إثارة الرعب والفوضى، فإن عروة بن مسعود قد بذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك عندما بدأ بتخويف المسلمين من قوة قريش التي لا تقهر، وتصوير المعركة بأنهم في غير صالحهم.

وبهذا يكون عروة بن مسعود قد استخدم جميع العناصر الثلاثة للحرب النفسية التي أوردتها د/ التهامي.

توقيت الحرب النفسية: وفيما يتعلق بتوقيت الحرب النفسية، وفي أي الأوقات يفضل خوض ميادين هذه الحرب، وتحت أي الظروف يكون تأثيرها أكثر إيجابية في كسب المعركة الفعلية، يتحدث د/ حاتم في هذا الموضوع فيقول: «تشن الحرب النفسية قبل الحرب الساخنة وأثناءها وبعدها، وهي تبدأ قبل إعلان الحرب بوقت طويل، وتستثمر بعد أن يتوقف العداء العلني». [الإعلام والدعاية نظريات وتجارب ص ٢٥٣].

ثم يتحدث اللواء الركن محمود شيت خطاب عن توقيت الحرب النفسية، فيقول: «إن الحرب النفسية تشن قبل الحرب الفعلية للتأثير على معنويات العدو، وفي أثناء الحرب للتأثير في ثباته ومقاومته، وبعد الحرب الفعلية لإجبار العدو على الإذعان إلى المنتصر». [الإسلام والنصر ٦١].

وتأسيساً على هذا الفهم فإن عروة بن مسعود قد استخدم الحرب بأساليبها الصحيحة، من حيث توقيتها وتأثيرها، وأهدافها.

فقد كان توقيت وصوله إلى معسكر المسلمين في الحديبية، والتقاؤه بالرسول ﷺ، أثناء اشتداد الأزمة الساخنة بين المسلمين وقريش، أي قبل المعركة الفعلية، وذلك للتأثير على معنويات المسلمين وإجبارهم على الرجوع، ومحاولة تحطيم معنوياتهم النفسية.

وأما تأثيرها، فقد عمل عروة بن مسعود التقفي، بأسلوب الحرب النفسية التي تقضي بالتركيز على إضعاف جبهة المسلمين الداخلية وزعزعتها وتوهينها، وإشاعة روح الهزيمة والفوضى والبلبلية في صفوف المسلمين: وإضعاف الروح القتالية والمعنوية هم، ومن ثم إضعاف ثقة الرسول القائد ﷺ بجنوده، وتصوير الموقف بأنه سيتهيئ حتماً لغير صالح المسلمين.

وهذه هي فعلاً أهم أهداف وأساليب الحرب النفسية في القديم والحديث، ولكن هل نجحت هذه الحرب النفسية بكل طاقاتها وفنونها، أمام العقيدة الإسلامية؟

هل نجحت الحرب النفسية أمام العقيدة الإسلامية؟ إن الجواب على هذا السؤال يكمن في قول الله ﷻ في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٢٧ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِفْطَرِ رَبِّهِمْ ۚ أَنَا اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٢٨﴾ [آل عمران].

لقد تعرض الرسول ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم إلى ألوان شتى من ضروب الحرب النفسية القاسية التي شنتها قريش وحلفاؤها ضدهم طوال فترة الرسالة الخالدة، مما لم يتعرض له داعية ولا نبي من قبل، وفي فترة الحديبية بالذات، فقد حاولت قريش وحليفتها بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة أن يوقعوا الهزيمة في نفوس المسلمين وفي صفوفهم، وأن يوهنوا من عزائمهم، وأن يفتوا من عضدهم، وقد استعملت قريش وحليفتها لهذه الغاية كل أساليب الإرهاب والتخويف وتحطيم الأعصاب، إلى غير ذلك من ضروب الحرب النفسية العنيفة التي استهدفت تحطيم الجبهة الداخلية للمسلمين وتوهينها وبالتالي استسلامها.

ولكن ما حدث فعلاً هو أن هذه الحرب النفسية، وجميع المخططات الأخرى التي شنت بواسطتها قريش حربها ضد المسلمين قد جاءت نتيجتها على عكس ما كانت تتوقعها قريش وأعوانها من أعداء الله

ورسوله.

ولقد صمدت العقيدة الإسلامية أمام شتى صنوف الحرب النفسية، وأمام جميع التحديات الأخرى وأثبتت هذه العقيدة بأن لها قابلية للاستيعاب والصمود أمام هذه الأخطار جميعها، وأن أفراد المجتمع المسلم - بواسطة هذه العقيدة - لديهم المناعة والتحصين الكاملين ضد جميع التحديات وجميع الأخطار مهما كانت كبيرة ومحدقة والخروج منها أكثر قوة وعزيمة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَبْذَكَ بَصِيرَهُ، وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣) [الأنفال].

وتأليف الله سبحانه بين قلوب المؤمنين، أساسه هذه العقيدة.

وعلى هذا الأساس فإن الحرب النفسية مهما تعددت أساليبها وألوانها فإنها لا تؤثر في عزيمة المؤمن؛ لأن المؤمن يستند بإيمانه الراسخ القوي على قاعدة صلبة ومتمينة لا تهزها الرياح العاتية، قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا أَبَدِيًّا﴾ (١٣) [الأحزاب].  
وإن مما لا شك فيه أن القيادة النبوية الحكيمة قد صاغت أبناء هذه العقيدة صياغة فريدة، وربتهم تربية متكاملة، فكانوا صورة دعوتهم الحققة النيرة في فكرهم وسلوكهم وعملهم وجهادهم، فكانوا في جهادهم يصدرون عن المدرسة النبوية في سمو الغاية ونبل الوسيلة، فقد كان ﷺ يعلم أصحابه إعداد العدة والأخذ بالأسباب وكيفية متطلبات النصر الحقيقية والاتصال بالله القوي العزيز، وطلب العون منه بالذكر والطاعة، وكانوا ينهلون من المعين الذي لا ينضب في معرفة الثبات والصبر، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ فَمَنْ فَاغْتَبَا أَوْ أَدْخُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٤) [الأنفال].

وقد كان النبي الكريم ﷺ يعلم أصحابه الكرام إخلاص العبادة لله، والاتكال على الله القوي العزيز، وأن الأمور كلها بيد الله يسيرها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الظُّلُمِ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

وقد حذر الله ﷻ المؤمنين من اتخاذ أسباب الهزيمة وهي البطر والرياء والشقاق، والنزاع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَمَا تَصْبِرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥) [الأنفال].

وكان ﷺ يعلم أصحابه أن متطلبات النصر الحقيقية هي في طاعة الله ونصرته، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا نُنْصَرُّوهُ اللَّهُ يُنْصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١٦) [محمد].

وهذه هي متطلبات العقيدة التي عمل بها رسول الله ﷺ في إعداد المؤمنين إعداداً فريداً وتربيتهم التربية الروحية وتقوية معنوياتهم، الأمر الذي جعلهم في جميع مواقفهم ومعاركهم يؤمنون بأن النصر إنما

يكون من عند الله، ومع إيمانهم بهذه الحقيقة الراسخة فإنهم كانوا يؤمنون كل الإيمان بأن الموت في سبيل الله هو طريقهم وغايتهم التي ينشدونها، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَمَنْ تَرْضَوْنَ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْضَوْا إِنَّكُمْ مُرْضَوْنَ﴾ (٥٢) [التوبة].

لهذا فقد كانت معنويات المسلمين أقوى سلاح تعتمد عليه القيادة النبوية، قال اللواء الركن محمود شيت خطاب: «لم ينتصر العرب والمسلمون مطلقاً طوال حياتهم بكثرة العدد والعُدَّة، وقد كان أعداؤهم متفوقين عليهم بالعدد والعُدَّة في كل معركة خاضوها، وقد انتصرت الفئة من العرب المسلمين على العرب من غير المسلمين». [الإسلام والنصر ٦].

وهنا يقصد الكاتب من كلامه أنه ما دام كلا الفريقين من العرب فإن الفارق في الحالتين هي قوة المعنويات التي تستند على قوة العقيدة الراسخة في النفوس.

ثم يتحدث الكاتب في هذا الموضوع فيقول: «إن الإسلام بالنسبة للعرب هو السلاح السري الذي جعلهم يقودون العالم قرونًا طويلة في ميادين السياسة والحضارة والحرب... ثم يقول الكاتب في تعريفه للمعنويات: «بأنها القوى الكامنة في صلب الإنسان التي تكسبه القابلية على الاستمرار في العمل، والتفكير بعزة وشجاعة، مهما اختلفت الظروف المحيطة». [الإسلام والنصر ١٦].

ثم ينتهي الكاتب إلى القول، بأن عوامل المعنويات هي: «الدين، والقيادة، ثم يقول: «إن الجيش الذي يتحلى بالمعنويات العالية ينتصر في النهاية مهما طال الأمد على أعدائه». [الإسلام والنصر ٥١].

لذلك فإن المؤمن يضع دائماً في اعتباره أن أجله مكتوب في هذه الدنيا، فهو لا يزيد ساعه ولا ينقص أبداً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١١٥) ﴿وَكَايْنٍ مَنِ نُبَيَّ قَتَلَ مَعْشَرَيْنِ كَثِيرًا فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٦) [آل عمران].

ومن هنا ندرك بأن العقيدة الإسلامية هي السلاح الحقيقي والفعال الذي يحصن المؤمن ضد الشائعات والحرب النفسية؛ لأن هذه العقيدة هي العامل الفعال في توجيه أمور المسلم وتقرير مصيره، وهي القاعدة الصلبة التي يستند إليها في كافة تصوراتهِ للحياة، وينطلق من مفاهيمها في مواجهة الناس.

وفي أثناء هذه المفاوضات أيضاً حصلت مفارقة رائعة، وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة الإيمان التي كان يتمتع به أصحاب النبي ﷺ، وعلى قدرة هذا الدين على تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي ﷺ

أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة رضي الله عنه - ابن أخ عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة رضي الله عنه هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شاباً فاتكاً سكيراً قاطع طريق، غير أن اعتناقه للدين الإسلامي حوَّله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه ندّاً له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الذي كان قائماً على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسه وعلى وجهه المغفر، فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: « أَكُفُّ يَدَكَ عَنْ مَسِّ حَيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْكَ، فَالِمَا أَكْثَرَ عَلَيْهِ غَضَبُ عُرْوَةَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا أَفْطَكَ وَأَغْلَظَكَ.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة يقف في لباسه الحربي متوشحاً بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في أشد الغضب: كَيْتَ شِعْرِي! مَنْ أَنْتَ؟ يَا مُحَمَّدُ، مَنْ هَذَا الَّذِي أَرَى مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا ابْنُ أَخِيكَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ»، قَالَ: وَأَنْتَ بِذَلِكَ يَا عُدْرُ؟ وَاللَّهِ مَا عَسَلْتُ عَنْكَ عُدْرَتَكَ إِلَّا بِعُلَابِطٍ (القطيع من الغنم) أَمْسِ، لَقَدْ أَوْرَثْنَا الْعَدَاوَةَ مِنْ تَقِيفٍ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ! [المغازي للواقدي ٢/٥٩٥].

وكان للمغيرة قصة يمكن الرجوع إليها في كتب السيرة النبوية أوردتها باختصار شديد، وتتلخص هذه القصة في أن المغيرة بن شعبة قد خرج مع نفر من بني مالك بن حطيظ بن جشم، وأثناء مسيرهم ليلاً شربوا خمرًا فكف المغيرة وأمسك نفسه عن الشراب، وشربت بنو مالك حتى سكرُوا، فوثب عليهم المغيرة فقتلهم جميعاً، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فقام عمه عروة هذا بتحمل ديانتهم جميعاً، وهذا سبب كلام: أَوْرَثْنَا الْعَدَاوَةَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ... [ينظر: المغازي للواقدي ٢/٥٩٥-٥٩٦].

ومن هذه المواقف نرى الأمثلة الحية التي أخرجتها المدرسة النبوية، تلك النماذج الفريدة في التاريخ التي صاغها الإسلام وصقلها وأعاد لها صفاءها وأدميتها الكريمة، وهذا شأن هذا الدين العظيم في كل زمان ومكان في إيجاد وتخريج النماذج المؤمنة التي لا تؤثر على إيمانها الشائعات، ولا الحروب النفسية ولا يخيفها الموت؛ لأن الموت في سبيل الله أغلى وأسمى أمانيتها، وإن حياتها هي طاعة الله وحده لا شريك له، فحياة المسلم وماتة كلاهما لله رب العالمين والحمد لله رب العالمين».

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ١٢٤-١٤٢ باختصار].

## ١٥ - أهمية الطاعة والانضباط للجند:

يقول د/ عشقي: «لقد أظهرت الحديبية طاعة وانضباطاً في صفوف المسلمين لا مثيل لها، وهذه الطاعة والانضباط مكنتا المسلمين من توحيد الكلمة، وكان الرسل والوسطاء ينقلون لقريش خبر ذلك، ويصورون لها مدى طاعة المسلمين لنبيهم وتفانيهم في سبيل مرضاتهم.

لقد جرّبت قريش صنوف الحرب النفسية فلم تغلح، زعمت أنه ﷺ جاء للقتال في البيت الحرام والشهر الحرام، فلم تتمكن من البرهان على ذلك؛ لأنه ﷺ أمر أصحابه بضبط النفس، فلم يستجيبوا لاستفزازات قريش، وصبروا في إحرامهم حتى قملت شعورهم واتسخت أبدانهم، ولما أمر الله ﷻ بالبيعة وشاهدت قريش تلك الملحمة من التفاني والبيعة على الموت طاعة لله ورسوله فرعت وبادرت إلى التفاوض، والرضوخ إلى المعاهدة.

وإن الأمة دائماً في حاجة إلى الالتزام بهذا الانضباط وهذه الطاعة؟

لقد تناوم الرسول ﷺ الحرب النفسية المكية، بالانضباط والسيطرة والطاعة؛ هذا جعل الله ﷻ طاعة أولي الأمر - رغم السلبات - واجبة، وحذّر ﷺ من الخروج على الحكام وربطها بالخروج على الإسلام. كما قاوم ﷺ الحرب النفسية بعدة أساليب، فعندما أرسلت الحليس بن زبان سيد الأحابيش لمفاوضة الرسول ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ (يتعبدون ويُعظمون أمر الإله)، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ».

عندما رأى الحليس الهدي يسيل بقلائده من عرض الوادي وقد أكل أبوابه من طول الحبس عن محله، كما رأى المسلمين يلبنون وقد شعثوا من طول المكث في إحرامهم، عاد أدراجه دون أن يقابل الرسول ﷺ خجلاً من فعل قريش، فأخبر قريشاً بما رأى، وهددهم بعنف أن ينسحب من الحلف، وألح إلى الانضمام إلى النبي ﷺ إن لم يمكنوا المسلمين من الدخول إلى مكة.

وبأسلوب الحرب النفسية المضادة استطاع النبي ﷺ أن يفكك التحالف القرشي، وأن يصدع موقف قريش مما أجبرهم على الرضوخ للمفاوضات. [المفاوضات بين الحديبية وروح العصر لعشقي ٤٤٥-٤٤٦].

## المبحث السادس

### الدروس الدعوية والإعلامية

#### ١ - تداول الخبر وانتشاره:

يقول د/ حجازي: «على أثر الخبر الذي أعلنه رسول الله ﷺ بأنه عازم على الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، فإن هذا الخبر أخذ ينتشر بسرعة كبيرة في المدينة المنورة وخارجها، وأخذ الناس يتحدثون فيما بينهم بأخبار هذه الرحلة المباركة التي وقعت موقع الحب والقبول في نفوس الصحابة الكرام ﷺ، خاصة المهاجرين الذين أخرجتهم قريش بغياً وظلماً وعدواناً من بلادهم الطيبة، وفرقت بينهم وبين أهليهم وعشيرتهم، ومنعتهم طوال مدة دامت أكثر من خمس سنوات من بيوتهم وديارهم، وأصرت بعنادها وغطرستها على المضي بهذا التعنت اللئيم بقوة السلاح.

وقد بدأ الصحابة الكرام بتجهيز أنفسهم والاستعداد لمرافقة رسولهم وقائدهم الكريم ﷺ لأعز مكان وأقدس بقعة حبيبة إلى نفوسهم وإلى نفس كل مسلم في كل مكان من هذه الدنيا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن طرق نقل الأخبار إلى جميع المناطق التي يعيش فيها المسلمون داخل المدينة المنورة وخارجها، كانت تعتمد أساساً على الطريقة البدائية، وهي طريقة المشافهة من شخص لآخر، وذلك من أجل تبليغ الخبر الذي أعلنه النبي ﷺ في المدينة المنورة، من أنه عازم على الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة، فكانت هذه الطريقة تتم بواسطة التداول والاتصال بين الناس حتى تشمل أكبر مساحة ممكنة في أكبر عدد ممكن من الناس.

يقول د/ محمود أدهم: «لقد غلب على نشر الأخبار وتداولها في وسط وشمال الجزيرة العربية رواية المشافهة، كما لم تكن عناية العصر الإسلامي بالمادة الإخبارية وأهميتها بأقل منها في العصور السابقة، حيث بدأ الإسلام بتمحيص الروايات وتنقيتها من المبالغة والأسطورة والمواد المختلفة، كما عني الإسلام بتدوينها أيضاً والحفاظ عليها». [كتاب فن الخبر ص ٨٣ - دار أخبار اليوم - مطبعة الشعب].

هذا، وكما تميز الخبر الإسلامي بصدقه، فإنه بالمقارنة بتلك الفترة أيضاً قد تميز بسرعة انتشاره، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الصحابة الكرام ﷺ كانوا دوماً على اتصال بنبيهم الكريم ﷺ من جهة، وبين بعضهم البعض من جهة أخرى، وذلك لمعرفة أخبار الوحي وما جد من أمور دينهم؛ لذا فإن اهتمام المسلمين بالأخبار يأتي من اهتمامهم بعقيدتهم وأمور دينهم الذي ترتبط به حياتهم وتفاعل معه نفوسهم.

تقول د/ إحسان عسكر: «يستمد الرأي العام قوته وصلابته من النظام الإخباري السائد، فكلما كان هذا البيان راسخاً، كان ارتباط الرأي العام بالأحداث وتفاعله معها أقوى.



ثم تضيف قولها: وننتهي مما تقدم إلى القول بأن الإعلام الصحيح فن إخباري يستهدف عرض الأنباء والحقائق للتأثير الصحيح في الجماهير وتكوين رأي هام ورشيد، وهناك نتائج خطيرة من ترك الجماهير في حالة ضياع نتيجة لفقدان الحقيقة وانحرافها عن مدارها السليم.

ثم تستطرد قائلة: ولكي يؤدي الخبر رسالته في تكوين الرأي العام، لابد وأن تلتزم السياسة الإخبارية بالقواعد الأخلاقية في رواية الخبر وصياغته». [الخبر ومصادره ص ١٥٤ - عالم الكتب - القاهرة]. ولقد وضع الإسلام الأسس الثابتة للسياسة الإخبارية منذ البداية وعمق مفاهيمها في نفوس أتباعه، وجعل منها محورًا لحركته ونشاطه الإعلامي.

ويعتبر الاتصال الشخصي من أهم الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ في تداول الخبر وانتشاره. يقول د/ عبد اللطيف حمزة: «ومهما يكن من شيء فإن أكثر ما اعتمد الرسول ﷺ على وسيلة الاتصال الشخصي، كان في المراحل الأولى للدعوة». [الإعلام في صدر الإسلام ص ٧٢ - دار الفكر العربي - القاهرة].

ثم يضيف د/ حمزة قائلاً حول هذا الموضوع أيضاً: «إن وسيلة الاتصال الشخصي كانت، أولى الوسائل التي مارسها الرسول ﷺ في نشر الدعوة، ويعتبر الاتصال الشخصي أخطر الوسائل الإعلامية على الإطلاق، إذ بالإضافة إلى نشر الدين، فقد حافظ الرسول ﷺ بها على وحدة أصحابه». [السابق ص ٧٦].

وهكذا فإن النبي ﷺ قد مارس الإعلام بصوره الصحيحة والفعالة للوصول إلى الهدف المنشود، ولم يكن فعلاً أنفع من وسيلة الاتصال الشخصي في ذلك الزمن لنقل الأخبار وتداولها من مركز الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة إلى بقية المناطق الأخرى.

يقول د/ إبراهيم إمام: «إن الذي لا شك فيه أن الاتصال الشخصي في ذاته هو أساس لجميع العمليات الإعلامية من حيث هي، ومن بينها العملية الإعلامية التي تعرف (العلاقات العامة) والعملية التي تعرف بالإعلان، ولكن الاتصال الشخصي أكثر ما يؤثر بالحقيقة في ميدانين خطيرين هما ميدان الدعوة وميدان الدعاية، والقدرة على ممارسة الاتصال الشخصي الذي من هذا النوع شرط في نجاح العمليات الإعلامية، ذلك أنه يلعب دوراً خطيراً في الإعلام على جميع المستويات، ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصي، وتُنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير في الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة الأخرى». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ١٠].

ويضيف د/ إمام قائلاً: «والمهم في هذا الاتصال هو مدى ثقة الجمهور في مصدر الإعلام؛ لأن هذه الثقة هي الأساس الذي يبنى عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية...»

ثم يعزز د/ إمام رأيه هذا بنقل بعض آراء الباحثين في هذا الموضوع فيقول: «ويعمل الباحثون من أمثال لازر سفيلد، وكارترز، وغيرهما، سر تفوق الاتصال الشخصي في التأثير، بأنه إذا كان من السهل أن

ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التي لا تتفق مع آرائهم وميولهم، فإنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم، وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفاً، كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر في عرض وجهات النظر والتأثير في الناس».

[الإعلام والاتصال بالجمهير ص ١٢].

ومن هنا فإنه يمكننا القول بأن الأساليب التي اتبعتها الإسلام في نقل الأخبار وتداولها ونشرها بين الناس في تلك الفترة كانت تعتمد على وسيلة الاتصال الشخصي والشفهي المباشر.

والجدير بالذكر أن هذه الوسيلة الإعلامية الهامة يعتبرها رجال الإعلام بأنها تمثل المرحلة الأولى من مراحل تطور وسائل الاتصال الإعلامية.

وتتحدث د/ جيهان رشتي عن هذا الموضوع موضحة رأيها بنقل عبارة (ماكلوهان) الذي يرجع مضمون عملية الاتصال الإنساني إلى أربع مراحل تعكس في تصويره التطور الإنساني لعمليات الاتصال، وهذه المراحل هي كما يراها بقوله: «أولاً المرحلة الشفوية ما قبل القلم، أي المرحلة القبلية، ثم مرحلة الكتابة والخط، ثم عصر الطباعة، فوسائل الإعلام الإلكترونية».

ثم يقول: بأن طبيعة وسائل الإعلام المستخدمة في كل مرحلة تساعد على تشكيل المجتمع».

[الأسس العلمية لنظريات الإعلام - د/ جيهان رشتي ص ٣٤٦ - دار الفكر].

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٤٠ - ٤٣].

## ٢ - دور المنافقين واليهود في تشبيط الهمم:

يقول د/ حجازي: «النفاق هو الداء العضال الباطن الذي لا يخلو منه عصر من العصور. وقد رافق هذه الدعوة الإسلامية من بدايتها، ولا زال يعيش في جسم هذه الأمة الكريمة. ومما تجدر الإشارة إليه أن تلك الفترة التي كان المسلمون يستعدون فيها لمرافقة نبيهم الكريم ﷺ للذهاب إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، قد لعب المنافقون فيها دوراً كبيراً في تشبيط الهمم وتوهين عزائم المؤمنين لعدم مرافقة نبيهم ﷺ في تلك الرحلة المحفوفة بالأخطار، وأخذوا يثبون الشائعات المغرضة... هذا ولقد عمل الإعلام اليهودي أيضاً - كعادته في زرع الفتن بين الناس وبث الأحقاد والإفساد في الأرض - على نقل أخبار المسلمين وتحركاتهم إلى أعدائهم من القبائل المشركة، في مكة وغيرها من القبائل الأخرى في نجد والحجاز، وإعطائهم صورة كاذبة عن وضع المسلمين السلمي في المدينة المنورة».

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٤٦ - ٥٤].

## ٣ - الصفوة المختارة تستجيب:

يقول د/ حجازي: «لم يكن لهذا التراجع والانزامية من المنافقين أي أثر على الصفوة المؤمنة التي لبّت نداء ربها ونبيها للذهاب للعمرة، ولقد جاء وحى الله - تبارك وتعالى - يهتف بالمؤمنين ليطيعوا الله ورسوله، ولا يتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته، وجاء التحذير من التولي والإعراض مقتراً بذكر شر الدواب التي فقدت السمع والنطق والعقل، وتلك صورة ينفر منها الإنسان المؤمن، ويأبى أن ينحدر إليها؛ ولذلك كان اقتران الدعوة للطاعة والتحذير من التولي بهذا المثل الحي في ذروة العظمة والتذكير والتأثير، وفي ذلك يقول ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢٢) [الأنفال]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْتِ الْمَعْرَةِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ الْغُحُشُرِ﴾ (٢٣) [الأنفال].

أما تلبية المؤمن لدعوة رسول الله ﷺ، فإن ذلك يعني أن هذا المؤمن قد استجاب للنداء وتلاءم مع دعوة الحق التي ملأت قلبه وطهرت وجدانه، وارتفعت به إلى نور الإيمان الذي أكرمه الله - تبارك وتعالى - به، فاستقام بذلك خلقه، وصح اتجاهه، وخلص للخير عمله، وتلك هي عناصر الإيمان. ولقد عني الإسلام منذ البداية عناية كبيرة في تربية المسلم تربية متكاملة، تحرر عقله، وتهذب نفسه، وتطهر وجدانه، وتوازن بين ضرورات جسمه وأشواق روحه، وتنمي فيه بواعث الإيمان، وأنه لا بد لدعوة الحق من مثل هذه النماذج الرفيعة المستوى التي تتحرر من أغلال الأهواء، وتسمو على نوازع النفس، وتعلو فوق قيود التراب؛ لتنتقل بعزم وإخلاص في آفاق رحبة وضيفة تزرع في جنباتها غرس الإيمان الخالص الذي سرعان ما يخرج نباته بإذن ربه طيباً داني القطوف.

ومن الطبيعي أن المحن والشدائد وعنف المواجهة المباشرة وحدة الصراع هي المناخ الصالح لإعداد هذه النماذج الفريدة، وتربيتها وتكوينها، وجعلها القاعدة الصلبة الثابتة التي يعول عليها ويستند إليها في المعارك والأزمات؛ لأنها الصفوة المختارة الخالصة التي لا يزيدها هلب المعارك إلا توهجاً وصفاء، ولقد أُتيح لدعوة الإسلام في فجر الرسالة إعداد فئة من هؤلاء الأفاضل، الذين استجابوا لله وللرسول، فضربوا أروع الأمثلة في البطولة والفداء، وفيهم يقول الله ﷻ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ (٢٤) [الأحزاب].

إن هؤلاء الأبرار الذين نهلوا من معين النبوة وتربووا في مدرسة الرسول ﷺ، إنما كانوا الترجمة الحية المتحركة للمبادئ والمثل التي جاءت بها العقيدة الإسلامية؛ لأنهم آمنوا بها وفهموها ووعوا أبعادها

الكبرى في الحياة، فلم يقفوا عند حدود معرفتها وتعلمها والتعمق في معانيها، بل خطّوا بها أشواطاً بعيدة في مضمار التبليغ والدعوة إلى الله ﷻ، والجهد في سبيله لرفع راية الحق، وإزالة الظلم والطغيان، فكانوا بذلك مشاعل الهداية التي أضاءت للبشرية جميعاً سبيل الخير والرشاد.

فقد حمّلوا الأمانة فحملوها على أحسن وجه، واستجابوا لدعوة نبيهم ﷺ طائعين ملبين هذه الدعوة الكريمة، مؤثرين رضى الله ﷻ ورسوله ﷺ؛ لذلك فقد كان هؤلاء الصحابة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لهذه العمرة، هم الصفوة المختارة فعلاً». [منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٥٤-٥٦].

#### ٤ - أن يكون الدعاة أسخياء كرماء:

يقول د/ أيوب: «كرم النبي ﷺ وسوقه سبعين بدنة لتنحر في الحرم - إنه كرم الداعية الأول ﷺ: وفي ذلك سنة لدعاة الإسلام أن يكونوا أسخياء كرماء، فإن الكريم يحبه الله ﷻ، ويحبه رسوله ﷺ، ويحبه الناس، وإن كرم النبي ﷺ لثامة ﷺ، وتخصيص لبن ناقته له صباحاً ومساءً أثر فيه، وجعله يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله [ينظر إسلام ثامة بن أثال الحنفي ﷺ في (مجموعة غزوة الأحزاب)]. وصدق الشاعر:

وَإِذَا مَلَكَتِ النَّفْسُ قُبُورَهَا      وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ

[صلح الحديبية لأيوب ٣٤].

#### ٥ - المظاهر الإعلامية في شعائر العمرة:

يقول د/ حجازي: «انطلق الصوت الإسلامي مجلجلاً عبر الصحراء ليذيع رسالة إعلامية ذات دلالة ومعنى في المفهوم الإعلامي.

وكانت تلك الرايات الإعلامية ذات المعاني المعبرة تدل دلالة واضحة على المحتوى الحقيقي لهذه الرحلة المباركة، وقد تمثلت في صورة بديعة استُخدمت فيها ما تستخدمه أرقى الوسائل الإعلامية في عالمنا اليوم، وذلك في نقل الصورة المتحركة والصوت المسموع لدى المشاهدين بشكل واضح وجلي. ولا شك أن هذه الشعيرة التعبدية قد عبرت عن مدلولاتها الحقيقية، وعن أغراضها الإعلامية المرجوة منها بشكل كامل، وذلك بما تضمنته هذه الشعيرة التعبدية من سمات إعلامية واضحة.

وها هي هذه المدلولات الإعلامية بشيء من التفصيل:

١ - الشهر الحرام: لقد كانت هذه الرحلة المباركة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، ومعلوم أن شهر ذي القعدة هو من الأشهر الحرم التي لا يجوز القتال فيها - حسب قانون العرب كافة - بحال من الأحوال؛ لذلك فإن طابع هذا المظهر الإعلامي يعكس المضمون السلمي للرحلة.

٢- الإحرام: وهذا مظهر إسلامي تعبدي ذو معنى إعلامي معبر عن الغرض الذي وجد من أجله، حيث عندما يرى المشاهد هذا المنظر فإنه لا يساوره أدنى شك بأن الشخص الذي يرتدي هذا الإحرام قد دخل في النسك، وأنه قد أعد نفسه إلى مهمة تعبدية خاصة.

٣- الصوت: وهذا الصوت هو صوت التلبية الذي يهل به الحاج، أو المعتمر في بداية دخوله في النسك من الميقات الذي يحرم منه، ومضمون هذه التلبية أربع عبارات هي كالآتي:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ومما يجدر ذكره، أن من شروط المحرم أن يرفع صوته في التلبية كلما نزل وادياً أو صعد مرتفعاً، وعلى طول الطريق الواصل بين الميقات والحرم الشريف بمكة المكرمة مهما طال هذا الطريق، وذلك اقتداءً بسنة النبي ﷺ، ويعتبر رفع الصوت بمثابة الإعلان الذي يعلن به المسلم بأنه قد لبى نداء الله بالحج أو العمرة، وأنه قد بدأ فعلاً بتنفيذ هذه المهمة.

يقول د/ عبد اللطيف حمزة: «ربما كان أول شكل من هذه الأشكال الدعائية هذا المشهد الذي يردده الحجاج وهم مقبلون على مكة المكرمة، ويرددونه أثناء طوافهم بالكعبة، وهو الشيد الذي وضعه لهم رسول الله ﷺ، وفيه يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك،... إلخ».

ثم يضيف د/ حمزة في وصفه لهذا المشهد بقوله: «إنه مشهد رائع جميل من مشاهد الدين يُثبّت العقيدة في نفوس المسلمين، ويزرع الإيمان والسكينة زرعاً آخر في قلوب المؤمنين.

ثم يضيف قائلاً: وللأنشيد الحماسية في كل ثورة دينية أو سياسية أثرها الذي لا يحتاج منها إلى شرح». [الإعلام في صدر الإسلام ص ٨٢ ط دار الفكر العربي].

والله سبحانه له حكمة جليلة في جعل فريضة العمرة مثل فريضة الحج، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

والعمرة فريضة على كل مسلم ومسلمة مرة واحدة في العمر، ولكن ذلك كما هو في الحج - على المستطیع - بكل ما لهذه الاستطاعة من معنى، وذلك للآية السالفة الذكر.

٤ - إشعار الهدي وتقليده: وتعتبر هذه الإشارات ذات معنى ومدلول إعلامي واضح يفهم المشاهد منها أن هذا الحيوان الذي يحمل هذه العلامات إنما هو هدي بالغ الكعبة.

٥ - المظهر الإعلامي المعبر: لا شك أن هذا المظهر الإعلامي المتكامل يعكس صورة متحركة لذلك الموكب الإسلامي المهيب ذي الزبي الوحده، والحركة المنتظمة، والصوت المجلجل الذي يشق عنان السماء بالتلبية، وهم في طريقهم عبر الصحاري والوديان باتجاه مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة.

إن هذا المظهر الإعلامي ذو الرموز الإعلامية المتعددة يُعبر أصدق تعبير عن المعنى المقصود لهذه الرحلة المباركة، وإنه يشكل كذلك عملية إعلامية للاتصال غير المباشر بالمشاهدين من الناس على طول الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة عن طريق هذه الرموز ذات الدلالات الإعلامية المعبرة، الأمر الذي أدى إلى تنشيط الحركة الإعلامية في الرأي العام في تلك المناطق؛ مما أكسب الدعوة الإسلامية نجاحاً إعلامياً هائلاً، وقد استطاع عرب الجزيرة العربية معرفة الكثير عن الإسلام ومبادئه السلمية النبيلة عن طريق هذه الرحلة المباركة.

وهكذا فقد كان تأثير وسائل الإعلام المتداخلة بعضها في بعض تأثيراً مباشراً في إظهار أهداف ومبادئ الدين الإسلامي في هذه الرحلة، وذلك ضمن العملية الإعلامية المتكاملة التي شاركت فيها كل وسيلة من تلك الوسائل الإعلامية المذكورة بقدر معين من التأثير بما يتناسب والمفاهيم السائدة في تلك المجتمعات، كما يوضح لنا ذلك د/ أحمد بدر بقوله: «يتأثر الرأي العام — كما تتأثر العمليات الاجتماعية الأخرى — بطرق الاتصال ووسائله، وعلى الأخص بحجم الجماعات الداخلية في هذه العملية، وأماكن انتشارها، وطرق الاتصال المذكورة هذه تشمل كل السبل التي ينتقل بها المعنى أو الإشارة أو الرمز من شخص إلى آخر، أو من جماعة إلى أخرى... وكل عمليات الاتصال تعتمد على الأشكال الرمزية التي يستخدمها الفرد من الثقافات التي يعيش فيها أو يتعلمها من خبراته الشخصية» [الاتصال بالجمهير والدعاية الدولية ص ٥٢ - دار القلم]. [منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٥٨-٦١].

## ٦ - مهمة إعلامية هامة:

يقول د/ حجازي: «لقد كانت خبرة النبي ﷺ ببعوث الاستطلاع كخبرته بفنون القتال المختلفة، من حيث اختيار الزمان والمكان والرجال والمهمة، وفي اختيار القائد العسكري، ورجل الإعلام الناجح وتزويده بالتعليمات والوصايا الإسلامية، فكانت هذه الخبرة، مثلاً يُحتذى به في جميع العصور.

حيث كان ﷺ أعرف الناس ببعوث الاستطلاع والحصول على أخبار أعداء الإسلام وأماكنهم وعددهم وعدتهم وقياداتهم، وحتى عن معنوياتهم، وكل ما يتعلق بالأسباب التي تؤدي إلى كسب المعارك وتغليب المقاصد، ولا سيما في العصور التي كثرت فيها ذرائع الثورية والمراوغة والكشف، مما جعل حاجة المقاتلين من المسلمين إلى استقصاء أخبار الأعداء من الأمور الملحة.

وقد أعد لهذه المهمات من الأسباب والدراسات ما جعلها علماً من العلوم العسكرية الهامة في كل عصر من العصور على مر الزمن حسب إمكانيات كل عصر.

والجدير بالذكر أن رسول الله ﷺ منذ أن أقام حكومته الإسلامية في المدينة المنورة عمد إلى إرسال دوريات الاستطلاع؛ وذلك ليتعرف المسلمون على الطرق المحيطة بالمدينة المنورة والطرق المؤدية إلى مكة

والقادمة منها بصورة خاصة، وذلك ليرصدوا حركات أعداء الإسلام والمسلمين، المتربصين بالمسلمين الدوائر من جهة، وليوادعوا بعض القبائل المجاورة من جهة أخرى.

وفي هذا الخصوص من المهمات العسكرية الاستطلاعية والإعلامية الهامة، وبالنظر للظروف الحساسة لتلك المرحلة وما لها من شأن عظيم في حياة المسلمين ومستقبلهم، فقد عهد الرسول ﷺ، وهو في ذي الحليفة، وقبل أن يتوجه إلى مكة، عهد إلى رجل من أصحابه ليقوم بمهمة استطلاعية، وذلك بأن يتقدم أمام المسلمين ليكتشف المنطقة أمامهم، وليقوم بمهمة جمع الأخبار عن قريش داخل مكة وخارجها، وعن تحشداتها العسكرية، وعن ردود الفعل الناتجة عن خروج الرسول ﷺ وصحبة الكرام ﷺ إلى مكة في هذا العدد الكبير، وقد كان هذا الرجل الذي أعده رسول الله ﷺ لهذه المهمة الإعلامية هو بسر بن سفيان الخزاعي ؓ، كما ذكر ابن هشام، والواقدي وغيرهم من أصحاب كتب السيرة النبوية. ويتضح مما تقدم أن من جملة الأسباب التي توافرت لاختيار هذا الرجل لهذه المهمة الخطيرة هو كونه حديث عهد بالإسلام، وأن قريشاً لم تكن تعلم بإسلامه بعد؛ لهذا فإنه لا يتطرق إليه أدنى شك من دخول مكة أو خروجه منها، أو حتى من دخوله إلى داخل معسكراتها وإلى دار الندوة نفسها، وقد حصل فعلاً أن مبعوث رسول الله ﷺ الذي يحمل مهمة المراسل الحربي قد دخل إلى داخل معسكرات قريش وحليفاتها في الأماكن التي أعدتها لمواجهة النبي ﷺ وصحابته الكرام ﷺ في منطقة بلدح، وهي منطقة تقع خارج مكة قليلاً، وقد حصل بسر الخزاعي ؓ على كافة المعلومات المطلوبة لمهمته الإعلامية التي كلفه رسول الله ﷺ بها.

والجدير بالذكر أن بسر بن سفيان الخزاعي ؓ كان أحد زعماء قبيلة خزاعة البارزين؛ لذا فهو ذو مكانة سياسية واجتماعية رفيعة، وهو معروف لدى قريش بوزنه السياسي، الأمر الذي لا يدعوا قريشاً إلى منعه أو حتى الشك فيه.

وهناك ثمة أسباب أخرى تعتبر أساسية قد أعدها رسول الله ﷺ لرجل الإعلام المسلم، وقد تمثلت ببسر الخزاعي ؓ وهي: المقدرة على تحمل المسؤولية والثقة الكاملة بأن ما يفعله في هذا المجال، إنما هو طاعة لله ورسوله، وهذا من دواعي الإيثار، والسرعة المتقنة في إنجاز المهمة والإحاطة بها، وأن يكون كَيْسًا فطنًا، وأن يكون على معرفة تامة بالمقاصد الحقيقية لمهمته التي أوكلت إليه، وكذلك يجب أن يكون عارفاً بالطبيعة الجغرافية التي سيذهب إليها، وكذلك معرفته بأهداف وأفكار ولغة القوم المرسل إليهم، وبهذه الإستراتيجية فإن الإسلام يكون قد أعد رجل الإعلام وجامع الأخبار المسلم إعداداً متيناً، وأهله تأهيلاً ممتازاً للقيام بمهمته خير قيام، في غاية من الدقة والسرعة والنجاح، وهذا ما يُطْلَق عليه الإعلاميون اليوم بالمخبر أو المراسل الحربي.

هذا ويحدد د/ محمود عساف مهمة المخبر بقوله : «والمخبر كما هو معروف هو الباحث عن الأنباء، أي جامع الخبر، وحامله من مصادره إلى ناشره، ويقول علماء الأخبار عن المخبر ووظيفته، أن وظيفة المخبر، هي التردد على أرض الأحداث للحصول على التفاصيل والمعلومات التي سيكون منها النبأ، وبقدر ما يكون لدى المخبر من ذكاء وفطنة وثقافة واسعة وإطلاع وصبر ومثابرة وحب للاستطلاع، بقدر ما يوفق في عمله، في مهمة جمع الأخبار واستكمال جوانبها». [أصول الإعلان ص ١٧٠-الهيئة المصرية العامة للكتاب].

وما لا شك فيه أن بسر الخزاعي رحمته الله كان يمثل رجل الإعلام المسلم الذي يتحرك وفق خطة إعلامية مدروسة، ويعمل بموجبها مسبقاً على دراسة المجتمع الذي تقضي مهمته الإعلامية بالعمل فيه، وذلك من أجل تحقيق الغاية التي يعمل من أجلها بدقة ونجاح، وهذه هي طبيعة الإعلامي المسلم الناجح. يقول د/ محمد كمال إمام : «وعلى الإعلامي المسلم أن يقوم بدراسة ميدانية لاختيار طبيعة المجتمع الذي يتحرك فيه، واختيار نوعية الوسائل التي تصل به إلى غاياته الإستراتيجية».

[النظرة الإسلامية للإعلام ص ١٤٩ - دار البحوث العلمية].

ولا شك أن الميزات الهامة التي وفرت لدى بسر بن سفيان الخزاعي رحمته الله؛ لكي يقع عليه اختيار الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة الخطيرة، تتمثل في جملتها بالصفات العلمية والعملية والأخلاقية والذكاء والمنزلة الاجتماعية والظرف المناسب، تلك الصفات والميزات التي أثبت بموجبها أنه قادر على القيام بهذه المهمة وإنجازها بنجاح تام.

ولا شك أن الرسول ﷺ هو أعرف الناس بالرجال، وبكيفية استغلال الظروف المناسبة لصالحه؛ لهذا فقد كانت ثقة الرسول ﷺ بسر الخزاعي رحمته الله هي السبب في نجاح مهمته، ولنستمع إلى ما قاله د/ عبد القادر حاتم عن مهمة رجل الإعلام : «إن رجل الإعلام يجب أن يتميز بصفات خاصة، منها أنه لا بد وأن يكون موضع ثقة الشخص الذي توجه إليه الفكرة، وأن يتصف بالاحترام والأمانة والصدق، وأن يكون متخصصاً في مادته بعلمه وتجاربه، وبعبارة موجزة فإن رجل الإعلام يجب أن يتميز بصفات علمية وعملية وأخلاقية تسع عليه الاحترام والثقة من الجميع». [الإعلام والدعاية نظريات وتجارب ص ١٠٢].

هذا وقد استطاع بسر الخزاعي رحمته الله إنجاز المهمة التي أوكلت إليه بنجاح تام، وذلك بالحصول على جميع المعلومات المطلوبة بشكل دقيق ومفصل، والعودة إلى قاعدته بسرعة مذهلة، وقد التقى بالرسول ﷺ على غدير الأشطا قرب عسفان، وقدم إليه تقريراً إخبارياً شاملاً ومفصلاً، غاية في الدقة والأهمية عن المهمة التي قام بها.

وقد تضمن هذا التقرير الإخباري الهام جميع المعلومات المطلوبة عن الوضع العام في مكة وإعطاء الرسول ﷺ صورة مفصلة ودقيقة عن مراكز تجمع قوات قريش وحليفاتها، التي هبت لمناصرتها والوقوف



إلى جانبها نتيجة للأخبار الكاذبة التي نقلتها قريش إليهم من أجل قلب الحقائق، وتزوير المواقف، وتشويه الصورة الصحيحة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ.

وبالجملة فإن هذا التقرير الإخباري الهام قد شمل كل ما آل إليه الموقف القرشي بعد سماعهم خبر قدوم الرسول ﷺ بهذا العدد من أصحابه الكرام ﷺ إلى مكة المكرمة.

وتعتبر هذه المهمة الإخبارية التي قام بها بسر الخزاعي ﷺ نموذجاً قيماً للمهام الإعلامية الإخبارية الناجحة، وهي تعتبر مثلاً رائعاً يُحتذى به في مثل هذه المهمات الإعلامية الحساسة التي يطلق عليها الإعلاميون في عصرنا الحالي بمهمة المخبر أو المراسل الحربي.

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٦٧-٧٣].

## ٧ - معاندي الدعوة إلى زوال:

يقول د/ أيوب: «يَا وَيَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلْتُمُ الْخَرْبُ...» إن الرسول القائد ﷺ يعرف مصير معانديه ويعرف عاقبة أمرهم وأن الحرب آكلة كل من تصدى لدعوة الله وحارب القائمين بها كما حدث لقريش، فعلى الدعوة أن يطمئنوا لهلاك المشركين الصادقين عن دعوة الله والرافقين أمامها حجر عشرة، وكيف تقف الأحجار أمام انسياب المياه العالية التي هي حياة القلوب والأرواح.

وصدق الله العظيم: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا لَبَّيْكَ يَدَيَّ رَحْمَتِي وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ١٨﴾ لِيُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا وَسُقْيَاهُ، وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا ١٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ٢٠﴾ لِيَذْكُرُوا فَآثِي أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٢١﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ زَبِيرًا ٢٢﴾ فَلَا تَطْعُمُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ٢٣﴾ [الفرقان].

إن دعوة الله كالماء ريًا للإنسان والنبات والحيوان، وقلب الطُرف معي تَجِدُ البلدة الجاحدة لدعوة الله مصيرها الهلاك، نقرأ ذلك في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل].

(١) الضمير هنا قد يعود على الماء، وقد يعود على القرآن، فكما كان الماء حياة للأمم وهو أحد عناصر الحياة، فكذلك القرآن حياة للأمم لا تقوم لهم قائمة بدونه، وخاصة أمة الإسلام التي نصبت نفسها لحمل الرسالة، وجعلها الله خليفة في الأرض.

وقد يقول قائل: إننا نرى بعض الأمم الكافرة تسبقنا وتعيش وقد تركت القرآن وراءها ظهرًا.

فالجواب: إن حياتهم أشبه بالطير المذبوح، فقد يمشي وهو مذبوح لكي يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت أمر آخر، إن الحياة الحقة هي حياة الإنسان مع الله وفي ظل شريعته.

فأتى لقريش الضالة الوثنية أن تقف أمام الشمس المضيئة، فإن قائد هذه الدعوة سيدنا محمد بن عبد الله - عليه وعلى سائر رسل الله أفضل الصلوات وأتم التسليم - قد وصفه ربه فقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿١٦﴾ [الأحزاب].

فإن حُيِّل لقريش أنها تساند الباطل وتحارب من أجله، فأتى للجفاة والأفئدة الهواء أن تقف أمام صلابة الحق وضوء الشمس الوهاج، أمام الرسول القائد العظيم ﷺ وهو يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَأُلُ أَجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

إنه الثبات على الحق والقيام بواجب الدعوة، فليع ذلك الدعاة جيئاً: الموت أو تنتصر دعوة الله ﷻ ورسالة محمد ﷺ.

وليسيروا على نمطه ولتكن لنا جميعاً (صلح الحديبية) شفاء إن عز الدواء، وحادياً إذا سارت القافلة في الصحراء.

فليأخذ الداعية طهوراً! من صفاء دعوته، وإنها أطهر من ماء السماء، وليأخذ منها قبساً من النور، فإن أشعتها أقوى وأنفذ من أشعة شمس السماء». [صلح الحديبية لأيوب ٨-٩].

#### ٨ - الأثر الإعلامي الناتج عن تغيير خط سير الرحلة:

يقول د/ حجازي: «لا شك أن ذلك التصرف الحكيم الذي قام به رسول الله ﷺ بتغيير خط سير الرحلة المباركة تحاشياً للصدام المسلح مع قوات خالد بن الوليد، والعمل على تجنب سفك الدماء بدون مبرر، وإحلال أسلوب التفاهم والإقناع بالحجة والبرهان على أسلوب الحرب والقتال، لدليل كبير على حسن النية التي كان يعمل بها رسول الله ﷺ، غير أن قريشاً المتغترسة التي تفتخر بكبريائها الوثني لم تكن تفهم هذا الأسلوب الإنساني النبيل في التعامل في أكثر الأحوال على حقيقته الصادقة.

والجدير بالذكر أن هذا التغيير لخط سير الرحلة له أبعاده الكبيرة في المفهوم العسكري والإعلامي، فهو يعتبر - في نظر قريش - أكثر خطورة من المواجهة المسلحة المباشرة.

وعلى هذا الأساس فإن خطة التغيير هذه تحمل في طياتها معاني ذات أبعاد ومفاهيم متعددة الجوانب والاتجاهات، ومعلوم أن الخطط الحربية والتكتيكات العسكرية تعتمد في تنفيذها ونجاحها على التعاون المشترك بين الجهازين العسكري والإعلامي، ومن هنا فإن خطة التغيير هذه لم تكن كما يتصوره البعض، خوفاً من قريش أو من قوات خالد بن الوليد، فالذي يخاف من عدوه يرجع إلى الوراء عودة بدئه، ولا يتقدم باتجاه قاعدته الأصلية ومركز قوته.

يقول ل. ر. محمود شيت خطاب: «ولم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات قريش؛ لأن الذي يخاف عدوه لا يقترب من قاعدته<sup>(١)</sup> الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يطيل خطوط مواصلات العدو (خطوط المواصلات: هي التي تربط الجيش بقاعدته)، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله، ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية». [الرسول القائد ﷺ خطاب ٢٨١].

لذا فإن هذه الخطة تعتبر بمثابة عملية للتمويه والتغطية الإعلامية، وإثارة الحرب النفسية، ولفت الأنظار وتوجيه الأفكار إلى ما يخدم أغراض وأهداف هذه الرحلة.

ولقد كان الرسول ﷺ في كثير من غزواته لا يعلن عن وجهته الحقيقية، بل كان ﷺ إذا أراد جهة معينة فإنه يتوجه إلى مكان آخر غير الذي يقصده<sup>(٢)</sup>، حتى إذا كان قد ابتعد بجيشه مسافة يكون فيها بعيداً عن الأنظار، فإنه يتحول بجيشه إلى جهته الحقيقية التي يقصدها فعلاً؛ وذلك لوجود المنافقين في المدينة المنورة، وكذلك لاحتمال وجود عيون نقريش أو لغيرها في تلك المناطق تراقب تحركات المسلمين. وهذه الخطط التي يتم فيها التعاون الفعلي بين الجهازين العسكري والإعلامي.

والجدير بالذكر أن صدى تغيير اتجاه سير رحلة الرسول ﷺ هذه عن طريقها الرئيس له عدة احتمالات ومفاهيم أخرى في نفوس القرشيين، وقد تكون أول ثمرة من ثمرات هذه الخطة الإعلامية الناجحة، هو إيجاد البلبلة والارتباك في صفوف قوات قريش المرابطة في كراع الغميم بقيادة خالد بن الوليد على الخط الرئيس بين مكة والمدينة المنورة، والتي تُقدر بأكثر من مائتي فارس من الخيالة؛ مما جعل خالد بن الوليد يعود مسرعاً بقواته إلى مكة المكرمة ليخبر زعماءها بما حصل.

هذا ولقد كان لهذه الخطة التمويهية الناجحة الأثر الكبير في قلب الوضع العسكري لدى قريش وحليفاتها في بلدح، الأمر الذي جعلها في موقف المدافع بدلاً من موقف المهاجم؛ وذلك لأن قريشاً في وضعها الحالي، أصبحت لا تدري من أي الجهات سينقض عليها رسول الله ﷺ في الهجوم، وعلى هذا الأساس فإنها ستقوم بتوزيع جيوشها على جميع الجبهات التي يحتمل أن يهاجمها منها رسول الله ﷺ، الأمر الذي سيضعف من قوتها العسكرية ويفتتها في أماكن متعددة نظراً لعدم معرفة الجهة الحقيقية التي توجه إليها النبي ﷺ بالضبط، وكذلك الخطة التي ينوي القيام بها، ولصعوبة تحديد ذلك في هذا الظرف

(١) القاعدة هي المنطقة التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات الحربية، والقاعدة نوعان: قاعدة العمليات، وقاعدة التموين، وتوحدان على الأغلب ويندر أن تكونا منفصلين.

(٢) قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَى بَعِيرَهَا. البخاري في الجهاد والسير (٢٩٤٨)،

العصيب، فإن الأفكار تتجه إلى استنتاج احتمالات عديدة منها : أن الرسول ﷺ في أي لحظة سيدخل مكة بقواته الضاربة، التي تعرفها قريش تمام المعرفة من مكان سيحدده هو بنفسه، وبما أن جميع القوات القرشية والحليفة هي الآن ترابط في نقطة متقدمة خارج مكة على طريق المدينة المنورة، فمعنى ذلك أن الرسول ﷺ سيقوم بما لديه من قوات باحتلال مكة واحتجاز ما فيها من الأهالي والذاري كرهائن لديه، ومن ثم فإنه سيباغت جيش المشركين وحلفائهم بضربة قاضية غير محتملة ولا محسوب لها حساب من جانب قريش، ويقضي على كل ما عملته وما خططت له قريش في ضربة مزدوجة واحدة.

والحقيقة أن هذه الخطة الإعلامية العسكرية الناجحة قد شنت أفكار قادة وزعماء قريش، بالإضافة إلى تشتيت قواتهم العسكرية، وجعلتهم في حيرة من أمرهم، لا يعلمون ماذا يفعلون.

كذلك فإن هناك احتمالاً آخر لديهم، وهو قيام الرسول ﷺ بالالتفاف حول قوات خالد بن الوليد، والتي تعتبر من الناحية العسكرية في ذلك الزمن هي القوة المعول عليها في الهجوم، ويفصلها عن قوات قريش الأخرى والافراد بكل قوة على حدة.

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يعلم بواسطة التقرير الإخباري الذي تلقاه من رجل الإعلام بسر بن سفيان الخزاعي ؓ عن مكان تواجد القوات القرشية وحليفاتها في وادي بلدح، وبالجملة فإن صدق هذه العملية الناجحة خاضع من قبل قريش لكافة الاحتمالات من الناحيتين النفسية والعسكرية، وهي تعتبر في مضمونها وتناؤها غاية في الحنكة العسكرية والإعلامية، وقد أدت كافة أغراضها بنجاح كبير.

ومن هنا تتضح طبيعة المعركة التي يخوضها الإسلام لتبين للناس جميعاً بأنها معركة تنطلق من رؤية فكرية شاملة، وذات طبيعة إستراتيجية ثابتة، تلتزم بمنهج فكري معين، ليس القتال إلا بعض صورها ووسائلها.

والجدير بالذكر أن حادثة برك الناقة - تلك الحادثة الخارقة والإشارة البالغة - كان لها الأثر بأن منع الله سبحانه ذلك البلد الأمين من أن يكون مسرحاً للحرب وسفك الدماء والمنازلات العسكرية، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢١﴾ [الفتح].

ولا شك أن هذه الدعوة الإسلامية التي جاءت لهداية البشرية قاطبة، قد خرجت من وادي مكة وهو بيت الله الحرام، تلك البقعة المباركة التي كانت وستظل مركزاً لاستقطاب قلوب الملايين، لا من أبناء الجزيرة العربية وحسب، ولا من أبناء الأقطار المجاورة لها، بل من أبناء الشعوب الإسلامية الذين لا يرتبطون بهذا البيت العظيم بمصالح مادية أو دنيوية أخرى، بل برابطة العقيدة الدينية المحضة، قال تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ ۝٢٢ أَلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٢٣﴾ [قريش]؛ ولهذا فإن المكانة

الذي يتميز بها هذا البلد الأمين وهذا البيت العظيم ترمز إلى وحدة العقيدة، ووحدة العبادة لدى المسلمين جميعاً، فمن الواجب صيانة هذه الأماكن المقدسة من العبث، وإذا كانت العلاقات قبل الإسلام قائمة على العداوة والبغضاء والخصومة والشر، وفقدان روح الأفضلية والأخلاق، وتحكيم نزعة الهوى في القوة والبطش وانعدام أي رعاية للحق والعدل والسلام، فإن الإسلام قد جاء بالمبادئ التي تتضمن أسس التشريع الأخلاقي والإنساني، وهذه المبادئ والشرائع الإلهية هي التي تحكم العلاقات بين الأفراد والدول، وإن كل مؤمن في هذه الدنيا يعتقد اعتقاداً جازماً بأن قوة الله وحده هي القوة التي يلمس عندها النصر، وبها تُنقَى الهزيمة، وإليها يكون التوجه، وعليها يكون التوكل، فإذا أراد الله تبارك وتعالى نصر المؤمنين - إذا هم عملوا بشريعته والتزموا بدعوته، وأطاعوا أمره ولم يخالفوا حكمه، وتوكلوا عليه وحده دون سواه، وأخذوا للأمر أهميته وأعدوا له عدته - فلا غالب لهم من الناس، قال تعالى: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. [منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٨٥-٨٩].

#### ٩ - النقوة في الحق وتأبيد الدعوة:

يقول د/ أيوب: «وأحب أن أقف عند كلمة أبي بكر الصديق ﷺ القوية في الحق لعلها تكون منارة لدعاة الإسلام: «أَمْضُصْ بَطْرَ اللَّاتِ» يقولها الصديق ﷺ لرسول قريش الذي جاء ليقول للرسول ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ، جَمَعْتَ أَوْيَاشَ النَّاسِ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ لِيُضْطِكَ لِنَفْضِهَا... إلى أن قال: وَأَيْمُ اللَّهِ لَكُنَّا بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ غَدًّا»، فرد عليه أبو بكر ﷺ بهذه الكلمة «أَمْضُصْ بَطْرَ اللَّاتِ».

إنها قوة الرعيل الأول وقوة الصديق ﷺ يدفع بها عن الدعوة الإسلامية وقائدها.

نريد كذلك من المسلمين اليوم تأييد الدعوة، وأن يكونوا حواريين لهم، ينصرونهم بالكلمة وبالمال وبالقوة؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى». [صلح الحديبية لأيوب ٣٤].

#### ١٠ - التحليل الإعلامي لرسالة بديل بن ورقاء الشفوية:

يقول د/ حجازي: «نستطيع القول بأن رسالة بديل الشفوية هذه قد حققت كافة أغراضها الإعلامية بنجاح كامل، وكان لها أحسنُ النتائج الإعلامية، فقد سمع زعماء قريش وزعماء القبائل الحليفة الأخرى إلى ما قاله بديل وهو ينقل لهم رسالة النبي ﷺ الإعلامية الشفوية التي تتضمن رغبة المسلمين الأكيدة الصادقة بنبذ الحرب، وحقن الدماء، واحترام المقدسات، وأنه وأصحابه لم يأتوا يريدون قتالاً، وإنما جاؤوا عملاً معظمين لهذا البيت، وإن حقهم في ذلك كسائر العرب.

هذا ولقد استعمل بديل أسلوب المقدمة الشاملة لخلاصة الخبر الإعلامي في جملة واحدة، وذلك

عندما قال لزعماء قريش: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ....

فقد استهل بديل كلامه هذه البداية المحركة للانتباه بانتظار لما سيأتي بعدها من عبارات مكملتها.  
ثم أضاف قائلاً: إن محمداً لم يأت لقتال أحد... وهذه العبارة الثانية هي مكملتها لمعنى العبارة الأولى،  
بالنسبة لتسلسل هذه الرسالة الشفوية.

ثم انتهى إلى المقصود بقوله: إن محمداً جاء لزيارة هذا البيت وتعظيمه.

هذه العبارات الثلاث الذي ذكرها بديل حسب تسلسلها الإعلامي تحمل أرقى معاني الاتصال  
الشفوي، وذلك في عرضه للموضوع وتنسيقه للعبارات بطريقة فنية ومرتبعة؛ وذلك لأن الحجج المهمة  
التي تُقدم في بداية الرسالة الإعلامية تترك تأثيراً كبيراً لدى المستقبلين لهذه الرسالة الإعلامية.

يقول د/ عبدالعزيز شرف: «إن المقدمة في الخبر الإعلامي هي تقديم الحجج أو العناصر الرئيسة في  
البداية وما يليها في الأهمية بعد ذلك، فهي تتبع ترتيباً هرمياً يقوم على تقديم الحجج الرئيسة في البداية».

[فن التحرير الإعلامي ص ١٦٦].

والجدير بالذكر أن بديل قد بدأ عباراته بلوم قريش على عملها مبيناً لها خطأ ما قامت به من عمل؛ لأن  
هذه الاستعدادات العسكرية ليس لها ما يبررها ما دام أن محمداً لم يأت لقتالهم، وإنما جاء زائراً معظماً  
للبيت شأنه في ذلك شأن بقية العرب.

وبهذا السرد المباشر فإن بديل يكون قد أنجز رسالته الإعلامية الشفوية بأقصر العبارات الممكنة،  
وذلك عندما ابتدأ بعرض أكثر عناصر الرسالة أهمية في المقدمة، ثم انتقل إلى العناصر المكملية الأخرى  
ذات المدلول الإعلامي الواضح، وهذا ما يتعارف عليه الإعلاميون اليوم بأسلوب الهرم المقلوب.

ويوضح لنا ذلك د/ إبراهيم إمام بقوله: «إن الخبر الإعلامي الحديث له قوالبه الجديدة القائمة على  
السرد المباشر وإعطاء كل الحقائق بأقصر العبارات الممكنة، والابتداء بالعقدة أو أهم عناصر الخبر في  
البداية مباشرة، وهذا ما يسمى الهرم المقلوب». [الإعلام والاتصال بالجمهور ص ٢٩].

وإن مما لا شك فيه أن عوامل النجاح الإعلامي لرسالة بديل الإعلامية يكمن في أسلوب العرض  
المنظم وعوامل الاختصار للخبر الإعلامي المباشر.

فلقد كان الإيجاز الذي استخدمه بديل في رسالته الإعلامية الشفوية إيجازاً ذا معاني ودلالات إعلامية  
هادفة، فكل عبارة من تلك العبارات كانت تحمل في طياتها معاني سابقته من أجزاء تلك الرسالة  
الشفوية المختصرة.

وبهذا التنظيم لمضمون الخبر الإعلامي فإنه يمكننا القول بأن تأثير هذه الرسالة الإعلامية كان مباشراً  
على قريش وحلفائها المجتمعين معها في بلدح، وذلك بعد أن سمع زعماء هذه القبائل المتحالفة مع قريش

بأن الرسول ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم قد جاؤوا زائرين للبيت الحرام معظمين له، وليس كما قالت قريش وادعت بأن محمداً وأصحابه جاؤوا لغزو قريش في عقر دارها، والاعتداء على المقدسات، الأمر الذي أدى إلى تصديع جبهة قريش الداخلية وخلخلتها، بعد أن اتضح الموقف الحقيقي للجميع.

ومن هنا فإن المضمون الإعلامي لرسالة بديل وأساليب تنظيم أجزاء هذه الرسالة، وطريقة عرضها، تكون قد أدت دورها بنجاح كامل.

يقول د/ عبدالعزيز شرف: «إن مما لا شك فيه أن المضمون الإعلامي وأساليب تقديمه وتنظيم أجزائه الرسالة الإعلامية، من أهم عوامل النجاح الإعلامي». [فن التحرير الإعلامي ص ١٥٩].

وأما فيما يتعلق بالهيكل الإعلامي لتركيب رسالة بديل الإعلامية، فإن هذا الهيكل يتكون في ترتيبه من مقدمة الخبر الإعلامي، فالبرهان، ومن ثم الهدف المقصود، أو الخاتمة.

وهذا الهيكل يمثل من وجهة النظر الإعلامية، أجزاء تلك الرسالة في عرض الحالة الراهنة والبرهنة عليها.

يقول د/ محمد غنيمي هلال: « لكل كلام جزآن جوهریان: هما عرض الحالة ثم البرهنة عليها، ولا يمكن الاستغناء عن أحدهما بالآخر، ولا تقديم ثانيهما على أولهما؛ لأن البرهان لابد أن يلي الحالة التي يراد أن يُبرهنَ عليها وبهذا تكون أجزاء القول بالرسالة عامة ثلاثة هي:

١- المقدمة.

٢- الغرض: ويقصد به ما يشمل عرض الحالة والبرهنة عليها.

٣- الخاتمة: وتقضي بوحدة العمل الفني وإدراك الموضوع بما يتضمنه من أفكار، ثم تنظيم المعاني أو وحدات المضمون بحيث تكون مرتبة ومنسقة لتتجلى وحدتها». [المدخل إلى النقد الأدبي الحديث ص ٢٤٢].

وتأسيسها على هذا الفهم، فقد اشتملت رسالة بديل الإعلامية هذه على جميع تلك الأجزاء الثلاثة المذكورة في قول الدكتور هلال.

فقد تضمنت فعلاً، في إطارها العام المقدمة الملفتة للانتباه، وذلك عندما قال لقريش: «يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد...»، وهذه تعتبر بداية ناجحة لشد أسباع قريش وحلفائها إلى ما سيأتي بعدها من كلام، وهو البرهان في قوله: «إن محمداً لم يأت لقتال أحد»، ومن ثم انتهى إلى الهدف المقصود عندما قال: «إن محمداً جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له».

ولا شك أن هذا الترتيب لأجزاء هذه الرسالة الإعلامية بهذه الطريقة قد دل على الأسلوب الفني لها، فقد تناسقت أجزاء هذه الرسالة تناسقاً فنياً، بحيث أصبحت كل عبارة مكملية لما سبقتها، وتدلل على المعنى العام لهذه الرسالة الإعلامية الشفوية.

وقد حافظت الخاتمة على وحدة المضمون الكلي لهذه الرسالة ووضعتها في قالب إعلامي متكامل. أما نتيجة هذه الرسالة الشفوية، فلقد أسفرت عن إظهار موقف قريش الحقيقي أمام حلفائها، وكشف أباطيلها وزيف ادعاءاتها، الأمر الذي جعل قريشاً تشعر بالخرج أمام زعماء القبائل الخليفة؛ مما أدى إلى إضعاف الثقة بها.

ولما كان من المعروف عند العرب جميعاً أن قريشاً هي السادة للكعبة، والقائمة على أمر المقدسات، وأنها تسهل للعرب جميعاً زيارة الأماكن المقدسة ومساعدة الحجيج والمعتمرين، فإنها هي نفسها الآن أول من يقوم بخرق هذا النظام المتعارف عليه بداهة عند العرب جميعاً، وذلك بعد أن اتضح للجميع من خلال رسالة بديل الإعلامية، بأن النبي ﷺ وصحبه الكرام ﷺ إنما جاؤوا عملاً وليسوا محاربين كما ادعت قريش.

وأمام هذا الموقف المحرج الذي فضح مكائد قريش، فقد حاول زعماءهم أن يظهروا أنفسهم أمام حلفائهم بمظهر المتعقل والمتفهم للأمر في محاولة منهم لتلافي الموقف، وقرروا إرسال مبعوث عنهم إلى رسول الله ﷺ بالحديبية؛ وذلك من أجل أن يقف على الأخبار الحقيقية للمسلمين. وقد وقع اختيارهم على أحد زعمائهم وهو: (مَكْرَزُ بْنُ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ أَحَدَ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ) ليكون أول مبعوث لهم إلى رسول الله ﷺ، كما في رواية ابن إسحاق. [سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٢].

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ٩٩-١٠٣].

#### ١١ - تأييد الله ﷻ للدعاة بإظهار الكرامات:

يقول د/ أيوب: «معجزته ﷺ في تناوله بعض ماء البئر ومجه فيه، ثم إلقائه في البئر، ففاضت بقدره الله، فشرّبوا وسقوا - والرواية التي في هذا الفصل أنه أخرج ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قلب - أي بئر - فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

وبمثل هذه المعجزات قد يؤيد الله رجال الدعوة، والداعية إلى الله على بصيرة بالكرامات حتى يبلغوا دعوة ربهم إذا هم أخلصوا النية في دعوتهم، وسلكوا الطريق المستقيم، ونهجوا منهج النبي الأمين ﷺ. وفراسة المؤمنين معروفة، فقد قال عثمان ؓ لرجل دخل عليه المسجد: ما بال أقوام يدخلون علينا وفي أعينهم أثر الزنى، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله؟ فقال: إنها فراسة، اتق فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله». [صلح الحديبية لأيوب ٣٢].

#### ١٢ - أهمية معرفة طبائع المدعويين:

يقول د/ أيوب: «ولقد رأينا النبي ﷺ يرضي خصمه - الحليس - وهذا يجعلنا في عصرنا هذا ننظر إلى المدعويين نظرة فاحصة لنعمل على ما يرضيهم مادام ذلك لا يخرق قانوناً من قوانين الله ﷻ، ولا يمس



بجزئية من جزئيات شرعنا الذي ارتضاه الله لنا - كما حدث في هذه الفعلة - وهي سَوَق الهدي أمام الحليس، والهدي كما هو مقرر في الشرع مسنون، ولما كان الحليس من قوم يتأهلون - أي يتعبدون - فقد أمر النبي ﷺ بأن يُساق الهدي أمامه، فرجع الرجل إلى قومه ومن بعثه من مشركي قريش فقال: مَا يَبْغِي هَؤُلَاءِ - يقصد النبي ﷺ وأصحابه - أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ.

وأقول: إن هذا من نور النبوة، حيث عرف الرسول ﷺ ما ينطوي عليه - الحليس - حين رآه، فكأنها هي أشعة نورانية أهدت بالحليس، فأخبر النبي ﷺ بما يدور في رأس عدوه، ويحش في صدره. أو قل عن هذا - في عصرنا الحاضر - إن ظهر مثل هذا على يد الدعاة إلى الإسلام أنها الفراسة، والحكمة تقول: اتق فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله.

وكذلك، قريب من هذا إكرام الوافدين إلى الداعية لتعلم أمور الإسلام، وما شرعه الله لعباده، فيجب على الداعية إكرامهم ببعض الهدايا، ففي الأثر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَهَادُوا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ (الوحر: الحقد والغيط) الصَّدْرِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا، وَلَوْ شَقَّ فَرَسَيْنِ (الفرس للبعير كالحافر للفرس) سِنَاءً»، [الترمذي في الولاء والهبة (٢١٣٠)، وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَبُو مَعْشَرٍ اسْمُهُ نَجِيعٌ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ. وقال الشيخ الألباني: ضعيف لكن الشطر الثاني منه صحيح].

ولقد كان النبي ﷺ يميز الوفود التي تغد عليه ويعطيهم من مال الله، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى بِثَلَاثَ فَقَالَ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوُفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أَجِيزُهُمْ»، قَالَ: وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثَةِ، أَوْ قَالَهَا: فَأُنْسِيْتُهَا. وَقِيلَ هِيَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي وَثَنًا.

[التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ٣/ ٣٧١، وقد أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود، وثنا: أي لا تعبدوه كالأوثان، وأجيزوا الوفد أي الذين يأتونكم من نواحي الأرض أكرمهم].

وبمثل هذا يكون الداعية في عصرنا الحاضر مترسباً خطي رسول الله ﷺ ويهدي الله على يديه خلق كثيرين. [صلح الحديبية لأيوب ٢٨-٢٩].

### ١٣ - الخطة الإعلامية في مواجهة الحليس:

يقول د/ حجازي: « ذكر الواقدي بأن قريشاً قد غضبت لصراحة الحليس هذه ووقوفه إلى جانب الحق، وحاولت تلافي هذا الموقف المتدهور الذي يهدد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش والأحباش، وقالوا لزعيم الأحباش: «إِنَّمَا كُلُّ مَا رَأَيْتَ مَكِيدَةً مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَانْكُفْ عَنَّا حَتَّى نَأْخُذَ لِنُقْسِمَا بِبَعْضِ مَا نَرْضَى بِهِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٦٠٠].

وهذه النتيجة الطيبة تكون أول ثمار هذه العملية الإعلامية قد تحققت، وذلك في تفويت الفرصة على قريش من أن تحقق أي نجاح في كسب الحليس ووقوفه بقواته إلى جانبها، وبإحباط مخططاتها العدوانية. والجدير بالذكر أن هذه العملية التي نفذها رسول الله ﷺ قد جاءت نتيجة للضرورات الملحة التي تتطلبها الظرف الحاصل في مثل تلك المواقف، إذ لم يكن إيجاد هذه الوسيلة الإعلامية خاضعاً لرد فعل معين بقدر ما هو عامل استحداث لوسيلة إعلامية حاول بواسطتها رسول الله ﷺ أن يترجم الكلمات إلى معاني بصورة رموز إعلامية هادفة، وقد نجحت هذه العملية نجاحاً كبيراً في إحداث تفاعل داخل الفرد المستقبل نفسه، مما أدى إلى إيجاد رد فعل معين بما يتفق وتحقيق الهدف المطلوب من تلك العملية.

وهذه الحالة هي أقرب ما يتعارف عليها الإعلاميون في عصرنا الحاضر بعملية رجع الصدى. وتشير إلى ذلك د/ جيهان رشتي بقولها: «حينما يبدأ المرسل في تلقي المعلومات، يفهم المنبهات ثم يبدأ عملية وضع فكرة في (كود، بمعنى رمز معين)، تنطوي هذه العملية على اختبار المنبهات التي تتفق مع وجهات نظره، أي تناسبه، واستبعاد تلك المنبهات التي لا تناسبه، ويعمل الظرف الذي يحدث فيه الاتصال كمؤثر يحدد المعنى الفعلي للفكرة، ويتضمن الظرف استيعاب المرسل للأفكار التي تقدمها الرسالة على ضوء تجربته السابقة حيال تلك المعلومات، ومشاعره واتجاهاته وعواطفه في وقت الإرسال، ثم يتم نقل فكرة الرسالة في شكل منبهات من خلال قنوات معينة بأسلوب ما، أي بوسائل معينة تحمل الرسالة إلى المتلقي، يفهم المتلقي منبهات الرسالة ويستوعبها (ويفك كودها) لكي يقوم بتفسيرها، وتتضمن عملية فك الكود اختيار أو انتفاء المنبهات التي تتفق مع ثقافة المتلقي، وتعمل الثقافة في مثل ذلك الظرف أو المناخ العام كمؤثر يحدد المعنى الفعلي للرسالة، وتكون الثقافة من معرفة المتلقي لمعلومات الرسالة، ومن ثم تجربته السابقة حيال تلك المعلومات، ومن مشاعره واتجاهاته وعواطفه وقت التلقي.

وبعد أن يفسر المتلقي الرسالة، سوف يستجيب عليها، وهذه الاستجابة هي رجع الصدى أو التأثير المرتد، الذي يعرف المرسل بفضلله وصول الرسالة إلى هدفها.

فرجع الصدى يتكون من رد فعل المتلقي الداخلية والخارجية والإشارات أو الأعمال التي يقوم بها فيما بعد هي استجابة على هذه الرسالة». [الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ١٢٢-١٢٣- دار الفكر].

التحليل الإعلامي للعملية: لقد كانت العملية الإعلامية التي وضعها الرسول ﷺ في مواجهة زعيم الأحابيش، تقوم على أربعة نقاط متداخلة:

١- دراسة تحليلية لشخصية الحليس ونفسيته.

٢- عمل خطة إعلامية تتناسب تناسباً كلياً مع المبادئ التي يؤمن بها الحليس.

٣- طبعة الوسيلة الإعلامية التي استخدمها النبي ﷺ لهذا الغرض.

٤- النجاح الذي حققته هذه الخطة الإعلامية.

وفيما يتعلق بالنقطتين الأولى والثانية فإن الرسول ﷺ عندما أخبر الصحابة الكرام ﷺ بقوله: «إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَالُفُونَ» (يتعبدون ويُعظمون أمر الإله) [السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٢]، وأمرهم بأن يبعثوا الهدي في وجهه، فالواضح من خلال هذه المعلومات أن الرسول ﷺ كان على معرفة تامة بهذا الرجل، وأنه بحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية، وذلك بما كان عنده من حب شديد لتعظيم الحرمات والمقدسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعركة، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطة إعلامية مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين السلمي بصورة واضحة وجليّة، ومن ثم استأثرت به إلى جانب المسلمين، أو على الأقل وقوفه على الحياد في هذا الصراع.

والجدير بالذكر أن الحليس كان يتمتع بسمعة طيبة بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يمتاز به من رجاحة في العقل، ولما يتمتع به من مركز ممتاز بوصفه زعيماً وقائداً لقوات الأحابيش، وإنه كذلك يتمتع باحترام وتقدير من جانب النبي ﷺ وقريش على حد سواء؛ لهذا فإنه إذا ما تبين له أن الحق والعدل في جانب المسلمين فإنه يستطيع أن يقوم بدور هام في إحلال السلام بين الطرفين المتنازعين، والعمل على كبح جماح قريش وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائي ضد المسلمين وصدهم عن المسجد الحرام.

ومن هنا فقد كانت الدراسة النفسية التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصية الحليس تتناسب كلياً مع المبادئ التي يؤمن بها، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العملية إيجابية تماماً ومرضية.

أما فيما يتعلق في هذا الجانب من الدراسات النفسية فقد اهتم كثير من الجامعات العالمية في السنوات الأخيرة بهذه الدراسات، وقد خصصت لها بحوثاً ميدانية وغير ميدانية، وذلك من أجل قياس درجة التأثير النفسي المطلوب، ولنستمع إلى د/ إبراهيم إمام وهو ينقل لنا نتائج بحوث جماعة هوفلاند بقوله: «ومن بحوث جماعة هوفلاند في جامعة بيل دراسة نفسية هامة عن قابلية الأفراد للاقتناع والتأثر وعلاقة ذلك بتكوين الشخصية.

ثم يتساءل د/ إمام قائلاً: فهل هناك سماتٌ معينة تجعل الشخصية أكثر تأثراً بالمواد الإعلامية من

غيرها؟

ويجيب على هذا السؤال فيقول: لقد أجريت تجارب عن مدى التأثير بوجه عام، ثم أجريت تجارب أخرى عن مدى التأثير بموضوعات محددة، ولكي تتضح آثار عوامل الشخصية نفسها، أو العوامل الواقعة بين المثير والاستجابة، وهي الحالة النفسية الوسطية، كان لابد من اختيار مجموعة من ذوي الشخصية السوية، ومجموعة أخرى من المصابين بالأمراض العقلية، وقد أثبتت التجارب أن هناك علاقة وثيقة بين سمات الشخصية ودرجة القابلية للاقتناع والتأثر». [الإعلام والاتصال بالجمهور ص ٥٤].

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الدراسة التي قام بها رسول الله ﷺ للسمات الشخصية والنفسية للحليس ابن زبان، ومن ثم تهيئة هذه السمات للطرق الإعلامية الفعالة والمؤثرة، وتوفير المناخ الملائم لبث العملية الإعلامية، قد أدى إلى إنجاحها، وذلك في جعل الحليس يفسر ظواهر هذه العملية ومدلولاتها الإعلامية التفسير الذي يخدم الأغراض التي وضعت من أجلها هذه العملية الإعلامية.

فمن الحق القول إذن بأن هذه الخطة الإعلامية قد أدت دورها وحقت أغراضها بنجاح تام. تقول د/ جيهان رشتي: «إن بعض الدراسات تشير إلى أن هناك علاقات إيجابية بين المقدرة الذهنية والتأثر بالرسائل الإقناعية، وإن هذا الاستعداد الذهني يتوقف على مدى الاستمالات المستخدمة». [الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٥٣].

ولا شك أن عنصر الذكاء كان عاملاً حاسماً في هذه العملية الموجهة، فالرسول ﷺ استطاع بها حباه الله من ذكاء وفطنة نادرين، أن يحرك الكوامن الداخلية لدى الحليس بسرعة مناسبة وبدقة متناهية، كذلك فإن الحليس عندما استطاع تفسير مضمون هذه العملية والاستجابة لها بهذه السرعة، قد دل ذلك على أن هذا الرجل كان يتمتع بقدر عال من الذكاء أيضاً، فهو عندما رأى الهدى يسيل من عرض الوادي، بقلائده قد أكل أوباره من طول الحبس، ورأى المسلمين وقد شعثوا من طول المكوث على إحرامهم، فإنه وكما جاء في السيرة الحلبية: **سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، أَيْ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَحُجْمٍ وَجُدَامٍ وَهَذًى وَهَمِزٌ وَيُمْنَعُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، هَلَكْتُ قُرَيْشٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، إِنَّمَا الْقَوْمُ (يعني المسلمين) أَتَوْا عُمَرَاءَ، أَيْ: مُعْتَمِرِينَ.**

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ يَا أَحَا بَنِي كِنَانَةَ». [السيرة الحلبية ٢/ ٦٩٦].

ومن هنا يتضح لنا مقدار تأثير الحليس بهذه العملية الإعلامية، ومقدار الذكاء الذي كان يتمتع به هذا الرجل.

وتفسر لنا د/ جيهان رشتي ظاهرة الذكاء هذه من وجهة النظر الإعلامية فتقول: «إن الأفراد ذوي الذكاء المرتفع يتأثرون أكثر من الأفراد ذوي القدرات الذهنية المنخفضة؛ لأنهم أقدر على الخروج

باستنتاجات، حينما يتعرضون لرسائل إقناعية تعتمد أساسًا على حجج منطقية مؤثرة، وإن الأفراد الأكثر ذكاءً، أقل تأثرًا من الأفراد الأقل ذكاءً، حينما يتعرضون لرسائل إقناعية تعتمد أساسًا على تعميمات ليس هناك ما يدعمها، أو حجج زائفة غير منطقية أو غير متصلة أساسًا؛ لأن قدراتهم النقدية أقل».

[الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٥٤٥].

وجدير بالقول أن الرسول ﷺ في حركته الإعلامية هذه، كان يركز على الناحية الدينية التي يتميز بها الحليس، وذلك عندما بدأ العمل على استمالة وإقناعه بتغيير ما كان يحمله من أفكار وآراء إلى أفكار وآراء معاكسة تمامًا، وذلك عن طريق الرموز الإعلامية ذات المفاهيم الدينية.

والدين كما هو معلوم، من أقوى العوامل الإيجابية والمؤثرة على الإنسان، إذ أن حياة الإنسان في هذه الدنيا ترتبط به ارتباطًا كليًا ومصيريًا، وهو الأساس الذي ينطلق منه عمل الإنسان سواء كان إعلاميًا أو غير ذلك.

ويوضح لنا ذلك د/ محمد الهواري بقوله: «الدين يعتبر من العوامل الأساسية التي تؤثر على سلوك الأفراد في المجتمعات، والعواطف والانفعالات ترتبط بالأفكار والمعتقدات، والحياة الروحية هي جزء أساسي من فلسفة الإنسان بالنسبة لوجوده ومصيره؛ لهذا فهي تلعب دورًا هامًا في تكييفه مع مصائبه وأتراحه ومصائبه في الحياة، ونحن هنا نذكر أثر الدين في المجتمع نظرًا لأهمية ذلك في العمل الإعلامي والنفسي، فالاختصاصي لا يمكن أن يمارس عمله، إلا أن يكون قد عرف جميع الظواهر النفسية والاجتماعية والروحية التي لها تأثير على مواقف الفرد واتجاهاته».

[الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية ص ٧٧-٧٨ طبعة دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي].

وهذا يمكننا القول بأن الدراسة التحليلية التي أجراها الرسول ﷺ لشخصية الحليس من جهة، والعملية الإعلامية التي واجهه بها من جهة أخرى، قد أسفرتا عن النتائج الإيجابية المطلوبة، الأمر الذي جعل الحليس يعود بانطباع معاكس تمامًا لما كان يحمله عن المسلمين من قبل.

ولابد من الإشارة هنا - ونحن نستفيد من هذه الدروس العظيمة - بأنه على الدعاة والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية، الاستفادة من هذه الدروس والعمل على إيجاد الدراسات العملية والنفسية للأشخاص، قبل مبادأتهم بالدعوة، وذلك من أجل أن يكون لدى الداعية المسلم الخلفية المناسبة للأشخاص الذين تعمل الدعوة على كسبهم إلى صفوفها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

## ٢- الوسيلة الإعلامية:

أما بخصوص النقطة الثالثة من هذا التحليل الإعلامي، فهي تتعلق بالوسائل الإعلامية التي استخدمها الرسول ﷺ في رسالته الإعلامية الموجهة إلى الحليس، بطريقة الرمز الإعلامي الهادف.

وهذه الوسائل الإعلامية هي:

\* الهدى المقلد. \* زي الإحرام. \* رفع الأصوات بالتلبية.

ولا شك أن الطريقة المتقنة التي استخدمت هذه الوسائل الإعلامية بها، كانت طريقة مؤثرة وهادفة، مما أدى إلى وجود نتائج إيجابية جيدة.

تقول د/ جيهان رشتي: «تهدف أغلب وسائل الإعلام والرسائل الإعلامية إلى التأثير؛ فالهدف من أي رسالة أن تعاون على بناء أو إفهام ظرف ما لشخص آخر، والتأثير عليه ليقوم بعمل معين، أو يشعر بمشاعر معينة». [الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٥٩٠].

ومما يذكر أن الرسول ﷺ عندما قام باستخدام هذه الوسائل الإعلامية على شكل رموز إعلامية هادفة، إنما كان مبدعاً في هذا الفن، غير مقلد فيه، ومن ناحية أخرى فإن هذه الرموز الإعلامية، كانت رموزاً إعلامية عرفية تقليدية، إذ أنه من المتعارف عليه في الجزيرة العربية، أن هذه الرموز الإعلامية لا تستعمل إلا في حالة الحج أو العمرة فقط، فالإحرام والهدى والتلبية، كلها رموز إعلامية تخضع في استعمالها للزمان والمكان، وتعتمد في تأثيرها على السمع والرؤيا.

ويستعرض «أولمان» مسألة تقسيم الرموز الإعلامية ومدلولاتها من وجهات النظر المتعددة، فيقول: «إنه من الطبيعي أن يكون السمع والرؤية أعظمها منزلة، إذ أن أعضاءهما أكثر الأعضاء رقيًا، وقد وجد من وجهة نظر أخرى أن الرموز، إما طبيعية أو تقليدية عرفية، فالرموز الطبيعية لها نوع من الصلة الذاتية بالشيء الذي ترمز إليه، فالهلال يعد رمزاً طبيعياً للإسلام، والصفارة هي أداة لضبط الوقت والإنذار، وإن استعمال اللون الأسود علامةً للحزن، وهز الرأس دليل للرفض، ثم يخلص إلى القول: بأن هذه الرموز كلها ما هي إلا وسائل تقليدية عرفية، وتصبح غير مفهومة خارج البيئة التي وجدت فيها».

[دور الكلمة في اللغة - ستيفن أولمان ص ١٩ ترجمة د/ كمال بشر].

ومن جهة أخرى فإن المعنى الدلالي للرموز الإعلامية التي استخدمها الرسول ﷺ، يتضح من المعنى الطبيعي والتقليدي المجرد لها، إذ أن الشخص الذي يتعرض للنظر إلى هذه الرموز يستطيع أن يكون رأيه القاطع ضمن إطارها الدلالي.

وتوضح لنا هذا المفهوم د/ جيهان رشتي، عندما تقول: «يعتمد أي كائن حي على العلامات الطبيعية، التي تحيط به، ولكن البشر يعتمدون بالإضافة إلى العلامات الطبيعية على المعاني المجردة، أو الرموز الهامة التي يعطونها معان يتفوقون عليها ويتصلون بها، وبفضل هذه العلامات الطبيعية والرموز الهامة يكون الفرد إطاره الدلالي». [الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٥٤٥].

هذا ويتحدث د/ عبدالعزيز شرف من وجهة نظره عن تأثير الدلالة الإعلامية، وعن مدى قدرتها في تغيير حالة قائمة فيقول: «إن معيار الدلالة الإعلامية، يقوم على النظرية المتعلقة بجوهر الإعلام كأساس عام للقيم الإعلامية وكل ما له قيمة إعلامية، مما يغير حالة قائمة أو ينذر بتغييرها، إنما يترتب على حوادث وقعت فعلاً، أو هي في سبيل أن تقع، وهي حوادث تتميز بدلالة تقوم على الصراع ومراكز الاهتمام الإنساني، ففي المجتمع ألوان شتى من الصراع ولعظمها أهمية إخبارية».

[فن التحرير الإعلامي ص ١٢٥ - الهيئة المصرية للكتاب].

ولما كانت هذه الدلائل الإعلامية تعتبر ذات أثر إعلامي فعال في التأثير على الحالة النفسية لشخص ما، أو لأشخاص كثيرين في تغيير سلوكهم، فإن استخدام هذه الوسائل والتحكم في استعمالها، بما يحقق الاستجابة المطلوبة، ليس ذلك في الأمور السهلة.

ويوضح لنا ذلك د/ إبراهيم إمام بقوله: «يهتم الإعلاميون بالدلالة لأنها الحالة النفسية التي تتوسط التأثير بالرموز والاستجابة له، فالإنسان يتأثر بمنبه من المنبهات التي حوله، ثم يستجيب لهذا المنبه وفقاً لدلالته بالنسبة له، إذ أن الدلالات تختلف من حضارة إلى حضارة، ومن بيئة إلى بيئة أخرى، بل من شخص لآخر، ولما كانت الدلالات هي التي تتحكم في تصرفات الناس وأساليب سلوكهم، فإن من يستطيع تغيير هذه الدلالات يمكنه أن يغير السلوك أو يعدله.

ومن الواضح أن فنون الاتصال بالجمهور من دعاية وإعلام وتعليم وعلاقات عامة وغيرها ترمي إلى تعديل السلوك بطرق مختلفة، وليس تعديل الدلالات والمفاهيم بالأمر الهين كما يبدو لأول وهلة».

[الإعلام والاتصال بالجمهور ص ١٢٣ مكتبة الأنجلو المصرية].

ويحدثنا صاحب البرهان عن الدلالة الإعلامية من الناحية البلاغية، أو ما يطلق عليه، بيان الأشياء بذواتها، فيقول: «فالأشياء تبين للنظر المتوسم، والعامل المتبين بذواتها، ويعجب ترتيب الله فيها، وآثار صنعته في ظاهرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن شَاءَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت]؛ ولذلك قال بعضهم: قل للأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن أجابتك حوَّارًا، وإلا أجابتك اعتبارًا، فهي وإن كانت صامتة في نفسها، فهي ناطقة بظواهرها وأحوالها، وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربيع وخاطبت الطفل، ونطقت عنه بالجواب على سبيل الاستعارة في الخطاب، وقال الشاعر:

يا رَبِّعُ بُسْرَةٌ بِالْجَنَابِ تَكَلِّمُ      وَأَبْنُ لَنَا خَبْرًا وَلَا تَسْتَعْجِمِ  
مَالِي رَأَيْتُكَ بَعْدَ أَهْلِكَ مُوحِشًا      خَلَقًا كَحَوْضِ الْبَاقِرِ الْمُتَهَدِّمِ

[البیتان للحارث بن خالد المخزومي، وهو شاعر إسلامي، وأحد شعراء قريش المشهورين، والبُصرة هو اسم جارية لعائشة بنت طلحة. ينظر: الأغاني ٣/ ٣٣٥، والباقر: جماعة البقر مع رعاتها، والجناب: بفتح الجيم وكسرهما، اسم مكان. واستعجم: سكت. البرهان في وجوه البيان ص ٥٧ تحقيق حفني محمد شرف - مطبعة الرسالة - القاهرة].

وحول النقطة الرابعة والأخيرة والتي تتعلق بنجاح الخطة الإعلامية التي وضعها رسول الله ﷺ في مواجهة الحليس، فإنه يمكننا القول بأن هذه الخطة الإعلامية التي تقوم في أساسها على الحركة الإعلامية والرمز الهادف، قد حققت نجاحاً رائعاً ونصراً هائلاً في الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

وما يذكر أن نجاح هذه الخطة الإعلامية لم يكن مقتصرًا على ترك زعيم الأحابيش ليستخلص النتائج بنفسه فقط، ولكن في مدى تأثير هذه الخطة الإعلامية وإمكاناتها ومدى قدرتها على تغيير الاتجاه والسلوك الإنساني وارتداد الأفكار، وبالتالي قلب الوضع ليكون ولاء زعيم الأحابيش إلى المسلمين، بدلاً من ولائه لقريش.

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد تمكن من تحقيق الظهور الإعلامي المطلوب في الحادثة، ويعرف الشيخ زين العابدين الركابي الظهور الإعلامي بقوله: «هو تفوق في شعار تجاري أو سياسي على شعار آخر منافس له في عالم الأفكار والعقائد، حيث يسعى كل صاحب مذهب وفكر على ظهور مذهبه وفكره». [يمكن الرجوع إلى تعريف الشيخ زين الدين الركابي لموضوع الظهور الإعلامي الإسلامي في بحث كتبه في كتاب: الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية ص ٣٢١ طبعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي].

ولا شك أن زعيم الأحابيش كان حتى وصوله إلى معسكر المسلمين في الحديبية يحمل في قرارة نفسه بأن المسلمين هم بغاة معتدين يريدون هتك حرمة البيت العتيق بالحرب والقتال، وهو ما زيفته له ولغيره الدعاية القرشية الكاذبة، وها هو الآن يرجع إلى قريش متغير الوجه والأفكار، حاملاً معه الحقيقة المجردة بما رآه بعينه وسمعه بأذنيه من أن المسلمين قد جاؤوا ليعظموا بيت الله الحرام، وليبلغوا الهدى محله وليس كما زعمت قريش، وقد وجد كل الدلائل الحقيقية على ذلك، مما جعل لديه القناعة التامة التي لا يساورها أدنى شك، من أن الغرض الحقيقي لمجيء المسلمين إلى مكة إنما هو أداء العمرة فقط.

ولا شك أن هذا الموقف قد أوجد عند الحليس تغييراً كبيراً اتجاه المسلمين واتجاه قريش أيضاً، حيث رسخ في ذهنه بما لا يدع مجالاً للشك، بأن المسلمين ليسوا كما قالت عنهم قريش، وإنهم لم يرتكبوا أي خطأ ضد أحد من الناس عندما جاؤوا لزيارة الأماكن المقدسة في مكة، وإن قريشاً هي التي افعلت هذه الأزيمة بغياً وعدواناً.

وبهذه النتيجة الرائعة يكون الرسول ﷺ قد تمكن تماماً من تحقيق التغيير المطلوب في أفكار الحليس عن المسلمين بشكل عام عن طريق استخدام فن الإعلام بصورة متقنة وفعالة، تقوم على أساس علمي



مدرّوس، ولنستمع إلى ما يقوله د/ الهواري في حديثه عن كيفية استخدام فن الإعلام في العمليات النفسية، فيقول: «إن فن الإعلام عنصر هام في العمليات النفسية فبواسطته يمكن ترسيخ الأفكار وتبديل المواقف لدى بعض الأشخاص أو الجماعات، ويمكن أن يتم الإعلام بواسطة الفرد والجماعة للتأثير على عواطف وسلوك واتجاهات الآخرين، والمادة الإعلامية بحد ذاتها تعتمد على تعابير واقعية وملموسة تفرّضها درجة الثقافة ومستواها». [الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية ص ٧٨].

وما من شك بأن التأثير الناتج عن هذه العملية الإعلامية كان ناجحاً إلى حد، إن هذا التغيير لدى الحليس لم يقتصر فقط على التغيير في أفكاره وإنما شمل أيضاً اتجاهاته وتصرفاته وسلوكه بحيث أصبحت المؤثرات الفعلية واضحة على سلوك الحليس.

يقول د/ إبراهيم إمام: «إن المؤثرات الكمية ليست هي الدليل النهائي على نجاح التأثير، ولا شك أن الأهم من ذلك هو التأكد عن مدى تأثر الناس فعلاً بما يقرأونه ويسمعونه ويشاهدونه، فعلينا أن نعرف كيف استجاب هؤلاء الناس للعناصر الإعلامية التي يتعرضون لها.

ويضيف د/ إمام: وحتى مدى التأثير نفسه لا يكفي؛ لأن الإعلام لا يرمي إلى مجرد تغيير الاتجاهات وإنما يرمي إلى تغيير السلوك نفسه، فلا يكفي أن يبدي المستهلك إعجابه بالسلعة، بل المهم أن يُقدّم على شرائها ويشتريها فعلاً، ولا يقنع الداعية بمجرد إعجاب الجماهير بما يقول، بل المهم أن ينضم الناس إلى التنظيم الذي يدعوا له». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٣٤٥].

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ١٠٩-١٢٠].

#### ١٤ - مراجعة الأمير فيما يطلبه لا تُعارض واجب طاعته:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا أن سيدنا محمداً ﷺ لما نزل في أرض الحديبية، وأراد أن يخبر قريشاً بأنه جاء والمسلمون معه للعمرة للحرب، دعا عمر بن الخطاب ﷺ ليرسله إلى مكة لهذه المهمة، فاعتذر عمر ﷺ مبيّناً وجه اعتذاره بأنه يخاف قريشاً على نفسه، وليس له من عشيرته في مكة من يحميه، وأن عثمان بن عفان ﷺ أقدر منه على هذه المهمة، لوجود قرابته ذات النفوذ في مكة، فأخذ النبي ﷺ بقول عمر ﷺ، وأرسل عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة لهذا الغرض.

وعلى هذا فمن الجائز أن يُراجع أمير الجماعة المسلمة، جماعة الدعاة، فيما يطلبه من أحدهم، مع بيان وجه هذه المراجعة، ولا يعتبر ذلك خروجاً علي واجب الاتباع في طاعة الأمير فيما يأمر به، ولكن لو قُدِّر أن الأمير لم يقتنع باعتذار من كلفه بعمل ما، أو لم يوجد غيره للقيام بهذه المهمة ولذلك اختاره لها، فعلى هذا المختار أو الذي لم يقتنع الأمير بعذره، أن يسارع إلى تنفيذ المطلوب منه، كما في مسألة حذيفة بن اليمان

ﷺ لما اختاره النبي ﷺ لإرساله إلى جيش المشركين في معركة الخندق؛ للتعرف على أحوالهم ومدى عزيمتهم على البقاء أو الرحيل، حيث سارع حذيفة ﷺ إلى تنفيذ الأمر». [المستفاد لزيدان ٣٦١/٢].

### ١٥ - فضل الدعاة والعاملين للإسلام:

يقول د/ أيوب: «الدعاة إلى الله والعاملون للإسلام لا يساويهم أحد إلا من عمل بمثل عملهم من دعوة الناس إلى الله والحفاظ على هذا الدين بالنفس والمال، ولتذكر قول الله ﷻ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقد سبقت هذه الآية، ولتذكر قول الرسول ﷺ لأهل بيعة الرضوان: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ» من حديث جابر ﷺ». [صلح الحديبية لأيوب ١٤٨].

ويقول د/ زيدان: «أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، قد رضي الله عنهم، وكانوا كما ذكرنا ألف وأربعمائة، وقد أخبرنا الله تعالى برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فينبغي للمسلم أن ينطوي قلبه على محبته والرضا عنهم؛ لأن من رضي الله عنه فقد أحبه، فيلزم المسلم ذلك، وهذا هو شأن المسلم، ولكن قد تعم الجهالة فئة من الناس في مكان معين أو زمان معين، فلا يرضون على أصحاب بيعة الرضوان، وهم من أصحاب رسول الله ﷺ.

فعلى الدعاة أن يبينوا وجوب محبة هؤلاء؛ والرضا عليهم وتوليهم؛ لئلا يقعوا في مشاققة الله ورسوله فيكروهون من أحبه الله ورضي عنهم.

وإذا عرفنا أن سبب رضا الله عليهم هو ما قام في قلوبهم من إيمان وإرادة نصرة رسول الله ﷺ التي ظهرت في إعلان هذه الإرادة ببيعة رسول الله ﷺ، فإن المسلم يرضي على أخيه المسلم، ويحبه إذا رأى أعماله الخيرة المرضية عند الله تعالى، والدعاة يقومون بأعمال مرضية عند الله قطعاً، فالشأن بالمسلمين أن يحبوا الدعاة ويرضوا عنهم وعن عملهم الدعوي؛ لأنه عمل مرضي عند الله تعالى، ولا يجوز بغضهم أو معاداتهم لعملهم الدعوي، وهذا المعنى والتعليل يجب على الدعاة بيانه وتبيينه للناس في دروسهم ومحاضراتهم، فإنه المدخل السليم السديد الواضح لجمع الأنصار على الهدى، وعلى حب الدعوة والدعاة ومناصرتهم». [المستفاد لزيدان من قصص القرآن للدعوة والدعاة ن ٣٦٣/٢-٣٦٤].

### ١٦ - فهمُ القرشيين حقيقة الدعوة الإسلامية:

يقول د/ أيوب: «كانت الوثنية قد سممت الأفكار وأطلقت الشائعات المغرضة عن محمد ﷺ وعن أصحابه ﷺ وعن الدين الجديد الذي اعتنقوه - وأنهم قد صباؤا - في زعم قريش - ولو أنهم في الحقيقة أصابوا الحق واعتنقوا الإسلام باتباعهم لرسول الله ﷺ فهم هذه الحقيقة أغلب المعارضين الذين بعثتهم قريش ورجعوا إلى قريش بصورة واضحة عن حقيقة الإسلام وعن حقيقة محمد ﷺ وأصحابه ﷺ،

وأَنهم ما جاؤوا للحرب، ولكنهم جاؤوا للسلام، جاؤوا للعمرة فقط، فهم هذا سفراء قريش إلى محمد ﷺ فكانت خير دعوة ودعاية بالحق لرفع راية الحق وتحقيق السلام في الأرض، حتى هَمَّ سيد الأَحَابِيش أن ينفصل عن قريش، وقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا عَلَيَّ هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَيَّ هَذَا عَاقِدْنَاكُمْ، أَكَيْصَدُ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّمًا لَهُ!». [صلح الحديبية لأَيُّوب: ١٥٤].

#### ١٧ - الشائعات وأهميتها الإعلامية:

يقول د/ حجازي: «لم يكن الجو المتوتر الذي خيم على منطقة الحديبية وبلدح، مدة أكثر من عشرين يوماً، خاليًا من أساليب الحرب الباردة؛ لأن تلك الأساليب تعيش أكثر ما تعيش، في مثل تلك الظروف المضطربة والأجواء المكهربة.

والجدير بالذكر، أن تلك الإشاعات، من أهم الأسلحة الفتاكة التي استعملت قديمًا وحديثًا في أغراض الحرب النفسية، وإنها تعتبر من أهم أساليب تلك الحرب من حيث قوة تأثيرها في الرأي العام. ولما كانت الشائعات تستخدم أكثر ما تستخدم، في الأوضاع المتوترة، من حيث يرى تجار الحروب والمتنفعون، أو المتهورون، بأن هذه فرصتهم للإيقاع بين الخصوم، فإن استعمال سلاح الشائعات، يستعجل بطريقة أو بأخرى من إيقاع الفتنة وتقريب الحرب والصدام بين الفريقين المتصارعين.

لذا فإنه ليس غريبًا أن تنطلق في مثل تلك الظروف تلك الإشاعة، التي راجت في معسكر المسلمين في الحديبية، عن مقتل عثمان بن عفان ؓ في مكة، ذلك لأنها ولدت في الجو الملائم لظهورها وانتشارها، ولنستمع إلى ما يقوله صلاح نصر عن مدى قوة الشائعات وشدة تأثيرها، يقول: «إنها سلاح رهيب من أسلحة الحرب النفسية التي تفتك بمعنويات الشعوب، وتهدف غالبًا إلى شل فكر الإنسان، وجعله ينقاد نحو المستقبل المجهول، أو ينطق بما لا يعقل، أو يحكي بما لا يفهم». [الحرب النفسية ١/ ٣٠٣ ط ٢].

ثم يعرف كلٌّ من «جولدن البورت ويوستان» في كتابيها «سيكولوجية الشائعة» بأنها: «اصطلاح يطلق على رأي موضوعي، معين ومطروح، كي يؤمن به من يسمعه، وهي تنتقل عادة من شخص إلى آخر عن طريق الكلمة الشفهية، دون أن يتطلب ذلك مستوى من البرهان أو الدليل».

[سيكولوجية الشائعة ص ٣٠ - نيويورك ١٩٤٨ م].

والحقيقة أن للشائعة موضوعًا معينًا تروج فيه، وهدفًا خاصًا تعيش فيه، وتأسيسًا على هذا الفهم، فإن صلاح نصر يوضح لنا ذلك بقوله: «ولما كانت الشائعة تتضمن عادة موضوعًا معينًا، فإن الاهتمام بها يكون مؤقتًا، فهي تروج في الظروف الملائمة للموضوع، ثم تنتهي بموتها ودفنها، على أنها من ناحية أخرى قد تعاود الظهور مرة أخرى إذا ما وجدت الأرض الخصبة المناسبة». [الحرب النفسية ١/ ٣٠٤].

ولما كانت هذه الإشاعة التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي إشاعة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، قد انطلقت من كونها تتحدث عن موضوع هو بالأصل، له وجود، وذلك هو ذهاب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة وانقطاع أخباره لمدة ثلاثة أيام؛ لذلك، فإن هذه الشائعة قد استغلت ظرفاً متهياً لظهورها، وهو الغموض والأهمية اللذان صاحبا الحادثة الأصلية، إذ لم تكن شائعة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه في مكة، هي بحد ذاتها، وفي أصل تكوينها من نسج الخيال، وكذلك فإنها لم تكتسب صفة الخبر؛ ذلك لأن الخبر يقوم في مفهومه على الصحة والصدق، ويعتمد على البرهان والدليل، بعكس الشائعة التي تعتمد على الهواجس والتكهنات، وحول هذا الموضوع يتحدث صلاح نصر - موضحاً الفرق بين الخبر والإشاعة فيقول: «ليست كل الشائعات من نسج الخيال، فقد يكون بعضها لا أساس له مطلقاً، وقد تعتمد على جزء من الحقيقة فيها لخلق كيائها وترويحها، ويجب أن نفرق هنا بين الخبر والشائعة، فالخبر يعتمد على البرهان والدليل القاطع، أما الشائعة فإن برهانها يكون باهتاً غير واضح». [الحرب النفسية ١/ ٣٠٥].

أما د/ إبراهيم إمام فإنه يرى أن الشائعة مجرد تخيلات وتكهنات، وأنها ليست من الواقع، ولنستمع إليه وهو يتحدث عن هذا الموضوع: «والحق أن الشائعة مزيج عجيب من الوقائع والتخيلات، ولا يمكن بسهولة تحديد العناصر الواقعية وفصلها عن الجوانب الخيالية، حتى أننا كثيراً ما نعجز عن اكتشاف نواة الواقع الحقيقية، بل إننا قد نكتشف أنه لا توجد أية نواة من الواقع إطلاقاً، والمهم أن الشطحات الخيالية تتزايد عادة عند انتقال الشائعة من شخص إلى آخر». [الإعلام والاتصال بال الجماهير ص ٢٤٧].

وليس من شك أن إشاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه في مكة، كانت في واقعها بالغة الأهمية، وقد اكتسبت هذه الإشاعة أهميتها، من كون عثمان بن عفان رضي الله عنه من كبار الصحابة الكرام، ومن السابقين للإسلام، وأنه يعتبر من القادة الكبار الذين تؤول إليهم الأمور في تقرير مصيرها، ومن المقربين إلى رسول الله ﷺ بالإضافة إلى أنه قد تزوج من ابنته رقية رضي الله عنها وبعد وفاتها تزوج من أم كلثوم رضي الله عنها، وتزداد أهمية هذا الموضوع، من كون عثمان بن عفان رضي الله عنه، هو مبعوث رسول الله ﷺ إلى قريش وحامل رسالته إليهم، وأنه قد ذهب في حاجة الله ورسوله؛ لذلك فإن هذه الإشاعة كانت شديدة الوقع على نفوس المسلمين، الأمر الذي نتج عنه تغيير كامل في موقفهم، وانقلاب الوضع من الصبر الطويل إلى القرار الفوري بدخول المعركة.

وينقل لنا د/ إمام في كتابه ما قاله «ألبرت ويوستان» عن أهم الشروط التي تكتسب الشائعة فيها أهميتها وسريانها، فيجعلها في شرطين اثنين هما الأهمية والغموض، ولنستمع إليه وهو يقول: «إن سريان الشائعة يخضع لشرطين أساسيين، فالشرط الأول ينطوي على أهمية الحادث بالنسبة للمتحدث والمستمع، وأما الشرط الثاني فهو الغموض الذي يطوي الحادث ويغلفه، وقد ينشأ الغموض من انعدام الأخبار أو

نصوبها، أو عن تضارب الأخبار، أو عدم الثقة بها، أو عن بعض التوترات الانفعالية التي تجعل الفرد غير قادر أو غير متهيء لتقبل الوقائع التي تقدمها الأخبار إليه.

ثم يؤكد الباحثان أن الشرطين الأساسيين للشائعة، وهما الأهمية والغموض يرتبطان ارتباطاً كميّاً - على وجه التقريب فيما يبدو - بسريان الشائعة». [الإعلام والاتصال بال جماهير ص ٢٤٧-٢٤٨].

هذا وأما بالنسبة للأجواء الخاصة التي تظهر فيها الشائعة وتنتشر وتزداد رواجاً وتأثيراً، فإن د/ إبراهيم إمام يعزو ذلك للأجواء الحربية، ولنستمع إليه وهو يقول: «فليس غريباً أن يكون جوو الحرب ملائماً لظهور الشائعات وانتشارها، فسرّية الأخبار، وهو أمر جوهرى تتطلبه دواعي الأمن، تخلق جوّاً من الغموض، كما أن أرواح الناس وممتلكاتهم ومبادئهم وقيمهم، من أهم ما يعينهم وأعلى ما يحرصون عليه». [الإعلام والاتصال بال جماهير ص ٢٤٨].

وبهذا المفهوم تتضح لنا حقيقة الشائعات، وتتضح كذلك طبيعة الأجواء التي تنشأ عنها وتنتشر فيها. ومن الجدير بالذكر أن الشائعة من الأسلحة القديمة التي استعملها الإنسان لتحقيق أغراضه العسكرية وغيرها من الأغراض التي تشيع البلبلة وتقوض دعائم المجتمعات وتثير الفتن والأحقاد في النفوس وتطعن الأبرياء.

ويستعرض القرآن الكريم في كثير من آياته الكرييات، حديثه عن الشائعات، ففي الآية الكريمة التالية يصف الله ﷻ المؤمنين الذين تعرضوا للشائعات ولم تزدهم هذه الشائعات إلا التمسك بآيائهم، فيقول الله ﷻ فيهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٧٣) ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٤) [آل عمران].

ثم يصف القرآن الكريم نوعاً آخر من المسلمين الذين تأثروا بهذه الشائعات، فيقول الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٢) [النساء].

ثم يتحدث القرآن الكريم مبيّناً سوء عاقبة الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالشائعات، فيقول الله ﷻ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٨٨) [الأحزاب].

ثم يتحدث جل وعلا في كتابه العزيز عن الشائعة معبراً عنها بالإرجاف، فيقول سبحانه: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٩٠) [الأحزاب].

ثم إنه ﷺ يوحى إلى المؤمنين بأن لا يتبعوا سبيل المنافقين الذين آذوا الأنبياء، فيقول جل شأنه: ﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّكِبُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجْهًا ۖ﴾ ﴿٧٩﴾ يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨٠﴾﴾ [الأحزاب].

وفي سورة النور يتحدث جل شأنه عن حادثة الإفك مبيِّناً حكم الله جل وعلا بالذين يطلقون الشائعات ضد الأبرياء من المؤمنين والمؤمنات وذلك في الآيات الكريبات من الآية (١١-٢٥)، ثم يوصي جل شأنه بالثبوت والتأكد من الأنباء التي يأتي بها الفاسقون، فيقول: ﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُفْرًا فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجرات].

ثم يتحدث صلاح نصر عن قدم الشائعة في التاريخ البشري، فيقول بأنها ظاهرة اجتماعية عاشت مع الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض، ولنستمع إلى حديثه عن هذا الموضوع الذي جعله تحت عنوان (الشائعة والتاريخ): «لا يستطيع الإنسان أن يتخيل مجتمعاً منذ بدء الخليقة يخلو من الشائعات، فهذه كغيرها من أحداث الإنسان ظاهرة اجتماعية لازمة، والواقع أن في تاريخ البشرية أمثلة واضحة تبين أن الشائعة وجدت على الأرض مع الإنسان، بل إنها عاشت وتبلورت وترعرعت في أحضان كل حضارة وثقافة، وكثيراً ما يحدث أن يظل موضوع شائعة معينة كما هو غير قابل للاستنفاد، وإن كان يأخذ أشكالاً متنوعة في أوقات مختلفة، بل قد يحدث أن يتبلور أحد هذه الأشكال ليصبح أسطورة لا تموت».

[الحرب النفسية ١/ ٣٠٧].

هذا ثم يتحدث نفس الكاتب عن خطورة سلاح الشائعات، فيقول: «إن الشائعات المختلفة سواء كانت قصيرة العمر أو طويلة، معادية أو مدمرة، تعتبر من أخطر الأسلحة الفتاكة للمجتمعات البشرية، أما فيما يتعلق بكون الشائعة تُتخذ على أساس إخباري أو إعلامي، فإن هذا التقويم بلا شك سيكون خاطئاً لأن الشائعة كما قلنا سابقاً لا تقوم على أساس من الحقائق الثابتة». [الحرب النفسية ١/ ٣٠٨].

ثم يتحدث الكاتب عن الأسباب التي يكثر فيها ترديد الشائعات، يرى من وجهة نظره بأنها ترجع إلى انعدام المعلومات الصحيحة، أو انعدام الأخبار بصورة كلية، ولنستمع إليه وهو يقول: «ويرجع السبب في ترديد الشائعات إلى انعدام المعلومات، وندرة الأخبار، ومن هنا ينادون بضرورة تزويد الشعب بجميع الأخبار التفصيلية والدقيقة الممكنة، حتى يكون على بينة مما يدور حوله من أحداث، وأعمال تؤثر على حياته ومستقبله». [الحرب النفسية ١/ ٣١٨]. [منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ١٥٩-١٦٥].

## ١٨ - أساليب مقاومة الشائعات:

يقول د/ حجازي: «لقد وضع الإسلام معايير ثابتة للوقاية من سموم الشائعات حتى لا تتمكن هذه الشائعات من الفتك في المجتمع الإسلامي، وإن من أهم هذه المعايير معيار الإيمان، فالإيمان هو الحصن الحصين الواقعي من جميع أمراض الحياة وآفاتهما.

والإيمان كما عرفه سيدنا محمد ﷺ في الحديث الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَحُجِّنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبَرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». [مسلم في الإيمان (٨)].

وعلى هذا الأساس فإنه يجب على كل مصلح أو داعية إلى الله، أن يزرع بذور الإيمان في نفوس المسلمين حتى يكون هذا الإيمان لهم درعاً واقياً من هيب الشائعات الفتاكة.

وقد أخبرنا الله ﷻ في الآية الكريمة عن المؤمنين الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم... فماذا حصل من أمر هؤلاء المؤمنين؟ وهل استجابوا لهذا التهديد؟ الجواب: كلا؛ وذلك لأن المؤمنين لم يهتموا ولم يكثرثوا مثل هذه الأراجيف، وتلك الشائعات المغرضة، وإن جميع أساليب الحرب النفسية مهما بلغت، فإنها لا يمكن أن تؤثر بمعنوياتهم العالية وإيمانهم القوي، وقالوا - كما أخبرنا الله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران].

وهذا قول المؤمنين دائماً في كل زمان ومكان، فالمؤمن عندما يتعرض للمحن والشدائد، فإنها لا تزيده إلا إيماناً وتثبيتاً؛ لأن الإيمان هو الدرع الواقعي من شرور هذه الأمراض والآفات جميعها، ومع هذا الإيمان الراسخ بالله تعالى فإن على المؤمن أيضاً أن يأخذ بالأسباب، وبعد العدة لإيجاد أفضل السبل وأنجح الوسائل لإفشال المخططات المعادية والتغلب عليها، وذلك من أجل الوصول إلى المستوى الذي يمكنه من هداية البشرية، والأخذ بيدها إلى طريق الإسلام الذي يجعل من الناس فعلاً عباداً لله وليس عبادةً للعباد. إذن فالإيمان هو الذي يحصن الإنسان ضد جميع الأخطار، ويخلق جو الطمأنينة الكاملة في النفس البشرية الضعيفة التي تحتاج إلى قوة كبرى تستند إليها في تصريف شؤونها الحياتية.

أما طرق الوقاية من هذه الشائعات المسمومة فهناك عدد من وجهات النظر حول هذا الموضوع.

فالدكتور إبراهيم إمام يرى من وجهة نظره أن من أفضل الطرق لمقاومة الشائعات دعم إيمان الفرد بوطنه وإيقاظ ضميره، ولنتستمع إليه وهو يتحدث عن هذا الموضوع بقوله: «يبدو أن خير وسيلة لمقاومة الشائعات ومواجهة الحرب النفسية هي تحصين الشعب عن طريق دعم إيمانه بوطنه وأهدافه، وتوعية الجماهير وإيقاظ الضمائر، وهي مهمة لا بد وأن تتضافر على أدائها هيئات التربية والتعليم، والثقافة والإعلام، والتنظيمات السياسية، إن التعبئة النفسية للجماهير وتمسكها بأيديولوجيتها عن إيمان واقتناع، من أهم الدعائم الضرورية لمواجهة الشائعات والحرب النفسية». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٣٠٦].

ومع أننا ننقل كلام الدكتور إمام، فإننا لنا بعض التحفظات على بعض ما جاء من كلام دكتورنا الفاضل.

فالإيمان كما يراه المؤمن، هو الإيمان بالله القوي العزيز، هذا الإله، الذي يستلهم منه المؤمن طاقته وعزيمته وثباته ونصره على أعداء الله، بل وإن الإيمان في مفهوم المؤمن هو الإيمان الشامل لكل ما يجعل المؤمن في هذه الحياة عبداً خالصاً لله تعالى، وليس فقط كما يقول د/ إمام - الإيمان بالوطن - فالوطن في مفهوم المؤمن هو جزء يسير من الحياة الشاملة، التي يجب أن تكون كلها لله، فالؤمن يعيش في هذا الوطن، أو بعبارة أصح في هذه الأرض مستخلفاً فيها من قبل الله ﷻ ليقيم فيها العدل، ويحكم فيها بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وبغير هذا المفهوم لا يستطيع العبد المؤمن أن يفهم الإيمان، وإن هذا هو المفهوم الحقيقي للإيمان الذي يقره الإسلام ويحرص عليه ويوحى به.

ثم يضيف د/ إمام في حديثه عن الأساليب التي يجب أن تستخدم لمقاومة الشائعات فيقول: «وهنا تستطيع أجهزة الإعلام والثقافة أن تلعب دوراً حيوياً للغاية، فالصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما وسائل ضرورية للتنشئة الاجتماعية، وتبصير الناس بأهدافهم، وتوعيتهم وإرشادهم.

ثم يتطرق د/ إمام في حديثه هذا عن دور الأغاني والموسيقى فيقول: وقد رأينا أن الأغاني والموسيقى والأناشيد الوطنية تمس شغاف القلوب، وترفع من الروح المعنوية للشعب، ويمكن للتمثيلية كشكل فني محبوب أن تتناول الشائعات بطريقة غير مباشرة، فتفندنها وتدحضها دون أن تكرر مضمونها بطبيعة الحال، كما يلعب الإعلام دوراً رئيساً في مواجهة الافتراءات والأكاذيب، بالحقائق التي تؤيدها الوثائق والمستندات عن طريق الأفلام التسجيلية والدرامية». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٢٣٠٦].

ومع أننا نتفق مع الدكتور في بعض ما أورده من وسائل وأساليب إعلامية لمكافحة الشائعات، إلا أننا نختلف معه في البعض الآخر منها، وهو موضوع الأغاني والموسيقى، كوسيلة إعلامية نافعة لمكافحة الشائعات، ونقول بأن الأغاني مع الموسيقى مع كونها من المحرمات في الإسلام، فإن فائدتها إن لم تكن



قليلة فقط، فإنها معدومة أيضًا؛ وذلك لأن الشخص الذي يستمع ويردد الأغاني مع الموسيقى والألحان، فإنه لا يرددها ليفهم معانيها وينقاد لكللماتها، ولكنه يرددها من أجل أن يستمتع بلحنها ورنتها الموسيقية؛ ولهذا فإننا نختلف مع أستاذنا الفاضل في هذه النقطة أيضًا، ونقول بأن الأغاني مع الموسيقى من شأنها أن يخلقوا جوًّا من الميوعة والاستهتار واللامسؤولية عند الناس.

ثم يضيف د/ إمام في حديثه مستعرضًا أهم الأسباب التي يجب أن تتخذ لمقاومة الشائعات فيقول: «ولما كانت الشائعات جزءًا لا يتجزأ من الحرب النفسية فإن السبيل لمواجهتها لا يكون بالتشريع فقط، وإنما بالتوعية والتحصين والتعبئة النفسية للجماهير، على أن يتم ذلك كله في إطار من التخطيط الإعلامي، القائم على البحث العلمي، مع قياس النتائج، وتقويم الآثار، في كل خطوة من الخطوات، حتى يتم العمل في نظام دقيق مدروس بعيد كل البعد عن الارتجال». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٣٠٧].

ثم يتحدث د/ إمام عن أهمية بناء الإنسان وإعداده لتحمل المسؤولية في مقاومة الشائعات والدفاع عن الوطن، فيقول: «إن بناء الإنسان على أساس من المسؤولية والوعي هو الهدف الأول لأي مجتمع يريد أن ينمو ويتطور في مواجهة الأعداء، ولا بد أن تنتبه لأهمية التوعية السياسية، وأن نجعل محورها الإنسان الذي يستطيع عن طريق الإحساس بالمسؤولية والإيمان بالقيم والمبادئ، والشعور بالولاء العميق للتنظيم السياسي، أن يصمد ويصنع المعجزات، وتقع على عاتق التنظيم السياسي مهمة التعبئة النفسية، وتجسيم الأهداف، وإعداد المواطن للعمل في ساعة الخطر، بحيث يؤدي عمله بحماس مضاعف، دون تدمير أو قلق». [الإعلام والاتصال بالجماهير ص ٣٠٧].

وحول ما جاء في حديث د/ إمام عن بناء الإنسان فإن ما أورده من نقاط قيمة حول هذا الموضوع، لا تتنافى مع روح الإسلام ومبادئه، ولا توجد أي ملاحظة للنقد، اللهم إلا عبارة واحدة فقط، وهي العبارة التي يقول فيها: «والشعور بالولاء العميق للتنظيم السياسي».

ومع أننا نحسن الظن في نية الأستاذ الفاضل، إلا أنه يجب أن يوضح مفهوم الولاء، بل وينبغي أن يكون التخصيص هنا واضحًا، إذ أن النظم السياسية الحاضرة تكاد تكون في مجموعها غير موالية لله ولرسوله، وعلى هذا، يجب أن يكون ولاء المؤمن لله ولرسوله وللتنظيم السياسي الذي يتبنى ويمثل هذه القاعدة، وهي قاعدة الإيمان، والله سبحانه قد حدد قاعدة الولاء والعداء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

وبهذه الآيات الكريمة يستطيع المسلم أن يحدد مفهومه للولاء وللعداء في هذه الدنيا. وبهذه الدراسة والتحليل، فإننا نرجو أن نكون قد ألقينا الضوء على معظم الطرق، والأساليب التي يتبعها الإسلام في مواجهة الشائعات وطرق الوقاية منها.

[منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية لحجازي ١٦٥-١٧٠].

#### ١٩ - درء المفسد مقدم على جلب المنافع:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّكَانَ اللَّهُمَّ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرٍ﴾ [الفتح: ٢٥]، وذكرنا قول المفسرين فيها وهي: لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات يعيشون في مكة، ومختلطين مع المشركين لا تعرفونهم وقد تطوؤهم، أي تقتلوهم، لو أذن لكم في دخول مكة عنوة وبقتال أهلها؛ فيصيبكم من ذلك إثم لولا هذا المحذور لأذن - أي لأذن الله - لكم بدخول مكة وقتال أهلها.

فهذا صريح في أن درء المفسد مقدم على جلب المنافع، المنفعة هنا دخول مكة واحتلالها عنوة عن طريق القتال، والمفسدة في هذا الأسلوب في فتح مكة: قتل المؤمنين والمؤمنات، وأيضاً قتل المشركين الذين يُحتمل في بعضهم أن يُسلم فيدخل في رحمة الله، كما جاء في آخر الآية: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وعلى هذا فعلى الدعاة، وجماعتهم، أن يزنوا بالميزان الشرعي الدقيق المفسد المترتبة على انتهاجهم منهجاً معيناً أو سياسة معينة أو عملاً بالذات، ويزنون المنافع المترتبة على ما ذكرنا، فإذا رأوا المفسد: ويدخل في مفهوم المفسد: الأضرار، أكبر من المنافع وجب ترك ما هم عازمون على فعله أو انتهاجه من سياسة أو منهج، وهذا إذا كانت المنافع المرجوحة القليلة مؤكدة حصولها، أما إذا كان حصولها على وجه الاحتمال والشك مع بقاء احتمال حصول المفسد احتمالاً كبيراً، فهنا يتحتم الإقلاع عن العمل المراد فعله، والسياسة المراد اتباعها.

وعلى الدعاة وجماعتهم وهم يزنون بالميزان الشرعي الدقيق ما يترتب على عملهم من مفسد ومنافع ألا يتأثروا بضجيج الآخرين ولا برغبات المحيين، إن عليهم أن يكونوا كالمحلل في مخبره وهو يختبر مادة بين يديه ليعرف آثارها وصفاتها، كما هي بمعزل عن رغبات الآخرين وضجيجهم، فلا تؤثر فيه صيحات المتظاهرين خارج المختبر، ولا تحرفه عن حرصه في أن يعرف خواص وآثار المادة التي يفحصها، وكذلك يجب أن يكون الدعاة وجماعتهم في وزنهم أعمالهم لمعرفة أضرارها ومنافعها.

[المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة لزيدان ٣٦٥-٣٦٦].

## المبحث السابع

## مكانة أهل الحديبية

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: «قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «أَنْتُمْ [اليَوْمَ] خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَع مِائَةٍ، وَلَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ الْيَوْمَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَةِ (هِيَ السَّمَرَةُ الَّتِي وَقَعَتِ الْبَيْعَةُ تَحْتَهَا)». [البخاري في المغازي (٤١٥٤)، ومسلم في الإمامة (١٨٥٦، ١٨٥٨)، ومسند أحمد ٢٢/٢١٥ رقم ١٤٣١٣].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: أَخْبَرْتَنِي أُمُّ مَيْسَرٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»، قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَلِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ اللَّهُ ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿ثُمَّ نَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا﴾ [مريم: ٧٢]. [مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٦)، وأحمد ٤٥/٣٥٤ رقم ٢٧٣٦٢].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ أُمِّ مَيْسَرٍ عَنْ حَفْصَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى يَمُنْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿وَلِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؟ قَالَ: «أَلَمْ تَسْمِعِيهِ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ نَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا﴾ [مريم: ٧٢]». [ابن ماجه في الزهد (٤٢٨١)، ومسند أحمد ٤٤/٣٦ رقم ٢٦٤٤٠، ٤٤/٥٩٠ رقم ٢٧٠٤٢]. وقال الشيخان الألباني والأرنؤوط: صحيح.

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

[أبو داود في السنة (٤٦٥٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٦٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ومسند أحمد

٢٣/٩٣ رقم ١٤٧٧٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ».

[مسند أحمد ٢٣/٤١٠ رقم ١٥٢٦٢، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ عَبْدًا لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْكُو حَاطِبًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ».

[مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٥)، والترمذي في المناقب (٣٨٦٤)].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنْ أُمِّ مَيْسَرٍ قَالَتْ: جَاءَ غُلَامٌ حَاطِبٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ حَاطِبُ الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ، قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ».

[مسند أحمد ٤٤/٥٩٣ رقم ٢٧٠٤٥، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث صحيح].

وهي شهادة من الرسول ﷺ، وقد خلت هذه الغزوة من المنافقين وضعيفي الإيمان الذين ظنوا أن ذلك الذهاب لن يكون بعده عودة، اعتمدوا في تقديراتهم الجوانب المادية من حيث العدد والعدة، بعيداً عن حساب الإيمان فوصلوا إلى ذلك الظن؛ ولذا آثروا القعود وعدم مشاركة المسلمين في مذهبهم ذلك، وقد جاءت سورة الفتح لتؤكد شهادة الرسول ﷺ لأصحاب البيعة ولتفصح المنافقين، وتبين ما يعتذرون به قبل أن يقولوه: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ

أَيْدِيَهُمْ ﴿[الفتح: ١٠]﴾، سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴿[الفتح:]

وبعد هذا البيان لشرف الصحابة، إذ إن الذين يبايعون الرسول ﷺ إنها يبايعون الله تعالى.

وبعد بيان وضع المنافقين وضعيفي الإتيان، تأتي الآية الكريمة لتقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: أجل إنهم خير أهل الأرض]. [من معين السيرة للشامي ٣٦٨-٣٦٩].

ويقول د/ الغضبان: «وحيث نذكر أن عدد المسلمين في أحد كان سبعمائة، إذا استثنينا المنافقين، نجد أن العدد هنا قد تضاعف وزاد عن الضعف، بينما بلغ أربعة أضعاف أهل بدر. وتُجمع أكثر الروايات وأصحها على أن العدد ألفاً وأربعمائة أو ألف وخمسمائة، وهو ترجيح النووي بجبر الكسر وعدمه.

ولكن الذي يؤسفنا هو غياب الإحصاءات الفردية لجيل الحديبية، ففي بدر قدّم كُتّاب السيرة سجلاً إحصائياً كاملاً عن طبقة بدر بالأسماء، وآخر إحصاء شهدناه في السيرة هو سجل الشهداء السبعين في أحد، لكننا نفتقد بعد ذلك الإحصائيات لطبقة الخندق والحديبية.

هذا وإن افتقدنا هذه الأسماء الخمسمائة والألف، غير أننا أمام تكوين جديد وانصهار جديد بين السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وبين الذي اتبعوهم بإحسان أطلق القرآن عليهم اسم ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وهم الصحابة الذين مع رسول الله ﷺ كما في الآية القرآنية آخر سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا يعني تكون طبقة جديدة بعد طبقة بدر، هي طبقة الحديبية، تشكل نسيجاً واحداً ولحمة متكاملة، تنابع كل معالمها من فم رسول الله ﷺ:

١- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، وَكُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعَ مِائَةٍ. [متفق عليه خ ٤١٥٤، م ١٨٥٦].

٢- ويتحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمته الله شارحاً هذا النص بقوله: قَوْلُهُ: «قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ» هَذَا صَرِيحٌ فِي فَضْلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ ذَاكَ جَمَاعَةٌ بِمَكَّةَ وَبِالْمَدِينَةِ وَبِغَيْرِهِمَا.

وَعِنْدَ أَحْمَدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «لَمَّا كَانَ بِالْحَدِيثِيَّةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُوقِدُوا نَارًا بَلِيلٍ»، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: «أَوْقِدُوا وَاضْطَنِعُوا فَإِنَّهُ لَا يَذْرِكُ قَوْمٌ بَعْدَكُمْ صَاعَكُمْ وَلَا مَدَّكُمْ».

[مسند أحمد ١٧/ ٣٠٤ رقم ١١٢٠٨].

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحَدِيثِيَّةَ»، وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أُمِّ مُبَشَّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ».

[فتح الباري ٧/ ٤٤٤ برقم ٤١٥٤].

٣- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمَرَارِ، فَإِنَّهُ يُحِطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَمَّ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرَ»، فَاتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ أَحَدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، قَالَ: وَكَانَ [وَأِذَا هُوَ] رَجُلٌ [أَعْرَابِي] يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ. [مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨٠)].

٤- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «أَنَا كُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، كَقَطْعِ السَّحَابِ، خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «إِلَّا أَنْتُمْ». [مسند أحمد ٢٧/ ٣٢٢ رقم ١٦٧٥٨، وقال الشيخ الأرنؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة].

فنحن إذن أمام طبقة جديدة، هي طبقة الحديثية، لها سمات ثلاث كما في النصوص الصحيحة:

الأولى: أنهم خير أهل الأرض.

الثانية: غفر الله لهم جميعاً.

الثالثة: لا يدخل منه أحد النار.

وهم مكوّنون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين، ومن التابعين الذين اتبعوهم بإحسان، وهم الذين شملهم التعبير القرآني: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، وإن كان هذا التعميم لا يُدخل في صفهم أفراد المنافقين، وزعماءهم: عبد الله بن أبي، والجد بن قيس، وأمثالهم إن كان لهم وجود في هذا الصف، فقد ذكرت كتب السيرة الجد بن قيس هذا أنه لم يكن ممن بايع تحت الشجرة، وظل محتبئاً في ظل ناقته.

فالنصوص الصحيحة تتضافر كلها على أن أصحاب الشجرة، هم الذين بايعوا تحتها أو أصحاب الحديثية، هم الذي بايعوا يوم الحديثية، فقد تواترت الشهادة من رب السموات والأرض إذن أن هذه

المجموعة الفريدة في هذا الوجود، وهم خيرة أهل الأرض، وأنها كلها من أهل الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر، والذي تلكأ عن البيعة مختبئاً تحت ظل ناقته، وهذا يعني كذلك أن التفوق العظيم، الذي حققته التربية النبوية أدخل أربعة أضعاف جيل بدر في هذه الخصوصية الفريدة.

وحين نعمن النظر في تكوين هذه المجموعة الفريدة الخالدة، نقف عند تكوينها الجديد بالمقارنة مع تكوين أهل بدر، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَجَمِيعُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، مَنْ شَهِدَهَا مِنْهُمْ، وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرَهُ: ثَلَاثَةُ مِئَةِ رَجُلٍ وَأَرْبَعَةُ عَشَرَ رَجُلًا، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا، وَمِنْ الْأَوْسِ وَخَزْجَةَ رَجُلًا، وَمِنْ الْخُزْجِ مِئَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٥].

أما في الحديبية كانت من قبيلة أسلم كما في النصوص الصحيحة ثمن المهاجرين. قال ابن حجر: قَوْلُهُ: (ثَمَنَ الْمُهَاجِرِينَ) وَلَمْ أَعْرِفْ عَدَدَ مَنْ كَانَ مِنْهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً لِيُعْرَفَ عَدَدُ الْأَسْلَمِيِّينَ، إِلَّا أَنَّ الْوَاقِدِيَّ جَزَمَ بِأَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْلَمَ مِائَةُ رَجُلٍ، فَعَلَى هَذَا كَانَ الْمُهَاجِرُونَ ثَمَانِيًا. [فتح الباري ٧/ ٤٤٤].

فقد ارتفع إذن عدد المهاجرين إلى النصف من الجيش كله، وبهذا يكون الأنصار ثمانمائة كذلك. وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاثة وثمانين في بدر إلى ثمانمائة كان معظمه من القبائل العربية المجاورة، وهي قبائل صغيرة، إذا قيس بالقبائل الكبرى، لكن شبابها كانوا يغدون إلى المدينة ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقون التربية اليومية في المسجد، والتربية العملية في المعارك والغزوات، فيتدربون على الجندي الخالصة ويفقهون دينهم مباشرة من رسول رب العالمين، وينشؤون في ظلال القدوة العليا لهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويتنافسون في الطاعة والامتثال لأمر الله ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكبرى التي تخاذلت وتأخرت في الانضمام للإسلام.

فهذه أسلم وغفار كانت على رأس هذه القبائل.

فَعَنْ خُفَافِ بْنِ إِيمَاءَ بْنِ رَحْصَةَ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ لُحْيَانَ، وَرِعْلًا، وَذَكْوَانَ، عُصَيْيَةً، عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، أَسْلَمَ سَالَمَهَا اللَّهُ وَغِفَارُ عَفَرَ اللَّهُ لَهَا»، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ أَنَا قُلْتُ هَذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَهُ». [فضائل الصحابة رحمه الله للإمام أحمد ٢/ ٨٨١، وقال المحقق: إسناده صحيح].

ويرتفعون في مكان آخر إلى مقام المهاجرين والأنصار بصفاتهم القبلية لا بأفرادهم؛ لأن كثيراً من أفرادهم من المهاجرين.

فعن أبي رهم الغفاري رضي الله عنه، وكان من أصحاب النبي ﷺ في غزوة تبوك، وأن رسول الله ﷺ قال له: «فَمَا يَمْنَعُ أَحَدًا أَوْلَيْكَ حِينَ تَخْلَفَ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِهِ أَمْرًا نَشِيطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنْ أَعَزَّ أَهْلِي عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنِّي الْمُهَاجِرُونَ، مِنْ قُرَيْشٍ، وَالْأَنْصَارِ، وَأَسْلَمَ، وَغِفَارًا». [فضائل الصحابة رحمهم الله للإمام أحمد ٨٨٥ / ٢ برقم ١٦٧٤، وقال المحقق فيه: إسناده صحيح رواه مسلم وغيره. [المعجم الكبير ١٩ / ١٨٣ - ١٨٤].

فقد كان عيون المهاجرين عند رسول الله ﷺ من قريش، ومن أسلم، ومن غفار. ويعود الفضل - بعد الله - في ذلك إلى الرعيل الأول منهم، واللبنات الأولى التي انضمت إلى الدعوة إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي كان خامس من أسلم في مكة، ومضى داعيًا في قومه حتى جاءه بسبعين بيتًا من غفار يؤم بهم المدينة بعد أحد، وانتظر النصف الثاني فانضم بعد الفتح، وإلى بريدة بن الحصيبي الأسلمي رضي الله عنه، الذي تلقى رسول الله ﷺ قبل دخوله المدينة، فأسلم ومعه سبعون من قومه كذلك

أما القبائل الأخرى من مزينة، وجهينة، وأشجع، وخزاعة، فقد بدأ شبنها يفتدون إلى المدينة، لكن بأعداد ضئيلة، وبقي كيان القبيلة على الشرك، وبقي أعرابًا بعيدًا عن محضن التربية العظيم داخل المدينة، فلم يُتَحَ له هذا الفضل، والاعتراف من رحيق النبوة؛ ولهذا وجدنا الآيات التي نزلت في المخلفين من الأعراب كالصواعق على رؤوسهم؛ لتخلفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلامي الماضي إلى الحديبية، وكما في النص: «فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمُرُّ بِالْأَعْرَابِ فِيمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَيَسْتَفْرِهُمْ، فَيَسْأَعُلُونَ لَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَذَرَارِيَّتِهِمْ - وَهُمْ بَنُو بَكْرٍ، وَمَزِينَةُ، وَجُهَيْنَةُ - فَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: أَيْرِدُ مُحَمَّدٌ يَغْزُو بَنِي إِلَى قَوْمٍ مُعِيدِينَ مُؤَيَّدِينَ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ؟ وَإِنَّا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ، لَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ مِنْ سَفَرِهِمْ هَذَا أَبَدًا! قَوْمٌ لَا سِلَاحَ مَعَهُمْ وَلَا عُدَدٌ، وَإِنَّا يَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ حَدِيثِ عَهْدِهِمْ بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ يَبْدُرُ!». [المغازي للواقدي ٢ / ٥٧٤ - ٥٧٥].

وهؤلاء الذين سينصب عليهم جهد التربية الضخم في المرحلة القادمة. ويمكن القول: إن الكيان القبلي الذي انضم إلى الإسلام حتى الحديبية هم المهاجرون من قريش، والأوس والخزرج، الذين مثلوا طبقة الأنصار العظمى في المدينة، وقبيلة أسلم، وقبيلة غفار، لكن العدد الضخم الذي وصل إلى ثمانمائة إنما كان من أفراد من قبائل شتى هجرت قبائلها وقومها، وأتت تنضم إلى المجتمع الجديد في المدينة، وقد خلعت عصبتها وانتماءها السابق، وهو توفيق رباني خالص، حيث إن هؤلاء الأفراد قد خلصوا ابتداءً من العصبية القبلية المقيتة، وتخلوا عنها، وجاؤوا جنودًا في حزب الله، لا يربطهم بقبائلهم إلا الاسم، وقد تكون قبائلهم ممن يعلن الحرب لله ورسوله، فلا يضرهم ذلك، بل يحاربونها إذا اقتضى الأمر ذلك ويتربون في محضن النبوة العظيم على الولاء الخالص لله ورسوله، وهي



حكمة ربانية إذن أن يتأخر دخول القبائل في الإسلام لتتم التربية الخاصة والعناية الفائقة بكل فرد على حدة، توجيهاً وبناء خالصاً من شائبة الانتواء القبلي، كما هو الحال في بناء السابقين الأولين من المهاجرين. ثم انضموا إلى كتلة المهاجرين الأولين التي كانت تنمو باطراد وتتفوق على كتلة الأنصار فيم بعد، وها هي الآن تساويها في العدد، وهذا سر قول رسول الله ﷺ في الأنصار: «الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقْلُونَ، فَأَقْبِلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ».

[فضائل الصحابة عليهم السلام للإمام أحمد ٢/ ٨١٠، وقال المحقق: إسناده صحيح، رواه البخاري ٧/ ١٤٠ برقم ٣٨٠١، ومسلم وغيرهم). وكرشي وعييتي: بمعنى بطانتي وخاصتي، كما فسرهما ابن حجر].

ونلاحظ هنا أننا نفتقد كثيراً جداً من الأسماء الذين هم خيرة أهل الأرض، ولا تكاد تذكر إلا أسماء القيادات فيهم، وإن كان أهل الحديبية وأهل بدر فيما بعد قد انتهت إليهم قيادة المسلمين، وكانوا هم أهل الحِلِّ والعقد في الأمة، إضافة إلى مشيخة قريش وقادة الفتح منهم، ومن أجل هذا نبحت بعناية عن كل اسم حمل هذا الشرف العظيم الخالد بايع تحت الشجرة، وهو الذي سنسهب في الحديث عنه في الفقرة التالية). [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٢١٢-٢١٧].

ويقول د/ أبو خليل: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة بيعة مؤمن صادق، بيعة لسان وقلب، بيعة يد وبيعة روح، لا بيعة منافق كعبد الله بن أبي بن سلول، وهذا يذكرنا بقزمان، الذي قاتل في أحد بإخلاص فأبدع، ولكن قاتل عن أحساب قومه عصبية وعشائرية، فهو ليس من الصحابة مع أنه شهد أحدًا، وقال عنه ﷺ: «إنه في النار»، فهاهنا متحرراً». [صلح الحديبية لأبي خليل ٨٥].

## [١] فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الأول من غزوة الحديبية

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة غزوة الحديبية
٧	تمهيد: غزوة الحديبية وأهميتها في التاريخ الإسلامي والعالمي
١٧	الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٩	الفصل الأول: عرض المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٩	المبحث الأول: أحاديث جوامع لأحداث غزوة الحديبية وتوابعها
٣٢	المبحث الثاني: الجو العام قبل غزوة الحديبية:
٣٢	رسوخ جذور الإسلام في جزيرة العرب - حروب فاشلة
٣٣	الحرب الشاملة
٣٥	يهود خيبر فقط
٣٦	المبحث الثالث: سبب الغزوة وتاريخها
٣٦	بعد ست سنوات بالمدينة - صد المسلمين عن المسجد الحرام
٣٧	شوق المسلمين إلى مكة - العرب والكعبة - المسلمون والكعبة
٣٨	الفرصة المواتية لزيارة البيت الحرام - رؤيا الرسول ﷺ بدخول مكة
٤٠	تاريخ الخروج للعمرة
٤٢	المبحث الرابع: إعلان النبي ﷺ عن الخروج إلى العمرة:
٤٢	الخروج للعمرة
٤٣	استنفار العرب والأعراب - تثييط المنافقين
٤٤	القرآن يفضحهم - الصفوة المختارة - أمير على المدينة
٤٥	الاستعداد للطوارئ
٤٦	علامات النسك لا الحرب
٤٧	شاري بُدْن رسول الله ﷺ وراعيه - هدي الموسرين من الصحابة رضوان الله عليهم
٤٧	صلاة المسلمين بذئ الحليفة وإحرامهم بالعمرة
٤٨	النساء المعتمرات - والمنافقون أيضًا

الصفحة	الموضوع
٤٩	عدد المسلمين مع النبي ﷺ
٥٩	طلائع للاستكشاف ورجل الاستخبارات
٦١	المبحث الخامس: موقف المشركين في مكة:
٦١	كيف تلقت قريش النبأ؟
٦٢	إعداد قريش وخروجها لصد المسلمين
٦٤	قريش في برلمانها - لجنة المتابعة والتنفيذ
٦٥	قريش تستعد لمنع المسلمين بالقوة
٦٦	تنفيذ خطة الصد - المعسكر الرئيس لقريش
٦٧	إطعام المرتزقة
٦٨	المبحث السادس: في الطريق إلى مكة المكرمة:
٦٨	طريق الرسول ﷺ إلى مكة
٦٩	صيد أبي قتادة ؓ
٧١	الجيش الإسلامي بالأبواء
٧٢	الجيش الإسلامي بالجحفة
٧٣	الاستخبارات النبوية في مكة - عين رسول الله ﷺ الخزاعي يوافيه بخبر قريش
٧٤	النبي ﷺ يستشير أصحابه ؓ
٧٦	نذر الحرب - النبي ﷺ يتحاشى الصدام المسلح
٧٧	سلاح فرسان الفريقين في حالة المواجهة
٧٧	خالد يحاول مهاجمة المسلمين وقت الصلاة - صلاة الخوف في عسفان
٧٩	تَجَنَّبُ الرَّسُولُ ﷺ لِقَاءَ قُرَيْشٍ
٨٢	الحديبية بدلاً من التنعيم - النبي ﷺ وأصحابه ؓ يضلون الطريق عدة مرات
٨٣	الكلمة التي عُرضت على بني إسرائيل
٨٤	أصحاب الثنية المغفور لهم - بعيره أهم إليه من أن يستغفر له الرسول ﷺ
٨٥	أهل اليمن - عودة خالد إلى مكة
٨٦	حابس الفيل

الصفحة	الموضوع
٨٨	فصائل حراسة المسلمين
٩٠	المبحث السابع: المسلمون في الحديبية:
٩٠	موقع الحديبية، وهل هي من الحل أو من الحرم؟
٩٠	أ- ضبط لفظ الحديبية. ب- سبب تسمية ذلك الموضع بالحديبية
٩١	ج- موقعها
٩٢	د- هل الحديبية من الحل أو من الحرم؟
٩٢	نزول المسلمين الحديبية ومعجزة النبي ﷺ في تكثير ماء البئر
٩٦	الَّذِي نَزَلَ بِهِمُ الرَّسُولُ ﷺ فِي طَلَبِ الْمَاءِ
٩٧	شِعْرٌ لِنَاجِيَةٍ ﷺ يُنَبِّئُ أَنَّهُ حَامِلٌ سَهْمَ الرَّسُولِ ﷺ - موقف المنافقين من هذه المعجزات
٩٨	مقالة الجد بن قيس المنافق
٩٩	هدايا الخزاعين والغلام الذي أعجب الرسول ﷺ بفصاحته
٩٩	قصة كعب بن عجرة ؓ ونزول آية الفدية
١٠٤	بيان كفر من قال مطرنا بنوء كذا
١٠٦	الصلاة في الرحال
١٠٧	لباس النبي ﷺ في الحديبية
١٠٨	المبحث الثامن: مفاوضات السلام مع المشركين:
١٠٨	تفكير المعسكرين - المراسلات بين قريش والنبي ﷺ
١٠٩	ركب من خزاعة يسعى لإيجاد تقارب بين الطرفين
١١٠	مشادة بين الصديق ﷺ وابن ورقاء
١١١	بديل بن ورقاء يتأثر بقول النبي ﷺ وينصح قريشاً بقبول عرضه السلمي
١١٢	قريش ترفض عروض السلام النبوية
١١٢	عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ رَسُولٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ
١١٤	عروة بن مسعود في معسكر المسلمين
١١٨	مفارقة رائعة - يقرع عمه بقائم السيف
١٢١	فشل مفاوضات عروة بن مسعود

الصفحة	الموضوع
١٢١	ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة يا معشر قريش
١٢٢	عروة بن مسعود ينصح قريشاً
١٢٣	أول انشقاق في معسكر الشرك
١٢٤	مَكْرَزُ رَسُولِ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ
١٢٥	الْحُلَيْسُ بْنُ عَلْقَمَةَ الْكِنَانِيِّ رَسُولٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ
١٢٧	أخطر انشقاق في معسكر قريش
١٢٨	ما ينبغي هؤلاء أَنْ يُصَدِّدُوا عَنْ الْبَيْتِ - سيد الأحابيش ينذر قريشاً
١٣٠	البحث عن مخرج من الورطة
١٣٢	تحرشات قريش بالمسلمين وموقف المسلمين حيالها
١٣٢	اعتقال سبعين متسللاً من المشركين
١٣٤	النبي ﷺ يعفو عن المتسللين ويطلق سراحهم - نشوب القتال في الحديبية
١٣٤	قريش تقتل رجلاً من المسلمين - تحرشات أخرى لقريش بالمسلمين
١٣٦	المبحث التاسع: رسل الرسول ﷺ إلى قريش:
١٣٦	النبي ﷺ يبلغ قريشاً نواياه السلمية رسمياً
١٣٦	خِرَاشٌ ﷺ رَسُولُ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى قُرَيْشٍ
١٣٧	عمر بن الخطاب ﷺ يعتذر عن الوساطة
١٣٨	المبعوث النبوي عثمان ﷺ
١٤١	محاولة الاعتداء على عثمان ﷺ - عثمان ﷺ في معسكر قريش ببلدح
١٤٢	قيمة الجوار في الجاهلية - اجتماع عثمان ﷺ بسادات المشركين في بلدح
١٤٣	خلاصة الرسالة النبوية إلى قريش - عثمان ﷺ في مكة - عثمان ﷺ عند أبي سفيان
١٤٤	قريش تطلب من عثمان ﷺ أَنْ يَطُوفَ بِفِرْفَضٍ
١٤٤	مبعوث السلام يزور المستضعفين في مكة
١٤٥	عرض قريش على ابن أبي أن يطوف
١٤٦	المبحث العاشر: بيعة الرضوان:
١٤٦	إِسَاءَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ

الصفحة	الموضوع
١٤٧	تضاييق المسلمين من طول المكث - المسلمون واقتحام مكة بالقوة
١٤٨	بيعة الرضوان نقطة التحول في حل الأزمة
١٤٩	تحول المسلمين نحو الحرب، جعل قريشاً تطلب السلم
١٤٩	سبب اتخاذ النبي ﷺ القرار بإعلان الحرب
١٥١	مُبايعةُ الرَّسُولِ ﷺ النَّاسَ عَلَى الْحَرْبِ
١٥٢	سبب هذه البيعة
١٥٣	مكان البيعة - مبايعة عمر وابنه <small>حفيد علي</small>
١٥٤	ابن الخطاب <small>رضي الله عنه</small> يمسك بيد الرسول ﷺ للمبايعة - النبي ﷺ يبايع عن عثمان <small>رضي الله عنه</small>
١٥٦	من هو أَوَّلُ مَنْ بَايَعَ بيعة الرضوان - تخلف الجد بن قيس عن المبايعة
١٥٦	مَنْ ذَكَرَ من أصحاب الشجرة
١٥٨	عثمان <small>رضي الله عنه</small> يبايع النبي ﷺ تحت الشجرة
١٦٠	المبحث الحادي عشر: خرائط غزوة الحديبية
١٧٧	الفصل الثاني: الدروس المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٧٧	المبحث الأول: الدروس العقائدية:
١٧٧	١ - رؤيا الأنبياء حق ووحي وشرع
١٧٨	٢ - تحقق الرؤيا أو الدعاء في الوقت الذي يريده الله
١٧٩	٣ - الظن السيئ للأعراب
١٨١	٤ - الأعراب والمنافقون
١٨٤	٥ - الأخذ بالأسباب . ٦ - الإصرار على المبدأ بداية طريق النصر على الأعداء
١٨٤	٧ - مشيئة الله في الكون
١٨٥	٨ - للإنسان سجية وطبع، وللحيوان سجية وطبع . ٩ - الإنسان أولى بالطاعة من الناقة
١٨٥	١٠ - معجزة النبي ﷺ في تكثير ماء البئر
١٨٦	١١ - اللجوء إلى رسول الله ﷺ في الشدائد
١٨٦	١٢ - بيان كفر من اعتقد أن للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر
١٩٠	١٣ - رؤية الحقيقة الكبرى

الصفحة	الموضوع
١٩٢	١٤ - ليس بعد تعظيم الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> رسول الله <small>ﷺ</small> مزيد ولا غاية
١٩٤	١٥ - هل يجوز التبرك بفضلات الصالحين وآثارهم؟
١٩٦	١٦ - حكم التوسل والتبرك بآثار النبي <small>ﷺ</small>
١٩٩	١٧ - المباينة على الموت في سبيل الله من أعظم أسباب مرضاة الله
١٩٩	١٨ - السمة الجدية لهذا الدين
٢٠٠	١٩ - تعظيم الإسلام للبيت الحرام
٢٠٠	٢٠ - مهمة الرسول <small>ﷺ</small> ومستشاريه الميامين الصادقين <small>رضي الله عنهم</small>
٢٠١	٢١ - مُعَلِّمُ الموت والحياة
٢٠٥	المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية:
٢٠٥	١ - بواعث وأسباب غزوة الحديبية
٢١٢	٢ - شوق ورؤيا صادقة
٢١٤	٣ - لحب الوطن أثر في سلوك الإنسان
٢١٧	٤ - لماذا لم يُجْرَم أبو قتادة <small>رضي الله عنه</small> ؟ ٥ - منزلة عبّاد بن بشر <small>رضي الله عنه</small> قائد طليعة المسلمين
٢١٧	٦ - مقدمات المعاهدة لم تكن تؤذن بشيء مما كان فيها وما كان بعدها
٢٢١	٧ - بداية مرحلة متميزة من تاريخ الدعوة الإسلامية
٢٢٣	٨ - أمور مستفادة من دعوة الأعراب وموقفهم
٢٢٤	٩ - أنموذج من التربية النبوية
٢٢٥	١٠ - طبيعة المشركين العدوانية
٢٢٦	١١ - التجرد
٢٢٧	١٢ - رسول الله <small>ﷺ</small> يمدّ يد المسالمة لأهل مكة ويخرج معتمرًا ولكن البغي أبى على قريش أن تفتح لنفسها باب السلام
٢٣١	١٣ - صلة الأرحام. ١٤ - رَدُّ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ وَكَوْنُ نَسَبٍ إِلَى غَيْرِ الْمُكَلَّفِ
٢٣٢	١٥ - حَبَسَهَا اللَّهُ <small>ﻟَﻤَّا</small> سَابَسَ الْفِيلَ
٢٣٤	١٦ - الشجاعة والحزم. ١٧ - جيل الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> وجيل بني إسرائيل
٢٣٥	١٨ - كِبَرُ كَاذِبٍ

الصفحة	الموضوع
٢٣٦	١٩ - الاقتصاد في استعمال الماء. ٢٠ - الخلق العظيم
٢٣٨	٢١ - قضاء الله ﷻ بعدم القتال. ٢٢ - أثر الظهور بالمظهر السلمي
٢٣٩	٢٣ - ما يستفاد من سفارة بديل الخزاعي
٢٤١	٢٤ - في العرب غلظة وجفاف
٢٤٢	٢٥ - ما يستفاد من سفارة عروة
٢٤٥	٢٦ - ما يستفاد من قصة المغيرة ﷺ. ٢٧ - الغدر خلق ذميم يرفضه الإسلام
٢٤٥	٢٨ - حبل الإسلام ومودته أقوى من مودة القريبى
٢٤٨	٢٩ - أهمية السلوك وتأثيره على الآخرين. ٣٠ - ما يستفاد من سفارة الحليس
٢٥٠	٣١ - المعرفة بمعادن الرجال
٢٥٠	٣٢ - أثر هذه السياسة الحكيمة المحكمة على الموقف المتأزم بين المجتمع المسلم وبين قريش
٢٥١	٣٣ - ما يستفاد من سفارة خراش ﷺ
٢٥٢	٣٤ - وضع الأمور في نصابها
٢٥٣	٣٥ - تعظيم المسؤولية. ٣٦ - رأي حول إرسال عمر ﷺ سفيراً إلى المشركين
٢٥٥	٣٧ - الأمور المستفادة من سفارة عثمان ﷺ
٢٥٩	٣٨ - الظن الحسن. ٣٩ - عدم تيقن الرسول ﷺ من موت عثمان ﷺ
٢٦٠	٤٠ - أهمية انضباط الأفراد. ٤١ - حقيقة مهمة عثمان ﷺ
٢٦٢	٤٢ - خطورة الإشاعة والإرجاف بين المسلمين
٢٦٢	٤٣ - تعامل الرسول ﷺ مع الإشاعات
٢٦٢	٤٤ - دلالة بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ. ٤٥ - جودة معدن الصحابة ﷺ
٢٦٣	٤٦ - امتحان الصدق والالتزام
٢٦٤	٤٧ - المؤمن يجب أن يتصرف في كل موقف بما يناسبه
٢٦٥	٤٨ - على أي شيء كانت البيعة؟
٢٦٩	٤٩ - من هو أول من بايع بيعة الرضوان؟
٢٧١	٥٠ - مبررات البيعة. ٥١ - الثبات على الحق



الصفحة	الموضوع
٢٧٣	٥٢- البيعة كانت طريقاً لمعرفة مدى رغبة الصحابة <small>رضي الله عنهم</small> في قتل المشركين
٢٧٣	٥٣- بيعة الرضوان انتصار للإسلام وللمسلمين
٢٧٦	٥٤- بين الجبناء والمخذلين
٢٧٧	٥٥- العفو عند المقدرة. ٥٦- أثر البيعة في عودة قريش إلى رُشدِها وسعيها إلى الصلح
٢٧٨	٥٧- تراجع قريش عن القتال كان لمصلحتها
٢٧٩	٥٨- دعوهم يكن لهم الفجور. ٥٩- تعرية قريش على حقيقتها
٢٨٠	المبحث الثالث: الدروس الفقهية:
٢٨٠	١- جواز خروج النساء في الغزو. ٢- الإِحْرَامُ بِالْعُمْرَةِ مِنَ الْمَيْمَاتِ أَفْضَلُ
٢٨١	٣- الصيد لغير المحرم
٢٨٥	٤- القضايا الأربعة على طريق العمرة
٢٨٦	٥- حكم الاستعانة بالمشرك
٢٨٩	٦- الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال
٢٩٠	٧- مشروعية الشورى
٢٩٦	٨- جواز سبي ذراري المشركين. ٩- مشروعية اليمين
٢٩٦	١٠- اسْتِحْبَابُ الْحَلْفِ عَلَى الْحَبْرِ الدِّينِيِّ الَّذِي يُرَادُ تَأْكِيدُهُ
٢٩٧	١١- تقرير مبدأ تعظيم حرمة الله. ١٢- صلاة الخوف
٣٠٤	١٣- أهمية الصلاة جماعة
٣٠٤	١٤- مشروعية الصلاة في الرحال
٣٠٥	١٥- التيسير على الناس
٣٠٧	١٦- حُكْمُ الْقِيَامِ عَلَى رَأْسِ الْكَبِيرِ وَهُوَ جَالِسٌ
٣٠٩	١٧- مَالُ الْمُشْرِكِ الْمُعَاهِدِ مَعْصُومٌ. ١٨- اخْتِمَالُ قِلَّةِ أَدَبِ رَسُولِ الْكُفَّارِ
٣١٠	١٩- جَوَازُ التَّصْرِيحِ بِاسْمِ الْعَوْرَةِ إِذَا كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ. ٢٠- البيعة مشروعية
٣١١	٢١- مشروعية بيعة النساء
٣١٤	٢٢- الوفاء بالبيعة واجب. ٢٣- جواز تكرار البيعة
٣١٤	٢٤- فوائد ذكرها الإمام ابن القيم

الصفحة	الموضوع
٣١٦	المبحث الرابع: الدروس السياسية:
٣١٦	١ - تحليل بيئة الحديبية
٣٢٠	٢ - المبادرة الواعية
٣٢٤	٣ - المنهج الإسلامي العملي في معالجة القضايا. ٤ - جزيرة العرب قبل الصلح
٣٢٦	٥ - الصف الداخلي القوي من خلال مقدمات صلح الحديبية
٣٣٤	٦ - تقرير مبدأ الحوار
٣٣٥	٧ - فتح أبواب الحرية للشعوب
٣٣٦	٨ - تقرير مبدأ تعظيم حرمان الله
٣٣٨	٩ - القصواء تفتح باب المفاوضات
٣٤٣	١٠ - تمتع النبي ﷺ بقدر وافر من الفراسة، وتصرفه المناسب حيالها
٣٤٤	١١ - يدد شمل عدوه بالرأي لا بالسيف
٣٤٧	١٢ - قریش... والصلح
٣٤٨	١٣ - حويطب ومركز يستشفان الأمر. ١٤ - مفهوم الدبلوماسية
٣٤٩	١٥ - التمهيد للتفاوض
٣٥٢	١٦ - المعاهدات السياسية والمفاوضات السياسية
٣٥٧	١٧ - الرغبة في السلم والمهادنة لا تعني أبداً المساومة على المبادئ
٣٥٨	١٨ - عثمان بن عفان ؓ المبعوث السياسي
٣٦٣	١٩ - القدرة على التفاوض من أهم صفات العظماء
٣٦٥	٢٠ - أهمية اجتماع الأمة الإسلامية
٣٦٧	٢١ - القيم التفاوضية في الإسلام
٣٧٥	٢٢ - كسب الدعاية الدولية سياسياً وعسكرياً
٣٧٧	المبحث الخامس: الدروس العسكرية:
٣٧٧	١ - المرجحات لتسمية هذه الحادثة بغزوة الحديبية
٣٧٩	٢ - تنظيم الجيش الكبير إلى وحدات قتالية صغيرة
٣٨٠	٣ - أهمية الاستخبارات العسكرية. ٤ - التخطيط لمباغطة العدو

الصفحة	الموضوع
٣٨١	٥ - فكرة تمزيق جبهة العدو وإرباكه. ٦ - الحيلة والحذر
٣٨٢	٧ - التحوُّط للسلامة والأخذ بالأسباب المشروعة والحربُ ليست هدفًا بذاتها
٣٨٣	٨ - حس خطر المواجهة. ٩ - النجاح في تلافي الصدام الذي لم يردده ولم يخطط له
٣٨٥	١٠ - سرايا للحراسة والاستطلاع
٣٨٦	١١ - ضبط النفس ساعة الاستفزاز
٣٨٨	١٢ - العدو لا يردده الظهور بالمسألة. ١٣ - استيلاء المشركين على الماء بالحديبية
٣٨٩	١٤ - الحرب النفسية في مفاوضات عروة بن مسعود
٣٩٨	١٥ - أهمية الطاعة والانضباط للجند
٣٩٩	المبحث السادس: الدروس الدعوية والإعلامية:
٣٩٩	١ - تداول الخبر وانتشاره
٤٠١	٢ - دور المنافقين واليهود في تثبيط الهمم
٤٠٢	٣ - الصنفة المختارة تستجيب
٤٠٣	٤ - أن يكون الدعاة أسخياء كرماء. ٥ - المظاهر الإعلامية في شعائر العمرة
٤٠٥	٦ - مهمة إعلامية هامة
٤٠٨	٧ - معاندي الدعوة إلى زوال
٤٠٩	٨ - الأثر الإعلامي الناتج عن تغيير خط سير الرحلة
٤١٢	٩ - القوة في الحق وتأيد الدعاة
٤١٢	١٠ - التحليل الإعلامي لرسالة بديل بن ورقاء الشفوية
٤١٥	١١ - تأييد الله ﷻ للدعاة بإظهار الكرامات. ١٢ - أهمية معرفة طبائع المدعويين
٤١٦	١٣ - الخطة الإعلامية في مواجهة الحليس
٤٢٤	١٤ - مراجعة الأمير فيما يطلبه لا تُعارض واجب طاعته
٤٢٥	١٥ - فضل الدعاة والعاملين للإسلام. ١٦ - فَهْمُ القرشيين حقيقة الدعوة الإسلامية
٤٢٦	١٧ - الشائعات وأهميتها الإعلامية
٤٣٠	١٨ - أساليب مقاومة الشائعات
٤٣٣	١٩ - درء المفاسد مقدم على جلب المنافع

الصفحة	الموضوع
٤٣٤	المبحث السابع: مكانة أهل الحديبية
٤٤١	فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الأول من غزوة الحديبية
٤٥٢	فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الأول من غزوة الحديبية

## [٢] فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الأول من غزوة الحديبية

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	تمهيد: غزوة الحديبية وأهميتها في التاريخ الإسلامي والعالمي
١٧	الباب الأول: المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٩	الفصل الأول: عرض المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٩	المبحث الأول: أحاديث جوامع لأحداث غزوة الحديبية وتوابعها
٣٢	المبحث الثاني: الجو العام قبل غزوة الحديبية
٣٦	المبحث الثالث: سبب الغزوة وتاريخها
٤٢	المبحث الرابع: إعلان النبي ﷺ عن الخروج إلى العمرة
٦١	المبحث الخامس: موقف المشركين في مكة
٦٨	المبحث السادس: في الطريق إلى مكة المكرمة
٩٠	المبحث السابع: المسلمون في الحديبية
١٠٨	المبحث الثامن: مفاوضات السلام مع المشركين
١٣٦	المبحث التاسع: رسل الرسول ﷺ إلى قريش
١٤٦	المبحث العاشر: بيعة الرضوان
١٦٠	المبحث الحادي عشر: خرائط غزوة الحديبية
١٧٧	الفصل الثاني: الدروس المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة الحديبية (قبل الغزوة):
١٧٧	المبحث الأول: الدروس العقائدية
٢٠٥	المبحث الثاني: الدروس التربوية والأخلاقية
٢٨٠	المبحث الثالث: الدروس الفقهية
٣١٦	المبحث الرابع: الدروس السياسية
٣٧٧	المبحث الخامس: الدروس العسكرية
٣٩٩	المبحث السادس: الدروس الدعوية والإعلامية
٤٣٤	المبحث السابع: مكانة أهل الحديبية
٤٤١	فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الأول من غزوة الحديبية
٤٥٢	فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الأول من غزوة الحديبية